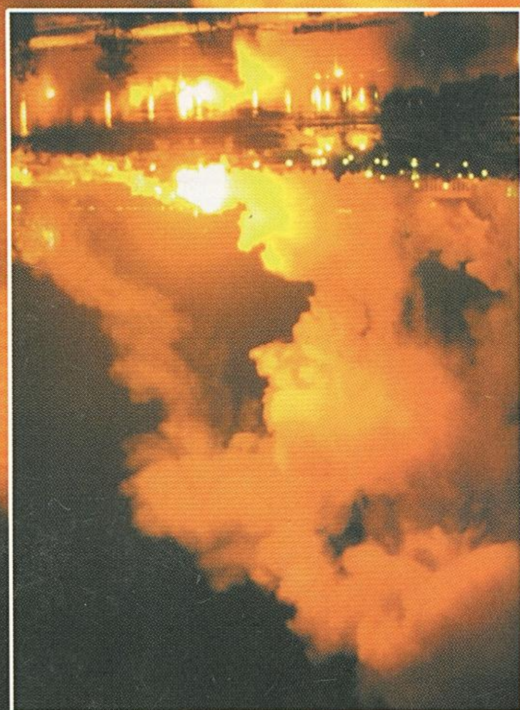
توماس فريدمان

العالم في عصر الإرهاب



منشورات الجمل

توماس فريدمان: **العالم في عصر الإرهاب**

توماس فريدمان

العالم في عصر الإرهاب

ترجمة: محمد طعم

منشورات الجمل

ولد **توماس فريدمان** سنة ١٩٥٣، في مدينة مينيابوليس، ولاية مينيسوتا الأميركية. حصل سنة ١٩٧٥ على إجازة في الفنون والدراسات المتوسطية من جامعة براندايس. وفي سنة ١٩٧٨، تحصل على ماجستير في الفلسفة والدراسات الشرق أوسطية المعاصرة، من جامعة أوكسفورد. إلتحق بجريدة نيويورك تايمز سنة ١٩٨١. عُيِّن مديراً لمكتب الجريدة في بيروت سنة ١٩٨٢. من ١٩٨٤ حتى ١٩٨٨، عمل كمراسل للجريدة في القدس ومدير مكتبها في إسرائيل. حصل مرتين على جائزة بوليتزر لأفضل مراسل أجنبي؛ من لبنان سنة ١٩٨٣، ومن إسرائيل سنة ١٩٨٨. قبل أن يصبح صاحب مقال ثابت في الجريدة يُعنى بالشؤون الخارجية سنة ١٩٩٥، عمل كمدير مكتب واشنطن لمراسلي الجريدة للشؤون الإقتصادية وكمدير مراسليها من البيت الأبيض. سنة ٢٠٠٢، حصل على جائزة بوليتزر لأفضل المعلقين. سنة ٢٠٠٥، انتُخب ليصبح عضواً في اللجنة المشرفة على منح جائزة بوليتزر. من مؤلفاته: **من بيروت إلى القدس** (١٩٨٩)، عن دار فرار، شتراوس وجيرو؛ **ليكسوس وشجرة الزيتون** (١٩٩٩)، عن دار النشر نفسها. وفي سنة ٢٠٠٢، صدر له كتاب **مواقف وأبعاد: استكشاف العالم بعد ١١ سبتمبر**، (٢٠٠٢) عن دار انكور بوكس. آخر كتبه: **العالم مسطح: تاريخ موجز للقرن الواحد والعشرين** (٢٠٠٥)، عن دار فرار، شتراوس وجيرو.

ولد **محمد طعم** سنة ١٩٦٨ في القيروان، تونس. حصل على الإجازة في الحقوق سنة ١٩٩٦، من جامعة دمشق، سوريا. نال شهادة في الكتابة الإبداعية (بالإنكليزية) سنة ٢٠٠٣، من جامعة جورج تاون، واشنطن، الولايات المتحدة الأميركية. بين ٢٠٠٣– ٢٠٠٤، تدرب مع شركة هنريكسون – سيغل للاستشارات القانونية، واشنطن، الولايات المتحدة الأميركية. يعمل حالياً كمدرس لغة عربية، ومترجم وباحث مع كل من مؤسستي «معهد تعليم اللغات»، ومؤسسة «العاصمة للاتصالات» بواشنطن.

توماس فريدمان: **العالم في عصر الإرهاب**، ترجمة: محمد طعم، الطبعة الأولى

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

إلى ابنتيّ

أورلي وناتالي

مقدمة: ألبوم كلمات

اعتقدت لمدة طويلة قبل وقوع أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، أن مهنتي كمحرر قسم الشؤون الدولية لجريدة «نيويورك تايمز» تعدّ من أفضل المهن لما توفره من متعة السفر وإبداء الرأي والدخل المادي. موقفي المبدئي لم يتبدل منذ ١١ سبتمبر/أيلول، إلا أني ومن الآن فصاعدا لست متأكدا من صحة وصف ما أقوم به بالممتع، بل «إجباري» بصفة أدق. لقد كان الإغراء الناتج عن حرية التحري والكتابة حول أكبر حدث إخباري ملحّاً باستمرار.

منذ البدء كان لدي دافعان اثنان للكتابة: أولهما ناتج عن الرغبة في فهم من هم هؤلاء الانتحاريون التسعة عشر الذين دخلوا في حياتنا يوم ٩/١١، وما هو دافعهم للقيام بما قاموا به، ثم ما هو دافع شريحة كبيرة من العالم العربي والإسلامي لمساندتهم في ذلك. إذ تبين لي أننا نحن، كأمة، لا نستطيع الإجابة عن ذلك السؤال الكبير: من هم؟ وأننا لن نصبح آمنين، ولن نقدر على اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية أنفسنا من ١١/ ٩ آخر. أما الدافع الثاني فهو الرغبة في فهم أفضل - وبالتالي التعريف أفضل بأنفسنا - من نحن أمريكا؟ لقد حاولت الكشف عن خصائصنا كدولة - خصائص ساعدتنا على تجاوز هذه الأزمة وساعدتنا على فهم السبب الذي جعلنا هدفا لغضب الآخرين وحقدهم.

يعتبر هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة نتاج رحلة شخصية. يحتوي جزؤه الأول على مقدمة وإحدى عشرة مقالة كتبت جميعها قبل أحداث ٩/١١، راجيا أن تساعد الآراء والتحليلات الواردة فيها القارئ على فهم أفضل لأحداث ٩/١١، ولماذا عالجتُها بتلك الطريقة. ويحتوي الجزء الثاني على جميع مقالاتي تقريبا، التي صدرت في الفترة الممتدة بين ٢٠٠١/٩/١٣ و٢٠/ ٤/ ٢٠٠٣، والتي أوردتها ضمن ترتيب زمني حسب تاريخ نشرها في «نيويورك تايمز». أما الجزء الثالث فهو عبارة عن مذكرات جمعتها خلال رحلة إلى العالم العربي والإسلامي قمت بها بعد أحداث ٩/١١، مباشرة.

كصحافي، يحق لي النشر مرتين في الأسبوع فقط بمعدل ٧٤٠ كلمة لكل مقالة. إلا أني راكمت مواد ومقابلات تتجاوز بكثير المحتوى المسموح بنشره في مقالة. بعد ٩/١١ بدأتُ بجمع بعض هذه المواد على شكل مذكرات قد تساعد القارئ على معرفة ما كان يدور حولي أثناء كتابة مقالات السنة الأولى بعد ٩/١١، وشرح كيف ولماذا طورتُ الآراء والأفكار التي عرضتها في مقالاتي. وبعبارة أخرى كانت تلك المواد والمقابلات عبارة عن محاولة مني لوضع النقاط على الحروف لاستيعاب ما يحدث.

لي إضافة وجيزة حول مهنة الصحفي: الشخص الوحيد الذي يطلع على مقالتيّ الأسبوعيتين هو المدقق الصحفي للمراجعة وتصحيح الأخطاء اللغوية، وبدون الإدلاء برأيه حول المحتوى. وبالتالي فإن المسؤولية كاملة تقع على عاتقي، لي مطلق الحرية متى وإلى أين أسافر ولي حرية كاملة في اتخاذ أي موقف حول أي موضوع. ومثلما ذكرت، إنها مهنة رائعة. ومنذ أن صرت محرر الشؤون الدولية سنة ١٩٩٥ ،لم يحدث أبدا أن تحدثت مع ناشر «نيويورك تايمز» عن أي رأي تبنيت سواء قبل أو بعد أي مقالة كتبت. إذ إنه لم يرسلني أحد إلى أفغانستان، باكستان، إسرائيل، أو أندونيسيا. كان دائما دافعي الوحيد هو إحساسي العام بمكان الخبر المهم وطرح الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة أو دراسة. فإضافة إلى امتلاكي الحرية المطلقة، هناك ميزانية غير محدودة تقريباً تحت تصرفي.

كمحرر الشؤون الدولية، مررت بعدة مراحل، ابتداء بالتركيز على الاقتصاد ثم مجمل ظاهرة العولمة ثم حلف الناتو والشرق الأوسط والصين وموضوع البيئة ثم أحداث ٩/١١، وما لها من جاذبية خاصة لأنها جمعت بين اهتمامين شخصيين بالنسبة لي وهما العولمة والشرق الأوسط. في السنة الأولى التي تلت ٩/١١، انصب اهتمامي - مثلما تشير المقالات - على العالم الاسلامي والصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. أما في السنة الثانية التي تلت ٩/١١، فقد اتسعت دائرة اهتماماتي لتشمل بالإضافة إلى المواضيع السابقة، النقاش الدولي حول الحرب على العراق بكل انعكاساتها. كما أني آمل أن يصدر عن القراء أحد ردود الفعل الأربعة الآتية: كأن يعلق أحدهم قائلا: «لم أكن أعرف ذلك» لأنه من الممتع أحيانا أن تكون مدرّسا. أو كأن يختم أحدهم القراءة قائلاً: «كما تعلمون، لم أنظر إلى الأمر من تلك الزاوية من قبل» وهو أمر مرضي أن تكشف أبعاد مختلفة للحدث - أي حدث - . وهناك رد فعل آخر - وهو المفضل لدي - كأن يعلن أحدهم قائلاً: «لقد قلت تحديدا ما كنت أريد قوله، لكن لم تكن عندي المقدرة على التعبير مثلك». وأخيراً هناك رد فعل منتظر، وهو كأن يقرأ أحدهم ما كتبت

ويقول: «أكرهك، وأكره آراءك». لأن أي مقال يتم قياسه بنسبة الرافضين والقابلين على السواء. كما أني أسعى إلى التحدي والاستفزاز وأحياناً إزعاج القراء. لكن ليس لمجرد الإزعاج، بل أن أقوم بذلك وأنا كلّي وضوح وصراحة حول آرائي، لأن الخوف سوف يعيقني في أداء واجبي. وأخيرا، أرجو أن يصدر عن القراء أحد الردود الأربعة المذكورة آنفا.

لم تكن الغاية من هذه المقالات والمذكرات تأريخ أو دراسة لأحداث ٩/١١، أو لغزو الولايات المتحدة للعراق، وكل العوامل المؤثرة في ذلك، وذلك لأني لست مؤرخا. إلا أني أرجو أن توفر هذه المقالات والمذكرات مواد خام المؤرخين، كرحلة صحافي في عالم مابعد ٩/١١. رحلة امتدت من أطلال برجي مركز التجارة العالمي بمانهاتن حتى القدس، من أم قصر جنوب العراق حتى مدارس الباكستان، ومن القاهرة حتى الأحياء المسلمة ببلجيكا. أملي أن تشكل هذه المقالات والمذكرات ألبوم كلمات - محاولة تدوينية - لتجربة ٩/١١، لأن هناك عدة «ألبومات فوتوغرافية» جمعت لتذكر الناس وأولادهم وأحفادهم بما تعنيه أحداث ٩/١١.

مدخل: الحدث الأكبر

أعتبر نفسي من أشد المؤمنين بفكرة الحدث الأكبر، وبمبدأ أننا جميعا نحمل معنا منظارا كبيرا ومنظومة آراء ننظر من خلالها إلى العالم، ونفهم أحداثه، وبالتالي نحديد ما هو مهم منها وما هو غير مهم. فأحداث ١١/٩ لم تأت من فراغ، بل وقعت ضمن إطار النظام العالمي الجديد - نظام غير قادر على تفسير كل شيء - إلا أنه قادر على إيضاح وربط أكثر من حدث، في أكثر من مكان وفي أوقات مختلفة. هذا النظام العالمي الجديد اسمه العولمة، التي حلت في نهاية الثمانينات كبديل عن نظام الثنائية القطبية السابق، أو نظام الحرب الباردة. ومن خلال هذا النظام العالمي الجديد كمنظار عام نظرتُ إلى أحداث ١١/٩.

تعرف العولمة بأنها اندماج قسري للأسواق، ونظم النقل، ونظم الاتصالات بدرجة لم تعرف من قبل - بطريقة تخوّل الشركات والدول والأفراد أن يتواصلوا بشكل أسرع وأبعد وأعمق، وبأقل كلفة أكثر من أي وقت مضى.

وللعولمة مواصفات أساسية - تختلف عن تلك التي للحرب الباردة - رغم أني تناولتها بالشرح والتفصيل في كتاب سابق، سأشير إليها باختصار هنا لضرورة الحصول على فهم أفضل لأحداث١١/٩.

كان التقسيم من أهم خاصيات الحرب الباردة. وكان العالم مقسما ومجزأً، سواء أكان ذلك بالنسبة للشركات أو الدول. ففي نظام الحرب الباردة تحدد الأخطار كما الفرص إلى أي من الحلفين تنتمي، مثلما كان جدار برلين فاصلا رمزيا بين كلا القطبين. وهو ما يختلف عن نظام العولمة القائم على الاندماج القسري الذي جعل من عالم اليوم متداخل المصالح والفرص والأخطار، ويمكن اختزال العولمة بعبارة واحدة: شبكة الإنترنت التي نقلتنا من نظام عالمي مبني على التجزئة إلى منظومة كونية بنيت أساساً على الاندماج في شبكة الانترنت.

في الحرب الباردة أمكن الاستنجاد بما كان يدعى بـ«الخط الساخن» كرمز في حد ذاته لنظام الثنائية القطبية حيث كان هناك طرفان مسؤولان، هما قادة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. أما في نظام العولمة فإننا جميعا نلجأ إلى شبكة الإنترنت كرمز لحالة الاندماج الكوني حيث لا أحد مسؤول، وحيث يتأثر الجميع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بهذه المنظومة الجديدة. كما أنه لا يمكن لأحد الاستفادة من ذلك على المدى الطويل، إذ بقدر ما تنتشر العولمة بقدر ما تنتج ردود فعل عكسية من قبل الذين تم إغراقهم وتدجينهم، وكذلك من قبل الذين عجزوا عن الاستجابة لمتطلباتها. كما أن هناك فارقا أساسيا لنظام الثنائية القطبية عن نظام العولمة يتمثل في مؤسسة اتخاذ القرار لدى كليهما، باعتباره نظاماً قام على فكرة الدولة - الأمة، بحيث يتم التعامل وفق وعبر كل دولة على حدة. أي أنه كان عبارة عن دراما مواجهة بين الأمم حسب توازنات مصالحها. وكنظام كوني كان هناك طرفان مركزيان للمحافظة على التوازن القطبي هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي سابقا.

وعلى العكس من ذلك، فإن النظام العالمي الجديد بني على ثلاثة أسس متداخلة ومؤثرة في بعضها البعض. أول هذه الأسس هو الحالة التقليدية للدولة - الأمة: إذ نجد الولايات المتحدة في هذا النظام العالمي الجديد كقوة أحادية، وما على سائر الدول إلا أن تتماثل معها بدرجة أو بأخرى وما ينتج عن ذلك من خلل في موازين القوة وتضارب للمصالح. أو إن شئت بين سائر الدول في مواجهة بعضها البعض وهو ما يفسر معظم التقارير الاخبارية التي تطالعنا بها الصحف يوميا كالمعادلة الروسية - الصينية، إيران والعراق، أو الهند وباكستان.

ويتمثل الأساس الثاني لنظام العولمة في كيان الدولة - الأمة والسوق العالمية التي تشمل ملايين المستثمرين القادرين على تحويل أموالهم حول العالم بكبسة زر، وهو ما يسمى بالقطيع الالكتروني الذي يجتمع في مراكز الأسواق المالية العالمية: وول ستريت، هونغ كونغ، لندن وفرانكفورت. وهي ما أسميها بالأسواق العملاقة التي لها تأثير جبار وفوري على كيانات الدولة - الأمة إلى درجة إسقاط حكوماتها. مثلا، من أخرج سوهارتو من الحكم في إندونيسيا سنة ١٩٩٨؟ لم يقع ذلك بفعل تدخل أي حكومة أخرى، بل تم بعد أن سحبت هذه الأسواق العملاقة تأييدها لحكومته بتخلّيها عن دعمه اقتصاديا. كما أنه لا يمكننا استيعاب وفهم عناوين الصحف إذا لم نأخذ تأثير هذه الأسواق في الحسبان. فإذا كان بإمكان الولايات المتحدة أن تدمر أي دولة بالقنابل، فبإمكان هذه الأسواق القيام بذلك عن طريق تدمير بنيتها الاقتصادية. وبعبارة

أخرى، ليست الولايات المتحدة إلا لاعبا رئيسيا يقتصر دورها على التزام الجميع بقواعد اللعب، إلا أنها لا تملك القدرة المطلقة على التحكم في مسار اللعب.

أما الأساس الثالث، الذى يجب أن يحظى باهتمام بالغ لأنه العامل الأهم والأجدى لفهم أحداث ١١ أيلول، فهو عبارة عن علاقة الأفراد والجماعات بكيان الدولة - الأمة. وذلك لأن العولمة بقدر ما أزاحت الحواجز والعوائق التقليدية، فإنها بالقدر ذاته سمحت للأفراد بأن يؤثروا في ما يجري في الأسواق العالمية وفي صنع القرار الدولي بشكل غير مسبوق، وذلك إما بالسماح للأفراد القيام بذلك عبر الإنترنت، وبأثر فوري وبدون كلفة تقريبا، أو بتحويل الأموال وشراء الأسلحة إلكترونيا من وعبر مناطق مختلفة من العالم. وباختصار، صار بإمكان الأفراد والجماعات أن تنشط على الساحة العالمية بكل حرية وبدون إذن أو موافقة أية دولة.

وهكذا، فاليوم ليس لدينا فقط قطب عالمي أحادي واقتصاد كوني متداخل، بل لدينا أيضا أشخاص أسميتهم «ذوي النفوذ الخارق»، إلا أن بعض هؤلاء الأفراد المتنفذين غاضب، وبعضهم الآخر أشخاص متنفذون لكنهم ذوو نوايا حسنة. لكن بإمكان أي منهم أن ينشط ويؤثر على الساحة العالمية بكل جدوى وفاعلية.

في أواخر التسعينات عندما أعلن أسامة بن لادن الحرب على الولايات المتحدة بتفجير سفارتيها في تنزانيا وكينيا، قام سلاح الجو الامريكي بقصف صاروخي لأحد معسكراته في أفغانستان وكأنه عبارة عن دولة بحد ذاته. لنفكر في الأمر مليّا: في يوم واحد، في سنة ١٩٩٨، أطلقت الولايات المتحدة ٧٥ صاروخاً، بكلفة مليون دولار لكل صاروخ، على شخص واحد! وتلك كانت أول حرب في التاريخ تقع بين دولة عظمى وشخص. أما أحداث ١١ أيلول فلم تكن سوى المعركة الثانية في تلك الحرب.

لمّا سئلت جودي ويليامز، الفائزة بجائزة نوبل للسلام لسنة ١٩٩٧ عن الجهود التي بذلتها في تأسيس تحالف أممي موقّع من قبل ١٢٠ دولة لمنع الألغام الأرضية - وامتنعت الولايات المتحدة وروسيا والصين - ، كيف استطاعت القيام بذلك؟، كان جوابها المقتضب بسيطا: «البريد الالكتروني». لقد استعملت جودي ويليامز شبكة الإنترنت والبريد الالكتروني كي تناضل وتدافع عما تؤمن به كفرد.

إذاً، فيما يتعلق بالدول ككيانات بصفة عامة وبالولايات المتحدة بصفة خاصة، إن هذا الأمر يعد في غاية الأهمية، وإلا فإننا لا نستطيع فهم نظام العولمة، أو فهم ما تطالعنا به الصحف كل صباح، أو فهم أحداث ١١ أيلول، إلا إذا نظرنا إلى كل من هذه

الأحداث والوقائع والأشخاص والهيئات على أنها في ترابط وتقاطع جدلي، بين أطرافها الثلاثة: دول في مواجهة بعضها البعض من ناحية، ثم صراع هذه الدول في مواجهة السوق الاقتصادي العالمي من ناحية ثانية، وأخيراً صراع هذا السوق العالمي ضد بعض هؤلاء الأشخاص ذوي النفوذ الخارق - وبعضهم بكل أسف غاضب جداً.

المقالات

من ١٥/ ١٢/ ٢٠٠٠ حتى ١١/ ٩/ ٢٠٠١

ميدالية شرف

لم يشهد آل غور الكثير من المعارك عندما شارك في حرب فيتنام، إلا أنه خلال حملته الرئاسية ما انفك يؤكد أنه أراد القتال من أجل كل أمريكي. وفي خطاب الأربعاء تلقّى آل غور طلقة في سبيل الوطن أصابته بقدر ما أصابت الأمة في الصميم، أطلقها خمسة قضاة محافظون بالمحكمة العليا حين أصدروا حكما سياسيا بتنصيب جورج بوش الابن رئيسا للولايات المتحدة. كان رأي هؤلاء القضاة الخمسة مبنيا على قاعدة التزام ولاية فلوريدا بتحديد الفائز بالانتخابات قبل حلول ١٢ ديسمبر كأجل أقصى وذلك بدل تفويض محكمة فلوريدا العليا بالبحث عن طريقة عادلة وموحدة تضمن أن كل صوت تمّ احتسابه، كما تكفل في الوقت نفسه الالتزام بالأجل الأقصى. وهكذا قرر هؤلاء القضاة المحافظون الخمسة أن الالتزام بالآجال القانونية - حتى الرمزية منها - أهم من عد أصوات الناخبين.

لذا، بإمكان محكمة راينكوست أن ترفع شعار: «بالرزنامة نثق». إذ لا يحتاج الامر إلى تحقيق حتى نتأكد أن هؤلاء القضاة المحافظين الخمسة، يمثلون الفريق الأخير من زعماء الحزب الجمهوري الذين ساهموا في جر المحافظ بوش حتى خط الوصول في سباق الانتخابات الرئاسية، بل يكفي الاطلاع على الاعتراض الشديد لبقية القضاة: برابر، غينسبورغ، سوتر، وستيفنز حين أخبروا الأمة بجدية ما قام به زملاؤهم الخمسة باتخاذ قرارهم الجائر ذاك دون أي سند قانوني أو منطقي وما ينجم عنه «من أذى ليس للمحكمة فقط، بل والأمة كذلك» حسب تعبير القاضي براير. أو مثلما علق مايكل ساندل فيلسوف الأخلاقيات بجامعة هارفرد قائلا: «لم تعجز المحكمة فقط عن إصدار أي حكم ملزم من حيث المبدأ تسوغ به قرارها، بل وفوق ذلك ناقضت الأغلبية المحافظة نفسها حين تخلت عن مساندتها الدائمة للولايات وحمايتها ضد التدخلات الفدرالية، مما يضفي صفة المحازبية على قرارهم هذا أكثر مما يجعل منه مبدأ قانونيا، وبالتالي يقودنا

ذلك إلى الاستنتاج القائل بأن هؤلاء القضاة المحافظين الخمسة صوتوا للرئيس مرتين، مرة في نوفمبر ومرة أخرى في ديسمبر».

وبالعودة إلى السيد آل غور وخطاب تنازله، الذي أصابته فيه طلقة في سبيل الوطن، وإلى حكم القانون - حتى وإن كان ظالما وفيه محاباة - فإنه فقط يستمد إلزاميته ومشروعيته حين يقبل به الطرف الصادر بحقه، ويعتبره نهائيا. فقط هكذا - حين نؤكد ثقتنا بالنظام القضائي، حتى وإن أصدر أحكاماً ضدنا - بحيث يستطيع هذا النظام القضائي الثبات، التحسن، والتعلم من أخطائه، وهذا تحديدا ما فهمه السيد آل غور عندما انسحب بكل شرف قائلا: «هذه أمريكا، يجب أن نضع الوطن فوق الحزب».

عندي نصيحة مجانية للجواسيس الروس أو الصينيين الباحثين عن الأسرار القيمة لسرقتها من واشنطن، ألا وهي: اسرقوا خطاب آل غور الذي يحوي في فقراته القليلة السر الحقيقي للطبخة الأمريكية. ذلك السر لا يكمن في وول ستريت، ولا في سيليكون فالي، ولا في سلاح الجو أوسلاح البحرية، ولا في حرية الإعلام أو السوق، بل في ثبات، واستمرارية سيادة القانون وتراتبية المؤسسات المذكورة أعلاه مجتمعة بحيث يمكنها أن تتطور بصرف النظر عمن يحكم. لكن، للمرء أن يأمل أن السيد بوش يتفهم أن قوة أمريكا القصوى وتأثيرها على العالم لم يكونا نتاج أنظمتها الإلكترونية أو ترسانتها العسكرية فقط التي ينوي السيد بوش توسيع انتشارها - رغم أهميتها -، بل هما نتاج ذلك الميراث الاستثنائي لنظامنا القانوني والمؤسساتي، وكما قيل، نظام صممه عباقرة ويديره أغبياء. قريبا سيكتشف السيد بوش أن الحفاظ على ذلك النظام ليس فيه مصلحة لأمريكا فقط، بل وللعالم أجمع. اذ تعتبر أمريكا اليوم مايكل جورد ن الجيوبوليتيك، هناك من يحسدنا على كفاءة مؤسساتنا واقتصادنا الداعمين لهيمنتنا وهناك أيضا من يحقد علينا بعمق لنفس الأسباب إلا أنهم جميعا يراقبوننا كما يعلم - وإن بدرجات متفاوتة - أن الاستقرار العالمي مرهون على قابلية اقتصادنا ونظامنا على البقاء.

مثلما دعم السيد آل غور ذلك النظام بانسحابه المشرف، كذلك سيدعمه السيد بوش برئاسته. أما الحملة الانتخابية الرئاسية وقد انتهت، والنظام وقد استتب بتحديد الفائز، فإنه من غير المجدي لأحد التشبث بالخيبات مثلما قال آل غور «هذه أمريكا»، وهي كل ما نملك.

١٥/١٢/٢٠٠٠

أستاذتي المفضلة

نشرت مجلة «نيويورك تايمز» في عدد الأحد الماضي عرضها السنوي لقائمة أهم الأشخاص الذين توفوا السنة الماضية تاركين وراءهم أعمالا مأثورة. وكشأن جميع القراء الذين لهم قوائم كهذه، كانت لي قائمتي الخاصة التي كان على رأسها من كان لها أبلغ تأثير على حياتي - هاتي. م. شتاينبرغ أستاذة الصحافة بالمدرسة الثانوية - التي توفيت السنة الماضية. لقد نشأت في إحدى الضواحي الصغيرة قرب مينيابوليس، حيث درّستني هاتي الأستاذة العبقرية حصص مقدمة الصحافة في الغرفة رقم ٣١٣ في ثانوية سان - لويس، وكان ذلك في العام ١٩٦٩. ومنذ ذلك التاريخ إلى اليوم، لم آخذ أو لم أحتج إلى أي حصص دراسية أخرى في مادة الصحافة. لقد كانت هاتي من بين أولئك الذين آمنوا بأن سر النجاح يكمن في تعلم المبادئ الصحيحة مثلما لقّنتنا هي ليس فقط كيف نكتب أو كيف ننسخ أو نقتبس بعض الاستشهادات بكل دقة، بل كيف نتجنب الإسفاف ونكون محترفين وأن نقوم دائما بعمل نوعي. إذ إلى اليوم، وفي كل مرة أتراخى فيها عن إتمام أي عمل، أتذكر هاتي ماثلة أمامي تعاتبني على ذلك.

ذات مرة، أثناء حوار صحفي أجريته مع أحد المسؤولين لنشره في جريدة المدرسة، استعمل هذا الأخير كلمة بذيئة. تجادلنا في الأمر، إلا أن هاتي أصرّت على نشره وكاد يخسر ذلك المسؤول وظيفته بسبب ما نشر. وكان ذلك درسا تعلمناه منها في قراءة العواقب. وبالفعل لقد كانت هاتي أشد الأساتذة حزما وصرامة. بعد أن أخذت حصص الصحافة في الصف العاشر، عملتُ في جريدة الصدى التي كانت تحت اشرافها وحيث كان التنافس على أشده، وفي الصف الحادي عشر، لأنها وجدت كتاباتي دون المستوى المطلوب، أحالتني إلى قسم المبيعات كموزع اعلانات لمطاعم البيتزا. إلا أنها وفي تلك السنة نفسها، سمحت لي بالنشر مرة واحدة، وكان الأمر يتعلق بجنرال إسرائيلي، أحد أبطال حرب الأيام الستة، جاء ليلقي محاضرة في جامعة مينيسوتا. بالإضافة إلى تغطية الزيارة، أجريت معه حوارا مقتضبا. اسم الجنرال آرييل شارون. وذلك كان أول عمل ينشر لي.

لقد كنا - طلاب تلك السنة الدراسية وأعضاء طاقم الجريدة - نجتمع حول هاتي باستمرار، قبل وبعد الحصص الدراسية. لكن يجب على المرء أن يعي أنها كانت امرأة قاربت الستين من العمر، غير متزوجة، وأن ذلك كان في حقبة الستينات، أي باختصار

لقد كانت قمة في رباطة الجأش. إلا أننا أحببنا دروسها بشغف حيث نظرنا إليها كمصدر إلهام وهو ما لم يقدر على قوله أحد حينها لأننا أعجبنا بمحاضراتها وتأديبها لنا وخطبها الرنانة. لقد كانت امرأة الوضوح في عصر كله غموض.

بقينا أصدقاء لمدة ثلاثين عاما، تابعتّ خلالها كل منعرج في مسيرتي المهنية بين ناقدة لي ومفاخرة بي. وبعد أن توفيتّ أرسل لي أصدقاؤها حزمة من القصاصات فيها مقالاتي التي كانت قد احتفظت بها على مدار السنين، وبالفعل لقد كان طلابها هم عائلتها أو أقرب. أحدهم جودي هارينغتون كتبت قائلة: «بعد مضي واحد وأربعين عاما على تخرجنا جميعا، إلا أننا لا زلنا نكتشف وبشكل يومي تقريبا ما يذكرنا بهاتي - سواء أكان ذلك في شكل نصائح أو عتاب». كما روت جودي حادثة جرت في آخر حفل عيد ميلاد لهاتي، وكيف أن أحدهم قرر الانصراف مبكرا لأخذ ابنته إلى مكان ما، وإذا بهاتي تأمره بالبقاء قائلة: «لم يحن وقت انصرافك بعد، لا بأس إن تأخرت قليلا». تلك كانت أستاذتي وها أنا جالس أفكر فيها بكل عمق.

كانت صحيفة «نيويورك تايمز» التي لم أرها من قبل إطلاقا من بين الأساسيات التي عرفتنا عليها، إذ كانت ترسل كل صباح إلى الغرفة ٣١٣. «إن الصحافي الحقيقي يبدأ صباحه بالاطلاع على «نيويورك تايمز» وقراءة مقالات كبار المحررين مثل أنطوني لويس أو جايمس راستون» كما كانت تقول. لقد تذكرتها كثيرا هذه السنة، ليس لأنها توفيت يوم ٣١ يوليو/تموز الماضي، بل لتأثيرها الواضح على حياتنا عبر ما تركته من أثر فينا بما علمتنا من قيم ومبادئ. أما الآن، وقد غزانا جميعا هذا الزيف الكبير المسمى بالعولمة وما نتج عنه من تهميش لكثير من البشر الأذكياء القادرين على تأسيس شركة مربحة، أو أداء وظائف مهمة، أو تربية جيل ناجح، بكل أسف لم يعد هناك مجال لهؤلاء. وللمفارقة تبيّن أن سر النجاح في عصر المعلوماتية هذا، له المعطيات القديمة نفسها: الأساسيات نفسها المتمثلة في القراءة والكتابة وعلم الحساب، الكنيسة والكنيست والجامع، سيادة القانون والحكومة الجيدة.

بإمكان الإنترنت أن تجعلك أذكى، لكنها قطعا لا تجعلك ذكياً، كما بإمكانها أن توسع آفاق اطلاعاتك، لكنها لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تخبرك بما يمكن قوله في اجتماع الأولياء بالأساتذة مثلا، وذلك لأن هذه البديهيات لا يمكن استنتاجها، بل تعلمها وعلى الطريقة القديمة من شخص إلى شخص آخر، وفي أماكن مثل الغرفة ٣١٣ في ثانوية سان - لويس بارك. آسف لعدم كتابة هذا المقال أثناء حياة المرأة التي علمتني كل هذ ه الأمور.

٢٠٠١/١/٩

مذكرة كلينتون الأخيرة

إلى: الشارع العربي

من: الرئيس بيل كلينتون

أيها السادة والسيدات، لقد راسلت زعمائكم مرارا على مر السنوات الماضية، ولكن الآن وقد شارفت حقبتي الرئاسية على الانتهاء، فإني قررت أن أوجه رسالتي الأخيرة إليكم أنتم: الشعب العربي، الشارع العربي الذي دفع غاليا في هذا النزاع القائم. بصراحة، لقد بذلت كل ما في وسعي لإيجاد حل عادل وواقعي للنزاع العربي - الإسرائيلي يرضى به كلا الطرفين، لكن في حال أنكم قررتم مواصلة الرفض وتجنب اتفاق يعطيكم ٩٥٪ مما تطالبون به، حينها لا يمكنني القيام بأكثر مما قمت به. ولكن، لي في الأمر مقال وهو كالآتي: أكثر ما يزعجني من نفسية الشارع العربي هو ذلك العداء المكشوف للحداثة، العولمة، الديمقراطية، وثورة المعلومات. وأن ما ستفعلونه مع الإسرائيليين فهو شأن يخصكم أنتم فقط، أما ما ستفعلونه بمجتمعاتكم فسيؤثر على الاستقرار في منطقة الشرق الأوسط ككل.

في حين ركزت بقية دول العالم على تطوير صناعاتها طبقا للمواصفات العالمية، لا زلتم أنتم تحمون صناعاتكم القديمة. وفي حين يتبادل الآخرون تجاريا مع العالم، لا زلتم أنتم بالكاد تتاجرون بين بعضكم البعض. وفي حين أطلق الآخرون حرية صحافتهم لا زلتم أنتم تراقبون صحافتكم. وفي حين يقوم بقية قادة العالم بتدعيم شرعيتهم عن طريق التعليم، لا زال حكامكم يدعمون شرعيتهم بغطاء ديني. وفي الوقت الذي يبحث فيه الآخرون على مستثمرين أجانب لخلق وظائف للأجيال الشابة، تقومون أنتم بإبعاد المستثمرين إما بسنّ إجراءات بيروقراطية معرقلة أو بالدخول في نزاعات تخيف الجميع وتبعدهم عن منطقتكم. وفي عصر صنع أقراص الكمبيوتر، لا زلتم أنتم تصنعون أقراص البطاطا.

لقد اعتقدت لوهلة أن هذه المواضيع ستكون محل جدال ساخن بين نخبكم المتعلمة - مع علمي أن بعضهم أثارها. لكن الجزء الأكبر من مثقفيكم ونقادكم وبرلمانييكم الذين يلجأ معظمهم إلى الأعذار بدل أن يتبنوا جميعا حوارا نزيها. وحين سألت الزعماء العرب كيف أصبحت كوريا الجنوبية - التي كان دخلها القومي في بداية

الخمسينات يعادل الدخل القومي لمصر أو سوريا - دولة صناعية متقدمة في حين أن كل من سوريا ومصر لا زالتا في عداد الدول النامية، كان جوابهم أن الحروب سبب ذلك. لكن ألم تشهد كوريا نزاعا عسكريا طويلا مع كوريا الشمالية. أو العذر الآخر الذي أسمعه منهم باستمرار، وهو كون الدول العربية تعاني من فائض سكاني. إذن، ما هو رأيكم بالصين التي تحقّق نمواً اقتصادياً بمعدل ١٠٪ سنوياً؟ وهكذا يتضح لي أن مثقفيكم مهتمون بحماية امتيازاتهم وإيجاد أعذار كهذه لتبرير ضعف وفشل أنظمتهم بدل الدخول في حوار نزيه وبنّاء.

كما اكتشفت أن موضوع إسرائيل ومن سيحكم الأماكن المقدسة في القدس من الأمور التي تمسّ الشارع العربي في الصميم. وأنا لا أطلب منكم التنازل عن إدارة تلك الأماكن المقدسة، بقدر ما أريدكم أن تسألوا أكثر من سؤال. أما إشكالية من يشرف على الجامع الأقصى، بقدر ما هي مسألة ضرورية للإحساس بالكرامة لدى كل عربي وفلسطيني وكل مسلم في العالم المعاصر، كذلك الأمر فيما يتعلق بأي تعليم ستوفرون لأبنائكم، أي اقتصاد ستبنون، وأي نظام قانوني ستؤسسون، هي من الأمور الجوهرية والمحددة لمدى إحساسكم بالكرامة في عالمنا المعاصر. من المفروض أن تهتموا بالإجابة عن تلك الأسئلة القديمة وأن تعوا أن هناك أسئلة أخرى قادمة. إذ يجب أن يكون هناك توازن، فكما أن المجتمع الذي يتخلى عن جذوره لن يستقر، وكذلك المجتمع المنغلق على نفسه والمشغول فقط بسؤال من يملك ماذا من تلك الجذور، لا ولن يتطور ولا ينتج. إن مثقفيكم لا يعبأون بذلك لانهم مستفيدون من وضع كهذا ما داموا مستمرين في تكرار وطرح الأسئلة الخاطئة نفسها تحت حماية الأنظمة نفسها المعيقة لتطوركم.

قد أتفهم أنكم محبطون من أمريكا، لكني لم أفهم سبب مساندة النخب العربية لصدام حسين. فكروا في ما قام به هذا الرجل مع جيرانه، الغازات السامة التي استعملها ضد شعبه، والأجيال العراقية التي دمرها. هل هذا مثال يقتدى به؟ هل تريدون زعيما مثلة لقيادتكم؟ أرجو أن يكون الجواب بالنفي، كما آمل أن تنطلق في القريب العاجل انتفاضة ليس فقط من أجل فلسطين حرة، بل ومن أجل إصلاح مناهج التعليم العربية، صحافة حرة عربية، شرعية قانونية عربية، وديمقراطية عربية. وفي النهاية، شارع عربي لا يعرف أن يطرح أكثر من سؤال واحد لا يعتبر مكانا مناسبا لتربية أطفالكم.

بإخلاص بيل كلينتون.

٢٠٠١/١/١٢

آفاق كولن باول

سيصادق مجلس الشيوخ هذا الأسبوع على تعيين وزير الخارجية كولن باول. لا أعتقد أن للسيد باول الكثير مما يقوله حول سياسات معينة، إلا أني سأصغي بانتباه في حال أنه سيقدم عرضا لرؤيته العامة حول العالم التي لا نعرف عنها شيئا منذ أن غادر الجيش سنة ١٩٩٣، بعد أن قضى ٣٥ سنة في خدمة الوطن كجندي، وفي السنتين الأخيرتين عمل كأحد أعضاء الهيئة التنفيذية في شركة «أمريكا أون لاين». إذاً، فبأي الخبرتين سيستعين السيد باول أثناء عمله كوزير للخارجية؟ أتلك التي جناها من خلال خدمته في الجيش أثناء الحرب الباردة، أم تلك التي كسبها من عمله مع شركة «أمريكا أون لاين» في عالم ما بعد الحرب الباردة؟ وهما تجربتان مختلفتان، إحداهما ترى أن العالم مبني حول جدران عازلة، في حين أن الأخرى تراه مبنيا حول الإنترنت. أي أن تجربته الأولى كانت، بل ولا زالت، ترى أن سياسة الولايات المتحدة الخارجية قائمة بالأساس على الدفاع، البناء، وأحيانا إقامة الجدران العازلة، أي تبني سياسة احتواء بإقامة جدران عازلة حول الأعداء والخصوم على السواء من كوريا الشمالية إلى العراق إلى الصين. مما يعني أننا لا نبالي كثيرا بما يجري وراء تلك الجدران ما دامت هذه الدول لا تهددنا، وبالتالي فإنه لا يعنينا حقيقة النتيجة التي سينتهي إليها الإصلاح الداخلي في روسيا، إلا أن ذلك يعني شيئا واحدا وهو مواصلة العمل على إطاحة آخر معاقل الشيوعية في كوبا وكوريا الشمالية.

أما تجربته الأخرى مع «أمريكا أون لاين» فهي على النقيض من التجربة الأولى، إذ ترى أن أمريكا هي المركز لشبكة كونية في حالة اندماج متواصل - شبكة قائمة على التجارة والاتصال عن بعد، والمال، والبيئة. إذ بالنسبة لشركة «أمريكا أون لاين» يقتصر دور السياسة الخارجية على حماية هذه الشبكة ممن يودون تعطيلها، وعلى تقويتها، ثم تصديرها إلى الآخرين، لأن أمريكا هي المستفيد الأكبر من هذه الشبكة في النهاية، ولأن البضائع الأمريكية من تكنولوجيا وقيم وأفكار وأفلام ومأكولات، هي الأكثر مبيعا عبر شبكة الإنترنت.

الحفاظ على هذه الشبكة يتم إما بالدفاع عنها ممن يريدون تخريبها كصدام حسين مثلا، أو بالعمل على نشر حرية التبادل التجاري، والالتحاق بالآخرين لحماية البيئة، أو المساهمة في إنقاذ أحد الاعضاء البارزين في هذه الشبكة في حال حدوث أزمة مالية قد

تؤثر على اقتصاد باقي الأعضاء. إلا أن هناك طريقاً آخر يتمثل في إعطاء أولوية قصوى للعمل مع روسيا لحل بعض المشاكل التي تهدد كلا الطرفين - كالحد من الأسلحة النووية والصواريخ الباليستية - وذلك بدل العمل على توسيع حلف الناتو إلى حدود روسيا، وبالتالي جعل التعاون مع موسكو مستحيلا.

سواء أكانوا جنوداً أم موظفين لدى أمريكا أون لاين، جميعهم معجب بفيلم: «بضعة رجال طيبين»، خاصة اللقطة الأخيرة، حين سخر جاك نيكولسون، ظابط المارينز القوي، من توم كروز، محامي البحرية الذي جلبه للمحاكمة لمسؤوليته عن وفاة جندي أمريكي في إحدى القواعد الأمريكية في كوبا أثناء الحرب الباردة.

وفي معرض الدفاع عن نفسه قال السيد نيكولسون: «يا بني، إننا نعيش في عالم تفصله جدران، وهذه يجب أن يحرسها رجال مسلحون. من سيقوم بذلك؟ أنت؟... في الخفاء هناك، أماكن لا تستطيع أن تتحدث عنها في الحفلات، أتريدني على ذلك الجدار». كما أنهم، أي موظفي «أمريكا أون لاين» وعاملي وزارة الدفاع على السواء، معجبون بفيلم «عندك رسائل إلكترونية»، لأنهم وفي هذا العالم المستمر الاند ماج يعرفون جيدا، بل وتصلهم من كل أصناف الغرباء رسائل إلكترونية يمكنها أن تغير حياتهم فجأة، وبالتالي إذا حلت أزمة مالية بروسيا، فالرسائل ستصلنا. أو حين تصل مجموعة إرهابية صغيرة من القوة ما يخولها تد مير بارجة أمريكية بزورق صغير في اليمن، حينها سيكون عندنا رسائل. أو حين أدخل اثنان من قراصنة الكمبيوتر في الفبليبين فيروس «حشرة الحب» في شبكة الإنترنت، مما أدّى إلى تخريب عشرة ملايين جهاز كمبيوتر، وإتلاف ما قيمته عشرة مليارات من الدولارات في مخزونات الكترونية في فترة لم تتجاوز ٢٤ ساعة، حينها أيضاً سيكون لدينا رسائل.

بالنسبة لرجال وزارة الدفاع، العالم مقسم بين أصدقاء وأعداء، مركزين اهتمامهم على من وردت أسماؤهم في لائحة الإرهاب. في حين أن مسؤولي «أمريكا أون لاين» يرون العالم مقسماً بين أعضاء منخرطين وغير أعضاء. نعم هذه تشخيصات كاريكاتورية، إلا أنها ذات مغزى، وتعكس نظرتين مختلفتين للعالم، لكن أي منهما سيتبنى السيد باول؟

٢٠٠١/١/١٦

سايبر سارفدوم

دافوس، سويسرا

يعتبر مؤتمر دافوس الاقتصادي العالمي حدثا مناسبا لجس النبض والاطلاع على الاتجاهات والميولات المسيطرة على المؤتمر. وعلى مدار السنوات الماضية كان الهمس حول أي تكنولوجيا سنحتاج. وفي هذه السنة أصبح الموضوع الطاغي هو ما الذي تحققه لنا التكنولوجيا. وإن دل مؤتمر دافوس على شيء فإنه يدل على أن هناك في الأفق رد فعل عكسياً ينادي بالحد من استخدام التكنولوجيا في شتى المجالات.

عندما وصل المؤتمرون إلى دافوس تسلّموا آلات صغيرة بهدف التواصل والتحادث مع بعضهم البعض، وهي عبارة عن كمبيوتر صغير بحجم الجيب. وأثناء محاولتي معرفة كيفية استعماله بشكل يتماشى مع نظام الاتصال المعقّد الخاص بالمؤتمر، علق ريتشارد كوهين أحد محرري جريدة «واشنطن بوست» قائلا: «لدي الكثير من الأجهزة التي من شأنها أن تجعل حياتي أسهل إلى درجة أني أحتاج إلى شخص آخر لمساعدتي على حملها». أثناء حوار المرشحين لقيادة كبرى الشركات لبداية القرن الواحد والعشرين، استخدم هؤلاء مصطلحات غريبة لما اعتبروه عصر الداروينية الرقمية: سر النجاح في الأعمال اليوم هو إما أن تتكيف وبالتالي تبقى أو تفنى، أي إما أن تنتمي إلى شبكة الإنترنت أو تموت، اعمل على مدار الساعة من أي مكان من العالم أو سيفوتك الركب. وفي النهاية، وأثناء مرحلة طرح الأسئلة، وقف هاورد سترنجر وقال: «ألم يفكر أي منكم هنا أن ما يجري يشبه الجحيم؟ ما دمنا جميعاً نتنافس أو نموت، متى سيكون هناك متسع من الوقت لسماع الموسيقى، قراءة الكتب، أوممارسة الجنس؟».

بكل تأكيد هذه مشاكل خاصة بالعالم المتقدم فقط. إذ إنك لا ترى في معظم أجزاء القارة الأفريقية هذا الكم من المدراء التنفيذيين يتجولون حاملين كل أجهزة الاتصال تلك وكأنهم عمال صيانة الهاتف مثلما هو الأمر في أوروبا مثلا.

وكنتيجة حتمية، فإن الانخفاض السريع لكلفة هذه المعدات الإلكترونية سيساعد على انتشارها وكذلك على زيادة الضغوط الاجتماعية المرتبطة باستعمالاتها بأسرع مما كنا نعتقد. لقد استمعت إلى بعض العبارات الجديدة مثل «اللص الآلي»، أو «ليست

الآلات في خدمتنا، بل نحن خدم لها»، أو «هويتي الآن أقل قيمة من المعلومات المخزنة عني». أو كما لاحظت ليندا ستون، الباحثة لدى شركة مايكروسوفت، حين قالت إننا الآن نعيش في عصر الانتباه الجزئي المتواصل. لقد أعجبني ذلك الوصف. إنه يعني أنك في الوقت نفسه الذي تتحدث فيه مع طفلك، وتجيب على رسائلك الإلكترونية، يرن هاتفك الجوال وتبدأ في محادثة. وهكذا تجد نفسك منهمكاً في فيض متواصل من النشاطات التي لا تستطيع سوى التركيز جزئيا على كل واحد منها.

«فإذا كان الإحساس بالرضا ناجماً سواء عن الارتباط بشخص أو القيام بعمل ما، فإن ذلك يتطلب قدرا معينا من الالتزام المتواصل»، حسب تعبير الانسة ستون. ويعود فقداننا لتلك الخاصية إلى بحثنا الدائم عن الفرص حول العالم، وإلى خوفنا الدائم من إضاعة أي فرصة أفضل، وما ينتج عن ذلك من استنزاف روحي لا يصدق.

إنه لأمر غريب حقاً أن يهاتف أحدهم مكتبي ويسأل عني إن كنت موجودا، وإن لم أكن هناك، يسأل فورا عن هاتفي الجوال أو «بيجر» (pager) (أنا لا أحمل أياً منهما). لم يعد بإمكانك أن تكون خارج المكتب بعد الآن. الافتراض القائم الآن أننا دائما في المكتب، ودائما نعمل. وحين نكون دائما في المكتب ودائما تعمل، فإننا نكون على أكثر ترجيح كجهاز الكمبيوتر.

هناك من يقول الآن إن هذه الآلات ستصبح قريبا غير مرئية خلافا لما هي عليه الآن، إذ بحلول سنة ٢٠٠٥، سنشهد اندماج التكنولوجيا اللاسلكية، الألياف البصرية، وبعض التطبيقات الإلكترونية بالجيل القادم من الإنترنت إذ إن تقنية IPv6 ستمكّن أي آلة تعمل بالكهرباء من الحصول على عنوان إلكتروني وبالتالي تشغيلها عبر شبكة الانترنت، بدءا بمحمصة الخبز ووصولا إلى ضابطة النبض الكهربائية (التي بإمكانها أن تنقل إلكترونيا معدل سرعة قلبك إلى طبيبك مباشرة) بحيث ستخولنا هكذا تقنية أن نكون دائما على الخط ومن أي مكان تقريبا. قريبا قد نسمع أحدهم يقول: «عندي خمسة وعشرون عنوانا بريديا بالبيت، كم لديك أنت؟ ثلاجتي طلبت إعادة تعبئة الحليب إلكترونيا. ماذا عن ثلاجتك؟».

المشكلة أننا نحن البشر نختلف عن جهاز الكمبيوتر في كوننا نحتاج إلى النوم ثماني ساعات يوميا، وهذا اختلاف نوعي بحد ذاته. إلى الآن لا أستطيع برمجة جهاز الفيديو، كيف سأبرمج محمصة الخبز؟ أو كما خلص جيفري غارتن، عميد كلية الإدارة بجامعة يال، في كتابه القيم «كيف يفكر المدير التنفيذي» الذي تناول فيه بعض هذه

المواضيع قائلا: «ربما لم يحن الوقت الذي سنجد أنفسنا فيه أمام أحد خيارين: إما أن نتأقلم أو نندثر، بل على التكنولوجيا أن تتكيف أو تندثر».

٢٠٠١/١/٣٠

شارون وعرفات وماو

منذ أسبوعين أثناء حضوري المؤتمر الاقتصادي العالمي بدافوس، سألني أحد المرافقين لشيمون بيريز إن كنت سأحضر الكلمة التي سيلقيها برفقة ياسر عرفات أمام ألف من المستثمرين والوزراء المؤتمرين هناك. وكان جوابي بالنفي، لأني أهتم فقط بما يقوله السيد عرفات لشعبه باللغة العربية. إنه لأمر مؤسف، كان رد سائلي الذي واصل قائلا إن كل من عرفات وبيريز سيتبادلان أغصان الزيتون وإنه سيتم تسويق هذا الحدث لدعم مفاوضات السلام وإعادة انتخاب ايهود باراك. سأتابع ذلك على الشاشة، قلت لمحدثي.

طبعا ومثلما هو محدد، مد السيد بيريز غصن الزيتون، إلا أن السيد عرفات أشعله ثم بدأ يقرأ نصا مكتوبا سلفا بالعربية شجب فيه إسرائيل و«عدوانها العسكري - الفاشي» و«توسعها الاستعماري المسلح» وسياسة «القتل والاضطهاد والاغتيال والهدم والتدمير» التي تتبعها.

لقد كان أداء السيد عرفات حدثا مقصودا وضروريا لفهم الفوز الساحق الذي حققه آرييل شارون في الانتخابات. ما الذي عناه السيد عرفات في ذلك الخطاب بحضور السيد بيريز جالسا بجانبه؟ أولا، أنه لا فرق هناك بين السيد باراك والسيد شارون، مما يفسر إلقاء خطاب كهذا عشية الانتخابات الإسرائيلية ورغم مبادرة السيد باراك أثناء محادثات الساعة الاخيرة في طابا للوصول إلى اتفاق نهائي مع الفلسطينيين، مما يجعل هكذا مبادرة تبدو سخيفة، بل وأكثر من ذلك لقد قال السيد عرفات إنه لا فرق بين السيد شارون والسيد بيريز الذي بدا ساذجا بالرغم من إلقائه ذلك الخطاب الدافئ وذلك بحسب ما أوردته معظم الصحف الإسرائيلية. وباختصار، في الوقت الذي يتلهف فيه الفلسطينيون للعمل، كانت رسالة السيد عرفات للمستثمرين الدوليين كالآتي: ابتعدوا عنا.

لذلك طرحت الصحافة السؤال الخاطئ حول انتخاب شارون. إنهم يسألون: من هو آرييل شارون؟ السؤال الحقيقي: من هو ياسر عرفات؟ كما تصر الصحافة على التساؤل هل سيصير السيد شارون شارل ديغول آخر، ذلك الجنرال المتشدد الذي سحب

الجيش الفرنسي من الجزائر؟ أو سيكون مثل ريتشارد نيكسون المعادي للشيوعية الذي أبرم اتفاقية سلام مع الصين؟ كلا السؤالين خاطئ. لماذا؟ لأن لإسرائيل ديغولها الخاص واسمه ايهود باراك، الضابط الأكثر أوسمة، رغم امتناعه عن التصويت في الكنيست على المرحلة الثانية من اتفاقية أوسلو، فإنه تغير ١٨٠ درجة بعد أن أمسك بالسلطة. فقد عرض على السيد عرفات ٩٤ بالمائة من الضفة الغربية لقيام دولة فلسطينية وبعض المناطق مقابل الستة بالمئة المتبقية بالإضافة إلى نصف القدس ومنح تعويضات للاجئين الفلسطينيين. إلا أن السيد عرفات لم يرفض كل ذلك فقط، بل وصف إسرائيل بأنها «فاشية» في الوقت الذي يكافح فيه السيد باراك لإعادة انتخابه، مما يضع ديغول في وضع صعب فيما لو أنه عرض الانسحاب من الجزائر، وكان جواب الجزائريين له كالاتي: «شكرا أيها الفاشي، سنأخذ الجزائر بالطبع، إلا أننا لن نوقف هذا الصراع حتى نأخذ بوردو ومرسيليا ونيس كذلك».

إذا كان الفلسطينيون لا يهتمون بمن هو آرييل شارون، فلماذا نهتم نحن؟ وإذا كان السيد عرفات يريد قائدا إسرائيليا لا يجبره على أخذ قرارات مصيرية - هو عاجز عن اتخاذها على أية حال -، لماذا نتساءل نحن ان كان السيد شارون سيقدم عرضا مغريا على غرار ما فعل ديغول؟ بمَ تستفيد إسرائيل من أن يكون لها نيكسون إن لم يكن للفلسطينيين ماو؟

لقد كان اتفاق أوسلو عبارة عن اختبار تتأكد إسرائيل من خلاله أن لها شريكاً فلسطينياً تقيم معه سلاماً نهائياً ودائماً. وهو امتحان تقدر عليه إسرائيل، لأن أغلبية مواطنيها أرادوه. إنها خطوة أقدم عليها السيد باراك بكل شجاعة حاملا معه النخبة السياسية الإسرائيلية إلى أقصى حدودها وربما أكثر. إلا أن السيد عرفات أضاع تلك الفرصة. وفي النهاية قد يطالب الفلسطينيون باختبار تجديد الثقة، وقد يمنحهم الإسرائيليون ذلك إذا رأوا أن هناك فرصة حقيقية لإنهاء هذا الصراع. لكن من يعلم ما مقدار العنف والألم الذي سيحدث حتى يحين ذلك الموعد.

إن كل ما نعلمه حتى الآن، هو أن اختبار أوسلو قد فشل. وهو تحديدا ما قالته الأغلبية الإسرائيلية في هذه الانتخابات. لنتوقف إذاً عن التساؤل عمّا إذا كان السيد شارون سيصبح ديغول لأن الإسرائيليين لم ينتخبوه لأجل ذلك السبب، بل انتخبوه لأنهم يعرفون على وجه الدقة من هو، ولأن سبع سنوات من اتفاق أوسلو علّمتهم تحديدا من هو ياسر عرفات.

٢٠٠١/٢/٨

الدعاية والدعاية المضادة

لقد طورت مجموعة غارتنر الاستشارية مفهوما عمليا للدعاية المصاحبة للتكنولوجيات الجديدة أسموه «الدورة الدعائية»، وقد أطلق كتقنية حديثة - شأنها شأن الإنترنت - إذ ترتفع مؤشراتها عموديا حتى يحقق أعلى التوقعات، ثم تنحدر نازلة مخيبة لآمال المنسحبين من اللاعبين الأقل حظا. ثم تعود تلك المؤشرات للارتفاع المتواصل ثانية حتى تصل إلى مرحلة يظهر فيها بوضوح من هم الرابحون الحقيقيون، وذلك بعد أن تم استيعاب وإدماج هذه التكنولوجيا الجديدة وجعلها مربحة للأفراد والمؤسسات القادرين على فهمها. وبحسب دلالات هذا المؤشر الدعائي وبمساعدة الإنترنت - حيث يتساوى الذين لا يفهمونها بالذين خابت آمالهم من الاتجار بالأسهم - في تسمية ذلك بالفورة، والتي قد تكون مخادعة أحيانا مهما ارتفعت المؤشرات.

تعد حروب الانترنت الحقيقية في مجرد بداياتها، ولن تجري بين Amazon.com وeToys.com، بل ستقع تلك الحروب الحقيقية حين تقوم كل الشركات التقليدية والتي لها ممتلكات فعلية وحجم فعلي ونشاط فعلي باستيعاب الانترنت - بما في ذلك الاتجار الإلكتروني، براءة الاختراع الالكتروني، المحاسبة الإلكترونية، التدريب الإلكتروني، وإدارة الزبائن إلكترونيا - وترجمة ذلك ضمن أنشطهم المعهودة في مزاحمة بعضهم البعض.

ستبدأ تلك الحروب الحقيقية فقط حين يقوم جبابرة مثل تارغت، ك مارت، وول مارت، أو جي ام، تويوتا، وفورد، أو دال وكومباك بالاستيعاب الكلي للإنترنت عبر زيادة السرعة، والمرونة وعولمة كل مجالات أنشطتهم. وكذلك حين تقوم كل المؤسسات غير الحكومية من جمعيات حقوق الانسان وجمعيات الحفاظ على البيئة وغيرها من الجمعيات بالاستيعاب نفسه للإنترنت مما يخولها استمالة كل الإمكانيات المتاحة لتحدي الشركات الكبرى وإجبار كبرى الحكومات على اتباع شفافية أكبر.

كما كتب جيفري غارتن في كتابه «كيف يفكرالمدير التنفيذي» قائلا: «السؤال الأهم هو هل لمدراء اليوم الحكمة والجرأة الكافيتين لتحدي هذه الشركات الإلكترونية مما يعد المرحلة الأولى من السباق، ثم خوض المرحلة الثانية، الأطول والأكثر صعوبة، ضد بعضهم البعض. أم أن خلفاءهم من الجيل القادم سيقومون بذلك».

لقياس ما يجري على الإنترنت اليوم لا يمكن اللجوء إلى مؤشري نازداك أو

buy.com، بل ما يجري إما في الصين حيث ينتشر استعمال الإنترنت بسرعة مذهلة تجعل من اللغة الصينية بحلول سنة ٢٠٠٧، اللغة الأكثر انتشارا على الشبكة؛ أو الهند حيث أعلنت شركة «أمريكا أون لاين» عن إقامة مشروع استثماري بقيمة ١٠٠ مليون دولار؛ أو أوروبا حيث يتوقع نمو الاقتصاد الالكتروني بمعدل عشرين ضعفا بحلول سنة ٢٠٠٤، يعتبر أفضل دليل.

وكما يصف أوريت غاديش رئيس شركة باين وشركاه الاستشارية ذلك قائلا: «يتكلم الناس عن الإنترنت وكأنها ثورة في مجال الأعمال، في حين أنها ليست سوى مرحلة متطورة من النشاط». ويستطرد قائلا: «تحدث الثورة حين تتبدل طبيعة أو أدوات توزيع الثروة. لكن ما يحدث الآن هوأن مالكي مصادر القوة التقليديين استوعبوا الإنترنت واستفادوا منها كوسيلة. فالإنترنت ستتسبب بالنهاية في ثورة اجتماعية، عن طريق ما وضعته من قوة في يد بعض الأفراد، وكذلك لما منحته من تواصل بين أناس لم يسبق أن تواصلوا من قبل».

ولأنه تم بناء هيكل الإنترنت بسرعة، فإنه بامكان الجيل القادم أن يُحدث ثورة في مجال الأعمال كـ«الإنترنت II» التي لا يفصلنا عنها سوى أربع سنوات، والتي ستضم تشكيلة عريضة من اللاسلكيات ومحولات الإنترنت IPv6 التي ستمكن أي آلة تعمل بالكهرباء من أن يكون لها عنوان إلكتروني مما يجعلها ذكية، وهكذا يصبح بإمكان برّادك أن يتصل بدكان البقالة عبر الإنترنت، أو بإمكان خزانة شركتك الاتصال مباشرة بالمصنع الممول. «الانترنت II شبكة ذكية تمكننا من معرفة واستعمال معدات تقنية مختلفة ومتواصلة ببعضها البعض» مثلما قال بيل نوتي، رئيس شركة سيسكو - فرع أوروبا.

وكما يشير جويل كاولي، رئيس قسم الدراسات الاستراتيجية لدى شركة آي بي أم،أنه في الوقت الذي يتواصل فيه بناء هذه الشبكة التي ستسمح للشركات والأشخاص على السواء بالانخراط في تشكيلة ابتكارات وإبداعات أكثر اتساعا وقوة وبأقل نشاط. ثم أضاف قائلا: «ولذا، بقدر ما تزداد الجماعات الصغيرة قوة أكثر فأكثر، بقدر ما تصبح المؤسسات الكبرى أكثر لامركزية. ولا أحد منا يعلم ما سينتهي إليه الأمر، ولكننا جميعا نعلم أن ذلك سيؤثر على تراتبية السلطة في وبين المؤسسات، الحكومات، والجماعات. وأن القواعد الجديدة الناظمة لمجمل تلك التفاعلات هي في صدد التطور».

٢٠٠١/٢/٢٣

الرمز الأحمر

إثر عودتي إلى البيت الليلة الماضية سألتني إحدى بناتي، المنهمكة في تحضير دروسها، أن أذكّرها بأيهما الأفضل: كوريا الشمالية أم كوريا الجنوبية؟ مما تسبب في حوار طويل حول طاولة العشاء تناول الحرب الباردة وأزمة الصواريخ الكوبية. فشرحت كيف أني أتذكر جيدا الاستماع إلى الراديو أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، وكيف أن مدرستنا أقامت بانتظام حصص تدريبية على الأماكن التي يجب أن نختبئ فيها في حال حصول هجوم نووي.

قالت لي ابنتاي: «لكننا نقوم بالتدريبات نفسها»، وعندما سألتهما أن تشرحا لي، اتّضح لي بسرعة أن الخطر المحتمل إنما ليس هجوما نوويا أو عاصفة رهيبة، بل هو طالب آخر مسلح أو متطفل معتدٍ يطلق النار على مدرستهم. «عندنا الرمز الأحمر» و«الرمزالأزرق» قالت لي ابنتاي، الكبرى في الثانية عشرة والصغرى في الخامسة عشرة. الرمز الأزرق يعني أن يلزم جميع الطلاب فصولهم أو أن يتجهوا فورا إليها. أما الرمز الأحمر فيعني حالة طوارئ قصوى - يجب على جميع الطلبة أن يلتزموا البقاء في فصولهم أو الالتجاء إلى أقرب فصل. كما يجب على الأساتذة إقفال أبواب الغرف بإحكام ووضع الطلبة في أكثر الزوايا أمانا، بعد أن يغلفوا النوافذ بأوراق الجرائد بشكل يصعب معه على أي معتدٍ مسلح معرفة ما إذا كان هناك طلبة في الداخل.

وهكذا فإن طفلتَيّ ليستا متأكدتين من أي الكوريتّين - الجنوبية أم الشّمالية - معنا، إلا أنهما تدركان الفرق بين الرمز الأحمر والأزرق. لقد كبرتُ خائفا من عدوان نووي - صاروخي تشنه قوة عظمى أخرى، في حين كبرتا هما خائفتين من عدوان يشنه شخص غاضب بسلاح أوتوماتيكي. لقد كبرتُ عارفا أن الخطر على حياتي كان قادما من موسكو، في حين أنه ليس لديهما أيّ فكرة عمن من الطلبة سيحمل سلاحا أو سكينا. وهذا ما يقود ني إلى الاستنتاج الآتي: ما الذي يجعلنا نحن والروس نتجسّس على بعضنا البعض؟ إن حلقات الجاسوسية هذه تبدو كأنها مستوحاة مباشرة من كاريكاتير «جاسوس ضد جاسوس» بمجلة «ماد». يتجسس علينا الروس ليعرفوا لماذا نتجسس عليهم. أعني، وبصراحة، هل لا زال هناك أي شيء عن الروس نود معرفته؟

سلاح بحريتهم يأكله الصدأ في الموانئ، آخر غواصاتهم النووية تنام في أعماق المحيط، كما نعلم أنهم يبيعون أسلحة إلى إيران والعراق لأنهم قالوا لنا ذلك. وأن

نظامهم السياسي بخلاف الشيوعية غير قابل للتصدير - إلاّ إذا كنت ممن يرون في الفساد والفوضى وسلطة المخابرات أموراً ترتقي إلى مرتبة الايد يولوجيا. مثلما هد دّ نا خروتشوف بالرد م، يهد دّ نا بوتين بالفساد.

صودف أن تصادقت مع دبلوماسي روسيّ طُرد بتهمة التجسّس. كان شخصا حاد الذكاء، محبوبا، ولم يحدث أن سألني عن أي شيء عدا أن يدفع فاتورة الغداء. وفي معظم لقاءاتنا كان يسترسل في التذمّر من غباء حكومته. قد يكون ذلك تمثيلا، إلا أنه وبكل تأكيد عبّر عنه بكل حماس. وهذا كله يعيدني إلى مدرسة ابنتيّ وما كان يهددني عندما كنت في مثل سنّهما - الاتحاد السوفياتي - يختلف كليا عما يهددهما - طالب مضطرب - إلا أن لكلا التهديدين جامعاً واحداً: ليس لهما علاج بسيط. حين تضطرب السلطة سواء على مستوى الد ولة أو الأسرة يكون من الصعب استعادتها بحيث تصبح هكذا دول أو هكذا عائلات غير مرؤوسة مما يجعلها تهددنا بضعفها وليس بقوتها، إذ يتساوى في الخطورة الأطفال والدول التي ليس لها زعماء، لكن بإمكانهم جميعاً الحصول على الأسلحة بسهولة.

إذاً، كيف يمكننا أن ننقذ بلد مثل روسيا من أن تصبح دولة غاضبة وفاشلة، بأن نجعل منها دولة على المسرح الأممي ومسؤولة في الأسرة الدولية. ذلك ليس بالعمل السهل، فالأمر نفسه ينطبق على إنقاذ شخص شاب، ضائع بأن تجعل منه عضوا صالحا في المجتمع قبل أن يتحول إلى قاتل غاضب. وذلك ليس بالعمل السهل أيضا.

ينتمي الأطفال اليوم إلى أسر مشتتة وممزقة، والتعاطي مع أكثر هؤلاء اضطرابا يتطلب بذل جهود مضاعفة لأن الاقتصار على الخصوصية وحصص كرة السلة المسائية أو الفحوص الإضافية لا يكفي. والأمر نفسه ينطبق على الدول والأمم. كيف يمكن لدولة مثل روسيا أن تتبنى سلطة القانون ونظاما اجتماعيا نزيها وتقاليد المجتمع الديمقراطي هو أمر في غاية التعقيد يتجاوز بكل بساطة استيراد الكتب المدرسية وإقامة الانتخابات أو إلحاق روسيا بنادي السبعة الكبار. وهذا بدوره يعيدني إلى طاولة العشاء وإلى الشيء الأكيد الذي نعلمه وهو أين يجب أن يبدأ العلاج، الذي يجب أن ينطلق من البيت الأسري، الخلية الأساسية لأي مجتمع أو أي دولة. إذ لا تتوقع حدوث أي أمر جيد سواء في دولتك، أو مجتمعك إن لم تبدأ ذلك وتدعمه في بيتك.

٢٠٠١/٣/٣٠

إنهم يكرهوننا! إنهم يحتاجون إلينا!

أثناء متابعتي زيارة الرئيس بوش لأوروبا وما أثارته من موجة عداء لأمريكا، تذكرت أغنية «العلوم السياسية» التي راجت في مرحلة السبعينات لراندي نيومان، التي رثى ساخرا في مطلعها أنه مهما نقوم به من أجل العالم، لا يحبنا أحد. ما العمل إذاً؟ نيومان يقترح أن نفني بقية العالم بالسلاح النووي - أعداء وأصدقاء على السواء - بحيث نبقى بدون متذمرين: «لنلقِ عليهم القنبلة الكبيرة ونرى ما سيحدث».

تذكرنا أغنية السيد نيومان القصيرة بأن العداء لأمريكا لم يبدأ حديثا مع جورج بوش. والسؤال الرئيسي هو ما إذا كان هناك من جديد في موجة العداء هذه، وهل لها أي مضاعفات استراتيجية. حاليا، هناك ميزتان جديدتان وكما يطالعنا الصحافي اليوناني تاكيس ميكاس في كتابه: «الحلف غير المقدس: اليونان وصربيا بزعامة ميلوسيفيتش»، حيث يشرح لنا كيف أنه وخلال مرحلة الحرب الباردة تركز العداء لأمريكا في اليونان وأوروبا بسبب «ما قامت به أمريكا» - وكيف أنها تخلت عما تنادي به من قيم ودعمت أنظمة دكتاتورية في اليونان وأماكن أخرى، في حين أن سبب موجة العداء الحالية - حسب السيد ميكاس - هو «ما هي أمريكا» إذ يتوحد في ذلك أقصى اليمين وأقصى اليسار على السواء بالكنيسة الأرثوذكسية. فاليسار القديم يعادي أمريكا بسبب رأسمالية السوق وعقوبة الإعدام والعولمة. في حين أن عداء أقصى اليمين ناجم عن سياستها الداعمة للتعددية العرقية في منطقة البلقان مما يهدد القوميين اليونان. أما كره الأساقفة الأرثوذكس فهو ناتج عما تمثله أمريكا من إغراء للشباب اليوناني مما يدفعهم إلى التخلي عن تراثهم ودينهم.

إذا كان الأوروبيون لا يحبوننا لما نمثله من قيم، فهل هذا مهم؟ أو هل سيؤدي ذلك إلى نشوء تحالف دولي معاد لأمريكا من شأنه أن يهدد مصالحنا الحيوية؟ هذا هو السؤال الحقيقي. إلا أن ذلك لم يحدث بعد حسب ما قاله محلل السياسة الخارجية الألماني جوزيف يوفا في مقالة رائعة نشرتها مجلة «ناشيونال إنترست» تحت عنوان «من الخائف من السيد الكبير؟»، شارحا لنا كيف أن أي حلف معاد لأمريكا لم ينشأ بعد على الرغم من قوة وانتشار موجة العداء خاصة بين النخب الأوروبية، ومرد ذلك إلى أن لأمريكا جاذبية ناتجة عن - ثقافتها وجامعاتها وأفلامها وأطعمتها وما تنتجه من ملابس ومن تكنولوجيا - وبالتالي لا توجد اليوم أي قوة في العالم معادلة لها. مقابل كل

نخبوي معاد لأمريكا بسبب ما تمثله، هناك عشرة أطفال أوروبيين يرغبون في كل ما هو أمريكي. «أمريكا هي التهديد والإغراء، القد وة والشذوذ في الوقت نفسه» حسب وصف السيد يوفا. وبحكم أن قوة أمريكا المعنوية لا معادل لها - لا وجود لديزني لاند في موسكو، ولا جامعة هارفرد في بيكين - فإن قوتها المادية لا تحتاج إلى من يضاهيها. «لماذا غاب أي تكتل حقيقي مناهض لأمريكا؟» يتساءل السيد يوفا. «لأن أمريكا تضايق وتعادي ولكنها لا تستعمر أو تحتل. ومن لا يحتل لا يسبب في الأحلاف المضادة أو الحروب». كما يشير السيد يوفا إلى ظاهرة العداء الأوروبي لأمريكا بأنه نوع من «التحالف الجديد»، تنقصه الجدية رغم ما يُحدثه من ضجيج. كما أن هناك سبباً آخر وراء عدم قيام حلف مضاد لنا، هو استعداد أمريكا الدائم لتوفير «المتطلبات العامة» الضرورية للحفاظ على النظام في العالم وهو ما يعد أمراً مفيداً للجميع مثل ضمان حرية الملاحة، والعمل على استقرار التبادل التجاري الحر بين الأمم، ومعاقبة بعض الدول المارقة كالعراق مما يعتبر حافزاً في حد ذاته لبقية الدول للتعاون معنا حتى وإن جاهروا بانتقادنا. لأنه هل هناك من هو قادر على حفظ الأمن والاستقرار النقدي في العالم غيرنا؟

وهذا أمر في غاية الأهمية. إذ إن التاريخ يعلّمنا أن فترات الاستقرار النسبي تحدث فقط عندما تكون هناك دولة جاهزة لتوفير أسباب الأمن والحفاظ على اسقرار النظام الدولي - حتى وإن كان ذلك يعني تحمّلها الجزء الأكبر من التكاليف. لذلك لا يشكل العداء الأوروبي لأمريكا أي خطر على الإطلاق. بل الخطر الأكبر يكمن في تناقض أمريكا مع ذاتها، أي حين تتخلى أمريكا عن القيام بواجبها في الحفاظ على الأمن والاستقرار في العالم، أو بأداء القسط الأوفر من النفقات اللازمة لأداء دور كهذا. وفي حال لم يتحقق ذلك لأي سبب كان - كأن يعطل الكونغرس ذلك سواء بدافع الشح أو الغباء، أو كأن ينهار اقتصادنا، أو كأن تكون لدينا إدارة يسيطر عليها أشخاص لا يرغبون في وضع أي ضوابط سلوكية من استهلاك الطاقة إلى نظام الصواريخ الدفاعية، مما يزيل عنا أي جاذبية، بل ويتسبب في نشوء أحلاف معادية لنا. وبكل تأكيد يدرك آل بوش ذلك. أليس كذلك؟

١٥/٦/٢٠٠١

مذكرة من أسامة

إلى: كل الأعضاء العاملين

من: أسامة بن لادن

أيها الرجال، إن هذا ليوم عظيم. هل رأيتم ما حققناه الأسبوع الماضي؟ لقد أخرجنا القوات المسلحة الأمريكية من ثلاث دول عربية بمجرد تهديد فقط. اذ التقطت وكالة المخابرات المركزية حوارا هاتفيا جرى بين بعض رجالنا ناقشوا خلاله إمكانية توجيه ضربة للولايات المتحدة. لاحظوا ما جرى: حتى فريق الأف بي آي في اليمن - الذي كان يحقق في تفجيرنا للمد مرة «يو اس اس كول» في ميناء عدن - جمع حقائبه وغادر بالرغم من توسل وزارة الخارجية لهم بالبقاء. ثم وبمجرد أن أجرينا بعض المكالمات حتى المارينز - نعم المارينز - ألغوا مناوراتهم المشتركة مع الجيش الأردني وهربوا يوم السبت من الأردن عائدين إلى بوارجهم. ثم، وبدافع الخوف من أي ضربة، قامت كل القطع الحربية المتمركزة في البحرين مقر الأسطول الخامس بإجلاء كل الموانئ وأبحرت في عمق الخليج الفارسي. أيها الرجال هناك مصطلح عسكري يصف ذلك بأنه «انسحاب». الله أكبر! الله أكبر!

هل هذه قوة عظمى؟ أدار الأمريكيون أذنابهم بمجرد أن التقطوا بضعة تهديدات منا. الصحافة الأمريكية بالكاد نقلت ذلك، ولم تقم صحافة البيت الأبيض حتى بمجرد سؤال الرئيس عن ذلك. صدقوني، لقد لاحظ الجميع ذلك. إذ إني قلت لهم أشياء كثيرة: الأمريكان خائفون ولا يتحملون أي ضحية في صفوفهم. ولا يثقون في أجهزة مخابراتهم أو في حلفائهم العرب الضعفاء لحمايتهم؛ كما أنهم لا يملكون أي جواب عسكري للرد على تهديداتنا.

أحب أمريكا. جماعة بوش يريدون إنفاق ١٠٠ مليار دولار على درع الصواريخ الدفاعية لمجابهة تهديد لم يقع بعد، متجاهلين في الوقت نفسه الخطر الماثل. هل ينتظرون منا نحن أن نهاجمهم بصواريخ باليستية عابرة للقارات عليها عنوان الباعث. هل هم فعلاً جادون في اعتقادهم؟ أو هل أحمل علامة تقول إني غبي؟ سنضربهم مثلما فجر الإيرانيون مجمع الخبر العسكري في المملكة السعودية، وسنجند مجموعات من النشطاء المحليين الذين يصعب تحديد هويتهم. انظروا إلى الحكم الذي أصدرته المحاكم

الأمريكية فيما يخص تفجير مجمع الخبر العسكري مؤخرا، لقد قاموا بتسمية أربعة عشر شخصا وخمنوا أن المخابرات الإيرانية نسقت بينهم جميعا. إلا أنه ليس لديهم أي أدلة يمكن معها إدانة إيران وبالتالي استحالة حصول أي رد انتقامي. السعوديون هم الوحيدون الذين يملكون الأدلة، إلا أنهم رفضوا تمريرها إلى الأف بي آي. لماذا؟ لأن السعوديين لم يسبق أن وثقوا بأن الأمريكيين سيردون بالشكل المناسب، معتقدين أن الأمريكان سيطلقون بضعة صواريخ على ايران وينسحبون تاركين السعوديين وجهاً لوجه مع إيران. ذكرني هذا بالروس الذين رأوا في مشروع درع الصواريخ الذي تنوي الولايات المتحدة بناءه رغم معارضتهم، فرصة لبيع المزيد من الصواريخ لكل من العراق وإيران والصين فقط من أجل تعطيل ذلك المشروع.

في حين يعتقد رفاق بوش الأغبياء في البنتاغون، أن الروس لن يفعلوا ذلك، لأن تلك الصواريخ ستهددهم في النهاية متناسين أن الروس لا يؤمنون بالدروع الصاروخية بقدر إيمانهم بالروادع التقليدية. حين فجر الشيشان بعض البنايات في موسكو مستعملين صواريخ بشرية، رد الروس بتفجير كل الشيشان. أتذكرون حين تم اختطاف أربعة دبلوماسيين روس في بيروت سنة ١٩٨٥؟ لقد انتقم الروس باختطاف أحد أعضاء المجموعة الخاطفة، اقتطعوا أحد أطرافه وأرسلوها بالبريد، بعدها تم إطلاق رهائنهم فورا. إنها ليست النرويج هناك.

لذلك، فإننا لا نتعاطى إطلاقا مع الروس. إلا أن الأمر الأهم هو هوس دونالد رامسفيلد بالحصول على لعبة الدروع الصاروخية تلك، وهو يردد للجميع أن وسائل الردع التقليدية غير مجدية البتة معنا، لذلك ابتدعوا فكرة الدرع الصاروخي هذه، وما على بوش سوى أن يردد ذلك وراءه. كم أحببت ذلك، لأننا لن نهاجم قوة أمريكا في الداخل فحسب، بل إننا سنضرب مصالحها في الخارج أيضا عن طريق أشباح. لذلك آمل أن يصرف الأمريكان كل موازنتهم العسكرية على درع حرب النجوم الذي لن يكون له أي تأثير يذكر علينا، كما أنه سوف يصرفهم عن اتباع وسائل الردع الحقيقة التي بإمكانها أن تلحق الأذى بنا.

يا سيد رامسفيلد، من يحتاج إلى صواريخ؟ لقد طردنا الأف بي آي والمارينز ومشاة البحرية من الشرق الأوسط بمجرد تهديدات همسنا بها على هاتف نقال. فمن الغبي إذاً؟

الله أكبر. لتسقط أمريكا. وثورة حتى النصر.

٢٠٠١/٦/٢٦

جدران

القدس

سألتني ابنتي المراهقة وأنا أجهز نفسي للسفر عن وجهتي.

«إلى إسرائيل»، كان جوابي.

«لماذا يجب أن تذهب إلى هناك؟» سألتني ثانية بكل تجهم وخوف.

أزور إسرائيل باستمرار منذ الصغر، إلا أن ابنتي - التي ولدت في القدس عندما كنت مدير مكتب «نيويورك تايمز» هناك - لا تميز بين إسرائيل وكوسوفو.

لننظر كم هو مبيد لإسرائيل وليهود العالم أن تتواصل موجة العمليات الانتحارية التي يقوم بها الفلسطينيون وما يتبعها من عمليات انتقامية إسرائيلية. حينها لا يجرؤ على زيارة إسرائيل سوى المتطرفين من اليهود الأرثوذكس وبعض المهووسين بالشرق الأوسط - مثلي -. ومهما نظموا من مسيرات المساندة في نيويورك، فإن ذلك لن يساعد الجيل القادم من اليهود الأمريكان على القيام بتواصل حميمي مع الدولة اليهودية. لأن العديد من الحواجز الصغيرة أقيمت بعد انطلاق الانتفاضة الثانية وانهيار اتفاق أوسلو. فما يحدث الآن هو تراجع الدبلوماسية الكبيرة، اذ كل من إسرائيل ومنظمة التحرير وإدارة بوش وبقية العرب، ينقصهم جميعا القوة والإرادة لإقامة حاجز كبير يفصل بين الدولة اليهودية وجارتها الفلسطينية.

في الحقيقة، يمكن لكل من الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات، ورئيس الوزراء شارون التسامح سياسيا مع الوضع الراهن. فاستطلاعات الرأي حاليا تدلّ على ارتفاع شعبية كل منهما، وأن كلاهما لم يصطدم بعد بقاعدته الشعبية المتطرفة. كما أن هذا الوضع الراهن مناسب للرئيس بوش أيضا. لأنه ما دام السلام لم يتحقق بعد، فهو لن يضغط على إسرائيل من أجل القيام بأي تنازلات، وهو اخر شيء يريده، لأن ذلك سيقوده إلى مواجهة اليهود الأمريكان، الذين يحتاج إلى أصواتهم وتبرعاتهم للحفاظ على الأغلبية التي يتمتع بها حزبه الجمهوري في الكونغرس.

لكن، في حين فشل هؤلاء الزعماء في إقامة حدود فاصلة عبر قبولهم بالوضع الراهن المرفوض شعبيا، فإن الناس أقاموا الملايين من الحواجز الشخصية الصغيرة في كل مكان في إسرائيل لحماية أنفسهم من الأخطار. إذ «صار كل شخص مسؤولا عن

حماية نفسه» مثلما قال لي زميل إسرائيلي. إن مستوطني الضفة الغربية معزولون عن بقية أصدقائهم في إسرائيل، ولا يتجرأون على دعوتهم لزيارتهم خشية أن يتعرضوا إلى إطلاق نار في الطريق. كما أن الأهالي في إسرائيل يرفضون السماح لأبناءهم بالذهاب إلى المجمعات التجارية، دور السينما، أو الملاهي الليلية خوفا من وقوع عمليات انتحارية. أو كما قالت لي إحدى الأمهات «أولا يجب التأكد من أي دور السينما أكثر أمانا، ثم أنظر إلى قائمة الأفلام المعروضة».

حين تذهب شمال القدس باتجاه ضاحية بساغوت، التي تُشرف على رام الله، سترى أن المنازل الجميلة على تلال رام الله، صارت محاطة بجدران اسمنتية مضادة للقناصة، وأكياس الرمل تسد النوافذ. وحين تتجه جنوبا، ما بين القدس وضاحية غيلو باتجاه قرية بيت جالا العربية، تصطدم بجدار طويل لمنع القناصة من إطلاق النار على مستعمرة غيلو، إلا أنه في الوقت نفسه يعزلها. هناك تكثر كتابات بالعبرية على كل أجزاء هذا الجدار التي تقول: الشرق الأوسط الجديد. كما أن بعض المقاهي في إسرائيل استعانت بأعوان حراسة لمنع العمليات الانتحارية.

أثناء زيارتي إلى هارت غيلو المستعمرة الإسرائيلية الواقعة جنوب القدس، أوقفنا حاجز إسرائيلي في مفترق طرق يؤدي أحدهما إلى القدس والآخر إلى قرية فلاجي العربية. وعندما سلكنا، عن طريق الخطأ، الطريق المؤدي إلى القرية العربية، أوقفنا جندي إسرائيلي متسائلاً بغضب «هل تريدون أن تُتشنقوا؟». فكروا في الأمر، تعتبر حالياً قرية الفلاجي جزءا من شرقي القدس التابعة لإسرائيل، إلا أنه لا يمكن لأي يهودي زيارتها بسلام. لذا تم تشييد جدار فاصل.

ساهم بناء المستوطنات الإسرائيلية على مختلف مناطق الضفة الغربية في اتساع رقعة هذه المنطقة العازلة وبالتالي جعل الأمور أكثر تعقيدا، هذا بالاضافة إلى كذب السيد عرفات المتواصل الذي زاد الوضع سوءا. إلا ان الحياة ما بين الانتحاريين الفلسطينيين والعمليات الانتقامية الإسرائيلية جعل حياة الإسرائيليين والفلسطينيين على السواء لا تحتمل، لذلك بادر الجميع إلى الاحتماء بالجدران والحواجز حامليها معهم أينما ذهبوا. يشيد الإسرائيليون الجدران حول منازلهم عازلين بذلك الفلسطينيين عن طرقاتهم، في حين ذهب الفلسطينيون إلى مؤتمر دوربان ليعزلوا إسرائيل عن بقية العالم.

هناك العديد من الجدران إلى درجة يصعب معها معرفة من يسجن من؟

٢٠٠١/٩/١١

المقالات

من ١٣/ ٩/ ٢٠٠١ حتى ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٣

الحرب العالمية الثالثة

القدس

بينما كان الفجر يبزغ ببطء على الأماكن المقدسة، كنت مستلقيا أشاهد محطة الـ«سي ان ان» حين رنّ باذني تعليق وزير المواصلات الأمريكي نورمان ميناتا حول الاحتياطات الواجب اتخاذها - بمنع مواصلة العمل بالتفتيش الجانبي قبل امتطاء الطائرة - في الموانئ الأمريكية على أثر اعتداءات ٩/١١ الفظيعة. فجأة تخيلت مجموعة من الإرهابيين في مكان ما هنا في الشرق الأوسط، يشربون القهوة ويشاهدون الـ«سي ان ان»، متسائلين بتضاحك هستيري: «هل سمعت ذلك أيها الزعيم؟ اقتصر جوابهم فقط على تشديد إجراءات التفتيش، بعد أن فجرنا وول ستريت والبنتاغون».

لم أقصد بذلك انتقاد السيد ميناتا، فهو يقوم بما يقدر عليه. كما أنه ليس عندي أي شك في أن إدارة بوش ستجعل مرتكبي هذه الأفعال يدفعون الثمن غاليا، بعد التأكد من هويتهم. ومع ذلك لا يمكنني التوقف عن التساؤل عن عدم جدوى وسخف قرار تشديد إجراءات التفتيش بالمطارات: هل فعلا تدرك بلادي أن هذه حرب عالمية ثالثة؟ وإذا كان هذا العدوان بمثابة بيرل هاربور الحرب العالمية الثالثة، فذلك يعني أن هناك حرباً طويلة الأمد في الأفق. فهذه الحرب الثالثة لن تضعنا في مواجهة قوة عظمى أخرى - باعتبارنا القوة العظمى الوحيدة المتبقية كرمز لليبرالية، وقيم السوق الحرة الغربية -، بل سنواجه مجموعات من الأشخاص الأقوياء جدا معظمهم قادم من دول العالم الإسلامي الفاشلة. لا يؤمنون بقيمنا، ويغيظهم تأثير أمريكا على حياتهم، وسياساتهم، وأطفالهم، دون ذكر تأييدنا لإسرائيل. وهم غالبا ما يوجهون اللوم إلى أمريكا بسبب فشل مجتمعاتهم في تبنّي الحداثة. أما ما جعل هؤلاء أقوياء جدا فهو راجع بالأساس إلى استعمالهم العبقري لشبكة الإنترنت - ذات التكنولوجيا الراقية التي يكرهونها - لمهاجمتنا. لنفكر في الأمر: لقد جعلوا من طائراتنا الأكثر حداثة صواريخ دقيقة بقيادة بشرية، عبارة عن خليط شيطاني بين تقنيتنا وتعصبهم. ولننظر إلى ما أصابوا: مركز التجارة العالمي، منارة الرأسمالية الأمريكية التي يرفضونها بقدر ما هي مغرية لهم.

والبنتاغون، رمز التفوق العسكري الأمريكي. والأمر نفسه ينطبق على الانتحاريين الفلسطينيين، ومعظم الأماكن التي استهدفوها: «لم يحدث أن فجروا كنيسا أو مستوطنات أو أماكن المتدينين المتطرفين، بل استهدفوا محل البيتزا سبارّو، مجمّع نتانيا التجاري، وملهى دولفينيا الليلي، انهم يخربون إسرائيل المتمدنة وليس إسرائيل المتدينة»، حسبما علق آري شافيت في صحيفة هآرتس.

إذاً، ما المطلوب عمله لخوض حرب ضد أناس كهؤلاء؟ منذ البدء، يستحيل علينا نحن كأمريكيين أن نتمكن من اختراق مجموعات صغيرة كهذه، القائم أغلبها على الروابط العائلية، والذين يعيشون في أماكن كأفغانستان وباكستان وسهل البقاع اللبناني. الوحيدون الذين بإمكانهم اختراق وردع هذه الجماعات الغامضة والمتبدلة أبداً، هم أبناء مجتمعاتهم الذين عجزوا أحيانا على القيام بذلك بنجاح. لذا فلنعط الـ«سي آي اي» فرصة. وكما يخبرنا الضباط الإسرائيليون، فإنهم لم يستطيعوا إيقاف العمليات الانتحارية للجماعات الفلسطينية المتطرفة كحماس والجهاد الإسلامي بشكل فعلي إلا حين قام عرفات وسلطته الوطنية بتعقبهم وسجنهم وردعهم. لذا يصبح السؤال المطروح الآن كالآتي: ما المطلوب منا لجعل المجتمعات الحاضنة لهذه الجماعات الإرهابية تتحرك فعلا ضدهم؟

أولا، يجب أن نثبت أننا جديون في ذلك وأننا ندرك أن هؤلاء الإرهابيين لا يكرهون فقط مجرد سياساتنا بل وجودنا بأسره. كما سبق وأن كتبت مقالا في شهر حزيران حول حقيقة تهديدات أسامة بن لادن عبر هاتف خليوي، دفعت بوش يقرر فورا سحب الـ«أف بي آي» من اليمن، وكتائب المارينز من الأردن، والأسطول الخامس من قاعدته المركزية بالخليج الفارسي. مما اعتبرانسحابا أمريكيا ملحوظا في المنطقة، إلا أنه لم يحظ بأي عناوين بارزة في الصحافة الأمريكية، مما شجّع بدوره هؤلاء الارهابيين. بالإضافة إلى الخوف من وقوع ضحايا مدنيين في صفوفنا، فإننا رفضنا أن يواجه جنودنا الأخطار المحدقة بهمْ. لقد جمع مخططو تفجيرات يوم الثلاثاء بين عبقرية من درجة عالمية وأساليب شيطانية لإحداث أكبر تخريب ممكن. وسنجد أنفسنا في ورطة إذا لم نسخر خيرة أدمغتنا لمحاربة هؤلاء المعتدين - ضمن مخطط مانهاتن للحرب العالمية الثالثة - بنفس الجرأة، الأسلوب، والتكتيك الذي يتبعون. لأنه وإن عدّت هذه الأحداث من أولى المعارك الكبرى في هذه الحرب العالمية الثالثة، فإنها قد تكون الأخيرة التي لا تستعمل فيها الأسلحة النووية.

ثانيا، يجب علينا أن نتوقف عن اللعب المزدوج المستمر منذ سنوات مع حلفائنا

الشرق - أوسطيين. دولة كسوريا مثلا، عليها أن تختار ما بين سفارة أمريكية في دمشق، أو سفارة لحزب الله؟ وفي حال أنها اختارت الأولى، فإنها لا تستطيع أن تواصل استضافتها لهذه الكوكبة من المنظمات الارهابية. لكن، هل يعني ذلك أن تتجاهل الولايات المتحدة المخاوف الفلسطينية، والمظالم الاقتصادية الواقعة على العالم الإسلامي؟ قطعا لا. فالكثير من أبناء تلك المنطقة من العالم يتوقون إلى أفضل ما تنتجه أمريكا، ولا يمكننا أن نتجاهل أننا نمثل أملهم في الخلاص. أما فيما يخص الفلسطينيين، فقد سبق وأن عرضت الولايات المتحدة في كامب دايفد على عرفات الكثير مما يدعي أنه يناضل من أجل الحصول عليه. ذلك العرض حتى وان بدا غير كاف، فإنه لا يعد بأي حال من الأحوال كمبرر للعمليات الانتحارية.

ثالثا، نحن في حاجة إلى حوار جدي، مبني على الاحترام المتبادل مع العالم الإسلامي وقادته السياسيين لمعرفة أسباب تخلفهم. الواقع أنه لا توجد أي منطقة في العالم - بما في ذلك دول جنوب الصحراء الأفريقية - لها هذا الكم من الحكومات الاستبدادية وغير المنتخبة مثلما هو الحال في العالم الإسلامي. لماذا؟. مصر مثلا التي مرت بمرحلة كاملة من النقد الذاتي بعد هزيمة حرب ١٩٦٧، مما نتج عنه دولة أقوى. لماذا يمنع الحكام العرب أي نقد ذاتي؟ أين هم القادة المسلمون الذين سيعلّمون أبناءهم مقاومة الإسرائيليين، دون التعرض للمدنيين الأبرياء أو قتل أنفسهم؟ مهما ساءت الأمور فالحياة لها قدسيتها. الإسلام - بكل تأكيد كديانة عظمى - الذي لم يسمح باضطهاد اليهود مثلما فعل الأوروبيون، يتم تشويهه حين يعتبره الانتحاريون مرشداً لهم. إذ كيف لم يحدث أن أدان أي قائد مسلم ذلك؟ وما تلك إلا عينات من بعض المشاكل التي سنواجهها في هذه الحرب الطويلة الأمد ضد عدو كله حماسة وذكاء. عندما أخبرت ظابطا إسرائيليا بما اعتبرته نجاحا تكنولوجيا مذهلا حققه الإرهابيون بأن يختطفوا طائرات ويفجروا بها المناطق الحساسة لكل بناء، نظر إليّ باستخفاف وعلق قائلا: «ليس من الصعب تعلم قيادة طائرة وهي في الجو»، ثم أضاف: «تذكر أنهم ليسوا في حاجة إلى تعلم الهبوط». طبعا لا. لأنهم مخربون، على النقيض منا نحن المجبرون على القتال بطريقة تحول دون تدمير المجتمع المنفتح الذي نسعى إلى حمايته. علينا أن نقاتل بمرونة، أي أن نقاتل الإرهابيين دون التقيد بأية قواعد وفي الوقت نفسه نحافظ على انفتاح مجتمعاتنا وكأنه ليس هناك إرهابيون. وذلك ليس بالأمر السهل. فالأمر يتطلب منا أكثر استراتيجياتنا نجاعة، وأكثر دبلوماسيينا خلقا، وأكثر جنودنا شجاعة.

٢٠٠١/٩/١٣

مدخّن أم لا؟

القدس

إذا كانت هذه الاعتداءات على أمريكا من قبل شبكة إرهابية متشعبة بمثابة الحرب العالمية الثالثة، فإنه ليس من السابق لأوانه البداية بالتفكير في الانعكاسات الجيوسياسية الطويلة الأمد لهذه الحرب. مثلما نتج عن الحربين الكونيتين السابقتين انقسامات وتحالفات، فإنه قد ينتج عن هذه الحرب الشيء نفسه. لكن كيف سيكون ذلك؟

هنا، يعرض وزير خارجية إسرائيل السابق شيمون بيريز الفرضية التالية: منذ عقود مضت اكتشف الناس أن التدخين مسبب للسرطان مما جعل الناس ينقسمون في الأماكن العامة إلى مدخنين وغير مدخنين. «وبالتالي فالإرهاب هو سرطان العصر» كما يقول السيد بيريز. «في العقد الماضي حاولت العديد من الدول اما انكاره، أو قدمت مختلف الأعذارلتبرير تعاملهم مع الارهابيين. لكن بعد ما حدث في نيويورك وواشنطن، يعلم الجميع أن هذا سرطان مخيف لنا جميعا، مما يتوجب على كل دولة أن تختار إما أن تكون من المدخنين أو غير المدخنين، بما معناه إما معادية للإرهاب أو داعمة له».

قد تصح فرضية السيد بيريز - ويتحقق هذا التقسيم، لكن يجب علينا أن نتخذ أقصى درجات الحذر أثناء حدوث ذلك. وإلى من سنضعه نحن - الولايات المتحدة - في قائمة الدول المدخنة.

وكما لاحظ السيد بيريز نفسه، هذا ليس بصراع حضارات: العالم الاسلامي ضد العالم المسيحي، الهندي، البوذي، واليهودي. فالصراع الحقيقي ليس بين الحضارات بل ضمنها من الداخل بين المتنورين والمنفتحين من المسلمين، المسيحيين، الهنود، البوذيين، واليهود وأولئك المتعصبين حاملي مفاهيم القرون الوسطى. اذ إنه من الخطأ الجسيم أن نتجاهل ببساطة كل العالم الإسلامي ونفشل في فهم ذلك الإحساس بالخيبة لانتمائهم إلى مجتمعات فاشلة لدى كم هائل من المسلمين الذين ينظرون إلى أمريكا كمثال يقتدى به.

وكما علق ستيفن. ب. كوهين، محلل شؤون الشرق الأوسط على ذلك قائلا: «بعد انتهاء الحرب الأهلية خطب الرئيس لينكولن قائلا: تذكروا أنهم مثلنا يعبدون الرب نفسه». ثم أضاف: «والأمر نفسه ينطبق على الكثير من المسلمين، علينا أن نحارب فقط

من يعبدون إله الكره منهم فقط. إلا أننا لا نريد أن ندخل في حرب مع الإسلام في حين أننا نشترك في عبادة الخالق نفسه مع هذه الملايين الغفيرة من المسلمين».

يعبد الإرهابيون الذين اعتدوا على الولايات المتحدة هذا الأسبوع الآه الكره. لم يريدوا بإرهابهم ذلك تغيير سياسة أمريكية معينة، فهم في الواقع لم يتقدموا بأي مطالب. وقد خلت أعمالهم تلك من أي رادع أخلاقي وبدافع الحقد الأعمى، مستهدفين المؤسسات التي تختزل أسلوب عيشنا، وأسواقنا التجارية وقوتنا العسكرية. مما يفرض علينا اجتثاث مثل هؤلاء الإرهابيين وتدميرهم، لكن يجب أن يتم ذلك دون أن يجعلنا من أكبر الداعمين لأسامة بن لادن. لأن هؤلاء المسلمين الإرهابيين لا يريدون فقط قتل الأمريكيين كهدف في حد ذاته. لهؤلاء تفكير استراتيجي، عن طريق التسبب في رد فعل أمريكي لا يميز بينهم وبين غيرهم من المسلمين مما يعد نصرا لهم في حد ذاته - لأن العالم منقسم ومتصارع حضاريا حسب وجهة نظرهم التي يسعون جادين إلى فرضها على بقية المسلمين. إذ لم تستطع الحكومة الأمريكية الانتصار على كبرى شركات التبغ إلا حين خرج بعض العاملين في هذه الصناعة إلى العلن معترفين بعلاقة التدخين بالسرطان.

وفي السياق نفسه، فإن الأمل الوحيد في الانتصار الفعلي على هذه المنظمات التخريبية، لا يتم بقصفها بالقنابل فقط. إن ذلك إجراء ضروري ولكنه ليس كافياً، لأن جيلاً آخر سيخلف مباشرة من قتلوا. فقط مجتمعاتهم ومنظماتهم الدينية هي الوحيدة التي بامكانها أن تسحب منهم الشرعية وتكبح أنشطتهم، وتحقيق ذلك مرهون بشرط أن تدرك الأغلبية من المسلمين أن تنظيم أسامة بن لادن سيقودهم حتما إلى تدمير مجتمعاتهم وتشويه ديانتهم.

إن هذه الحرب الأهلية داخل صفوف المسلمين قائمة منذ سنوات بين الحداثيين والقروسطيين - خاصة في مصر، الجزائر، العربية السعودية، الأردن، وباكستان - ويجب علينا دعم الطرف التقدمي في هذه الحرب الأهلية وما يتطلبه ذلك من استراتيجيا سياسية، واقتصادية تضاهي في تطورها وكلفتها استراتيجيتنا العسكرية.

سيتسبب عدم الرد بضراوة على هذا العدوان الواقع على شعبنا في اعتداء أسوأ منه غدا، وفي حرب لا نهاية لها مع الارهابيين. وفي المقابل، إذا انتقمنا بشكل عشوائي، فإننا بذلك سنتسبب في حرب لا نهاية لها بين الحضارات، حرب ستضعنا جميعا بدون استثناء في خانة الدول المدخنة.

٢٠٠١/٩/١٤

الأمر الفظيع

عمان، الأردن

من سخرية القدر أن أكون متواجدا هنا، في الأردن، أثناء حصول الاعتداءات على مركز التجارة العالمي. فوجئت بالكم الهائل من الرسائل الإلكترونية التي وصلتني من أصدقاء لي على امتداد العالم العربي والإسلامي - من الكويت إلى القاهرة، ومن لبنان إلى تركيا - أرادوا جميعا أن يعبّروا لي، كل بطريقته الخاصة، عن غضبهم مما حدث وليطمئنوا عن عائلتي. تذكرت ما قالته لي سكريترة أردنية بإنكليزية مكسرة إلا أنها بليغة جدا في وصفها لما حدث بأنه «الأمر الفظيع».

لا أقصد بذلك أن أصدقائي في الشرق الأوسط يعكسون معظم الرأي العام هنا. فهم بكل تأكيد لا يمثلون ذلك. اذ يحتاج المرء فقط إلى زيارة أكثر المواقع العربية شعبية على الإنترنت كي يطلع على أن مجمل الرأي العام هنا منقسم مناصفة بين مذهول ومصفق لما حدث. أكثر الرسائل انزعاجا جاءت - حسبما قال لي بعض التقنيين العرب - من العربية السعودية ودول الخليج، التي ينتمي إليها بعض الخاطفين. بل ما قصدته ببساطة، هو أنه لا زال لأمريكا العديد من المعجبين في هذه المنطقة من العالم. وفيما يخص الغاضبين من أمريكا، العديد منهم يقدرونها، يحسدونها، ويريدون أن يعيش أبناؤهم فيها. يحسدون ما للأمريكيين من رقابة على حكومتهم، تفاؤلهم الساذج، واحتفاليتهم بالحرية الفردية، وإيمانهم العميق بأن ماضيهم لن يحجب عنهم مستقبلهم. باختصار، لقد جرب الناس هنا خلال الأسبوع الماضي، للحظات قصيرة ومرعبة، كيف يمكن أن يكون العالم بدون أمريكا. وبعضهم لم يعجبه ما رأى. إذ إن أمريكا ليست بالطرف الخارجي بالنسبة لهم، بل يحمل بعضهم أجزاء منها وإن كان ذلك بشكل غير واضح ومرئي.

هل لذلك جدوى؟ نعم، لأننا نحتاج إلى مساعدة الدول العربية المعتدلة لخوض هذه الحرب. حاليا، معظم القادة العرب مستعد للتعاون معنا - لميل أغلبية من مواطنيهم إلى صالحنا. إلا أن معظم هؤلاء القادة المعتدلين يدعون في الخفاء أن تتبع الولايات المتحدة الحيطة والحذر في تسييرها للحرب، ليقينهم أن الرأي العام هنا - بالرغم من حصيلة القتلى الأمريكيين - لا يعد بأي حال من الأحوال مساندا لأمريكا.

حين حاورت الملك الأردني عبد الله، أحد أصدقاء أمريكا الحقيقيين، يوم الأحد الماضي، حملني ثلاث رسائل حكيمة: بإمكاننا أن ننتصر إذا لم تنسوا أنتم كأمريكان، من أنتم. إذا لم تنسوا من هم أصدقاؤكم. وإذا عملنا مع بعضنا البعض. «الإرهابيون يريدون هدم النسيج الاجتماعي لأمريكا»، قال العاهل الأردني. «يريدون هدم ما تقوم عليه أمريكا. كل ما يريده الارهابيون هو حصول اعتداءات على العرب أو المسلمين فيها، لأنه وفي حالة حدوث صراع طائفي في أمريكا فإنها ستتجزأ وتتفكك، وتندثر معها تلك الميزات التي تنفرد وتختص بها. وهذا ما يريد الإرهابيون تحقيقه». ثم واصل منبهاً: «لذلك يجب أن تحتاطوا في الطريقة التي ستردّون بها، بحيث تعاقبون المعتدين فقط وبشكل يحقق العدالة لا الانتقام. لأنه وفي حال قيامكم بأي رد عشوائي ستفعلون ما أرادوه منكم على وجه التحديد».

إلا أنه وفي الوقت نفسه لا يجب أن تقتصر السياسة الأمريكية على الجانب العقابي، بل يجب أن تقوم على مساعدة ومساندة أصدقائنا في المنطقة. فالأردن مثلا، بلد ذوحكومة واقتصاد واعد - بالرغم من الانتفاضة - حقق نموا قدره ٣,٩ بالمائة السنة الماضية، تحقق ذلك بفضل توخي سياسة السوق الحرة مع التركيز على الصناعات السمعية - البصرية، التكنولوجيا، وتطوير الصناعات النسيجية التي استقطبت العديد من المستثمرين الأمريكان، مما وفر العديد من الوظائف (بالإضافة إلى ذلك يعد الأردن أول دولة عربية توقع اتفاقية تبادل تجاري حر مع الولايات المتحدة، إلا أنه لم تتمّ المصادقة عليها بعد من قبل الكونغرس). وباختصار، أصبح الأردن بمثابة قدوة ناجحة للدول العربية، كما أن للولايات المتحدة مصلحة حيوية في نجاح المثال الأردني حتى يشاهد جيرانه ذلك. لأن الحركات الإرهابية تنمو وتقوى في الدول الفاشلة، الراكدة، الضعيفة، والفاقدة لحكومة شرعية، وليس في الدول المتقدمة. وهذا ما يوصلنا بدوره إلى النقطة الأخيرة التي أثارها الملك، وهي: «الحركات الإرهابية تعمل بالتعاون مع بعضها البعض كمنظمات عالمية، أما نحن فلا. فهم يعرفون كيف ينسقوا مختلف أنشطتهم مركزين على البعد العسكري، وهو ما نفتقده نحن كدول. إذ يرفض البعض تبادل المعلومات، كأن تقول إحدى الدول بأنه لا توجد لديها مشكلة الحركات الإسلامية، وبالتالي ترفض الانخراط في أي مجهود جماعي. وفوزنا على مثل هذه الحركات مرهون بشرط أن يتم التعاون في مكافحتها على مستوى عالمي بنفس النجاعة والكفاءة التي يعملون بها».

٢٠٠١/٩/١٨

قواعد حماه

في شهر شباط/فبراير من سنة ١٩٨٢، واجهت حكومة حافظ الأسد العلمانية تهديدا مميتاً من الحركة الاسلامية التي سعت حينها إلى الإطاحة بنظامه. كيف كان ردّه؟ قام الرئيس الأسد بوصف الانتفاضة أنها صادرة من رابعة كبريات المدن السورية - حماه - التي قام بهدمها تماما، بعد أن قصفها بالأسلحة الثقيلة لعدة أيام. وبعد أن هدأت النيران قام بمسح وتسوية الخرائب بالأرض وعلى مساحات شاسعة. حينها قدرت منظمة العفو الدولية عدد الضحايا ما بين ١٠٠٠٠ و٢٥٠٠٠ قتيل معظمهم من المدنيين. ومنذ ذلك الحين إلى اليوم لم تواجه سوريا أي مشكلة مع الحركات الاسلامية.

حين قمت بزيارة المدينة بعد أن تم تدميرها بدون رحمة، - ومن أجل أن يتم إسكات حماه نهائيا، أراد النظام من المواطنين السوريين أن يذهبوا ويشاهدوا بأعينهم ما حصل ليستخلصوا العبر من ذلك. - كتبت ما معناه: «بدا لي وكأن إعصاراً جارفاً أصاب المدينة بأسرها لمدة أسبوع كامل، إلا أن ذلك لم يكن بفعل الطبيعة».

تلك كانت «قواعد حماه» - القواعد الحقيقية التي تحكم السياسة في الشرق الأوسط - إلا أن تلك لم تكن قواعد على الإطلاق. وبذكر ما تم في حماه، لا أقترح على الولايات المتحدة أن تتبع هكذا أسلوب لأننا لسنا في حاجة إلى أن ندمر مدناً بأسرها، بل في حاجة إلى أن نكون أكثر تركيزا، انتقائية، وذكاء في اجتثاث الإرهابيين. ومن الأهمية أن نعلم أن كل من سوريا ومصر والجزائر وتونس، قد واجهت جميعا تهديدات من الحركات الإسلامية، تم قمعها بدون رحمة أو حماية أية حقوق تذكر. وكجزء من المشكلة التي تواجهها أمريكا اليوم نتيجة لذلك القمع، حصلت أمور ثلاثة كالآتي:

أولا، بعد أن تم قمع الأصوليين من قبل الأنظمة العربية، فرّ بعضهم إمّا إلى أماكن غير خاضعة لأي رقابة في المنطقة - كسهل البقاع اللبناني وأفغانستان - أو إلى حرية أمريكا وأوروبا.

ثانيا، قيام بعض الأنظمة العربية الدكتاتورية والفاسدة وكنتيجة لخوفهم من مواطنيهم، بالتحالف مع الأصوليين، فسمحوا لهم بجمع الأموال تحت غطاء الجمعيات الخيرية ومن ثم تحويلها إلى أسامة بن لادن، وذلك بشرط إلا يهاجموا هذه الأنظمة. وهو ما قام به النظام السعودي على وجه التحديد.

ثالثا، قيام هذه الأنظمة - بدافع لفت الأنظار وتجنب تعرّضها للنقد - السماح لصحافتها ومثقفيها بمهاجمة أمريكا وإسرائيل بحرية مطلقة.

وكنتيجة لذلك، نشأ جيل كامل من العرب والمسلمين حاملا لمثل هذه الصورة المشوهة، بالرغم من حقيقة أن أمريكا تعطي مصر مليارين من الدولارات سنويا، وأن أمريكا دخلت في حروب من أجل تحرير مسلمين في الكويت، والبوسنة، وكوسوفو. وبالرغم من حقيقة أن بيل كلينتون تقابل مع ياسر عرفات أكثر من أي زعيم آخر في العالم. بالرغم من كل ذلك، تم تشويه أمريكا بأنها من ألد أعداء الاسلام. ذلك السبب بالذات ما دفع بالكثيرين في العالم العربي والإسلامي إما إلى التصفيق لما حدث أو بأن يقولوا لك وبصوت عال إنها مؤامرة من تدبيرالـ«سي اي اي» والموساد لإرباك العالم الإسلامي. لذلك نحتاج إلى شراكة المعتدلين العرب - وليس مخابراتهم فقط -. نحتاجهم أن يكونوا أذكياء. لا أتوقع منهم أن يأمروا صحافتهم بمدح أمريكا أو إسرائيل، لهم الحق في إبداء ارائهم تجاههما بكل حرية، لأنهما يستحقان النقد أحيانا. إلا أن ما لم يحصل إلى الآن من أي كان، هو التشجيع على تقديم بديل، وصورة إيجابية لأمريكا، لأن أي مبادرة من ذلك القبيل ستلصق فورا بصاحبها تهمة العمالة للـ«سي اي اي» - مع أن العديدين أرسلوا أبناءهم للدراسة في الجامعات الأمريكية -. حين قامت الأنظمة العربية بقمع الحركات الأصولية، لم يتحدوهم ايديولوجيا ولم يسحبوا اي غطاء شرعي عن تصرفاتهم بأنها منافية للتعاليم الإسلامية. لا يعد العرب والمسلمون الأمريكيون جزءا من هذه المشكلة، إلا أنه بإمكانهم أن يشكلوا طرفا مهما في الحل عبر الانخراط في حوار مع العالم العربي لتقديم صورة مغايرة عن أمريكا.

ترجع المكانة المتدنية جدا التي تحظى بها أمريكا في العالم العربي والإسلامي في جزء منها إلى أننا لم نعبّر عن وجهة نظرنا بشكل جيد، وإلى بعض السياسات التي تبنيناها، وفي الجزء الأخير إلى قيام هؤلاء القادة العرب العاجزين والفاقدين لأي شرعية، بتحويا موجة النقد إلينا، متجنبين بذلك أي نقد داخلي. والنتيجة: يجب أن ننخرط في حرب ضد هؤلاء الإرهابيين الذين هم بالإضافة إلى كونهم مخربين، إلا أنهم - يحزنني قول ذلك - يعكسون المزاج العام في بلدانهم أكثر مما نعتقد.

٢٠٠١/ ٩/٢١

نظرية الحيل الإرهابية

عندما عشت في بيروت في بداية الثمانينات - الحقبة التي شهدت ولادة التفجيرات الانتحارية - اعتادت صديقتي اللبنانية ديالا، أن تحمل معها قنبلة كلما اضطرت إلى السفر بالطائرة، وذلك لكثرة تعرّض طائرات الركاب إلى الخطف بالقنابل. كان ما تقوم به ديالا جزءاً من ملايين الحيل التي اعتمدها اللبنانيون للبقاء على قيد الحياة في مدينة صارت فيها أصوات القنابل وانفجارات السيارات المفخخة جزءا من ضجيج الحياة اليومي. إلا أن أفضل ما أذكره من تلك الأيام، ما قالته لنا مضيفتنا البيروتية في حفل عشاء متسائلة: «هل تريدون أن نبدأ الأكل الآن، أم تنتظرون حتى يتوقف إطلاق النار؟». لم أتوقع أبدا ولا بأي حال من الأحوال أننا سنلجأ إلى مثل تلك الحيل هنا في أمريكا، لذلك أتفهم تماما لماذا أصاب الأمريكيون الخوف، وبالدرجة نفسها أتفهم لماذا قرر أغلبية مجلس الأولياء في مدرسة ابنتي الثانوية إلغاء رحلة كان من المقرر أن يقوم بها طلبة الصف الثامن إلى نيويورك خلال أسبوعين. كما أتفهم أيضا أن هذا الصنف من الاعتداء الإرهابي الذي شهدناه أخطر بكثير مما كان يحدث في بيروت. لماذا؟ لأنه وبعد وقوع هكذا اعتداء أصبح من الصعب أن نثق بأي شيء لأن الثقة بصفة عامة مبنية على قناعة مسبقة بأن بعض الأفعال هي بكل بساطة خارج حدود الخيال البشري. قيام الرجال التسعة عشر باختطاف أربع طائرات مدنية وتفجير ثلاث منها في بنايات مأهولة بآلاف الأبرياء هو، كما أقر بذلك، خارج حدود مخيلتي. لا يقتصر الفشل على أجهزتنا الاستخبارية فقط، بل يشمل مخيلتنا الجمعاء بأسرها في حماية مركز التجارة العالمي.

ما نعرفه عن هؤلاء الارهابيين أنهم أشرار متعلمون وانتحاريون وهو خليط لم أره من قبل في أي مجموعة بشرية. فالأشرار والمتعلمون بالعادة لا ينزعون إلى أن يكونوا انتحاريين - غالبا ما يدفعون بالآخرين إلى قتل أنفسهم -، كما أن الأشرار الانتحاريين لا يحتمل أن يكونوا متعلمين.

وكما هو معتاد حين تخوننا مخيلتنا بشكل مخيف تتولد لدينا ردة فعل عكسية بالجنوح بخيالنا بعيدا حيث نتوهم الأخطار في كل مكان، بشكل نصبح معه وكأننا مشلولون. وهذا فخ يجب ألا نقع فيه. حين أخذت عائلتي مساء الجمعة الماضي إلى بالتيمور لحضور مباراة «بيسبول»، وفور وصولنا تسلمنا ورقة بها قائمة بما لا نستطيع حمله معنا إلى داخل الملعب تحت عنوان «احتياطات أمنية». وبصراحة، فإجراءات

التفتيش بالمطار، كاستعمال أشعة الليزر لا تضايقني أبدا. إلا أنني آمل ألا نصل إلى يوم تصبح فيه مثل هذه الإجراءات إلزامية قبل حضور حفل غنائي أو مباراة «بيسبول». صدقوني، إني لا أتعامل بسذاجة مع مثل هذه الأخطار، إلا أني آمل أننا في مواجهة عدد ضئيل من الإرهابيين، بالإضافة ربما إلى دولة مارقة أو اثنتين، وهو أمر يمكن التحكم فيه واحتواؤه على المدى الطويل بدون أن نكبل أنفسنا.

لقد كان أهل بيروت على حق. ففي عالم اليوم لا وجود لما يسمى بالحماية المطلقة. بعد أن تأخذ جميع الاحتياطات المعقولة، عليك أن تقرر أساسا: إما الاختفاء والبقاء داخل البيت إلى الأبد، أو مثلما كانت تفعل صديقتي ديالا، إما اللجوء إلى مختلف الحيل، أو عدم اللجوء إلى أي منها على الإطلاق، والاستمرار بحياتك.

كان مرشدي في مثل هذه الظروف هو صديقي الراحل جورج بيفر (إنكليزي مجنون في الثمانينات من العمر) الذي كان وعلى مدى الحرب الأهلية اللبنانية، يلعب الغولف يوميا تقريبا في نادي الغولف البيروتي. أعترف أني أحيانا التحقت به لمشاركته اللعب، وحين أسأله قائلا: «جورج، وكما تعلم ألا يعدّ من قبيل الجنون لعب الغولف في مثل هذه الظروف؟»، كان يرد عليّ دائما بأفضل الأجوبة: «أتفق معك في ذلك. لكن ألا يعدّ جنونا أكبر عدم القيام بأي نشاط؟».

غير قادرين على حبسنا، عبثا يريد هؤلاء الإرهابيون منا أن نحبس أنفسنا. آسف ذلك غير ممكن. وبقدر ما يحزنني التفكير فيمن فقدوا غاليا في١١/٩، إلا أني لا أسمح لذلك الإحساس أن يثني عزيمتي. فقد حضرت مباراة الجمعة مساء، ويوم السبت ذهبت إلى مركز كينيدي الثقافي لسماع سيمفونية العالم الجديد لدفوراك، وبعد أن ذهبت إلى واشنطن صحبة ابنتَيّ للإفطار، ركبت الطائرة قاصدا جامعة ميشيغان. كما أني خرجت بالأمس لشراء حطب التدفئة. يا له من وطن رائع.

أتساءل، ما الذي قام به أسامة بن لادن بالأمس في كهفه بأفغانستان؟

٢٠٠١/٩/٢٥

نراكم لاحقا

في اليوم الذي تلى تفجيرات مركز التجارة العالمي، استدعاني التلفزيون المصري لشرح انعكاسات ذلك على المجتمع الأمريكي، مما تطلّب مني أن ألخص إجابتي كما يلي: تصوروا كيف سيكون شعور المصريين إذا قام ثلاثة انتحاريين بتفجير طائرات في

الأهرامات وقتل آلاف الأبرياء بداخلها. يعدّ برجا مركز التجارة بمثابة أهراماتنا التي دمرت، بنيتا من الحديد والبلور بدلا من الجحارة، وكرمز لحرية التبادل التجاري. كما أني لست متأكدا تماما مما إذا كان العالم يدرك حقيقة ما عناه ذلك للأمريكيين، لسنا نحارب من أجل كوسوفو، البوسنة، الصومال، أو الكويت. بل إننا نحارب من أجل وطننا. والأمريكيون سيحاربون حتى الموت من أجل وطنهم.

لكن السؤال المطروح الآن هو كيف سنحارب من أجل تحقيق ما يريده الشعب الأمريكي - ليس الانتقام، بل العدالة والأمن - مما يتطلب منا مقاربة واستراتيجيا جديدتين لإدارة هذه الحرب.

أي مقاربة؟ من المفروض أن نكون أكثر جدية وتركيزا، وأقلّ جنوناً. ولا أقصد بذلك أن نقوم بقتل الناس عشوائيا، خاصة الأفغان الأبرياء. بل أن نجعل الإرهابيين ومناصريهم يدركون من الآن فصاعدا، أننا سنتبع مختلف الطرق والوسائل للدفاع عن أسلوبنا في العيش، وسنجعلهم يشعرون بالخوف ما داموا أحياء، لأنه بقدر ما يخاف أعداؤنا أكثر اليوم، بقدر ما نحتاج نحن إلى القتال غدا.

أما فيما يخص الاستراتيجيا الجديدة، إذا كانت الأولوية هي تدمير شبكة أسامة بن لادن في أفغانستان، علينا أن نعي حاجتنا إلى تنظيم مشابه - من حيث صفة المحلية - لأداء تلك المهمة. لنتصورالآتي: إذا كان أسامة بن لادن مختبئا في أدغال كولومبيا بدل أفغانستان، مساعدة أي من هؤلاء سنحتاج لإلقاء القبض عليه؟ هل القوات الخاصة في الجيش الأمريكي؟ أم الجيش الكولومبي؟ لا أعتقد ذلك.

في الحقيقة سنحتاج إلى عصابات ترويج المخدرات لما لهم من صفات ثلاث ضرورية وهي: قدرتهم على العمل السري وبراعتهم في اجتثاث العصابات المزاحمة، كتنظيم السيد بن لادن. إمكانية رشوتهم وقدرتهم على رشوة الآخرين. وأخيراً، يفهمون بوضوح ما نعنيه بقولنا إننا نريد شخصا ما «حيا أو ميتا» أن ذلك يعني «ميتا أو ميتا».

الكارتل الكولومبي لا ينشط في أفغانستان، إلا أن المافيا الروسية بكل تأكيد تعمل هناك، مثلما هو الحال بالنسبة لمختلف الفصائل الأفغانية، عصابات تهريب المخدرات، وعناصر المخابرات الباكستانية. لهؤلاء جميعا أعوانهم المحليون، الذين سيكون لهم دور فعال في خوض الجبهة الأفغانية لهذه الحرب.

«أفضل خبر سمعته خلال هذا الأسبوع، هو قرار فلاديمير بوتين الجدي بالالتحاق بالتحالف، لأن شخصاً كهذا بإمكانه أن يساعدنا كثيرا الآن» حسب تعبير موزس نعيم،

محرر مجلة السياسة الخارجية. موزس على حق، هناك أمر ما يشير إلى أن الرئيس الروسي وأحد مخضرمي الـ«كي جي بي»، معه رقم هاتف شخص ما في المافيا الروسية الذي يعرف شخصا في الكارتل الأفغاني الذي يعرف بدوره الشخص الذي يعرف أين يختبأ السيد بن لادن. ستصبح حربا من هذا القبيل: جبهة فوق الأرض يخوضها جنود وجنرالات بالدبابات، وأخرى تحت الأرض يخوضها عملاء وجواسيس. ولتسيير هذه الحرب بنجاعة، يفترض من السيد بوش ومستشاريه أن يقدموا لأنفسهم خدمة جليلة بألا يكثروا من التصريحات، حتى لا يناقضوا بعضهم البعض متوخين السرية ذاتها التي يلتزم بها الإرهابيون. ويتركوا أفعالهم هي التي تعبّر عنهم، لما في ذلك من خطر على العدو.

لكل مجال مقال، ومجال الحديث سيأتي لاحقا. كما سيكون هناك مجال للتعامل مع الدول التي رعت الإرهاب، ومجال للعمل على إيجاد حل سلمي للصراع العربي - الإسرائيلي ودعم التنمية الاقتصادية. أما الآن - والآن تحديدا - ينحصر مجال عملنا في اصطياد من يريدون تدمير بلادنا. لا الحرب وحدها ولا العمل الاجتماعي كذلك يقدران على حل هذه المشكلة. يتمثل خيارنا الوحيد في حرب سرية ومركزة، التي ستخلق نوعا من الردع لم يسبق له مثيل. بعد ٩/١١، يجب على كل دولة أن تدرك أنه من الخطأ القاتل رعاية الحركات الإرهابية المعادية لنا.

وباختصار، يجب أن يدرك الجميع أننا مصممون بكل جد وعلى استعداد لاستخدام كل الأساليب والوسائل للقضاء على الإرهابيين. كما قال ذات مرة زعيم إحدى الميليشيات اللبنانية بشير جميل قبل اغتياله، واصفا الشرق الأوسط: «هذه ليست النرويج ولا الدانمارك أيضا».

٢٠٠١/٩/٢٨

مدرسة إيسترن الإعدادية

حضرت أخيرا اجتماع الأولياء في مدرسة إيسترن الإعدادية في ضاحية سيلفا سبرنغ بميريلاند، التي ترتادها ابنتي ناتالي. افتتح الأمسية الناظر العام مشيرا إلى أن هذه المدرسة العمومية تشتمل على طلبة من أربعين جنسية مختلفة، ثم تعرفنا على الأساتذة، وعلى الفرقة الموسيقية المكونة من الطلبة والتي تشبه قارب النبي نوح لما فيها من أعراق مختلفة، من سود وهسبانك وآسيويين وبيض الذين أنشدوا جميعا «ليحرس الرب

أمريكا». لقد كان في الإنشاد الجماعي على إيقاع الأوركسترا للنشيد الوطني لهؤلاء الأطفال نبرة من الصدق التي هي مؤثرة ومطمئنة في الوقت نفسه. وبينما كنت مأخوذا بما أرى وأسمع، جالت بخاطري درجة جهل هؤلاء الإرهابيين الإسلاميين للعديد من الأشياء حول أمريكا التي اعتدوا عليها.

إنهم يرددون باستمرار أن أمريكا بلد الثراء الخالي من القيم. وكما يعتقد هؤلاء الإرهابيون الإسلاميون أن ثراءنا وقوتنا لا رابط لهما بروح هذا الوطن - اننا أساسا دولة بدون رب، بل أعداء للرب - مما يبيح قتلنا. كما يعتقدون أيضا أن الثراء والقوة لا يتحققان إلا إذا تخلينا عن قيمنا، وذلك ناتج عما يشاهدونه في أماكن كالعربية السعودية، حيث يعيش العديد من الأغنياء حياة منافية لتعاليم دينهم.

بالطبع، فما غاب عن تفكير كهذا، هو أن ما تتمتع به أمريكا من ثراء وقوة إنما هو نابه من عقيدة روحية صلبة قائمة على روح الاحترام للفرد، وروح التسامح وقبول الآخر وإن اختلفت عقيدته الدينية أو السياسية، واحترام حرية التفكير التي تعتبر شرطا جوهريا لكل إبداع، وروح التلاحم والتعاضد التي من شأنها أن تذيب كل الاختلافات والفروقات. فقط مجتمع كهذا، ذي طاقة روحية كبيرة يرحب بالمهاجرين ويقدس الحرية، بإمكانه أن يجدد نفسه ويجدد مصادر قوته وثرائه باستمرار. وهو ما يفسر كيف استطاع الإرهابيون اختطاف طائرات البوينغ، التي يستحيل عليهم صناعتها في المجتمعات الوحدانية والفاقدة للروح التي ينوون تشييدها. وكما بإمكانهم أن يستعملوا الإنترنت الأمريكية الصنع، إلا أنهم، في مجتمعاتهم الخانقة ذات الرب الواحد، الحقيقة الواحدة، الطريق الواحد، والقائد الواحد، لن يستطيعوا اختراعها. فالخالق وحده يعلم أن بلادنا بالكاد تكون مثالية، فقد انحرفنا في أحيان كثيرة عن قيمنا أو طبقناها بشكل أناني، إلا أننا نعود ونتمسك بها أكثر، وهكذا تبقى بلادنا قوية وقابلة للتجديد.

أما لماذا لم نقم بنشر تلك القيم؟ من ناحية، يقع اللوم علينا. فأثناء حملته الانتخابية قام الرئيس بوش بتشويه سمعة واشنطن، بترديده ذلك الشعار الأناني: «انها أموالكم وليست أموال الحكومة» قاصدا بذلك الفائض القومي الخام. كم ممنونون نحن اليوم أنه عندنا كل تلك المؤسسات القوية في واشنطن دي سي مثل FEMA وFAA وFBI والقوات المسلحة بالإضافة إلى ذلك الفائض النقدي مما سيساعدنا على الخروج من هذه الأزمة.

ومن ناحية أخرى، ومثلما جرت عليه العادة، كنا نتجنب الخوض في مثل هذه

الأمور حتى لا نحرج حلفاءنا من الحكام المستبدين في الشرق الأوسط. لأنه في الحقيقة تم نشر هذه الصورة السلبية لأمريكا - كدولة حققت مالها من ثراء وقوة متجردة من أي قيم روحية - بإشراف وتوجيه حكومات ومنظمات في الشرق الأوسط وذلك ضمن تبريراتهم لفشلهم في تحقيق حياة أفضل لمواطنيهم: إن القوة التي يتمتع بها الأمريكيون ترجع بالأساس اما إلى ما سرقوه منا أو من غيرنا، وليس إلى أي ميزة روحية أو إنسانية لمجتمعهم.

هل أن مجتمعاً ظل يحفر في أنقاض مركز التجارة العالمي لإيمانه العميق بقدسية النفس البشرية، وجمع مبلغ ٦٠٠ مليون دولار خلال أسبوعين لصالح عائلات الضحايا، هو مجتمع بدون عقيدة ولا يؤمن بالخالق؟ أو هكذا أساء هؤلاء الإرهابيون فهم أمريكا، الذين اعتقدوا أن قوتنا تكمن فقط في مركز التجارة العالمي وفي البنتاغون - الأعمدة التي يقوم عليها ثراؤنا وقوتنا - وأنه بمجرد تدميرهما سننهار، وكأننا مثلهم لنا حقيقة واحدة ومركز واحد.

في الحقيقة، تكمن قوتنا الفعلية في مثل هذه الأمسية التي جمعت بين الأولياء والمدرسين تحت سقف هذه القاعة القديمة في مدرسة إيستر الإعدادية وآلاف المدارس مثلها على امتداد البلاد، حيث ستجد السواعد التي شيدت برجي مركز التجارة العالمي والتي تستطيع تشييدهما ثانية أي وقت نشاء.

إذاً، وفي مثل هذه الأوقات العصيبة، إن أردت أن تتأكد من مدى قوة وصلابة هذا الوطن، ومن جوهر ما نحارب من أجله، ما عليك إلا أن تبادر بحضور أحد اجتماعات لجنة الأولياء والمدرسين، حيث ستتعرف على كل ذلك بشكل مباشر وواضح.

٢/١٠/٢٠٠١

نعم، لكن ماذا؟

بناء على ما نشرته الصحافة الأجنبية، يمكن تلخيص رد الفعل العالمي نتيجة الاعتداءات الإرهابية التي تعرضت لها الولايات المتحدة بأنها كانت في شكل إدانة في مجملها، إلا أن أغلبها كان كما يلي: «نعم، لكن...». نعم هذا عمل فظيع، لكن بطريقة ما استحقت أمريكا ذلك، أو تتحمل مسؤولية الغضب الذي تسبب في مثل هذه الأفعال.

من المدهش حقا كيف تقبّل بعضهم ذلك سواء في الخارج أو في الجامعات الأمريكية، شارحين لنا دوافع الإرهابيين الذين لم يتركوا مذكرات شارحين فيها دوافعهم، لأن أفعالهم هي مذكراتهم التي تقول: نريد تدمير أمريكا، بادئين برمز قوتها العسكرية والمالية. إذاً، أي جزء من الجملة لم يفهمه الناس؟ هل سبق أن سمعت أسامة بن لادن يقول: «فقط أريد أن أرى إسرائيل تنكفئ إلى حدود ١٩٦٧»، أو «ليست لدي أي مشكلة مع أمريكا، فقط أريدها أن تقلص من وجودها العسكري والثقافي في العالم الإسلامي». لا يهدف مثل هؤلاء الإرهابيون إلى أي نوع من التعايش معنا، تدميرنا هو كل ما يسعون إليه. وعلى ما يبدو لم يرد أي ذكر لذلك من قبل أصحاب طروحات «نعم، لكن. . .»،أشهرها تلك التي تقول: لم يكن من الممكن حدوث مثل تلك الاعتداءات لو لم تكن أمريكا مساندة لإسرائيل على ذلك النحو. ردي على مثل هذه المقولات هو: «نعم، لكن. . . لكن. . .». نعم، لا جدال في ذلك، فدعم أمريكا لإسرائيل - بالرغم من جشعها ببنائها لمستوطنات في قلب قطاع غزة - خلق غضبا مفهوما لدى العالم الإسلامي. لكن الجدل لا يتنهي عند هذا الحد، لقد بذلت أمريكا مجهودا في الاتجاه المعاكس كذلك. كلنا يعلم أن أحداث ٩/١١، تم التخطيط لها منذ سنة خلت - في الفترة نفسها التي اقترح فيها بيل كلينتون على ياسر عرفات قيام دولة فلسطينية على ما يقارب ٩٥ بالمائة من الضفة الغربية وشرقي القدس - مع هدم كامل للمستوطنات عدا الخمسة بالمائة المتبقية. بلغة أخرى لقد تم التخطيط لهذا الاعتداء لأن أمريكا تدخلت بقوة لبناء حالة من التعايش بين الإسرائيليين والفلسطينيين وليس العكس.

فيعترض عليك أصحاب «نعم، لكن. . .» قائلين إن الرأي العام العربي ملتهب لما تعرضه شاشات التلفزة العربية من صور القمع الإسرائيلي للانتفاضة الفلسطينية. نعم، لقد بالغت إسرائيل أحيانا في استعمال القوة، وللمرء أن يتفهم كيف تتم رؤية ذلك بأعين عربية. إلا أنه وفي الوقت نفسه كانت إسرائيل ترد على عمليات انتحارية استهدفت الملاهي والمطاعم لم تعرضها القنوات العربية.

وأكثر من ذلك، لم تكن الانتفاضة هي أمل الفلسطينيين الوحيد، لقد كان هناك مسار دبلوماسي تضمّن عرضاً، وإن لم يتم قبوله بشكل تام من الفلسطينيين، إلا أنه وبكل تأكيد جدير بالاهتمام. عدا عن العمليات الانتحارية ضد المدنيين الإسرائيليين التي لا مبرر لها. لقد تصرف الحكام العرب والإعلام العربي وكأن عرض بيل كلينتون المتعلق بقيام دولة فلسطينية لم يحصل.

الـ«نعم، لكن. . .» الأخرى هي أن الإرهابيين يعكسون حالة احتجاج على فقر

المسلمين. نعم، الفقر يسبب اليأس. وعموما، لقد كانت أغلبية الخاطفين من متعلمي الطبقة الوسطى من السعوديين والمصريين. هل هو خطأ أمريكا أن يكون لأثرى عائلة حاكمة في العالم - آل سعود - مواطنون فقراء ومحبطون؟ هل هو خطأ أمريكا أن كوريا التي كانت تتساوى في دخلها القومي مع العديد من الدول العربية في الخمسينات، وتمكنت من التطور والنمو بشكل يفوق بكثير اقتصاد مجمل الدول العربية مجتمعة؟ أو أفغانستان التي تحكمها دكتاتورية طالبان القروسطية والتي تمنع النساء من العمل أو الدراسة. كيف يمكن لبلد كهذا أن لا يكون فقيرا؟ ومن كان الراعي الأكبر لمجتمع طالبان الرجعي؟ أسامة بن لادن ورجاله.

هناك شيء مغلوط فيما تروج له العربية السعودية، بأن مساندة أمريكا لإسرائيل هي المسبب الرئيسي للإرهاب الأصولي - في الوقت الذي كان فيه العديد من السعوديين من بين الخاطفين، وفي الوقت الذي تسامح فيه النظام السعودي مع الحركات الإسلامية المتطرفة التي وفرت الإرشاد الايديولوجي لهؤلاء الشباب، في الوقت الذي كانت فيه السعودية الممول الرئيسي لحركة طالبان، وحين قامت العائلة السعودية الحاكمة بتهميش بعض مواطنيها الأتقياء إلى درجة أنهم انخرطوا في المعارضة الإسلامية. هذا النظام السعودي، حسب مقال نشرته مجلة الايكونوميست مؤخرا تحت عنوان «العربية السعودية: متاعب الدور المزدوج» حيث غمزت من خلاله إلى تمويلها غير المباشر للسيد بن لادن كاستجابة للانتقادات التي تتعرض لها من المتشددين الإسلاميين.

قطعا لا أريد انهيار النظام السعودي، لأنهم وبكل تأكيد يريدون أن يصبحوا جزءا من الحل. لكن ماذا عن قليل من الصراحة؟ نعم، إن أمريكا بحاجة إلى مراجعة سياساتها وأفعالها، لكن، لكن، لكن... لسنا الوحيدين الذين يحتاجون إلى مراجعة أنفسهم.

٥/١٠/٢٠٠١

إنها الحرية يا غبي

عند قراءتي لمذكرات ريتشارد ريفز الشيقة حول ريتشارد نيكسون، صودف أن لفتت انتباهي فقرة تتعلق بإسرائيل. وهي عبارة عن مذكرة بعث بها سنة ١٩٦٩، إلى هنري كيسنجر واصفا شعوره الشخصي، والشعور الأمريكي العام تجاه إسرائيل: «على الإسرائيليين أن يدركوا أن مصالحنا هي بالأساس في دعم الحرية وليس فقط في دعم

إسرائيل بسبب الناخبين اليهود. . . على غولدمائير. . . أن تثق تماما بنيكسون. مما سيجعله يرى في ذلك أن لإسرائيل دائما حدوداً. وهو ما ستكون عليه سياسة هذه البلاد. بشرط أن يفهم الإسرائيليون ذلك ويتصرفوا بناء عليه، وإلاّ فإننا سنتخلى عنهم». لقد وجدت هذه الفقرة ملهمة جدا، لأن نيكسون لم يكن يحب اليهود، إلا أنه كان متفهما جدا لطبيعة الشعب الأمريكي - وإلا لما انتخبوه رئيسا -. ما فهمه نيكسون حينذاك هو تلك النظرة الإيجابية التي تتمتع بها أمريكا حول العالم كداعية للحرية: حرية إبداء الرأي، حرية المعتقد الديني، حرية التجارة، والحرية السياسية. وفي حين تتحالف أمريكا مع مختلف الأصناف من الدول سواء لأسباب استراتيجية أو اقتصادية، فإنه في نهاية المطاف لا يجوز لها أن تتخلى عن الدول التي تؤمن وتصون حرية مواطنيها، بل ويجب أن تحتفظ بروابط خاصة معها.

لست متأكداً من أن جميع شركائنا في الحرب على أسامة بن لادن يعون ذلك. في الحقيقة، حلفاؤنا الحقيقيون يعدون على رؤوس الأصابع: بريطانيا، فرنسا، كندا، ألمانيا، واليابان. أما السعودية، مصر، وسوريا لا ولن يكونوا حلفاء حقيقيين لنا أو شركاء متساوين معنا، وذلك ليس لفقدانهم القوة العسكرية بل لأنهم وفي العمق لا يشتركون معنا في المبادئ نفسها التي نحاول الدفاع عنها. إذ يقتصر دور هذه الأنظمة العربية على الهمس من الخلف فقط، - لا يمكنهم أن يعلنوا عضويتهم بصوت عال، ويخبروا شعوبهم بذلك. لأننا ندافع عن الحرية التي لا يؤمنون بها ولا يريدونها سواء لمجتمعاتهم أو لغيرهم. كل ما يعنيهم هو البقاء في السلطة. وكما شرح خبير شؤون الشرق الأوسط ستيفن كوهن قائلا: «للأنظمة مثل مصر، السعودية، والسلطة الفلسطينية خوف مبرر من الديمقراطية، خشية فوز الحركات الإسلامية غير الديمقراطية بدورها في حال حدوث انتخابات حرة. إلا أنه على هؤلاء الحكام العرب أن يفهموا أنه وفي حالة قضائنا على الحركات الإسلامية - التي ظهرت كنتيجة للسياسات الخاطئة لأنظمتهم -، فإن ذلك لا يعني السماح لهؤلاء الحكام بالاستمرار في منع أي نشاط ديمقراطي في بلدانهم. نريد أن نجعل من العالم مكانا ملائما للعمل الديمقراطي، في حين يريد هؤلاء أن يجعلوا من العالم العربي بؤرة استبداد».

أما الشخص الآخر الذي لم يعِ ذلك بعد هو آرييل شارون، الذي قال إن أمريكا في خطر لتصرفها مثل الذين هادنوا هتلر عشية الحرب العالمية الثانية، واصفا قرار بوش الداعم لقيام دولة فلسطينية بأنه قرار غبي وخاطئ. نعم، لقد أعلن السيد بوش عن ذلك قائلا: «نحبذ قيام دولة فلسطينية، لكن ومنذ السنة الماضية لا نعلم إن كان هناك زعيم

فلسطيني مستعد بكل جدية للعيش بسلام مع إسرائيل». يبدو من السخافة القول وبعد كل هذا الدعم العسكري والدبلوماسي والاقتصادي على مدار العقود الماضية، بأن أمريكا ستتخلى عن إسرائيل. وكتنبيه إلى السيد شارون نقول له إن أمريكا تخوض حربا من أجل الدفاع عن حريتها - الحرب نفسها التي ساعدنا إسرائيل على خوضها على مدار السنين الماضية -، وعندما تكون أمريكا في حالة حرب كهذه، كل ما يتوجب على إسرائيل هو أن تعرض مساعدتها لنا لا أكثر. هناك نقطة أخرى يحتاج السيد شارون أن يفهمها: كل ما تهدف إليه أمريكا من حربها على الإرهاب هو أن يتسنى للعالم الحر - بما فيه إسرائيل - التمتع بما لديها من حريات لا أكثر. وذلك لا يعني أننا نهدف من وراء إزالة الخطر الأصولي بأن يكون لإسرائيل حرية مطلقة في بناء المزيد من المستوطنات وابتلاع المزيد من الأراضي الفلسطينية، مما يعقد الأمور أكثر على الفلسطينين الذين هم في حالة حرب بين بعضهم البعض حول إبرام معاهدة سلام مع إسرائيل. فقط حين يتفق الفلسطينيون فيما بينهم، حينها على السيد شارون أن يفهم بوضوح أننا بدخولنا في هذا الصراع، جادون في جعل العالم أكثر أمانا وحرية للجميع بما في ذلك لإسرائيل، مما يعني عدم السماح لها باحتلال الضفة الغربية بناء على تعاليم التوراة.

٢٠٠١/١٠/٩

من بوش إلى بن لادن

لقد طلب البيت الأبيض من قنوات التلفزة الأمريكية الامتناع عن بث الخطب الصادرة عن أسامة بن لادن. عوضا عن الرقابة، آمل أن يرد عليه الرئيس بوش بخطاب يكون كالاتي:

عزيزي بن لادن: بعد أن استمعت إلى خطبك التي بثتها قناة الجزيرة، ويقيني بعدم وجود أي زعيم عربي أو إسلامي، له من الجرأة ما يخوله الرد عليك، لذلك قررت أن أقوم بذلك بنفسي. وبصراحة، ان تصريحاتك تدعو إلى الشفقة، كما تؤكد أنه لا فهم لديك على الإطلاق فيما يتعلق بالأسباب الحقيقية وراء قوتنا نحن أو ضعف هذه الأنظمة العربية التي تحتقر. لقد وصفت الاعتداءات الانتحارية بأنها رد انتقامي لـ«ثمانين سنة من الذل والمهانة» عاشتها الأمة الإسلامية، كما أشرت إلى المختطفين بأنهم طليعة الجيش الإسلامي خرجوا «لتدمير أمريكا» زعيمة «الإلحاد العالمي»، واصفا الحكام العرب بـ«المنافقين» و«الحكام بالوراثة».

الشيء الأكثر وضوحا في تصريحاتك تلك، هو ما لم تقله. إذ إنك لم تقدم أي رؤية حول المستقبل، وكما آمل، ربما قد تكون هذه وصيتك الأخيرة التي من المفروض أن تقول فيها شيئا ما للأجيال القادمة، إلا أنك لم تفعل. اقتصرت رسالتك إلى العالم الإسلامي على الإشارة إلى من يتوجب عليهم أن يكرهوا، دون ذكر ماذا يجب عليهم أن يبنوا، عدا عن كيف. وذلك راجع إلى جهلك بالتاريخ الإسلامي الذي حقق أعلى درجات التقدم والرقي وما حققوه من إنجازات كبيرة في ميدان الرياضيات والعلوم والطب والفلسفة، مستفيدين من الانفتاح على أفضل تعاليم الحضارة الإغريقية والرومانية. لقد تم ذلك في عصر كان فيه الإسلام في أقصى درجات الانفتاح على العالم وما صاحب ذلك من مساهمات فعالة لأقليات مختلفة من مسيحيين ويونانيين ويهود - الذين يستهزئ بهم واصفا إياهم بالكفار -، عصر تبادل فيه المسلمون تجاريا مع مختلف بقاع العالم. أما تفسيرك الرجعي الضيق، والمليء بالكراهية للإسلام - معاملة النساء كالبقر وكل من هو غير مسلم كعدو - لم يتوافق مع أي مرحلة من مراحل الازدهار الإسلامي، وسوف يتعذر تحقيق ذلك.

ما هو جدير بالملاحظة، أن الدولة الوحيدة التي ذكرتها بالاسم في خطبتك هي العراق التي يقودها دكتاتور فاشي، استعمل الغازات السامة ضد شعبه، بدد ثروة العراق النفطية في بناء القصور، واحتل الكويت. إلا أنك ساكت عن كل ذلك. كل ما يزعجك هو حصارنا لهذا النظام لا النظام نفسه. بلغة أخرى، انك لست بجاهل للماضي الإسلامي فحسب، بل وبحاضره أيضا. فالسبب الحقيقي وراء الركود الذي شهده العالم العربي - الإسلامي، لا يرجع إلى أن أمريكا تريد ذلك، بل لأنها لم تتدخل كما ينبغي في المنطقة.

كلا، الفرق بين الولايات المتحدة، أو الصين، أو أمريكا اللاتينية، والعالم العربي - الإسلامي اليوم هو كيف قضى كل منا الثمانين السنة. ففي الوقت الذي انشغلنا فيه نحن وغيرنا بالبحث عن أجوبة لأسئلة متنوعة: كيف نقدم لأبنائنا تعليماً أفضل؟ كيف ننمي تجارتنا؟ كيف نبني قاعدة صناعية؟كيف نطور المشاركة السياسية؟ وحاسبنا قادتنا، وجهودهم التي بذلوها في معرض إجابتهم على تلك الأسئلة. في حين أن أشخاصاً مثلك، يريدون من العرب والمسلمين أن يسألوا سؤالا واحدا: كيف سيحارب قادتكم الكفار وإسرائيل؟ لا أحد ينكر حساسية مسألة من يحكم القدس لما لها من أهمية في تراثكم، تلك مسألة يجب على كل حاكم عربي ومسلم أن يعالجها. لكن لا يجب أن يصبح ذلك السؤال الأوحد والوحيد المطروح، وذلك كما ترغب أنت وأتباعك الذين لا

يتورعون عن التنديد بأي زعيم منكم يبادر إلى حل بقية مشاكلكم العالقة، مما مهد الطريق لأنذال مثل صدام حسين أن يقودوا منطقتكم.

رغم ما أحدثته من فوضى وخراب شديدين، لا أريد أن يأخذك غرورك بعيدا وتعتقد أنك تستطيع تدميرنا. كي تدمر شيئا قويا عليك ببناء ما هو أقوى. وهذا ما لا تقدر عليه أنت. لأن كل المثقفين والعقول المبدعة في العالم العربي الإسلامي - على الرغم من وفرتها - لا يمكنها أن تحقق أي إنجاز تحت أنظمة قمعية كالعراق، أو قادة مثلك أنت. حتى ستالين أو ماو الذين قتلوا العديد من مواطنيهم، حتى هؤلاء السفاحون كانت لهم مشاريع ومخططات لمجتمعاتهم. أما أنت، بن لادن، فإنك لا شيء سوى خاطف - خاطف للإسلام، خاطف لتكنولوجيا الآخرين، وخاطف لغضب قطاع عريض من الناس ضد حكامهم. لا رؤية ولا مخطط مستقبلي لديك، مما سيجعل من السهل الكتابة على قبرك عندما تموت ما يلي: أسامة بن لادن - هدم كثيرا ولم يبنِ أي شيء. دام تأثيره دوام أثر القدم في الصحراء.

١٢/١٠/٢٠٠١

آل سعود والواقع

أهلّل لقرار العمدة رودي جولياني بإعادة مبلغ العشرة ملايين دولار، الذي تبرع به الملياردير السعودي الأمير الوليد بن طلال، الذي وبعد أن رأى ما لحق بمركز التجارة العالمي من خراب ودمار، سلم شيكا إلى العمدة، ثم قام مصرحا بأن الوقت قد حان لمعالجة «جذور» الإرهاب التي - حسب الرواية السعودية - تتمثل في عدم ضغط الولايات المتحدة على إسرائيل كي تبرم اتفاق سلام مع الفلسطينيين، وتوقف إسرائيل عما ترتكبه من مجازر بحق الفلسطينيين.

لا شك أن هناك غضباً عربياً عميقاً من السياسة الأمريكية الداعمة لإسرائيل، وقد أغتظت شخصيا من فشل الحكومات الأمريكية المتعاقبة في لجم المشروع الاستيطاني الإسرائيلي. أما القول بأن إسرائيل تقوم بذبح الفلسطينيين هكذا دون مبرر وكأنه ليس هناك حرب دائرة متسببة في وقوع ضحايا من الطرفين، أو القول بأن بيل كلينتون لم يخصص كل ما تبقى من فترته الرئاسية جاهدا للتوصل إلى حل نهائي يسمح بقيام دولة فلسطينية، وأن عرفات رفض ذلك بإيعاز من الحكومة السعودية لأسباب تتعلق بوضع

القدس. أو الادعاء بأن الغضب العربي الناجم عن أي من هذه الأسباب، يبرر ما حصل في نيويورك من تفجيرات انتحارية، هو كذب محض. عادة، لا يزعجني كذب كهذا لأنه بالنهاية لا يؤذي إلا أصحابه، وكذلك لأنه جزء من الممارسة السياسية في الشرق الأوسط. إلا أن لهذا النوع من الكذب نتائج خطيرة تمسنا مباشرة. حين تستمع إلى المسؤولين السعوديين أو تقرأ الصحافة العربية، لا تستطيع التأكد سواء من هوية أغلبية الخاطفين السعودية، أو من أن الجزء الأكبر من الدعم المالي الذي يحصل عليه أسامة بن لادن - السعودي - صادر عن بعض الأثرياء السعوديين، أو من أن الحكومة السعودية هي الممول الرئيسي لطالبان. وهو ما يدفعك للظن بأن هؤلاء الشباب قد جاؤوا من العدم ولم ينتموا إلى أي مجتمع، وبالتالي لا تحتاج أي حكومة عربية أن تراجع نفسها متساءلة كيف يمكن أن يرتكب مواطنوها جرائم بهذا الحجم من الشناعة.

على الأمير الوليد أن يتوخى الحذر لأن هؤلاء الذين جاؤوا من بلدك، وإن ساهمت القضية الفلسطينية بقسط مما أصابهم من غضب، فإن ذلك لا يقارن بدرجة حقدهم على ما وصفه بن لادن بالأنظمة الفاسدة «المنافقة» و«الوراثية» على رأسهم العربية السعودية. لذا، فإن أردت أن تستثمر ملايينك العشرة في مشروع جيد، لماذا لا يمول حماة محاربة الفساد داخل المملكة السعودية، أو قسم الدراسات الأمريكية في كل الجامعات السعودية، أو مركز للدراسات الإسلامية يركز على الإصلاحيين من المفكرين الإسلاميين، أو تبرع بهم إلى «جذور السلام» التي تعمل على تقريب وجهات النظر بين الشبان العرب وأقرانهم الإسرائيليين، أو لماذا لا تستثمر داخل السعودية أو فلسطين حتى يستطيع الشباب السعودي أو الفلسطيني إيجاد وظائف لائقة. أو لماذا لا تحث الملك فهد كي يعلن على الملأ استعداد المملكة السعودية قيادة العالم العربي في الدخول في علاقات دبلوماسية مع إسرائيل شريطة انسحابها إلى حدود سنة ١٩٦٧. عدا ذلك، فقد تعبنا وتعب معنا كثيرون من كذبكم علينا وعلى أنفسكم.

يهدف العديد من المواطنين العرب - الراغبين في ضمان مستقبل أفضل لأبنائهم - إلى الحقيقة، أنظر على سبيل المثال إلى هذه الرسالة التي كتبها هاشم حسن من السودان ونشرتها جريدة القدس العربي الصادرة بلندن، الأسبوع الماضي، والتي جاء فيها: «لنكف عن محاولة تصويره - بن لادن - كوليد غير شرعي للهيمنة الأمريكية والغربية. فهو وليد شرعي للعجز العربي المسلم. وليد كامل الشرعية أنجبناه من صلبنا نحن القوميين وأنتم الماركسيين والإسلاميين وغيرنا وغيركم من المتعلمين بما فعلناه بأوطاننا وشعوبنا عندما خلخلنا كياناتها حتى أصبحت فريسة سهلة لمصالح أمريكا وإسرائيل

وغيرهم. . . إن التبرؤ من أبنائنا المنحرفين هولاء بأي شكل من الأشكال وتحت أي ذريعة ومحاولة إلحاقهم بأبٍ غربي، يُعدّ إمعاناً في الهروب من المسؤولية. خير لنا أن نعترف ببنوّتهم وبأن الخطأ الرئيسي يكمن في تربيتنا لهم حيث إننا أغلقنا مجتمعاتنا ومدارسنا وإعلامنا في وجه الحرية والمعرفة والتعلم من الأخطاء والتجارب».

حضرة الأمير الوليد، إذا أردت أن تكرّم الضحايا فعلا، عليك بإصدار جريدة أو إنشاء محطة تلفزيونية في المملكة السعودية - ليس في لندن - التي بإمكانها أن تنشر بحرية آراء كتلك. حينها فقط يمكنك القول إن جذور الإرهاب بدأت معالجتها.

حتى ذلك الحين، أتفق مع رودي في رفضه قبول ملايينك.

١٦/١٠/٢٠٠١

ملاقط الشعر الدفاعية

بعد أن أدركنا طبيعة هذا العالم الجديد لما بعد ١١ سبتمبر، من المؤكد أن كل واحد منا قد ردد عبارة وجدتها، وجدتها ولو للحظات. كتلك التي عشتها في المطار وأنا أهمّ بالصعود إلى الطائرة المتجهة إلى نيويورك، إذ تم تفتيش حقيبتي والعثور على ملاقط شعر.

«آسفة، يجب أن تعلم السلطات عن ذلك»، قالت لي الموظفة. لبرهة، حملقت في هذه الملاقط الحمراء الصغيرة، متخيلا نفسي عائدا إلى حاجز دلتا سائلا مسؤولة الخطوط الجوية: «من فضلكم، أريد الإبلاغ عن هذه الملاقط التي سأحملها معي إلى لاغوارديا»، والتي ستسألني بدورها «هل وضعت هذه الملاقط بنفسك في الحقيبة أم أن شخصاً آخر قام بذلك؟ وإن كانت ضمن ممتلكاتك طوال الوقت؟»، فألوّح برأسي مجيبا بنعم، بعدها، ستضع علامة خطوط دلتا على أحد طرفي الملاقط في حين سأغلف طرفها الآخر بورقة تحمل اسمي. ثم وبكل رفق ستضع ملاقطي التي ستتدحرج بين بقية الحقائب الكبيرة وكأنها فأر بين قطيع فيلة. وبالوصول إلى لاغوارديا، يجب علي الانتظار بصبر حتى استلامها. لكن ماذا لو أنها لم تصل؟، هكذا خطر ببالي. ماذا لو توجهت إلى قسم المفقودات معلنا: «عفوا، لقد سلمت سلطات تفتيش الحقائب في واشنطن ملاقط شعر، إلا أني لم أستلمها». ماذا سأقول لمسؤولة قسم المفقودات حين تسألني «أي نوع كانت؟» سامسونايت أو لويس - فوتن؟، سأجيبها بأنها مجرد «رايت - آيد».

مع خواطر كهذه تراودني، أبلغت السلطات بالتفصيل بمحتويات حقيبتي الشخصية مثلما طلب مني. إلا أن هذا ليس بمقال عن ملاقط الشعر، بل عن عالم اليوم الذي جعل من ملاقط الشعر أدوات خطيرة. وبعد أن انتقلنا من عالم الحرب الباردة إلى العولمة، هذه الشبكة الجديدة من النظم في عالم بلا حواجز، الذي من الممكن أن تحول فيه ملاقط شعر - لو وقعت في يد الشخص الخطأ - أي طائرة إلى صاروخ، إذا أصاب البناية المناسبة من الممكن أن يتسبب في زعزعة الاستقرار في العالم. أن تكون فقيرا أو غير متعلم لا يجعل منك ضعيفا في عالم اليوم الذي أتاح فرصا خيالية أمام أناس أشرار كي يلحقوا كبير الأذى بغيرهم من الأفراد والأمم. ما المطلوب منا عمله حيال أمر كهذا.

أولا، يجب علينا إزاحة أتباع أسامة بن لادن المصممين على إيذائنا بأي وسيلة كانت. من الصعب الحصول على دعم حلفائنا العرب بالدخول معهم في جدال حول ضرورة خوض هذه الحرب، بل دعمهم واحترامهم لنا مرهون بشرط ربحنا للحرب واجتثاث بن لادن وطالبان.

ثانيا، علينا أن نكون أكثر خشونة. من العيب أن رئيس مجلس النواب دنيس هسترت أغلق المجلس نتيجة الخوف من تهديدات الانثراكس. فالجنود الأمريكيون يقاتلون في كل أنحاء أفغانستان. رغم أن ذلك ليس بالعمل السهل، فإن المجلس فر هاربا. وهو ما يريده الإرهابيون على وجه التحديد. على النواب أن يجتمعوا ولو على أدراج المجلس ويتناولوا أقراص سيبرو إن لزم الأمر. معلنين بذلك إلى الجميع، أعداء أمريكا وجنودها على السواء، أن لا شيء يعيق ديمقراطيتنا.

ثالثا، علينا أن نبدأ بكسب القلوب والعقول في الخارج. ولا أقصد هنا أولئك الغاضبين منا لما نقوم به. فللناس مطلق الحرية في معارضة ما نقوم به. بل ما أقصده هنا هو ذلك الكم الهائل من البشر الذين تربوا على أن يكرهونا لما نحن عليه، باعتبارنا «كفاراً» لا نشترك معهم في العقيدة. وذلك يتطلب منا معالجة الأمر من نواح مختلفة. من جهة يجب أن نعي أن معظم هؤلاء الغاضبين ينتمون إلى مجتمعات قمعية فاسدة تتمتع بدعم ضمني من الولايات المتحدة التي تحتاج إلى زيادة دعمها الاقتصادي ثلاثة أضعاف، وأخذ أداء تلك الحكومات على محمل الجد. وذلك حتى لا يتم تلقين الجيل الشاب مفاهيم إسلامية ثورية، دون أي مهارات أخرى في مدارس على طريقة طالبان. إلا أننا لا نستطيع النجاح في مهمتنا تلك دون مساعدة حلفائنا من القادة المسلمين الذين بإمكانهم أن يقدموا بديلا ايديولوجيا عن سياسة الكراهية التي يدعو إليها بن لادن. قادة

بإمكانهم أن يراجعوا أنفسهم بدلا من توجيه حالة الغضب العامة التي لدى شعوبهم ضد أمريكا. وبالقدر نفسه نحتاج إلى رجال الدين المسلمين، الذين بمقدورهم أن يتحدّوا بقوة أولئك الذين يصرّون على أن الإسلام يتلخص في الجهاد والاستشهاد، وليس دين ذو تاريخ عريق أثرى واستثرى بالانفتاح على مختلف الثقافات والأفكار والمذاهب.

وفي حال تخلّينا نحن أو حلفاؤنا عن القيام بما هو مطلوب منا القيام به، حينها ستتحول هذه الحرب إلى صراع حضارات - وهي حرب يستحيل علينا أن نربحها - لكثرة عدد الغاضبين وملاقط الشعر.

١٩/١٠/٢٠٠١

عزيزيّ آرييل وياسر

من: جورج. و. بوش

إلى: آرييل شارون وياسر عرفات

أكتب إليكما بإلحاح لخشيتي من التفاعلات السريعة والسلبية لنزاعكما التي من شأنها أن تعيق قابليتي لخوض الحرب ضد أسامة بن لادن.

آرييل، لنبدأ بك أولاً. لست متأكد تماما من أنك تعي أن أمريكا هوجمت. إننا نخوض حرب الدفاع عن النفس، نحارب من أجل حماية حرية وانفتاح مجتمعنا، الأساس لكل ما هو جيد سواء في أمريكا أو إسرائيل. كما أننا لسنا بصدد محاورتك إن كان ياسر عرفات هو أسامة بن لادن الذي تحارب كما تدعي. وكما يبدو بوضوح، انك لست بقادر على حسم أمرك. وبالنهاية، ها انك تفاوض عرفات سرا، بإرسال ابنك أومري للاجتماع به. في حين أني لم أُرسل ابنتَيّ للقاء بن لادن.

أنا أعرف من هو عرفات على وجه التحديد، لوجه الشبه بينه وبين بقية القادة العرب المتحالفين معنا، فهو فاسد، سلطوي، يستحيل التعامل معه بسهولة، ويسهل التأثير عليه من قبل شعبه المعادي لنا. لسوء الحظ فهو جزء من المشكلة والحل في آن واحد. ما يخيفني هنا، هو من هي إسرائيل؟ التي لا يعنيني ما تقوم من عمليات انتقامية ضد المناضلين الفلسطينيين الذين يقتلون مدنيين إسرائيليين. إذ لا يمكن لأحد الاعتراض على ذلك. حين قام القناصة الإسرائيليون باغتيال الإرهابيين الفلسطينيين

المسؤولين عن الانفجار الذي استهدف الملهى الليلي بتل أبيب، صرح الناطق الرسمي للبيت الأبيض وبكل وضوح أنه لا مشكلة لدينا مع ذلك. ولكن، لدينا جميعا خط أحمر لا نستطيع تجاوزه، وذلك بعكس ما يسعى إليه بعض أعضاء حكومتك باستغلال الفرصة والانقضاض على السلطة الوطنية وإنهاء حكم عرفات في الضفة الغربية وقطاع غزة. إن ذلك سيؤدي إلى تصاعد درجة الفوضى بشكل يسمح للإسلاميين المتشددين الوصول إلى السلطة، وهو ما سيجبرك على إعادة احتلال المناطق من جديد، مما سيساعد بدوره على إلهاب مشاعر العرب والمسلمين. وكنتيجة لكل لذلك، ستكون قد أعقت بكل جدية الحرب التي تخوضها قوات التحالف ضد أسامة بن لادن. وهذا عمل معاد لنا بقطع النظر عمن قام به.

آرييل، كل ما أخشاه هو أن أصدقاءك الأمريكيين أو سفيرك هنا - هل عندك سفير لدينا؟ - لم يبلغوك بمدى جدية الولايات المتحدة في خوض هذه الحرب. رغم أن المتشددين الفلسطينيين يعملون جاهدين على استفزازك، فإني أقدر، وبكل صدق، سعيك للتوصل إلى اتفاق وقف إطلاق النار قبل أن يتم اغتيال أحد وزرائك. لكني أرجو ألا يتم جر إسرائيل إلى القيام بأعمال ذات نتائج وخيمة، وهو ما يسعى إليه المتطرفون على وجه التحديد.

آرييل، ألا تدرك أن بن لادن لم يهاجمنا لتحرير فلسطين؟ إننا نعلم أن ذلك يعود إلى غضب متجذر لدى الشعب العربي من أنظمتهم الفاسدة، وإلى المتشددين الذين يريدون أن يجعلوا من الإسلام دين غضب واستشهاد. هذه حقائق من الصعب إخفاؤها - إلا إذا أردت انت أن تجعل من إسرائيل أن تظهر وكأنها المتسبب في كل ذلك. لذا أنصحك بالاختفاء عن الأنظار! لأن أعداءنا مصممون على امتحان قدرتنا على اتخاذ القرار، وهو امتحان لا نوده أن يصدر عن أصدقائنا. وفي حال قمت بذلك خاصة بعد أن بدأ الجنود الأمريكيون يموتون في أفغانستان - من شأن ذلك أن يفسد العلاقة الخاصة التي تربط بيننا.

أما بالنسبة لياسر عرفات، فقد سبق أن أعلنت رغبتك في الانضمام إلى عالم غير المدخنين - أي الدول المعادية للإرهاب -، مما يحتم عليك عدم الاقتراب من مدخني السيجار. كما أني أعلمك أن ما أعلنته سابقا فيما يتعلق بمساندتي لقيام دولة فلسطينية، مشروط بمساعدتك لنا في خوض هذه الحرب. وما يقوم به شعبك من رمي للحجارة على الإسرائيليين، هو أمر يعنيك أنت وحدك، أما أن تتقاعس عن احتواء الفصائل المتشددة التي تقف وراء العمليات الانتحارية واغتيال الوزراء مما يزيد من درجة الضغط

على شارون - كما طلبتُ منه أن يفكّ عنك الخناق - حينها سأجزم بأنك تقف مع الطرف المعادي - بن لادن وطالبان - في هذه الحرب، وأنك لا تتعدى أن تكون مجرد صعلوك آخر مساند للإرهاب. أرجوك لا تقل لي إنك لا تستطيع السيطرة على شعبك، لأنك، وكما حدث في السابق، بعتنا السجاد نفسه مرات عديدة. لذا وفي حال رفضك القيام بما هو مطلوب منك، سيجبرني الكونغرس على قطع جميع مساعداتنا، ووضعك على لائحة الدول المساندة للإرهاب، وبذل كل ما في وسعنا لسحب الشرعية عنك. لِمَ لا؟ لم يقتصر أذى ثقافة الاستشهاد التي عملت على ترسيخها بكل قوة داخل الحركات الإسلامية الفلسطينية على صراعك مع إسرائيل، بل شملنا نحن أيضا.

ومثلما كانت عليه الحال على مدار السنين الماضية، تعلق الأمر دائما بما يدور بينكما. أما الآن، وقد تعلق الأمر بنا، كل ما أريده منكما أن تؤجلا فورا حربكما الدائرة حتى لا نجزم أنكما تقفان في صف أعدائنا.

٢٣/١٠/٢٠٠١

وحيدون بدون حلفاء

دعنا نتأكد من صحة فهمنا لما يلي: ستسمح لنا باكستان باستعمال قواعدها الجوية فقط أيام الاثنين، الأربعاء والجمعة كي نقصف فقط من تبدأ أسماؤهم بعمر من حركة طالبان وليس لهم أقارب يعملون مع جهاز المخابرات الباكستانية. والهند ستقف معنا يومي الثلاثاء والجمعة، حتى يتمكنوا هم بدورهم من قصف القوات الباكستانية في كشمير بقية أيام الأسبوع. مصر ستكون معنا كل يوم أحد فقط، بشرط إلا نخبر أحدا بأننا منحناها ما قيمته مليوني دولار في شكل إعانات. وياسر عرفات يمكنه أن يكون معنا أيام العطلة الأسبوعية فقط وبعد الساعة العاشرة ليلا حين ينتهي الفلسطينيون من الرقص احتفالا بتدمير مركز التجارة العالمي. أما الفصائل الأفغانية الشمالية، فهي معنا بشرط أن نوفر لكل عناصرها أحذية جديدة ونمنح جوازات سفر أمريكية لأول ألف مقاتل يدخلون كابول. أما إسرائيل فهي معنا بشرط ألا نسألهم عن حماقة وجنون سبعة آلاف مستوطن إسرائيلي يعيشون وسط مليون فلسطيني في الضفة الغربية. كذلك الكويت التي تريد بلا شك أن تكون معنا - كما هو مفروض - كرد للجميل لإنقاذنا لها من الغزو العراقي، إلا أنه وبفعل تأثير نائبين إسلاميين في برلمانها معلنين معارضتهما للحرب، أُجبر الأمير على عدم المجازفة بتقديم أي دعم لنا. وكما هو معلوم،

فالسعوديون يودون طبعا أن يكونوا معنا، إلا أن خوض الحروب ليس من اختصاصهم، تلك من مهمات الخدم، بحجة أن الأمير الوليد وعدنا باستئجار جنود بنغلادشيين عبر شركة سعودية وبكلفة زهيدة.

بالطبع يود آل سعود مساعدتنا بتسليمنا كل الملفات التي بحوزة أجهزة مخابراتهم المتعلقة بالانتحاريين الخمسة عشر، إلا أن ذلك يخالف مبدأ السيادة الذي وكما تعلمون مبدأ يحترمه السعوديون كثيرا - بدليل ما قامت به سفارتهم هنا في واشنطن حين قامت بعد أحداث ١١/٩، بترحيل كامل أفراد أسرة بن لادن بطائرة خاصة، وذلك قبل أن يتمكن عناصر الأف بي آي من إنهاء التحقيق بشكل رسمي معهم. هذا بالإضافة إلى كون جميع حلفائنا من العرب والمسلمين يتمنون لو أننا نستطيع إلقاء القبض على بن لادن بأقصى سرعة ممكنة. إلا أنه وبحكم أن شهر رمضان المبارك على الأبواب، فإن «الشارع» الإسلامي لا يحبذ القتال في مثل هذا الشهر. لكن هل تذكروا حرب ١٩٧٣، التي عصفت بالشرق الأوسط حين هاجمت كل من مصر وسوريا إسرائيل؟ وهل تذكروا ما أطلق على تلك الحرب في العالم العربي؟. لقد سمّوها «حرب رمضان» نسبة إلى اندلاعها في ذلك الشهر. هل يعني ذلك أنه يحق للعرب أن يشنوا حروبا في ذلك الشهر، ولا يحق لغيرهم شنها عليهم؟

رفاقي الأمريكان، علينا أن نعترف بحقيقة عزلتنا ووحدتنا عدا أولئك الإنجليز الطيبين، حلفاءنا القدامى. وفي نهاية المطاف، ستلقى مهمة الزحف البري والتخلص من بن لادن على الجنود الأمريكيين والانجليزفقط. للمرء أن يتساءل كيف تمكننا من كسب العديد من الحلفاء في حرب الخليج الأولى ضد العراق؟ والجواب ببساطة هو أن السعوديين والكويتيين تمكنوا من شراء التحالف. فقد اشتروا الجيش السوري بدفع مليارات الدولارات إلى دمشق، كما اشترونا نحن والأوربيين عن طريق وعدنا بإبرام عقود إعادة إعمار ضخمة جدا، بالإضافة إلى تحمّل كافة نفقات الحرب. في الحقيقة، وبفضل المساهمة المالية التي قدمتها اليابان حينها، فقد تمكنا من تحقيق ربح مالي من تلك الحرب. أما هذه المرة، فإننا نتحمل وحدنا كافة التكاليف مضافا إليها الإنفاق على غيرنا. إذ إنه وبكل أسف، قتل خمسة آلاف من الأبرياء الأمريكان لا يعني الكثير لبقية العالم، وهي حالة نتحمل فيها جزءا من اللوم فيها. فقد عادت علينا الرسالة التي أبلغها الرئيس بوش منذ أول يوم له في السلطة إلى العالم بالبلاء لما حوته من نفس انعزالي، برفض التوقيع على اتفاقية كيوتو، التخلص من معاهدة الحد من الأسلحة البيولوجية، وتجاهل الدعوة للحد من انتشار التسلح بصفة عامة.

من الذي يجرؤ على لوم دول أجنبية على محاولتها إثقال كاهل دافع الضرائب الأمريكي في الوقت الذي يقوم فيه ديك آرمي وعصابته من النواب الجمهوريين بالشيء نفسه، وذلك بدعوتهم لسن تشريع ضريبي فيه الكثير من المحابات للأغنياء وجماعات الضغط والشركات العملاقة، ولا شيء تقريبا لعامة الأمريكيين البسطاء الذين سيخوضون هذه الحرب؟

نصيحتي: لا تهتموا بأي من ذلك. فقط ركزوا اهتمامكم على رجال الإطفاء الذين هرعوا داخل برجي مركز التجارة العالمي دون أن يسألوا «كم تدفع؟»، واهتمّوا أيضا بآلاف الاحتياطيين، الذين تركوا أعمالهم وعائلاتهم متجهين إلى افغانستان، دون أن يسألوا «كم سنربح ماليا؟». وعلى عكس حلفائنا، أدرك هؤلاء الشباب الأمريكيون أن ٩/١١، هو يوم عيد بالنسبة لنا - باعتباره أول يوم في حرب عادلة نخوضها من أجل الدفاع عن مجتمعنا الحر، الديمقراطي، والمتعدد الأديان. وبالتالي، لا معنى إن تزامنت هذه الحرب مع رمضان، أو عيد الميلاد، أو هانوكا، أو عيد ميلاد بوذا -. إن خوض هذه الحرب وتحقيق العدالة، هو العمل الأكثر قداسة وجدارة بالاحترام.

٢٠٠١/١٠/٢٦

التنقيب عن التسامح

في أبريل، سنة ١٩٨٨، طلبت العربية السعودية من الولايات المتحدة سحب سفيرها، هيوم هوران، المعتمد حديثا والذي لم يمض ستة أشهر على توليه منصبه. يرجع ذلك حسب التقارير الاخبارية إلى عدم ارتياح الملك فهد له بالرغم من كونه أفضل من يتكلم العربية في الخارجية الأمريكية، وبالرغم من توظيفه لمهاراته اللغوية للدخول في حوار مع كافة فئات المجتمع السعودي بمن فيهم الأصوليون المتشددون المنتقدون للعائلة الحاكمة. وأدى ذلك إلى انزعاج الحكومة السعودية من اختراق رجل داهية كهذا لمجتمعهم. لذا وكما هو متوقع، قامت الحكومة الأمريكية بسحب سفيرها. بالنتيجة، ومنذ تلك الحادثة، لم نرسل أي سفير يتكلم العربية إلى السعودية، بل اقتصرت تلك المهمة على حاشية الرئيس الذين يجيدون اختراق البيت الأبيض بمهارة دون أن تكون لديهم أي فكرة كيف يخترقون المملكة السعودية. كانت الرسالة كالآتي: ما دام السعوديون يواصلون ضخ النفط، فما يتم تدريسه في مدارسهم ومساجدهم لا يعنينا، بحكم أن لا ضرر لنا بسبب ما نجهل.

هكذا أثبتت أحداث ٩/١١، مدى خطأ وخطورة تلك العقلية. فقد تعلمنا يومها الكثير مما كنا نجهله عن العربية السعودية: أنها كانت الممول الرئيسي لحركة طالبان، وأن خمسة عشر من الخاطفين، هم شبان سعوديون ساخطون، وأن السعودية كانت تسمح بجمع التبرعات لصالح أسامة بن لادن ما دام لن يستعمل تلك الأموال لمهاجمة النظام السعودي. بل والأكثر من ذلك، أنه ووفق ما نقلته هذه الجريدة من الرياض،ما يتم تلقينه في المدارس السعودية من نظرة عدائية لغير المسلمين، نابعة بصفة خاصة عن فهم الحركة الوهابية الضيق للإسلام المتداول بكثرة في الخطب الرسمية والعروض التلفزية، و الإنترنت. كما أن هناك شيئاً ما خاطئاً في قيام رئيس الولايات المتحدة، منذ وقوع أحداث٩/١١، بإلقاء خطابات عديدة يؤكد فيها كيف أن الإسلام دين تسامح، وخلوه من أي تناقض جوهري مع الغرب. في حين أن حاكم السعودية وخادم الحرمين الشريفين لم يلق أي خطاب مماثل. مما يقودنا إلى الحقيقة التالية، وجود جانبين مزدوجين لدى العربية السعودية. من ناحية هناك أثرياء العائلة الحاكمة، وأغنياء الطبقة العليا الذين أرسلوا أبناءهم إلى أمريكا للدراسة والعيش على الطريقة الغربية في الخارج ووراء الحجاب داخل المملكة. ومن ناحية أخرى هناك نبرة عدائية ذات وازع ديني تجاه أمريكا والغرب منتشرة بين المستائين والعاطلين عن العمل السعوديين. وبعكس ما يروّج بأن الحقيقة هي أولى ضحايا الحروب، ففي هذه الحرب صرنا نحن ضحايا عدم قدرتنا على قول الحقيقة سواء للآخرين أو لأنفسنا. تلك الحقيقة التي مفادها سهولة الحصول على أسلحة الدمار الشامل في عالم اليوم، الذي لم تعد فيه الحكومات بقادرة على التحكم والتدخل في الطريقة التي تفكر بها الأجيال الشابة من مواطنيها. وهذا ما يضعنا أمام خيارين: أولهما أن نجزم بأن العائلة السعودية الحاكمة فعلا متسامحة، قوية، وترغب في أن تكون جزءا من الحل، وهو أمر من شأنه أن يدفعنا إلى تشجيع مواطنيها على تعليم أبناءهم بشكل مختلف. ونتأكد من أن جمع التبرعات في مجتمعهم لا ينتهي في أيدي من يريدون تدميرنا. كما أني لا أتوقع أن يقوم السعوديون بتعليم أبنائهم حب أمريكا أو الخروج عن الإسلام واعتناق دين آخر.

لكن، في حال رغبت إحدى الدول بالحفاظ على علاقات جيدة معنا، عليها أن تعلم جيدا أنه، وبقطع النظر عن أي ديانة يتم تدريسها في المدارس العمومية، يجب عليها الالتزام بتدريس الجانب «المسالم» لتلك الديانة. كما يتوجب على كل السفراء الأمريكيين أن يدرجوا تبليغ تلك الرسالة من ضمن مهامهم، لأنه وفي حال انعدام التسامح فإن التعايش السلمي بين الأمم سيصبح مستحيلا. ومجرد التسامح مع معتقدات

الآخرين هو مالم تقم به العربية السعودية على وجه التحديد. إذا ثبت عجزهم عن القيام بذلك، علينا الجزم حينها أن العائلة السعودية الحاكمة لا تقف معنا بصدق، مما يحتم علينا الحد من الاعتماد على صادراتهم النفطية. كما سبق أن دعوت - قبل أحداث ١١/ ٩ - إلى اعتماد سياسة راديكالية في ميدان الطاقة، بعدم الإفراط في الاستهلاك والحد من الواردات، وهي دعوة أساندها بقوة أكثر الآن. وكما استنتج مايكل ماندلباوم خبير السياسة الخارجية، في جامعة جون هوبكنز قائلا: «إما أن نتخلص من هذا الكم الهائل من السيارات الكبيرة الحجم، أو أن تتخلص السعودية من كتبها المدرسية. لأنه من الخطر الحقيقي الاستمرار في الاعتقاد بإمكانية التعايش بينهما».

٢٠٠١/١٠/٣٠

حرب واحدة على جبهتين

بعد مضي شهر واحد فقط على اندلاع الحرب في أفغانستان، بدأت التخمينات حول مدى وطول هذه الحرب. لنأخذ جميعا نفسا عميقا ونترك الأحداث تأخذ مجراها. إنها أفغانستان. انظروا إلى الخريطة لتروا كم هي بعيدة جدا.

رغم قناعتي بأن للرئيس بوش ومساعديه استراتيجيا عسكرية تخولهم ربح الحرب على المدى البعيد، إلا أن ما أخشاه هو فقدان استراتيجية العلاقات العامة التي من شأنها أن تكسبنا التأييد على المدى الطويل. لأنه وبطول الأمد سيلعب الرأي العام العربي والإسلامي دورا مهما. فالأغلبية الصامتة في باكستان والمؤيدة حاليا للرئيس بيرفيز مشرف في حلفه الجديد - والمهم جدا بالنسبة لنا - مع الولايات المتحدة، ستتأثر لاحقا باتجاهات الرأي العام العربي والإسلامي. أما نجاحنا في جعل الجيل القادم النظر إلى بن لادن كشخص مارق وصعلوك وليس قدوة ومثالا، متوقف على الطريقة التي سنخوض بها هذه الحرب الدعائية.

أول شروط ربح هذه الحرب، هو ربح الحرب الحقيقية - باقتلاع نظام طالبان وتنظيم بن لادن - وبعث رسالة توضح للجميع مصير كل من يتجرأ على قتل خمسة آلاف أمريكي ظلما. وبكل بساطة إن ربحنا هذه الحرب أو تأكد أننا بصدد ربحها سيكون لدينا حلفاء في العالم العربي والإسلامي. أما إذا اتضح أننا سننهزم أو نخسر هذه الحرب فإن حلفاءنا سيختفون في لمح البصر. وما علينا إلا قراءة ما ينشر في

الصحافة العربية حتى نتأكد من الدعم الشعبي الذي لا زال يحظى به كل من بن لادن وصدام حسين. فليس من السهل علينا خسارة حرب دعائية ضد قتلة من هذا القبيل - إلا أنه وبكل أسف هذا ما قمنا به تحديدا -. إذ لا يكفي أن يقتصر وصف البيت الأبيض لما حدث بـ«أفعال شيطانية»، بل يجب أن نخوض هذه الحرب الدعائية مباشرة معهم، في الوقت نفسه الذي نخوض فيه قتالا ضدهم.

مثلا، حين يسأل الرئيس أو ناطقه الرسمي عن الضحايا المدنيين من الأفغان، عليه أن يجيب كالآتي: «نعم، ولليوم الثلاثين على التوالي طوّق أسامة بن لادن نفسه بحواجز بشرية قوامها أفغان مدنيون. مما تسبب بكل أسف في وقوع ضحايا أبرياء»، أو: «نعم، وللأسبوع الرابع على التوالي يقوم أسامة بن لادن الذي لم يسبق أن جازف بحياته، بإرسال الأفغان إلى الموت من أجله، وذلك بعد أن سبق له وأرسل مسلمين آخرين إلى الموت من قبل».

والأمر نفسه ينطبق على صدام. فمن المفترض أنه وكلما تعرض أي مسؤول أمريكي إلى ذكره أن يقول ما يلي: «صدام حسين، الذي قتل من المسلمين في القرن العشرين أكثر من أي انسان آخر..» - لقد قتل مليون إنسان من إيرانيين، عراقيين أكراد، وكويتيين -. أو كأن يصفوا بن لادن وصدام حسين بأنهما «أكبر الخاطفون في العالم، لاختطاف كل منهما لبلد والاحتفاظ بالمدنيين هناك كرهائن، وما نحن إلا بمحررين لهؤلاء المدنيين». وعلى الرغم من أن أفضل طريقة للدفاع هي الهجوم، إلا أن الوقت قد حان كي تقوم إدارة بوش ببذل مجهود أكبر للحد من الآثار السامة لبث مجريات الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني. ذلك لا يعني إنهاء الصراع، بل بإمكانها إرسال مبعوث جدي ورفيع المستوى للعمل على التوصل إلى اتفاق فعلي لوقف إطلاق النار، أو إلى حل مؤقت. وذلك لاستحالة توصل الإسرائيليين والفلسطينيين بمفردهما إلى مخرج من هذا الطريق المسدود. كما أن العنف لا ينتهي بالمفاوضات وحدها، إلا أن بإمكانهما التوصل إلى حل وسط.

لكننا لا نستطيع القيام بهجوم دعائي بمفردنا. كما لا يتوقف ذلك على إصدار كل من مصر والسعودية والكويت لبيان مشترك معلنين فيه تأييدهم للولايات المتحدة، ثم يختفون بعدها. إذ لم يسبق أن قام أي قائد عربي بالرد على أي من خطب بن لادن التي سمعها العالم بأسره. مما يتطلب من هؤلاء القادة العرب أن يعطوا تفسيرا علنيا لشعوبهم عن سبب مساندتهم لنا، وليس السماح لنا باستعمال قواعدهم سرا في الوقت الذي تعج فيه صحافتهم بالمشاعر الغاضبة من الولايات المتحدة. فقد صرح بن لادن معلنا للشعب

العربي فشل كل استراتيجيات الحداثة ولم يبق إلا الإسلام - خاصة الإسلام الغاضب والمتقهقر -. على مصر، باعتبارها مركز الثقل العربي أن تأخذ في الحسبان ما ورد على لسان بن لادن، وتؤسس لمشروع نهضوي عربي قادر على المزج بين الحداثة واحترام الثقافة والتقاليد العربية. وما على السعودية، لما لها من ثقل في العالم الإسلامي، إلا أن تثبت وجود قدوة إسلامية قادرة على الدمج بين العقيدة والتسامح والحداثة. لكن كي يعلنوا مبادئ كهذه عليهم أن يكتسبوها أولا.

وباختصار، لا يمكننا كسب هذه الحرب الدعائية بمجرد الدخول في نقاشات ضمن حدود اللياقة، أو بالدبلوماسية السلبية، أو بالتحالف مع أنظمة تخشى أن تتحمل مسؤولية بناء المستقبل بدلا من رجل يريد أن يدفنه مع الماضي.

٢/١١/٢٠٠١

في محاربة الـ«بن لادنية»

الدوحة، قطر

إذا أردت أن تعرف سبب كراهية الشارع العربي للولايات المتحدة، عليك أن تقرأ ما نشرتة حديثا جريدة الأهرام المصرية، شبه الرسمية بقلم رئيس تحريرها إبراهيم نافع، الذي وبعد أن قال إن الولايات المتحدة تقوم عمدا بإنزال مساعدات غذائية محشوة بألغام في أماكن محددة من أفغانستان، أضاف السيد نافع ما يلي: «على غرار ما ورد في بعض التقارير، أن المواد الإنسانية الأمريكية تمت معالجتها جينيا كي تؤثر على صحة من يتناولها من المواطنين الأفغان، وفي حال ثبوت ذلك، فإن الولايات المتحدة تكون قد ارتكبت جرائم في حق الإنسانية بإعطاء الأفغانيين أطعمة فاسدة». ورد هذا الكلام في مقال لأحد أكبر صحافيي مصر، والمعين شخصيا من قبل الرئيس حسني مبارك، اتهم فيه الولايات المتحدة بإنزال أطعمة مسمومة على الأفغان بناءً على «تقارير» غير محددة. لذا هل من المستغرب لماذا يكرهنا الشارع المصري؟ إنها اللعبة القديمة نفسها التي أنتجت الـ«بن لادنية». حين تفشل الأنظمة في بناء مستقبل حقيقي لمواطنيها مما يترجم في شكل غضب عارم. إذ يهرب من يستطيع من الشباب الحصول على تأشيرة إلى الخارج في حين يلجأ من لم يستطع إلى المساجد للتعبير عن الاحتجاج. كما قامت هذه الأنظمة بتشديد قبضتها على الحركات الإسلامية التي تبنت العنف، ولكي تتجنب تهمة

معاداة الإسلام، قدمت هذه الأنظمة الرعاية والدعم المالي لحركات إسلامية أكثر تشددا، إلا أنها لا تلجأ إلى العنف المسلح. وفي الوقت نفسه أعادت توجيه الغضب الشعبي ضد أمريكا. والنتيجة: صارت أمريكا مكروهة بالدرجة نفسها التي تبنت فيها القوى الأكثر عداء للحداثة الإسلام.

ما لم يفهمه هؤلاء القادة العرب هو أن أحداث ١١/٩، قد كشفت كل ألاعيبهم. ولا زالوا يعتقدون أن أمريكا من يتعرض للمحاكمة، ولكن في الحقيقة أن أنظمة بالية كالتي في مصر والسعودية والتي أنتجت الخاطفين، هي من يتعرض للمحاكمة الآن. هل سيستمرون في السماح باختطاف الإسلام من قبل المعادين للحداثة، ومن سيضمن عدم تقهقر العالم العربي إلى الوراء أكثر؟ إلا أن بعض الأخبار الجيدة تردنا بين حين وآخر، بدليل أن بعض الأصوات الرافضة للنفايات التي كدستها الأنظمة في العالم العربي، قد بدأت تعلو. مثال ذلك الرسالة التي نشرتها أخيرا جريدة الحياة اللندنية، للناقد السينمائي المصري سمير فريد، والتي قال فيها: «أشعر بالخجل عند قراءة معظم، إن لم يكن كل المقالات المتعلقة بأحداث ١١/٩، بدرجة أولى في الصحافة المصرية... معظم إن لم يكن كل ما أقرأه، يؤكد أن داء هذه الأنظمة العربية العسكرية غير الديمقراطية قد أصاب النخب المثقفة في الشريان. لم يعد هؤلاء... قادرين على رؤية الخراب كأمر مخز في حد ذاته. أي مستقبل مظلم ينتظر هذه المنطقة؟».

وهنا في قطر، قامت قناة الجزيرة، الأكثر حرية وشعبية في العالم العربي بعرض حوار دار بين كل من الليبرالي الكويتي، شفيق غبرا الخبير في العلوم السياسية، وواحد إسلامي، وثالث قومي. في معرض رده على المحاولة التي قام بها الاثنان الآخران لإيجاد أعذار لبن لادن، قال السيد غبرة بكل وضوح: «إن الحرب الأهلية اللبنانية لم تكن من صنع أمريكا، ولا الحرب العراقية - الإيرانية، ولا بن لادن كذلك. بل هم جميعا من صنعنا. إننا في حاجة إلى أن ننظر في الأعماق، إذ لا يمكننا الاستمرار في لوم الآخرين إلى الأبد».

أما الدكتور عبد الحميد الأنصاري، عميد كلية الحقوق في جامعة قطر، فقد كتب في صحيفة الراية قائلا: «كيف يمكن لإرهابي أن يصبح بطلا؟ ماذا أصاب وجهة النظر العربية المشتركة؟ ماذا حدث لكبار علماء الإسلام؟... يجب علينا حل هذه المشكلة من الجذور. والتعليم هو الحل».

في الوقت الذي رفض فيه أي زعيم عربي الاعتراف بمسؤولية الفلسطينيين عن حالة الشلل مع إسرائيل، قام ساري نسيبة منذ أسابيع قليلة، بانتقاد جدوى الاستراتيجيا

الفلسطينية بكل جرأة مصرحا: «إننا نقول للإسرائيليون، أننا نرغب في طردهم بدل أن نقول لهم إننا نريد التحرر والحرية والإستقلال في الضفة الغربية وقطاع غزة، نريد طردكم من بيوتكم. ولكي نتأكد من أن الإسرائيليين تلقوا الرسالة، يذهب أحدهم إلى ملهى ليلي أو إلى مطعم ويقوم بتفجير نفسه. إذ تبدو المسألة كلها على قدر من الجنون والبشاعة والنتائج العكسية. السر يكمن في كسب الإسرائيليين إلى صفنا، والآن قد خسرنا حلفاءنا».

على حكومة بوش أن تقول لحلفائنا من العرب ما يلي: لسنا في حاجة إلى قواعدكم العسكرية أو جيوشكم. نريدكم أن تفتحوا مجتمعاتكم، بشكل يسمح للأصوات المنادية ببناء مستقبل عربي مختلف أن تُسمع فعلا. سنتولى نحن أمر بن لادن، وتولو أنتم أمر «البن لادنية».

٦/١١/٢٠٠١

الجبال الجليدية

بيشاور، باكستان

بينما كنت بصدد ركوب طائرة الخطوط الجوية الإماراتية في رحلة من الإمارات إلى باكستان، لاحظت شابا باكستانيا كان أمامي، مرتديا سترة مخملية كتب عليها من الخلف وبأحرف بيضاء عريضة: تايتانك. فتبادر إلى ذهني التساؤل التالي: هل أمريكا هي التايتانك وباكستان هي الجبل الجليدي الذي سنصطدم به أثناء بحثنا عن أسامة بن لادن؟ أو هل باكستان هي تايتانك ورئيسها بيرفيز مشرف القبطان، أمريكا الراكب الوحيد، وباكستان هي الجبل الجليدي الذي سنصطدم به؟ ربما. بقدر ما أعرف باكستان أكثر، بقدر ما تتضح صحة التشبيه، لأن ما نراه يطفو على السطح، لا يدل إلا على القليل النادر مما هو مخفي. ما أعنيه:

يطفو على السطح ذلك التبدل المفاجئ والشجاع في موقف الرئيس مشرف بانضمامه إلى قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة للقضاء على حركة طالبان وتنظيم القاعدة. أما ما هو تحت ذلك السطح، فيبدو أقل وضوحا. في باكستان هناك مؤسسة فعلية وحيدة، ألا وهي مؤسسة الجيش، التي قررت على ما يبدو القيام بالتحول ١٨٠ درجة في موقفها والالتحاق بالرئيس مشرف. إلا أن الأغلبية الباكستانية الصامتة لم تعلن

تأييدها لذلك بعد. فرغم التقاليد الغربية التي تتقيد بها قيادة الجيش الباكستاني، فقد كان هناك ارتفاع ملحوظ لتأثير التيارات الإسلامية في قواعده التي سيكون لها تأثير مستقبلي ملحوظ على كوادره. وحسب التعبير الباكستاني في تحديد العوامل الرئيسية الثلاثة المؤثرة في مسار الأحداث في منطقتهم أنهم: «الله، أمريكا، والجيش»، وعلى ما يبدو أن الجيش وأمريكا متحالفان حاليا، وفي حال أن تحالفهما سيجر منافع للباكستانيين، فالحكومة ستكون بخير، وفي حال حدوث العكس، سيلجأ الكثير من الباكستانيين إلى الله.

على السطح يبدو أننا والباكستانيين نخوض معا حربا واحدة. ولكننا في الواقع، نخوض حربين مختلفتين، على حد تعبير المعلق السياسي حسين حقاني: «أمريكا تحارب أسامة بن لادن في أفغانستان، بينما تحارب باكستان الهند عبر أفغانستان. ومن أهم الأسباب التي جعلت باكستان تساند طالبان هو رغبتها في الحصول على المزيد من العمق الاستراتيجي يساعدها في صراعها ضد الهند، التي خاضت ثلاث حروب ضدها. وما حدا بباكستان أن تدخل في تحالف مع أمريكا الآن هو محاولتها التفوق على الهند عبر ضمان المزيد من التأثير في أفغانستان - ما بعد طالبان. مضافا إلى ما ستحصل عليه من الولايات المتحدة من دعم بطريقة تقوي من موقفها ضد الهند».

ويبدو على السطح أيضا، أن كل من إيران والسعودية تقفان مع الولايات المتحدة، إلا أنه في الواقع، وكما يعلم الجميع، هناك سباق محموم بينهما حول من يلعب دورا مؤثرا أكبر في العالم الإسلامي، مما تسبب في تنامي الحركات الأصولية في كل من باكستان وأفغانستان. فعلى مدى العشرين سنة الماضية، اتخذ هذا السباق السعودي - الإيراني على النفوذ أشكالا مختلفة، من معونات نقدية، بناء مدارس، مساجد، بنوك، ومشاريع تنمية اجتماعية. في الوقت الذي سدت فيه هذه المشاريع الخيرية الفراغ الهائل الناجم عن سياسات حكومية فاشلة، فقد ساعدت في الوقت نفسه على خلق جيل كامل في المنطقة متعاطف مع بن لادن وليس مع أمريكا. في بيشاور، كانت إجابة جميع الشباب الذين سألتهم عن رأيهم في إمكانية إلقاء القبض على بن لادن متجانسة، كان رد كل واحد منهم كما يلي: «أرني الدليل».

على السطح، نرى في الحرب الأفغانية، أنها حرب عادلة نهدف بها القضاء على الإرهاب. أما تحت السطح، فيراها الأفغان والباكستانيون، كحرب بين طالبان - الذين هم أقلية باشتونية تمتد من أفغانستان حتى بيشاور في العمق الباكستاني - وتحالف القوات الشمالية المتشكلة أساسا من أقليات عرقية أوزبكية وطاجيكية. بالنسبة لنا هذا

صراع الخير ضد الشر. بالنسبة لهم، هذه المعركة رقم خمسون بين هاتفيلد ضد ماكويز. يصعب على القيادة الباشتونية لطالبان الاستسلام بسهولة لاعتقادهم بأنهم يقاتلون حفاظا على وجودهم كأقلية عرقية في أفغانستان، وليس دفاعا عن بن لادن، الذي استغلّ وضع كهذا لصالحه.

وقد شرح رفعت حسين، الخبير في الدراسات الإستراتيجية في جامعة إسلام أباد قائلا: «يجب أن تركزوا على التخلص من بن لادن والملا عمر، كما يجب أن تستعدوا لقبول أي عنصر من طالبان مستعد للعب دور جديد. وإلا فإنكم ستساهمون في خلق خلل عرقي كبير في أفغانستان، وفي حال سعيتم إلى إخراج كافة عناصر الباشتون والطالبان، فإنكم ستجبرونهم على اللجوء إلى معاقلهم في باكستان».

لا يعني هذا أن أمريكا لا تستطيع ربح هذه الحرب. بل يمكنها ذلك ولكن يجب أن تربحها بذكاء. وعليها أيضاً إجادة إبرام تحالفات حيث لا أحد يعرف باسمه الحقيقي، لأن الجميع مقنّع، وأن ما نراه طافيا على السطح ما هو إلا بجزء قليل جدا.

٢٠٠١/١١/٩

باكستان ومبادىء الجهاد

بيشاور، باكستان

يحتاج المرء فقط إلى القيام بجولة قصيرة عبر بازار بيشاور التي تبعد أميالاً قليلة عن الحدود الأفغانية، كي يدرك ضرورة التدخل الأمريكي في أفغانستان للقضاء على بن لادن وحركة طالبان بأقصى سرعة ممكنة، والانسحاب من هذه المنطقة بطريقة أسرع. ما الذي جعلني أقول هذا؟ لا أعرف، قد يكون بائع القمصان المتجول ذاك، الذي سألني أي لون (أصفر أو أبيض) أريد صورة أسامة بن لادن التي تحتها شعار ممجدا إياه كبطل للأمة الإسلامية على القميص الذي ينوي بيعه لي. أو ذلك الإعلان على أحد الجدران مرفوقا برقم هاتفي داعيا إلى «الجهاد ضد أمريكا». أو ذلك الرسم الحائطي الذي يقول فيه أصحابه بالخط الأردي العريض إن صون الشرف يتم بالجهاد وحده وليس بالدخول في تحالف مع اليهود والهنود. أو ربما تلك النظرات الحادة والعيون المخيفة المحملقة فيَّ بغير ترحاب أينما حللت.

بيشاور ترحب بكم. على فكرة هذه باكستان التي يفترض أن يكون شعبها معنا.

لكن مجمل هذه المنطقة الشمالية الغربية من باكستان لا تتعدى كونها سوى امتداد جغرافي وبشري لأفغانستان وذلك بحكم وحدة الانتماء العرقي إلى الأقلية الباشتونية التي ترجع إليها بالانتماء حركة طالبان. مما يجعل من هذه المنطقة معقلا لبن لادن، وبالتالي يستحيل على أمريكا أن تكسب صداقات وولاءات حقيقية فيها. ولذلك برأيي عدة أسباب منها، أن الباشتون هنا - لأسباب مفهومة - يقفون مع إخوانهم في أفغانستان، ولأنه سبق لأمريكا أن تخلت فجأة عن باكستان بعد انسحاب السوفيات من أفغانستان، ثم، وهذا الأهم الآن، هو المناهج التعليمية المتبعة هنا. في الطريق إلى بيشاور صودف أن زرت «دار العلوم الحقانية» أكبر مدرسة إسلامية، إذ يؤمها أكثر من ٢٨٠٠ طالب داخلي، يتلقون كلهم دراسات قرآنية على أمل أن يصبحوا أئمة وزعماء روحيين. سمح لي بالجلوس في أحد الأقسام مع هؤلاء الصبية الصغار، الذين يتلقون دروسهم جالسين على الأرض بترديد آيات قرآنية من مصاحف وضعت على مناضد خشبية أمامهم. ذلك هو نصيبهم من التعليم دون أن يتلقوا أي تفكير نقدي أو دراسات معاصرة. ذلك أمر مثير للإعجاب والخوف معا، مثير للإعجاب من ناحية ما توفره هذه المدارس من إقامة، ومأكل، وتعليم، وملبس للآلاف من الأطفال الباكستانيين المتروكين عرضة للتشرد في الشوارع بسبب الانهيار التدريجي للمدارس الحكومية الباكستانية. في سنة ١٩٧٨ كان هناك ٣٠٠٠ في باكستان في حين هناك ٣٩٠٠٠ من هذه المدارس اليوم. ومخيف لأن كل ما يتلقونه من تعليم ديني يعتمد على منهاج دراسي وضعه أورانغزيب علمغير الامبراطور المغولي المتوفي سنة ١٧٠٧، الجزء الوحيد المخصص للكتب العلمية في المكتبة، ترجع معظم محتوياته إلى سنة ١٩٢٠.

لقد كان الجو خانقا جدا في غرفة القسم التي كتب على أحد جدرانها إعلان يقول إن هذه الغرفة «هدية من العربية السعودية». بطلب من المعلم، قام صبي في الثامنة من العمر بترتيل بعض الآيات القرآنية بكل براعة واحتراف وكأنه مؤذن خبير، إذ رتل آية شهيرة تعد المؤمنين بالجنة وتعد الكفار بالخلود في النار. حين سألت أحد التلاميذ رحيم قندوز - وهو لاجئ أفغاني في الحادية عشرة - عن رأيه في أحداث أيلول أجابني بكل وضوح قائلا: «على الأرجح أن الاعتداء قام به أمريكيون من داخل أمريكا، أشعر بالارتياح لرؤية أمريكا تتألم، لأنها أذاقت العديد من مناطق العالم العذاب». وحين سألته عن رأيه في الشعب الأمريكي عامة، قال: «هم كفار ولا يرغبون في صداقة المسلمين، ويريدون التحكم في العالم بالقوة». تستمد مدرسة دار العلوم الحقانية شهرتها من حقيقة أن الملا محمد عمر زعيم طالبان - وبقية قادة الحركة - زاولوا تعلمهم فيها. إلا أن

الملا عمر لم ينه دراسته حسبما أفاد دليلنا موضحا أنهم منحوه شهادة فخرية، «لاضطراره إلى الجهاد من أجل تأسيس حكومة إسلامية شرعية». عند مغادرتنا، قام صديقي الباكستاني بتوجيه السؤال نفسه - الذي عجزت عن الاجابة عليه - إلى ناظر المدرسة، والذي يقول: «كيف أمكن للأمريكيين أن يسوقوا ببراعة الكوكاكولا والماكدونالدز إلى جميع شعوب العالم، وفي الوقت نفسه يفشلون في تسويق سياساتهم؟» أجابه مولانا سميع الحق، الناظر، قائلا: «لأن سياساتهم مسمومة في حين أن الكوكاكولا لذيذة».

أنا مع المراجعة الجدية لسياساتنا، لكن الباكستانيين وحدهم يستطيعون إعادة بناء مدارسهم بشكل يمزجون فيه الحداثة بالإسلام والتعددية. أما بن لادن فما هو إلا ظاهرة عابرة رغم خطورته. تبدأ حرب السلام الحقيقية في مدارس هذه المنطقة، مما يتطلب منا الانسحاب الفوري من هنا بعد انتهاء عملياتنا العسكرية ضد بن لادن. إذ من الواجب أن لا نعود متسلحين بالدبابات بل بالكتب والمناهج الدراسية العصرية، حينها فقط نستطيع أن نهيّئ أرضية ونبني جيلاً أكثر تقبلاً لسياساتنا كما بضاعتنا. وإلى أن يتم ذلك، لا امل لنا في العثور على أي ولاء هنا.

١٣/ ١١/ ٢٠٠١

إذابة الجليد

إسلام آباد، باكستان

بالرغم من أن أسامة بن لادن لم يقصد ذلك، إلا أنه تسبب في اندلاع ذلك الجدل، الأكثر جدية منذ عدة سنوات، بين المسلمين حول مدى قابلية الإسلام لاستيعاب الحداثة. هذا الجدل الذي لا يزال غائبا عن معظم الدول العربية. إلا أنه متداول هنا في باكستان وبقية الدول الإسلامية التي تتمتع بحرية صحافة نسبية، إذ قام الكتاب بطرح هذه الإشكالية المهمة جدا بشكل علني. من أين يستمد هذا الجدل أهميته؟ يرجع ذلك إلى الجمود السياسي، أهم قاسم مشترك بين الدول العربية - الإسلامية مما يجعلها منقسمة إلى فئتين، فئة الحكام الاستبداديين العلمانيين محاطة بطبقة التجار: وفئة الملالي والأئمة والزعماء الدينيين المسيطرين على تطبيقات ومناهج التعليم الديني الصادر عن اجتهادات قرآنية لا تعترف لا بالحداثة، ولا بالتعديدية ولابحق

المرأة في المساواة. هكذا نشأت المعادلة التالية التي تسمح للحكام بالبقاء في السلطة إلى الأبد مقابل السماح لرجال الدين باحتكار السيطرة على المناهج التعليمية إلى الأبد. وهي معادلة استمرت لسنوات عديدة إما بسبب مداخيل النفط، أو المساعدات الأمريكية، أو السوفياتية التي تمكنت بفضلها العديد من الأنظمة العربية - الإسلامية من البقاء دون القيام بأي انفتاح اقتصادي على الخارج أو أي إصلاح لمناهجهم التعليمية. لكن انخفاض مداخيل النفط والتزايد الديمغرافي وما يتطلبه من توفير الوظائف يمثل أكبر تهديد لتلك المعادلة، إذ يستحيل على مثل هذه الدول الحفاظ على البقاء دون الانفتاح على الاستثمارات العالمية، الإنترنت، توخي مناهج تعليمية عصرية، والسماح للمرأة بالمساهمة في مجهود التنمية. لكن بقدر ما يتم اتخاذ مثل هذه الخطوات بقدر ما يشعر رجال الدين بأنهم مهددون. لقد تمثل التحدي الذي شكله بن لادن في محاولة الإسلام الأصولي المتطرف السيطرة الاستيلاء على السلطة وافتكاكها من أنظمة دأبت على قمع وعزل الحركات الأصولية، دون أن تقوم بالمقابل بأي عملية إصلاح للمناهج التربوية الدينية المسماة بـ«المدرسة»، أو بإصلاح الشروط السياسية التي ساعدت على تفريخ الموجات المتلاحقة من الإسلاميين الغاضبين. داخل هذه الدائرة القاتلة التي أنتجت البن - لادنية من - فقر، دكتاتورية، وأصولية معادية للحداثة - اختلطت هذه العوامل وأثرّت في بعضها البعض.

نادى البعض بكسر حلقات هذه الدائرة، كالرسالة المفتوحة التي وجهها الكاتب ورجل الأعمال الباكستاني، عزت مجيد إلى بن لادن والتي جاء فيها ما يلي: «لا يمكننا كمسلمين أن نستمر في لوم الغرب على ما حل بنا من خلل وهوان يفوقان أي إصلاح. إذ لا الفقر ولا الأمية، ولا الغياب الكامل لأي قبول جمعي لأي عقد اجتماعي نقيس من خلاله عيوبنا، بل هذا الإدراك المتنامي بيننا في كوننا فشلنا كمجتمع مدني في مجابهة الانحرافات التاريخية، والاجتماعية، والسياسية التي أصابتنا... لا أمل لنا كمسلمين، إن لم نقم بعملية إصلاح فعلي يجعل من الإسلام قوة دفع إلى الأمام وليس إلى الوراء. لقد قمنا باختزال الإسلام في النفاق المنظم للملالي الممول حكوميا. هؤلاء الملالي دون سواهم، مسؤولون عن حالة الجمود التي أصابت الإسلام لأكثر من ألف عام، أصبحوا كهنة رسميين بعد أن كانوا فقهاء، بإغلاقهم باب الاجتهاد أمام أي قراءة تنويرية للقرآن الكريم. وكل ما يستطيعونه اليوم هو أن يشيروا إلينا كيف نرجع ألف عام إلى الوراء. بحيث فشلنا في جعل الإسلام يتماشى مع متطلبات العصر... إذا كانت أوكسفورد وكامبريدج مدارس المسيحية في القرن الثالث عشر، انظر كيف أصبحت اليوم

من أهم المؤسسات التعليمية في العالم. أين هي مؤسساتنا من ذلك؟»

لم تتمكن الإصلاحات البروتستانتية من دمج المسيحية بالحداثة إلا عندما تدخّل الأمراء الأغنياء بالدعم المالي لتمويل تلك الاصلاحات. أما في عالم مسلمي اليوم، يقوم الأمراء الأكثر غنى بتمويل مدارس معادية للحداثة من باكستان إلى البوسنة. في الوقت الذي تدعم فيه الأنظمة الدكتاتورية أئمتها الرسميين المعادين للحداثة كي ينقضوا على الليبراليين بدل أن يساندوهم. وهذا ما يوفر التربة الخصبة لنمو البن - لادنية.

وقد خلص السيد مجيد في رسالته تلك إلى أن: «آخر ما يحتاج إليه المسلمون اليوم هو الدعوات الظلامية من الكهوف... الرسول الكريم (ص)، لدى عودته من إحدى الغزوات، قال: «عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». فعلا فالجهاد اليوم ليس باختطاف الطائرات بل بصناعتها.

١٦/١١/٢٠٠١

امتحان اليوم الاخباري

نيودلهي

أما سؤال اليوم الاخباري، فهو كالآتي: أين يوجد ثاني أكبر تجمع إسلامي في العالم؟ إن كانت إجابتك هي إيران أو باكستان أو السعودية فهي خطأ. لأن ثاني أكبر تجمع إسلامي يقع في الهند التي يفوق عدد مسلميها عدد المسلمين في باكستان أو بنغلادش، والتي تحتل المرتبة الثانية بعد أندونيسيا. مما دفعني إلى طرح السؤال التالي: لماذا لا نسمع كثيرا عن مسلمي الهند الذين يعدون أقلية في بلاد ذات أغلبية هندوسية ساحقة؟ كما أنهم لا يلومون أمريكا على كل مشاكلهم ولا يريدون أن يفجروا البرلمان الهندي بطائرات انتحارية. والجواب هو: نظام ديمقراطي متعدد الأعراق ذي سوق حرة. بكل تأكيد لمسلمي الهند مشاكل عديدة، إذ دخلوا على مر السنين الماضية في مواجهات عنيفة مع الهندوس، شأنهم في ذلك شأن بقية الأقليات الهندية. ولكنهم يعيشون في ديمقراطية تتسم بالضجيج والفوضى، حيث يُفتح لهم باب الفرص والإدلاء بصوتهم السياسي، وما لذلك من أهمية كبيرة.

لقد علق م. ج. أكبر، رئيس تحرير «العصر الآسيوي»، إحدى كبرى الصحف الوطنية الناطقة بالانجليزية في الهند، والممولة من قبل هنود غير مسلمين، قائلا:

«دعوني أجيب عن السؤال التالي: أي جالية إسلامية - عدا التي في الهند - تمتعت بنظام ديمقراطي على مدى الخمسين سنة الماضية؟ وحتى لا نبالغ في وصف الحظ السعيد لمسلمي الهند، هناك توترات، وحيف اقتصادي، واستفزازات كهدم جامع آيودحيا. إلا أنه في الواقع، يبقى الدستور الهنذي علمانيا، يكفل فرصا حقيقية لأي جماعة تثبت كفاءتها، وهذا ما يفسر النمو المتصاعد للطبقة الوسطى بين المسلمين التي لا تبطن نفس درجة الغضب التي لدى مثيلاتها في بقية الدول الإسلامية غير الديمقراطية». بمعنى آخر، ضمن أي إطار يتم تداول وطرح الغضب الإسلامي؟. ففي المجتمعات الاستبدادية، حيث يصبح الدين أداة للرفض بغضب، وحيث يصبح الجامع المكان الوحيد للتعبير عن الاحتجاج ضد استبداد الحكام المدعومين من قبل أمريكا، بحيث تصبح هي بدورها - أي أمريكا - منقوما عليها من قبل عموم المسلمين. وبالمقابل، بتواجد الإسلام في مجتمع تعددي وديمقراطي، فإنه يزدهر مثل غيره من بقية الأديان. فقد سبق وأن حكم الهند مسلمان، كما توجد إمرأة مسلمة في المحكمة العليا في الهند، هذا بالإضافة إلى مهندس البرنامج الصاروخي للهند،أ. ب. ج. عبد الكلام،هو مسلم أيضا. حكم المسلمون بمن فيهم النساء العديد من الولايات الهندية. ويأتي على رأس القائمة عظيم بريمجي، مؤسس صناعي في تقنية الاتصالات وأغنى رجل في الهند، كما صادف خلال الأيام الماضية أن قامت النجمة السينمائية وعضو البرلمان، شعبانة عزمي - المسلمة - أن انتقدت بشدة إمام أكبر جوامع نيودلهي، لإساءته للإسلام - على حد قولها - مقترحة عليه الذهاب إلى قندهار والالتحاق بطالبان. في ظل مجتمع ديمقراطي لا يخشى المسلمون - وخاصة النساء منهم - من انتقاد الأئمة المتشددين.

ماذا عن بنغلادش؟ التي تقارب باكستان من حيث عدد المسلمين. التي، وبدون أن يلحظ العالم ذلك، تم تداول السلطة فيها بشكل ديمقراطي ثلاث مرات - من بينهم امرأتان تم انتخابهما كرئيس للوزراء - خلال العشرية الماضية. والنتيجة: كما تشير معظم المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية إلى حالة النمو التي تشهدها بنغلادش التي لا تعبأ كثيرا بمعاداة أمريكا. في حين أن باكستان الغارقة في دائرة البن - لادنية، والدكتاتورية العسكرية، والفقر، والأصولية الإسلامية، هي بلد تشير معظم مؤشراته الاجتماعية إلى حالة الكساد حيث العداء لأمريكا على أشده. والرسالة هنا، إنها الديمقراطية يا غبي. كرد على مدى فداحة وخطأ كل من يقول بعدم حاجتنا إلى الترويج للديمقراطية في الوطن العربي، والاكتفاء بالاعتماد على الأنظمة القمعية هناك. في حال

سددنا كل سبل التغيير الاجتماعي السلمية، فإن إنفجارا ذا طابع إسلامي معاد للولايات المتحدة سيحصل في المنطقة. إذا كانت أمريكا راغبة في اجتثاث البن - لادنية من الدول العربية - الإسلامية، ما عليها إلا أن «تقدم دولا - ناجحة، كتعددية ديمقراطية، وذات مجتمع حداثي، كالهند مثلا، التي تواجه باستمرار تحديات الخطر الأصولي بمختلف تشكيلاته ناجحة - كقدوة ومثالا يحتذى به». ،بحسب تعبير رجا موهان، محرر الشؤون الاستراتيجية في جريدة ذي هندو. وبالفعل، حتى إن بدت الديمقراطية في حد ذاتها خياراً غير كاف، إلا أنها وبكل تأكيد ضرورية جدا لتمكين المجتمعات الإسلامية من تجاوز حالة التخلف الراهنة، وبالتالي، من الخطأ تجاهل ذلك.

٢٠/١١/٢٠٠١

دعاية الإرهاب

دبي، الامارات العربية المتحدة

أثناء زيارتي للخليج، اجتمعت بأحد أصدقائي العرب (شخص حساس، عذب، ومتفتح)، وبينما نحن نحتسي فنجان قهوة، أفضى لي بأمر يقلقه كثيرا، فقال: «يعتقد ابني، ابن الحادية عشرة، أن بن لادن شخص جيد».

بن لادن الذي يراه الأمريكيون كقاتل، بينما لا يزال في نظر العديد من الشباب العرب - بالرغم من هزيمته - كروبن هود، وذلك لأن جاذبيته لهم لا تنبع من رؤيته المستقبلية لمجتمع إسلامي مثالي، لو أقيم سترغب أقلية منهم العيش فيه. بل ترجع جاذبية بن لادن لهؤلاء الشباب العرب إلى رفضه المطلق لكل ما يزدرونه ويمقتونه هم بأنفسهم (حكامهم المنافقون، إسرائيل، الهيمنة الأمريكية، وتخلفهم الاقتصادي). مما يجعله الناطق الرسمي الوحيد باسم جموع المحبطين والضعفاء.

إذاً، بالإضافة إلى العدالة، هناك أسباب أخرى - وهي الأسباب نفسها التي دعتنا إلى إنهاء حكم طالبان - تحتم علينا إقصاء بن لادن، الذي بقدر ما تطول ملاحقتنا له، بقدر ما يصعب قيام حوار نزيه بين العرب والمسلمين فيما يتعلق بمستقبلهم. لننظر إلى كل هذه التفاهات التي تنشرها الصحافة - خاصة وسائل الاعلام الأوروبية والعربية - حول «الضحايا المدنيين» في أفغانستان. فقد تبين أن هؤلاء «المدنيين» الأفغان كانوا يصلون داعين إلى طلعات إضافية من مقاتلات من طراز «ب ٥٢»، كي تحررهم من

طالبان أموات أو أحياء. أما الآن وقد اندحرت طالبان، ما على الأفغانيين إلا أن يبدأوا حرب الأفكار فيما بينهم كي يختاروا أي مستقبل يريدون لمجتمعهم. وهو ما آمل أن يقوم به العرب في المستقبل بعد أن يتم التخلص من بن لادن. إذ بدل أن يساندوا بن لادن نتيجة غضبهم من حكامهم القمعيين الفاسدين، أو من سياسة الولايات المتحدة، فليبدأوا هم أنفسهم بإبداء آراءهم دون خوف. فقط حين يتخلى هؤلاء عن بن لادن كما تخلى الأفغان عن طالبان، وفقط حين يعترف الجميع أن اعتداءات ٩/١١، كانت ناتجة أساسا عن مشاكل داخلية في المجتمعات العربية، ولم تصدر نتيجة مشاكل داخلية في المجتمع الأمريكي. حينها لا نستطيع التخلص من الإرهابيين فقط، بل ومن قواعدهم أيضا. أو كما علق ستيفن. ب. كوهين، خبير شؤون الشرق الأوسط قائلا: «نحن كغربيين لا يمكننا القيام بذلك الحوار بدلا عنهم، لكننا نستطيع خلق الظروف الملائمة لتحقيق ذلك. ينحصر دور أمريكا في الإرشاد إلى طرق التغيير التدريجي، هذه أمور لا تتم بسرعة. لا الديمقراطية الفورية ولا وهم الديكتاتورية الليبرالية يقدران على خدمة مصالحنا. كما أنه لا يمكننا أن نعامل العالم العربي كمحطة بنزين عملاقة، دون الاكتراث بما يحدث في الداخل، وذلك لأن الغاز بدأ يتسرب الآن، هناك من بدأ برمي أعواد الثقاب عليه».

أشاهد علامات حرب الأفكار هذه بشكل يومي، مما يؤكد إمكانية حدوثها: «نحن لا نستطيع صناعة قرص أسبيرين لصداع الرأس» خاطبني أحد الصحافيين العرب بكل غضب. أو ما كتبه الدكتور أحمد البغدادي، في مقالة جريئة نشرتها كل من جريدة الأنباء الكويتية، وأخبار اليوم المصرية تحت عنوان «شارون إرهابي - وأنتم من؟» والتي قال فيها: «كان شارون إرهابيا منذ اليوم الأول لنشأة الحركة الصهيونية... لكن ماذا عن الحكام المسلمين...؟ ماذا عن اضطهاد المثقفين العرب وجرّهم إلى قاعات المحاكم، وأحكام الهرطقة الصادرة ضدهم... هذه أمور لا توجد إلا في العالم الإسلامي. أليس هذا إرهابا؟... العراق وحده أصدع مثال على إرهاب الدولة لمواطنيها وجيرانها، ألا يعد هذا إرهابا؟... لقد ابتدع الفلسطينيون اختطاف الطائرات وإخافة المسافرين، أليس هذا إرهابا؟ فالعرب المسلمون لا يضاهيهم أحد في ذلك. هم سادة الإرهاب ضد مواطنيهم وضد أبرياء العالم بدعم من بعض الأئمة... نحن أمة ضحكت من جهلها الأمم. فالعالم العربي - الإسلامي، اليوم، هو المكان الوحيد في العالم الذي يئن فيه المثقفون في أقبية السجون - ذنبهم الوحيد الكتابة -. يدعي حكامنا أن ديننا هو دين التسامح، في حين أنهم لا يظهرون أي تسامح مع من يخالفهم الرأي... لقد آن الأوان

كي يدفعوا الثمن. . . والحساب طويل، أطول من لحى أفراد عصابة طالبان مجتمعين. رسالة الغرب للعالم العربي - الإسلامي واضحة: غيروا من أساليبكم وإلا. . .». وبالتالي، علينا نحن أن نقوم بمحاربة زعماء الإرهاب، لكن على العرب والمسلمين عامة الدخول في حرب الأفكار لاجتثاث قواعد الإرهاب. وبقدر ما نستعجل في مساعدتهم - مثلما فعلنا في كابول - بقدر ما تكون النتيجة أفضل.

٢٠٠١/١١/٢٣

الحرب الحقيقية

إذا كانت أحداث ١١/٩، قد أطلقت شرارة الحرب العالمية الثالثة، يتوجب علينا فهم دوافع هذه الحرب. لأننا لا نحارب للقضاء على «الإرهاب» فقط، فالإرهاب لا يتعدى أن يكون سوى أداة في هذه الحرب. بل نحن نخوض حرب إيديولوجية: إيديولوجيا دينية كليانية (توتاليتارية). كما خضنا الحرب العالمية الثانية لتحدي إيديولوجيا كليانية علمانية - النازية والشيوعية -، فالحرب العالمية الثالثة تخاض ضد كليانية دينية، والتي هي عبارة عن دعوة إلى إعلاء وفرض هذه العقيدة على العالم بالقوة، وهذا جوهر الـ«بن لادنية». التي هي على النقيض من النازية من ناحية عدم إمكانية خوضها بالجيوش وحدها، بل هذه حرب تخاض في المدارس، المساجد، الكنائس، والكنيست، حرب لا يمكن تحقيق النصر فيها إلا بمساعدة أئمة الجوامع، الحاخامات، والكهنة.

جنرالات هذه الحرب، هم ناس مثل الحاخام ديفيد هارتمان، من معهد شالوم هارتمان بالقدس. كان أول ما شدني إلى الحاخام هارتمان حين كنت مراسلاً في القدس، هو تأكيده المتواصل على ضرورة إعادة قراءة اليهود لديانتهم بشكل ينسجم مع متطلبات العصر دون أن يؤدي ذلك إلى إخماد حماستهم الدينية، وبشكل يعلنون فيه أن الخالق يتكلم عدة لغات، وأنه ليس منهكا بديانة واحدة. وإلا فإنه لا مستقبل لهم في أرض إسرائيل. كما أعجبني إدراكه المبكر لطبيعة الصراع مما دفعه إلى تأسيس مدارس خاصة لمزاحمة بقية المتطرفين من اليهود والمسيحيين والمسلمين، الذين يقومون بتدريس تعاليم دينية إقصائية.

بعد أن زرت المدارس الإسلامية في باكستان، حيث درس معظم قادة حركة

طالبان، وبعد أن شاهدت هناك ما يتم تلقينه لأولئك الصبية الصغار، هاتفت الحاخام هارتمان سائلا عما يجب عمله لمحاربة التطرف الديني؟ أجابني قائلا: «تجنح الديانات السماوية الثلاث (اليهودية، المسيحية، والإسلام) إلى الاعتقاد بأنها تملك الحقيقة المطلقة». أو هذا ما صرح به أعضاء طالبان حين هدموا تمثال بوذا، كما أن غيرهم قال بذلك أيضا. نحتاج إلى إيديولوجيا تعددية كي نحارب الكليانية الدينية بفاعلية، إيديوليوجيا تعانق التعددية الدينية ومبدأ إثراء الأديان ودون الاعتقاد بامتلاك الحقيقة المطلقة. وبما أن أمريكا هي مهد هذه الايديولوجيا، لذلك دعا بن لادن - الذي يمقت تفكيراً كهذا - إلى تدميرها. قد يتوقف مستقبل العالم على الطريقة التي نخوض بها هذه الحرب. هل يستطيع المسلمون والمسيحيون واليهود أن يعوا أن الخالق يتكلم العربية يوم الجمعة، والعبرية يوم السبت، واللاتينية يوم الأحد، وأنه يرحب بمختلف البشر الذين يتقربون منه من خلال تاريخهم الخاص ولغتهم وإرثهم الثقافي؟ كما واصل الحاخام هارتمان متسائلا: «هل أن تعصب أحادية الرأي ضرورة حماسية للحفاظ على البقاء، أو هل بإمكاننا أن نصل إلى رؤية متعددة اللغات تجاه الخالق قائمة على أنه لم يقتصرعلى فهم أحادي؟»".

لقد أقرّ بإمكانية ذلك الكثير من المسيحيين واليهود، حيث رجع العديد منهم إلى النصوص المقدسة لإعادة قراءة تراثهم بشكل معانق للحداثة والتعددية، بحيث يكون هناك مجال للعلمانية وبقية المعتقدات، في حين رفض الأصوليون من المسيحيين واليهود هذه الفكرة من الأساس.

أما الاشكالية فيما يخص الإسلام، فإنه بالرغم من بعض المحاولات الإصلاحية، لم يكتب النجاح لأي منها، ولم تتبنها أي دولة. من الخطأ الفادح ومخادعة النفس، تكرار مقولة أن الإسلام كعقيدة لا مانع لديه من التعايش مع كل من الغرب العلماني،الحداثة، والتعددية، والمشكل الوحيد ينحصر في هذه الفئة القليلة لأتباع بن لادن. بالرغم من رساخة مبدأ العدالة والصدقة والرحمة في الإسلام، إلا أنه - أي الإسلام - لم يطور أي فلسفة دينية تعترف بحق بقية الأديان في المساواة. وما بن لادن - الذي صفعنا في الوجه - إلا مثال حي لأقصى حالات التطرف للفكر الإقصائي تلك.

لقد عرفت كل من المسيحية واليهودية جدلا حول هذا الموضوع استمر قروناً عديدة. إلا أن جدلاً داخلياً كهذا ضمن الإسلام لإعادة قراءته من أجل إيجاد مخرج يسمح بقبول التعددية والحداثة، والحفاظ في الوقت نفسه على الدرجة نفسها من الحماسة والورع الديني، لم يحدث بعد. وبما أن كل أضواء العالم كلها مسلطة على

هذه الإشكالية، يأمل المرء أن يدرك عامة المسلمين أن مستقبلهم في هذا العالم المتداخل المندمج المصالح، يتوقف على مدى قابليتهم لقراءة ماضيهم.

٢٠٠١/١١/٢٧

تحذير

من الممتع حقا مشاهدة صور الرئيس بوش والرئيس الروسي بوتين، يربّت كل منهما على كتف الآخر وهما يتناولان الباربكيو في مزرعة بوش في كراوفورد. لقد كان مشهدا مطمئنا حقا، رغم أننا لا نراه يتكرر باستمرار. بالرغم من أهميته كلقاء شخصي ومهم، إلا أنه لم يتمخض عنه أي اتفاق، وهذا أمر غير عادي. ربما لأن حركة طالبان كانت بصدد الاندحار حينها، لذلك لم يول أحد أي أهمية على نتيجة ذلك اللقاء. لكن المشكلة تكمن في مدى قابلية الرئيس بوش في التخلي عن أجندتة السابقة لـ ٩/١١، لصالح متطلبات أجندة ما بعد ٩/١١.

لقد جاء فريق بوش إلى البيت الأبيض، وهم مهووسون ببناء درع الصواريخ الباليستية. ولكي يتمكنوا من اختبار صواريخ هذا الدرع المزمع إنشاؤه، يجب عليهم أن يلغوا أحاديا معاهدة آ. بي. آم. المبرمة مع روسيا سنة ١٩٧٢. بالرغم من قول بعضهم بإمكانية قيام الولايات المتحدة بكل التجارب الصاروخية دون أن يشكل ذلك خرقا لمعاهدة آ. بي. آم. إلا أن متشددي فريق بوش لا يعبأون بذلك كثيرا. لأنهم في الحقيقة كل ما يريدون هو التخلص من تلك المعاهدة برمتها، بما في ذلك كل أشكال الرقابة على التسلح النووي، بشكل يسمح لهم بمواصلة العمل على تحقيق حلم رونالد ريغان الرامي إلى إنشاء درع صواريخ حرب النجوم. فالروس عارضوا فكرة تغيير آ. بي. آم من حيث المبدأ، لأنها كاتفاقية تعد كشهادة لهم بموقعهم كقوة عظمى ذات قدرات نووية. فبالحفاظ على تلك المعاهدة، يشعر الروس أن لديهم سنداً قانونياً يصد الولايات المتحدة عن تطوير برنامجها الصاروخي على الطريقة التي يريدها فريق الرئيس بوش. بل إن أكثر ما يخشاه الروس هو قيام مظلة حرب نجوم لا يستحيل معها على روسيا تهديد الولايات المتحدة فقط، بل ويفقدها المقدرة على الرد على أي هجوم أمريكي، مما يشكل خرقا للتوازن النووي الذي حافظ على السلم منذ الحرب العالمية الثانية.

باختصار، في الوقت الذي وضعت فيه إدارة بوش برنامج الصواريخ الدفاعية على رأس أولوياتها قبل١١/ ٩، عارض بعضنا ذلك، بطرح السؤال البسيط التالي: ما هي الأخطار الحقيقية على أمن الولايات المتحدة؟ تعددت الأجوبة على ذلك، بين أخطار انتشار الأسلحة النووية، الإرهاب، المافيا، بعض الدول المارقة، والفوضى المالية. ثم بادرنا بطرح السؤال الثاني: هل من الممكن للولايات المتحدة أن تواجه أي من تلك الأخطار بفاعلية دون أن تكون هناك علاقة وثيقة مع روسيا؟ وبما أن الجواب كان لا، فلا بد لنا من التخلي ليس فقط عن هذا البرنامج الصاروخي، بل وفكرة توسيع الناتو من أجل الحفاظ على علاقة إستراتيجية مع موسكو. لم تثبت صحة تلك الرؤية إلا بعد وقوع أحداث ١١/٩، حيث تبين مدى ضرورة التعاون مع روسيا لإزاحة نظام طالبان، وهي مساعدة ستكون ضرورية جدا لمحاربة العراق.

الأمر الإيجابي هو أن الرئيس بوش، منذ أحداث ١١/٩، بدأ يدرك أهمية روسيا في السياسة الخارجية الأمريكية. وهو ما دفعه إلى تقديم عرضين إلى الرئيس بوتين: يمكننا الحفاظ على معاهدة آ. بي. آم لمدة قليلة قادمة بشرط أن تسمح لنا استثنائيا بإجراء مختلف التجارب الصاروخية، أو أن نتخلص من المعاهدة الآن وبشكل فوري وننهي اللقاء بمصافحة واتفاق حول كيفية الحد من انتشار واختبار الأسلحة النووية. إلا أن السيد بوتين قال لا لكلا العرضين. أولا لأنه لا يستطيع أن يقنع جنرالاته بمدى الاختبارات التي تنوي الولايات المتحدة إجراءها. ثانيا، بدت فكرة التصديق على مراقبة التسلح بالمصافحة لاعقلانية بالنسبة للروس. وقد علق مايكل ماندلباوم، خبير شؤون السياسة الخارجية في جامعة جون هوبكنز قائلا: «من السخافة القول بإنهاء اتفاقية آ. بي. آم والاستعاضة عنها بمصافحة بين بوتين وبوش. هل يود أي من أعضاء فريق بوش شراء منزل بتلك الطريقة - مجرد المصافحة ودون توقيع أي عقد؟ -، ماذا حدث لمبدأ ريغان: ثق ثم راقب؟».

إن فريق الرئيس بوش سيقدم على خطأ كبير، تجاه السيد بوتين الذي قررالاتجاه غربا، متجاوزا جنرالاته وشعبه في ذلك. ربما لأنه في حاجة إلى استمرارية غطاء معاهدة آ. بي. آم كي يدفعهم إلى الاتجاه غربا كذلك، لذلك نجده لا يستطيع التنازل كثيرا فيما يتعلق بتلك المعاهدة. لذلك من المفروض أن نمنحه ما يريد ونتخلى عن فكرة الاختبارات التي سوف لا تعود علينا بأي فائدة، مقابل ما يمكن أن نجنيه من تحالفه معنا. حتى لو تمكننا من إتمام بناء درع صواريخ حرب النجوم قبل١١/ ٩، فإن ذلك لا يمكّننا من إنقاذ حياة أمريكي واحد. لكن حين نرتب أولوياتنا بشكل صحيح

ونبدأ ببناء علاقة إستراتيجية مع روسيا، فإننا سنبقى قادرين في الوقت نفسه على إجراء تجارب الأنظمة المضادة للصواريخ، والحفاظ على تعاون روسيا معنا لمجابهة أخطار ١٢/ ٩ وما بعده، وهذا أمر في غاية الأهمية.

٢٠٠١/١١/٣٠

الحقوق الحقيقية في الواقع

أثناء حوار تلفزيوني أجرته معي إحدى القنوات العربية، طرح عليّ مقدم البرنامج سؤالا متداولا بكثرة في العالم العربي - الإسلامي. يقول نص السؤال ما يلي: «هل لديكم أدلة تدين بن لادن؟ كيف يمكن لكم أن تتأكدوا بشكل قاطع أن المسافرين العرب هم الخاطفون؟ ألا يكون من المخجل لكم إذا تبين خلال السنوات القادمة أن الخاطفين من كولومبيا؟؟»

لقد كان مقدم البرنامج من الصحفيين العرب الجادين، الذي لعب جزئيا دور محامي الشيطان، إلا أنه وبكل تأكيد كان يعبّر عن رأي جزء عريض من مشاهديه العرب. بينما كنت بصدد الإجابة، تبادرت إلى ذهني صور طلاب الجامعات الامريكيين - من البيض والسود - حين تم الحكم «بعدم إدانة» أو. جي. سيمبسون. إذ انفجر السود في شكل إحتفالي، بينما عم الغضب صفوف البيض وامتعقت وجوههم. هل لا زال ثمة من يتذكر ذلك؟ تلك الصورة تحديدا تنطبق علينا نحن والعرب. بقدر ما عانى السود من حيف النظام القضائي الأمريكي على مدار عقود، بقدر ما عبروا عن غضبهم بمساندتهم لأو. جي. سيمبسون بالرغم من وضوح إدانته. وهو ما ينطبق تماما على مساندة غالبية العرب والمسلمين لبن لادن، كتعبير عن غضبهم من دعم أمريكا لكل من إسرائيل والأنظمة العربية القمعية. هكذا ينظر إلى أمريكا اليوم، العديد من العرب والمسلمين بالطريقة نفسها التي ينظر بها العديد من السود إلى شرطة لوس - أنجلوس، أو آل. آي. بي. دي، كونها قوة ظالمة.

لهذا السبب، يمتنع العديد من المثقفين العرب عن الإقرار بذنب بن لادن. فهم لا يصادقون على جرائمه، إلا أنهم يستسيغون محاولته لتجاوز الوضع القائم. وفي حال تعرض بن لادن للمحاكمة من قبل مناصريه، ستقع تبرئته بشكل فوري.

أثير هذا الموضوع فقط لإيضاح المسألة التالية: من العيب وصف وزير العدل جون

آشكروفت، بالجنون بسبب قراره باتباع إجراءات ظالمة وغير معهودة، كتقديم المشتبه فيهم بالإرهاب أمام محاكم عسكرية. برأيي هناك مبررات تخوله اتخاذ مثل تلك الإجراءات، التي أثارت انتقادات وإحتجاجات عارمة لما تمثله من خرق واضح لإحدى أهم ركائز أي مجتمع ديمقراطي. فلا يجوز للحكومة اعتقال أي شخص في حال عدم توفر أي أدلة قانونية تثبت الإدانة، التي - في حال توفرها - يتحتم على المتهم أن يحال أمام محكمة مدنية، ويحاكم قضائيا وبشكل علني. وفي حال حياد مسؤولينا عن هذا الطريق، من الواجب إيقافهم عند حدهم. إلا أني لا أستطيع إخفاء تعاطفي مع السيد آشكروفت. إذ بالاستماع إلى حجج معارضيه، يتولد الاعتقاد بأننا صرنا ننعم بالأمن الآن: سقوط حركة طالبان، ربحنا الحرب، وبالتالي بإمكاننا أن نعود إلى وضع ١٠/٩، بدون إعطاء أي أهمية لفرادة العدو الذي نحارب.

لقد بني نظامنا القضائي - إلى حد ما - على منظومة قيم ومفاهيم مشتركة بين الداعي والمدعى عليه. مبدأ من المستحيل تطبيقه على هذه الحالة. مثلا، عندما كنا في حالة حرب مع الاتحاد السوفياتي، كنا ننظر إلى العالم بمنظار مختلف، نظرا لاتفاق الطرفين على بديهيات ومبادئ إنسانية عامة. أما مع بن لادن والقاعدة، فإننا في مواجهة شيطان راديكالي - هؤلاء أناس ليسوا مستعدين لتدميرنا فقط، بل وتدمير أنفسهم أيضا - هم ليسوا أعداء أمريكا فحسب، بل أعداء الإنسانية جمعاء. لذا، وقبل أن نعترض على إجراءات السيد آشكروفت، علينا أن ندرك حقيقة أن معظم الانتحاريين ينحدرون من عائلات كبيرة. لقد تركوا وراءهم آباء، أمهات، إخوة، أخوات، وخطيبة في حالة أحدهم. وهو ما يعني أنهم يكرهوننا أكثر مما يحبون عائلاتهم. أو كما قال عنهم آري شافيت، الكاتب الإسرائيلي، بأنهم يكرهوننا أكثر مما يحبون الحياة نفسها. خلال الحرب الباردة كنا ندرك بالنهاية أن الروس يحبون الحياة بالقدر نفسه الذي نحبها به نحن. وهو ما فسر تراجعهم في اللحظة الأخيرة أثناء أزمة الصواريخ الكوبية. هذا قطعا يختلف عن العدو الحالي. لذا، من المفروض انتقاد السيد آشكروفت والسيد بوش في كل مرة يخرقان فيها القانون، بل من الواجب علينا أن نراقب كل خطوة يقدمان عليها عن كثب. لكن، يجب ألا نتجاهل الحيثيات والأسباب لكل إجراء يتخذانه. يجب ألا ننسى تلك الفرحة البادية على وجوه الانتحاريين وهم يصدمون طائرات الركاب بمركز التجارة العالمي لقتل أكبر عدد ممكن من الأمريكيين. يجب ألا نتغافل عما كان من الممكن أن يحدث فيما لو أتيحت لهم فرصة الحصول على أسلحة أشد فتكا. وألا ننسى كم من الزمن عاشوا بيننا هنا بدون أن يتأثروا بنا، مصممين على الانتحار

لاعتقادهم أن القوانين الأمريكية إنما وجدت فقط ليتم التحايل عليها، وأن المواطنيين الأمريكيين خلقوا فقط ليتم قتلهم، ولم يوجد المجتمع الأمريكي إلا ليتم تدميره.

٢/١٢/٢٠٠١

نهاية الانتفاضة

لقد انتهت الانتفاضة الفلسطينية الثانية نهاية الأسبوع الماضي، إثر العملية الانتحارية ضد الأطفال الإسرائيليين. وهذا ما يدل على تبني الحركة الوطنية الفلسطينية أسلوب بن لادن الإجرامي والتدميري ضد المدنيين، دون أي مشروع سياسي وخارج أي منظومة عقائدية. يجب على الحركة الوطنية الفلسطينية - إن أرادت الحصول على الاستقلال - أن تنقذ نفسها الآن، وإلا فإنها ستجد نفسها في الكهف المظلم نفسه مع أسامة بن لادن.

كيف ذلك؟ في الواقع، اعتقدتُ بعقم الانتفاضة الفلسطينية الثانية منذ البدء. لماذا؟ لأنها تزامنت مع قيام الولايات المتحدة وإسرائيل بتقديم أفضل عرض ممكن لقيام دولة فلسطينية، يحصل بمقتضاه الفلسطينيون على أكثر من٩٠ بالمائة من الضفة الغربية وقطاع غزة، إضافة إلى جزء من القدس الشرقية. فبدلاً من أن يقبلوا به، ويطالبوا إسرائيل كي يحصلوا على بقية مطالبهم، نجدهم يتوخون العنف الدموي. كما أشار استطلاع للرأي منذ أسبوعين، أن هناك نسبة٦٠ بالمائة من الإسرائيليين يفضلون قيام دولة فلسطينية، وهي نسبة عالية بعد مرور سنة على اندلاع أعمال العنف، حتى الرئيس بوش أعلن دعمه لفكرة قيام دولة فلسطينية. بعبارة أخرى، لا يعني ذلك أن طموحات الشعب الفلسطيني بالاستقلال تمّ تجاهلها، ولم يبق أمامهم أي خيار آخر سوى اللجوء إلى العنف. لقد انتظرت الأغلبية الإسرائيلية الصامتة التوصل إلى اتفاق حقيقي، مما سيهدد آرييل شارون بخطر التنحي في حال ازدرائه لأي مبادرة سلمية من طرف الفلسطينيين. إلا أنهم بادروا بالعنف المؤدي إلى نتيجة وحيدة: لا يعبأ الفلسطينيون كثيرا بقيام دولتهم المستقلة، بل أولويتهم على ما يبدو، هو قتل اليهود، مما سيدفع بإسرائيل إلى القيام بأعمال انتقامية واغتيال قادة حماس الذين لا إنجازات لهم سوى التباهي بتنظيم عمليات انتحارية سابقة. وهكذا نسجت الانتفاضة الثانية - التي من بين أهدافها المعلنة عند اندلاعها، الحصول على مائة بالمائة من الضفة الغربية وقطاع غزة وشرقي القدس - على منوال بن لادن، عندما تحاول تدمير إسرائيل بالكامل.

هناك في العالم العربي والإسلامي العديد من الأصوات الحية والمدركة لمدى عقم العنف. لنأخذ جريدة «جوردان تايمز» التي نشرت مقالا في افتتاحية عدد يوم الاثنين الماضي، تقول: «هناك تعاطف عالمي متزايد، بل ودعم ثابت لشرعية كفاح الفلسطينيين من أجل تحررهم واستقلالهم. . . إلا أن توخي العمليات الاستشهادية التي تستهدف المدنيين بالأساس، أساء كثيرا للقضية نفسها». إن القادة العرب يعون هذا الأمر جيدا، ولكن المؤسف أنهم لا يقولون ذلك إلى الفلسطينيين. لأنه وفي حالة عدم التمييز في العالم العربي والإسلامي بين المقاومة الفلسطينية الموجهة ضد أهداف عسكرية، معارضة لتوجه سياسي معين، وبين الإرهاب الذي يستهدف الأطفال بقطع النظر عن أي مشروع سلمي، وبدون أي بديل سياسي، حينها سينعدم أي ترابط أخلاقي بين أمريكا والعرب، ربما هذا ما يبرر دفاع البيت الأبيض غير المشروط عن أعمال إسرائيل الانتقامية.

لقد كان السيد شارون على حق حين قال إن لإسرائيل الحق في الدفاع عن النفس بكل السبل المتاحة، إلا أنه يرتكب خطأ فادحاً جدا إذا قرر عزل عرفات، لأن تلك مهمة الفلسطينيين وحدهم. يجب على إسرائيل أن لا تتحمل تعاستهم، بل عليهم مجابهة واقعهم. تقتصر مهمة السيد شارون على تبديد أي وهم لديهم بتدمير إسرائيل، وإعلامهم بوضوح، أن استعداد إسرائيل لتقديم عرض سلام عادل ومشرف مرهون باختيار الفلسطينيين لقيادة جديدة ذات توجه سلمي.

وبالرغم من اتهامهما الدائم لإسرائيل، فإننا بحاجة إلى مساعدة كل من السعودية ومصر، كي يوفرا الدعم والغطاء اللازمين من أجل التوصل إلى اتفاق. أما أمريكا، فقد طلبت من إسرائيل علنا أن تكف عن بناء المستوطنات، وتنهي الاحتلال، وتقبل بدولة فلسطينية كشرط لإنهاء الصراع. إذا، متى ستطالب كل من مصر والسعودية علنا الفلسطينيين بالقبول بالدولة اليهودية وإنهاء النزاع؟ (متى سيقولون ذلك لأنفسهم أيضا؟). لأنه وفي حال عدم قيامهما بذلك والاكتفاء بمشاهدة اختطاف المقاومة الوطنية الفلسطينية من قبل حماس والجهاد الإسلامي - الذين يؤمنون بإبادة اليهود كحل وحيد ونهائي للنزاع -، حينها ستنسحب أمريكا مكتفية بدور المراقب، معتبرة الاحتلال الإسرائيلي مجرد إجراء للدفاع عن النفس عملا بقاعدة البقاء للأقوى.

٢٠٠١/١٢/٥

لا تسأل ماذا...

يروي مقدم الأخبار توم بروكوف قصة اجتماعه بأحد رجال الإطفاء في نيويورك، تم خلال الأسبوع الموالي لأحداث ٩/١١، حيث تحادث مع رجل الإطفاء ذاك العائد من تشييع جنازة جماعية لرفاق له ماتوا خلال الاعتداءات. يروي السيد بروكوف كيف أمسك رجل الإطفاء بذراعه وقال بصوت كله أسى: «سيد بروكوف، انظر إلى جيلي، فقط شاهد ما حل بنا. هذا دورنا كي نصير الجيل الأعظم. أسوة بذلك الجيل الذي ساعد على هزيمة النازية في الحرب العالمية الثانية».

هناك شيء من الصحة في قول كهذا. لا أملك إلا الاحترام للطريقة التي يقود بها الرئيس بوش الحرب. إلا أن متطلبات اللحظة لا تقتصر فقط على إرسال الجنود إلى الجبهة لملاحقة الإرهابيين، لأن هناك إحساساً عميقاً لدى عامة المواطنين في أمريكا ما بعد ٩/١١، يحثهم على مطالبة الرئيس بوش بتفويض يخولهم القيام بأشياء أكثر من مجرد التسوق. وبالنظر إلى حجم التبرعات التي انهالت على عائلات الضحايا ندرك أن هناك خزان طاقة شعبية هائلاً من الممكن أن يساعد المجتمع الأمريكي على التجديد والتحول نوعيا - وهو ما لم يحدث بعد -. كما يلاحظ المرء أن الرئيس بوش مصمم على فرض رزنامته لما قبل٩/١٠، وفرضها علينا في عالم ما بعد ٩/١٢، لما في ذلك من ضرر كبير لنا وله.

تخيل مثلاً، أن يطلب الرئيس بوش من جميع الأمريكيين أن يضبطوا أجهزة التدفئة المنزلية - أو الترموستات - بحيث لا تتجاوز ٦٥ درجة مئوية، على أن هذا سيساعدنا على الانعتاق من تحكم منظمة الأوبك فينا. أو كأن يعلن عن قيام مشروع مانهاتن للقيام بأبحاث تخولنا الاعتماد على مخزوننا المحلي، إما بصناعة سيارات لا تستهلك كثيرا من الوقود، أو بتجديد مصادر الطاقة، مما سيحررنا من تبعية استيراد الطاقة. إذ بالرغم من أننا كأمريكيين نشكل نسبة ٥ بالمائة من مجموع سكان العالم، إلا أننا نستهلك ما يعادل ٢٥ بالمائة مما ينتجه العالم من الطاقة. أو تخيل أن يطلب الرئيس بوش من كل شاب أمريكي الالتحاق بأي فرع من فروع الخدمة العامة - الجيش، البحرية، المارينز، سلاح الجو، قواة خفر السواحل، الأف.بي.آي، السي. آي. اي، الخ. . . - حينها سيتطوع الناس أفواجا أفواجا. أو كأن يطلب من مديري الشركات الكبرى اقتطاع نسبة ١٠ بالمائة من الرواتب بدءاً بأنفسهم، حتى يمكن الحفاظ على العديد من الوظائف.

إني لا أطرح هذه الأفكار من باب المزايدة الوطنية، بل لاعتقادي بوجود مصلحة عليا لنا في ذلك. فإذا كنا عازمين على ملاحقة خلايا الإرهاب من كابول إلى مانيلا علينا أن نتأكد من حقيقة أننا أفضل مجتمع، وأن نتصرف كقدوة حسنة لبقية دول العالم. وإلا فإن بقية العالم سينقلب ضدنا. مما يحتم علينا ضرورة مساعدة طبّبي هذا العالم بالقدر نفسه الذي نحارب به أشراره. وهذا يعني مضاعفة مساعداتنا الخارجية، وتكثيف دعمنا للمسارات الديمقراطية، وزيادة نسبة مساهمتنا النقدية في بنوك الدول النامية (التي تقدم قروضا صغيرة إلى الفقراء من النساء)، وإزالة العوائق التجارية أمام صادرات المنتجات النسيجية والزراعية من الدول الأشد فقرا في العالم. أو لنتخيل رئيس الولايات المتحدة يطلب من كل مدرسة أمريكية جمع تبرعات نقدية لشراء معدات إضاءة تعمل بالطاقة الشمسية والتبرع بها لأطفال إفريقيا المحرومين من الكهرباء - بعد أن يتم دمغها بالعلم الأمريكي، بحيث يتذكر هؤلاء الأطفال أن الأمريكيين قد أضاءوا لياليهم.

تبدو مسألة كيف ينظر إلينا العالم في غاية الأهمية اليوم أكثر من أي وقت مضى، حالة لا يمكن تغييرها بمجرد حملة دعائية، أو بمجرد ربح الحرب في أفغانستان. يمكننا تغييرها فقط بما نقوم به في الداخل والخارج على السواء. هذه حرب لا تنتهي بمجرد القيام بإصلاحات في كل من كابول، واشنطن، شيكاغو، أولوس أنجلوس. لنتذكر أن ضحايا أحداث ٩/١١، كانوا من جميع فئات المجتمع الأمريكي: سود، بيض، هيسبانك، أغنياء، فقراء، وطبقى وسطى. فلئن تعلّمنا أحداث ٩/١١ شيئاً، فقد تعلّمنا أنه إذا لم نذهب إلى منبع الشر ومحاربته، فإنه سوف يأتي إلينا.

مثلما أثبتت الأجيال السابقة كفاءتها بالدفاع عن أمريكا وحلفائها بجدارة، يتحتم على هذا الجيل العظيم أن يثبت جدارته في الدفاع عن أمريكا التي تقود العالم في محاربة الإرهاب.

سيادة الرئيس أين تريدنا أن نتطوع؟

٢٠٠١/١٢/٩

رسالة إلى العربية السعودية

من: الرئيس بوش

إلى: الشيخ صالح الشيخ، وزير الشؤون الإسلامية

السيد الوزير، أنا متأكد من أنك ستستغرب تلقي رسالة مني. في السابق، اعتاد الرؤساء الأمريكيون على مراسلة وزراء النفط السعوديين فقط، لأننا لم نتعامل بجدية مع العربية السعودية كمجتمع، بل تعودنا أن ننظر إليها كخزان كبير للنفط من المفروض حمايته وصيانته. ولكننا تعلّمنا من أحداث ٩/١١، أنك الوزير السعودي المعني بالتحدث إليه، لأنه، وبكل أسف هناك خمسة عشر من الخاطفين، هم من الشباب السعوديين الذين تخرجوا من المدارس الدينية التي تشرفون عليها.

أولا، دعني أعلمك بكل وضوح أن أمريكا لم تقرر فجأة بأن تصير معادية للسعودية، كما أنه لا وجود لمؤامرة «صهيونية» لإفساد علاقتنا. لذا أرجو منكم ألا تعتدوا بمثل هذه الفكرة التافهة. كما أريد الإشارة إلى الاعتقاد السائد بأن السعودية كانت حليفاً موالياً لنا، وأن العديد من أبنائها الذين تلقوا تعليمهم هنا، موالون لنا أيضا. أما الأمر الأهم، فهو أننا لا نستطيع محاربة الإسلام الراديكالي دون تلقي مساعدتكم أنتم بالذات، لأن السعودية كزعيمة للعالم الإسلامي، وراعية للحرمين الشريفين، تمول وتشرف على آلاف الجوامع والمدارس الإسلامية في مختلف بقاع العالم، وبالتالي يستحيل علينا الاستغناء عن مساعدتكم. كما أنه من الخطأ الواضح الاعتقاد بعدم وجود أي مشاكل بيننا، وأن كل ما تحتاجون إليه هو حملة علاقات عامة وعقد بعض الاجتماعات مع نخب واشنطن كحل لكل المشاكل العالقة. لأن مشكلتكم مع الشعب الأمريكي، الذي صار منذ ٩/١١، يخشى أن مدارسكم، وآلاف المدارس الإسلامية التي تشرف عليها حكومتكم وتمولها جمعياتكم الخيرية في العديد من مناطق العالم، تقوم بنشر أفكار وتعاليم تقول بدونية غير المسلمين، وبالتالي يجب عليهم اعتناق الإسلام.

حتى نتحلى بالحساسية، نحن لا نستطيع أن نقول لكم كيف تعلموا أطفالكم، لكن يجب أن تعلموا أن بضعة آلاف من الأطفال الأمريكيين، صاروا أيتاما اليوم، نتيجة لما قام به شباب راديكاليون من خريجي مدارسكم الإسلامية. لأننا لا نقدر على مطالبتكم

بتعليم أطفالكم بطريقة ما في هذا العالم الغريب - الذي أصبحت فيه وسائل الدمار الشامل في متناول الجميع -، إلا أننا نطلب منكم أن تتوصلوا إلى قراءة الإسلام بشكل يدعو إلى احترام الديانات الأخرى والتسامح معها، ونشر ديانتكم سلميا. كما سيساهم تجاهلكم لهذا الطلب في تعقيد الأمور، بحيث ستصبحون في حربنا على الإرهاب، كالاتحاد السوفياتي سابقا من حيث درجة العداء لنا، أثناء حربنا على الشيوعية، مصدرا للتمويل والإيديولوجيا والبشر الذين يشكلون تهديدا مباشرا لنا. إلا أن الأمر المشجع في حالتكم، أنكم تدركون ذلك جيدا إذ بادرتم بالحد من الدعوة إلى العنف في جوامعكم ووسائل إعلامكم. كما لاحظت أن الأمير عبد الله، خطب في أئمتكم مطالبا بـ: «فحص ومراقبة كل كلمة نتفوه بها، عملا بما ورد في الآية الكريمة ﴿وجعلناكم خير أمة أخرجت للناس﴾». كما لاحظت أيضا أنكم قلتم لجماعة من رجال الدين ما يلي: «المهم الآن هو التشجيع على الظهور التدريجي لحركة إسلامية معتدلة وعقلانية، مما سيترتب عليه من إضعاف للحركات المتشددة». كما أني فرحت بسماع إدانة الشيخ السبيل، إمام جامع الكعبة بمكة، للعمليات الانتحارية لتعارضها مع تعاليم الإسلام.

إننا نأمل أن تعم تلك الإدانة كتبكم المدرسية وقاعات مدارسكم، كما أننا نود دعوتكم لزيارة مدارسنا لتتأكدوا من خلو كتبنا المدرسية من أي تعاليم معادية للإسلام. لأنه في عصر العولمة هذا، أضحت الطريقة التي يدرس بها كل منا أطفاله من المسائل الإستراتيجية. لقد تعلمنا في التسعينات أن حلول أزمة مصرفية في دولة ما ستؤثر بشكل مباشر على معاملات وول ستريت.

بالرغم من إدراكنا لمدى أهمية القضية الفلسطينية بالنسبة لكم، إلا أن ذلك لا يخولكم أن تحملونا مسؤولية التصرفات التي تقوم بها إسرائيل، وترفضوا في المقابل أي تدخل من جانبنا فيما يتعلق بما تعلّمون أولادكم في الوقت الذي قتل فيه خمسة عشر من شبابكم آلاف الأبرياء من الأمريكيين. نحن لا نرغب في عداوتكم، ولا نريد الدخول في حرب على الإسلام، بل نريد من الإسلام أن يعلن الحرب على التطرف وقلة التسامح. نريد منكم أن تصبحوا صوتاً داعيا للاعتدال موحدا بيننا وبينكم. يمكننا فقط أن نصغي إلى ما تقولون عنا، حين تتكلمون بصدق عن أنفسكم. أتمنى لكم حظا سعيدا.

المخلص جورج بوش - أول رئيس أمريكي يريد أن يكون صديقا لكم وليس مجرد زبون.

٢٠٠١/١٢/١٢

درع صاروخي روحاني

بفضل مساعدة بعض الأصدقاء تمكنا من إنشاء كنيست جديد في ميريلاند. وبالرغم من عدم توفر مكان خاص بنا نجتمع فيه، فقد قررنا استئجار مكان ما للاحتفال بعيد هانوكا اليهودي. فقررنا أن نبدأ الاحتفالات بعشاء شابات في الرابع عشر من شهر من هذا الشهر على أن يقام الاحتفال في كنيسة بروتستانتية لا تبعد كثيرا عن الحي الذي نسكن فيه. اللافت في الأمر هنا هو حالة التسامح الديني التي نتمتع بها في أمريكا، بالرغم من وجود بعض المتعصبين الدينيين الذين لا يتعدون أن يكونوا أقلية. وإلا كيف نفسر قيامنا بالاحتفال بعيد هانوكا في كنيسة الحي دون أن تبدو الأمر أي غرابة. إلى درجة أن فرقة الأوركسترا المحلية التي تعزف فيها ابنتي - والتي يشكل الآسيويون أغلبية أعضائها - اختتمت مهرجان احتفالات عيد الميلاد بإنشاد ديني يهودي من دون أن يلحظ أحد أي فرق. وهذا ما يحيلني إلى الشريط الذي أطلقه بن لادن مؤخرا. لم يكن من المؤلم تباهيه بأعمال القتل الجماعي التي ارتكبها في حق أبرياء، بل المؤلم هو مشهد ذلك الشيخ السعودي الجالس بجانبه، الذي لم يتوقف عن الإيماء برأسه معبرا بحماس عن موافقته المطلقة لكل ما يقوله بن لادن. الشيخ ذاك نفسه هو من طمأن بن لادن على أن ردود الفعل الصادرة عن المساجد والجوامع السعودية كانت «إيجابية جدا». بن لادن كشخص قد انتهى، إلا أن المشكلة هي مع الآلاف من أمثال ذلك الشيخ المتملق والمتعاطفين مع الحركات الدينية المتشددة. المشكلة مع هؤلاء ناجمة عن افتقادنا إلى أي استراتيجيا تجعلهم يغيرون من توجهاتهم وطروحاتهم التي إن استمعت إليها تذكرك بتفكير القرون الوسطى. الكل يتساءل اليوم عمن ستهاجم أمريكا لاحقا؟ أهي العراق؟ أم الصومال؟ لكن السؤال الأهم هو كيف نسحب غطاء الشرعية عن هؤلاء الذين لا يكفون عن ذكر الله وهم يناقشون أعمال القتل والإرهاب. إلا أن هذه من مهام المسلمين قبل سواهم، رغم مناداة أقلية بالبحث عن لغة وقيادة إصلاحية تؤهل الإسلام كي يتماشى مع التعليم العصري والتعددية والتسامح الديني. وصلتني الأسبوع الماضي، رسالة إلكترونية ترد فيها صاحبتها الباكستانية على مقالة لي انتقدت فيها التطرف الأصولي. جاء في الرسالة ما يلي: «لقد عبرت نيابة عني، عما يدور في خلدي وخلد العديد من المسلمين. يحزنني كثيرا عدم إقدام أي من ملايين المسلمين على الجهر بذلك علنا - حصول حركة تنوير إسلامي طال كثيرا انتظاره، حركة تنويرية تؤسس لإسلام حيوي

وتقدمي معانق للتعددية والحداثة... أفكار كهذه يجب أن تكون نبراسا لعموم المسلمين إن كانت صادرة عن بني ملتهم».

لقد عرضت قناة الجزيرة حوارا حول هذا الموضوع، قام الصحافي العربي أحمد الصراف متسائلا: «لماذا نفتقر إلى التسامح؟ تعج كل خطب المساجد والكتب المدرسية بالتحريض على الكراهية... لا نحتاج إلى تدخل أمريكا كي ترشدنا كيف نتعبد، لكننا نحتاج إلى عامل ما يجبرنا على تغيير مناهجنا الدراسية المحرضة على التطرف».

السؤال المطروح الآن هل سيقدم أي من القادة العرب على معالجة هذه الظاهرة علنا، أم أنهم سيسارعون في التخفي على أمل أن تنقضي العاصفة بسرعة؟ هل ستقدم الولايات المتحدة على طرح موضوع التعددية والتسامح على حلفائنا المسلمين، أم أننا سنبادر بالاختفاء والتجاهل ما دامت إمدادات النفط تصلنا. إنه لمن سخرية القدر أن يسبق إعلان الرئيس بوش تنصله من معاهدة آ. بي. ام (في سبيل بناء درع صاروخي) بدقائق، على إطلاق شريط بن لادن. بحيث بدا الرئيس بوش بإصراره على بناء هذا الدرع الصاروخي كمن احترق بيته بالكامل، فقام باستدعاء السمكري، لا لشيء إلا لأنه لا يتذكر رقم أي شخص آخر سواه.

درع صاروخي؟ لا، شكرا جزيلا. ما لم نقم بواجبنا على أحسن وجه، وبالمقابل يؤدي أصدقاؤنا المسلمون واجبهم بدعم التعددية والتسامح الديني، فإنه لا جدار مهما علا، ولا درع صاروخياً مهما كان دقيقا، يستطيعان حمايتنا من الصواريخ البشرية التي ستهاجمنا في المستقبل - ليس من بن لادن بل من قبل ذلك الشيخ المجهول أو أحد أتباعه.

٢٠٠١/١٢/١٦

وحيدون ومعزولون

موسكو

على مخططي الحرب على الإرهاب في واشنطن، الطامحين في غزو العراق بعد القضاء على بن لادن، أن يقصوا إمكانية مساعدة روسيا لنا، حاليا على الأقل. لأن الروس ببساطة يعارضون هذه الفكرة. ففي تصريح أدلى به إلى مجلة «فاينانشل تايمز»، يوم الاثنين الماضي، تحدث الرئيس الروسي، فلادمير بوتين، عما يعتبره من أولويات الحرب على الإرهاب قائلا: «يجب قطع النشاطات التمويلية للحركات الإرهابية. إلى

الآن لم أعثر على أي دليل يثبت تورط العراق في تمويل أي من الحركات الإرهابية التي أعلنا عليها الحرب».

إن وجهة النظر هذه لا تقتصر على السيد بوتين وحده. لو يتأمل المرء جيدا في تشكيلة حلفائنا ضد بن لادن، سيكتشف أنه بالإضافة إلى غضبهم من بشاعة الجريمة التي اقترفها في حق الولايات المتحدة، لهم مصلحة وطنية مشتركة في سقوط طالبان والقضاء على بن لادن. وحين يتعلق الأمر بالعراق، ينعدم ذلك الغضب لدى جميع الحلفاء، بالإضافة إلى وجود مصالح وطنية لهم في بقاء صدام في السلطة. تركيا مثلا، التي استفادت كثيرا من بيع النفط العراقي المهرب، تخشى من أن تؤدي الحرب على العراق إلى نشوء دولة خاصة بالأكراد في شمال العراق مما يعقد مشكلتها مع الأكراد في تركيا. أو السعودية المترددة في الدخول في عمل من شأنه أن يزيح صدام، الذي كان يشكل توازنا سنيا مقابل إيران الشيعية، ومتخوفة من قيام نظام ذي أغلبية شيعية في العراق من شأنه أن يؤثر على الأقلية الشيعية في شمال شرق المملكة. أما الأردن، المخترقة بشكل كامل من قبل المخابرات العراقية، تخشى هي بدورها من أن تؤدي الحرب على العراق إلى التأثير سلبا على استقرارها. أما مصر فهي لا ترغب بدورها في رؤية نظام جيد في بغداد، بشكل يسمح بإعادة العراق إلى الجامعة العربية، وبالتالي مزاحمتها على الزعامة الإقليمية. وأخيرا سوريا، التي من المستحيل أن تسمح بشن حرب على العراق، التي إن نجحت، ستجعل منها الدولة رقم اثنين على لائحة الدول المستهدفة.

الروس، الذين لم يسبق لهم أن أيدوا شن حرب على العراق، خاصة بعد أن قام بوش بأحراج السيد بوتين، عندما قرر الانسحاب بشكل انفرادي من معاهدة آي. بي. آم. يبدو أنهم غير متحمسين لدعم الأميركيين في مهاجمة بغداد. وهكذا بغياب الدعم الروسي، سيدفع بالعديد من الدول الأوروبية والعربية إلى الامتناع عن تقديم أي عون لنا.

الكسندر بوفين، السفير الروسي لدى إسرائيل سابقا، علق على الأمر قائلا: «ما قامت به أمريكا في أفغانستان ينسجم مع مصالحنا وفهمنا للواقع. أما العراق، فالوضع مختلف تماما. إضافة إلى الروابط الاقتصادية المتطورة التي تجمعنا بهم، لا نريد أن نخسرهم كأصدقاء. مع أني لا أرى العراق كمصدر لأي خطر لأن الصواريخ العراقية لا تشكل أي تهديد سواء لأمريكا أو لروسيا. أنا شخصيا لا تعنيني معاهدة آي. بي. ام، إلا أن بوش وضع بوتين في وضع حرج بتخليه عن تلك المعاهدة في الوقت الذي أشاد

فيه بوتين بصداقته مع الولايات المتحدة أمام شعبه. وذلك تصرف فاجأني بقدرما فاجأ العديد من الروس، بشكل يجعلك تظن أن بوش تعمّد الإساءة. لذا، سيرفض بوتين في المستقبل تقديم أي عون تحتاجه أمريكا».

إذا كان السيد بوش قد نظر إلى عينيّ بوتين، إلا أنه لم ينظر إلى العالم بعينيّ السيد بوتين. يا له من قصر في النظر.

حتى لا نخطأ، فالروس لا يكنون الكثير من الود لصدام. بإمكانهم كما قال ألكساي بوشكوف، خبير الشؤون الساسية الخارجية، أن يتخلوا عن «حيادهم السلبي» في حال قيام واشنطن بغزو العراق. لكن ذلك مرهون بشرط أن يتم الدفع سلفا. روسيا جادة في تحصيل مبلغ الثمانية مليارات دولار، حجم ديونها التي تريدها من العراق. لذلك نجدها تسعى للحصول على ضمانات من واشنطن، تتكفل بموجبها الأخيرة بضمان تلك الديون باعتبارها ديوناً ملزمة للعراق وليس لصدام حسين فقط. كما يرغب الروس في الحصول على كفالات تضمن تمتع الشركات الروسية بحق الاستثمار في المجال النفطي، حتى في حال سقوط حكم صدام ومجيء حكومة موالية للغرب في بغداد. في حربنا على بن لادن خاطبنا حلفاءنا قائلين: «أرونا الدليل» أما في حملتنا ضد صدام، فإنهم سيقولون: «أين الدليل وأين المال، ثم دعونا نفكر بالأمر».

باختصار، لقد تجاوزنا المرحلة السهلة من حربنا على الإرهاب. بعكس طالبان، لصدام ما يكفي من المال لشراء الأعداء. العراق، بعكس أفغانستان، دولة ذات موقع استراتيجي مهم بالنسبة لكل جيرانه، الذين يخشون جميعا أي تغيير للوضع الراهن. وبالعكس من بن لادن، فإن صدام لن يجعل من نفسه هدفا واضحا. كل ما قيل لا يعني أن أمريكا لا تستطيع، أو لا يجب أن تبحث عن أي طريقة لإزاحته من الحكم، بل يعني ضرورة أن نبدأ في التخطيط للقيام بذلك بمفردنا.

٢٠٠١/١٢/١٩

طابور روسيا الأخير

موسكو

بسبب تنامي الطبقة الوسطى في موسكو، يلحظ المرء شيئين وهو يتنقل بسيارته في هذه المدينة التي يتزايد طابعها الأوروبي - مطاعم سوشي اليابانية المنتشرة في مختلف

أرجائها إلى تنوع الأطعمة المعروضة من الحساء الروسي إلى سندويشات الماكدونالدز، بما في ذلك المأكولات الملفوفة التي تجمع بين كاليفورنيا والكرملين في غضون عقد زمني واحد. بحكم انتشار ملكية السيارات حاليا، صارت خطوط السير في حالة تشابك دائم (تبدو موسكو اليوم وكأنها جاكرتا حين تغمرها الثلوج والجليد). وبينما كنت جالسا في ساحة بوشكين، أشاهد حالة الازدحام المروري الشديدة، توجهت بالسؤال التالي إلى صديقي الروسي فكتور: هل حياتك أسهل أم أصعب مما كانت عليه في ظل الشيوعية؟ أجابني قائلا: «كلا الأمرين. أسهل الآن لأنه لا يتعين عليّ البحث عن الطعام كل يوم، لم أعد في حاجة إلى الانتظار في الطوابير - التي انقطعت - للحصول على أي شيء. كما أن المتاجر مليئة الآن. إلا أن الغلاء عم. وكما يقول المثل، لم يبق في روسيا الآن إلا طابور واحد، طابور المال». وهو ما يؤكد - ولو بشكل متأخر - صحة نظريات كارل ماركس. حاليا، يدور كل شيء حول المال في روسيا. هذا أمر يعيه الرئيس بوتين جيدا، فلا هو ميخائيل غورباتشوف الأكثر صرامة، أو بوريس يلتسين الأكثر اتزانا، بل هو دنغ سياو بنغ روسيا - خليفة ماو البراغماتي، وأول من قال للصينيين إنه «من الرائع أن يكونوا أغنياء»، ومطبق الإصلاحات التحديثية لتحقيق تلك الغاية.

أبا إيبان، القائل بأن الأمم والشعوب - وبعد أن تستنفد كل ما لديها من إمكانيات - ستتوصل حتما إلى الحل الصحيح في النهاية. ربما تلك هي رسالة بوتين الأساسية للروس: «لقد جربنا خلال عقد واحد كل فكرة سيئة؛ من التخلف عن دفع الديون، إلى خفض قيمة العملة، حتى العلاج بالصدمة. ولم يبق أمامنا إلا حل واحد: إصدار تشريع إصلاح حقيقي يمكننا من الحصول على استثمارات حقيقية تساعدنا على بناء اقتصاد حديث وقوي. لأنه في عالم اليوم، لا قيمة البتة لأي كان بدون ركيزة اقتصادية حقيقية، وبالتالي، يجب علينا أن نركز على الطابور الوحيد الذي يعنينا، ألا وهو طابور المال». هذا هو مبدأ بوتين، وما يفسر سمة الاعتدال التي تحلى بها في مواجهة قرار بوش بالتخلي أحاديا عن معاهدة الصواريخ الباليستية، لما تضعه من قيود على الدفاعات الصاروخية. عندما أبرمت المعاهدة سنة ١٩٧٢، كانت سياسة روسيا الخارجية تدور في فلك واحد - القضايا الجيوسياسية، إيديولوجيا تحث على منافسة الولايات المتحدة على النفوذ عالميا، هكذا خضع كل شيء - خاصة الاقتصاد - إلى ذلك المبدأ. لذلك كانت هناك طوابير على الطعام. أما اليوم، يتحكم في سياسة روسيا الخارجية عاملان اثنان هما: القضايا الجيوسياسية والقضايا الجيواقتصادية. لذلك لن تتردد روسيا عن التخلي

عن تلك المعاهدة إذا تأكدت من حصولها على فوائد مالية، ومساعدات من الغرب.

إلا أنه لا يجب أن نغفل عن حقيقة أن النخب العسكرية والسياسية الروسية، نظرت إلى تخلي بوش عن معاهدة الصواريخ الباليستية وكأنها «صفعة على الوجه» على حد تعبير إيغور بونين، خبير استطلاعات الرأي. لذا، في حال عدم التزام الولايات المتحدة بالوعود التي يعتقد بوتين أنها منحت له، والتي تشمل على اتفاقية جديدة للحد من انتشار الأسلحة النووية، قيام شراكة حقيقية بين روسيا والناتو، تخفيف الديون، عضوية في منظمة التجارة العالمية، واستثمارات غربية. حينها سيتم النظر إلى بوتين وكأنه مجرد غورباتشوف آخر؛ دائما يعطي ولا يأخذ شيئا في المقابل. أو «عندئذ من الممكن أن تبدأ النخب في تشكيل جبهة مضادة له» بحسب تعبير بونين. حاليا، يقوم بوتين بتجاهل مثل هذه التخمينات، لاعتقاده أن أي دور جيوسياسي ستلعبه روسيا في المستقبل، مرهون أساسا بالمسائل الجيواقتصادية.

يعتبر الشباب الرأسماليون الذين يعتقدون أن بإمكانهم أن يصبحوا أغنياء على الطريقة الصينية، وليس على الطريقة الروسية القديمة - بمثابة الظاهرة الجديدة في موسكو. لذلك، وبعد إلحاح أمريكي على مدار عقد كامل، أقر البرلمان الروسي سنة٢٠٠١، بكل هدوء، وبدون أي إثارة العديد من التشريعات القضائية، وأخرى متعلقة بالإصلاح الضريبي.

بينما كنت أتناول وجبة غداء في أحد مطاعم «أوليتسا أو جي آي»، سلسلة مطاعم ومعارض فنية جديدة ناجحة، أسسها رجل الأعمال ديمتري جيكوفيتشن - الذي أعرب لي قائلا: «الفرق بيننا وبين الأقلية الحاكمة هو أننا نميل إلى خلق شيء جديد، وليس خصخصة ما هو موجود سلفا» -، بمعية شريك له. لذلك تتسم ثقة هذا الجيل الروسي الجديد بقدرته الفعلية على صنع هذا «الشيء الرأسمالي» بأهمية جيوسياسية خاصة. كما أن الشعور بالحاجة إلى الحفاظ على قدرات روسيا النووية - كآخر مظهر من مظاهر القوة لديهم -، وهو ما يساهم في تعقيد مفاوضاتهم مع الولايات المتحدة. لكن، في حالة اعتقد الروس أن بوسعهم الحصول على عوامل القوة عن طريق العوامل الجيواقتصادية فقط، وبالتالي فإنهم لن يتخلوا عن مجمل ترسانتهم النووية، أو يتخلوا عن السعي إلى اكتساب المزيد من النفوذ بسهولة. إلا أنه، وفي المقابل، لديهم فرصة حقيقية كي يصبحوا شركاء فعليين مع الغرب. لذلك، يتحتم على الروس مواصلة دعمهم لبوتين على أمل أن يقوم بدفع طابور روسيا الأخير إلى الأمام.

٢٠٠١/١٢/٢٣

الطيران عاريا

الأسبوع الماضي، حاول إرهابي معتوه نسف إحدى طائرات الخطوط الجوية الأمريكية بمتفجرات أخفاها في حذائه، أثناء رحلتها من باريس إلى الولايات المتحدة. إثر هذه المحاولة التي نجم عنها تفتيش أحذية الركاب في المطارات، تبادرت إلى ذهني فكرة تأسيس شركة خطوط جوية أسميها: «خطوط العراة»، والتي سيكون من بين شعاراتها: «لا داعي للقلق لأن كل الركاب عراة» أو «في خطوط العراة، لا تلبس سوى حزام الأمان».

لنفكر في الأمر، إذا طار كل مسافر عاريا، لن يكون هناك أي مبرر للخوف على الإطلاق. ولن تخشى أن يكون جارك متسلحا بسكين، أو ممن يلبسون أحذية ملغومة بالمتفجرات. بالإضافة إلى ذلك، يستحيل على الإرهابيين بمختلف فصائلهم أن يطيروا عراة، وهذا وحده سبب كاف لإبعاد الكثير من الخاطفين المحتملين عن الأجواء. كما أني أعتقد بأن فكرة كهذه، هي أكثر تحضرا من الإجراءات الاحتياطية القائمة أساسا على الفرز العنصري للركاب. كما أني متأكد من هذه الخطوة ستتبعها عروض للمسافرين بغسل ملابسهم على البخار أثناء الرحلة الجوية.

طيب، هل تبلغتم ما أقصد هنا؟ أرجو ذلك. أما السؤال المطروح الآن هو: إذا استمر الإرهابيون في تطوير وتنويع طرق استفادتهم من التقنية، كيف ستتمكن في الوقت نفسه من حماية أنفسنا كركاب، ومن المحافظة كأمريكيين على انفتاح مجتمعنا ونمط حياتنا دون أن نعري أحدا؟ ما أقصده هو، ما الفائدة من حرية وانفتاح أمريكا إذا استطاع أحدهم وبسهولة نسبية أن يركب طائرة قادمة من باريس حاملا متفجرات في كعب حذائه؟ أو أن يخطط أحدهم من كهف في قندهار، لعملية انتحارية تؤدي إلى تدمير مركز التجارة في نيويورك.

هذا هو جوهر المعضلة بالنسبة لأمريكا اليوم: يقوم المجتمع الحر على الانفتاح والقبول بجملة مفاهيم وقيم تؤدي إلى المحافظة على النظام العام. نحن بصدد التعامل مع مجتمعات تعجز حكوماتها المحافظة على النظام، وجماعات لا تشترك معنا في منظومة القيم والرؤى التي نؤمن بها. هل يذكر أحدكم ماكينات بيع التذاكر أوتوماتيكيا، على أن يتم الدفع ببطاقات الائتمان، على خط بوسطن - نيويورك - واشنطن؟ مما دفعني الآن إلى التفكير في حجم الثقة والبلاهة أيضا التي كانت وراء فكرة استعمال مثل

تلك الماكينات. لو سنحت لي فرصة التصرف بها لعرضتها في متحف، بعد أن أسميها معدات أمريكية تعود إلى حقبة ما قبل ١١/٩/٢٠٠١.

إلا أنه هناك من يشترك معنا في هذا الوضع. لقد طرت أخيرا إلى موسكو، حيث يتوجب عليك ملء استمارة، كلها أسئلة تفصيلية؛ بعض تلك الأسئلة تقليدية مثل: هل تحمل معك فواكه، نباتات، كمية كبيرة من العملات الأجنبية، معدات إلكترونية، أو أية أسلحة؟ لكن هناك ثلاثة أسئلة حيرتني قليلا، مثل: هل لديك مواد مشعة؟ استغربت أن يجيب أحد المهربين بنعم على ذلك السؤال. تخيل أن تبادرالسيدة الواقفة أمامك - في طابور جمارك مطار موسكو - زوجها بالسؤال التالي: عزيزي، هل وضعت النفايات النووية في حقيبتي أم في حقيبتك؟ أو أن تسأله قائلة: هل البلوتينيوم في محفظتك أم في الحقيبة السوداء؟ لكني أستبعد حدوث ذلك.

لقد أصبحنا بالتأكيد على مشارف مرحلة بالغة التعقيد، بالكاد بدأنا نعي خطورتها. لذلك صرنا ندرك جدلية العلاقة بين الحرية والنظام. لكن، ولكي تبقى أمريكا كما هي، أمريكا ذات المجتمع الحر والمتفتح، المتواصلة باستمرار مع العالم الذي يجب عليه أن يتكيف مع الواقع الجديد. تحقيق النظام يتم بإحدى طريقين: إما أن يتم ذلك بشكل تصاعدي، من القاعدة إلى القمة ضمن مجتمعات تحرص على تطوير إدارات حكم ديمقراطي يحترم قيم ومعتقدات الجميع. أو أن يتم فرض النظام من فوق وبشكل أوتوقراطي وقاس، تتم فيه مراقبة الجميع في عالم ما بعد الحرب الباردة هذا. إذ تمر العديد من الدول، التي تربطنا بها علاقات بمرحلة وسيطة بين النظام النظام الأوتوقراطي المفروض على الشعوب، ونظام الحكم الذاتي الاختياري القائم على التجربة المحلية، مما يجعله خليطا فوضويا، خاصة أن بعض الدول عاجزة حتى على البلوغ إلى تلك المرحلة الوسيطة، مثلما ما هي حالة أفغانستان، كمثال ساطع على حالة الفوضى العارمة.

«المشكلة في حالة الرقابة الفوقية، أي من القمة إلى القاعدة، أن معظم الحكومات تمثل عامل تفرقة بدل أن تكون أداة توحيد»، بحسب المنظّر السياسي الإسرائيلي يارون أزراحي. «إلا أننا في المقابل، نشهد أممية التقنية الأمريكية حيث أصبحت الطائرات أسرع من أي وقت مضى، كما صغر حجم المعدات الإلكترونية كثيرا. لكن القيم الأمريكية والمفاهيم الاجتماعية المرتبطة بهذه التقنية لم تشهد نفس درجة الانتشار والتعميم المرجوة، مما يسهل معه تحويل تلك التقنية العالية إلى أسلحة فتاكة».

تلك هي معضلتنا المحيرة: إما أن نصبح مجتمعا منغلقا على نفسه، أو أن يخضع

العالم المترابط معنا لرقابتنا ورقابة غيرنا. أو أن نتعلم كيف نتعايش مع درجات عالية جدا من الأخطار لم يسبق لنا أن عرفناها من قبل، أو. . . طبعا نطير كلنا عراة.

٢٠٠١/١٢/٢٦

إلى الأمام

علينا أن ننحني للرئيس بوش إجلالا وتقديرا للطريقة التي قاد بها الحرب على أسامة بن لادن. إذ إنه أظهر (خلافا لتوقعات الجميع) عزيمة فولاذية ومرونة ومصداقية قيادية.

أما الآن، فإني آمل لو كان آل غور هو الرئيس.

لماذا؟ بكل بساطة لأن سياسة السيد بوش الداخلية تتناقض تماما مع سياسته الخارجية، ولأنه إستغل سياسيا موجة المشاعر الوطنية العارمة التي أعقبت أحداث ١١/ ٩، حيث قام بتمرير رزنامة فئة يمينية متطرفة وتطبيقها في عالم ٩/١٢. هذا خطأ من الصعب إصلاحه، خطأ من شأنه أن يضر بالبلاد أولا وبرئاسته لاحقا.

أنا شخصيا لا مانع لدي من قيامنا ببناء أفغانستان، لكن ماذا لو بدأنا بذلك في أمريكا- عن طريق الاستفادة من المأساة التي حصلت- بأن نجعل بلدنا أكثر حصانة ومناعة وأكثر انسجاما مع باقي الدول في عالم ٩/١٢. أول خطوة في ذلك الاتجاه تتمثل في تقنيننا للطريقة التي نستهلك بها الطاقة. لكن ما هو حاصل إلى حد الآن هو أننا جعلنا العالم أكثر أمانا للسعوديين وبقية أعضاء دول الأوبك كي يتحكموا في أسعار النفط كما يشاؤون. وكمثال على ذلك، قام كارتل الأوبك بقيادة سعودية بخفض الإنتاج بنسبة ٦,٥٪ كي ترتفع الأسعار، وذلك بالرغم من علمهم بمحاولات العالم الصناعي الخروج من حالة الركود الاقتصادي التي زادت شدتها بفعل الأعمال الإرهابية التي قام بها أسامة بن لادن وخمسة عشر شاب سعودي.

وبصراحة، فإن فكرة إثقال كاهل دافع الضرائب الأمريكي- الذي قام بإنقاذ شركات الطيران (التي تضررت بشدة بسبب الاعتداءات الإرهابية وارتفاع أسعار النفط)، وتمويل الحرب على بن لادن التي تبلغ كلفتها مليار دولار شهريا- عن طريق رفع أسعار النفط لا لشيء إلا لأن الدول الخليجية التي نتكفل بحمايتها أرادت ذلك، هي فكرة في غاية الظلم والحيف. هل تتوقعون من الملك السعودي أن يقول مثلا: «أمريكا، يؤسفنا كثيرا

كما يؤسفك فظاعة ما قام به أسامة بن لادن والخمسة عشر سعوديا على أراضيك. لذلك قررنا مساعدة أمريكا- محرك الاقتصاد العالمي- كي تتعافى وتصحبها بقية الدول في ذلك، وبالتالي قررنا أن نبقي أسعار النفط منخفضة طوال الأشهر الستة القادمة بشكل يتراوح فيه سعر البرميل الواحد بين ٢٤ و٢٨ دولارا. مما سيعدّ مساهمتنا العينية لاجتياز هذه الأزمة».

هل يبدو ذلك بالأمر الصعب؟ على ما أعتقد يبدو أنه كذلك، وهذا ما يعيدني بدوره إلى الحديث عن الرئيس بوش.

الحملة الوطنية الوحيدة والممكنة - أسوة بحملة السباق إلى القمر- هي حملة وطنية للتحكم في الطاقة. سواء بتأسيس وتطوير مصادر طاقة بديلة، أو مصادر إنتاج محلية، أو بتحقيق الاكتفاء الذاتي. وهو أمر إن تحقق لا يجعل كل طفل أمريكي يشعر بالحماسة فقط، بل سيجعل من السيد بوش يحقق إنجازا تاريخيا يعادل زيارة ريتشارد نيكسون إلى الصين. سيكون بمثابة إنجاز سياسي عظيم، حين يقوم رجل النفط القادم من تكساس بتخليص أمريكا من تبعيتها المتمثلة في اعتمادها على النفط المستورد من الشرق الأوسط. مما سيكون أفضل رد على كل من غضبوا من رفض أمريكا التوقيع على معاهدة كيوتو المتعلقة بالبيئة. بإمكان السيد بوش وضع حد لاستهلاك أمريكا المسرف للطاقة، مبرهنا بذلك للجميع أنه بإمكانه أن يساهم في الحفاظ على البيئة بحجم يفوق جميع التوقعات، مما سيساهم بشكل فعال في تحسين صورة أمريكا أمام الرأي العام العالمي.

لدى الرئيس بوش الكثير من الخيارات الصحيحة التي بإمكانه تبنيها. يشرح مستشار الشؤون النفطية، فيليب فيرغلير، ذلك قائلا: «تستهلك أمريكا واحداً من بين كل سبعة براميل نفط ينتجها العالم. إلا أنه بالإمكان تخفيض نسبة الاستهلاك تلك إلى الثلث خلال خمس سنوات بشرط أن تقوم واشنطن بتقديم حوافز ضريبية لشركات صنع السيارات والمستهلكين على السواء، حوافز تتم جبايتها عن طريق رفع تدريجي لأسعار البترول».

يجب أن نضع حدا لاعتمادنا على نفط الشرق الأوسط الذي لم تعرف دوله الازدهار على مدى القرون السبعة الماضية، ومن المستبعد أن تحققه في أي وقت قريب. النفط لعنتهم، كما هو لعنتنا أيضا. النفط تسبب في فساد حكامهم وخولهم عزل وإقصاء نسائهم من معركة التنمية. بالنفط تذرع هؤلاء الحكام كي يمنعوا قيام اقتصاديات خلاقة وعصرية بدل اعتماد هؤلاء الملوك على ما تضخه آبار النفط.

باختصار، على تلك الدول القيام بالكثير من الإصلاحات الداخلية قبل أن يصبحوا حلفاء مستقرين لنا. لأننا سنستفيد جميعا في حال نجاح إصلاحاتهم، أما الآن ما علينا إلا العمل على تحقيق مصالحنا. لذلك، لتنطلق إلى الأمام يا سيد بوش، لأن عظمة رئاستكم تقاس بمدى ما تنجزونه في الداخل. وفي حال اقتصرت الحرب على الإرهاب على بناء أفغانستان فقط وتجاهل أمريكا، حينها لا نعتبر أنفسنا ربحناها.

٢٠٠٢/٠١/٠٢

عبرة للأجيال القادمة

لقد سبق للرئيس بوش أن حذرنا من أن هذه الحرب على الإرهاب ستكون طويلة وشاقة. لكن كيف لنا أن نعرف ذلك ونحن لم نربح إلا الجولة الأولى من هذه الحرب؟ الجواب يتمثل بكل بساطة في ضرورة القضاء على أسامة بن لادن وجميع أتباعه في الوقت نفسه الذي يقوم فيه الحكام العرب والمسلمون بالقضاء على جميع أفكاره. هذه مهمة لا تتم إلا بالتوازي. يجب أن يتوازى قضاؤنا نحن على القتلة بقضاء أولئك الحكام على أفكارهم. لكن ما أخشاه هو أن نقوم نحن بأداء ما هو مطلوب من جانبنا في حين يتقاعسون هم عن تنفيذ ما هو مطلوب منهم. وفي حال انتهت الجولة الأولى بهذه الطريقة، عليك ألا تزيح عينيك عن حذاء الشخص الجالس بجانبك كلما استقللت الطائرة.

ثمة دافع مهم - يتجاوز ما تتطابه العدالة - يفرض ويحتم علينا القضاء نهائيا على بن لادن وبقية الأعضاء البارزين في عصابته كأيمن الظواهري، محمد عاطف، وزعيم حركة طالبان الملا محمد عمر. يتمثل ذلك الدافع في احتراف هؤلاء الأربعة بعث شباب مسلم ليلقوا حتفهم في عمليات انتحارية في حين يكتفي هؤلاء بالفرجة على ذلك في أشرطة الفيديو.

علينا أن نعلم الجميع وبكل وضوح أن كل من يصدر أوامر بالقيام بأعمال انتحارية ضد الولايات المتحدة، أو كل من يوفر الحماية للانتحاريين سيتعرض حتما وبكل تأكيد للقتل. لذلك يصعب الادعاء بإقصاء الإرهابيين في حين أن أفكارهم لا زالت متداولة ومنتشرة. يصعب على المرء تخيل سهولة مهمة كهذه. وأكثر ما يدعو للاستغراب هو ضحالة محتوى أشرطة بن لادن، ليس للرجل الكثير ما يقوله. إذ يخلو خطابه من أي

مشروع نهضوي عربي- إسلامي، بل هو مجرد دعوة حقودة مبنية على ثلاثية «الجهاد»، «الكفار»، و«الله».

إلى اليوم لم يعترض على فهم بن لادن التحريفي للإسلام سوى جورج بوش وتوني بلير. لماذا؟ السبب في ذلك أن حكام الشرق الأوسط لم يتعودوا على مخاطبة شعوبهم بصدق، خاصة إذا تعلق الأمر بالدين. لأنهم تعودوا على التخفي أو الهرب كلما هبت أي عاصفة. أو لخشية بعضهم من أن يؤدي انتقادهم له إلى أن يصبحوا هدفا لغضبه، خاصة وأن هذا الرجل أعلن الحرب على قوتين عظميين.

إلا أن السبب الرئيسي برأيي في تجنب هؤلاء الحكام الإقدام على أي مواجهة مع بن لادن يعود بالأساس إلى كون بن لادن- الذي بادل حياة البذخ والترف في السعودية بالعيش في الكهوف لمحاربة السوفيات والأمريكان-، صادق في دعوته. لذلك يجب أن نكون صادقين في دعوتنا للتقدم والتسامح والحداثة كي ننجح في محاربة دعوة الكراهية التي لديه. وهذا أمر مفقود اليوم، في العالم العربي والإسلامي. لأنه وبكل بساطة من الصعب التأسيس لقيام هكذا دعوة في مجتمعات قمعية، عادة ما يكون فيها أصحاب الأفكار- أئمة، أكاديميين، سياسيين، ومحرري صحف- إما مملوكين من قبل الأنظمة أو معتقلين في السجون. باختصار؛ الرد الطبيعي على فهم بن لادن الرجعي للدين، يتمثل في دعوة مضادة تقوم على فهم عقلاني، نير، وتقدمي للدين. وهو ما لم يقم به أي حاكم عربي أو مسلم. بل الغريب في الأمر أن بن لادن لا يتعدى أن يكون سوى نسخة متطرفة من تلك العقيدة الدينية المتكلسة نفسها التي استخدمها الحكام من أجل تبرير بقائهم في الحكم إلى ما لا نهاية.

إذا كانت إسرائيل قد أعدمت الزعيم النازي أدولف آيخمان، فإن ألمانيا العصرية هي من ألغى النازية، عبر تبنّي أكثر دساتير العالم ديمقراطية، مما ساهم في تحويل ألمانيا من قوة تدميرية إلى قوة بناء مفيدة للألمان أنفسهم، ولأوروبا، وللعالم أجمع.

لذلك يجب محاربة بن لادن بالطريقة نفسها، بالرغم من ضآلة فرص النجاح. لقد مر العالم العربي بثلاث مراحل منذ١١/٩، حالة الصدمة أن العرب هم من قاموا بذلك، ثم الإنكار، ثم اتهام إسرائيل أو وكالة المخابرات المركزية. أخيرا، ها إننا نشهد أول علامات مراجعة الذات، حين قال الحاكم السعودي، الأمير عبدالله، لباقي القادة الخليجيين لدى اجتماعهم الأسبوع الماضي: «في الحقيقة تعتبر الكوارث بمثابة فرص تحتم علينا النقد الذاتي، مراجعة أنفسنا، لكي نصلح أخطاءنا. . . الخطر الحقيقي

والقاتل هو أن نبقى مكتوفي الأيدي في مواجهة الأزمات ونكتفي بإلقاء اللوم على الآخرين، بدل أن نواجهها ونتحمل مسؤولياتنا كاملة عما حصل».

هذا خطاب معقول يجب تشجيعه، إلا أنه، وإلى الآن، كل ما قامت به إدارة السيد بوش هو سماحها لحلفائنا من العرب بمساندتنا سرا فقط دون أن تطلب منهم مجابهة بن لادن بالقول لشعوبهم إن ما يقوله عن أمريكا لا يتعدى أن يكون زيفا وبهتانا. وبالنتيجة، نسمح لهؤلاء الحكام في الاستمرار في علاقتهم المحرمة بنا، بشرط ألا يقوم أحد بإخبار الأولاد. لكننا لم نعد نقدر على كتمان تلك العلاقة التي يجب كشفها للجميع.

٢٠٠٢/٠١/٠٦

عن نائب الرئيس المتخفي: ديك تشيني

دفعت أحداث ١١ سبتمبر (أيلول)، شخصيتين عالميتين شهيرتين وهما أسامة بن لادن ونائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني، إلى التخفي والعيش في «مواقع سرية». في الواقع يمكن فهم الأسباب التي دفعت بنائب الرئيس إلى الاختفاء عن الأنظار، وذلك تجنبا لعدم تعرض القيادة الأمريكية للإبادة نتيجة عملية إرهابية واحدة. في ذلك القرار شيء من الحكمة، إلا أنه لم يكن بالإجراء الهين على السيد تشيني، الذي برهن على تقبّله للأمر لأنه جندي جيد. لكن يجب أن لا نغفل ذلك الفرق الواضح بين أن تكون حكيما وبين أن تبدو عليك علامات الضعف والقلق. ففي الوقت الذي يحث فيه الرئيس الأمريكي بقية المواطنين على المضي قدما بحياتهم، واصل نائبه العيش متخفيا.

من المفترض أن يكون بن لادن وأتباعه هم الفارون وليس نائب الرئيس الأمريكي. كما أني أعتقد أنه من المهم معنويا ونفسانيا أن يعود ديك تشيني إلى حياته العادية والمألوفة في مسكنه الذي يتمتع بحراسة مشددة، قبل أن نتأكد من وفاة بن لادن أو إلقاء القبض عليه في أحد الكهوف. لكنه من المزعج حقا أن يقال لتشيني إن عودة الأمور إلى ما كانت عليه في السابق مرهون بقتل بن لادن، وفي حال تحقق ذلك، فإنه من المؤكد سيظهر بن لادن آخر، أو غيره من أعضاء «القاعدة» الحائمين حولنا. وبالتالي، من الضروري أن نأخذ بالحسبان تلك الفرضية، التي، إن تأملنا فيها جيدا سنقف على حقيقة أن ما يقوم به السيد تشيني لا يحمي أمريكا، لأن حمايتها الحقيقية تتمثل في إعداد كل مواطن وكل طفل للحياة في مجتمع مفتوح تتهدده مستويات عليا من المخاطر الشخصية.

هذه معطيات جديدة لها وقع الصدمة علينا، لأننا اعتدنا - على مدار سنين طويلة- على اللامبالاة والتراخي في مراقبة منافذنا الحدودية بالإضافة إلى مرونة التفتيش في المطارات. لكن المجتمع المفتوح الذي استمتعنا به أقيم على أساس الثقة والحرية، أما بعد اعتداءات ٩/١١، لم تستمر الأمور على بساطتها تلك. اليوم، علينا أن نختار ما بين إقامة مجتمع منغلق على نفسه كما ينادي بعضهم، حينها يمكننا الاستمرار في التعامل كما في السابق مع الإحساس الدائم بالخوف، مما قد يجعل من أمريكا مكانا خاليا من الإرهاب، إلا أنها تصبح مكانا يصعب العيش فيه. أما الخيار الثاني، فهو يتمثل في القبول بدرجة أدنى من الحرية، والتسامح، والثقة غير المبالغ فيها، ومواصلة العيش في مجتمع صفته الأبرز الانفتاح وهذا يسمح بدوره بإمكانية تسلل بعض العناصر الإرهابية، وما علينا إلا القبول بتلك المخاطرة.

هذا تحديدا ما قام به الإسرائيليون والبريطانيون، وهم محقون في ذلك، لأن ثقافة الحرية والانفتاح لا تلائم أولئك المدللين. أنا شخصيا أفضل العيش في مجتمع مفتوح تتهدده مخاطر أشد على العيش في قفص حديدي.

بعد أن ننتصر في الحرب على الإرهاب، يستطيع الرئيس بوش وبكل تأكيد أن يعدنا بعودة الأمور إلى مجراها سابقا، لكن ذلك لن يتحقق. بالرغم من قدرة أمريكا أن تهزم عسكريا أي دولة أخرى، إلا أن الإرهاب، الذي يشبه رياضة فردية، تتداخل وتتشابك فيها العديد من الدوافع المختلفة وتتطلب مجهودا قليلا للقيام بها، بشكل يجعل من المستحيل عليك هزيمته- أي الإرهاب- في مجتمع مفتوح. وبالتالي فإنه يستحيل على بوش إعادة الأمور على ما كانت عليه في السابق. إلا أن بإمكانه أن يعيد توصيف الحياة الطبيعية، بأن يعلمنا كيف نحافظ على مجتمع حر ومفتوح في الوقت الذي نصبح فيه أقل انفتاحا، وأقل ثقة في الآخرين، وأكثر تيقظا مما كنا عليه في السابق، وأقل شعورا بالحصانة من الأخطار.

لقد غضبت مما أقدمت عليه فرقة موسيقى الكاونتري التي تشترك ابنتي في عضويتها، بأن ألغت فجأة رحلتها إلى إيطاليا المقررة هذا الصيف. هل كنت سأشعر يوميا بالقلق فيما لو أنها سافرت معهم؟ نعم، لكن وفقا للمعطيات الجديدة، أفضل مشاعر القلق على حرمانها من التجربة برمتها. حدثني عن ذلك العالم السياسي الإسرائيلي، يارون أزراحي، فقال: «كل مرة أمشي فيها بالقدس أتوقع انفجار سيارة بالقرب مني، لكنني مع ذلك أواصل الخروج من منزلي، لأن الحياة بدون إصرار ليست حياة على الإطلاق، حتى ابنتي، التي أتوسل إليها كي لا تذهب إلى مطاعم وسط

المدينة، ترد علي قائلة: «أبتاه، لا يمكنك أن تظل على قلقك هذا محاولا باستمرار حمايتي وكأني غير قادرة على حماية نفسي»».

لا بد لنا جميعا- كأولياء أمور وسياسيون- أن نعي حقيقة العيش في عالم مليء بالمخاطر، لا أن نبقى على قيد الحياة ننتظر فقط قيام عالم الفضيلة الخالي من المخاطر. لذا، يجب أن ندخل في حوار حول هذا الأمر، حوار يتم خلال اجتماع يعقده مجلس المدينة برئاسة ديك تشيني وفي مسكنه. ذلك المنزل الرائع ذو الغرف العديدة، بحسب ما نشرته مطبوعة «أركيتكتشورال دايجست»، إذ حوى عددها الصادر في شهر ديسمبر الماضي، وصفا تفصيليا دقيقا لمنزل نائب الرئيس، صحبة مقالة بقلم لبين تشيني، التي قالت فيها إن مسكنهم «الأبيض الذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن التاسع عشر يتميز بالعديد من الصفات التي تجعله محل إعجاب؛ فهو مكان مريح للجلوس، به شرفة واسعة تشرف على هكتارات عديدة من الخضرة المحيطة، كما أن أسقف غرفه المرتفعة لها طابع أنيق». وهكذا يبدو الأمر في غاية الروعة، وهو ما يجب أن تكون عليه عائلة تشيني. بن لادن وحده من ينتمي إلى العراء والبرد، حيث يمكن فقط لمجلة «أسلحة وغازات» أن تقدم لنا عرضا لمسكنه.

٠٩/٠١/٢٠٠٢

حديث كابول

كابول، أفغانستان

يمكن تقسيم أخبار الشأن الأفغاني إلى فصيلتين؛ جيدة وسيئة. تتمثل الأولى في عدم حاجة الأمريكيين إلى بذل المزيد من أجل تحقيق مصالحهم الأمنية في أفغانستان، مما يعني إحكام السيطرة على هذا البلد بشكل يستحيل معه على شخص مثل أسامة بن لادن أن يتخذ منه مركزا تنطلق منه نشاطاته المهددة لنا. ونحن لا نطالب بأكثر من ذلك، يكفي أن نوفر لهذه الحكومة الأفغانية الهشة بعضا من قوات الشرطة ووحدات الجيش، واقتصادا فعالا، بالإضافة إلى عدد قليل من المؤسسات.

أما الأخبار السيئة، فتتمثل في عدم التيقن مما إذا كنا فعلا قادرين على تحقيق ذلك. إذ يصعب على المرء تصور الدمار الذي حل بهذه البلاد. وما على من أراد المقارنة سوى تذكر ما حدث في مانهاتن حيث كانت بالأمس القريب مباني مركز التجارة

العالمي تقف شامخة. لذا، وبعد ما يقارب على٢٢ عام من الحرب الأهلية، لا عجب أن يبدو نصف مساحة كابول مشابها لما حل بمركز التجارة العالمي. أما النصف الآخر «الأحسن حالا» - الذي يعاني بدوره من نقص حاد في التيار الكهربائي، وانعدام الخطوط الهاتفية أو الخدمات البريدية ومن فرض حالة عدم التجول اعتبارا من العاشرة ليلا، ومن شح وندرة الطعام - يبدو بدوره وكأنه مدينة أشباح. وهكذا يبدو الأمر وكأننا سنبني بلدا فوق سطح القمر.

عندما تتجول في كابول لا تقع عينيك إلا على مناظر حزينة ومؤلمة، فقد شاهدنا حمارا أبيض اللون سارحا في الشارع الرئيسي بالمدينة خلف السيارة التي أقلتنا، فيما كان أحد السكان يقود دراجته الهوائية بالرغم من فقدانه لإحدى ساقيه. كما تشاهد بعضهم يقوم بتنظيف سيارته بالمياه الراكدة. أو مشهد آلاف اللاجئين، الذين اتخذوا من مبنى السفارة الروسية القديم مقرا لهم، يعيشون تحت وطأة درجة حرارة لا تحتمل، لا شيء يقيهم البرد القارس سوى مجرد أغشية بلاستيكية يسدون بها النوافذ.

على ما يبدو أن الحكومة المركزية تعاني من حالة إفلاس حادة، بدرجة تجعل من أغلب طواقم الصحافيين الأمريكيين العاملين هنا لديهم من المال ما يفوق ميزانية الحكومة التي عجزت حتى على دفع مرتبات موظفيها. كما قال الأخضر الإبراهيمي، كبير مبعوثي الأمم المتحدة إلى أفغانستان: «عندما يرغب بعض الوزراء في مقابلتي، فإنهم يضطرون إلى استخدام سيارات الأجرة».

هذه هي الحالة المؤلمة. تحتاج أفغانستان إلى تدفق نقدي فوري. (ربما يستطيع العالم الإسلامي- الذي كان خائفا كثيرا على المدنيين الأفغان حين تعرضت البلاد للقصف الأمريكي- إرسال بعض الأموال، خاصة وأن القصف قد توقف الآن وبات الناس في أمس الحاجة إلى الطعام؟). هذا بالإضافة إلى حاجة أفغانستان إلى قوات متعددة الجنسيات يمكنها أن توفر الحماية والأمن في المدن الرئيسية حتى يتمكن اللاجئون من العودة إلى مساكنهم واستئناف أنشطتهم التجارية وتنشيط الاستثمارات. كما يمكن لمثل هذه القوات أن تساعد الحكومة الأفغانية في بناء جيشها وقوات الشرطة الخاصة بها. لكن يبدو أيضا أن بعض جيران أفغانستان من أكلة اللحوم، وبعد أن اشتموا رائحة فراغ في السلطة في كابول، باشر بعضهم، كإيران مثلا، بإرسال المتطوعين عبر الحدود لشراء النفوذ. وهذا أمر سلبي للغاية، مما يدفعني للحديث عن طاقم عمل الرئيس بوش. هناك نزاع يدور حاليا بين أطراف الإدارة الأمريكية بشأن السماح بوجود قوات متعددة الجنسيات في أفغانستان، وبشأن حجم المشاركة الأمريكية

في تلك القوات، وهذا بدوره يدفعني للتساؤل كالآتي: إذا ما اعتقد طاقم الرئيس بوش أن حلفاءنا سيقومون بإرسال قوات حفظ السلام إلى أفغانستان، مهما كان عددهم ولأية فترة زمنية، بدون مشاركة الولايات المتحدة وقيادتها، فإنهم واهمون. وإذا ما اعتقدوا أن أفغانستان ستجمع قواها بدون تلقّي أي دعم من مثل هذه القوات- حيث ستقتصر المشاركة العالمية على الجانب النقدي فقط- فإنهم يكونون قد أخطأوا كذلك.

لقد حققت الولايات المتحدة النصر العسكري في أفغانستان بواسطة التحكم عن بعد، أي باستخدام القوة الجوية، والمتطفلين غير المؤدبين، ومقاتلي القبائل المحلية، وبعض أفراد القوات الأمريكية الخاصة. ويبدو أن طاقم الرئيس بوش يأمل الآن في تحقيق السلام بواسطة التحكم عن بعد أيضا، وهو أمر مستحيل. ويمكن إرجاع سهولة اختفاء بن لادن ومعظم مساعديه الرئيسيين إلى تلكؤ وزارة الدفاع الأمريكية في إرسال قوات إلى الساحة الأفغانية كي تقوم بتفتيش الكهوف. قياسا، فإن التلكؤ في إيجاد نوع من قوات حفظ السلام متعددة الجنسيات من شأنه أن يؤدي إلى حرماننا من السلام. وكما قال وزير الداخلية يونس قانوني لعضو مجلس الشيوخ الزائر جو بايدن: «أرجو ألا تتخلى الولايات المتحدة عن أفغانستان». وأثناء حوار صحفي أجريته مع رئيس الحكومة المؤقتة حميد قرضاي، أخبرني قائلا: «بعد أن تم اختياري مباشرة، اجتمعت بممثلين عن سائر الأقاليم الذين يقارب عددهم ال٢٥٠٠ شخص، لقد طالبوني جميعهم- باستثناء أحد الملالي، الذي اعترض- بالعمل على توفير قوة متعددة الجنسيات. فالناس هنا بأمس الحاجة إلى الأمن».

أنا شخصيا أتفهم مخاوف الرئيس بوش المتعلقة بإمكانية تورطنا هنا بين أناس بالكاد نعرفهم، خاصة إذا علمنا ما حدث لكل من سبقنا بالتورط هنا. أثناء تجوالي في كابول دخلت محلا لبيع الكتب الإنكليزية، إذ دهشت لعدد المؤلفات التي تحمل عنوان «حروب أفغانستان»، ولما وقع اختياري على أحدها وعنوانه «تاريخ الحرب في أفغانستان» تبين لي أنه كان جزءا من سلسلة ضخمة اقتصرت فقط على السنوات الممتدة بين١٨٠٠ و١٨٤٢.

طبعا لا يود طاقم الرئيس بوش بأن «تقترن» هذه المشكلة بهم، لكن ما لم نقدم على «القيام بشيء ما» بهذا الخصوص لبعض الوقت، ونلتزم ولو بشكل محدود على الأقل بتوفير قوات أمنية ولو لفترة محدودة، فإن هذا البلد سيبقى معرضا للعودة إلى ما كان عليه في السابق كمركز لبن لادن.

٢٠٠٢/٠١/١٣

عودة صراع الديوك إلى كابول

كابول، أفغانستان

لدي المزيد من الأخبار الجيدة والسيئة المتعلقة بكابول. تتمثل الأخبار الجيدة في عودة النشاطات الرياضية إلى المدينة قبل عودة الكهرباء، أو القانون والنظام. أما السيئ منها، فيتمثل في أن الرياضة التي سبقت في عودتها أي شيء آخر، هي صراع الديكة.

جرت الأسبوع الماضي مباراة في حدائق بابور، التي اشتهرت ببهائها في الماضي، إذ باتت اليوم شبه خرابة ذاوية الأشجار. تجمّع حوالي ١٠٠ رجل أفغاني- إلتقط مصور «نيويورك تايمز»، تشانغ لي، صورا جذابة لهم- ليشاهدوا صراع اثنين من كبار الديكة في أربع جولات، انتهت بعدها المباراة بالتعادل.

من سخرية القدر ألا يكون هذان الديكان المتصارعان وحدهما، من يختال فوق الأنقاض الأفغانية. هناك التشكيلة البشرية أيضا - أمراء الحرب الأفغان والقوى المجاورة التي كانت تدعمهم، والتي ظلت تتصارع في أفغانستان طيلة عقدين من الزمن. أما السبب في جعل الحرب الأفغانية تنتهي بسهولة بالنسبة للولايات المتحدة، هو رغبة المتصارعين الجيوسياسيين - إيران، باكستان، أوزباكستان وروسيا - في التعاون المباشر أو الضمني معنا للقضاء على طالبان وأسامة بن لادن، وهو ما يخدم مصلحة كل طرف منهم. والشيء نفسه ينطبق على المتصارعين المحليين - جنرالات الحرب الطاجيك، والبشتون، والهزارة، والأوزباك.

أما الآن وقد انتهت الحرب تقريبا، فإن الصراع على أفغانستان من شأنه أن يستأنف من جديد مما يضع أمريكا أمام خيار حاسم: هل ستظهر الدرجة نفسها من العزم والتصميم على إحراز السلام هنا كما فعلت كي تحقق النصر في الحرب؟ هل ستدعم وتنخرط في قوة متعددة الجنسيات للبقاء هنا، كي يتم تحقيق الاستقرار في أفغانستان، وخلق حالة يسود فيها النظام والقانون إلى أن تتمكن الحكومة الجديدة من الوقوف على قدميها؟ هذا هو السؤال المطروح بإلحاح. إذ إن أي تردد من قبل أمريكا سيدفع بالمتصارعين إلى شحذ مخالبهم.

عندما اجتمعت مؤخرا بوزير الداخلية يونس قانوني في مكتبه، حيث يمكن أن يضع وزير في الحكومة الأمريكية صورة الرئيس بوش فوق منضدته، كان قانوني يضع

صورة أحمد شاه مسعود، الزعيم الكاريزمي لقوات تحالف الشمال الذي يسيطر عليه الطاجيك، والذي اغتالته حركة طالبان قبل وقوع اعتداءات ٩/١١. و نلاحظ وجود الصورة نفسها في مكتبي كل من وزيري الخارجية والدفاع، الطاجيكيان هما أيضا. كما خلا مكتب وزير المالية، البشتوني، من تلك الصورة. وعليه، عندما يضع وزير ما صورة أمير الحرب المفضل لدية فوق منضدته وليس صورة الرئيس الجديد (البشتوني)، لا يعتبر ذلك بالفأل الحسن.

لا يخفي الأفغانيون دهشتهم من إلحاح إيران على الحصول على قطع أراض حتى تستطيع بناء مدارس على نفقتها. لقد ظل الإيرانيون يتبرعون بالكثير من الأموال لصالح أمراء الحرب الناطقين بالفارسية الموالين لهم، حتى يتسنى لحلفائهم الأفغان عصيان أي أوامر تصدرها الحكومة المركزية في كابول، لا تتماشى مع رؤى المتشددين في إيران، كأن تصبح أفغانستان حليفا متعاطفا مع الولايات المتحدة. لكن اللافت للانتباه، هو أن كل أفغاني تسأله سيقول لك إن هذا البلد قد سئم الحرب تماما، وإنه متعطش إلى الأمن، وإنه يفضل وجود قوات متعددة الجنسيات تحافظ على الأمن والنظام في البلاد بأسرها، على وجود أية قوات إثنية أخرى، أو أي زعيم محلي.

أخبرني أحد ضباط القوات الخاصة، بعد أن قام باستفتاء الزعماء المحليين حول من يفضلون كقوات لحفظ السلام: الألمان أم الكنديين أم الأتراك؟ أجابوه جميعا «نريدكم أنتم». بكل تأكيد سيحاول البعض انتقادنا، ولكن حتى أمراء الحرب الذين قد تراودهم فكرة تحدي قوة حفظ سلام تقودها الولايات المتحدة لا يخفون إعجابهم بمدى القوة الهائلة التي أظهرتها أمريكا هنا. وبالرغم من كل ما يدور من حديث عن بطولة المقاتلين الأفغان المتبجحين، فقد كانت حربا بين مستخدمي أحدث الطائرات المقاتلة وبين مستخدمي الحجارة، طبعا ربح الأولون بامتياز، ويدرك الآخرون ذلك جيدا. (هناك سجناء من القاعدة محتجزون قرب قاعدة باغرام العسكرية، يحرسهم أفراد القوات الخاصة الأمريكية، صُودف أن يكون بينهم نساء. تخيلوا أنفسكم تنتقلون بين عشية وضحاها، من مجتمع لم تروا فيه مطلقا، وجه أي إمرأة، إلى وضع تحرسكم فيه امرأة مسلحة ببندقية من نوع م١٦. أبلغتني إحدى النساء الحارسات بأن بعضهم أبدى اشمئزازه في البداية، «لكنهم أدركوا عجزهم عن القيام بأي شيء»).

لقد خسرت حركة طالبان وأسامة بن لادن لأنهم اعتقدوا بشكل خاطئ، أن الأمريكان كالروس، يمكن إلحاق الهزيمة بهم بسهولة. كما يمكن أن يخسر الأمريكيون السلام بسهولة إذا اعتقدوا وبشكل خاطئ أيضا أنهم كالروس، مجرد قوة عظمى أخرى

ستجري قطعا مقاومتها إذا ما ظلت في الخلف، لذا من الأفضل ألا تقع محاولة ذلك.

في كل الأحوال، من غير المؤكد أنه حتى إذا ما بقينا لفترة محدودة لمجرد توفير الأمن في حين يقوم الأفغان أنفسهم بإعادة البناء، سينجحون في أداء تلك المهمة. لأنه من المحتمل أن يكونوا منقسمين على أنفسهم بعد أن عاشوا ٢٢ عاما من الحرب الأهلية. لكن، إذا لم نحاول إعادة الإعمار، فإنه وبكل تأكيد أن البلد بأسره سيصبح، مرة أخرى، ساحة كبيرة لصراع الديكة.

١٦/٠١/٢٠٠٢

جادة الدستور في باكستان

يعقوب أباد، باكستان

يمكن إدراج خطاب الرئيس الباكستاني، برفيز مشرف، الذي وجّهه إلى شعبه يوم ١٢ يناير/كانون الثاني الجاري، في خانة تلك الأحداث الجسام التي لم يشهد العالم الإسلامي لها مثيلا منذ زيارة أنور السادات إلى إسرائيل سنة ١٩٧٧.

كيف ذلك؟ لأنه وللمرة الأولى يتجرأ قائد مسلم على الإقرار، علنا، بمكامن الخلل وبأن أسباب المشكلة الحقيقية -التطرف الإسلامي- تكمن في الأنظمة التعليمية وترتيبات الحكم في العديد من المجتمعات الإسلامية، مما تسبب في حالة التخلف التي يعيشها العالم الإسلامي. كما أن الرئيس مشرف لم يغفل عن رسم خطة لمجابهة ذلك الوضع، ليس بمجرد رمي المتطرفين في السجون، بل بمواجهة طروحاتهم المتطرفة بإنشاء مدارس حديثة والتأسيس لإسلام تقدمي. إذ إنه تبين وبشكل واضح، ومنذ ١١/٩، أننا نحتاج إلى حرب داخل الإسلام لا إلى حرب ضد الإسلام. وهذا ما أعلنه أخيرا قائد واحد على الأقل. وسيكون من دواعي الاطمئنان لو يتبعه في ذلك بقية القادة العرب والمسلمين.

لقد قال مشرف لشعبه ما يلي: «إن يوم الحساب قد أتى، فهل نريد أن تكون باكستان دولة ثيوقراطية؟ هل نعتقد بأن التعليم الديني وحده يكفي لقيام حكم صالح أم أننا نريد لباكستان أن تظهر كدولة إسلامية قوية؟ إن قرار الجماهير الغفيرة سيكون لصالح باكستان كدولة إسلامية قوية». كما تعهد الرئيس الباكستاني بالعمل على إصلاح المدارس الدينية التي تقتصر على تدريس القرآن فقط دون تدريس العلوم والرياضيات

والآداب. وكان الرد واحدا من البازار إلى محلات الحلاقة، إذ أجابت الأغلبية الباكستانية الصامتة: «لقد حان الوقت للقيام بذلك».

لقد جادل المتخصصون والأكاديميون طويلا بأن تغيير بلد ما لسياسته الداخلية سيدفعه حتما وبالنتيجة إلى تغيير سياسته الخارجية. لكن ما حدث في باكستان هو العكس، لأنه ومنذ ٩/١١، والهجمات المتلاحقة على البرلمان الهندي التي نفذها إرهابيون من كشمير موالين لباكستان، طلبت كل من الولايات المتحدة والهند من باكستان أن تغير من سياستها الخارجية، وإلا فإن الولايات المتحدة ستحطمها اقتصاديا بينما ستحطمها الهند عسكريا. وبعقلية من يواجه تنفيذ حكم الإعدام في اليوم التالي، سحب مشرف فجأة تأييده لحركة طالبان وللمتشددين الساعين إلى تحرير كشمير.

وهكذا، وبعد أن أقدم مشرف على اتباع سياسة خارجية جديدة، ظل التحدي الذي يواجهه الآن داخليا يتمثل في اكتساب شعبية مؤيدة له. تمت صياغة السياسة الخارجية القديمة المتبعة في باكستان في الثمانينات في عهد الجنرال ضياء الحق، بالرغم من افتقاده لأي شرعية على حد تعبير المحلل السياسي الباكستاني حسين حقاني، كان قد «أسس حكمه على تحالف الجيش والمسجد» مستخدما المتشددين الإسلاميين لمباركة دكتاتوريته.

لكن مشرف أدرك أن استخدام المتشددين في أفغانستان وكشمير، سينتج عنه رد فعل تدميري لباكستان من الخارج، كما أن الاعتماد عليهم لإضفاء الشرعية على نظامه العسكري سيحطم باكستان من الداخل. لذلك نراه يلتجأ إلى تبني رؤى و طروحات تعكس طموحات قطاعات عريضة من العلمانيين والمسلمين المعتدلين الذين يشكلون جزءا كبيرا من الشعب الباكستاني. لكن، من أجل كسب تأييد هؤلاء عليه بتدعيم قدراتهم مما يفرض قدرا من الممارسة الديمقراطية.

وفي هذا الخصوص علق حسين حقاني قائلا: «عندما تكون معتمدا على الجيش والمتشددين للبقاء في الحكم، فإن كل ما تفعله هو أن تعطي الأوامر. لكن حين تود الاعتماد على جمهورالمعتدلين الواسع عليك أن تقود وأن تقنع وأن تدعم قدرات الشعب ليفكر ويعبر عن نفسه».

وبعبارة أخرى فإن باكستان غيّرت الآن سياستها الخارجية، وما على مشرف إلا الاختيار بين جعل باكستان كلها سجنا عن طريق حبس أكبر عدد ممكن من المتشددين الإسلاميين، أو يمكنه أن يعيد صياغة سياسة باكستان ويتحول من حكم تحالف الجيش والمسجد إلى حكم تحالف الجيش والشارع العريض. ولتحقيق ذلك يجب عليه أن يقبل

بتقاسم السلطة ويجذب قطاعات وأفراد ينفعونه سياسيا، ويبادر بالإقدام على انتخابات عامة ستكشف بدورها مدى ضآلة التأييد الفعلي الذي يحظى به هؤلاء الإسلاميون، الذين لم يستطيعوا أبدا تجاوز نسبة ١١٪ من الأصوات في الانتخابات التي لم يؤازرهم الجيش في خوضها.

أكثر ما يشد انتباهي عندما أتجول بالسيارة في العاصمة الباكستانية، اسلام أباد، هو تواجد كل من البرلمان ومقر الرئاسة والمحكمة العليا في جادة عريضة واحدة؛ هي جادة الدستور. التي تفتقر إلى شيء واحد وحيد، ألا وهو الدستور الباكستاني الذي علق العمل به. هذه هي الجادة التي يجب على الرئيس مشرف إعادة فتحها، لأنها الجادة الوحيدة التي ستخرجه من تحالفه مع المساجد وتوصله إلى تحالفه المنشود مع الشعب. لأنه في حال نجاحه، من يدري كم من القادة الآخرين سيقوم بتقليده؟

٢٠/٠١/٢٠٠٢

اهرب يا أسامة، اهرب

قمت أثناء عودتي من كابول بالتوقف في العديد من المحطات؛ كالباكستان ودول الخليج ولندن وبروكسل، حيث اجتمعت مع العديد من الصحافيين ورجال أعمال عرب ومسلمين وزعماء جالياتهم في أوروبا. بالرغم من كونهم جميعا من المتعلمين والباحثين الأذكياء، إلا أنه لا أحد منهم مقتنع بتورط أسامة بن لادن. كمثل ذلك الصحافي البحريني الذي جزم بعدم قدرة العرب على القيام بعمل في مستوى أحداث ٩/١١، أو تلك السيدة المسلمة التي التقيت بها في بروكسل، وبعد أن قلت لها إن أشرطة بن لادن التي تباهى فيها بالهجوم على مركز التجارة العالمي هي أشرطة أصلية وليست من صنع البنتاغون- وزارة الدفاع-، كان ردها أن نظرت إلي وكأني غبي أبله. أما ذلك الطالب العربي الذي تلقى تعليمه في الولايات المتحدة، أصر على أن وكالة المخابرات المركزية (سي.آي.اى) والموساد تعلمان مسبقا بالعملية، ثم تساءل: لماذا لم تتدخلا لمنع وقوعها؟ أو رجل الأعمال السعودي ذاك، المقتنع بوجود خطة مبيتة سلفا من قبل كبرى وسائل الإعلام الأمريكية للتهجم على السعودية من دون أي سبب، كما أن أحد الباكستانيين نبهني إلى أن جميع الطلاب في مدرسة أولاده يصدقون الإشاعة الكاذبة والتي تقول بأنه تم تحذير أربعة آلاف يهودي يعملون في مركز التجارة بعدم التواجد في مكاتبهم يوم ٩/١١.

بصراحة، لقد كانت هذه الإشاعات منتشرة أينما حللت بين العرب والمسلمين. إشاعات كنت آمل أن يؤدي سقوط طالبان والعثور على أشرطة بن لادن يعترف فيها صراحة بمسؤوليته عما حدث، إلى تبديدها وهو- وبكل أسف- ما لم يحصل، بل تحولت إلى جدار حديدي من سوء الفهم يفصل بين أمريكا والعالم العربي والإسلامي. كما أن مثل هذه الإشاعات لا زالت رائجة بالدرجة نفسها التي كانت عليها في الأيام الأولى التي أعقبت أحداث ٩/١١، حتى وإن حجم أصحابها عن نشرها أو الجهر بها في العلن، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأنه بالرغم من النصر العسكري الذي أحرزته أمريكا في أفغانستان، إلا أنها لم تنجح على ما يبدو في كسب قلوب وعقول أبناء العالم العربي والإسلامي. بشكل أضحت معه الهوة الفاصلة بيننا أعمق من ذي قبل، ومن لم يصدق ذلك، عليه أن يسأل أي سفير أمريكي من المغرب حتى إسلام أباد، حيث سيحدثونك جميعا عن «المؤامرة الأمريكية» على العرب والمسلمين.

إلا أنه يجب ألا نغفل عن وجود بعض الاستثناءات هنا وهناك. مثلا عندما اجتمعت ببعض الأصدقاء في المنامة الأسبوع الماضي، وجدت أنهم من ذوي الفكر النير والعقلية النقدية. لكن ما هي الأسباب التي تقف وراء قيام مثل الهوة العميقة وعدم الثقة وسوء الفهم؟ ربما فشلنا كأمريكيين في توضيح موقفنا ورؤانا خلال العقدين الماضيين باللغة العربية وإحباط كل الإشاعات الكاذبة والمغرضة المتعلقة بالسياسة الخارجية الأمريكية وتوفير الحجج الدامغة على كل ما نقول. كما تجب الإشارة إلى أن إدارة الرئيس بوش تعكف حاليا على إعداد ملف مفصل بالعربية تبين فيه كل الأدلة المتوفرة ضد بن لادن. وهي خطوة جيدة بالرغم من تأخرها، إلا أن الجهر بالحقيقة وحده لا يكفي هنا نظرا لوجود عناد ومقاومة ثقافية لتصديق أي شيء إيجابي متعلق بأمريكا، مصدره ما تنشره وسائل الإعلام الرسمية في بعض الدول العربية، بغية صرف الانتباه وعدم تعرض تلك الأنظمة للنقد من قبل مواطنيها. كما تظهر بوضوح الطابع الثأري من أمريكا بسبب دعمها غير المشروط لإسرائيل، خاصة في هذه المرحلة التي بات فيها الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني بمثابة ماكينة تفريم لحم بشري تبث صورها القنوات التلفزية العربية كل مساء. وهو ما يبعث على عدم الاعتداد بالنظرة الأمريكية لما حدث يوم ٩/١١، والتقليل من شأن الانتصار العسكري المحرز في أفغانستان، كرد فعل على العجز عن تدخل العالم العربي والإسلامي لوقف التأييد الأمريكي لإسرائيل. مضافا إلى ذلك قدر لا بأس به من انعدام الثقة بالنفس لدى قطاعات واسعة في العالم العربي والإسلامي، وإلا ماذا تستنتج عندما يقول لك أحدهم أنه لا يمكن أن يتمتع

العرب أو المسلمون بدرجة ذكاء كافية تخولهم تنفيذ عملية بحجم ٩/١١، لذا فإنها حتما من صنيع الموساد أو السي.آي.اى؟ إنه فعلا لأمر محزن أن تتدنى ثقة العرب بأنفسهم حاليا إلى هذا المستوى بسبب أداء الأنظمة السياسية والاقتصادية المتخلف جدا، مما تسبب في موجات غضب عارمة قام بن لادن بتوظيفها لصالحه. مع أنه وللحقيقة، يجب أن نعترف أن بن لادن يعزف على وتر حساس لدى كل عربي ومسلم، حتى أولئك الذين يختلفون معه، لا لشيء إلا لأنه الشخص الوحيد من تجرأ على محاربة أمريكا ومقارعتها كالند للند، والوحيد من تجرأ على كشف عورات الحكام العرب قولا وفعلا.

وببساطة، لذلك نشاهد اليوم العديد من العرب والمسلمين يتمنون لبن لادن النجاة والسلامة، وهم يرددون في سرهم «اهرب يا أسامة، اهرب»، وبكل أسف هذا واقع أتمنى لوأننا نعرف كيف نغيره.

٢٠٠٢/٠١/٢٣

ما بين القبتين

بروكسل، بلجيكا

بالرغم من كل ما قيل عن أحداث ٩/١١، فإننا لا زلنا نجهل الكثير. نعم، نحن نعرف من هو أسامة بن لادن؛ إنه شخصية فريدة من نوعها- مسلم متشدد يجمع بين أصولية تشارلز مانسون ومواهب جاك والش التنظيمية. كما أننا نعلم من هم مؤيدو بن لادن؛ مسلمون تعاطفوا معه نتيجة غضبهم إما من حكوماتهم أو من أمريكا أو من إسرائيل. لكن السؤال الأهم، من هم أولئك القابعون في الوسط؟ أي أولئك الطيارون القتلة الذين تجاوزوا حدود التأييد وارتكبوا جرائم قتل جماعي.

ومن أجل الحصول على إجابة وافية لهذا السؤال، توجهت إلى أوروبا. لماذا؟ أولا، لو تأملنا السيرة الذاتية لأي من الخاطفين الرئيسيين وناشطي تنظيم القاعدة، سنكتشف أن كل من محمد عطا وزياد الجراح ومروان الشيحي وغيرهم، كانوا قد مروا جميعا بالتجربة نفسها تقريبا: ينحدر كل منهم من عائلة تنتمي إلى الطبقة الوسطى وتلقوا تعليمهم في العالم العربي، ثم توجهوا إلى أوروبا لمواصلة دراستهم، هناك عاشوا على هامش المجتمع الأوروبي- كما هو الأمر في بلجيكا-، وهناك أيضا تم انتدابهم سواء

في مسجد محلي أو جماعة محلية صغيرة حيث تم تأطيرهم بشكل أصبحوا معه متشددين، ثم التحقوا بمعسكرات الجهاد في أفغانستان لتدريبهم عسكريا. وبالنتيجة أصبحوا إرهابيين. وعلى ما يبدو فإن للتجربة الشخصية التي عاشها كل من هؤلاء الشباب في أوروبا، تأثيراً بالغاً.

لقد قامت صديقة عربية، تدرس هي نفسها بالخارج، بوصفهم قائلة: «ينتمي معظمهم إلى ذلك النوع من الشباب الذين نشأوا وترعرعوا في كنف مجتمعات ذات قيم ونظم معروفة وواضحة، بدون أن يطلب من أي منهم أن يتكيف أو يتأقلم مع أي شيء غير مألوف لديه. لكن وبمجرد حلولهم بأوروبا، اختلف الوضع تماما، مما تسبب في خلخلة شخصياتهم، وهذا ما دفعهم إلى التزمت والتشدد الأصولي». وفي ذلك الكثير من الصحة إذا علمنا كيف ينظر إلى المهاجرين المسلمين باعتبارهم غرباء غير مرغوب فيهم في أوروبا. أما في أمريكا، فإن الوضع مختلف، إذ بإمكان المهاجر المسلم أن يتأقلم وينصهر بسرعة ويكتسب حق المواطنة. وكما عبر عن ذلك نورالدين مالوجهموم، رئيس المجلس التنفيذي الإسلامي في بلجيكا، فقال: «إننا نعاني في بلجيكا من الإسلاموفوبيا، أي الخوف من المسلمين والعداء لهم. يقول ٥٤٪ من سكان البلاد بأنهم لا يعتقدون أنه بإمكان أي جماعة عرقية غير محلية أن تتأقلم وتنصهر، وبالتالي تتمتع بحق المواطنة. والدليل أنه يستحيل على أي امرأة محجبة أن تحصل على وظيفة هنا». وكذلك أخبرتني فوزية طلحوني، المرأة المسلمة الوحيدة في البرلمان البلجيكي، كيف عانى الجيل الذي انتمى إليه والدها المهاجر من شمال إفريقيا، إلا أنه أصر على الانصهار في حين أن العديد من أبناء جيلها هي، وبعد أن تعرضوا للتهميش قرروا العودة إلى الإسلام. واسترسلت قائلة: «إذا كنتم ستعاملوننا بشكل مختلف، فإننا بالنتيجة سنتصرف بشكل مختلف».

وباختصار، لم يكن الدافع وراء أحداث ٩/١١، هو حاجة الإرهابيين إلى الأكل، بل حاجتهم إلى الكرامة. فبعد أن سيطرت عليهم مشاعر الإحباط من مواقف الدول الإسلامية المخزية على الساحة الدولية، مقارنة ببقية دول العالم، إضافة إلى ما تعرضوا له هم شخصيا من مواقف في الدول التي عاشوا بين ظهرانيها، أصبح من السهل استقطابهم من قبل الأصوليين الذين عرفوا كيف يوظفوا غضب هؤلاء الشباب.

كتب أدريان كاراتنكي، رئيس «منتدى الحرية»، بحثا شديد الأهمية نشرته مجلة «ناشيونال ريفيو»، جاء فيه: «يعبر العديد من الإرهابيين الذين نواجههم اليوم عن ظاهرة غربية صادرة من التجمعات الإسلامية المتواجدة في أوروبا والولايات المتحدة». ومن

الخطأ اعتبارهم بمثابة «خلايا نائمة» تم زرعها في أوروبا منذ سنوات من طرف بن لادن، بل هم نشأوا هناك، لم يتم صهرهم وبالنتيجة صاروا في حالة مواجهة مع الغرب. إلى درجة يمكن تشبيههم بـ«الجماعات المتطرفة الأمريكية وعصابة بادر ماينهوف الألمانية، والألوية الحمراء الإيطالية، والجيش الأحمر الياباني. لقد تخرج معظم الإرهابيين المسلمين من الجامعات وتحولوا إلى متطرفين متشددين، المؤمنين برسالة الإسلام العالمية بشكل يصبح فيه بن لادن الشيخ غيفارا». هنا يبدو أن كاراتنكي على حق؛ لأن التحدي الحقيقي الذي يواجهه الغرب لا ينحصر في فهم ما يحدث في العراق أو العربية السعودية فقط، بل ويشمل أيضا فهم ما يدور داخل المساجد والجوامع الموجودة في مجتمعاتنا. لأنه هناك تمت أدلجة وتأطير الطيارين القتلة. لكن يجب ألا ننسى أن ٩٩,٩ من مسلمي أوروبا وأمريكا هم مواطنون صالحون لا يؤمنون بالعنف المسلح.

هكذا تبدو بلجيكا كأسطع مثال على ذلك، لأن بها ما يقارب ٣٠٠ مسجد وجامع. بالإضافة إلى أنها تشمل معلما آخر شهيرا؛ ألا وهو القبة الضخمة لمقر حلف شمالي الأطلسي (الناتو) الواقعة في منطقة مونس. وهكذا وضمن المواجهة الثقافية بين هذين المعلمين الشهيرين في بلجيكا - قبب المساجد وقبة حلف الناتو - يمكن إيجاد توضيح ما لما حدث يوم ٩/١١ الماضي وربما ٩/١١ القادم.

٢٠٠٢/٠١/٢٧

نهاية عرفات

هناك عدد قليل جدا من الأمريكيين والإسرائيليين والحكام العرب إضافة إلى الفلسطينيين ممن يعتقد بجدية أن عرفات المنتهي سياسيا، قادر على قيادة شعبه إلى إبرام اتفاق سلام مع إسرائيل. إذ إن السبب الوحيد في بقاء عرفات على واجهة الأحداث هو تهرب الجميع من الإجهاز عليه نهائيا. فلا إسرائيل تريد تحمل مسؤولية ذلك ولا أمريكا ولا العرب ولا حتى مساعدوه. وبالتالي تحولت مسألة القضاء عليه من ميدان السياسة إلى ميدان البيولوجيا. الكل ينتظر موت عرفات. لكن من سوء الحظ أنه يتبع نظام حمية جيد، ويتمتع بقسط من الراحة يوميا.

أما ما جعل عرفات رجلاً ميتاً يسعى بين الأحياء هو أنه أصاب نفسه ثلاث مرات.

المرة الأولى حين رفض عرض بيل كلينتون للسلام، وهو عرض تكفل بقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة وشرقي القدس. إلا أنه رفض ذلك العرض لأنه لم ينص على حق العودة لمئات الآلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذين شردوا قبل ١٩٦٧.

يقول خبير شؤون الشرق الأوسط ستيفن كوهين: «اتضح أن عرفات كان يريد دولتين فلسطينيتين وليس دولة واحدة؛ دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، ودولة فلسطينية أخرى داخل إسرائيل تقام عن طريق عودة اللاجئين الفلسطينيين ذوي التزايد الديمغرافي المرتفع. إلا أن إسرائيل كانت مستعدة لمنحه دولة واحدة وليس دولتين. كما أن عرفات افتقد الشجاعة الكافية كي يقول ذلك لشعبه».

المرة الثانية، عندما فشل عرفات في الحصول على دولتيه في كامب ديفيد، قرر التنازل عن احتكار السلطة في المناطق الفلسطينية. واحتكار السلطة هو التعريف الرسمي للدولة، أو «السلطة الفلسطينية»، تنازل عرفات عن احتكاره للسلطة من أجل الضغط على إسرائيل عن طريق السماح لحركة حماس والجهاد الإسلامي بالقيام بعمليات انتحارية ضد إسرائيل بطريقة لا تجعله يتحمل المسؤولية، مما يضطرها إلى القبول بشروطه. وبمجرد تنازله ذاك، صار من المستحيل عليه أن يكون رئيسا للدولة الفلسطينية. من يمكنه أن يثق برئيس يتنازل عن سلطته كلما رأى أن ذلك يتماشى مع مصالحه؟.

أما المرة الثالثة، كانت باستيراده لسفينة الحمقى، سفينة محملة بأسلحة حديثة من إيران. وبذلك تمكن عرفات من إلغاء الحجة الأساسية للحمائم الإسرائيليين الذي نادوا بقيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة لأنها ستكون «منزوعة السلاح» وبالتالي غير قادرة على تهديد إسرائيل أو الأردن. في ذلك الصدد قال ديفيد ماكوفسكي، محلل شؤون الشرق الأوسط: «كان أملنا جميعا في أن يصبح عرفات نلسون مانديلا، لكن اتضح أنه روبرت موغابي».

هكذا نجد أنفسنا أمام خمسة خيارات؛ أولها، أن يجتمع الزعماء العرب ويحاولوا استبدال عرفات كمفاوض لإسرائيل ويعوضوه ببديل عربي شامل في مقابل انسحاب إسرائيلي كامل. الثاني، فلسطين هي الأردن - تقوم إسرائيل بدعوة الأردن لاستعادة سيادته على الضفة الغربية، باعتباره الدولة العربية الوحيدة التي يمكن لإسرائيل أن تثق بها. الثالث، الأردن هو فلسطين - حيث يقوم آرييل شارون باحتلال الضفة الغربية ويطرد الفلسطينيين إلى الأردن. الرابع، يقوم الفلسطينيون بإزاحة عرفات واستبداله بقيادة

فلسطينية جديدة تستعيد مصداقية الفلسطينيين أمام إسرائيل باعتبارهم شركاء مسؤولين يمثلون سلطة معترف بها. أما الخيار الخامس، يقوم حلف الناتو باحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة.

في هذه الأثناء، يكون من الأفضل لليهود الأمريكيين والإسرائيليين أن يلجموا غرورهم. صحيح أن السيد عرفات بات معزولا، لكن في الحقيقة ليس هو وحده من يريد أكثر من دولة فلسطينية واحدة. إذ إنه لا يفهم مما يفعله شارون والمتطرفون اليهود في الأراضي المحتلة سوى أنهم يريدون دولتين إسرائيليتين أيضا؛ دولة يهودية في إسرائيل ودولة يهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة.

إلى الآن لم يقم أي فلسطيني بالكشف عن هذه الحقيقة. يجب أن نتأكد من أن هذه المستوطنات لا تتعدى أن تكون سوى سرطان ينخر الشعب اليهودي، وأنها تهدد البناء الصهيوني في العمق. وفي حال حاولت إسرائيل الاحتفاظ بهذه المستوطنات فإنها ستواجه أحد الأمرين؛ إما أنها ستفقد صفة الدولة اليهودية لأنها ستضطر إلى استيعاب أعداد كبيرة من الفلسطينيين، أو أنها ستتحول إلى دولة غير ديمقراطية تعتمد على نظام الميز العنصري على غرار نظام «الأبارتايد»، لأن أسلوب الحكم الوحيد للسيطرة على هذا العدد الكبير من الفلسطينيين هو النموذج الجنوب إفريقي. لذلك من الضروري جدا أن نجد بين الفلسطينيين شريكاً حقيقياً للسلام. لأن ذلك لا يتعلق بمصير الفلسطينيين وحدهم بل ويشمل مصير الإسرائيليين أيضا.

٢٠٠٢/١/٣٠

نهاية الناتو

يعتبر الطيران من أفغانستان وإليها، أمراً في غاية الصعوبة. تزامنت محاولتي بمغادرة كابول قبل أسابيع قليلة، مع إغلاق قاعدة باغرام الجوية بسبب الأحوال الجوية السيئة، وإلغاء الأمم المتحدة لرحلاتها من وإلى هناك. لذلك لم يبق أمامي سوى التطفل ومحاولة السفر مجانا عن طريق إحدى الرحلات العسكرية، مما أضفى على تلك الرحلة طابع تأملي.

وفقا للضرورات الأمنية يقوم الجيش الأمريكي بتنظيم رحلاته الجوية من وإلى أفغانستان ليلا، حيث يتم إطفاء أضواء مدرجات المطار حتى قبل أن تتمكن طائرة سي-

١٣٠ المزودة برادار يعمل بالأشعة دون الحمراء، من الهبوط. وبمجرد أن تهدأ محركات الطائرة يبدأ الجنود الأمريكيون المرتدون لملابس ليلية داكنة من إفراغ الطائرة من محتوياتها، ثم يعيدون شحنها بالكامل في كنف الظلام الدامس، وبعدها فقط تتمكن الطائرة من الإقلاع. أما الضوء الوحيد المسموح به فهو مصابيح المدرج والتي يتم إشعالها لمدة ثوان كافية لتحديد وجهة الإقلاع.

القوة العسكرية الوحيدة في العالم التي بإمكانها أن تفعل ذلك وبنجاح، بفضل أجهزة الرؤية الليلية، هي القوات الجوية الأمريكية. وإن كان هذا بالأمر العظيم والمشرف، فإنه يدل على نهاية حلف الناتو كذلك. نعم، نهاية الناتو. عند زيارتي إلى بروكسل، قادما من كابول، وجدت أن الموضوع الوحيد المهيمن على غيره من المواضيع المتداولة في مقر قيادة الناتو، هو التفوق التكنولوجي والعسكري الأمريكي بقدر يتجاوز بكثير بقية أعضاء الحلف، بشكل تصبح معه الولايات المتحدة في غير حاجة إليهم كي تخوض حربا بعيدة. وهو ما أظهرته أمريكا ببراعة في أفغانستان، حين حاربت بمفردها أساسا، باستثناء مساهمة محدودة، ولكن مهمة، من طرف كل من بريطانيا وكندا وأستراليا. أضف إلى ذلك النزعة الأحادية التي يتميز بها فريق الرئيس بوش، الداعي إلى الحد من مشاركة حلفائنا في خوض حروب المستقبل لأنهم سيحدون من قدرة أمريكا على المناورة، وفي المقابل يتساءل الكثيرون هنا في بروكسل عما إذا كانت شعوب الناتو ستحارب معا في المستقبل أم لا.

وفي هذا السياق قال دومينيك موازي، الخبير الفرنسي في مجال العلاقات الدولية، ما يلي: «في الستينات قامت فرنسا، بزعامة شارل ديغول، بتهديد وحدة حلف الناتو. وها هي أمريكا اليوم، بزعامة رامسفيلد تقوم بالشيء نفسه. فالسؤال المطروح هنا هو: ما الذي يحدث لمخلوق حين يفقد خالقه الإحساس بالثقة تجاهه؟ وما مبرر وجود الحلف إذا كان رد فعل قادته يقول «لا تستدعونا، بل سندعوكم نحن لأننا لا نثق بكم بالأساس»، لاحظ أني أؤيد الناتو تأييدا كاملا، لكن ما جدوى ذلك إن لم يؤيده الأمريكيون؟».

في عالم اليوم، ولكي تخوض حربا حديثة، كما تبين في أفغانستان وكوسوفو، يجب أن تتوفر لديك أربعة عناصر رئيسية: وسائل نقل جوي تضمن نقل الجنود إلى ميادين قتال نائية جدا؛ قنابل وصواريخ توجه من على بعد، توجيها دقيقا تستطيع من خلاله تدمير أهداف العدو بقدر كبير من الدقة المتناهية، مختصرا بذلك مدة الحرب ومقلّلاً من إصابات المدنيين؛ إنشاء فرق عمليات خاصة تستطيع التحرك ليلا بفضل

أجهزة الرؤية الليلية؛ وأخيرا، تأمين طرق ووسائل اتصالات خفية تستطيع بفضلها التنسيق بين عمليات القوات الجوية والبرية من خلال تكنولوجيا اتصالات متقدمة لا يستطيع العدو اختراقها. عدا الولايات المتحدة، لا يوجد عضو واحد آخر من أعضاء الناتو يمتلك تلك العناصر الأربعة، فقط بريطانيا تقترب قليلا من ذلك، أما المانيا وفرنسا وبلجيكا فهي بالكاد تحافظ على وجودها في النادي، أما بقية الدول الأعضاء الأخرى فهم بمثابة مزحة. ويعود ذلك بالأساس إلى كون الصناعات العسكرية الأوروبية ليست بمستوى تطور قريناتها الأمريكية. لكن من ناحية أخرى، انعدام شعور الأوروبيين بأنهم مهددون من قبل أعداء أمريكا، خصوصا من قبل دول «محور الشر» (العراق، إيران، وكوريا الشمالية)، الذي أعلنه الرئيس بوش، وبالتالي فإنهم لا يضطرون إلى الإنفاق كثيرا على شؤون الدفاع. وفي حال حصول بوش على الزيادة التي طلبها أثناء إلقائه خطاب حالة الاتحاد، فإن النفقات العسكرية للولايات المتحدة ستفوق مجموع ميزانيات ١٥ دولة متقدمة. وهو ما سينتج عنه نظام فصل عنصري داخل حلف الناتو، حيث ستكون أمريكا هي كبير الطباخين الذي يتحكم في أنواع الطعام الواجب إعداده، ويطبخ كل الوجبات، أما بقية أعضاء الحلف الآخرين، سيكونون بمثابة صبيان غسيل الصحون المتسخة، ممن يبقون على مقربة ليقوموا بتنظيف ما اتسخ ويحافظوا على النظام إلى أجل غير مسمى. وكما قال لي أحد الفرنسيين: «إن ذلك لن يدوم طويلا»، وهو على حق، لأنه لدينا مشكلة في بروكسل.

ولكن، إذا كان الأوروبيون جادين في رغبتهم بالمشاركة في العمليات العسكرية، عليهم الاستثمار في مجال الطائرات والأجهزة الإلكترونية التي تسمح بالإقلاع في جنح الظلام. وبدون ذلك لن تكون لهم أي صدقية تذكر حين يحتجون على الولايات المتحدة. وفي المقابل، على فريق الرئيس بوش أن يكبح جماح نزعاته الانعزالية التفوقية من الناتو إلى كيوتو، كي يبرهن أننا لا ننوي الطيران وحدنا إلى كل مكان، وأننا نريد أن يكون الآخرون معنا عند الهبوط.

وعلى الرغم من سعادتي بأن أمريكا قادرة على المحاربة في أي مكان من العالم تحت جنح الظلام، فإني لا أريدها أن تضطر إلى القتال في كل مكان وحدها.

٢٠٠٢/٠٢/٠٣

رسالة إلى الجامعة العربية

إلى: الرئيس حسني مبارك والأمير عبدالله والملك عبدالله والرئيس بشار الأسد وبقية أعضاء الجامعة العربية

من: الرئيس بوش

أصدقائي الأعزاء، صحيح أنكم حذرتموني جميعا وفي السر من مشاعر العداء تجاه أمريكا، التي تغمر منطقتكم، مشاعر تغذيها فكرة خضوعي التام لمشيئة آرييل شارون وبالتالي انسحابي من أي مبادرة دبلوماسية. لكن دعوني أشرح لكم وضعي؛ أعتقد أن مشاكلكم معنا تنبع من سوء قراءتكم للتاريخ العربي الإسرائيلي، وبالتالي فإنكم تتصورون أنه إذا ضغطنا بطريقة ما على الإسرائيليين، فإنهم سيقومون بالانسحاب الفوري والموافقة على جميع طلبات الفلسطينيين. وهذا خطأكم الرئيسي.

إن ميزان القوى الرئيسي ليس بيننا وبين إسرائيل، بل بينكم وبين إسرائيل. إن جميع الخطوات التي تحققت سابقا باتجاه عملية السلام لم تقع نتيجة ضغطنا على إسرائيل بل نتيجة ما قدمتموه أنتم في المقابل. ومثال ذلك ما قام به أنور السادات والملك حسين وياسر عرفات في أوسلو، حين أعلنوا وبشكل واضح للأغلبية الإسرائيلية الصامتة أنهم راغبون فعلا في تحقيق السلام مقابل انسحاب إسرائيلي فعلي، وهذا ما تم فعلا.

هل تذكرون كيف رفض اليمين الإسرائيلي إعادة سيناء إلى السادات، بل إن بعضهم عارض بشدة عملية مبادلة الأرض مقابل السلام مع الأردن، وكذلك كيف عارض اليمين الإسرائيلي اتفاقات أوسلو ١ و٢. لكن حين تدخلتم أنتم الحكام العرب وشجعتم الأغلبية الإسرائيلية الصامتة مبرهنين أنكم جادون في مساعيكم السلمية، تم تحقيق خطوات إيجابية في ذلك الاتجاه بالرغم من المعارضة الشديدة لليمين المتطرف. وهذا هو ميزان القوى الوحيد بينكم وبين الإسرائيليين. لأننا متفرجون فقط، أنتم من يستطيع فعلا التحكم في مسار الأحداث، وليس أنا. وهذه نصيحتي لكم كيف تحققون ذلك؛ من المقرر أن تعقد الجامعة العربية قمتها في بيروت في شهر مارس القادم، أرجو أن يصدر عن قمتكم قرار واحد يأتي فيه ما يلي: «قرر أعضاء الجامعة الاثنان والعشرون الاعتراف الكامل بإسرائيل وإقامة علاقات دبلوماسية معها وبدء المبادلات التجارية معها

إضافة إلى الضمانات الأمنية، كل ذلك بشرط أن تقوم إسرائيل من جانبها بالانسحاب الكامل وغير المشروط من الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس ومرتفعات الجولان إلى حدود ٤ يونيو/ حزيران ١٩٦٧».

وبحكم أنكم وافقتم جميعا على ذلك في السر، لماذا لا تقولون ذلك في العلن وتستفيدوا من إيجابيات قرار كهذا؟ بحيث تكونون قد أقصيتم بن لادن وبرهنتم للعالم من أنتم كعرب، وفي حال عجزتم عن القيام بمخاطرة كهذه، فلماذا تطالبونني أنا بالقيام بها؟

أنتم بحاجة إلى مواجهة الحقيقة التالية: قام ايهود باراك بعرض مبادرة سلام إسرائيلية، مع أنها كانت معيبة. ثم تبعه الرئيس بيل كلينتون بتقديم مبادرة سلام أمريكية. الآن حان الوقت لظهور مبادرة سلام عربية، كفاكم تهربا وتشكيا من مبادرات الآخرين للسلام. حان الوقت لكي تعرضوا ليس فقط مطالبكم من إسرائيل- بإنهاء الاحتلال-، بل وتعلنوا ما تقدرون على تقديمه أنتم مجتمعين. عرفات وحده لا يستطيع عمل ذلك.

هل تعلمون ما يزعجني فيكم؟ هو اعتقادكم أن شارون نزل من كوكب آخر وأنه هو من بدأ كل هذه المشاكل، وأني أسانده في كل ما يقوم به دون أي سبب. وهذا غير صحيح البتة. لم يكن شارون ليظهر على السطح لو لم يرفض عرفات كل من مبادرتي باراك وكلينتون. ولو لم يعط الضوء الأخضر بشن العمليات الانتحارية داخل إسرائيل. نعم لقد قام شارون باستفزاز الفلسطينيين بالذهاب إلى الحرم الإبراهيمي (الشريف)، إلا أنه لم يكن منتخبا حينها. بل باراك من كان في السلطة. لذا كيف سمحتم لشارون باستغلال الوضع وفرّطتم في أفضل فرصة لقيام دولة فلسطينية وقتئذ؟ كما أني أجيبكم على سؤال كنتم قد طرحتموه عليّ في السر ومفاده إن كنت أضمن ردا إيجابيا من إسرائيل في حال تنفيذكم ما طلب منكم، وجوابي هو لا طبعا. لكن كل الدلائل التاريخية التي أمامي تقول بأن الأغلبية الإسرائيلية الصامتة دائما تفرض على قادتها أن يكون ردهم إيجابيا على أي مبادرة سلام حقيقية، لذا حتى وإن حاول شارون أن يرفض عرضكم تأكدوا أن شعبه سيتولى أمر إخراجه من السلطة، مما يفرض عليّ وقتها أن أساند وأحترم رأي شعبه.

ومع ذلك فإني أستطيع أن أضمن أمرا واحدا، وهو أنكم لم تبادروا بطرح عرض سلام، فلا شيء سيتغير على الإطلاق، وأن الأغلبية الإسرائيلية ستواصل تأييدها لشارون

في المضي قدما بسياساته الخرقاء وأن جامعتكم العربية ستزداد تخلفا وانحطاطا. لذا، وكما تعلمون، فإن أي مبادرة أو أي مشروع للسلام لا يقتصر على ما يدور بين الفلسطينيين والإسرائيليين فقط، بل يتعلق بكل القوى الحية في المجتمعات العربية المتعطشة للحداثة والتجارة والرقي. وبدون أي مشروع سلام ستبقى كل تلك القوى التقدمية مهمشة، لذلك تتساوى حاجتكم أنتم إلى السلام مع الفلسطينيين والإسرائيليين. وبالنهاية فإن مستقبلكم بين أيديكم أنتم وليس لي فيه أي دخل. أتمنى لكم حظا سعيدا.

جورج بوش.

٢٠٠٢/٠٢/٠٦

أسئلة حرجة

لندن

أثناء حضوري حفل غداء أقامه دبلوماسي أمريكي في لندن وحضره كوكبة من الإعلاميين العرب، اقترب أحد الصحافيين قائلا: «أرجو ألا تكون في ذلك إهانة، لكني أود أن أطرح عليكم السؤال الآتي: هل صحيح أن الإعلاميين اليهود يقفون وراء الحملة المغرضة بقصد تشويه المملكة العربية السعودية والإسلام مثلما هو شائع؟».

شعرت بالاستغراب لأني فوجئت بأن يُطرح عليّ سؤال غير عادي كهذا. سؤال جادّ طرحه صحافي عربي جادّ مما يستدعي بالضرورة إجابة جادة مني. بعد أن طمأنت سائلي بعدم شعوري بالإهانة، أعلمته أني على اطلاع بأن هذا السؤال مطروح في كل مكان تقريبا من العالم العربي والإسلامي. ثم بدأت إجابتي بطرح التساؤل التالي على سائلي: إبان وقوع مجزرتي صبرا وشاتيلا التي تعرض لهما الفلسطينيون، كان الصحافيون اليهود هم أول من تابع وغطى ذلك. فلماذا لم يسأل أحد في العالم العربي عما إذا كان ذلك مؤامرة يهودية؟ أو عندما قاد بعض المراقبين وأعضاء الكونغرس اليهود حملة في الولايات المتحدة لحثها على التدخل لإنقاذ المسلمين في البوسنة وكوسوفو وللتصدي للغزو العراقي للكويت، وللدفاع عن المملكة العربية السعودية خلال حرب الخليج، لماذا لم يشك أي من المسلمين بأن ذلك مؤامرة يهودية؟.

في الحقيقة، وعلى مدار الخمسة عشر عاما الماضية، كان المراقبون والنواب اليهود من بين أكثر الأصوات مطالبة أمريكا بالتدخل من أجل إنقاذ المسلمين أكثر من أي

جماعة أخرى بمن فيهم المسلمون الأمريكيون. وبالتالي، يمكن القول بأنه - ربما- لا وجود لأي «مؤامرة يهودية» سواء ضد المسلمين أو ضد المملكة السعودية. بل ربما أن العديد من الأمريكيين يشعرون بشيء من الانزعاج من حقيقة أن ١٥ شابا سعوديا شاركوا في تنفيذ هجمات ٩/١١، ومن حقيقة أن الجمعيات الخيرية السعودية قامت ولا زالت تقوم بتمويل أسامة بن لادن، ومن حقيقة أن المئات من السعوديين شاركوا في القتال مع القاعدة ضد القوات الأمريكية في أفغانستان. ربما تكون هذه الحقائق القاسية قد ساهمت في تأليب الرأي العام الأمريكي ضد السعوديين.

وبالتالي سيكون من المؤسف جدا لو أن العرب والمسلمين يستمرون في حالة الإنكار هذه، وأنه لا وجود لأسباب فعلية دفعت بالأمريكيين إلى الاستياء منهم. وأن يستمروا في الاعتقاد بأن اليهود، هم من يقف وراء تلك الحملة المغرضة. على كل حال، وبحسب نظرية المؤامرة هذه، ما هي الأسباب الحقيقية لتخلف العالم العربي والإسلامي في المجالات الاقتصادية والثقافية وشتى ميادين التنمية، وانعدام الديمقراطية؟ حين يقلل الناس من طبيعة وحجم مشاكلهم وينظرون إليها باعتبارها نتاج مؤامرة دبرتها أطراف خارجية، فإنهم يكونون بذلك قد برأوا أنفسهم وحكامهم من أي تبعة أو مسؤولية. وبالتالي فهم ليسوا في حاجة إلى مراجعة الذات والتفكير بجدية لحل تلك المشاكل.

لم يسبق أبدا أن تمكنت أي أمة من إحراز أي تقدم أو تطور عن طريق إحالة مشاكلها إلى مصادر خارجية، وهو ما بدأ يشير إليه شلة من الصحافيين العرب الشجعان. كما أن اتهام طرف خارجي ما لا يمكن أن يكون بديلا عن معالجة وحل المشاكل العالقة (الأمر نفسه ينطبق على الإسرائيليين الذين يقولون بأن ياسر عرفات هو مصدر جميع مشاكلهم)، فقط في المجتمعات التي تتبع النقد الذاتي، يمكن للنظام السياسي أن ينتج أو يتوصل إلى حلول حقيقية لمشاكل حقيقية. لننظر إلى كل ذلك التحليل والنقد الذاتي، ومحاسبة النفس الذي عاشته أمريكا عقب حرب فيتنام، وهو ما لم تقم به أي دولة عربية بعد خوض أي حرب، ناهيك عن أحداث ٩/١١. وإلى أن يأتي اليوم الذي يقومون فيه بذلك، فإنهم سيظلون على حالة الإنكار والتهرب بإلقاء اللوم على أمريكا واليهود كمصدر لجميع مشاكلهم. كما أن الاستمرار في هذا الاعتقاد سيؤدي إلى تعميق الهوة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي، لأن نظريات المؤامرة نابعة عن سوء فهم كلي لنوايا الولايات المتحدة. تقول النظرية السائدة في العالم العربي والإسلامي بأن أمريكا، دولة غنية وقوية لأنها مادية وبربرية. وما دامت أمريكا لا تهتم

إلا بالمصالح - وليس بالقيم -، فلماذا لم تدرك أن مصالحها الحقيقية مع العرب وليس مع إسرائيل؟ أم أن الغلبة كانت كالعادة لبراعة اليهود في تأثيرهم على مصادر القرار الأمريكي.

الحقيقة هي عكس ذلك تماما. إن غنى وقوة أمريكا ينبعان أساسا من منظومة القيم الخاصة بها. أمريكا مزدهرة لأنها تحترم الحرية، وتقدر الفرد، وتحترم حقوق المرأة مما يساعد المجتمع على الخلق والإبداع، تعتبر هذه القيم بمثابة آبار نفطنا التي لا تنضب. وبالنتيجة تميل أمريكا إلى المجتمعات التي تشاركها في احترام نفس منظومة القيم تلك، وتنأى عن المجتمعات التي لا تحترم تلك القيم والمبادئ.

في النهاية هناك نوعان من اللوم: لوم يصدر نتيجة التحليل والنقد الذاتيين، وآخر يكون بمثابة هروب من القيام بذلك النقد الذاتي. كلنا يعرف أناساً يلومون على الدوام أمهاتهم أو آباءهم على جميع مشاكلهم، ومن المستحيل أن يلوموا أنفسهم. البعض يكبر ويتخلص من تلك العادة السيئة، والبعض الآخر يظلون دائما كما هم؛ يمضون حياتهم تعساء وغاضبين، دون أن يحققوا أي هدف.

٢٠٠٢/٠٢/١٠

حكاية البدوي والديك الرومي

لندن

بمجرد الاطلاع على ما تنشره الصحافة الأوروبية تشعر بالاطمئنان للتفهم الذي أبداه الأوروبيون لمبدأ الرئيس بوش القائل بأن «محور الشر» يشكل تهديدا للسلام العالمي. لكن هناك إشكالية صغيرة، ففي حين يعتقد الرئيس بوش بأن «محور الشر» يتكون من إيران والعراق وكوريا الشمالية، يعتقد الأوروبيون أن محور الشر يتكون أساسا من دونالد رامسفيلد وديك تشيني وكوندوليسا رايس.

أدلى كريس باتن، مسؤول شؤون السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي، بتصريح إلى صحيفة الغارديان قال فيه إن فكرة الرئيس بوش القائلة بـ«محور الشر» هي في منتهى الخطورة من ناحية «إطلاقيتها ونظرتها التبسيطية للأمور» و بأنها «فكرة غضة» و«غير مجدية» مما يتوجب معها على الأوروبيين أن يوقفوا واشنطن عند حدها قبل أن تذهب بعيدا في «نزعتها الانفرادية». ماذا يمكنني أن أقول هنا؟ برأيي أن لهذه الانتقادات جانب

من الصحة لأن الدول الثلاث المذكورة تشكل محورا وبالتالي لا يتوجب علينا أن نعاملهم كذلك، كما أصابت هذه الانتقادات في قولها بأن كل على حدة من هذه الدول يشكل تهديدا مختلفا مما يدعو إلى مواجهتها بطريقة مختلفة. كما أنهم أصابوا في قولهم أن أمريكا لا تستطيع أن تحارب في أي مكان بمفردها. وأصابوا أيضا في مطالبتهم بأن تكون أمريكا أكثر جدية في إيجادها حلاً للصراع الإسرائيلي- الفلسطيني باعتبار أن ذلك يعيق أي تعاون جدي من قبل العرب.

باختصار لقد أصابوا في كل النقاط التي ذكرت، إلا أني مرتاح لما قاله الرئيس بوش. لماذا؟ لأن تلك الانتقادات على صحتها أغفلت نقطة جوهرية، لقد تمت اعتداءات ٩/١١، لأن أمريكا فقدت قدراتها الردعية. فقدناها لأننا وعلى مدى العشرين سنة الماضية لم ننتقم من أو لم نحاكم من قاموا بقتل مواطنين أمريكيين. بدءا بأول عملية انتحارية استهدفت السفارة الأمريكية في بيروت في أبريل/ نيسان ١٩٨٣، وتفجير مقرات المارينز قرب مطار بيروت بعد أشهر قليلة، واختطاف الطائرة التابعة لخطوط (تي. دبليو. إي) الأمريكية، وتفجير مركز الخبر في المملكة العربية السعودية، وتفجير السفارتين الأمريكيتين في شرق إفريقيا، والاعتداء على البارجة الأمريكية (يو. اس. اس. كول) في اليمن، حيث لقي العديد من الأمريكيين الأبرياء مصرعهم في كل تلك الاعتداءات، ولم نقم بأي رد فعل. وهكذا راح أعداؤنا يستخفون بنا ويزدادون جرأة إلى درجة أن تقدم مجموعة من الأفراد - وليس دولة - على الاعتداء علينا فوق أرضنا. ولِمَ لا؟ بحكم أن الإرهابيين والدول الحاضنة لهم اعتقدوا أننا ضعفاء، وقد أصابوا. وظنوا أنهم قادرون دائما على تجاوزنا، وقد أصابوا. كما ظنوا أننا دائما نصغي إلى نصائح الأوروبيين ونميل إلى «الاحتواء الإيجابي» للدول المارقة، وليس إلى استعمال القوة، وقد أصابوا أيضا.

لقد دفعنا الثمن غاليا نتيجة شك أعدائنا في ضعفنا، مما يذكرني بقصة ذلك البدوي العجوز الذي اعتقد أنه بأكل الديك الرومي سيحافظ على فحولته، فاشترى ديكا ووضعه في خيمته إلى أن قام أحدهم بسرقته، فقام ذلك الشيخ صارخا في وجه أبنائه مطالبا إياهم باسترجاعه فورا، فما كان منهم إلا أن تجاهلوه. وبعد شهر تمت سرقة بعير ذلك العجوز، ولما سأله أبناؤه عما يجب أن يفعلوه، طالبهم بأن يسترجعوا الديك الرومي أولا، مما جعلهم يتجاهلوه كعادتهم. وبعد أسابيع قليلة تعرضت ابنة ذلك الشيخ للاغتصاب. حينها قال لأولاده إن كل ما يحدث كان بسبب ذلك الديك الرومي. بمجرد أن عرف أعداؤه أنهم قادرون على سرقة الديك، تمادوا في أفعالهم حتى النهاية.

ومثل أمريكا اليوم كمثل ذلك البدوي تماما. إذ ظل الناس وعلى مدى عشرين عاما يسرقون ديوكنا. والأوروبيون يعارضون استخدام القوة ضد كل من العراق وإيران وكوريا الشمالية، وأنا أتفق معهم في ذلك. لكن ما هو البديل؟ هل ننتظر حتى يصبح عدي، الابن الأكثر جنونا من أبيه صدام، قادرا على قصف باريس بصواريخ بيولوجية؟ كلا، وبالرغم من أن فكرة «محور الشر»، هي فكرة غضة وسطحية - وهذا ما يعجبني فيها. لأنها تخاطب هذه الدول وشركاءهم في الإرهاب بكل وضوح، قائلة لهم: «إننا نعلم جيدا ما تعدّونه في الخفاء، وإننا لا نعلم تماماً ما سنقوم به. إلا أننا لن نبقى مكتوفي الأيدي بانتظار أن يحصل عدوان آخر».

هناك جوانب عديدة في سياسة فريق بوش، لا أتفق معها، عدا سعيهم الحثيث لاستعادة واكتساب قدرات رادعة، مما يجعلهم يبدون أكثر جنونا من بعض أعداء أمريكا. وهذا من بين الخيارات الصائبة تماما، لأنها الطريقة الوحيدة التي تعيد لنا ديكنا الرومي.

١٣/٠٢/٢٠٠٢

عرض سعودي مُغْرِ

الرياض، المملكة العربية السعودية

كنت قد اقترحت في مقال كتبته مطلع هذا الشهر، بأن يصدر عن أعضاء جامعة الدول العربية الـ ٢٢، قرار إثر اجتماعهم المقرر عقده في بيروت في ٢٨ و٢٩ آذار (مارس) المقبل. قرار يعلنون فيه بوضوح اعترافهم الكامل بإسرائيل، وتطبيع العلاقات التجارية والأمنية معها، مقابل انسحابها الكامل إلى حدود ٤ يونيو (حزيران) ١٩٦٧، وفقا لأحكام القرار ٢٤٢ الصادر عن الأمم المتحدة والسماح بقيام دولة فلسطينية. لِمَ لا؟

حاليا، أنا بصدد زيارة المملكة السعودية- ذلك ضمن حملة علاقات عامة سعودية يرمي من خلالها السعوديون إلى الانفتاح على العالم الخارجي والتعبير عن موقفهم بصورة أفضل، خاصة بعد أن اتضح أن ١٥ من الانتحاريين الذين شاركوا في تفجيرات ٩/١١، هم سعوديون. إنتهزت فرصة تناول العشاء مع ولي العهد السعودي، الأمير عبدالله بن عبد العزيز، لأطرح تلك الفكرة عليه. كما أني أعلم مسبقا أن بعض القادة العرب كما في الأردن والمغرب، وبعض المسؤولين العرب الآخرين، كانوا قد تحدثوا

عن مثل هذه الفكرة سرا في مجالسهم الخاصة بحكم أنهم لا يمتلكون الجرأة الكافية للجهر بها علنا، إلا إذا سبقهم في ذلك بعض الإخوة الكبار كمصر أو السعودية مثلا.

وبمجرد أن بدأت الحديث عن هذا الأمر، التفت إليّ ولي العهد وقال مصطنعا: «هل خلعت مكتبي؟»، أجبته بالنفي من دون أن أعلم ماذا يقصد بذلك. فما كان منه إلا أن استرسل في الحديث قائلا: «لقد وجهت لك هذا السؤال لأن فكرة الانسحاب الكامل من كل الأراضي المحتلة بما فيها القدس وفقا لقرارات الأمم المتحدة مقابل التطبيع الكامل للعلاقات، راودتني كثيرا. كما أني صغت مسودة خطاب حول هذا الموضوع، كنت سألقيه قبيل انعقاد القمة كي تتم تعبئة الرأي العام العربي حوله، وهو لا يزال موجودا في مكتبي إلى الآن، لكنني عدلت عن الأمر بعد أن أقدم شارون على توخي مستوى من القمع والعنف لم يكن معروفا من قبل على الإطلاق»، ثم أضاف ولي العهد: «والدليل، لو أني هاتفت شخصا ما وطلبت منه أن يقرأ لك محتوى الخطاب، ستجده مطابقا حرفيا لما طرحته أنت. كما أني أبحث عن طريقة ما أقول بها للإسرائيليين إن العرب لا يرفضونهم ولا يحتقرونهم. لكن الشعب العربي يرفض ما تقوم به قيادتهم مع الشعب الفلسطيني من أعمال قمعية وغير إنسانية، معتقدا أنه يمكن تبليغ هكذا رسالة إلى الشعب الإسرائيلي».

لم أقدر على إخفاء سعادتي بمعرفة هذا الاتجاه السلمي للقيادة السعودية. لكننا كم مرة سمعنا في الماضي، من القادة العرب أنهم أوشكوا على هذا أو ذاك، لولا أن آرييل شارون، أو غيره من القادة الإسرائيليين قطع عليهم الطريق. وعندما يتكرر ذلك بشكل يصبح معه من الصعب أخذ ما يقولونه مأخذ الجد. هنا توجهت إلى الأمير سائلا: ماذا لو وافق شارون والفلسطينيون على وقف إطلاق النار قبل انعقاد القمة؟ فأجابني: «قلت لك إن الخطاب مكتوب، وهو ما يزال في مكتبي».

لقد بذلت قصارى جهدي لأطرح وأشرح الأمر بصورة مباشرة وبسيطة، من دون تضخيم أو ضجيج ومن دون إطلاق إي وعود غير واقعية. لكن ما أثار اهتمامي في ملاحظات ولي العهد، والتي إن طرحت للتداول علنا لكانت أكثر تقدمية من كل ما طرحته الجامعة العربية عبر تاريخها الطويل، بل أفكاره التي قالها في حديث طويل غير معد للنشر. ثم اقترحت على ولي العهد أنه وبحكم أن هذه الفكرة واضحة في ذهنه كل هذا الوضوح، وحتى وإن كانت في شكل مسودة، لماذا لا يسمح بنشرها؟ وقتها سيأخذها الجميع مأخذ الجد. قال إنه سيفكر في الأمر. وفي اليوم التالي اتصل بي مكتبه لمراجعة ملاحظات ولي العهد، وأبلغت بقرار السماح بنشرها.

من المعروف عن ولي العهد، الأمير عبدالله، أنه الأكثر نزوعا نحو القومية العربية من بين جميع الأمراء السعوديين. وهو قائد ذو شعبية عربية واسعة. وفي حال أنه سيلقي ذلك الخطاب، فلن يكون له تأثير بالغ على الرأي العام العربي فقط، بل وعلى إسرائيل أيضا. كما أن الأمير عبدالله يود أن يقول إنه، وفي حال قيام الرئيس بوش بمبادرة سلام جديدة، فإنه سيسعى شخصيا وبمعية بعض القادة العرب الآخرين لدعمها. هذا بالإضافة إلى أني لم أفوت الفرصة بعد سؤال الأمير السعودي عن عدم إقدام بلاده على الاعتذار للولايات المتحدة على إقدام ١٥ انتحارياً سعودياً على المشاركة في تفجيرات ١١/٩، فقال لي: «تربطنا بأمريكا صداقة طويلة جدا، ولم نعتقد أنها ستقوم بالتشكيك في هذه الصداقة. لقد شعرنا بأن هجوم بن لادن وجماعته موجه إلينا نحن أيضا، لأن الغرض منه تدمير العلاقة القائمة بيننا. كما أننا شعرنا بالحزن كثيرا لما حدث، إلا أننا لم نشك لحظة في أن يؤدي ذلك إلى توتر العلاقة بيننا. لكننا تعلمنا كيف نتعامل مع الأحداث بطريقة مختلفة الآن. كما أن الفرصة لا زالت قائمة كي نتمكن من التعبير عن أنفسنا».

أما فيما يتعلق بمقولة «محور الشر»، واحتمال توجيه ضربة عسكرية إلى العراق، قال الأمير السعودي: «يجب ألا يكون هناك أي تفكير بتوجيه أي ضربة عسكرية للعراق لأن ذلك لن يخدم لا المصالح الأمريكية، ولا المصالح الإقليمية أو العالمية. ولا يوجد أي دليل على كون العراق يشكل تهديداً من أي نوع لأي كان. كما أن العراق أبدى استعداده وقبوله لعودة المفتشين الدوليين وهو ما سيحدد ما إذا كان العراق يتصرف وفق قرارات الأمم المتحدة أم لا».

١٧/٠٢/٢٠٠٢

التحدي السعودي

جدة، المملكة العربية السعودية

يمكن الاستنتاج أن السعودية شهدت تحولات كبيرة، مقارنة بآخر مرة زرتها، قبل حوالي خمس سنوات. موظف الاستقبال في فندق الشيراتون حيث أقمت، هو سعودي، في حين أن مثل تلك الأعمال في الماضي اقتصرت على اليد العاملة المستوردة من الفليبين وباكستان ولبنان. هذا أمر تغير الآن، خاصة لما إنخفضت عائدات النفط، بحيث لم تعد الحكومة السعودية قادرة على توفير وظيفة حكومية لكل

مواطن سعودي. ومنذ الثمانينات ارتفع عدد السكان من ٧ ملايين إلى ١٩ مليون نسمة، إذ تحتل السعودية أعلى مراتب نسبة التزايد السكاني في العالم، كما انخفض الدخل الفردي الناجم عن توزيع مداخيل النفط من ١٩٠٠٠ دولار سنة ١٩٨١ إلى٧٣٠٠ دولار اليوم، مما نتج عنه شح نقدي لتغطية مصاريف العائلات الكبيرة ونفقات المؤسسات الحكومية المهترئة. وفي المحصلة، وجد العديد من الشبان السعوديين أنفسهم إما عاطلين عن العمل أو يقومون بوظائف غير لائقة أو وظائف لم يفكروا في القيام بها في السابق. مما يفرض على الحكومة السعودية أن تستثمر إيجابيا الطاقة البشرية التي لديها، بالطريقة نفسها التي استثمرت بها حقولها النفطية التي مكنتها من بناء وتشييد طبقة تحتية لا بأس بها. إن المستقبل السعودي مرهون ببناء مدارس يتعلم فيها النشأ الطالع كيف يبدعون ويبتكرون الثراء عن طريق أفكارهم الخلاقة وليس من ضخ آبار النفط فقط.

يبدأ ذلك بإعادة النظر في الجامعات السعودية المكتظة، والتي تدفع سنويا بأعداد هائلة من حاملي شهادات في الدراسات الإسلامية أو الفنون إلى سوق العمل، مقابل أعداد محدودة جدا من حاملي شهادات في الميادين التقنية والاقتصادية. كما يجب أن يعاد النظر في النظام القضائي السعودي لجلب المستثمرين الأجانب وخلق مواطن الشغل، مما يعني توفر الشفافية وسيادة القانون واستقلال القضاء ومحاربة الفساد. لأنه وفي حال عدم القيام بمثل هذه الإصلاحات فإن البلد سيزداد فقرا، خاصة إذا علمنا أن ٤٠٪ من السكان هم دون سن الرابعة عشرة- أي أن الجزء الأكبر من المجتمع لم يدخل سوق الشغل بعد، وهذا بمثابة برميل بارود مؤقت. ففي ديسمبر الماضي، بعد انتهاء شهر رمضان، حدثت مواجهة على كورنيش جدة، حدثت مشادة بين بعض الشباب انقلبت إلى مواجهة بينهم وبين قوات الشرطة، رُفعت خلالها شعارات مضادة للحكومة وللولايات المتحدة، مما أدى إلى إيقاف مئات من المتظاهرين.

أما الأخبار الجيدة، فتتمثل في البدء - قبل وقوع تفجيرات ٩/١١ - بوضع برنامج تعليمي بالإنجليزية لا يقتصر على التعاليم الإسلامية، يشمل طلاب الصف الرابع بدلا من الصف السابع، ويبدأ العمل به السنة القادمة، مما سيساعد النشأ الطالع على تعلم التفكير النقدي والاستقلال الفكري، وهي خطوة ليست بسهلة التنفيذ أثارت حفيظة المتشددين. وكما قال خليل العواد، نائب وزير التربية: «نحن نشهد حالة تغيير جذري لمناهجنا الدراسية، تقوم أساسا على مبدأ: فكر كونيا، وانشط محليا».

أما الأخبار السيئة، فتتمثل في كون الشخص الوحيد ذي التوجهات الإصلاحية هو ولي العهد عبد الله، قد بدأ يشيخ ويرضخ أحيانا لضغوط المحافظين من حاشيته الذين

عارضوه عندما نادى بمنح المرأة السعودية حق القيادة، مما سينجم عنه الاستغناء عن خدمات نصف مليون سائق أجنبي. كما يشكل ذلك عائقا ماليا على محدودي الدخل السعوديين الذين لا يستطيعون توفير خدمات سائق خاص، كما قال لي رجل أعمال سعودي: «يعمل لدي سائق له ثلاث بنات، مما يضطره باستمرار إلى مغادرة عمله لنقل بناته من وإلى المدرسة أو أي مكان آخر مما أثر سلبا على إنتاجيته في العمل».

إن القادة هنا يميلون إلى إحداث التغيير على مراحل، أو على «الطريقة السعودية» كما يسمونه، من أجل الحفاظ على السلم الاجتماعي، وهذا غير ممكن حاليا كما شرح لي علي النعيمي، وزير النفط السعودي، قائلا: «يمكنك عبر الوقت أن تجعل الناس يتغيرون، لكن هل لدينا الوقت الكافي؟ أعتقد ذلك، خاصة أننا نعيش في عصر العولمة هذا، الذي يشبه كرة زجاجية حيث يستطيع الجميع رؤية ما يدور حول العالم بكل سهولة».

لأمريكا رهانات كبرى فيما يجري داخل المملكة السعودية. لقد جاء معظم الخاطفين الـ ١٥ من أفقر المناطق السعودية، منطقة عسير، التي شهدت أخيرا تحولات اجتماعية فجئية. وصف ذلك أحد السعوديين قائلا: «المشكلة هنا ليست في الإسلام، بل تكمن في أن العديد من الشباب عاطلون عن العمل، وبدون تحصيل جامعي لا مكان لهم إلا الجامع، مما سهل مهمة بعض الأئمة المتشددين في تأطيرهم وجعلهم ينقمون على أمريكا. حاليا، يوجد في كل بيت شابان أو ثلاثة عاطلون عن العمل. وهذه مشكلة حقيقية».

٢٠/٠٢/٢٠٠٢

انطباعات زائر

الرياض، المملكة العربية السعودية

صدفة وبينما أنا في مصعد الفندق الذي أقيم فيه، كان هناك شخص سعودي بزيه التقليدي بالثوب الطويل وغطاء الرأس الأحمر. وبعد أن نظر إليّ فاحصا، سأل مستفسرا إن كنت أمريكيا، فأجبته بنعم، حينها مد لي يده مصافحا بحرارة وأخبرني بأنه سعودي. بدا لي الأمر وكأن الرجل أراد مجاملتي بالقول: «إننا لا زلنا نحبكم، وآمل أنكم تبادلوننا الشعور نفسه».

بفضل الأيام الثمانية التي أمضيتها هنا، ودخولي في العديد من النقاشات والمواجهات التي سأظل أتذكرها، رغم أن بعضها لم يكن وديا، تعلّمت أن هذا البلد عبارة عن مكان معزول وغامض. لقرون عديدة حالت الصحراء دون دخول الأجانب إلى هنا، ثم ومع اكتشاف النفط تمكن السعوديون من أن ينفردوا بقرار السماح بدخول الأجانب بلادهم وفقا لشروطهم الخاصة، وهكذا تعود من سمح لهم بالدخول على قول ما يود السعوديون سماعه فقط.

لكن وبعد ٩/١١، واكتشاف العالم أن ١٥ من بين الـ١٩ انتحاريا هم سعوديون، ها هو العالم يطرق أبواب المملكة العربية السعودية ويدخلها بدون تأشيرة. وفجأة ها هم السعوديون يستمعون إلى ما يعتقده العديد من الأجانب، الذين لم يكونوا بحاجة إلى مجاملتهم، بشان بلادهم؛ بأنها صارت مصدرا للمال والتنظير الإسلامي المتشدد، وموطنا لانتحاريين يهددون أمننا واستقرارنا. وهو قول أصاب العديد من السعوديين بالدهشة. وبالرغم من احتفائهم بي واستقبالهم لي، إلا أني انزعجت من كثرة شكاويهم لي. فقد حدثتني طبيبة عن تجربتها، وعن شعورها بالخجل عندما تأمّل شرطي الحدود في دولة أجنبية، في جواز سفرها مرتين. ذلك الجواز الذي كان يحظى بالتبجيل والاحترام في السابق، وكيف أنها أرادت أن تقول لي إن السعوديين هم «أناس معتدلون». أو ما سمعته من مسؤول سعودي آخر حين طلب مني الإجابة على سؤاله التالي: «ماذا سيحل بنا؟» آلاف السعوديين ممن تلقوا تعليمهم في أمريكا وأحبوها، وأرسلوا بأولادهم إليها لقضاء العطل، جميع هؤلاء يشعر بالضرر الحاصل لأنهم سعوديون. كما أني تعاطفت مع أستاذة جامعية سعودية - لا يغرنكم الزي الإسلامي - لأن النساء اللواتي تحدثت معهن تركن في نفسي كبير الأثر. كتلك السيدة التي اجتمعت بها في مقر جريدة «عكاظ»، حيث حز في نفسي كثيرا ما قالته لي بكل صدق عما يمثله الإسلام بالنسبة لها وما شعرت به من مرارة حين رأت ما يتعرض له دينها من سوء فهم وأذى من قبل الأجانب.

لكني أفضيت بالمقابل إلى جميع من تحدثت معهم عما يختلجني من ألم، ومن حقيقة أن ١٥ سعوديا ذهبوا إلى بلادي وشاركوا في قتل ٣ آلاف أمريكي، ومن حقيقة أن المملكة لم تقم إلى اليوم بتعريف العالم بمن هم أولئك الخاطفون وما هي دوافعهم. بل إن التعريف الوحيد الذي استمعت إليه كونهم شلة من «المنحرفين»، بدون التمييز بين أي صنف من المنحرفين كانوا؟ هناك منحرفون يؤمنون بما يؤمن به الجميع من حولهم، إلا أنهم يتبعون ويعملون وفق أساليب خاصة بهم، ومنحرفون يؤمنون بأشياء لا يؤمن بها

أحد سواهم. ولو كان هناك مثل هؤلاء المنحرفين كما سألت، فبماذا نفسر ابتهاج الأطباء والممرضين السعوديين بما شاهدوا يوم ٩/١١، على حد قول موظف أمريكي في أحد المستشفيات السعودية؟.

بالرغم مما قيل لي بأن ذلك لا يتطابق مع ما شعر به السعوديون، وبأن الخاطفين كانوا قد تلقوا تعليمهم في أمريكا، وأنهم تلقوا تعليماتهم من جهاز الموساد أو السي.آي.اى.، كما أنه قيل لي في أحد الجلسات إن اليهود يسيطرون على الحكومة الأمريكية وهو ما يعتبر صلب المشكلة مما اضطرني إلى الانسحاب من الحوار تماما. وقيل لي أيضاً إن الخاطفين إنما عبروا عن الغضب العربي من التأييد الأمريكي الأعمى لإسرائيل التي تنكل بالفلسطينيين.

هنا قمت بطرح السؤال التالي: لماذا لم يقل أسامة بن لادن إن رغبته في طرد أمريكا من جزيرة العرب، هي التي دفعته إلى القيام بذلك؟ لكنني لم أحصل على إجابة واضحة على ذلك. كما أني أوشكت على الاستنتاج بأن الفجوة الفاصلة بيننا شاسعة جدا لولا أني لم ألتق بقلة من السعوديين الذين تلقوا تعليمهم في الولايات المتحدة، وأعربوا لي، على انفراد، بأنهم يتفقون معي على ما أقول. إلى أن تقدم أحدهم بالتوضيح التالي: إن العقلية العشائرية راسخة للغاية هنا. ومن عادة أهل الصحراء أنه إذا تعرضت عشيرة للهجوم، فلا بد أن تناصرها بقية العشائر. الجميع يعلم بوجود مشاكل متعلقة بمناهجنا الدراسية، مما أسعد البعض حين قمت أنت بالإشارة إليها. لكنهم لا يستطيعون قول ذلك خوفاً من تعرضهم للخطر، ولذلك فإنهم لن يتحدثوا معك بصراحة، أو على الأقل أن يتظاهروا بأنهم كذلك، وبأنهم يريدون التغيير فقط لإيهامك. المشكلة ليست في الكتب بل في الأئمة المتشددين الذين يتخذون من خطب صلاة الجمعة منبرا لأدلجة الشباب وتخويفهم بأن أمريكا تريد تدمير الإسلام.

قبل تفجيرات ٩/١١، تسامحت الحكومة السعودية معهم، ظنا منها أنهم لن يتجاوزوا مرحلة القول. أما الآن وقد دخلوا مرحلة الفعل، فالأمر يحتاج إلى معالجة- يجب أن يكون في السر، لا يجب أن تطلع الغريب على مشاكلك أبدا-، بما معناه لنتصرف ونحل المشكلة وبعدها نعلن للعالم أننا عالجناها. لكن إلى متى ستظل هذه العقلية العشائرية مسيطرة ومعيقة لأي تقدم؟»

٢٠٠٢/٠٢/٢٤

قراءتان لمستقبل مملكة آل سعود

الرياض، المملكة العربية السعودية

روى لي أحد الأصدقاء الواقعة التالية: بينما كان هو مسافرا في البادية السعودية، حدث له أن ضاع في الطريق. وفجأة لمح عن بعد سيارة، فقرر أن يذهب باتجاهها ويسترشد عن أي اتجاه يجب عليه أن يسلك. إلا أنه وكلما حاول الاقتراب من تلك السيارة، أسرعت وابتعدت أكثر، فما كان منه إلا أن استعمل السرعة القصوى للحاق بها، حينها توقفت تلك السيارة وإذا بسائقها المذعور يسرع بالهرب على ساقيه. وفي النهاية تبين أن السائق هو امرأة بلباس رجل. تبدو هذه الواقعة كمؤشر ساطع على أنه ليس كل شيء هنا يسير فعلا كما نتوقع، مما يجعل التكهن بمستقبل العربية السعودية من باب التنجيم. أو يمكن أن نقيس ذلك على أحد المثالين؛ ما أسميها «المدرسة السوفياتية» و«المدرسة الصينية».

المدرسة السوفياتية تقول بأن المملكة السعودية هي النسخة الإسلامية للاتحاد السوفياتي، ملكية مطلقة غير قابلة للإصلاح كالاتحاد السوفياتي في سنواته الأخيرة. يمسك بزمام السلطة الفعلية تحالف قائم بين ثيوقراطية حداثية وفاسدة بزعامة عائلة آل سعود، والمؤسسة الدينية الوهابية المتشددة، التي توفر غطاء الشرعية لآل سعود. وهنا، فإن أي محاولة للإصلاح سينهار على إثرها النظام بأسره. كما أن عائلة آل سعود تشبه البوليتبيرو السوفياتي سابقا، في حين يعادل الـ ٥٠٠٠٠ أمير سعودي وأقاربهم الحزب الشيوعي. كما يستخدم السعوديون الوهابية- النسخة السعودية للإسلام- لتوحيد القبائل الأربعين المنتشرة على امتداد شبه الجزيرة العربية، تماما كما استخدم لينين الشيوعية لتوحيد القوميات المائة المتواجدة في روسيا والجمهوريات المجاورة لها. أما أسامة بن لادن، فهو النسخة الشيطانية من أندريه ساخاروف- الذي انفصل عن الحكم وأعلن أن الملك عار- مما تسبب في نفيه، كما نفى السعوديون بن لادن إلى كابول. وفي النهاية بدأ كلا النظامين في الاندحار بعد أن تقاتلا في أفغانستان.

كما أن السباق المحموم على النفوذ في العالم الإسلامي الدائر حاليا بين إيران والسعودية يشبه إلى حد كبير ذلك السباق الذي كان دائرا بين روسيا والصين داخل المعسكرات الاشتراكية. كما تقول المدرسة السوفياتية بأنه للسعودية خمس سنوات فقط

قبل أن يدخل الجيل الجديد سوق الشغل، ويشهد الدخل الفردي نزولا حادا، مما يدعو إلى الإصلاح في التعليم لتأهيل طاقة عمل بديلة عن العمالة المستوردة، وجذب الاستثمارات الأجنبية، لأنه من شأن النفقات العسكرية، والإكثار من القنوات التلفزية العاملة بالأقمار الصناعية والإنترنت، أن تؤدي إلى تفجير المجتمع السعودي تماما مثلما حدث مع السوفيات.

اما المدرسة الصينية، فهي على النقيض، تبدأ بمسلمة أن السعودية أقوى بكثير مما تبدو عليه، تتمتع كحكومة بالعديد من مقومات البقاء، وهي كمجتمع ذات مناعة عالية. وبالنتيجة، فإنه بإمكانها كالصين، أن تتبع نهجين سياسيين متناقضين في الوقت نفسه. ففي حين تعيش الصين تجربتي الرأسمالية والشيوعية في الوقت نفسه، نجد أن المملكة العربية السعودية تمزج بين الوهابية والحداثة المتسارعة معا. كما يمثل النفط بالنسبة للسعودية ما تربحه الصين من الاستثمارات الأجنبية الكبيرة - كلاهما مصدر طاقة طبيعي، يسمح للنظام بشراء أو إسكات معارضيه، كما يسمح في الوقت نفسه للكثير من الناس بالتحايل على القانون، وعقد الصفقات المشبوهة سرا. ووفقا لهذه المدرسة، يعتبر ولي العهد السعودي، الأمير عبد الله، بمثابة زو رونجي، الإصلاحي الصيني المعروف. إذ يحاول الأمير عبد الله أن تنخرط المملكة في منظمة التجارة العالمية مما سيخلق ضغطا خارجيا لتطبيق مبدأ سيادة القانون، وهي خطوة تمت معارضتها بشدة من قبل النخبة الحاكمة الأكثر فسادا والمستفيدة من الوضع الراهن.

وكما هي حال حكام الصين، يعرف آل سعود كيف يحافظون على بقائهم في السلطة بأي طريقة كانت. والترجمة الصينية لذلك، هو جلب رأس المال الغربي وسحق حركة «تيان آن مين». أما في السعودية فإن ذلك يعني مجابهة الأصوليين المتشددين، تماما كما فعل السعوديون من قبل، حين أرادوا إدخال الراديو وجهاز التلفزيون والسماح بتعليم المرأة. وكما فعل الصينيون، بإمكان السعوديين أن يحصلوا على تأييد أبناء الطبقة الوسطى- ليس برشوتهم فقط، بل بالدعاية أن لا بديل عنهم إلا الفوضى والخراب أو حكم الأصوليين المتشددين. كما تستبعد المدرسة الصينية أن يتعرض حكم آل سعود إلى الانهيار خلال ٥ سنوات من الآن، بدليل أنه وعلى مدى السنوات الخمسين الماضية، يظهر أحدهم خلال كل ٥ سنوات ويتنبأ بالشيء نفسه. على أي من المدرستين سأراهن؟ اسألوني بعد ٥ سنوات.

٢٠٠٢/٠٢/٢٧

جدار من سوء الفهم

بعد أن أمضيت الأسابيع الستة الأخيرة مسافرا بين مختلف الدول العربية والإسلامية، محاورا ومستفسرا عن أسباب ٩/١١، أصابتني الحيرة والاستغراب عندما علمت خلال عودتي بأن وزارة الدفاع (البنتاغون) قررت استحداث مكتب خاص لشن وترويج الدعايات الكاذبة من أجل إحراز نتائج مرضية في حربنا على الإرهاب. أما سبب حيرتي واستغرابي، فيعود بالأساس إلى حقيقة أنه يكفي لقضاء خمس دقائق في أي مكان من العالم العربي حتى تتأكد من أن أحداً لا يصدق أمريكا وهي تقول الحقيقة. مما يجعل من فكرة تخصص مكتب لنشر الدعايات الزائفة، فكرة سخيفة ومضحكة. (حسن الحظ تم العدول عنها).

أيها السيدات والسادة، لما هدم جدار برلين سنة ١٩٨٩، وجدنا على طرفه الشرقي الملايين من الناس المتقبلين للمثل والقيم الأمريكية. أما الآن، فأمامنا جدار آخر من نوع مختلف هذه المرة، لأنه غير مبني على الأرض بل هو محمول على رؤوس أصحابه، يعزل بين أمريكا والعالم العربي والإسلامي. وبخلاف جدار برلين، تقع مسؤولية بنائه على الطرفين، وبالتالي يجب أن يشتركا الآن في هدمه. بمجرد ان تحل في أي مكان هناك، كمصر أو السعودية أو باكستان، فإنك ستصطدم بهذا الجدار العازل. إذا قلت لهم إن السبب هو الإرهاب الإسلامي، سيقولون لك لا، بل العنف الإسرائيلي تجاه الفلسطينيين. وإذا قلت إن أمريكا حررت الأفغان من حكم طالبان، سيردون عليك بأن أمريكا قتلت مدنيين أفغان أبرياء في معرض ذلك. إذا قلت إن صدام شيطان سيقولون لك بأن شارون أسوأ. وإذا قلت لهم إن أمريكا رمز الديمقراطية، سيجيبونك بأنها بلد يسيطر فيه اليهود على إعلامه وسياسته. إذا قلت إن الرئيس بيل كلينتون خصص كل آخر فترته الرئاسية من أجل خلق دولة فلسطينية، سيردون عليك بأن أمريكا لم تقم بإظهار أي دليل على ذلك. وإذا قلت إن المشكلة هي انعدام الديمقراطية لديهم، سيردون عليك بأن أمريكا بالذات هي من يدعم ويحمي تلك الأنظمة الدكتاتورية. وبناء على تجربتي الشخصية، أنا لا أستغرب نتائج الاستفتاء الأخير الصادر الأسبوع الماضي عن مؤسسة غالوب، والذي أجري في تسع دول مسلمة - شكك ٦١٪ من المسلمين في أن يكون العرب من قام بتفجيرات ٩/١١، في حين نظر ٥٣٪ منهم إلى أمريكا نظرة سلبية.

على الملاحظ أن يتساءل كيف تم بناء جدار الأفكار الحديدي هذا؟ بأيادٍ كثيرة.

لنرَ ما قمنا به نحن. لقد قصرنا كثيرا بعدم تعريف العرب والمسلمين بأنفسنا. هل تطرق أي دبلوماسي أمريكي إلى الحروب التي خاضتها أمريكا خلال العقد الماضي من أجل إنقاذ مسلمين في كل من البوسنة وكوسوفو والصومال والكويت؟ هل شرحت أمريكا للعالم ماهية مبادرة الرئيس كلينتون للسلام التي رفضها ياسر عرفات، والتي كان من الممكن أن ينتج عنها قيام دولة فلسطينية على ما يقارب ١٠٠٪ مما طالبوا به من أراض؟

لا ينفك المسؤولون الأمريكيون ينوّهون بالروابط الخاصة التي تربطهم بإسرائيل كدولة ديمقراطية، إلا أنهم فشلوا في الاعتراض على بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة. هذه المستوطنات التي إن لم تتوقف ستتسبب في خلع صفة الديمقراطية عن إسرائيل وحرمان الفلسطينيين من الحصول على أي أرض يبنون عليها دولة خاصة بهم. هل سبق لنا أن قمنا بالترويج لقيمنا المتمثلة في الديمقراطية والحرية ومساواة المرأة في العالم العربي والإسلامي؟ طبعا لا. نحن قادرون على الترويج لمثل تلك القيم فقط مع الصين أو كوريا وليس مع دول نحتاج إلى نفطهم وقواعدهم، لذا لا غرابة في أن ينظر إلينا البعض هناك على أننا منافقون.

كما أن جانبا من اللوم يقع على عاتق أصدقائنا من الحكام العرب والمسلمين الذين سمحوا لصحافتهم أن تنشر أسوأ الأكاذيب عنا، والأفكار المعادية لليهود والمنكرة للهولوكوست كطريقة لتنفيس الغضب الجماهيري، هم أول من تسبب فيه. هذا ما يفسر استعداد هذه الأنظمة للتعاون معنا سرا فقط. لقد نجحوا في توظيف نظريات المؤامرة لصالحهم بشكل تجنبوا به أي شكل من المحاسبة أو المسؤولية، وتجنبوا مواجهة أي سؤال حول عجزهم عن تحقيق أي إنجاز أو عمل إنمائي يذكر بالرغم من الثروات النفطية الهائلة. مثلا، سيزور الرئيس المصري حسني مبارك واشنطن الأسبوع القادم، وسنرى كيف أنه سيهمس خافتا وشارحا كل الأشياء الجيدة التي تقوم بها بلاده سرا لمساعدتنا في الحرب على الإرهاب، وسنهمس في أذنه نحن بدورنا. لكن هل نحتاج إلى ذلك فعلا؟ كلا، نريد من السيد مبارك أن يعلن على الملأ برنامجا سياسياً تقدميا، بمثابة بديل عربي إسلامي يرد فيه على أسامة بن لادن. نريده أن يصلح من أمر مصر، ويكف عن الاعتداد بماضيها، ويقودها - والعالم العربي معها - نحو المستقبل. كما أننا نريد من الرئيس بوش أن يخطب في الشعب المصري والمجتمعات العربية مباشرة، لا أن يقتصر على التحدث إلى حكامهم، لأن المستقبل لا يعنيهم. حسني مبارك وجورج بوش، إبدآ بهدم هذا الجدار.

٢٠٠٢/٠٣/٠٣

جذور الغضب الإسلامي

بلغت حصيلة ضحايا أعمال العنف المتبادلة بين المسلمين والهندوس حوالي ٥٤٤ قتيلا، العديد منهم مسلمون. لماذا إذاً لم يحظ قتل الهندوس لمئات المسلمين إلا ببعض العناوين الباهتة في وسائل الإعلام العربية، بينما عندما تقوم إسرائيل بقتل بعض المسلمين في حرب يقتل فيها اليهود أيضا، تشتعل المنطقة بأسرها؟

أثير هذه النقطة هنا، لا لكي أعبر عن انتقاد غبي لما ينشر أو للدخول في حوارات عقيمة على الطريقة العربية. هذا موضوع بالغ الأهمية. لقد أصبحت أرد في الأسابيع الأخيرة على كل من يعبر لي عن أسفه لما يشاهده كل ليلة على الشاشة من معاناة وقمع يتعرض له الفلسطينيون على يد الإسرائيلين، بالسؤال التالي: كيف يمكن لك أن تتألم لما يتعرض له الفلسطينيون من عنف إسرائيلي، وتسكت في الوقت نفسه عن العنف الذي يمارسه صدام حسين مدمرا جيلين من العراقيين مستعملا الغازات السامة للقتل والترهيب؟. إلا أني لا أحصل على أي إجابة.

الإجابة على ذلك متجذرة في شيء أعمق، وتتصل بالتناقض الصارخ بين ما هو متداول بين المسلمين باعتبار دينهم الأفضل من بين الديانات السماوية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - وبين واقع الفقر والقمع والتخلف الذي يعيش فيه أغلب المسلمين اليوم. أو كما وصف ذلك بكل بلاغة دبلوماسي أمريكي في الشرق الأوسط حين قال بأن إسرائيل وليس العراق أو الهند «من يذكر المسلمين بحالة عجزهم الدائم» وإلا كيف يمكن لدولة صغيرة مثلها أن تكتسب كل تلك القوة العسكرية والاقتصادية إذا كان الإسلام - وليس اليهودية أو المسيحية - أفضل ديانة ربانية؟

لا حرج في قيام الهندوس بقتل المسلمين لأنهم يفوقون المليار شخص ولا يشكلون جزءا من العالم الإسلامي، كذلك حين يقوم صدام حسين بتقتيل أبناء شعبه لأنه ينتمي إلى العائلة، أما حين تقوم جماعة صغيرة من اليهود بقتل المسلمين تنطلق شرارات الغضب العارم الصادر بالأساس عن الإحساس المر بالخيبة لدى عامة المسلمين.

لقد تبين لي منذ زمن بعيد أن مصدر ذلك الغضب هو الشعور بفقدان الكرامة، وليس لأي سبب آخر، وهو ما يفسر أيضا حدة هذا الغضب والإحباط خاصة لدى الشباب المتعلم، الذين نفذوا تفجيرات ٩/١١، وذبحوا مراسل «وول ستريت جورنال»،

دانيال بيرل، بعد أن أجبروه على الاعتراف «بأنه يهودي وأن أمه يهودية» وسجلوا ذلك على شريط فيديو.

لكن كل هذا لا يعني إعفاء السياسة الأمريكية من أي لوم. لنا هفواتنا أيضا. لكن السؤال المحير هو لماذا ينفرد المسلمون دون سواهم بالرد على سياساتنا الخاطئة بتنفيذ تفجيرات انتحارية، ولماذا لا يقوم بذلك الصينيون أو المكسيكيون مثلا؟ وهل مرد ذلك إلى كون نظريات المؤامرة المتداولة لديهم تقر بضعف اليهود وقوة المسلمين وأن المسؤولية تقع على عاتق أمريكا التي خلقت ودعمت إسرائيل. وهذا أمر يحتاج إلى مراجعة نزيهة من قبلهم، وينظروا بكل أسف إلى ما حل بالمجتمع الفلسطيني، وكيف صار شبابه، زهرة المجتمع يحتفلون بالعمليات الانتحارية كمصدر وحيد لرد الكرامة المهدورة. نعم هناك احتلال إسرائيلي جعل حياة الفلسطينيين لا تطاق. لكن ماذا لو قال الفلسطينيون ما يلي: «سنعارض الاحتلال بأساليب سلمية كأن لا خيار لنا في ذلك، كما أننا سنمضي في بناء مجتمع فلسطيني، ونشيد المدارس ونبني الاقتصاد وكأننا لا نعيش تحت الاحتلال». كان بإمكانهم أن يؤسسوا دولة راقية منذ مدة طويلة، إلا أنهم في المقابل سمحوا للاحتلال بالتدخل في جميع تحركاتهم مما ساعد ياسر عرفات على التهرب من ممارسة الديمقراطية وإيجاد فرص للعمل.

المسلمون هم وحدهم القادرون على النهوض بواقعهم وما على الغرب واليهود بالتحديد إلا مساعدتهم في ذلك، لأن ذلك الغضب يشكل تهديدا جديا لوجود إسرائيل. خاصة إذا نظرنا إلى المعطيات التالية: حالة التقاتل الأعنف الدائر بين الفلسطينيين والإسرائيليين؛ فورة سكانية غير مسبوقة في العالم العربي والإسلامي حيث لا يتعدى نصف مجموع السكان سن العشرين؛ وأخيرا هذه الطفرة الإعلامية المتمثلة في انتشار قنوات تلفزية تعمل بالأقمار الصناعية وتعميم الإنترنت مما ساعد على النشر والتوزيع الفوري لصور ضحايا الانتفاضة عبر مختلف أصقاع العالم العربي والإسلامي. وفي حال تربّى ١٠٠ مليون شاب عربي ومسلم على تلك المشاهد، فسيكون من الصعب على إسرائيل البقاء.

على المرء أن يعترف بأن البعض من هذا الحقد سيظل مهما أبدت إسرائيل من حسن الأفعال. لكن في المقابل، القول بتوقف إسرائيل عن استفزازاتها، والتخلي عن سياستها الاستيطانية واغتصاب الأراضي، لا يساهم في التخفيف من حدة الكراهية تلك، هو قول خاطئ. وإسرائيل لا تستطيع أن تقوم بذلك بمفردها، لكن عليها أن تقوم بكل ما هو مطلوب للخروج من هذا الوضع الخانق، مما سيبعث على تهميش المتشددين

الأصوليين المعادين للسامية، وفي الوقت نفسه سيدفع بالمعتدلين الإسلاميين - وهم كثر - إلى الواجهة، لأنهم يدركون أن التطرف والغضب سيقضيان على حضارتهم برمّتها.
٢٠٠٢/٠٣/٠٦

ريح سموم

هناك شيء ما في الأفق خاصة وأن الصراع بين إسرائيل والفلسطينيين قد بلغ من العنف والضراوة درجة غير معهودة، مما يبعث على التساؤل عما إذا كان ذلك سيتسبب في اندلاع صراع حضارات على المستوى الكوني. وهو ما بات ملحوظا في شتى أنحاء العالم العربي والإسلامي. خاصة عندما تقوم القنوات التلفزية العربية وبدون نزاهة ببث ونقل صور العنف الذي يتعرض له الفلسطينيون، وحالة الاستياء العربي العام من الدعم الأمريكي لإسرائيل، ومن حملة التهديدات الأمريكية للعراق. مضافا إلى ذلك حالة شعور الشباب العرب باليأس والإحباط نتيجة انعدام الحرية وفرص العمل. وإذا ما التقت كل هذه العوامل مجتمعة، فستتسبب في ظهور أسوأ أشكال الكراهية لإسرائيل ولأمريكا بشكل لم نعهده من قبل. وهذا وضع في منتهى الخطورة، من شانه أن يشجع ويدفع على توخي طريقة بدأت في الانتشار - بدأت مع أسامة بن لادن وطورها الفلسطينيون بتفجير أنفسهم - كما أنها تحظى بمباركة كل من «حزب الله» وإيران وغيرهم من المتطرفين. أضف إلى هكذا وضع مشتعل وغير مستقر بالأساس، حالة الانفجار الديمغرافي والإرهاب، حينها يمكن للعرب أن يقدروا فعلا على تدمير إسرائيل. مما حدا ببعض الأصوليين إلى التوهم أنهم قادرون على إلحاق الأذى بأمريكا.

لقد أخبرني مسؤول مصري زائر، كان قد أجرى حوارا مع الطلبة العرب بشأن مصير السلام في الشرق الأوسط، كيف أن أحدهم قاطعه قائلا: «يكفي فقط توافر ثماني قنابل نووية بحجم حقائب اليد» لإزالة إسرائيل من الوجود. وحول هذا الموضوع بالذات علق ستيفن كوهين، خبير شؤون الشرق الأوسط قائلا: «السؤال المطروح هنا يتعلق بإمكانية تحقيق المتطرفين الفلسطينيين ما عجز عنه بن لادن، أي إشعال فتيل صراع حضارات. إذا كنت مستعدا للفداء بحياتك وحياة آلاف من بني وطنك، تأكد أن القوة الهائلة التي لأمريكا وإسرائيل لا تستطيع أن تردعك. نحن الآن بين كمّاشتي المتطرفين، إذ يبدو أنهم قادرون على امتلاك هذه القوة التدميرية الهائلة، قبل أن تتمكن

الأغلبية المعتدلة من التوصل إلى بديل. مما يجعل تجاهل هذه الحرب الإسرائيلية- الفلسطينية وكأنها مجرد نزاع عرقي محلي. إنه صراع يمس العديد من الملايين الذين يتابعونه عن قرب عبر العديد من محطات الأقمار الصناعية التلفزية، مما يجعلها سلاحا بالغ الخطورة».

ما زلت أعتقد أن الكثير من الفلسطينيين والإسرائيليين والأمريكيين لا يريدون هذه الحرب، ولكن إلى أن تتمكن هذه الأغلبية الصامتة من تحدي الأقلية المتطرفة المتشددة والنشيطة، ربما بعد فوات الأوان. لذا يجب أن نضع ونحدد خياراتنا بكل وضوح: إما أن تكون لدينا حرب أهلية في كلا المجتمعين؛ حيث تقوم إسرائيل باقتلاع جذور معظم المستعمرات اليهودية، وتقوم السلطة الفلسطينية باقتلاع جذور حماس، فيما تتولى الأنظمة العربية أمر أصولييها. وإلا فإننا سنواجه صراع حضارات مدمراً، يتم جر الولايات المتحدة إليه، وهو ما يجب علينا تجنبه بأي شكل.

حين كان إسحاق رابين، في أواسط التسعينات، مستعدا لاقتلاع تلك المستعمرات، تم اغتياله. في تلك الفترة نفسها هاجم ياسر عرفات حركة حماس، وبادرت ثماني دول عربية إلى بدء علاقات دبلوماسية وتجارية مع الدولة اليهودية، بدا الأمر ولو لوهلة قصيرة وكأن الإسرائيليين والمعتدلين العرب بدأوا بالتعاون على لجم المتطرفين في كلا الجانبين.

لم تقتصر المبادرة السعودية على تحسين صورة المملكة العربية السعودية، التي تضررت كثيرا من جراء تفجيرات ٩/١١. بل لأن الأمير عبد الله كان قد شعر وفهم بكل وضوح أنه إذا ما لم يتقدّم المعتدلون العرب بمبادرة سلام من تلقاء أنفسهم، فإن ذلك من شأنه أن يجرّهم إلى التصادم مع الولايات المتحدة. إلا أنه يمكن إدراج خطاب الأمير عبد الله بمثابة محاولة عربية لمراجعة الذات عقب ٩/١١، ومصلحة الأمريكيين كبيرة جدا في انتصار المعتدلين العرب. وهو نجاح مرهون بمدى الدعم الذي ستقدمه كل من الولايات المتحدة وإسرائيل، وبقية العرب. فمع وجود كل ذلك التأييد العربي الواسع والصامت لبن لادن، بات من الصعب جدا التمييز بين المتطرفين والمعتدلين في تلك المنطقة من العالم مما يشكل تهديدا جديا للأمن والاستقرار في العالم. ثمة جدل دائر في إسرائيل وفي صفوف اليمين اليهودي المتطرف في أمريكا بأن ما يحدث حاليا هو بالفعل صراع حضارات، وأن الشيء الوحيد المطلوب هو تقتيل وإبادة الفلسطينيين حتى يرضخوا ويسلموا بالواقع. وفي حال انتصر أصحاب هذه النزعة العدوانية في كل من أمريكا وإسرائيل، فإن ذلك من شأنه أن يؤدي بالفعل إلى تدمير إسرائيل. لأنه كلما

تمادينا في قتل المزيد من المسلمين بشكل يفوق بكثير القتلى اليهود كان ذلك دافعا أكثر للحصول على أسلحة الدمار الشامل التي صارت متوفرة بأحجام أصغر وكلفة أقل. حينها لن يمضي وقت طويل على مثل ذلك الطالب الذي حدثني عنه صديقي المصري، حتى يحصل على قنابله الذرية الصغيرة ويمسح إسرائيل من الخارطة. هل فهمتم الآن ما أقصد؟

٢٠٠٢/٠٣/١٠

مبادرة الأمير عبد الله

عندما زار الرئيس المصري حسني مبارك واشنطن الأسبوع الماضي، نوّه خلال المؤتمرالصحفي الذي عقده في البيت الأبيض، بالجوانب الجديدة في مبادرة ولي العهد السعودي الأمير عبد الله، وقال: «هذه المرة الأولى التي يعلن فيها السعوديون عن استعدادهم لتطبيع العلاقات مع إسرائيل إذا تحقق السلام. وهذه مسألة تتطلب منا أن نوليها اهتماما خاصا». كما ركز مبارك على أهمية أن يقول قائد سعودي، باللغة العربية والإنجليزية عندما يتحدث إلى وسائل إعلامه الوطنية، إنه مستعد لتطبيع العلاقات بالكامل مع الدولة اليهودية، بما في ذلك من إقامة علاقات تجارية ودبلوماسية وسياحية، مقابل الانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة. وهو أمر جدير بالانتباه ومثير للاهتمام. لكن هل ستتبنى الجامعة العربية الصيغة التي تقدم بها الأمير عبد الله؟

سبق لوزراء الخارجية العرب أن التقوا بالقاهرة للتحضير لاجتماع القمة المزمع عقده في بيروت، يومي ٢٨ و٢٩ مارس (آذار) الحالي، حيث من المتوقع أن تجري مناقشة وتعديل المقترح السعودي. كما تم توجيه الأسئلة إلى وزير الخارجية السعودي، سعود الفيصل حول بنود تلك المبادرة. وكان رده أنه إذا انسحبت إسرائيل إلى حدود ما قبل ١٩٦٧، وقامت دولة فلسطينية عاصمتها القدس، فإن الجامعة العربية ستقدم لإسرائيل «سلاما كاملا». لقد شرخت تلك الجملة أذني، ماذا يقصد بـ«السلام الكامل؟». الكلمات مهمة جدا هنا. لم يقترح الأمير عبد الله «سلاما كاملا»، بل قال «التطبيع الكامل للعلاقات» وهناك فارق شاسع بين كلا التعبيرين. سل حسني مبارك عن ذلك. لقد أمكن لسورية أن تعيش في «سلام كامل» مع إسرائيل من دون أن تتبادل معها أي علاقات. هل تراجع السعوديون عن موقفهم؟. المسألة غير واضحة حاليا.

لكن ما هو واضح الآن هو ذلك الجدل الدائر ضمن الجامعة العربية، بل وداخل المملكة العربية السعودية بالذات حول تلك المبادرة السلمية، ينشط المحافظون داخليا وخارجيا لتعطيل وعرقلة ذلك المقترح قبل أن يتم عرضه على التصويت في القمة. لكن هل سيسمح لهم الأمير عبدالله بتحقيق ذلك؟

يدور ذلك الجدل الساخن بين ثلاثة أطراف مختلفة؛ الأول، هو تيار أسامة بن لادن الذي لا يعترف ولا يقر بأي حق لإسرائيل في الوجود، كما أنه لا يرى أي مكان لتواجد «كفار» آخرين، خاصة الأمريكيين، في هذا العالم الإسلامي. الطرف الثاني، يتمثل في موقف السوريين، الذين يريدون أن يبرهنوا أنهم قادرون على الحصول من إسرائيل بمثل ما حصل عليه أنور السادات، لكن دون تنازلات تذكر، أي ألا يلتزموا بقيام أي علاقات دبلوماسية أو تجارية أو سياحية. أما الطرف الثالث، يتبنى موقف الأردن ومصر - مضافا إليهما الأمير عبد الله-، القائل بأن الطريق الوحيد للسلام يتمثل في الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي الفلسطينية مقابل القبول بإسرائيل كدولة يهودية باعتبارها واحدة من دول المنطقة. وهذا يعني تطبيع العلاقات.

يكتسب هذا الجدل أهمية خاصة لأنه يدور حول قضية أهم بكثير من العلاقات العامة، بل ويتجاوز كونها حول مجرد مبادرة سلمية. بل هذه معركة حول أي من الرؤى ستحكم مسار السياسة العربية وتحدد مسارها المستقبلي. وإذا ما نجح المتشددون في إعاقة أو عرقلة مبادرة الأمير عبد الله، فإن ذلك سيعد بمثابة إشارة واضحة على عدم إمكانية قيام سلام بين إسرائيل والفلسطينيين، وبالتالي من غير الممكن القبول بالدولة اليهودية حتى لو نفذت كل ما طلبه العرب منها. كما أن ذلك يعني أن التيار الرافض، هو من يتولى القيادة في العالم العربي، وأن ماضي العرب سيظل يدفن مستقبلهم.

لذا، فالقضية الحقيقية المطروحة على القمة العربية هي: هل يستطيع العرب الرد على بن لادن بتقديم بديل ورؤية جديدة؟ هل يستطيع العالم العربي والإسلامي أن يبدي استعدادا للتصالح مع التعددية والتعايش مع دولة يهودية؟ أم هل سيظل العالم الإسلامي نقيا من تواجد كل الكفار؟. إن عالما عربيا لا يقبل تعددية الشعوب، لا يمكن أن يقبل بتعددية الأفكار، وإذا لم يكن العالم العربي بقادر على تعددية الأفكار، فإنه لن يتقدم وسيبقى محافظا على عدائه للغرب ولإسرائيل.

ومن ناحية أخرى، يتحتم على إسرائيل أن تنفذ ما هو مطلوب منها وتنسحب إلى حدود ما قبل ١٩٦٧. لقد آن الأوان للجامعة العربية أن تتحلى بالواقعية. في الماضي طالب أنور السادات بالانسحاب الكامل، وحصل على ما أراد. إلا أن ذلك لم يتم

لمجرد كون السادات طالب به، بل لأنه أقدم على كسر حاجز سيكولوجي رهيب لدى الإسرائيليين، وهذا ما أغرى العديد من الإسرائيليين حاليا، كون الأمير عبد الله وعدهم «بتطبيع كامل» للعلاقات. هذه عبارة تحتاج إلى تفسير وتفصيل. أرجو ألا يتم تقزيم وتقليل دور الجامعة العربية حتى لا تعتبر هذه المبادرة بمثابة جهد ضائع.

٢٠٠٢/٠٣/١٣

كيف نكسب حلفاء؟

شهدت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية هيمنة أمريكية على العالم شبيهة بتلك التي نعيشها اليوم. مع فارق وحيد كون الولايات المتحدة لم تثر غضبا كونيا عليها كما نشاهد حاليا. لماذا؟ ربما يرجع ذلك إلى كون العالم كان جاثيا على ركبتيه حينها بفعل الدمار الذي ألحقته به الحرب، ولكن الأهم من ذلك أن تتحمل أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية مسؤولية جعل العالم أكثر أمنا وأفضل مما كان عليه سابقا متحملة كلفة باهظة للقيام بذلك، وهذا ما يفسر بعثها لمشروع مارشال. ومنذ وقوع تفجيرات ٩/١١، بذل فريق الرئيس بوش الكثير من الجهد لجعل العالم أكثر أمنا، من دون أن يسعوا إلى جعله أكثر عافية وأقل فقرا وأفضل بيئة. لذلك لا نستغرب من كون هذا العالم أكثر خطرا بالنسبة للأمريكيين.

وفي هذا الإطار يندرج إعلان الرئيس بوش في خطابه يوم الخميس الماضي، زيادة العون المقدم للدول الفقيرة بمبلغ ٥ مليارات دولار. لقد كان إعلانا مهما، لأن أهميته لا تنبع من كونه إنجازا حيا وملموسا لإدارته، بل لما لهذا القرار من آثار سيكولوجية إيجابية. وكما سبق للرئيس بوش أن أشار إلى أن العالم تغير منذ ٩/١١، إلا ينه ما انفك يبرهن المرة تلو الأخرى على أن منهجه القيادي القديم والمتبع قبل وقوع أحداث ٩/١١، لم يتغير أو يتبدل، بل العكس، ها أن الرئيس بوش يقول لنا إن منهجه هو المنهج الوحيد والأصلح لمعالجة قضايا عالم اليوم. وهكذا نجده يقوم بمنح تخفيضات ضريبية للأغنياء، ويزيد من معدلات الإنفاق العسكري - كمشروع الدرع الصاروخي - الذي لن يحمينا من مثل هجمات ٩/١١. إضافة إلى الإسراف والتبذير الحكوميين بمحاولة التنقيب عن النفط في كل متاهة نستطيع الوصول إليها. كما كان واضحا أن بوش لا يعير أهمية كبيرة للفكرة القائلة بأن محاربة الإرهاب تتطلب خطة استراتيجية متعددة الأبعاد وليس مجرد إنفاق عسكري فحسب. ولعل هذا ما يجعل الترحيب بخطابه

ذاك أمرا هاما بوجه خاص. لذلك سنعرف ما إذا كان هذا الخطاب بمثابة تعبير فريق بوش عن إيمانهم بأننا لم نعد نملك قلاعا خاصة نختفي بداخلها، وأننا نعيش في عالم مترابط ومتداخل، لا يمكننا كسب حرب ضد الإرهاب فيه بدون مساعدة ودعم حلفاء حقيقيين من مختلف بقاع العالم. كما أنه لا يمكننا العثور على مثل هؤلاء الحلفاء إلا إذا تتبعنا خطى مهندسي مشروع مارشال؛ أي أن نتصرف وفقا لما يخدم مصالحنا البعيدة المدى لا مصالحنا الآنية المحدودة. لقد تمكن فعلا أولئك الرجال الحكماء من إقناع الآخرين باتباعنا، ليس خوفا منا بل احتراما لحكمتنا وفعاليتنا.

لم يوجه إرهابيو ٩/١١، ضربتهم لنا لأنهم كانوا فقراء، ومع ذلك رأينا كيف أن ملايين البشر من الفقراء منحوهم تأييدهم الضمني كرد فعل طبيعي نابع من حقدهم على شراهتنا وتأييدنا لأنظمتهم الفاسدة. لذلك كان من الحكمة أن يعلن الرئيس بوش أن المساعدات الخارجية المتزايدة ستكون مشروطة، وستذهب إلى تلك الدول التي تحسن التصرف فيها، وتسعى لاكتساب نظام حكم فعال يؤمن بسيادة القانون والضمان الاجتماعي وتحارب الفساد بفعالية مما سيجلب الاستثمارات نحوها. كما أننا لا نستطيع أن نفرض على كل الحكومات أن تجري انتخابات، لكننا بالتأكيد نستطيع أن نستخدم معوناتنا كأداة ضغط على تلك الدول النامية كي تمنح شعوبها قدرا أكبر من المشاركة السياسية، ومساحة أوسع واحتراما أكبر لحكم القانون، مما سينجم عنه تحصيلها نصيبا أوفر من الثراء المادي، وهذه هي الأولويات الحقيقية بالنسبة لهذه الشعوب. ولا يجب أن نغفل بعض الشواهد والدلائل التي من المفروض أن نسترشد بها، فإذا كان الإسلام يبدو وكأنه دين غاضب حاليا، فذلك لأن كثيراً من المسلمين غاضبون. والسبب في ذلك أنهم يعيشون تحت قبضة أنظمة دكتاتورية تدعمها وتحميها الولايات المتحدة، كما أنهم يعانون من اقتصاديات متردية وفرص عمل منعدمة لاستيعاب الأجيال الشابة منهم.

لكن بالإضافة إلى المعونات يجب أن نبرم أكثر عدد ممكن من الاتفاقيات التجارية مع أغلب الدول الإسلامية، بدلا من تشييد حيطان الحماية المعتوهة حول صناعة الصلب الأمريكية مثلا. في مؤتمر دافوس لاحظ أحد الباحثين أن الدول الإسلامية تمثل ٢٠٪ من مجموع سكان العالم كان نصيب الدول الإسلامية مجتمعة من التجارة العالمية لا يتعدى نسبة الـ ٤٪. وتبادل السلع يصاحبه دائما تبادل الأفكار. ولا غرابة في كون أكثر المناطق انفتاحا حاليا هي مراكز تجارية؛ دبي، إسطنبول، البحرين، عمان، بيروت، كوستاريكا والساحل الهندي. ولكن مصالحنا القومية لا تتعلق بالكرم وحده، بل تتعلق بضبط النفس كذلك. نحن نحتاج إلى تنقية الأجواء بعد الضجة التي أثيرت

حول رفضنا لاتفاقية كيوتو. إذ إن ذلك سيرسل العديد من الإشارات الإيجابية الضخمة للعالم أجمع، تقول إن أمريكا تعي تماما حاجتها إلى حلفاء دائمين في حربها ضد الإرهاب، وما عليها إلا أن تتحلى بكل الفضائل الممكنة التي من شأنها أن تجعل منها مواطنا عالميا يحتذى به. لئن اعتقدنا أنه من حقنا أن نستهلك ٢٥٪ من مجموع ما ينتجه العالم من الطاقة في الوقت الذي نمثل فيه ٤٪ فقط من مجموع سكان العالم، فإن ذلك يعد غرورا وانانية مفرطة البشاعة. وكما خاطب الرئيس بوش العالم قائلا: من لم يكن معنا فهو ضدنا. عليه أن يتذكر بأن العالم يوجه لنا العبارة نفسها.

٢٠٠٢/٠٣/١٧

ما العمل؟

بصراحة لا يمكن للولايات المتحدة أن تحقق أي سلام في الشرق الأوسط، سواء أرادت أن تغزو العراق أو أن تقوم بأي شيء آخر، إلا إذا قامت بوضع قوات عسكرية بشكل دائم في كل من إفغانستان وإسرائيل.

نعم أنا جاد فيما أقول. لأن منطق الأمور يقول وبكل بساطة، إنه من الصعب على الولايات المتحدة أن تنجح في إسقاط صدام حسين إذا لم تقدم على تحقيق السلام في كل من أفغانستان وفلسطين. نحن لا نريد أن نجعل من أفغانستان سويسرا ثانية، بل كل ما نحتاج إليه هو أن نجعل منه بلدا يحظى بقليل من الاستقرار، قليل من الاحترام، وقليل من الازدهار على عكس ما كان عليه أيام طالبان. وفي حال أننا عجزنا عن تحقيق هذا الحد الأدنى من الإنجازات، سوف يكون من المستحيل علينا اكتساب أي مشروعية أو مصداقية أو تلقي أي دعم ومساندة في حملتنا على العراق. كما أن أفغانستان سترجع فورا إلى أسوأ ما كانت عليه قبل ٩/١١، وستتحول إلى مستنقع يلتهم كل مجهوداتنا المخصصة لمحاربة الإرهاب إلى ما لانهاية. فقط يمكننا تجنب ذلك حين نقوم بوضع قوات عسكرية على الأرض هناك، تقوم بدعم الحكومة الجديدة في كابول كما تعتبر تلك القوات بمثابة صمام أمان وقوة طليعية لمحاربة الإرهاب بفضل ما نحصل عليه من دعم لوجيستي من حلفائنا في المنطقة.

الأمر نفسه ينطبق على الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، محنتنا الحقيقية. لأنه يستحيل على إسرائيل أن تستمر في احتلالها للأراضي المحتلة وتبقى دولة يهودية

ديمقراطية. وفي المقابل لا يمكن الوثوق بالسلطة الفلسطينية في حال قامت إسرائيل بالانسحاب. من منا يثق بياسر عرفات ليكون صاحب سلطة مجاورة له؟ لذا فالحل الوحيد يتمثل في انسحاب إسرائيلي يتم على مراحل من الضفة الغربية وقطاع غزة وتحل قوات فلسطينية أمريكية مشتركة للقيام بالمهام الأمنية ومراقبة الحدود ومناطق العبور ومنع استيراد أي أسلحة ثقيلة من شأنها أن تجعل من الأراضي الفلسطينية قاعدة لشن هجمات عدوانية على إسرائيل. أما الأماكن المقدسة في القدس كالحرم الإبراهيمي، فإنها ستحظى بحماية قوات أمريكية خاصة ويحتفظ الفلسطينيون بتسيير شؤون السيادة والإشراف على الإماكن الإسلامية، ويحتفظ اليهود بتسيير أماكن العبادة الخاصة بهم.

إن المشكلة تكمن في كون الفلسطينيين والإسرائيليين لا يمتلكون لا الإمكانيات ولا الثقة المتبادلة الكافية للتوصل إلى أي حل لهذه المشكلة، خاصة بعد انهيار محادثات أوسلو. وفي المقابل لا يمكن للولايات المتحدة أن تستمر في تجاهلها لما يجري وتتركهم يقتلون بعضهم البعض مما تسبب في فقدانها لأي مصداقية في منطقة الشرق الأوسط، وفي لوم المسلمين المتزايد لنا على ما تقترفه إسرائيل من أجل حماية نفسها. وهذا كله سيتسبب في النهاية في المزيد من العمليات الانتحارية التي ستصلنا يوما ما. حينها سيصبح من المستحيل على أمريكا أن تقدم على أي عمل عسكري من أجل الإطاحة بصدام حسين. وما على الداعين إلى لجوء إسرائيل إلى المزيد من القوة العسكرية للقضاء على أي مقاومة فلسطينية للتخلص نهائيا من هذه المشكلة إلا أن ينتبهوا لما حدث الشهر الماضي. لقد تمكن الفلسطينيون من تدمير دبابتين إسرائيليتي الصنع من نوع ميركافا مستعملين قنابل محلية الصنع شديدة التطور وألغام أرضية ضربوا بها تلك المدرعات في الأجزاء السفلية مما صدم العديد من الجنرالات الإسرائيليين.

كما أن ما لا يفهمه مثل هؤلاء الصقور هو أنه كلما طال أمد الصراع طوّر الفلسطينيون من قدراتهم القتالية، كظاهرة تاريخية معروفة تصاحب كل صراع عسكري بين جيش فائق التقنية وقوى أخرى أقل عصرنة منه. وهو ما حدث تماما مع حزب الله اللبناني والجيش الإسرائيلي الذي اضطر بالنهاية إلى الانسحاب الانفرادي من الجنوب اللبناني وبدون أي شروط، مما أدى إلى تدني عدد الضحايا بنسبة واحد من عشرة.

بإمكان إسرائيل أن تقتل الفلسطينيين كما تشاء، إلا أن ذلك سيضاعف من محنتها الأساسية - لا يمكنها أن تستمر في احتلالها للأراضي الفلسطينية وتبقى دولة يهودية ديمقراطية في الوقت نفسه. والطريق الآمن الوحيد لانسحابها من هناك هو حلول قوات أمريكية محلها، مما سيساعد على قيام دولة فلسطينية، هذا إذا كان الأمريكيون اليهود

مهتمين فعلا بمستقبل إسرائيل، وكان الحكام العرب معنيين فعلا بمستقبل الفلسطينيين وإذا كان صقور الإدارة الأمريكية يريدون فعلا التخلص من صدام حسين. هذا ما يجب عليهم أن يفعلوه؛ أن يضغطوا على الرئيس بوش ويطالبوه بتنفيذ ما تقدم ذكره.

٢٠/٠٣/٢٠٠٢

لا إرهابيين بعد اليوم

هناك رمزية ظاهرة فيما قامت به إدارة الهجرة والتجنيس، بأن بعثت برسائل تضمّنت موافقة على تمديد تأشيرات الإرهابيين محمد عطا ومروان الشيحي، وهذه الرسائل أرسلت إليهما إلى مدرسة الطيران التي كانا يدرسان بها في فلوريدا، تحديداً بعد مرور ستة أشهر على مجزرة ٩/١١، التي نفذاها. الرمزية تتمثل في نسياننا الفوري لبعض النواحي المهمة جدا المتعلقة بتلك الهجمات. فلماذا لا تنسى وكالة الهجرة والتجنيس هذه الحقائق هي بدورها؟ نعم لقد اتسمت تلك الاعتداءات بصفة خاصة جدا، ولم تكن مجرد اعتداءات إرهابية.

إن الإرهابيين الحقيقيين لا يرغبون فعلا في قتل أعداد غفيرة من الناس، بل هم يستخدمون بالأحرى قدرا محدودا من العنف أو عملية الخطف، لخلق الضجيج وإشاعة الخوف والرعب لجلب أكبر قدر من الانتباه لمصلحة القضية التي يطالبون بها. وهم بالنهاية يرمون من وراء كل تلك الأفعال، إلى ممارسة نوع من الضغوط الدبلوماسية أو السياسية من أجل تحقيق أهدافهم المعلنة.

هذا ما يدفعنا إلى القول بأن أسامة بن لادن ليس إرهابيا فحسب، بل للرجل أهداف أكثر طموحا من مجرد زرع الخوف. إنه رجل غاضب، ويملك إمكانيات قوة عظمى، وينادي بمطالب وله نزعات تشبه تماما أي دولة وطنية. فهو لم يتوّخَ العنف فقط من أجل أن يستحوذ على العناوين الرئيسية في وسائل الإعلام. نعم، لقد أمر بقتل عدد كبير من المواطنين الأمريكيين، لأنه يريد أن يطرد الولايات المتحدة من العالم الإسلامي، وبالتالي إضعافها كدولة ذات مصالح كونية. هذا ما يفسر لماذا لم يترك أي من الانتحاريين أي قائمة مطالب وراءهم شأنهم شأن بقية الحركات الإرهابية الأخرى، فعلتهم كانت هي مطلبهم. فقط لأنهم لا يقبلون بأقل من النصر الكامل. إن العامل الأساسي الذي مكن بن لادن، هذا الرجل الغاضب القوي، من تحدي قوة عظمى

كأمريكا، هو قدرته الخارقة على اختراع نظم لإطلاق صواريخ خاصة به قادرة على منافسة نظمنا نحن. مع اختلاف وحيد هو كون صواريخنا تنطلق إلكترونيا في حين أن صواريخه تنطلق بشريا؛ ١٩ شابا عربيا متعلما، مستعدون لاختطاف طائرات مدنية وقيادتها لضرب أهداف كبرى في عمليات انتحارية. هنا يجب علينا أن نتذكر أنه كان بإمكان أحداث ٩/١١، أن تكون أسوأ بكثير مما كانت عليه. لأنه من الممكن جدا أن يحمل أحد صواريخ بن لادن سلاحا نوويا. والسبب الوحيد في عدم وقوع ذلك أن الإرهابيين لم يتمكنوا من الحصول على تلك الأسلحة. ولمّا كان الأمر كذلك، وجب على الولايات المتحدة أن تتعامل مع هذا الحدث بطريقتين؛ أولا وقبل كل شيء يجب أن نعرف على وجه التحديد من هم هؤلاء وكيف تم تجنيدهم. علينا أن نعرف الطريقة التي تم بها تجميع هذه الصواريخ البشرية. ثانيا، علينا أن نبذل جهدا عالميا كي نتأكد من أن جميع الأسلحة النووية والبيولوجية خاضعة فعلا لرقابة شديدة وصارمة. وكما قال غراهام أليسون، أستاذ الاستراتيجيا التاريخية بجامعة هارفرد: «تاريخيا كانت هناك فجوة عميقة بين حالة الغضب التي تصيب الأشخاص، وما يمكن أن يفعلوه تحت تأثير ذلك الغضب. ولكن بفضل التقدم التقني المعاصر، وما صاحبه من استعداد وقابلية الكثير من الناس للانتحار، صار بإمكان بعض هؤلاء الغاضبين أن يقوموا بقتل ملايين الناس إذا ما توفرت لهم الوسائل الكفيلة بذلك. كما أنه من المستحيل أن نقدر على جعل هؤلاء الغاضبين يبدلون نواياهم بين عشية وضحاها، ولكننا نستطيع أن نضمن أن الأسلحة الفتاكة التي تهدد وجودنا مغلقة وبإحكام في أماكن مثل فورت نوكس».

هذا يعني تحديدا استثمار المزيد من الجهد والمال للعمل مع روسيا لضمان مخزونها النووي، وذلك لأن روسيا وأمريكا يملكان معا ٩٩٪ من المخزون العالمي من الأسلحة النووية والبيولوجية. وبعد أن نقوم بذلك مع روسيا علينا أن نركز على الصين والهند وباكستان وإيران والعراق. ومن سوء الحظ أن فريق الرئيس بوش يركز على العراق فقط متجاهلا بذلك بقية الدول الأخرى. وعندما أقول ذلك لا أعني أن العراق لا يشكل مشكلة لنا، بل كل ما أعنيه أنه لا يحتل رأس القائمة برأيي. إن ما يزعجني أكثر من سواه عندما أفكر في مصير ابنتي، ليس صدام حسين. بالرغم من كونه طاغية مدمن على أعمال الإبادة الجماعية، إلا أنه يمكن الرد عليه بوسائل الردع التقليدية. لكن ما يزعجني هو أننا إلى الآن لا زلنا نجهل من هم أولئك الانتحاريون الـ١٩. كما أني منزعج أنه وعلى امتداد الأشهر الستة الأخيرة، هناك رجال ونساء- فلسطينيون وفلسطينيات- كثيرون منهم علمانيون، يضعون أحزمة ناسفة حول خصورهم ويفجرون

أنفسهم ضد أهداف إسرائيلية. كيف يمكنك أن تردع أشخاصا مثل هؤلاء؟ أناس يتجاوز كرههم لنا ولإسرائيل أكثر من حبهم لأسرهم ولمستقبلهم.

لمعالجة مثل هذه النوايا نحتاج إلى مجهودات دبلوماسية كبير جدا ووقت طويل. أما كل ما نقدر عليه الآن هو خفض القدرة التدميرية لهؤلاء الأفراد. وهذا أمر لا يخصنا نحن وحدنا. وفي حال تم تعميم هذه الأعمال الانتحارية، فإن الأنظمة العربية كلها لن تكون بمنأى عنها بأي حال من الأحوال. لأنه ومتى شعر هؤلاء الأفراد بنجاعة أساليبهم المرعبة، لن يقتصروا في استخدامها على «الكفار» وحدهم، بل سيتوجهون بها وبدون أدنى شك إلى حكامهم. وهذا ما سيؤثر سلباً على الفلسطينيين، لأن الطريقة التي ستولد بها دولتهم ستؤثر في شكل تلك الدولة في المستقبل. لأن أي دولة تولد بمجهود انتحاري ستبقى مشوهة إلى الأبد. وفي حال أصبحت مثل هذه الأفعال عادية ومنتشرة في عالمنا المعاصر والمتداخل الأطراف والمصالح، فإن ذلك سيؤثر على أبنائي وأبنائك، على نحو يجعل من المشاكل التي يثيرها العراق وكأنها مجرد نزهة على الشاطئ.

٢٠٠٢/٠٣/٢٤

المعادلة الصعبة

لنعالج معا هذه المعضلة المحيرة: تلقيت العديد من الرسائل الإلكترونية من أصدقاء سعوديين ومصريين يحثونني فيها على كتابة مقال عن الشاعر السعودي الذي كتب قصيدة تعرّض فيها لفساد القضاء في العربية السعودية.

بدأت القصة حين قام الشاعر السعودي عبد المحسن مسالم، بنشر قصيدة له في جريدة «المدينة» تحت عنوان «المفسدون في الأرض»، والتي قال فيها بجرأة وصراحة غير معهودتين ما يلي: «من المحزن ما يجري في العالم الإسلامي اليوم، حيث تم تحريف العدالة عن طريق بعض القضاة الذين لا يهمهم أي شيء سوى حساباتهم البنكية ومكانتهم لدى حكامهم. . . لحكام ملطخة أيديهم بالدماء. أنتم تسعون إلى خدمة حكام طغاة ولا تطيعون احدا سواهم». وبالنتيجة لم يقم وزير الداخلية السعودي بإلقاء السيد مسالم في السجن فقط، بل تم فصل السيد مختار الفال عن عمله كرئيس تحرير للجريدة التي نشرت تلك القصيدة. وهنا تكمن المعضلة الأخلاقية التي وجدت نفسي فيها. أنا المدافع عن حرية الراي أينما كان، فما بالك بالمملكة العربية السعودية.

لقد حدث أن اجتمعت صدفة بهذا الشاعر أثناء زيارتي الأخيرة للسعودية، ولاحظت وجود ملامح أخرى لحرية التعبير عن الرأي لديه. وكما يذكر القراء، لقد سبق لي وأن تحدثت في مقالة سابقة كيف أني انسحبت من حلقة نقاش دارت بيني وبين بعض السعوديين في مقر أحد الجرائد السعودية، وكان انسحابي حينها علامة احتجاج لمقولة أن «اليهود يحكمون أمريكا». لقد كان ذلك في مقر جريدة «المدينة»، والشخص الذي قال لي ذلك، هو السيد مسالم عينه (حينها قام رئيس التحرير، وهو شخص طيب، بالاعتذار نيابة عنه. كما أرجو أن تتم إعادته إلى عمله قريبا). ما العمل إذا؟

الشيء الوحيد الممكن هو الاتصال بالمسؤولين السعوديين والمطالبة بإطلاق سراح السيد مسالم ليس حبا له، بل لأن أي دولة تخاف من مجرد قصيدة هي دولة مهزوزة بالأساس واستبدادية تماما كما تقول تلك القصيدة. يجب الرد عليه لكن ليس برميه في السجن. وهذه معضلة صغيرة تقود إلى مأساة أكبر، فجميع الحكام العرب المؤتمرين في القمة العربية التي هي بصدد الانعقاد في بيروت، هم حكام يفتقرون إلى أي شكل من أشكال الشرعية، ولم يُنتخَب أي من هؤلاء الحكام الـ ٢٢ بشكل ديمقراطي نزيه. لذلك يتساءل بعض الخبراء كالآتي: لماذا ننادي بممارسة العمل الديمقراطي وحرية الرأي والنشر في تلك المنطقة من العالم، في الوقت الذي نعلم فيه أنه لو يسمح للبعض بالوصول إلى السلطة ديمقراطيا أو للكتابة بحرية، فإنهم سيتخذون مواقف معادية لنا تماما؟ وبالنهاية، صحيح أننا لا نتفق مع حاكم مصر، حسني مبارك أو حكام السعودية على الكثير من الأمور إلا أنهم يعتبرون أكثر ليبرالية وخضوعاً للأمريكيين من الكثير من مواطنيهم. هذا صحيح، لكن أحداث ٩/١١، كشفت مدى خطورة تلك المراهنة. ذلك أنه تم القبول بهؤلاء الحكام المعتدلين الخاضعين لنا على حساب رضا وحرية شعوبهم المقموعة و المحبطة والمكبلة بجميع أشكال الفساد والغاضبة جدا من حكامها ومنا على السواء. إن الاستقرار في تلك المنطقة يعني أن تقتصر حرية التعبير-التي سمحت بها تلك الأنظمة- على مهاجمة أمريكا وإسرائيل فقط.

في نهاية المطاف، نشرت جريدة «الرياض» مقالة لدكتور سعودي ادعى فيها أن لليهود عيداً يحتفلون فيه بأكل خبز تم عجنه بدماء شاب مسيحي أو مسلم. ومع ذلك لم يُطرد رئيس تحرير جريدة «الرياض» من وظيفته. حاليا، تقتصر حرية الصحافة وحرية التعبير في العالم العربي على مهاجمة إسرائيل وأمريكا فقط، وهي ممارسة مدروسة بإتقان كي تجنّب حكام تلك المنطقة أي نقد أو محاسبة.

وفي هذا الصدد قال لاري دايمون، الخبير في مسائل الديمقراطية لدى جامعة

ستانفورد: «لا مخرج من هذه الأزمة في العالم العربي، إلا بالإقدام على انفتاح سياسي. ولكن ذلك لا يعني البدء في إجراء انتخابات الآن. بل كل ما نحتاج إليه حاليا هو انفتاح سياسي يتزامن مع إصلاح اقتصادي مما سيؤدي إلى ظهور طبقة وسطى لها احترام لمبدأ سيادة القانون والمؤسسات، وهذه أمور تتم على مراحل وبإشراف من فوق يساعد على إدخال التعددية في الحياة السياسية. والغاية من ذلك خلق وتأسيس لتقليد يتسابق الناس مستقبلا على السلطة بشكل مسؤول وحضاري، ولا ضرر أن تحتفظ تلك الأنظمة بشيء من السلطة حماية وضمانة لهم لا أكثر».

لا أحد يمكنه أن يتوقع ما سيحدث بعد أن تنفتح المجتمعات المنغلقة على نفسها فجأة. ومثال روسيا وبولندا لا يزال حيا يذكرنا بذلك، حيث برز نجم كل من ستانيسلاف تيمنسكي وفلاديمير جيرينوفسكي، كقوميين متطرفين. لكنهما انطفآ بسرعة بسبب الإصرار على عدم السماح لهما باستغلال النهج الديمقراطي المتبع حديثا هناك. لأن الشعوب ترفض ان تمنح ثقتها لمتطرفين حين تدرك أن لها فرصاً حقيقية لممارسة العمل الديمقراطي، وهذا أمر مهم جدا. فالتغيير ضروري جدا، خاصة في المجتمعات العربية التي تعادينا حاليا.

٢٧/ ٠٣/ ٢٠٠٢

أكاذيب قاتلة

باعتقادي لا يمكن اعتبار ما سيتمخض عن الحرب الدائرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين مهماً جدا بالنسبة لأمن الأمريكيين فقط، بل وللأمن العالمي ككل. لماذا؟ ببساطة لأن الفلسطينيين أدخلوا أسلوبا حربيا جديدا عن طريق استخدام الأحزمة الناسفة والتنكر في زي يهودي من أجل الوصول إلى غايات سياسية. وقد حالفهم النجاح في ذلك على ما يبدو. وهذا ما أرهب إسرائيل كثيرا وألحق أذى بالمجتمع الفلسطيني الذي أصبح منقسما على نفسه بسبب ذلك الإحساس بالقوة المتزايد والمكتسب أخيرا، مما خلق نوعا ما من التوازن مع إسرائيلي، دفع بالبعض منهم بتخيل إمكانية تحديها كما صرح بذلك إسماعيل هنية، الناطق باسم حركة حماس، إلى جريدة «واشنطن بوست»، معلنا أن الفلسطينيين تمكنوا أخيرا من إجبار اليهود على الهرب، وما قوله بأن «اليهود يحبون الحياة أكثر من أي شعب آخر، وبالتالي فهم يخشون الموت» وبالتالي فإن العمليات الانتحارية هي أفضل سلاح لمحاربتهم، إلا أنه ضرب من الجنون.

على العالم إلا أن يدرك أنه من الكذب الفاضح القول بأن الفلسطينيين لجأوا إلى العمليات الانتحارية بدافع اليأس وبطش الاحتلال الإسرائيلي. كيف أن ذلك كذب فاضح؟ أولا، هناك العديد من الشعوب اليائسة في عالم اليوم، إلا أنهم لم يلجؤوا إلى استعمال تلك الأحزمة الناسفة. والأهم من ذلك، أن عرفات رفض عرض بيل كلينتون الذي كان من شأنه أن ينهي معاناة الفلسطينيين ويمنحهم دولة. هذا بالإضافة إلى جميع البدائل السلمية-على طريقة غاندي- التي كان ولا زال بإمكان الفلسطينيين انتهاجها للمطالبة بحقوقهم. لو قامت حركة سلمية فلسطينية تخاطب ضمير الأغلبية الإسرائيلية الصامتة، لكانوا قد حصلوا على دولة خاصة بهم منذ ما يزيد على ثلاثين عاما. إلا أنهم تجاهلوا ذلك الخيار أيضا. والسبب في تجاهلهم ذاك يعود بالأساس إلى رغبتهم في تحقيق الاستقلال بالدم والنار. وكل ما يتفقون عليه جميعا هو ماذا سيخربون لاحقا، وليس ماذا سيبنون. هل سبق لأي منكم أن سمع عرفات يتكلم عن أي منهاج تعليمي سيعتمد أو أي نوع من الاقتصاد سيبني أو أي دستور يريد أن يتبع؟ طبعا لا، لماذا؟ لأن السيد عرفات لا يهتم بمضمون الدولة الفلسطينية بل كل ما يهمه هو شكلها.

لنكن شديدي الوضوح، لقد اتبع الفلسطينيون أسلوب التفجيرات الانتحارية كخيار استراتيجي إرادي وليس بدافع اليأس. وهذا ما يهدد الإنسانية جمعاء، لأنه وفي حال نجاح ذلك في إسرائيل، فإن عدوى التفجيرات الانتحارية - كخطف وتفجير الطائرات في السابق - ستنتشر بسرعة، وربما ينتهي الأمر بأحدهم مرتدياً حزاما نوويا ناسفا. لذلك فإنه من مصلحة العالم أجمع أن يهزم الفلسطينيون في صراعهم مع إسرائيل.

لكن كيف يمكننا ذلك؟ إن هذا النوع من الإرهاب لا يتم احتواؤه إلا من الداخل، لأنه لا يمكن لأي جيش أجنبي أن يوقف جماعة صغيرة تريد أن تنتحر. لذا كيف يمكننا أن نؤثر على المجتمع الفلسطيني من الداخل كي يتوقف عن دعم هؤلاء الانتحاريين؟ أولا، يجب على إسرائيل أن تقوم برد عسكري كاسح تبرهن من خلاله على عدم جدوى وفاعلية الإرهاب. ثانيا، يجب على أمريكا أن تعلن للجميع وعلى الملأ أن ظاهرة الإرهاب هي مشكلة الجميع حاليا وليست مشكلة إسرائيلية فقط. بعدها وبعد أن تعلن الولايات المتحدة اعترافها بشرعية المطالب الفلسطينية، عليها أن توقف تعاملها مع السلطة الفلسطينية ما دامت تتساهل مع الإرهاب، بل علينا أن نعلن عن عدم رغبتنا في التعامل مع أي حاكم عربي تقدم وسائل الإعلام في بلده على وصف الانتحاريين بـ«الشهداء». ثالثا، على إسرائيل أن تقول للفلسطينيين إنها مستعدة لاستئناف المفاوضات من حيث انتهت في عهد الرئيس كلينتون أي قبل قيام الانتفاضة الحالية،

حيث تم تحقيق ٩٠٪ من مجمل الخطوات الضرورية لقيام دولة فلسطينية. رابعا، يجب أن تقوم قوات أمريكية أو قوة تابعة لحلف شمالي الأطلسي (الناتو) بحراسة الحدود الإسرائيلية-الفلسطينية.

وفي هذا الصدد، علق يارون أزراحي، المحلل السياسي الإسرائيلي قائلاً: «إن الحرب الأهلية الإسبانية هي المكان الذي اختبرت فيه كل القوى العالمية حينها، أسلحتها الجديدة قبل أن تنطلق الحرب العالمية الثانية. وهكذا نجد أن الصراع الإسرائيلي الفلسطيني قد تحول إلى ما يشبه الحرب الأهلية الإسبانية للقرن الواحد والعشرين، كمختبر كبير حول إمكانية نجاح الإرهاب كأسلوب استراتيجي لتحقيق الاستقلال. لذلك يجب هزيمته، وهو ما يتطلب بالتأكيد أكثر من مجرد خطة عسكرية».

لقد أعمى الغضب الفلسطينيين، على نحو تناسوا معه الأبجديات التي بنيت عليها حضارتنا؛ وهي قدسية الإنسان، بدءا بنفسك. وفي حال أن أمريكا، آخر ضمان لنا، لم تستخدم كل ما لديها من طاقة لوقف هذا الجنون والتعامل مع الأمر بكل جدية، فإن الشيطان الذي يرقص الآن في الشرق الأوسط سيتجه بكل تأكيد نحونا.

٢٠٠٢/٠٣/٣١

الحقيقة الصعبة

هناك كارثة حقيقية ستحصل قريبا في الشرق الأوسط. فصراع الحضارات الذي فشل أسامة بن لادن في تحقيقه عن طريق تفجيرات ٩/١١، من الممكن أن يتحقق الآن عن طريق التزايد الجنوني في العنف بين الإسرائيليين والفلسطينيين في الضفة الغربية. وكرد فعل على العمليات التفجيرية المتلاحقة قام الجيش الإسرائيلي وكما هو متوقع باقتحام وغزو الضفة الغربية. لكن النجاح لحملة شارون هذه مشروط بضمان الأمن للإسرائيليين في المناطق المحتلة وبأسرع وقت ممكن. يجب على إسرائيل أن تنسحب وبأسرع وقت ممكن من الأراضي التي احتلتها سنة ١٩٦٧، وإلا فإنها لن تشهد اليوم الذي ستنعم فيه بالسلام وستؤثر سلبا على مجرى الحرب على الإرهاب التي تخوضها الولايات المتحدة حاليا. إلا أن ما أخشاه هو أن يقوم السيد شارون بالتخلص من عرفات للاحتفاظ بالمستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية بشكل يعقد كثيرا أي انسحاب إسرائيلي في المستقبل. وعلى الرئيس بوش أن يتوخى الحذر حتى لا يقع تورطنا في أزمة خطيرة جدا، وكما سبق له أن أدان الإرهاب الفلسطيني - وهو على حق

في ذلك - إلا أنه يجب عليه أن يطالب وبكل وضوح إسرائيل بأن تعلن عن خطة انسحاب من الضفة الغربية، بعد أن قامت باجتياحها مجددا. لماذا؟ لأن السيد بوش شأنه في ذلك شأن بقية اللاعبين الرئيسيين في هذا النزاع، لا يريد أن يواجه الأزمة الحقيقية لطبيعة الصراع - بالرغم من وجوب انسحاب إسرائيل الفوري من المناطق الفلسطينية، إلا أنه لا يمكن الوثوق - في الوقت الراهن على الأقل - بالفلسطينيين لحكم تلك المناطق بدون تحويلها إلى قاعدة لشن العمليات العسكرية ضد إسرائيل. مما يعني ضرورة تدخل قوات أجنبية لتأمين الحدود بينهما، قوة تكون محل ثقة كقوات الأمم المتحدة أو قوات الناتو.

لا يمكن الوثوق بفلسطينيين متسلحين بأحزمة ناسفة يفجرون بها حرس الحدود الإسرائيلي مطالبين بإنهاء الاحتلال وأن كل شيء سيصبح على ما يرام. لا يمكن العثور على أي إسرائيلي يثق بياسر عرفات الذي استخدم الإرهابيين لتحقيق غاياته السياسية، فما بالك لو حصل على كل الضفة الغربية، حينها ستبدأ جماعته بالمطالبة بتل أبيب.

وكما قال ستيفن كوهين، خبير شؤون الشرق الأوسط، بأن: «الحل الوحيد يكمن في صدور قرار جديد عن الأمم المتحدة يخول دخول قوات أمريكية أو قوات تابعة لحلف الناتو كي تشرف على النشوء التدريجي للدولة الفلسطينية بعد إتمام الانسحاب الإسرائيلي على مراحل، ومراقبة الحدود». يقول المعترضون بأن القوات الأمريكية ستتعرض للنيران كما حدث معها في بيروت وهذا قول أختلف معه، لأن القوات الأمريكية هناك ستشرف على ولادة دولة فلسطينية، وستساهم في إعادة السيادة على أماكن إسلامية مقدسة في القدس مما سيحل جميع مشاكلنا في الشرق الأوسط.

كذلك يتهرب الحكام العرب من مواجهة المعضلة الحقيقية هناك أيضا، لأن أغلبهم حكام غير شرعيين وغير منتخبين يخافون كثيرا من قول الحقيقة حول المسالة الفلسطينية. مثلهم مثل السيد شارون، هم حكام غير نزيهين. ففي الوقت الذي يقول فيه شارون بأن وقف الإرهاب وحده قادر على وقف الاحتلال، يقولون هم بأن وقف الاحتلال وحده قادر على وقف الإرهاب. لذلك يحتاجون جميعا إلى مجابهة الواقع والحقيقة - في الوقت الذي يجب فيه وقف الاحتلال يجب عليهم هم من ناحيتهم أن يحاربوا الإرهاب الإسلامي، كما صرّح رئيس الوزراء الماليزي مهاتير محمد، الذي انتقد تلك الممارسات بكل شجاعة قائلا: «بالرغم من كوننا نشعر بالمرارة والغضب - وهو واجب - إلا أنه يجب علينا أن نبرهن للعالم أن المسلمين أناس عقلانيون حتى في حالة الدفاع عن حقوقنا، وأننا لا ننزع إلى الإرهاب».

لو كان للحكام العرب أي قدر من الشجاعة لوضع حد للتصرفات الإسرائيلية وانتقاد الفساد والعجز الملتصق بالقيادة الفلسطينية وتجريم الأعمال الانتحارية التي تتم باسم الإسلام، لما تم تحقيق تقدم ما في المسار السلمي. كذلك يقع اللوم على أولئك العقيمين من اليهود الأمريكيين، واليمين المسيحي المتطرف والمحافظين الجدد الذين ساهموا جميعا في استحالة أن يقوم أي شخص في الحكومة الأمريكية بالتحدث بجدية عن وقف بناء المستوطنات الإسرائيلية دون أن يُتهم بمعاداة إسرائيل. لقد ساهموا بجهودهم تلك في إطالة أمد الاحتلال الإسرائيلي للمناطق الفلسطينية، احتلال صار يهدد المشروع الصهيوني برمته الآن. وبالنهاية إما أن يتقدم ذوو النوايا الحسنة ويطالبوا بصوت عال بوقف الاحتلال والعمل على حلول قوة أمريكية أو من حلف الناتو لتساعد الفلسطينيين على بناء دولتهم، أو تأكدوا من أن أسامة سيفوز وأن حرب الحضارات ستندلع.

٢٠٠٢/٠٤/٠٣

آمال مستقبلية

بعد فترة قصيرة من اغتيال إسحاق رابين، تلقيت رسالة بالبريد الإلكتروني من صديقة إسرائيلية كانت تكتب رسالة تعزية إلى أصدقائها. قالت إنها عندما بدأت بتحرير الرسائل، أطلقت على الملف اسم «رابين». وعندما انتهت من تحرير رسائلها وهمّت بحفظها، سألها الكومبيوتر: «هل تريدين حفظ (رابين)؟»، حينها تمنت لو كان بإمكانها حفظ رابين بكبسة زر.

كنت بدوري أفكر في تلك الصديقة وأنا اقرأ الرسائل الإلكترونية الغاضبة التي وصلتني من أصدقائي الشرق أوسطيين. لم أشهد أي فترة في حياتي مليئة بدواعي الاستقطاب والانحياز مثل تلك الفترة. فهذا الغضب المتفجر على الجانبين، ما انفك يزداد كثافة بسبب التغطية التلفزيونية المباشرة، وبفضل قدرة الإنترنت على التوزيع الفوري لمشاعر الناس وردود أفعالهم. غضب يحط بكل ثقله على القلب والعقل، ويتمدد كالحمم البركانية، من منبعه الشرق الأوسط ليغطي أوروبا وبقية بقاع العالم. تمنيت عبثا لو كان هناك زر «للترجيع» يمكنني أن أضغط عليه فيرجعنا إلى النقطة التي كنا عليها قبل أن ينطلق هذا الجنون.

على ما أذكر لم تكن الأمور دائما هكذا إذ ومنذ نهاية السبعينات نعمت إسرائيل

بفترات طويلة من السلام أو لنقل الهدوء مع كل من مصر والأردن والفلسطينيين. كانت فترة اتسمت بالرغبة المشتركة لدى مختلف الأطراف في رسم الحدود الواضحة والمحافظة على الهدوء. أعني هنا الحدود الجغرافية والأخلاقية وحدودا للمستقبل أيضا. لقد سقطت اتفاقية أوسلو تدريجيا بالنهاية لأن الجميع تخلوا عن حماية وصيانة تلك الحدود. حينها كانت إسرائيل تنعم بالسلام من جانب وتبني المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية من الجانب الآخر. وتمادت إسرائيل في نهجها ذاك إلى الدرجة التي شعر فيها الفلسطينيون بأن مجالهم الحيوي بدأ في الاضمحلال بينما كان الحيز الإسرائيلي يتمدد باستمرار كل ذلك تحت مظلة «السلام».

كذلك لعب آرييل شارون دورا بارزا في إقامة تلك المستوطنات وبعثرة تلك الحدود، وكان اليمين الإسرائيلي يبرر تلك الأعمال بمقولته المقدسة والمتعالية على النقد «لماذا لا يكون بمقدور اليهود أن يعيشوا في أي مكان يريدون؟»، ولكن القضية ليست هي أن يعيش اليهود حيثما يريدون، بل القضية هي ما إذا كان من الذكاء بالنسبة لهم أن يعيشوا في أي مكان من إسرائيل التوراتية، حتى وإن نجم عن ذلك تقليص فرص الفلسطينيين في إقامة دولتهم الخاصة بهم. ولكن اتفاقية أوسلو فشلت بسبب الفلسطينيين أيضا، ففي حين يتحدثون عن السلام باللغة الإنجليزية، نجدهم باللغة العربية يقيمون سدود الكراهية ضد اليهود في مساجدهم وفي مقررات مدارسهم. وظلوا يرسمون خرائط لفلسطين المستقبل التي تلغي إسرائيل من الوجود. وقد لعب ياسر عرفات دورا أساسيا في كل ذلك. أما الغضب الجامح الذي يتأجج في صدور الفلسطينيين ضد إسرائيل، كان قد دفعهم مؤخرا إلى صياغة حجة تقوم على الوهم الخالص، تقول بأن الاحتلال الإسرائيلي هو مبرر كاف لكل الطرق التي يلجأون إليها من أجل الحصول على الاستقلال، بما في ذلك طبعا الهجمات الانتحارية الموجهة ضد المدنيين. إنك لا تستطيع أن تبني دولة على أكتاف مهاجمين انتحاريين أو على أفعالهم.

كان لخطاب الرئيس بوش الأسبوع الماضي، أهمية خاصة لأنه وضع أمريكا في المكان الذي كان من المفروض أن تضع نفسها فيه منذ البداية: مهمة رسم الحدود الواضحة. وكان قد رسم خطا واضحا بالنسبة للإسرائيليين، وهو أنه بصرف النظر عن عدد المستوطنات التي أقاموها، فإن أية اتفاقية للسلام يجب أن تقوم على أساس حدود ١٩٦٧ . كذلك رسم بالمقابل خطا واضحا بالنسبة للفلسطينيين أيضا، وهو أن المهاجمين الانتحاريين «ليسوا بشهداء، بل هم قتلة». وكون بوش لم يقم برسم الحد الفاصل في المنطقة الوسطى، فقد كان أكثر حدة في نقده لعرفات مما كان في نقده

لشارون، وذلك لأنه يعي حقيقة طالما تجاهلها العرب، وهي أن شارون لم يأت من السماء، ولم يقع انتخابه إلا عندما انسحب عرفات من المفاوضات، مفوتا أعظم فرصة لبناء دولة فلسطينية، كتلك الفرصة التي توفرت بفضل خطة بيل كلينتون. حينها اختار عرفات وبشكل مسبق، أن يستخدم العنف، بدلا من الدبلوماسية والمطالبة السلمية للحصول على المزيد من المطالب من إسرائيل. كما أن الإسرائيليين لم يلجأوا إلى شارون إلا كنوع من الانتقام. وهذه أمور يجب على بوش ألا يتجاهلها.

إن الموقف الأمريكي الحازم من إعادة رسم الحدود المغطاة والمبعثرة، هو أملنا الوحيد في تحقيق أي سلام. وفي غياب هذا الأمر الفاعل، فإن الحدود بين الوسط العقلاني والمنطقي وبين المتطرفين، ستمحى بشكل كامل. وستنتقل المبادرة حينها إلى المتطرفين من كلا الجانبين، ليحددوا الأهداف والوسائل التي يقودها إليها جنونهم.

وكما ذكرت سابقا، لم تكن الأمور على هذه الدرجة من السوء من قبل. كنت قد حضرت مؤتمر القمة الاقتصادي العربي-الإسرائيلي الذي انعقد بعمان عام ١٩٩٥، حيث جلست في شرفة الصحافيين وفوق الوفد الإسرائيلي مباشرة، في حين جلس مندوب كويتي، عن طريق الخطأ، في القسم المخصص للوفد الإسرائيلي، فاكتشف أن الإسرائيليين يحيطون به من الجانبين. وبالنظر من فوق رأيت العقال والكوفية الكويتية جنبا إلى جنب مع اليرمولك الإسرائيلية. وهو مشهد لن أنساه ما حييت.

إن هذا النوع من تجاوز الحدود وتخطيها هو ما نرغب فيه. ذلك النوع من التجاوز أو التخطي الذي يلتقي فيه الوسط العربي بالوسط الإسرائيلي في منتصف الطريق، وكون تحقيق ذلك مرهوناً بعملية رسمنا لكل بقية الحدود الأخرى؛ الحدود الجغرافية والحدود الأخلاقية. ولو كان لجهاز الكومبيوتر الذي أمامي الآن زر خاص برسم الحدود لضغطت عليه.

٠٧/٠٤/٢٠٠٢

جورج السادات

ها هو كولن باول يتجه إلى الشرق الأوسط محاولا إيقاف عمليات القتل الدائر حاليا. لنرَ ما بإمكانه أن يحقق؟. أولا ها هو يتعرض للإرباك من قبل هذا الصبي-الملك، ملك المغرب، ثم وحين وصل إلى إسرائيل ها هي صحيفة «جيروساليم بوست»، تستقبله بحملة هستيرية معادية وتعلن أن مهمته الحالية مصيرها الفشل، لأنه لا

يرى الأمور كما يراها شارون وعصابته اليمينية المتطرفة. وحتى قبل أن يصل السيد باول إلى هناك صرحت السيدة سهى عرفات (من مقر إقامتها الباريسية الفاخرة) بأنها لو كان عندها ابن سيشرفها لو تراه يستشهد في سبيل فلسطين، كما تداولت نشرات الأخبار بأن الفلسطينية التي نفذت عملية انتحارية في أحد المراكز التجارية الفلسطينية، كانت في سن المراهقة. أنا عندي ابنة في سن المراهقة أيضا، ومن المستحيل على من هي في سنها أن تتخذ قرارا كهذا بتنفيذ عمل انتحاري. لأنه من المؤكد أن هناك من هو أكبر منها سنا قام بإقناعها بالقيام بمثل هذ الصنيع. وهذه ليست بالشهادة، بل تضحية عقائدية.

هل يدركون مدى غرابة ما يقومون به في نظر بقية العالم؟ لكن وبالرغم من كل هذا الجنون، الذي يسمح بخرق جميع مظاهر السلوك الحضاري، هناك فرصة حقيقية للرئيس بوش لخلق وبعث أمل حقيقي لتحقيق السلام، ترى هل سيقدم بوش على انتهاز هذه الفرصة؟ وهذا ما أعنيه على وجه التحديد؛ لقد استطاع عرفات وجماعته عن طريق العمليات الانتحارية أن يحقق ما عجزت عنه الجيوش العربية على مدى الخمسين سنة الماضية، في زعزعة الإسرائيليين. لقد تم له ذلك عن طريق التضحية بشباب فلسطينيين، مما دفع باليمين الإسرائيلي المنادي باستعمال القوة العسكرية القصوى وترسيخ المستوطنات كأمر واقع، إلى السطح. وفي الوقت نفسه قامت إسرائيل بقيادة السيد شارون بتبديد الوهم الفلسطيني بأن العمليات الانتحارية قادرة على بث الرعب بين اليهود وطردهم من الشرق الأوسط، لقد تبدد ذلك الوهم عن طريق أعمال القتل والعنف القاسي جدا الذي توخته إسرائيل في تتبع منفذي ومخططي تلك الاغتيالات حتى وإن تخفوا داخل مناطق مأهولة بالمدنيين الفلسطينيين مما أرعب الفلسطينيين كثيرا.

كان ذلك أيضاً بمثابة درس للحكام العرب. فعلى مدار عقود خلت، استغلوا وتاجروا بالقضية الفلسطينية لصالحهم، سواء ليضفوا بعض الشرعية على حكوماتهم أو ليلفتوا انتباه شعوبهم عن فشلهم الذريع العام والشامل. إذ كانوا في الماضي يحددون لشعوبهم الطريقة التي يجب أن ينظروا بها إلى القضية الفلسطينية عن طريق وسائل إعلامهم التي كانت ولا تزال أبواق دعاية خاصة بهم. وهذا أمر انتهى الآن، خاصة مع هذه الانتفاضة المنقولة بشكل مباشر وحي عبر قنوات الأقمار الصناعية والإنترنت التي تعمل على نقل وتتبع الأحداث هناك على مدار الساعة، كما ساهمت الإنترنت على تبادل الآراء والمشاعر بين مختلف فئات الشباب العربي. مما يصعب على هذه الأنظمة مراقبة وتحكم وتزوير الحقائق. لا يعني ذلك أن هذه الأنظمة ستنهار غدا، لكنها بدأت في التصدع والخلخلة والانهيار اقتصاديا.

وعلى الجانب الآخر، لقد لقنت هذه الانتفاضة درسا لإدارة الرئيس بوش، التي بقدر ما تحاول تجاهل ذلك الصراع، فإنه يفرض نفسه عليها باستمرار، وإن حاولت تجاهله كليا فإن ذلك من شأنه أن يؤثر سلبا على أي مجهود لمحاربة الإرهاب.

والنتيجة لكل ما تقدم ذكره، نجد أنفسنا في وضع لا يختلف كثيرا عن قيام الجيش المصري بعبور قناة السويس في حرب ١٩٧٣، مما تسبب في زعزعة ثقة إسرائيل بنفسها عسكريا، فقامت إسرائيل بالرد حين عبرت مدرعات آرييل شارون القناة وخنقت الجيش المصري من عنقه وبرهنت على مدى هشاشة موقع المصريين. وبالتالي فهذا ليس بالوضع المناسب للقيام بمؤتمر دولي كالذي تم بإشراف أمريكي وروسي مباشرة بعد توقف حرب ١٩٧٣، مما حدا بأنور السادات إلى اعتبار ذلك مضيعة للوقت، وقرر أن يتجه إلى القدس ووضع كل الأوراق على الطاولة. وما على السيد بوش إلا القيام بالشيء نفسه حاليا. وما عليه إلا أن يكون أنور سادات هذه اللحظة، لأن لا أحد سواه سيقبل بمثل هذه المهمة. وهذا يعني إطلاق مشروع سلام أمريكي يطالب بإصدار قرار جديد من قبل الأمم المتحدة يقوم بتخصيص كل من الضفة الغربية وقطاع غزة لقيام دولة فلسطينية، ويحدد شكل ومضمون السلطة الفلسطينية التي ستحكم هناك. كذلك يجب أن ينص على وجوب انسحاب إسرائيلي يتم على مراحل تماما كما جاء في مبادرة بيل كلينتون، وعلى أن تقوم قوة أمريكية أو قوة تابعة لحلف الناتو بالسهر على تنفيذ ذلك.

أعتقد أن دونالد رامسفيلد يعمل وفق قاعدة أنه إذا كانت لديك مشكلة وعجزت عن حلها، فقم بتعقيدها. فأن نتجه الآن صوب مشروع للسلام يفرض على الجميع بدون استثناء- من فلسطينيين وإسرائيليين وعرب- القيام بما هو مطلوب منهم، وإما أن نبقى في موقع المفترج على انهيار كل قواعد السلوك الحضاري والإنساني إلى أن تباغتنا هذه الحرب في عقر دارنا.

١٧/٠٤/٢٠٠٢

لماذا أصبحت مشاهدة الغولف أفضل؟

كلما اشتدت حدة القتال بين الفلسطينيين والإسرائيليين، أصبح من الصعب تحمل ما تبثه القنوات الإخبارية التلفزية. أخيرا كلما وقع بث الأخبار القادمة من الشرق الأوسط على قناة «السي. ان. ان» أو «الأم. اس. ان. بي. سي.» أقوم مباشرة بتغيير القناة،

من الأخبار إلى القناة الخاصة ببث لعبة الغولف، متجنبا بذلك مشاهدة المأساة التي تفوق أي تصور.

سبق لي أن ذكرت ذلك لجيم بوتن لاعب فريق اليانكي سابقا، ومؤلف كتاب "Ball Four"، الذي ما كان منه إلا أن أخبرني بأنه يقوم بالشيء نفسه. وفي معرض حديثنا حول هذا الموضوع، توصلنا إلى تحديد عشرة أسباب تدفعنا إلى تتبع ما تبثه القناة الخاصة بلعبة الغولف، كأفضل علاج للوجع الذي تتسبب فيه الأخبار القادمة من الشرق الأوسط. وهي كالآتي:

أولا- أن كل المعلقين والمشرفين على قناة الغولف، يعرفون على وجه الدقة عما يتحدثون، كما أنك لا ترى منهم من يحمل تلك الصفة المزورة والزائفة بأنه «خبير في الإرهاب» في الحقيقة، الدعاية الوحيدة التي نشاهدها هناك، هي اللوحات الإعلانية التي تقوم بها شركة نايكي أو تايتليست. ولكي تكون معلقا على قناة الغولف، لاتحتاج إلى أن تكون قد عملت في إحدى شركات العلاقات العامة أو ترشحت لانتخابات رئاسية سابقة وفشلت، أو كنت طرفا في محاكمة «أو.جي».

ثانيا- لا حديث عن الدين إطلاقا على قناة الغولف. والمرات الوحيدة التي يتم ذكر الرب أو المسيح، هو في حالات الغضب التي نسمعها حين يخطئ بعض اللاعبين في الإصابة.

ثالثا- لا مجال للحديث عن التاريخ أو الجدل حول بعض الوقائع التاريخية. وكما اللعبة نفسها ليس من المهم على الإطلاق ما قمت به بالأمس. إذ يحمل كل يوم جديد بداية جديدة. النجاح في لعبة الغولف مشروط بأن تمسح نهائيا ما قمت به في الماضي وتخصص كل تركيزك على لعبة اليوم. لعبة الغولف، التي هي بعكس سياسة الصراع العربي- الإسرائيلي، الماضي لا يتحكم ولا يلغي المستقبل.

رابعا- تتخلل لعبة الغولف فترات صمت طويلة ورائعة. أما المعلقون، فإنهم بدل أن يتمادوا في الصراخ في وجه بعضهم البعض عبر الشاشة، يمضون معظم الوقت يهمسون بلطف، حتى لا يتسببوا في إرباك اللاعبين. ولا أحد يقاطع أحد.

خامسا- لا تشاهد أناسا يرتدون بدلات وطواقم على قناة الغولف. يقتصر الأمر فقط على شورتات وقمصان وأحذية رياضية وسحابات. لأن اللاعبين ولحسن الحظ لا يحتاجون إلا إلى تحقيق إنجازات تتعلق بميدانهم وتعود عليهم بالفائدة. ولا ولاء إلى أي مدينة أو بلد أو ديانة. كما أن الأعلام الوحيد التي نشاهدها ترفرف هي أعلام

خضراء تحمل أرقام متسلسلة من ١ إلى ١٨ (باستثناء المباريات التي يتقابل فيها الأوروبيون والأمريكيون).

سادسا - على قناة الغولف، لا أحد يلوم أمريكا على كل ما يحدث لهم. إنها لعبة تتحمل فيها أنت وحدك نتائج أفعالك. كما أن البكاء والشكوى غير مسموح بهما على تلك القناة. إما أن تلعب بشكل ممتاز وتضع كل كراتك في الأماكن المخصصة لها أو أن تخسر وتنسحب، تلك هي قوانين اللعبة. وتلك هي الحياة. وذلك على العكس مما نشاهده على قناة «السي. ان. ان» أو «فوكس» أو «ام. اس. ان. بي. سي.» حيث ينعق الضيوف معلنين أن ما حدث إنما بسبب مؤامرة أمريكية. في حين أنك عندما تخطئ وأنت تلعب الغولف سيطلب منك بكل لطف أن تنسحب.

سابعا - الغولف هي لعبة تحترم فيها القوانين التي تحدد بكل وضوح ما هو مسموح به وما هو غير مسموح به. على العكس مما يجري في الشرق الأوسط، حيث يُنظر إلى الولايات المتحدة على أنها الحكم في حين يسعى كل اللاعبين إلى الغش والتحايل متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا. في حين أنك عندما تخطئ في لعبة الغولف عليك أن تعلن ذلك بنفسك. وعلى قناة الغولف، حين ترتكب الغش سيتم إقصاؤك بشكل نهائي إذ لا تتوقع من أحد أن يلعب معك أو أن تظهر على الهواء في المستقبل. المرة الوحيدة التي نشاهد فيها اللعب وفقا لهذه القواعد في الشرق الأوسط، هي حين تقام دورة ألعاب دبي الكلاسيكية لأسياد الصحراء في شهر مارس/ آذار من كل عام.

ثامنا - على قناة الغولف يحاول اللاعبون التغلب على شروط ميدان اللعب لا على بعضهم البعض. إذ يتسابق رجال ونساء بالتساوي لتحقيق نتائج أفضل.

تاسعا - لا أحد يخاف على قناة الغولف من التغيير أو من الشبهة. على العكس، في لعبة الغولف تشاهد أفضل اللاعبين وهو يقوم بالنقد الذاتي المتواصل لكي يحسن من أدائه مما يدفعه إلى التغيير الفوري من أساليب لعبه للتكيف مع المعطيات الجديدة. وهو كل ما يتحدثون عنه على تلك القناة، بعكس ما يدور في الشرق الأوسط حيث ينعدم أي نقد ذاتي أو أي مراجعة للذات لدى كل اللاعبين بدون استثناء.

٢٠٠٢/٠٤/٢١

هل من أمل؟

القدس

عبّر الرئيس جورج بوش أخيرا عن أسفه «لموت المستقبل» في الشرق الأوسط. وبحكم وجودي حاليا في القدس حيث كتبت هذا المقال، فإنه بإمكاني تأكيد ما قاله الرئيس. إلا أن هناك طريقة وحيدة فقط نستطيع بها إحياء وبعث المستقبل، وهي أن تقوم أمريكا بوضع كل من الأمير عبدالله بن عبد العزيز وآرييل شارون وياسر عرفات، أمام الأمر الواقع الذين لجأوا جميعا إلى تجاهله. يريد الأمير عبدالله تجاهل الأمس، في حين يريد آرييل شارون أن يتجاهل الغد، أما ياسر عرفات، فإنه يريد تجاهل اليوم.

خلال لقاء الأمير عبدالله بالرئيس بوش يوم أمس، كان الأمير السعودي، على الأرجح، معنيا بالتركيز على الصراع العربي الإسرائيلي ومبادرة السلام. يهمني كثيرا هنا أن أبدي سعادتي من كون الأمير عبدالله قدم مبادرة للسلام، ولا شك أنها ستساعد بكل تأكيد على خلق فرص مستقبلية للسلام. أما القائلون بأنها لا تتعدى كونها تندرج ضمن حملة علاقات عامة، فهم يجهلون عما يتكلمون.

ومن جانبنا نحن كأمريكيين، لدينا قضية تتعلق بالأمس نريد أن نحلها مع السعوديين، وهي تتعلق تحديدا بهوية الانتحاريين السعوديين الخمسة عشر الذين نفذوا اعتداءات ١١/٩، ومن هي القوى التي تقف وراءهم داخل المملكة السعودية؟، إذ لا زالت الأف.بي.آي إلى الآن تجهل ذلك. والعربية السعودية تتهرب من تحمل أية مسؤولية ناجمة عما اقترف مواطنوها. فالمجتمع الذي لا يستطيع تحمل المسؤولية لا يمكنه أن يقدم على تصحيح الذات، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمناهج التربوية والتعليمية وعلاقة ذلك بطبيعة الفرص التي يمكن أن يقدمها لأبنائه في المستقبل.

لنتأمل هنا حادثتين جديرتين بالاهتمام. قبل أيام، تضمن ملحق جريدة «نيويورك تايمز» الخاص بالتعليم والجامعات خبرا مفاده أن أكثر الكتب مبيعا في الصين على مدى الشهور الستة عشر الماضية، هو كتاب باللغة الصينية حول «أنجع الوسائل لالتحاق ابنتك بجامعة هارفرد الأمريكية»، متضمنا شرحا «مثبتا علميا» كيف يمكن لأي طالبة أن تلتحق بتلك الجامعة الشهيرة. تم بيع أكثر من مليون ومائة ألف نسخة من هذا الكتاب، وشجع نجاحه على ظهور خمسة عشر كتابا شبيها حول طرق الحصول على قبول في جامعات

أمريكية أخرى مثل كولومبيا وأوكسفورد وكامبريدج. وفي الأسبوع نفسه نشرت جريدة «الحياة» اللندنية قصيدة للسفير السعودي في لندن، الدكتور غازي القصيبي، المعروف بذكائه، يمتدح فيها الفتاة الفلسطينية ابنة الثامنة عشرة التي نفذت عملية انتحارية في مركز تجاري إسرائيلي. معتبرا إياها أنها ماتت لإعلاء كلمة الله.

وهكذا فالمجتمع الذي يقبل بنهم على كتاب يرشده إلى كيفية إدخال بناته إلى جامعة هارفرد، سيأتي اليوم الذي سيتمكن فيه من بناء جامعة مشابهة خاصة به. أما المجتمع الذي يمجد فتاة دون العشرين عاما لأنها فجرت نفسها داخل مركز تجاري مكتظ بالمدنيين، لا يمكن أن يقيم في يوم من الأيام وطنا يعتمد على شيء آخر غير النفط، وطناً مشوش الأولويات لا يقدر إلا على مثل تلك الأفعال. إن إسرائيل لم تكن تدافع لإعلاء كلمة الله في جنين، والأمر نفسه ينطبق على الانتحاريين أيضا.

أما شارون، فإنه لا يتحدث من جهته إلا عن كيفية سحق الانتحاريين الفلسطينيين، دون أن يعير أي اهتمام لأية رؤية للمستقبل. والواقع أني لاحظت مزاجا متناقضا هنا في إسرائيل: بعد شهور من تعرض الإسرائيليين لعمليات انتحارية متلاحقة، مما دفعهم إلى التساؤل عما إذا كانوا فعلا قادرين على العيش هنا، جاءت العملية العسكرية الإسرائيلية الأخيرة ورفعت من معنوياتهم وبرهنت لهم بأنهم قادرون على الدفاع على أنفسهم. لكنها في نهاية المطاف لم تحل دون ذلك الإحساس العميق بتدني المعنويات بدليل أن كثيراً من الإسرائيليين ممن تحدثت إليهم أبلغوني بكل وضوح أن قائدهم لا يؤمن سوى بالقبضة الحديدية كأسلوب للحكم.

كذلك يعتقد كثيرون في إسرائيل أن هوس شارون بتدمير عرفات، وإيمانه الأعمى بضرورة بناء مستوطنات استعمارية يشلانه عن سلوك أسلوب صحيح في الحكم. مضافا إلى ذلك خوفه الدائم من أن يرى تنازله على أنه نصر للعدو. وهذا ما منعه من تحقيق ما تريده الأغلبية الإسرائيلية المتمثل في حل عملي غير إيديولوجي يمكن تلخيصه في العبارة التالية: «دعونا ننسحب إلى هذا الخط ونتخلى عن المستوطنات، وليكن ذلك ما نقدمه للفلسطينيين. لأن ذلك هو الطريق الوحيد للمحافظة على الديمقراطية اليهودية، وكل ما عداها غير مهم لنا بالأساس».

أما عرفات، المهووس بالأمس بدوره، وبما عاناه الفلسطينيون في الماضي، وبالحديث عن غد يرفرف فيه العلم الفلسطيني فوق القدس، فإنه لا يمتلك اي خطط لتهيئة شعبه للمستقبل وللقيام بمساومة تاريخية ولا يستطيع الاستفادة من الانتفاضة الحالية للتوصل إلى اتفاقية سلام مع إسرائيل. أما البلهاء الأوروبيون الذين سارعوا إلى

حماية عرفات والدفاع عنه، فيحتاجون إلى من يقول لهم إن هذه الانتفاضة كانت قد انطلقت في البداية احتجاجاً على الفساد الذي أصاب سلطته، ولكنه استطاع بكل حنكة أن يوجهها بالكامل ضد إسرائيل بفضل مساعدة شارون له في ذلك. كما أن عرفات قام بتدمير الاقتصاد الفلسطيني والقضاء على معسكر السلام الإسرائيلي، بالرغم من كونه القوة الوحيدة المستعدة على الموافقة على قيام دولة فلسطينية.

أثناء محادثات كامب ديفيد قال بيل كلينتون: «قد لا ننجح ولكن العالم بأسره سيشاهدنا نحاول ذلك». قد لا يستطيع بوش أن يعيد صياغة أفكار الأمير عبدالله أو شارون أو عرفات، لكنه يستطيع دائما أن يحاول ذلك عن طريق قول الحقيقة لهم ولمجتمعاتهم التي ما يزال فيها الكثيرون ممن يريدون إنقاذ المستقبل الذي يتحكم فيه قادة يجهلون اليوم الذي هم فيه.

٢٠٠٢/٠٤/٢٤

مستعدون وجاهزون

بيت لحم، الضفة الغربية

روت لي يولي تامير، وزيرة الدمج الإسرائيلية سابقا، الواقعة التالية: بعد أن وقع هجوم انتحاري في القدس راح ضحيته ثلاثة إسرائيليين، جاءها أحد أصدقائها مستفسرا عما إذا كانت ابنتها بخير، بعدما وقع انفجار بالقرب من مركز خاص بالشباب كانت ابنتها تتردد عليه. قالت يولي لصديقها: «إن ابنتها بخير وإنها في أوشفيتز».

فعلا لقد كانت ابنة يولي تامير تقوم بزيارة لمعسكر الموت النازي في بولندا برفقة مجموعة شبان إسرائيليين. هنا تبرز السخرية التي تحملها عبارتها معبرة بكل بلاغة عما يختلج الإسرائيليين من مشاعر. إذ تسببت موجة الانفجارات الانتحارية التي اجتاحت البلد إلى قلبه رأسا على عقب، وأفقدت إسرائيل الشعور بالأمن وأخافتها أكثر من أي جيش عربي خلال الخمسين سنة الماضية، وفي الوقت نفسه جعلت الإسرائيليين أكثر استعدادا من أي وقت مضى للتخلي عن الأراضي الفلسطينية، لكنهم بالمقابل فقدوا كل ما تبقى من ثقة بياسر عرفات أيضا.

ومن ينظر اليوم إلى آخر استطلاعات الرأي داخل إسرائيل، سيجد أن أكثر من ثلثي المشاركين في الاستطلاعات يحبذون خيار تصفية عرفات جسديا، كما أن ثلثي

المستجوبين يساند فكرة الانسحاب من الضفة الغربية أيضا مقابل تحقيق أي أمن فعلي، ويجد أيضاً أن ثلثين مع الحملة العسكرية الحالية، وثلثين يخشون من أن تفشل هذه الحملة في تحقيق غرضها على المدى البعيد. كذلك يلمس الملاحظ أن هناك تعطشاً حقيقياً إلى بروز زعيم يتمتع بروح الحكمة البراغماتية، التي تساعد على الخروج من هذا المأزق، وأن هناك مخاوف من شارون الذي أكد المرة تلو الأخرى أنه مصمم على الاحتفاظ بالمستوطنات في غزة مما جعل منه قائدا غير مرغوب فيه. وقد عبر رائد في الجيش الإسرائيلي، في بيت لحم عن ذلك المزاج العام بكل فصاحة حين قال لي: «أنا منزعج جدا. لقد حطم المهاجمون الانتحاريون حلمي. نحن الآن لا نمتلك بيتا. ولأني مستوطن من إيفرات، فقد أعلمت ابني عن استعدادي لمغادرة المستعمرة بدون أي مشاكل في حال طلبت منا الحكومة ذلك». وبالمقابل فالتدمير الذي ألحقه شارون بالمكاتب والمعسكرات التي استخدمها الانتحاريون والنشطاء الفلسطينيون كان قد ألحق كبير الأذى بالفلسطينيين. منذ أن انسحبت إسرائيل إراديا من جنوب لبنان، بدأ الفلسطينيون يرقبون عن كثب ما يبثه تلفزيون حزب الله، الذي لم يتوقف عن الترويج لفكرة أن إسرائيل قد أصبحت هدفا سهلا. وهذا ما ولد الاعتقاد بأن تضاعف عدد الهجمات الانتحارية سيجبر اليهود بالنهاية على مغادرة فلسطين تماما مثلما فعلوا في جنوب لبنان. لذلك، فإن الحملة العسكرية الأخيرة لم تكشف للفلسطينيين مدى القوة الحقيقية للجيش الإسرائيلي فقط، بل أكدت لهم أن فرق الكوماندوس والاحتياط مستعدون للقتال من بيت إلى بيت داخل مخيمات اللاجئين الفلسطينيين لحماية دولتهم. كما أن هذا الوضع قد تسبب في خلق نوع من الذبذبة فيما بين الفلسطينيين، عبر عنه سري نسيبة، رئيس مكتب السلطة الفلسطينية في القدس بقوله: «أصبح من الصعب علينا أن نتفق حتى على أين نحن الآن، ناهيك عن أي طريق سنسلك... ينظر بعضهم إلى وضعنا الحالي ويقولون إننا انتصرنا، بينما يقول آخرون إننا خسرنا».

لذلك، أرى شخصيا أن هذه اللحظة بالذات مناسبة تماما للقيام بمبادرة دبلوماسية، تماما مثلما فعل هنري كيسنجر حين تشابكت كل من مصر وإسرائيل عندما دخلتا في حرب ١٩٧٣، والتي ما إن انتهت حتى كان كلاهما ينزف بشدة.

وفي معرض تأكيده على صحة هذه الفكرة، يقول الخبير يارون أزراحي: «بعد أن يشعر كلا الطرفين أنهما أثبتا ما يستطيعان القيام به: الفلسطينيون أثبتوا أنهم قادرون على جعل الحياة شبه مستحيلة في إسرائيل، والإسرائيليون أثبتوا الشيء نفسه للطرف الفلسطيني.. لذلك لا يشعر أي منهما بأنه فقد الجولة الأخيرة، بل إن كلاهما قلق مما

سيحدث فيما لو استؤنفت الحرب. وبالتالي سيكون إهمالا إجراميا للدبلوماسية الدولية فيما لو أضاعت ما تشكله هذه اللحظة من فرصة نادرة». وهذا ما يجعل تنبيه الرئيس بوش ضروريا جدا: لا تستمع إلى ما يقوله الناس هنا؛ يعيش جميعهم حالة اضطراب وتذبذب. المهم هو أن تدرك ما يشعرون به، مما يفتح الباب على مصراعيه لأكثر من حل دبلوماسي واقعي أكثر من أي وقت مضى. وبحكم أن الزعماء هنا شبه عاجزين عن القيام بأي مبادرة، يتحتم على أمريكا أن تنزل إلى الحلبة وتطرح البديل.

صحيح أن الرئيس بوش كان قد طرح رؤيته في خطاب ألقاه قبل أسبوعين، كما أن الأمير عبد الله بن عبد العزيز، كان قد تقدم بدورة بمبادرة، لكن كلتا الرؤيتين عموميتان. وبحسب ما وصف شيمون بيريز فإن كلتا المبادرتين: «تشبهان ضوءين موضوعين في نهاية النفق، لكن بدون أن يكون هناك نفق بالأساس». لذلك، المطلوب بإلحاح الآن هو خطة أمريكية تعرض برنامجا واضحا يضمن وجود دولتين، على أن يتم ذلك على مراحل. لأنه بدون ذلك، بإمكاني أن أخبركم الآن بما سيحدث: وبحكم أن ما تم تنفيذه من خطط الزعماء الحاليين أدى إلى فشل ذريع، وبما أنهم يفتقدون أي خطط بديلة أيضا مما سيؤدي إلى الاستمرار في حالة الجمود وما في ذلك من خطورة، نظرا لغياب أي دبلوماسية خلاقة تعمل على الاستفادة من اللحظة الراهنة حتى لا يتأزم الوضع أكثر.

٢٨/٠٤/٢٠٠٢

الضحايا المخفيون

عمان، الأردن

كان للانفجار الإعلامي دور بارز في التأثير على الرأي العام العربي، وذلك عن طريق نقل القنوات التلفزية العاملة بالأقمار الصناعية والإنترنت نقلا حيا ومباشرا ودون انقطاع لأحداث الانتفاضة وللقمع الذي تمارسه إسرائيل ضد الفلسطينيين في الضفة الغربية. كما تسبب ذلك البث التلفزي والإلكتروني في انطلاق مظاهرات ضخمة جدا على امتداد الوطن العربي، إذ تم إطلاق النار على المتظاهرين في كل من مصر والبحرين. مما يدفع المرء للتساؤل عما إذا كان هذا الغليان الشعبي سيؤدي إلى الإطاحة ببعض الأنظمة العربية. والجواب قطعا لا، لأن تلك المظاهرات لا تشكل أي تهديد مباشر لأي من تلك الأنظمة الهشة. لكن كيف ستستطيع هذه الأنظمة أن تواصل

المحافظة على البقاء؟ أمام هذا الواقع يتحتم على هؤلاء الحكام التباطؤ إما في ما كانوا قد بدأوه من إصلاحات إدارية وسياسية واقتصادية، أو التي هم بصدد التفكير في إجرائها، والتركيز ولو نظريا على أجندتهم القديمة والمعهودة، أي ما يجري في فلسطين ومجريات الصراع العربي الإسرائيلي، صراع سيكون الليبراليون العرب هم أولى ضحاياه، وليس حكامهم، الذين أوقفوا العمل بأي إصلاح ديمقراطي، وحرموا مجتمعاتهم من دخول أي استثمارات أجنبية، وأطلقوا العنان لأجهزة مخابراتهم كي تقمع وتنكل بشعوبهم، وهكذا طغت مشكلة فلسطين على أي حوار علني عام.

قال لي الملك الأردني عبد الله - أحد أهم الحكام الإصلاحيين في الوطن العربي - ما يلي: «لا نية لدي لتعطيل مشاريع الحداثة بالأردن اليوم، لكنني لا أستطيع القيام بذلك بمفردي لأني أحتاج إلى الدعم الشعبي للقيام بذلك». لكن الحصول على الدعم الشعبي للمضي قدما بمشاريع الحداثة لم يعد بالأمر الهين اليوم مثلما كانت عليه الحال في السنة الماضية، لأن الأردن شأنه في ذلك شأن بقية الدول العربية، شهد اجتياحا إعلاميا من قبل قنوات تلفزية عربية مستقلة تتسابق بشكل محموم على شد انتباه المتفرجين بنقل أبشع صور العنف الذي يتعرض له الفلسطينيون على يد إسرائيل.

عندما قمت بتغطية الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢، وقتها كان مجرد تصوير أي شريط إخباري يأخذ ساعات بل أياماً أحيانا حتى يتم نقله خارج ميدان المعركة. كما أن الأنظمة العربية حينها كانت - ولا زالت - تراقب بشدة ما يتم عرضه. أما اليوم، فعلى سبيل المثال نقلت إحدى القنوات العربية الإخبارية وعلى الهواء مباشرة كيف تعرضت عائلة فلسطينية في قرية قرب جنين للحبس في غرفة واحدة لأن القوات الإسرائيلية قامت بمحاصرة وتمشيط البلدة، حينها قامت الأم بالاتصال بقناة اي.ان.ان. طالبة النجدة كي يتم إنقاذ أطفالها على مرأى ومسمع كل العالم العربي. وصف ذلك أحد الصحافيين الأردنيين قائلا: «تسمع صراخا وأنت في غرفة النوم، تذهب لتنام وأنت تشاهد الفلسطينيين يقتلون وتنهض على المشهد نفسه... وإذا حدث أن وضعت أي خبر على الصفحة الأولى سيسخر منك الجميع».

لم تكن الحال في الأردن هكذا في السنة الماضية، عندما طغت أخبار المبادرة الملكية لإحداث نقلة حداثية على أي أخبار أخرى، مبادرة كان من المفترض أن ينطلق العمل بها هذه السنة حيث ستشمل النظام التعليمي الأردني وسيتم ربط كل مدرسة بشبكة الإنترنت، وبعث مشاريع استثمارية في المناطق الريفية. كذلك قرر العاهل الأردني إجراء انتخابات برلمانية جديدة تتزامن مع انطلاق تلك المبادرة التي ستحظى بدعم من

البرلمان الجديد المزمع انتخابه. كما عبرت شركة مايكروسوفت عن نيتها في استثمار مليوني دولار لإنشاء شركة أردنية تعمل على إنتاج برامج الكومبيوتر بشرط أن يتعهد الأردن بالعمل على «حفظ حقوق الملكية الفكرية» وعلى جعل قوانين العمل والشركات تتوافق مع المعايير الدولية. ومن جهتها أقدمت الحكومة الأردنية على الإصلاحات التشريعية الضرورية وبعثت بها للبرلمان على أمل أن يصادق عليها من أجل ضمان الحصول على ذلك المشروع. فمع التوتر العام الغالب على الشارع الأردني بتأثير مما يجري في الضفة الغربية - «هل تصدق أن أكثر برامج التلفزيون شعبية هي تلك التي يبثها تلفزيون حزب الله» بحسب ما قال رجل أعمال أردني - فإن الوزراء اليوم عاجزون عن الحديث علنا عن أجندة الإصلاحات والتحديث، فالإعلام غير مهتم، والقصر الملكي يتردد في إجراء انتخابات لأنه وفي مناخ كهذا، قد يتمكن الإسلاميون من الفوز في أي انتخابات على حساب الأحزاب الأخرى.

تلك هي الصورة في معظم الدول العربية تقريبا. هناك دول عربية تقدمية تريد أن تبني شرعيتها على أساس تهيئة شعوبها للمستقبل، لا على أساس مجابهة إسرائيل، لكن تلك الجهود قد عرقلت. وفي المقابل تعجز الدول العربية الأخرى عن إيجاد أي تبرير لشعوبها عن عدم إحداثها أي إصلاحات. وهذا ما يجعل الفلسطينيين خبراء في جعل العالم العربي يؤجل النظر في مستقبله حتى يتم حل القضية الفلسطينية نهائيا، ربما لما للقضية الفلسطينية من تأثير عاطفي قوي على الشارع العربي. الآن وقد تكبدت ثلاثة أجيال ثمنا باهظا لأن الحكومات العربية كانت قد سمحت لشعوبها بطرح سؤال واحد فقط: من سيحكم فلسطين؟ بدل أن يسألوهم كيف يعلموا صغارهم، أو أي نوع من الديمقراطية أو النظام الاقتصادي الواجب عليهم اعتماده. لذا، من المأساة أن يُترك الجيل الرابع يواجه المصير نفسه.

٢٠٠٢/٠٥/٠١

الإصغاء إلى المستقبل

جاكرتا، إندونيسيا

قمت يوم الخميس الماضي بزيارة مدرسة «دار النجاح الريفية»، إحدى أهم المدارس الإسلامية الداخلية بالعاصمة الأندونيسية جاكرتا، حيث اجتمعت بما يقارب

العشرين من الطلبة الأوائل فيها. سعيت من وراء ذلك اللقاء إلى الاستفسار عن آرائهم حول أمريكا، كي أفهم كيف ينظر أبناء أكبر بلد إسلامي إلى أحداث ٩/١١، وأزمة الشرق الأوسط. وبدلا من أن أعبر لكم أنا شخصيا عما دار في ذلك اللقاء، اسمحوا لي بأن أنقل حرفيا ما دار بيني وبين الطالبة الأكثر فصاحة ابنة الثمانية عشر ربيعا، وسام روشالينا، تماما كما جاء في الشريط الذي سجلت فيه ذلك اللقاء: «يخاف معظم المسلمين من أمريكا لاعتقادهم بأنها معادية للإسلام. يمكنك أن ترى بكل وضوح الدعم الأمريكي لإسرائيل، كما أن العداء بين الإسلام وإسرائيل واليهود-اليهودية- هو عداء بيّن. لا تخاف أمريكا من المسلمين بل العكس هو الصحيح. كما أنه لا دليل على تورط المسلمين في حدوث مأساة ٩/١١. إلى الآن لم يقم أي دليل قطعي يثبت قيام بن لادن بذلك. كما أني أقرأ ما تنشره بعض الصحف عن وقوف أشخاص أمريكيين وراء تلك المأساة... لا أعرف على وجه التحديد كم من اليهود في الكونغرس، لكن أمريكا تدعم إسرائيل بقوة، وهذا في اعتقادي سبب العداء لها».

من أين تستقين هذه الأخبار؟

«أحصل على معظم المعلومات من التلفزة، والإنترنت أيضا... أحبّ أن أطالع معظم المجلات العربية التي لها وجهة نظر مختلفة. إذ إن معظم المجلات الأندونيسية تفتقر إلى الكثير من المعلومات عن الإسلام والمسلمين».

ما سبب غضب الكثير من المسلمين من أمريكا وإسرائيل حاليا؟

«برأيي لأن إسرائيل تجاوزت كل الحدود، وضاق المسلمون ذرعا فقرروا القيام بشيء ما. وكذلك لوصف المسلمين بالقتلة ومعاملتهم في أمريكا كإرهابيين، ولومهم على ذنب لم يرتكبوه... وهذا باعتقادي ما دفعهم إلى كره أمريكا- ليس كره بالأحرى، بل ذلك الإحساس كون الإعلام الأمريكي يعمل على نشر وتعميم تلك الصورة، مما حدا بالمسلمين إلى الاعتقاد بأن الإسلام يتعرض عمدا إلى حملة تشويه لصورته».

ما رأيك في الرئيس بوش؟

«في البداية، عندما أصبح جورج بوش رئيسا، ظن بعضهم أنه سيواصل نهج أبيه ولن يغير شيئا- كما أنهم لم يتمنوا لآل غور بالفوز لأنه يهودي. لذلك فضلوا بوش... الذي أطلق وعوداً جيدة حقا إلا أنه لم ينفذ أياً منها إلى الآن».

هل ترغبين في الدراسة في الولايات المتحدة؟

«بكل تأكيد. لأني لو ذهبت إلى هناك سأستطيع التعرف بشكل مباشر على الطريقة

التي يفكر بها الناس هناك. لأن معرفتي بأمريكا حاليا تقتصر على ما أجده في الصحف والتلفزيون».

يشترك الملايين من الشبان المسلمين مع وسام في وجهة نظرها تلك، التي هي نتاج عدة عوامل: رد الفعل على الحرب التي أعلنتها أمريكا على الإرهاب، وحرب آرييل شارون على ياسر عرفات، وفشل البلدان الإسلامية في تحقيق الحداثة، وشعور المسلمين بالنقمة عندما وجّه إليهم من لوم على أحداث ٩/١١، ودعم الكونغرس المطلق لإسرائيل، والتحريض على معاداة إسرائيل واليهود في الإعلام العربي والأوروبي وشبكات الإنترنت. وعندما تختلط كل هذه العوامل مع بعضها البعض، سنحصل على نتيجة واحدة مشتركة بين الشباب المسلمين مفادها التقاء كل من أمريكا وإسرائيل واليهود معا على تقويض الإسلام والسيطرة على العالم. وهذا ليس بالجيد. لكن كيف يمكننا أن نغير من مثل هذه القناعة؟ ربما نشر الديمقراطية في العالم الإسلامي سيساعد على ذلك بشكل كبير، لكن تحقيق ذلك ليس بالأمر العاجل. وفي المدى المنظور يجب على إسرائيل أن تنسحب وبأي شكل من الأشكال من الضفة الغربية وقطاع غزة. وهذا ما سيدفع بتلك الحرب إلى الاختفاء من شاشات التلفزة. وبالرغم من أن ذلك الإجراء لن يزيل عداء العالم الإسلامي للدولة اليهودية، فقد يساعد على التخفيف من حدته. وفي الوقت نفسه، على أمريكا أن تستثمر وبشكل كبير في مجال الدبلوماسية العامة من أجل تحسين صورتها في العالم الإسلامي وأن تقوم بالرد على ما ينشر هناك. لأن ذلك لا يقل جدية عن بناء أي درع صاروخي خاصة وأننا نعيش في عصر يجب أن ننظر فيه إلى الحقد الأعمى على أنه سلاح للدمار الشامل. كما أنه بإمكاننا أن نجعل الوضع مختلفا مع الشباب، لأن مواقفهم يسهل اكتسابها كما يسهل تغييرها أيضا. فالمرة الوحيدة التي ابتهجت فيها الطالبة وسام هي عندما تحدثت عن الدراسة في أمريكا.

روت لي دبلوماسية أمريكية في جاكرتا، مشهد ذلك الصبي في مدينة مالانغ، شرق جاوة، الذي كان يرتدي قميصا مرسوما عليه صورة بن لادن وقبعة اليانكي الأمريكية، مما يعني أننا لم نفقد كل شيء بعد، وما علينا إلا أن نحرص على أن يحافظ ذلك الصبي على القبعة لا على القميص.

٢٠٠٢/٠٥/٠٥

الحرب على ماذا؟

جاكرتا، اندونيسيا

على من ينوي أن يزور أندونيسيا، ولو لفترة قصيرة، أن يجهز نفسه للإجابة عن هذا السؤال غير المتوقع والقائل: هل ستنقلب هذه الحرب الأمريكية من حرب على الإرهاب إلى حرب ضد الديمقراطية؟. فبحسب ما يرى الأندونيسيون فإن الولايات المتحدة كانت قد وقفت لعقود عديدة منذ الحرب العالمية الثانية، وراء العديد من الحكام الديكتاتوريين مثل رئيسهم السابق سوهارتو بسبب حربها على الشيوعية. إلا أنه ومنذ سقوط جدار برلين أصبحت الولايات المتحدة تضغط بقوة من أجل تعميم ممارسة الديمقراطية وتطبيق حقوق الإنسان في بلدان مثل أندونيسيا، وذلك بسبب التحول الحاصل في السياسة الأمريكية التي كانت تقوم في السابق على مبدأ احتواء الشيوعية إلى توسيع دائرة النظم الديمقراطية.

وكنتيجة لمتابعة الأندونيسيين لذلك التحول عن قرب، قاموا عام ١٩٩٨ بإسقاط حكومة سوهارتو وأقاموا أول تجربة ديمقراطية في تاريخهم تقوم على مبدأ الانتخاب. كما أنهم حاليا يتابعون بقلق أيضا هذا التحول في السياسة الأمريكية الجديدة، ويخشون أن تكون الولايات المتحدة قد تخلت عن دعمها السابق للديمقراطية بسبب حربها على الإرهاب. وبالتالي فإن تقييمها للدول سيستند بالأساس إلى ما تتخذه من مواقف (مؤيد أو معارض) لهذه السياسة الجديدة، وليس بمدى نزاهة انتخاباتها أو سلامة أجهزتها القضائية، بل بمدى ما تبديه أجهزتها الأمنية وجيوشها من استعداد لمحاربة تنظيم القاعدة. وفي حالة أندونيسيا حيث لا زالت الديمقراطية هشة، فإن أي عودة باتجاه منح النفوذ مجددا لمؤسسات كانت تعتبر مصدرا للخوف الدائم بحكم ما تمتعت به من صلاحيات واسعة، يعد نكسة كبيرة. وصف الصحافي الأندونيسي المعروف، ويمار ويتولار، ذلك فقال: «اعتمد الديمقراطيون الأندونيسيون وبشكل أساسي ودائم على دعم الولايات المتحدة لهم، وفي حال انقطاع ذلك الدعم، فإننا لا نعرف لمن سنتوجه. يشبه ذلك اختفاء الشمس من السماء حيث يبدأ كل شيء بالتجمّد مرة أخرى».

تشترك النخبة الأندونيسية في قناعة مفادها أن أنظمة ديكتاتورية كماليزيا وباكستان أصبحت وبشكل مفاجئ تتمتع بحظوة كبيرة لدى الولايات المتحدة بسبب ما تقدمه من

مساعدة في الحرب على الإرهاب. في حين تم إقصاء دول أخرى بالرغم من كونها ديمقراطية مثل أندونيسيا، وبالرغم مما تشهده من فوضى حاليا.

وفي هذا الصدد يعلق اندرياس هارسونو، الكاتب الأندونيسي، ويقول: «نخشى أن تكون السياسة الأمريكية المؤيدة لنشر وتدعيم الديمقراطية قد دمرت مع برجي مركز التجارة العالمي. منذ١١/٩، انتهز العديد من الحكام الحرب التي أعلنتها الولايات المتحدة على الإرهاب كي يقوموا بمصادرة حرية الإعلام والصحافة في بلدانهم، وإرجاع عقارب الساعة إلى الوراء. وبالنتيجة، فبدلاً من أن ينظر إلى أندونيسيا ذات ديمقراطية هشة وبحاجة إلى دعم، صار ينظر إليها على أنها بلد ضعيف وراع للإرهاب. وفي المقابل ينظر إلى ماليزيا على أنها بلد قوي ومتفوق لأنها اعتقلت عدداً أكبر من الإرهابيين». كما يعتقد الكثيرون هنا في أندونيسيا، بوقوف عناصر محافظة داخل قوات الجيش والشرطة وراء اندلاع المواجهات الطائفية التي وقعت أخيرا في كل من جزيرتي آسيه ومالوكو، كي يجبروا البرلمان على إعادة ما كانت تتمتع به تلك الأجهزة الأمنية من صلاحيات في السابق.

وفي هذا السياق، علّق يوسف وانادي، رئيس مركز الدراسات الاستراتيجية، قائلا: «تساءل عدد من كبار العسكريين الذين تحدثت معهم مؤخرا عن عدم تخلي الحكومة عن كل ما يسمى بحقوق الإنسان وترك حل المشكلة لهم؟ كما طالبوا الأمريكيين بإعادة علاقاتهم مع الجيش الأندونيسي الذي سيقوم بما يطلب منه». يواصل وانار تعليقه قائلا: «هذا أسلوب خاطئ. كما أننا نعتقد بأن الإصلاحات التي تمت داخل الجيش لم تكن بالكافية، مما يدفعنا إلى عدم الثقة بما يقول قادته».

لكن، وللحقيقة، حافظت إدارة الرئيس بوش على حجم مساعداتها المخصصة لأندونيسيا البالغة ١٣٠ مليون دولار سنويا، كما أنها أعلنت وبشكل رسمي عن دعمها للمسار الديمقراطي في أندونيسيا، وطالبتها في الوقت نفسه بالمساهمة قدر استطاعتها في الحرب على الإرهاب (لم يتضح بعد ما إذا كانت هناك أي خلايا للقاعدة في أندونيسيا). إلا أن بعض المسؤولين في البنتاغون يطالبون بعودة الجيش الأندونيسي إلى المسرح السياسي، وإعادة فتح قنوات الاتصال مع العسكريين الذين تم إبعادهم بسبب أعمال القمع والتنكيل التي ارتكبوها في تيمور الشرقية سنة ١٩٩٩. وبحكم أن البلاد قد بدأت في محاكمتهم عن جرائمهم التي اقترفوها في تلك الجزيرة، سيؤدي قيام واشنطن بتبجيل ضرورات محاربة الإرهاب ومنح صلاحيات سياسية للجيش، إلى ضياع أي فرصة لإدانة أي من الضباط المسؤولين عن ارتكاب تلك الجرائم في تيمور الشرقية.

على الولايات المتحدة أن تكون على دراية بالكيفية التي تنظر بها بقية الدول الأخرى إلى حربها على الإرهاب، خصوصا تلك الدول التي تمر بمرحلة انتقالية، كما هي حال أندونيسيا، أكبر بلد إسلامي. وعلى المدى البعيد، فإن الفائدة التي يمكن أن تجنيها الولايات المتحدة - حين تبرهن للدول العربية أنه بالإمكان بناء ديمقراطية إسلامية مع اقتصاد حديث ورؤية دينية معتدلة -، تفوق بكثير ما تجنيه من اعتقال بعض مقاتلي القاعدة في غابات بورنيو.

٠٨/٠٥/٢٠٠٢

غباء القرية الكونية

جاكرتا، أندونيسيا

أصابتني الدهشة أثناء حضوري مأدبة عشاء على شرف بعض الصحافيين الأندونيسيين في جاكرتا، لما قامت ديني جلال، مراسلة مجلة «المعاينة الاقتصادية للشرق الأقصى»، بشن هجوم كاسح على قناة «فوكس» الإخبارية وعلى مذيعها بيل أورايلي، فقالت: «يقولون: نحن ننقل الأخبار وأنتم تقررون، لكنهم منحازون. إنهم يقررون سلفا قبل أن يطلعونا على ما عندهم من أخبار. ويدعون زورا الحياد، إلا أني أشعر بالدوار كلما شاهدت برامج تلك القناة. كما أني أشعر بالضيق عندما يستضيفون مسلمين فقط كي يسيؤوا لهم». وعندما تساءلت عما يدفعها لمشاهدة قناة «فوكس» عندما تتواجد في أمريكا؟ أجابتني قائلة: «لا. لا. قناة «فوكس» تندرج حاليا ضمن خدمة شركة الكابيل التي أشترك فيها»، لذلك يطالعها وجه أورايلي المثير للجدل كل ليلة في منزلها.

في طريقي إلى جاكرتا توقفت في دبي، حيث شاهدت بث القناة الإخبارية العربية (اي. ان. ان)، التي تبث إرسالها من أوروبا بعيدا عن رقابة أية دولة عربية ولها جمهور يمتد على كامل الشرق الأوسط. يغلب طابع الإثارة على برامج تلك القناة، وما تعرضه من مشاهد تتعلق بالصراع الإسرائيلي- الفلسطيني، لأنها تبث بدون انقطاع مشاهد الإسرائيليين يضربون ويجلدون ويصفعون ويسحلون ويقتلون الفلسطينيين. أود أن أقول إن تلك المشاهد تقع خارج السياق، لكن حقيقة لم يكن هناك أي سياق بالأساس، ولم تكن هناك كلمات، بل كل ما هنالك هو صور وإيقاع عسكري هدفها إلهاب مشاعر المشاهدين.

أخبرني مواطن أندونيسي يعمل بالسفارة الأمريكية في جاكرتا، بما شاهده من نفوذ للأصوليين في منطقة جوغجاكارتا، واصفا ما يلي: «هناك شاهدت لأول مرة شعارات في الشوارع كتلك التي تنادي بإعلان الجهاد كحل وحيد للصراع العربي-الإسرائيلي. . . وإذا كنت مسلما حقيقيا يجب عليك أن تتطوع للجهاد. كما سمعت الناس ينادون بالقيام بعمل ما وإلا فإن المسيحيين أو اليهود سيقتلوننا». وعندما تحدثنا إلى بعض هؤلاء وسألناهم عن مصدر تلك الأفكار التي يرددون، أجابونا بأنهم استقوها من الإنترنت. كما أنهم يعتقدون في صحة كل ما هو متداول على شبكة الإنترنت من أخبار. كقناعتهم بصحة ما قرأوه على الإنترنت بوجود مؤامرة يهودية، وأن ٤٠٠٠ يهودي تم تحذيرهم سلفا كي لا يتواجدوا في مركز التجارة العالمي يوم ٩/١١. كما أصر لي محدثي بأن ما يخشاه فعلا هو وجود انقسام واضح بين أهالي جوغجاكرتا: «لا يتجاوز مستخدمي الإنترنت نسبة ٥٪ من مجموع السكان، إلا أن هؤلاء يزودون باقي السكان بالإشاعات. يعمد كثير منهم إلى اعتبارها مرجعا معصوما من الخطأ».

كما أني تعلمت من جولتي هذه التي زرت فيها كل من إسرائيل والأردن ودبي وأندونيسيا، أن العالم، وبفضل الإنترنت والقنوات الفضائية، أصبح يعيش حالة تواصل تقني لا تتماشى مع حالة الانكفاء والانغلاق الثقافي والاجتماعي والسياسي. صحيح أننا أصبحنا نشاهد ونسمع بعضنا البعض بشكل أسرع وأفضل، لكن من دون أن يطرأ أي تحسن على مقدرتنا على فهم والتعلم من بعضنا البعض، بشكل يجعل مثل هذا التواصل يزيد من حدة الغضب، تماما مثلما قال المؤلف جورج باكر مؤخرا في مجلة «نيويورك تايمز»: «إن القنوات الفضائية والإنترنت قد جعلت إلى حد ما من هذا العالم مكانا أقل تسامحا وأقل تفاهما من ذي قبل».

صحيح أن الإنترنت تستطيع أن تعلم الناس بصورة أسرع من أية وسيلة أخرى عرفتها البشرية، ولكنها تستطيع في المقابل أن تجعل الناس أكثر غباء وجهلا كذلك. كالكذبة القائلة بأن ٤٠٠٠ آلاف يهودي تم تحذيرهم بشكل مسبق كي لا يتواجدوا في مركز التجارة العالمي يوم ٩/١١، انتشرت حصرا من خلال الإنترنت. كذبة يصدقها الكثير من الناس في العالم الإسلامي. كما تحيط بالإنترنت هالة التكنولوجيا، مما يحدو ببعض الجهلة إلى تصديق كل ما يرد فيها من أخبار على أي وسيلة إعلامية أخرى، من دون أن يعوا أن الإنترنت ليست سوى مزبلة مفتوحة، أو أنبوب إلكتروني تسبح فيه المعلومات غير الموثقة والمدققة. والأسوأ من ذلك، أن الإنترنت تخرجك من عزلتك ووحدتك وتربطك بجميع الذين يلتقون معك في الآراء والمواقف من مختلف بقاع

العالم. هنا يمكنك أن تستغني عن خدمات البي.بي.سي. وتكتفي بزيارة المواقع التي تؤكد لك صحة آرائك المسبقة.

مثلا، حين قام اثنان من طلاب الجامعة الفلبينيين بنشر فيروس «أنا أحبك» عبر الإنترنت مما تسبب في خسائر تقدر بمليارات الدولارات في أجهزة وبرامج الكمبيوتر، إلا أنه أمكن معالجة ذلك الفيروس بإحداث برامج وقائية ملائمة. لكن هناك فيروسا آخر، أكثر خطورة وجدية يدعى «أنا أكرهك»، يتم تناقله عبر الإنترنت والقنوات الفضائية، فيروس يغرس في عقول الناس أفكارا جد مضرة وموغلة في الشر. وبكل أسف من غير الممكن التصدي له بمجرد الحصول على البرنامج الملائم لوقاية جهاز الكمبيوتر. إنه فيروس لا يمكن مداواته إلا بالتعليم وتبادل البعثات، والدبلوماسية والتواصل الإنساني. ودعونا نأمل أن الأوان لم يفت على إنجاز هذه المهمة.

٢٠٠٢/٥/١٢

عشر حروب وجنازة واحدة

في حال أني قررت اليوم إخراج فيلم عن الصراع العربي- الإسرائيلي، سأسميه «عشر حروب وجنازة واحدة»، وذلك لأن المشكلة الكبرى تكمن في عدم توفر أي فرصة مهما كانت ضئيلة لحل هذا النزاع، الذي تسبب في اندلاع عشر حروب على الأقل.

لنستعرض معا القائمة: تقاتل الأغلبية الإسرائيلية من أجل حق الدولة اليهودية في الوجود في الشرق الأوسط ضمن حدود ما قبل ١٩٦٧، لكننا نشهد اليوم وجود أقلية داخل إسرائيل تعمل على الحصول على دولتين؛ واحدة داخل حدود ١٩٦٧، وأخرى في الضفة الغربية وقطاع غزة. وهذا ما تدل عليه ألاعيب بنيامين نتنياهو، حين أقدم في مؤتمر حزب الليكود الأخير على إحراج رئيس الوزراء آرييل شارون، بأن حاول - خدمة لأغراضه السياسية - أن يقنع تلك الشلة المعتوهة في حزب الليكود برفض قيام أية دولة فلسطينية في الضفة الغربية. يحاول هؤلاء اليمنيون والمستوطنون عمداً أن يصفوا أي مقاومة فلسطينية للاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية، بأنها ضرب من «الإرهاب»، كما يأمل هؤلاء بإقناع الولايات المتحدة كي تدعم الاحتلال الإسرائيلي المتواصل للأراضي الفلسطينية وتعتبر ذلك جزءا من حربها على الإرهاب.

هذه الدعوة تجد تجاوبا وصدى لها داخل إدارة بوش. إلا أن وزارة الخارجية تنظر إلى الحرب الدائرة في الشرق الأوسط، على أنها حرب حول حدود إسرائيل قبل ١٩٦٧ ، لذا نجدها تركز على التوصل إلى «حل للنزاع»، كمجهود دبلوماسي الهدف منه، في نهاية المطاف، مبادلة الأرض مقابل السلام. أما في البنتاغون، فالأمر مختلف، إذ إن الرأي السائد هو أن ياسر عرفات لا يختلف كثيرا عن أسامة بن لادن، وأن بقية الزعماء العرب الآخرين لا يستحقون إلا الاحتقار. كذلك ينظر البنتاغون إلى الحرب الإسرائيلية لسحق سلطة عرفات كامتداد للحرب الأمريكية على الإرهاب. وبالتالي كل ما يمكن أن تفعله أمريكا الآن تجاه الصراع الدائر بين إسرائيل والعرب هو إدارة الأزمة وليس حلها.

لقد استند أصحاب هذا الرأي إلى حقيقة أن الفلسطينيين يخوضون حربين في الوقت نفسه. هناك العديد من الفلسطينيين يقاتلون من أجل إخراج إسرائيل من الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية حتى يتمكنوا من بناء دولتهم الوطنية. إلا أن ذلك لا يعني أنهم يعترفون بشرعية الدولة اليهودية في الوجود داخل حدود ما قبل ١٩٦٧، ولكن لأنهم يدركون تماما أنهم يفتقدون القوة الكافية لتدميرها. لكن وفي المقابل هناك بعض الفلسطينيين، من بينهم عرفات، لم يتخلوا عن أمل قيام دولة فلسطينية عن طريق العمل الدبلوماسي والكفاح المسلح، فيما يعرف اليوم بالضفة الغربية وقطاع غزة - ودولة أخرى في المستقبل داخل حدود إسرائيل الما قبل ١٩٦٧ - عن طريق التكاثر الديمغرافي وضمان حق عودة اللاجئين الفلسطينيين. فإسرائيل لا تظهر على الكثير من الخرائط التي يستعملها السيد عرفات. لذلك، لا فائدة من ترديد مقولة أن الفلسطينيين لا يريدون شيئا سوى نهاية الاحتلال الإسرائيلي. كم تمنيت لوكان ذلك صحيحا.

الأمر نفسه ينطبق على بقية العرب الآخرين. إذ تتدعي كل من مصر وسوريا والعربية السعودية بأن كل ما يريدونه هو انسحاب إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧، ولكن كل من يتابع ما تنشره وسائل إعلامهم باستمرار من مقالات تقارن إسرائيل بألمانيا النازية وتمجد الفتيات الفلسطينيات اللواتي فجرن أنفسهن وسط مدنيين إسرائيليين في تل أبيب، سيجد من الصعب عليه الاقتناع بأن مشكلتهم الوحيدة هي الاحتلال الإسرائيلي وليس حق الدولة اليهودية نفسها في البقاء على خريطة الشرق الأوسط. ولا يختلف الأمر كثيرا بالنسبة للأوروبيين. صحيح أن غالبيتهم تريد إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، ولكن نزعة معاداة السامية المنتشرة هذه الأيام هناك تدل بكل وضوح على أن بعض الأوروبيين يريدون شيئا آخر مختلفاً تماما، فهم يريدون من شارون أن يقترف مجزرة

ضد الفلسطينيين، كما أنهم يريدون أن يصفوا ما حدث في جنين بالمذبحة، حتى يتخلصوا نهائيا من عقدة الذنب التي صاحبتهم بفعل المحرقة، وحتى يتمكنوا من الصراخ عاليا ويقولوا: «انظروا إلى اليهود، إنهم أسوأ منا بكثير».

حين حضرت فعاليات مؤتمر للإعلاميين العرب مؤخرا، تواجدت على المنصة مع أريك رولو، المراسل السابق لجريدة «لوموند» في الشرق الأوسط، قال لي أنه تحدث مع بعض الجنرالات الفرنسيين، الذين أبلغوه بأن ما أقدمت عليه إسرائيل في جنين أسوأ بكثير مما قامت به فرنسا في الجزائر. لقد مات مليون جزائري في تلك الحرب وتشرد مليونان، في حين أنه وإلى الآن تم اكتشاف ٦٠ جثة، الكثير منهم مقاتلون. وعلى من يشاء أن يقارن.

بصراحة، يسعدني الدور المتنامي للرئيس بوش في عملية السلام الجارية حاليا في الشرق الأوسط. إلا أن تحقيق أي نتيجة مرهون بقدرته على إقناع الأطراف المختلفة، بمن فيهم مساعدوه، بالتخلي نهائيا عن كل الحروب التي يخوضونها، وأن يقوموا بإبلاغ شعوبهم، ويعلموا بعضهم البعض بأن هناك حربا واحدة متبقية هي حرب ترسيم الحدود بين الدولة اليهودية والدولة الفلسطينية. وكل من يجرؤ على خوض حرب أخرى، إنما هو عدو للسلام وعدو للمصالح القومية الأمريكية.

١٥/ ٠٥/ ٢٠٠٢

عجز في المخيلة

مجرد السؤال عما تتداوله وسائل الإعلام حاليا عن فرضية أن يكون الرئيس بوش على علم مسبق بإمكانية حدوث اعتداءات ٩/١١، وتكتم على الأمر، هو قلب للأمور رأسا على عقب. لأن الفشل في منع وقوع تلك الاعتداءات لا يعود إلى عجز استخباراتي، أو في التنسيق، بل يعود إلى عدم القدرة على تخيل ذلك. حتى لو تم تبادل كل المعلومات الاستخباراتية بين السي.آى.إي والأف.بي.آي والبيت الأبيض، فانا متأكد تماما من عدم وجود من يجمع كل تلك المعلومات ويستخلص منها مدى حجم الكارثة التي كان بن لادن يخطط لها.

إن أسامة بن لادن شخصية فريدة. هو مزيج بين تشارلز مانسون وجاك ويلش. رجل ذو شخصية ملتوية وشريرة، ولكنه يتمتع بقدر كبير من المهارات التنظيمية العالية

كتلك التي نجدها لدى مديري الشركات الكبرى فقط. لقد استطاع أن يترجم تلك المهارات إلى حملة عالمية هزت قوة عظمى. من المفرح حقا أن تخلو أمريكا (خارج هوليود) من أشخاص ذوي خيال كالذي يتمتع به بن لادن. بالتأكيد تيموثي ماكفيه واحد يكفينا.

إن خيالا على هذا القدر من تخيل الشر والدمار لا يتماشى مع الشخصية الأمريكية وهو ما يفسر أننا - حتى بعد أن واجهنا ذلك الشر - لا زلنا نحافظ على سذاجة أساليبنا وتفاؤل شخصيتنا. كما يعود جزء من ذلك إلى طبيعة مجتمعنا المنفتح والقائم على الثقة أساسا، الثقة كميزة وخاصية ثابتة في تركيبة الشخصية الأمريكية، مما يجعل من المستحيل التخلص منها مهما فعلنا ومهما كانت قوة الدوافع لذلك. فحتى بعد أن قام أحدهم بقيادة شاحنة ملغومة داخل السفارة الأمريكية في بيروت، ومع عجزنا عن حماية ثكنات المارينز من هجوم آخر أكبر حجما وقع بعد ذلك بأشهر قليلة. كما قام أحدهم بتفجير سفارتين أمريكيتين في شرق إفريقيا مستخدما شاحنة مفخخة، لسنوات عديدة عجزنا على تخيل أن يبحر أحدهم في زورق صغير ليفجر المدمرة الأمريكية كول. كما حاول أحدهم أن يفجر مركز التجارة العالمي سنة ١٩٩٣، عن طريق شاحنة ملغومة، كما أنه أخبرنا أنه كان ينوي تفجير مقر السي.آى.إي بطائرة مخطوفة، ومع ذلك نعجز عن تخيل أن يقدم أحدهم على القيام بذلك العمل بالذات يوم ٩/١١، في مركز التجارة العالمي.

لذلك، أنا لا ألوم الرئيس بوش على عدم تخيل إلى أي مدى يمكن أن نوغل في الشر. ونظرا للطبيعة القاتلة التي أصبح عليها الإرهاب، ما علينا إلا أن نتأقلم، ونعمل على بعث «مكتب الشيطان» تنحصر مهمته الأساسية على تمشيط كل المعلومات الاستخباراتية والتكهن بما يمكن أن يقوم به كل مختل ومعتوه. لا، أنا لا أتهم الرئيس بوش على الإطلاق على عدم تخيله كل ذلك. بل ألومه على أمر آخر أكثر فظاعة، وهو عجزه عن افتراض أن شيئا حسنا سيقع. كما ألومه على تبديده لكل ذلك الدعم الإيجابي الذي تلقته أمريكا بعد ٩/١١، وبشكل خاص لدى أولئك الشباب الأمريكيين الذين رغبوا في التطوع والانخراط في عمل جبار من شأنه أن يقوي أمريكا على المدى البعيد - مشروع مانهاتن من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتي في مجال الطاقة. إن مشروعاً كهذا من شأنه أن تنخرط فيه الشبيبة على المستوى القومي من أجل الدخول في مجهود علمي وصناعي مشترك من أجل العثور على مصادر طاقة بديلة منتجة محليا وتحقيق الاكتفاء الذاتي، مما سيساعدنا على التخلي تدريجيا عن اعتمادنا على الطاقة المستوردة.

إن قيام مشروع كهذا لن يجعل أمريكا أكثر أمانا لعدم اعتمادها على طاقة مستوردة من دول لا تؤمن بأي من قيمنا فحسب، بل سيجعلنا أكثر أمانا باعتباره دليلاً قوياً يدفع بالعالم إلى مساندتنا في محاربة الإرهاب. إذ من المستحيل علينا أن نحقق أي نجاح في هذه الحروب بدون مساعدة من حلفائنا. وكما يستحيل على أمريكا أن يكون لها شركاء دائمون، خاصة في أوروبا، إلا إذا نظر إليها على أنها مواطن عالمي مثالي. وهو أمر لا يتحقق إلا إذا بدأنا بتخفيض نهمنا وأنانيتنا في مجال استهلاك الطاقة، وترميم معاهدة كيوتو من أجل الحد من ارتفاع درجة الحرارة في العالم.

إن الرئيس بوش لا يتحمل وحده مسؤولية هذا الفشل. لقد تلقى مبايعة تامة من قيادات الحزب الديمقراطي، الذين افتقدوا بدورهم أي مقدرة على التنبؤ بالمستقبل مما سهل على الرئيس بوش وشلته من رجال النفط مهمتهم. سوف نندم ويندم أطفالنا على ذلك. لأن الحرب على الإرهاب لا تقتصر فقط على إرسال بعض الجنود إلى أفغانستان أو بتشديد الرقابة على حدودنا، حرب مصيرية كهذه من الصعب أن تنتهي بنصر حاسم، لأن عرضة لإمكانية أن يتسلل أحدهم. إن حرباً على الإرهاب، تُخاض تحت شعار «من أجل أن تكون أمريكا أكثر أمناً وأفضل»، هي حرب من الممكن إحراز النصر فيها. إنها حرب يجب أن تؤدي إلى بروزحقائق ثابتة ومستمرة أكثر من الطوابير الطويلة في المطارات بعد احداث ٩/١١، حقائق تحفز الجميع على احترام أمريكا كبلد وكقارة على نحو تصبح فيه أكثر اخضرارا وأمانا بصفة عامة. من المؤسف جدا أننا نفتقر إلى رئيس يمكنه أن يتخيل كل ذلك.

٢٠٠٢/٥/١٩

لا للخوف

عفوا، هل من الممكن أن تهدأ أعصابنا جميعا.

ما بدأ وكأنه مجرد تساؤلات حول الكيفية التي تعامل بها فريق الرئيس بوش مع تلك الإنذارات المبهمة التي ظهرت قبل ٩/١١، والتي نبهت إلى إمكانية تعرض الولايات المتحدة لهجمات انتحارية، تحول الآن إلى حملة اتهامات تتطلب من فريق الرئيس أن يدافعوا عن أنفسهم - ولهم الحق في ذلك-، بل وإلى سلسلة من الإنذارات تتنبأ بوقوع هجوم آخر وشيك ولكننا لا نستطيع تحديد زمانه أو مكانه أو كيفيته.

هنا أريد أن أقول إنه وخاصة بعد ما شاهدناه يوم ٩/١١، يكون من العته والبله

استبعاد إمكانية تعرضنا لأي هجوم ومن أي نوع. وبالتالي فإني لست مستعدا لتوجيه الاتهام إلى دائرة الرئيس لأنهم لم يأخذوا التحذيرات السابقة على ٩/١١، محمل الجد. وفي المقابل، أنا لا أرغب في الإصغاء إلى التحذيرات الغامضة باحتمال وقوع هجمات مستقبلية الصادرة عن نائب الرئيس ورئيس الأف. بي. آي.

ما العمل إذاً في ضوء كل هذه المعطيات؟ هل نتجنب دخول أي مبنى كبير بحجة أنه من الممكن أن تكون خلية تابعة للقاعدة قد إستأجرت شقة هناك كي تتمكن من تفجير البناية كلها؟ هل نعتكف داخل بيوتنا؟ هل نتجنب الاقتراب من كل منشآتنا القومية؟ هل نربت على بطن كل إمرأة حامل حتى نتأكد أنها لا تحمل حزاما ناسفا؟ من يريد أن يحتمل حياة كهذه؟. لذلك نحتاج إلى التوصل إلى حل وسط؛ كأن نتوقف عن اتهام إدارة الرئيس بوش لأنها عجزت عن التنبؤ بأحداث ٩/١١، كما يتوجب عليها هي بالمقابل أن تكف عن تخويف البلاد بأسرها باحتمال تعرضنا لمختلف أنواع الكوارث والمصائب الممكنة، بدون تحديد أو تدقيق. لأن أثر هذه الإنذارات لا يقتصر على مضاعفة قلق المواطنين بعد أن هدأت أعصابهم فحسب، بل ستحجب حقيقة أننا منتصرون في هذه الحرب التي لم تنته بعد. وفي الوقت نفسه أنا لا أستبعد إمكانية حدوث هجوم آخر في وقت ما وفي مكان ما وبطريقة ما، لكننا قطعنا أشواطا عديدة إلى حد الآن. وعلى احتمال أن أسامة بن لادن ما يزال حيا، وهو أمر مستبعد، فإن مقدرته على توجيه ضربات ضد الولايات المتحدة قد شلت. من الممكن أنه لا يجرؤ حتى على استعمال الهاتف. كما يجب ألا نغفل عن حقيقة أن أسامة بن لادن أو كبار قادة التنظيم العاملين معه يشكلون مجموعة ذكية ومبدعة وجريئة، كما أنهم يحرصون على عدم الظهور بشكل يومي. وفي حال أنهم قتلوا أو تخفوا عن الأنظار في الكهوف العميقة، من المؤكد أنهم غير قادرين حاليا على القيام بأي نشاط، مع إمكانية وجود خلايا صغيرة متفرقة وغير محترفة لكنها قادرة على إلحاق أذى كبير. كل هذا لا يقلل من أهمية ما تم من إنجازات عظيمة تمثلت في توجيه ضربات قاصمة وموجعة لتنظيم كالقاعدة وتجفيف مصادرها المالية، وإسقاط حكومة طالبان بأفغانستان مما تسبب في حرمان القاعدة من ملاذها الوحيد الآمن.

إضافة إلى ما تم من خطوات على مستوى تطبيق إجراءات السلامة في المطارات، وما أقيم من تنسيق بين مختلف الفروع والأجهزة الأمنية كالأف. بي. آي والسي. آي. إي ووكالة الأمن القومي، كما صرنا نخضع الطلبة الأجانب لمراقبة شديدة، وما تم من اعتقال للمتهمين بالآلاف بفضل تعاون حلفائنا معنا. لذا، إذا لم يحصل أي اعتداء

إرهابي آخر، فإن ذلك لا يعني أن الإرهابيين قد غيروا من نواياهم، بل لأننا أرهقناهم وأضعفناهم كثيرا وهو أمر إيجابي جدا.

ولكن نظرا للطبيعة الخاصة لهذه الحرب التي تخاض ضد مجموعات صغيرة وأفراد مصممين على ارتكاب أعمال إرهابية، مما يجعل من المستحيل تحقيق نصر نهائي وحاسم، لكن بإمكاننا بالمقابل تخفيض عدد الهجمات، عن طريق جعل التنظيمات الإرهابية في حالة هرب دائم، وتدمير مصادر قوتهم وتبديد فعاليتهم. تحقيق كل ذلك مشروط بأن يكف المشرفون على هذه الحرب عن الهلوسة وإشاعة الرهبة بين الناس بنشر تحذيرات غامضة ومبهمة حول إمكانية حصول اعتداءات إرهابية في المستقبل. كما يجب ألا يأخذ ما أقول على أنه حكم بالبراءة التامة لفريق بوش. كما أننا نحتاج إلى فريق من المختصين والتقنيين وليس السياسيين، كي يمعنوا النظر في المعلومات المتداولة حاليا حول مختلف أوجه الفشل الاستخباري، ويحللوا الطريقة التي تعاملنا بها مع القاعدة خلال العقد الماضي، ويكشفوا الأسباب التي منعتنا من القيام بتحسين أداء أجهزتنا الاستخباراتية، ويحللوا عجزنا عن رؤية ترابط الأحداث ويحددوا كيفية تجنب ذلك في المستقبل. كما أننا نحتاج أن نتصرف بحكمة وعقلانية أيضا حتى نستطيع المحافظة على انفتاح مجتمعنا، بمراعاة كل المحاذير الواجبة وتعلم العيش في واقع يتسم بقدرأكبر من المجازفة. هذا قدرنا، علينا أن نتأقلم ونرحم أنفسنا وألا نبالغ.

لا أعرف شيئا عما ستنوي القيام به. لكن برنامجي لعطلة عيد الشهداء سيكون كما يلي: سألعب الغولف يوم السبت، ويوم الأحد سأقوم برحلة على الدراجة، أما يوم الإثنين سأقيم حفلة باربكيو. إذا كان رئيس الأف. بي.آي يريد مني أن ألغي برنامجي هذا، ما عليه إلا أن يصدر تحذيرا واضحا ومحددا وألا يزعجنا بغير ذلك. بالنهاية علينا أن نتذكر أنه من المفروض أن يكون تنظيم القاعدة هو من يعيش في حالة هروب وخوف وليس نحن.

٢٢/٠٥/٢٠٠٢

موصول وخائف

بمجرد أن علمت أن محمد عطا كان قد استخدم كمبيوتره المحمول من أجل حجز تذكرة له على الخطوط الأمريكية عبر موقع الشركة على الإنترنت، وأن العديد من رفاقه

قاموا بالشيء نفسه مستخدمين موقع شركة ترافيلوسيتي دوت كوم، تساءلت عن الكيفية التي أصبح ينظر بها خبراء السيليكون فالي، إلى كارثة ٩/١١، والقناعات التي اكتسبوها.

عندما قمت مؤخرا بزيارة كل من جامعة ستانفورد والسيليكون فالي، انتهزت الفرصة كي أطرح تلك التساؤلات على بعض المختصين هناك، حيث لاحظت غياب ما كان لدى البعض منهم من غرور واعتداد بأن التكنولوجيا ستتولى حل جميع المشاكل على الساحة، ليحل محل ذلك وعي أكثر عمقا وأكثر حرصا على ما يمكن أن تؤدي إليه خدمات شبكة التقنيات الفريدة التي أقامها السليكون فالي قبل ٩/١١، التي بإمكانها أن تضاعف بشكل رهيب من قوة وفاعلية الأفراد أو الجماعات الصغيرة بفضل نجاعة برامجها السرية، كي تعمل خيرا أو شرا. كما اعترف كثيرون بأن كل تلك التقنيات كانت قد أقيمت على افتراض مسبق وثقة عالية في حسن توظيفها، ثقة قد اهتزت الآن وحل محلها شك وريبة في أن شركات التكنولوجيا العالية لا تتعرض للمنافسة من منافسيها فقط بل ومن مستخدمي تلك التكنولوجيا أيضا.

عبّر عن ذلك جيم هورنثال، الرئيس السابق لشركة ترافيلوسيتي دوت كوم، عندما طرح سؤالا وجيها وجديدا على تلك الشركات فقال: «يمكن اعتبار سؤال: كيف يمكن أن تستخدم هذه التكنولوجيا ضدي؟ سؤالا مصيريا، بالرغم من كون الناس تعودوا في السابق على الاعتقاد أن العدو هو مايكروسوفت وليس محمد عطا».

كان التقليد السائد في سيليكون فالي يقوم على إنزال أي ابتكار تقني ناجح جديد إلى السوق من شأنه أن يستدرج متأقلمين مبكرين لاستعماله، مما سيؤدي إلى إقبال العديد من المستخدمين الجدد عليه وأخيرا يتم الإقبال الجماعي على استعمال ذلك الابتكار. لكن اتضح أن هناك طريقا إجراميا موازيا يبدأ بالمفسدين الأوائل للتكنولوجيا الجديدة ويتجه نزولا حتى يصل إلى أيدي المخربين الحقيقيين. مثلا كان بإمكان منفذي اعتداءات ٩/١١، أن يقوموا باستخدام برنامج اتصال كوني يدعى ستيغانوغرافي، يسمح لمستخدمي البريد الإلكتروني على سبيل المثال، بإرسال صورة طفل تحتوي سرا على وثيقة من ٣٠٠ صفحة مضغوطة أو حتى على رسالة صوتية. وقد شرح ذلك البروفسور بجامعة ستانفورد جوزيف.أ. غروندفست، فقال: «لقد أقمنا الجزء الأكبر من أنظمتنا التكنولوجية على فرضية توفر الثقة وهو افتراض لم يعد دقيقا. فالثقة صاحبت نشأة كل شيء بدءا بالحاسوب وشبكة الإنترنت ونظام بناء الرموز. أما ما نوع نظام الترميز الذي نحتاج إليه فيعتمد على نوع المخاطر التي نتوقع وجودها. لذلك لم يحتسب أحد من

قبل فرضية اختطاف طائرة مدنية للارتطام بمبنى عال. وهذا أمر تغير الآن. كما يعمد الإرهابيون إلى هز ثقتنا بكافة الأجهزة والتقنيات التي نستخدمها الآن في حياتنا اليومية، كأن تنهض صباحا وكلّك ثقة بأنك ستصل إلى عملك عبر جسر بروكلين، لكن ذلك لا يتم. وهذا خطر مميت، لأن المجتمعات التي تتمتع بدرجة ضئيلة من الثقة هي مجتمعات متخلفة بالأساس.

يتساءل المرء الآن عن جدوى فاعلية المعارضة الشديدة التي أبداها خبراء السيليكون فالي لفكرة القرص الرقيب (Clipper Chip)، التي كانت ستفتح للحكومة بابا خلفيا للاطلاع على كل نظم المعلوماتية المستخدمة داخل الولايات المتحدة. وقد علق على ذلك المستثمر والرأسمالي، جون دوير، فقال: «لقد بلغ تقنيو السليكون فالي درجة معينة من النضج قبل ٩/١١، إلا أنهم وبكل تأكيد زادوا من احترامهم العميق للمسؤولين والمؤسسات الحكومية».

ومن ناحيته أوضح المسؤول السابق في شركة ترافيلوسيتي، السيد هورنثال، بأنه لا فرق إذا كان الزبون محمد عطا أو بيل غايتس، وقال: «كانت مسؤوليتنا الوحيدة تتلخص في قدرتك على الدفع. لا يعنينا إن لم يكن هناك تطابق بين اسمك وبطاقة الاعتماد المستعملة وعنوان فاتورتك. لا يدخل ذلك ضمن مسؤوليتنا، ولا يمكننا التأكد من نواياك عند شرائك لتلك التذكرة. مما يتطلب منا قدرا أكبر من المسؤولية والحس الأمني، بحيث نتأكد من تطابق ما تقدمه من وثائق».

وفي معرض الحديث عن الهوية أشارت خبيرة التسويق، بيثاني هورنثال إلى أن سيليكون فالي كانت دائما ساحة متعددة الثقافات والأعراق حيث يشعر الشباب العاملون هناك بسهولة ذهابهم إلى أي مكان في العالم واندماجهم فيه، باعتبارهم شباناً كونيين. وقالت أيضاً: «بعد ٩/١١، مباشرة تغير كل ذلك. فجأة أصبحوا أمريكيون وفجأة أصبح هناك تهديد ما لتلك الهوية. وبالنتيجة صار العالم أكثر ضيقا ومحدودية بالنسبة لهم». وتسأل هورنثال: «أين هي الأماكن الآمنة بالنسبة للأمريكيين؟ ربما أصبح العالم أصغر حجما لكني لم أعد أتمتع بحرية الذهاب أينما أشاء كما في السابق». أو كما قال مازحا صديقي ورجل الأعمال جاك مورفي، عندما تحاورنا حول تدني حجم الاستثمار في مجال التكنولوجيا الرفيعة: «ربما من الأفضل لي أن أستثمر في مجال بناء السياجات بدلا من التكنولوجيا».

٢٦/٠٥/٢٠٠٢

حرب انتحارية

من الواضح الآن أنه يمكن اعتبار الاقتتال الفلسطيني-الإسرائيلي الذي اندلع في ربيع ٢٠٠٢، بالحرب العربية-الإسرائيلية السادسة. وسيتم ذكرها في كتب التاريخ بجانب حروب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، و١٩٨٢. إلا أنه لم تقع تسمية هذه الحرب بعد، (ربما الحرب الانتحارية؟). كما أنها تشترك مع جميع الحروب السابقة لها في العواقب التي نتجت عنها وهي خلخلة السياسات العربية والفلسطينية والإسرائيلية على السواء تماما مثلما حدث إثر كل الحروب السابقة.

لنبدأ بالفلسطينيين أولا، لقد كان هناك نقد شائع- حتى قبل أن تندلع تلك الحرب- لافتقاد كتائب الأقصى أي أهداف واضحة ومحددة وأن السيد عرفات بدلا من البدء في مشاريع نهضوية، قام بتغيير وجهة غضب مواطنيه كي يتجنب تعرضه لأي انتقاد عن سوء تصرفه بالسلطة. نعم، لا يزال السيد عرفات من أكبر المستفيدين من أخطائه، إلا أنه هذه المرة قد أساء كثيرا إلى قضيته والفلسطينيون يعلمون ذلك.

أولا، عن طريق استفزازه لإسرائيل بالعمليات الانتحارية المتلاحقة مما أدى إلى قيام إسرائيل بأعمال انتقامية التي لم تؤدِّ هذه المرة إلى تخريب مدن عربية أخرى كما حدث في عمان سنة ١٩٧٠، وبيروت سنة ١٩٨٢، بل إلى تخريب مدن وقرى وبلدات فلسطينية هذه المرة كرام الله ونابلس وجنين وبيت لحم.

وثانيا، بتشجيعه ودعمه للعمليات الانتحارية بعد أن رفض العرض الأمريكي الداعي لقيام دولة فلسطينية، مما أدى إلى تدهور العلاقات الفلسطينية الأمريكية. في حين تقابل الرئيس كلينتون مع عرفات أكثر من أي زعيم عالمي آخر، فالسيد عرفات لا يستطيع مقابلة الرئيس بوش حتى لو طاف هو بنفسه بالبيت الأبيض.

وثالثا، تسببت العمليات الانتحارية في إقصاء الفريق الوحيد القادر على بعث دولة فلسطينية، وهي الأغلبية الإسرائيلية الصامتة. يمكن اختزال كل المسار التاريخي للعملية السلمية في النقطة التالية: إذا حاول الفلسطينيون إقناع الوسط الإسرائيلي بأنهم جاهزون ومستعدون للعيش معا كجيران في دولتهم المستقلة والخاصة بهم، فمن المؤكد أنهم سيحصلون على ذلك. وفي حال أنهم عجزوا عن إقناعهم، فمن المؤكد أيضا أنهم لن يستطيعوا الحصول على استقلالهم. وكل ما عدا ذلك هو من قبيل الهرطقة.

وفي المقابل كان أثر هذه الحرب على السياسة الإسرائيلية واضحا كما وصف ذلك

أستاذ الفلسفة في الجامعة العبرية وعضو في معهد هارتمان، موشي هالبرتال، قائلا: «لقد أنهت ذلك الجدل الذي كان قائما بين اليمين واليسار والذي سيطر على الحياة السياسية في إسرائيل منذ ١٩٦٧، لقد تم الإجهاز على كبرى المدرستين السياسيتين في إسرائيل».

وبالفعل لقد اتضح جلياً خطأ الفكرة اليمينية الداعية إلى الاستمرار في الاحتلال الاستيطاني الإسرائيلي للضفة الغربية والاستيلاء على المزيد من الأراضي الفلسطينية لبناء المزيد من المستوطنات، لأن الفلسطينيين عاجزون عن أي مقاومة. كذلك انهارت الفكرة التي يتبناها اليسار الإسرائيلي والقائلة بأن عودة السيد عرفات إلى الضفة الغربية ستترافق مع بناء حكومة محترمة وقيام مجتمع مدني وسيؤدي كل ذلك بالنتيجة إلى المطالبة بإنهاء الاحتلال عن طريق بناء دولتين متجاورتين.

وكنتيجة لكل ذلك نجد أن إسرائيل اليوم ملتفة حول فكرتين رئيسيتين بدل أن تكون مقسمة بينهما؛ هناك أغلبية إسرائيلية مستعدة للإجهاز نهائيا على الفلسطينيين ما داموا مستمرين في تنفيذ العمليات الانتحارية. وبالمقابل هناك أغلبية إسرائيلية أخرى بدأت تأخذ بالاعتبار ما طرحه ولي العهد السعودي عبدالله، أي انسحاب كامل مقابل اعتراف كامل كأساس لمشروع سلمي في حال تمكنوا من إقناع الفلسطينيين بالتخلي عن العنف.

أما الأثر الأكبر على الحكام العرب فقد تمثل في كونهم من الآن فصاعدا لم يعودوا بقادرين على السيطرة والتحكم والتلاعب بوسائل الإعلام بفضل التطورات الحاصلة في مجال الإنترنت والقنوات الفضائية، وبالتالي فهم غير قادرين كذلك على التحكم في اتجاهات الرأي العام مثلما كانوا في الماضي. فقد ساهم الإعلام العربي غير الحكومي في إلهاب مشاعر الشارع العربي عن طريق ما تم نقله من صور الانتفاضة والقتال الذي جرى في الضفة الغربية. وبالرغم من عدم قدرة هذا الشارع الغاضب على الإطاحة بهؤلاء الحكام في وقت قريب، فقد بدأ الغضب الشعبي من العجز العربي أمام إسرائيل في التصاعد والنمو والتداخل بالغضب من ضعف الاقتصاد العربي وضعف تلك الأنظمة العربية الديكتاتورية بشكل بدا يخيف حتى الحكام المعتدلين العرب الذين صاروا يرغبون في إزالة صور ومشاهد ذلك النزاع من على الشاشة.

وباختصار، لقد أصبحت المنطقة جاهزة أكثر من أي وقت مضى لتلقّي مبادرة أمريكية كبرى. وبكل أسف لا أحد من القادة الأمريكيين والإسرائيليين أو الفلسطينيين يريد أن يقدم على القيام بما هو مطلوب لخلق أرضية انتقالية في الضفة الغربية وقطاع

غزة. أو كقيام وحدات عسكرية أمريكية أو تابعة للناتو بالإشراف على البناء المرحلي لسلطة وطنية فلسطينية مسؤولة ويقابل ذلك تفكيك مرحلي أيضا للمستوطنات. وفي حال أننا تخلينا عن القيام بهذه المهمة فإننا نكون قد هيّأنا الأرضية للحرب العربية الإسرائيلية السابعة.

٢٩/٠٥/٢٠٠٢

حرب فكرية

أسعدتني كثيرا السرعة التي يستجيب بها عناصر الأف. بي.آي. المحبطون كلما شكّوا في وجود إشارات أو دلالات كان من الممكن أن تقودهم إلى التكهن بأحداث ٩/١١. لكن علينا أن نتذكر شيئا مهما وهو أن ليست كل إشارات وعلامات ذلك العدوان كانت خفية ومبهمة. العديد منها كان واضحا وجليا تمثل في شكل خطب تدعو إلى الكراهية ونظريات مؤامرة موجهة ضد أمريكا ويتم تداولها في المدارس والمساجد على امتداد العالم الإسلامي. لذا، فإذا كنا ننوي فعلا تجنب وقوع ٩/١١، آخر علينا أن نقوم بما هو أكثر من مجرد التجسس على أعدائنا في الخفاء. علينا أن نواجه ونفند أفكارهم في العلن.

بصراحة، آمل أن يختفي صدام حسين غدا، لكن حتى وإن وقع ذلك فإنه لن يحل مشكلتنا، لأن صدام يمثل خطرا تقليديا يمكن القضاء عليه بالطرق التقليدية، وهو لا يلهم أحدا أيضا. لأن الذين ألهموا وشجعوا المختطفين هم زعماء دينيون وأشباه مثقفين ودعاة ومعلمون متواجدون بصفة خاصة في مصر والمملكة العربية السعودية التي تواصل استخدام مداخيل ثروتها النفطية الهائلة من أجل نشر مذهبها الوهابي المتزمت وغير المتسامح.

لكن الخبر السار يتمثل في كون هذه المجتمعات ليست أحادية ومتجانسة، بل هناك شريحة واسعة من المواطنين العاديين في كلا البلدين يريدون منا أن نضغط على حكامهم وسلطاتهم الدينية من أجل أن ينشروا التسامح ويطوروا الإسلام ويكفّوا عن تمويل المتطرفين. ومن المؤسف حقا أن ترى الرئيس بوش يتراجع عن الدخول في مثل هذا التحدي. إثر زيارتي الأخيرة للسعودية تلقيت رسالة بالبريد الإلكتروني من شابة سعودية (وقّعت الرسالة باسمها)، تقول: «كمعتدلة سعودية أشكرك على مجهوداتك التي

بذلتها من أجل إلقاء الضوء على ما يجري في العربية السعودية. . . حضرة السيد فريدمان، إن مدارسنا تعلّم التعصب الديني، و تقوم أغلب مساجدنا بنشر الكراهية إزاء غير المسلمين. في حين تخضع وسائل إعلامنا لرقابة شديدة من الحكومة ورجال الدين. لذلك تفتقر افكارنا المعتدلة إلى أي منبر. كما أن حكومتنا عاجزة عن القيام بأي شيء لإيقاف رقابة رجال الدين التي تشل حياتنا. أيها السيد فريدمان، نحن بحاجة إلى مساعدة».

وفي الثامن من أيار/ مايو نشرت جريدة «الشرق الأوسط» التي تملكها السعودية، مقالا لأحد الدبلوماسيين لم يذكر اسمه الحقيقي، تساءل ذلك الكاتب قائلا: «ماذا لو ركز كل نظام عربي اهتمامه منذ سنة ١٩٤٨ على مجهود التنمية الداخلية ودون أن يجعلوا من فلسطين المشكلة الرئيسية؟ ماذا لو ركز كل نظام عربي اهتمامه على تعليم مواطنيه وتحسين صحتهم الجسدية والعقلية والرفع من مستواهم الثقافي؟ إنني أستغرب من رجال الدين الصارخين منادين بالجهاد ويتنافسون بين بعضهم البعض على إصدار فتاوي مؤيدة للعمليات الانتحارية، وفي الوقت نفسه لا يشجعون مواطنيهم على الجهاد الروحي من أجل بناء مجتمعاتهم».

وباختصار، إن لأمريكا والغرب العديد من الشركاء المستقبليين في هذه الدول، وهم متحمسون لمساعدتنا لهم في وضع الصراع في مكانه الصحيح، أي أن تصبح حربا ضمن وداخل الإسلام وحول مغزى رسالته الروحية وهويته الحضارية. وليس حربا ضد الإسلام. وتتمثّل الحرب داخل الإسلام، في حرب بين التعصب والتسامح، بين المستقبل والماضي، بين التنمية والتخلف، بين مؤلفي نظريات المؤامرة الحمقاء وأنصار العقلانية، وبين المدافعين عن التفجيرات الانتحارية وأولئك الذين يدركون أنه لا مجال لبناء مجتمع بحجارة المقابر فقط. إن العرب والمسلمين وحدهم فقط يمكنهم الانتصار في هذه الحرب من الداخل. وكل ما يمكننا القيام به هو تشجيع المتفتحين والنيرين منهم. وما عدا ذلك يعد بحثا عن حلول سريعة غير مجدية، كالاعتقاد الواهم بأن التخلص من صدام حسين سيؤدي بالضرورة إلى القضاء على كل المتعصبين.

إن السياسي الغربي الوحيد الذي تجرأ على الدخول في مثل هذا التحدي هو الهولندي بيم فورتيون، الذي اغتيل يوم ٦ أيار / مايو الماضي لأسباب أخرى. لقد تساءل السيد فورتيون عن هجرة المسلمين إلى هولندا (التي بحلول سنة ٢٠١٠ سيفوق عدد المساجد فيها عدد الكنائس) لا لأنه ضد المسلمين ولكن لأنه شعر بأن الإسلام لم يمر بحالة من التنوير والإصلاح بشكل يؤدي إلى فصل الدين عن الدولة كما حدث في

الغرب مما سيؤهله كديانة لتبني الحداثة والديمقراطية والتسامح. وكلوطي، كان السيد فورتيون في أمسّ الحاجة إلى التركيز على التسامح، وتمثل تحدّيه للمهاجرين المسلمين في المعادلة التالية: أريد أن أكون متسامحا لكن هل أنتم كذلك؟ أم أن ثقافتكم السلطوية لا تقبل بالاندماج وتشكل تهديدا لروح التعدد الثقافي والليبرالي في بلادي؟

وفي هذا السياق، صرح المتهم رقم ٢٠ في أحداث ٩/١١، زكريا الموسوي، أمام محكمة فيدرالية أمريكية بأنه «دعا الله راجيا منه تدمير الولايات المتحدة». هذه فكرة قبيحة لا يقبل بها الكثير من المسلمين. ولكن إلى أن نتمكن من تكوين فريق مشترك مع أولئك المعتدلين لشن حرب أفكار على المتطرفين، سيظهر كثيرون من أمثال الموسوي وسوف لن يكون هناك عناصركافية من الأف.بي.آى للعثور عليهم.

٢٠٠٢/٦/٢

مصر والدور الغائب

اطلعت على حديث الرئيس المصري حسني مبارك، الذي نشرته «نيويورك تايمز»، والذي قال فيه إن مصر سبق لها أن حذرت الولايات المتحدة من إمكانية تعرضها لاعتداءات إرهابية خطط لها تنظيم القاعدة، وذلك قبل تاريخ٩/١١، وقال أيضا إنه يملك خطة جديدة حول كيفية قيام دولة فلسطينية. وهذا كله كلام جيد، لكنه ولسبب ما غير مطمئن. لأننا لا نريد من مصر أن تكون شرطيا يعمل بإمرتنا، بل نريد منها أن تترجم وتعكس الجانب النير والتقدمي للسياسة الخارجية الأمريكية. وبالتحديد نريد من مصر أن تلعب ذلك الدور القيادي والريادي الذي سبق ولعبته في السياسة العربية في بدايات القرن العشرين. دور اكتسبته بفضل مكانتها التاريخية، ولا مجال لها أن تتنصل منه. يجب عليها أن تتولى قيادة العالم العربي والإسلامي متخذة بعدا إيديولوجيا عميقا عمق جذورها العربية والإسلامية، بحيث إنها تعمل على نشر التعددية والتقدمية والديمقراطية. هذا هو الأمر المهم الذي تستطيع مصر تقديمه لنا، وبكل أسف هذا هو تحديدا ما لم تقدم عليه على مدار عقود خلت.

ولكي أكون أكثر صراحة، تحتل مصر مركز الثقل في العالم العربي ولديها أكبر طبقة وسطى، وأكثر نسبة من المتعلمين ذوي الطاقات الواعدة جدا. لذا كان من الممكن لمصر أن تكون تايوان البحر الأبيض المتوسط، لكنها أصبحت بلدا يعيش حالة ركود

قاتلة إلى الدرجة التي سمحت لعدة دول عربية أخرى صغيرة إلى تجاوزها. كان الأردن أول بلد عربي يوقع اتفاقية التبادل التجاري الحر مع الولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه أصبحت البحرين مخبر تجارب لكل الطرق والأساليب الخلاقة من أجل التوصل إلى كيفية إنجاح تجربتها الديمقراطية. أما قطر فإنها تحتل مكانا رياديا في مجال البث الفضائي، بفضل ما حققته قناة الجزيرة من نجاح. وكذلك تونس بالرغم من نظامها الدكتاتوري، فقد تمكنت من بناء نظام اقتصادي ليبرالي، ونجحت في تعزيز أواصر التعاون مع الإتحاد الأوروبي. كان مفترضاً أن تنطلق كل هذه الإنجازات والابتكارات من مصر، ولو حدث ذلك لكان لها تأثير إيجابي عظيم على مسار الحداثة في جميع الدول العربية، خصوصا تلك الدول التي تعاني من حالة تعفن كالعراق وسوريا والعربية السعودية. لكن وبكل أسف لم يحدث ذلك أيضا. لقد توقفت أو عجزت مصر عن إنجاب مثقفين رياديين مثل نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وطه حسين. كما أن المناخ الثقافي المصري يشهد حالة تردٍّ وجمود بسبب الرقابة المشددة القاتلة لأي نفس تجديدي في ميدان الإعلام و السياسة والحياة الثقافية.

يدّعي الرئيس مبارك أن «لديهم كل أنواع الديمقراطية». هل هذا صحيح؟ كل أنواع الديمقراطية عدا نوع واحد فقط، ألا وهي الديمقراطية الحقيقية التي تمنع ولا تبيح محاكمة خبير الشؤون الديمقراطية الدكتور سعد الدين إبراهيم، لا لشيء إلا لأنه دافع عن حرية التعبير ودافع عن التغيير الاجتماعي، وطالب بمحاسبة الحكومة.

في منتصف التسعينات بدا أن الرئيس مبارك أدرك حاجة مصر إلى خصخصة وإصلاح الاقتصاد كي تستطيع أن تجاري تزايد عدد السكان الهائل الذي سيتضاعف في العشرين سنة القادمة. إلا أنه تراجع عن المضي قدما بتلك الإصلاحات، مما أثر سلبا على أداء الاقتصاد المصري الذي عجز عن جلب المستثمرين الأجانب والمحليين على السواء. مثلا، ما تصدره دولة مثل كوستاريكا التي لا يتجاوز عدد سكانها ٤ ملايين نسمة، يفوق بكثير ما تصدره مصر ذات الـ٦٨ مليون شخص. أو تايلاند التي تتساوى في عدد سكانها مع مصر، تفوق صادرها عشرة أضعاف الصادرات المصرية.

نعم، صحيح أن مصر تعرضت لتهديد مباشر من تنظيم القاعدة، لكنها تعاملت مع ذلك التهديد إما بالاعتقال أو بنفي النشطاء والقادة الأصوليين، مما أدى إلى فراغ سياسي وإيديولوجي تمكن شخص مسكون بالعنف مثل أسامة بن لادن من سده. كما أن مصر شأنها في ذلك شأن بقية الدول العربية، تعيش حالة عجز عن إيجاد وطرح أي بديل إسلامي وتقدمي وديمقراطي قادر على مجابهة رؤى بن لادن.

أما إعلان إدارة الرئيس بوش عن اعتزامها الإنفاق على إعلانات تلفزيونية بغية إيصال رسالتنا باللغة العربية إلى العالم العربي بأسره. بصراحة يمكننا القيام بما هو أفضل من ذلك بكثير لو دفعنا بمصر إلى القيام بدورها الريادي وشجعناها على مواصلة التأثير رياديا على مختلف أقطار الوطن العربي. لكن ذلك وللأسف لم يحدث.

يعتبر الرئيس حسني مبارك حليفا مواليا للولايات المتحدة وليس عدوا لنا، كما أنه يعتبر بمثابة صمام أمان أمام احتمال قيام حرب عربية- إسرائيلية جديدة. ولكن، إذا كان هو ينوي مساعدتنا حقا، وقبلنا نحن بذلك في المقابل، ما علينا إلا أن نلغي ونتجنب الحديث معه لا عن القاعدة ولا عن إسرائيل. بل يجب أن يقتصر الحديث معه عن مصر فقط.

لئن تعلمنا شيئا من درس ٩/١١، فهو أن المتسبب الرئيس في الإرهاب ليس الفقر المادي، بل الفقر في الكرامة. ونتذكر أولئك الشباب العرب المنتمين إلى الطبقة الوسطى، المحبطين بسبب انتمائهم إلى بلدان عاجزة عن توفير أي فرص حقيقية لهم بشكل أعاقهم عن صياغة مستقبلهم، وهم يلومون الولايات المتحدة على ذلك. وما علينا نحن إلا أن نكسر تلك الحلقة المفرغة تلك. كما أنه لا أحد بإمكانه القيام بذلك على الوجه الأكمل أفضل من المصريين. فهل يملك بوش الجرأة الكافية لقول ذلك أم أننا سنستمر في الكذب على أنفسنا وعليهم؟

٢٠٠٢/٠٦/٠٥

أفضل الأعداء

طهران، إيران

اختبار سريع: ما هو البلد الإسلامي الشرق أوسطي الذي بادر مواطنوه إلى الحداد الفوري بإشعال الشموع تعبيرا عن تعاطفهم مع الأمريكيين بعد هجوم ٩/١١ الانتحاري، هل هي الكويت؟ لا، هل هي السعودية؟ لا، هل هي إيران؟ نعم! إن أجبت عن السؤال بشكل صحيح، ستربح تذكرة سفر إلى إيران، وإن ذهبت إلى هناك فإنك ستكتشف أنه ليس البلد الإسلامي الوحيد الذي تعاطف الكثير من مواطنيه مع الولايات المتحدة بعد هجوم ٩/١١ فحسب، بل هو البلد الذي يتساءل أبناؤه علنا عن عودة العلاقات مع أمريكا آملين أن يحصل ذلك قريبا. وهذا ما دفع بتيار المتشددين في

السلطة هناك إلى اتخاذ إجراء غير مسبوق يجرم التعاطي العلني في هذا الموضوع. ومع ذلك، وبالرغم من المنع الرسمي، لا يزال أمر عودة العلاقات بين أمريكا وإيران يحتل مكان الصدارة ضمن مواضيع الساعة السياسية. وما زال محل أخذ ورد في البرلمان والصحافة الإصلاحية. كما أن أي محادثة بين أي زائر أمريكي وأي مسؤول إيراني تنتهي دائما بالتساؤل نفسه: «برأيكم متى ستستأنف العلاقات بيننا؟».

ما الذي أطال في أمد عمر هذا السؤال؟ بداية، يجب الاعتراف بوجود شبه قناعة لدى العديدين (ربما هي غير واقعية) تقول بأن أغلب ما يعانيه المواطن الإيراني العادي من مشاكل، كالبطالة الواسعة والإحساس بالعزلة عن العالم وغياب الاستثمارات الأجنبية، والمشاكل السياسية العالقة حاليا، سيتم حلها بمجرد أن تستأنف العلاقات الإيرانية - الأمريكية وتعود الأمور على ما كانت عليه أيام الشاه، خاصة بعد أن ترفع الولايات المتحدة حصارها الاقتصادي عن إيران.

وفي المقابل، يظل السؤال مطروحا حول الآثار الناجمة عن ضم الرئيس بوش إيران إلى قائمة دول «محور الشر» (مع كل من كوريا الشمالية والعراق)، على مجرى هذا الجدل القائم. في البداية شعر الإصلاحيون سواء داخل البرلمان أو في الوسط الإعلامي بالحرج الشديد مما قاله بوش. كما استغل التيار المتشدد ذلك التصريح ليؤكد أن الولايات المتحدة لن تتصالح مع الجمهورية الإسلامية. لكن سرعان ما استطاع الإصلاحيون أن يأخذوا بزمام المبادرة ثانية، ويسألوا المتشددين عن أسباب ورود اسم إيران في قائمة دول «محور الشر»، قائلين: «انظروا إلى أين أوصلتنا سياساتكم». هذا بالإضافة إلى ما أقدمت عليه الولايات المتحدة من تخفيض في عدد تأشيرات الدخول إلى أراضيها، بعد وقوع أحداث ٩/١١، ليزيد من الشعور بالخيبة لدى العديد من الطلبة الإيرانيين الراغبين في الدراسه في أمريكا. ثم الصدمة التي تسبب فيها إعلان انضمام روسيا إلى الحلف الأطلسي قبل أسبوعين. وهكذا يتضح لنا السبب الذي يدفع بالكثير من الإيرانيين إلى المطالبة بإعادة العلاقات مع واشنطن.

أما ما يدعو للاستغراب، فهو كيف يعكس الجدل الدائر في إيران ما يدور في كواليس واشنطن حول مصير العلاقات بين البلدين. كما أننا نجد في واشنطن ثلاث مدارس مختلفة حول طريقة التعامل مع إيران. هناك دعاة التقارب، الذين يحاججون من منطلق نجاح الولايات المتحدة في إثارة مثل هذا الجدل داخل إيران نفسها، وبالتالي يصبح من الضروري تعميقه ومتابعته عبر تجديد العلاقات. وهناك دعاة المقاطعة، الذين ينظرون إلى نظام الملالي في طهران وكأنه ثمرة ناضجة وآيلة للسقوط وما على الولايات

المتحدة سوى الاستمرار في عزله. وأخيرا هناك دعاة فرض التغيير بالقوة، ولا يرى هؤلاء أي مانع من تغيير النظام الإيراني بالطريقة نفسها التي يريدون تغيير النظام العراقي بها، أي الحرب.

وفي المقابل نجد لدى الطرف الإيراني، دعاة التقارب الذين يرون في إعادة العلاقات مع أمريكا جانباً أساسياً لتحديث إيران. كما نجد الانعزاليين أيضا، الذين لا يثقون هؤلاء بأمريكا ويعتقدون أنه من مصلحة إيران ألا تعيد علاقاتها معها. وأخيرا نجد الاستفزازيون الذين يعتقدون بأن أي صدام مع أمريكا سيقوي مواقعهم. كذلك يؤكد الدبلوماسيون في إيران على أنه حتى المرشد الروحي المتشدد آية الله خامئني، صار لا يعترض من حيث المبدأ على عودة العلاقات مع الولايات المتحدة، لأنه وبدون شك، يدرك اتجاهات المزاج الإيراني العام، ويعلم مدى حاجة إيران الماسة إلى الاستثمارات الأمريكية والفوائد الممكن جنيها من التجارة مع الولايات المتحدة. لكنه لا زال يبحث عن حل يساعده على تحقيق ذلك، بحيث يكسب هو لا الإصلاحيون الفائدة السياسية والتحكم بنتائج عودة العلاقات، بشكل يحرم خصومه السياسيين من أي دعم.

لذلك لا زالت وإلى الآن كل قوة ممثلة لهذه التيارات الثلاثة في كلا الدولتين لا تقدر إلا على منع القوى الأخرى من التحرك بشكل حاسم وتدفع بالعلاقات بين كلا البلدين إما نحو الأسوأ أو نحو الأفضل. وهذه إعاقة كبيرة، لأن الأغلبية في كلا البلدين راغبة في حصول تقارب. ففي السنة الماضية قرر المتشددون في طهران تجديد السفارة الأمريكية هناك، بعد أن ظلت مهملة كما هي بعد أن سيطر عليها الطلبة سنة ١٩٧٧، وكان الهدف من التجديد تحويل المبنى إلى متحف خاص بالثورة الإيرانية. لكنه ومنذ أن فتح أبوابه يوم ٤ نوفمبر الماضي، لم يلق أي اهتمام شعبي مما حدا بالمسؤولين هناك إلى إغلاقه. وذلك لأن أغلبية الشعب الإيراني لا يريدون أن تنقلب السفارة الأمريكية إلى متحف، بل يريدون أن تكون للولايات المتحدة سفارة.

باختصار، لست متأكداً مما سيؤول إليه الوضع في النهاية، لكني متأكد من أمر واحد، وهو وفي حال إعلان وزير الخارجية كولن باول، بأنه سيسافر إلى طهران غدا، ليستعرض جميع المشاكل العالقة بين البلدين- إنهاء المقاطعة، برنامج إيران النووي، دعمها للمنظمات الفلسطينية الإرهابية، والعلاقات الدبلوماسية - تأكد أنه سيلهب البلد حماسة.

٢٠٠٢/٠٦/١٢

الجيل الإيراني الثالث

طهران، إيران

إيران تمتلك القنبلة. أعرف أني اكتشفت ذلك.

لا، ليست تلك القنبلة. لأن هذه القنبلة مكشوفة وواضحة للعيان. إنها قنبلة موجودة في المدارس والجامعات والمقاهي. قنبلة تكونت ببطء داخل المجتمع الإيراني. ويوم تنفجر بعد عقد من الآن، فإنها ستتسبب في تغيير ملامح الجمهورية الإسلامية كليا. وهي ما يطلق عليهم باختصار «الجيل الثالث».

الجيل الأول من الإيرانيين أو الثوريين الذين خلعوا الشاه وأسسوا الجمهورية الإسلامية سنة ١٩٧٧، هم الآن عجائز أصابهم الشيب والتعب، منهم الملالي المتمسكون بالحكم عن طريق القمع أكثر منه بالاقتراع الحر والمباشر، كان ولا يزال يتمثل مشروعهم السياسي في أسلمة كل ملامح المجتمع الإيراني. الجيل الثاني، دخل الحياة في الثمانينات خلال الحرب العراقية الإيرانية التي أسفرت عن ٢٨٦٠٠٠ قتيل و٥٠٠٠٠٠ جريح. ذاك جيل ضائع، ومهزوم وباهت. أما الجيل الثالث الذي يشمل كل الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٣٠ سنة، والذين عاشوا كل حياتهم تحت حكم النظام الحالي، ولم يعرفوا عن تسلط الشاه شيئا، بل عرف جميعهم آيات الله. هناك الآن ١٨ مليون من هؤلاء- ما يقارب ثلث مجموع السكان-، بما في ذلك مليونا طالب جامعي وأربعة ملايين طالب مدرسي.

وقد قال محسن سازغارا، المساعد السابق للإمام الخميني وهو الآن من الإصلاحيين: «وكما هو الشأن مع جميع الثورات، لا يكنّ هذا الجيل الثالث أي شعور خاص تجاه مؤسسي الثورة. بل هم يتهمون جيلي بأننا جلبنا لهم نظام حكم غير مناسب. إنهم أكثر الشرائح الاجتماعية أهمية - بعد الجيل الرابع حيث يوجد ٢٤ مليون إيراني دون سن السادسة عشرة - لذا يتوقف مصير إيران على أي اتجاه سيختاره هذا الجيل».

أما أين يريد هذا الجيل أن يتجه، فهذا أمر بات معروفا. صحيح أن بعضهم متدين، لكن أغلبيتهم ليست كذلك، فهم صغار السن، مفعمون بالحيوية والنشاط، وعصريو المظهر، وعاطلون عن العمل لندرة الوظائف الجيدة. كما أنهم متصلون بالعالم

عن طريق الإنترنت والقنوات الفضائية ومعجبون بما يشاهدون، لأنهم يريدون حياة أفضل، ووظائف أحسن، وحرية فردية أكثر وتواصلاً مع العالم الخارجي أكثر. كما أنهم في حالة غضب متواصل لأنهم غير قادرين على الحصول على أي من ذلك. صحيح أنهم يعتنقون الإسلام إلا أنهم لا يريدونه أن يسيطر على كل مظاهر حياتهم. أو كما يقول حميد رضا جلائيبور، أستاذ في العلوم الاجتماعية: «هم ليسوا بالرافضين للدين، ولا للتطرف أيضا. لكنهم رافضون أن يتبعوا أي شيء بشكل أعمى». وهذا ما وافقه عليه ابنه محمد رضا، ابن التسعة عشر ربيعا.

وما كان من الحكومة إلا أن خففت من حدة ردها على هؤلاء الشباب. ففي آخر مرة زرت فيها إيران قبل ست سنوات، قمت برفقة أحد الأصدقاء بزيارة شاب إيراني محترف في العزف على الغيتار الكهربائي، حينها كانت غرفة النوم هي المكان الوحيد الذي يمكنه العزف فيه نتيجة للمنع الحكومي لموسيقى البوب. أما اليوم فإنه يقوم بالحفلات العامة ويصدرالألبومات الخاصة به. كما كان حينها يفرض على كل النساء أن يرتدين العبايات السوداء ويغطين كل ملامحهن، في حين أنهن اليوم يرتدين عبايات ملونة ويظهرن جزءا من شعرهن. وعندما يقوم أحد رجال الدين بنهرهن عن ذلك يصرخن في وجهه محتجات. والأفلام الإيرانية الأكثر شعبية اليوم هي تلك التي تتعرض بالنقد لرجال الدين، بما فيها فيلم يعرض حاليا في قاعات طهران يحكي قصة فتاة مراهقة تبلغ ١٥ عاما، أنجبت صغيرا خارج رابطة الزواج وتريد أن تحتفظ بصغيرها، أو فيلم آخر يحكي قصة إمرأة هربت مع خطيب ابنتها. إن هذا الجيل الثالث من الإيرانيين يختلف عن نظيره في السعودية، لأن السعودية تزداد كل يوم شبابا وفقرا وتطرفا وعداء لأمريكا. وهذا ما دفع بالشباب السعودي إلى ما يعتبرونه نظاماً فاسداً وغير ديني وموالياً لأمريكا. في حين أن إيران بدورها تزداد كل يوم شبابا وفقرا وأقل إسلامية وأقل عداء لأمريكا، مما حدا بالشباب الإيراني إلى الاحتجاج على معاداة نظامهم الثيوقراطي الذي تسبب في عزلهم عن العالم.

عندما دخل التلغراف إلى إيران في بدايات القرن العشرين، صاحب ذلك وضع أول دستور للبلاد بالرغم من إرادة نظام كاجار القمعي. وعندما انتشر استعمال الهاتف وأشرطة التسجيل عبر مختلف المناطق الإيرانية في بداية السبعينات، كانت أفضل أدوات استخدمها الإمام الخميني لقيادة الثورة والإطاحة بالشاه. أما اليوم وبعد أن حلت الإنترنت والقنوات الفضائية، من شأن ذلك أن يساعد على هبوب رياح التغيير التي سيقودها هذا الجيل الإيراني الثالث. هذا الجيل الذي تمنى لو كتب النجاح للمجهودات

الإصلاحية التي يقوم بها محمد خاتمي، إلا أنه تراجع مفضلا عدم مواجهة المتشددين، ولكن بطريقة أو بأخرى سيجد هذا الجيل من يقود مسيرته وسيقومون بالتغيير اللازم شاء الملالي أم أبوا.

٢٠٠٢/٠٦/١٦

إيران وحرب الأفكار

طهران، إيران

إذا قُدِّر للثيوقراطية والديمقراطية أن يتزاوجا وينجبا طفلا، كيف سيكون؟ ومن سيشبه؟ بكل تأكيد سيكون مثل إيران. فما يجعل إيران حالة خاصة هو أنها ليست ديمقراطية فعلية وليست ثيوقراطية إسلامية نقية أيضا، بل هي ديمقراطية إلى الحد الذي يجعل العديد من مواطنيها يريدونها أكثر ديمقراطية، كما أنها بالمقابل ثيوقراطية إلى الحد الذي يجعل الكثير من الإيرانيين يريدونها أقل ثيوقراطية.

وإذا إنتبه المرء جيدا لما يدور هنا خلف كل هذا الضجيج والصخب، سيجد عددا كبيراً من المفكرين، ديمقراطيين ومحافظين على السواء، منغمسين في البحث عن أسلوب ما للحصول على تركيبة تجمع كلا الصفتين. كما يجد المرء إصلاحيين ديمقراطيين تعلموا من تجربة الشاه الفاشلة في فرض الإصلاحات العلمانية بالقوة، كما أن ٢٣ عاماً من الحكم الإسلامي علمتهم ان جذور الديمقراطية لن تنبت في التربة الإيرانية ما لم تحتفظ بمكانة خاصة للإسلام.

وبالمقابل نجد بعض المفكرين الإسلاميين الذين جربوا عن قرب تجربة الحكم الحالية وشاهدوا عن كثب كيف يدير بعض رجال الدين غير الأكفاء شؤون البلاد ويحددون للناس أزياءهم وأفكارهم وكلماتهم. وتوصلوا إلى قاعدة أنه لا يمكن في عصرنا الحالي للإسلام أن يضبط كل نواحي الحياة من كبيرة وصغيرة من دون أن يحدث ذلك ردة فعل عكسية. وحاليا يهرب الكثير من الشبان الإيرانيين من المساجد، كما أنهم يمقتون رجال الدين إلى درجة التي تجبر بعض الملالي على خلع العمامة عندما يمروا ببعض الأحياء المعينة خوفا من تعرضهم لإهانات ومضايقات.

لكن وبحكم أن لإيران نظاماً شبه ديمقراطي (بعكس السعودية أوالعراق)، حيث يتم اعتقال المعارضين يوميا ويودعون السجون حيث يؤلفون الكتب، ثم يطلق سراحهم

ويخوضون الانتخابات ويعلنون عن مواقفهم المعارضة، ويصدرون صحفاً إصلاحية ويعتقلون من جديد. هناك مناخ من الحوار الحيوي حول التوصل إلى أفضل الوسائل لخلق تعايش وتوازن بين الدين والدولة. وعندما إلتقيت بعامر محبيان، المحررالسياسي لصحيفة «رسالات» المحافظة، قال لي: «بالغنا في الأيام الأولى للثورة في فرض بعض القيم والمثل الإسلامية العليا على المجتمع... مما تسبب في رد الفعل الحالي. لذلك أقترح وضع مفهوم جديد للمجتمع الإسلامي، بحيث لا نعمد إلى جعل الناس متدينين، بل يجب أن نتفادى ونقاوم الانحراف في المجتمع. لأن من شأن التمادي في الضغط من أجل تطبيق القيم الدينية بحذافيرها، أن يؤدي إلى مضاعفة الهوة الفاصلة بين الأجيال. وفي حال اتّبعنا أسلوباً معتدلاً فسوف نكتشف القواسم المشتركة بين الأجيال السابقة واللاحقة».

كما أني في ذلك اليوم نفسه قمت بزيارة محسن سازغارا، المساعد السابق لآية الله الخميني، الذي ينتمي الآن إلى التيار الإصلاحي، ويصدر صحيفة موجهة إلى الطلاب ويتكون طاقم معظم العاملين فيها منهم. قال السيد سازغارا: «اعتقدنا أننا سنطيح بالشاه وسنقيم حكومة إسلامية جديدة تفتح آفاقا جديدة. لكننا بعد إنجاز الثورة لم نأت بأي جديد، ولم ننجح في التوفيق بين الديمقراطية والإسلام، لذلك ظهرت الحركة الإصلاحية... التي فشلت هي بدورها لأنها كانت تفتقر إلى سند دستوري. والدستور نفسه كان قد نص على وجود سلطة دينية متعالية على أي مؤسسة أخرى وقادرة في كل لحظة على عرقلة أي حركة تغييرية. لذلك يتحتم علينا أن نضغط من أجل تحقيق ديمقراطيةٌ دستورية حقيقية، وليست ديمقراطية دينية، بل ديمقراطية حقيقية يحظى الدين في ظلها بمكانة رفيعة».

وبالتأكيد نحتاج إلى كثير من الوقت حتى نتمكن من البرهنة على صحة هذا التحليل، لأن النظام الإسلامي راسخ الجذور في الوقت الحاضر بفضل المداخيل النفطية القادرة على شراء الأصدقاء، وبفضل القبضة الحديدية القادرة على إسكات كل عدو محلي. ليس من السهل أن يستسلم هؤلاء الملالي الذين لا يخشون من خلق أعداء خارجيين، وذلك لأن التوتر من شأنه أن يخدم مصالحهم عن طريق عسكرة المجتمع الإيراني وتهميش كل صوت معارض أو منتقد. ولكن حتى الملالي المتشددين يدركون تماما أنهم وعلى المدى البعيد غير قادرين على البقاء في السلطة طويلا عن طريق القمع وحده مما حدا بهم إلى التسامح مع الحوار الدائر.

ومن المفارقات أيضا أن ما توقعه الغرب بعد ٩/١١، من اندلاع حرب أفكار وآراء

في ربوع العالم العربي والإسلامي، يقودها مفكرون عرب ويقدمون بدائل تقدمية وديمقراطية وإسلامية كرد على الطروحات الفاشية التي يدعو إليها أسامة بن لادن. لكنها لم تبدأ لغياب أي هامش حرية في تلك الدول. ويمكن القول بأن تلك الحرب بالذات تدور رحاها الآن في إيران ليس كرد فعل لأحداث ٩/١١، بل كسيرورة متواصلة للتجربة الإيرانية نفسها وما صاحبها من قمع علماني وقمع ديني.

أتمنى لهم التوفيق. وإذا نجح المفكرون والسياسيون الإيرانيون في التوفيق بين الديمقراطية الدستورية والإسلام المنقح الذي يكتفي بأن يكون مصدر إلهام للقيم الاجتماعية دون التدخّل في أمور تسيير الحكم، حينها سيكون للثورة الإيرانية أثر إيجابي على كل العالم الإسلامي من المغرب إلى أندونيسيا، لم تشهد له مثيلا منذ ميلادها.

٢٠٠٢/٦/١٩

إيران بالأرقام

طهران، إيران

من أكثر الأشياء جذباً للانتباه ومدعاة للدهشة في الوقت نفسه، هو المصداقية الواضحة التي صارت تتمتع بها الصحف الإيرانية اليوم. مثلا أجرت صحيفة «انتخاب» الواسعة الانتشار، تحقيقا مطولا تحت عنوان «أرقام مذهلة» من بين ما جاء فيه: يوجد في شوارع طهران اليوم ٨٤٠٠٠ مومس و٢٥٠ بيت دعارة، يرتبط بعضها بعدد من كبار المسؤولين، كما تهرب ٦٠ فتاة إلى طهران يوميا - مما يشكل زيادة بنسبة ١٢٪ مقارنة مع أرقام السنة الماضية. ويشكل المصابون بالإيدز نسبة٤٠٪ من بين النساء المدمنات على المخدرات داخل السجون الإيرانية. وكما ذكرت الصحف تمكنت شقيقتان تبلغان ١٦و١٧ سنة من العمر من نقل فيروس الإيدز إلى أكثر من ١١٠٠ شخص في مدة لا تزيد على الشهرين. كما يعاني أكثر من ٤ ملايين شاب وشابة لا تزيد أعمارهم على العشرين عاما من الاكتئاب. إضافة إلى الارتفاع المستمر في معدلات البطالة (التي تصل حاليا إلى٣٠٪). يمكن تصنيف كل هذه المشاكل على أنها من علامات التدهور الاقتصادي، أو مثلما ذكرت صحيفة «إيران نيوز» قبل أسبوعين: «تعاني البنية الاقتصادية للأمة بأسرها من حالة إفلاس تام وهي بحاجة إلى إصلاحات فورية وشاملة. وكما يعد الغياب الواضح لأي استثمارات أجنبية كافية من بين المصاعب الأكثر خطرا وتهديدا.

إضافة إلى سوء الإدارة على كافة قطاعات نظامنا الاقتصادي والارتفاع الحاد في معدلات البطالة والتضخم».

هذه المشاكل الجوهرية لا يمكن إرجاعها كلها إلى الحصار الاقتصادي الأمريكي، لأن إيران تمتلك ثروة نفطية هائلة تؤهلها لشراء أي شيء سواء من أوروبا أو من السوق السوداء. بل يرجع الجزء الأكبر من تلك المشاكل إلى سوء الإدارة والتصرف لحكم الملالي وفسادهم وقلة كفاءتهم وما يصدرونه من قرارات وقوانين متعسفة وعدائهم الغريزي للعولمة، مما أوصل إيران إلى هذه الحالة المزرية. ويتساءل المرء؛ هل سيقدم آيات الله على إصلاح الوضع أم أن انفجارا اجتماعيا سيهز الأرض من تحت أقدامهم؟

نشرت صحيفة «نوروز» الإيرانية استطلاعا للرأي الشهر الماضي تبين فيه أن ٦,٢٪ فقط ممن تم استجوابهم أبدوا رضاهم عن أداء الحكومة بصفة عامة، في حين طالب ٤٨,٩٪ بإجراء إصلاحات، مقابل ٤٤,٩٪ ممن طالبوا بإجراء تغييرات هيكلية. وهكذا تبدو مشكلة الملالي الرئيسية في أنهم غير قادرين على جلب استثمارات أجنبية وتوفير وظائف كافية من دون خصخصة الاقتصاد الحكومي. كما أنهم لا يستطيعون إصلاح كل نواحي الاقتصاد بدون إصلاح كل هياكل ومؤسسات الحكومة. والتخلي عن تلك الاحتكارات الواسعة التي حظي بها نظامهم وما قدموه من خدمات لتجار البازار ورجال الدين وأبنائهم، والتخلص من تلك الجمعيات الخيرية الإسلامية التي تعمل كواجهة لشركات تجارية ضخمة تقوم باستيراد كافة أنواع السلع من السيجار إلى السيارات من دون أن تدفع أي ضرائب أو أي تعرفات جمركية. كما أنه لا يمكن لإيران جلب الاستثمارات الصناعية بصفة خاصة إلا إذا تبنت قوانين شفافة مما يعني التوقف عن العمل بتلك الإجراءات التعسفية والحد من وصاية رجال الدين وصلاحية القضاة المعينين من طرفهم غير الخاضعين لأي قانون أو نظام والمسيطرين على المحاكم والبرلمان.

ومن إنجازات الثورة الإسلامية أنها نقلت ملايين الإيرانيين من الأرياف إلى المدن وحولتهم إلى مواطنين حقيقيين، وهو ما لم يقم به الشاه على الإطلاق. وكما لاحظ مدير مصنع لقطع غيار السيارات: «أصبحوا الآن متعلمين، وتوفرت لهم الخدمات الصحية والطرق والمواصلات. وكما تشكل الفتيات حاليا ٦٠٪ من طلبة الجامعات. إلا أن هؤلاء المواطنين الجدد يتطلعون إلى نظام مديني حضري وليس نظاما ريفيا. والنظام المديني هو نظام علماني يحترم أديان الشعوب وحقوقهم».

حاليا، هناك ما يكفي من مداخيل النفط التي تخول الملالي شراء الدعم اللازم في

المناطق الريفية والحوزات والبازار، لكي يحافظوا على بقائهم في السلطة. ولكن إذا أخذنا بالاعتبار الارتفاع الديمغرافي المتزايد - كان في إيران ٣٠ مليون نسمة عندما رحل الشاه أي قبل ٢٣ سنة، مقابل ٦٦ مليون نسمة اليوم من بينهم ٧٠٪ دون ٣٠ سنة- لذا لا بد من القيام ببعض التنازلات إذا أرادت إيران اليوم خلق وظائف كافية لأبنائها. أو كما قال المعارض الإيراني رحيم أوسكي: «لا يوجد أمام النظام الحالي سوى خيارين يؤديان إلى نتيجة واحدة: إما أن يقاوم النظام كل المطالب الوطنية والأجنبية المنادية بالتغيير، مما سيؤدي حتما إلى انهياره، وإما أن يصبح أكثر مرونة ويتكيف مع متطلبات الواقع. ولكن في تلك الحالة لا يمكن لذلك النظام أن يبقى كما هو الآن... أشعر بأن الملالي سيقفون على حقيقة ضرورة علمنة النظام من أجل المحافظة على بقائهم، ولكن ذلك يتطلب وقتا طويلا... انطلقت كل ثوراتنا المعاصرة من الداخل، وبالنظر إلى حجم المطالب الداخلية اليوم، يستحيل على حكومة متخلفة كتلك التي عندنا اليوم، مقاومة هذه القوى المطالبة بالتغيير إلى الأبد بشرط عدم حصول تدخل خارجي».

٢٠٠٢/٠٦/٢٣

المشهد من طهران

طهران، إيران

شرح لي مسؤول إيراني كبير كيف يبدو العالم من طهران: لقد ساعدت إيران الولايات المتحدة في تنظيم التحالف الشمالي، حليف إيران سابقا، من أجل إسقاط نظام طالبان، الذي كان في حالة عداء مقيت معها («بعكس طالبان، نحن أصوليون متحضرون»، علق مسؤول إيراني آخر باشمئزاز). مباشرة بعد أن سقط نظام طالبان، قامت إيران وبكل هدوء بمساعدة أمريكا على تشكيل الحكومة الانتقالية الحالية في كابول. كما لم يشترك أي إيراني واحد في هجمات ٩/١١، ولم يعثر على إيراني واحد بين أعضاء القاعدة، وكذلك المفاعل النووي الإيراني خاضع ومفتوح للرقابة الدولية. ويوجد في طهران اليوم نظام أكثر ديمقراطية من أي وقت مضى، كما تتمتع الصحافة هنا بحرية غير متوفرة في جميع بقية دول العالم الإسلامي والشرق الأوسط. وكتعبير عن امتنانه لكل ما تقدم أقدم الرئيس بوش على إدراج إيران ضمن قائمة دول «محور الشر».

بالمقابل نجد أن باكستان أشرفت على خلق حركة طالبان، واستضافت أعضاء

القاعدة، ودعمت ومولت الإرهابيين الانفصاليين في كشمير، ومع ذلك كله صنعت قنبلة ذرية إسلامية. ورئيسها الذي أمسك بالحكم عن طريق انقلاب عسكري، تلقى بليون دولار في شكل مساعدات من واشنطن. كما أن المملكة العربية السعودية مولت حركة طالبان، وينتمي المئات من مواطنيها إلى تنظيم القاعدة، ويؤسس مواطنوها جمعيات خيرية تمول حركة حماس والجهاد الإسلامي وتدعم مدارس أصولية في مختلف بقاع العالم، كما أن ١٥ من منفذي هجمات ٩/١١، هم من مواطنيها. ومع ذلك تحظى قيادتها بمكانة خاصة لدى الولايات المتحدة. هنا أعترف أن تصوير الوضع على ذلك النحو أضحكني. كما أني لست ولا بأي حال من الأحوال في موقع المدافع عن إيران التي مارست ودعمت الإرهاب سواء ضد مواطنيها أو في الخارج، ولكني سأدافع هنا عن الفكرة القائلة بأن إيران هي البلد الوحيد في الشرق الأوسط الذي يتمتع بحيوية سياسية، وجدل داخلي كبير. كما أن مصالحها تتداخل أحيانا مع الولايات المتحدة، مما يتطلب أخذ مجمل هذه العوامل بعين الاعتبار، والنظر إليها بشكل مختلف. ربما قد يساعد ذلك إيران على سلوك الطريق القويم بدل إضفاء صفة الشر عليها وتجاهلها.

هناك ثلاث قوى رئيسية في إيران اليوم؛ القوى الشريرة وهم المحافظون المتشددون وأجهزة المخابرات والحرس الثوري، تحتكر هذه القوى فيما بينها كل وسائل القمع كما أنها تقف وراء ما تتلقاه حماس والجهاد الإسلامي من دعم وتمويل، وتتحمل مسؤولية قتل العديد من المفكرين الإيرانيين على مدار السنوات الماضية. وهناك المحافظون المعتدلون والعقلانيون، وهم عبارة عن لفيف من رجال الدين وتجار البازار الذين قاموا بتأييد الثورة الإسلامية في البداية نظرا لنفورهم من نظام الشاه العلماني المتسلط، لكن هؤلاء يميلون إلى الديمقراطية وسلطة القانون. كما تتحالف هذه الفئة حاليا مع الفئة الأولى. وأخيرا هناك القوى الإصلاحية المتكونة أساسا من أبناء الطبقة الوسطى التي تعاني من حالة التدهورالاقتصادي والطلبة والثوريين السابقين الذين ضاقوا ذرعا بممارسات النظام الثيوقراطي. إذ يتطلع كل هؤلاء إلى حدوث المزيد من الديمقراطية والتخفيف من حدة القيود الدينية. يقوم هؤلاء بقيادة المعارضة الحالية لكنهم يتمتعون بقدر محدود من النفوذ والقوة. وهذا ما يقود إلى القناعة القائلة بأن أي تغيير سلمي في إيران متوقف على حدوث انقسام في صفوف النخبة الحاكمة وإقناع المحافظين العقلانيين بإنشاء تحالف مع الإصلاحيين والكف عن دعم المتشددين المحافظين وهو أمر ممكن أن يحصل. إذ إن هناك العديد من الإصلاحيين يدركون أن نظام الملالي- وخاصة الفئة المستبدة والمتدنية الكفاءة والمعزولة منهم - صار مكروها

ومنبوذا لدى قطاع واسع من المواطنين، مما يعد تهديدا للثورة الإسلامية في العمق على المدى البعيد.

هنا، ما الذي يتوجب على الولايات المتحدة فعله؟ بحسب رأي الإصلاحيين، بإمكان أمريكا أن تساعدهم عن طريق إعادة فتح العلاقات الدبلوماسية والتخفيف من حدة العقوبات الاقتصادية، فيما طالب آخرون بأن تلجأ الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة وتقدم ما لديها من معلومات تكشف تورط أي مسؤول إيراني في أعمال إرهابية. وفي هذا السياق، قال أحد الإصلاحيين: «نحن أنفسنا لا نعرف على وجه الدقة ما يقوم به هذا أو ذاك من الناس. وفي حال قامت الولايات المتحدة بكشف أسمائهم سيؤدي ذلك إلى عزلهم وتجميدهم داخليا». (عندما اقترح أحد رجال الدين فرض ضريبة ضئيلة لدعم الانتفاضة الفلسطينية، رفض البرلمان الإيراني ذلك). كما اقترح آخرون ضرورة دفاع الولايات المتحدة عن كل إيراني يريد أن يخوض الانتخابات، أو يصدر صحيفة جديدة أو يتعرض لمضايقات من قبل رجال الدين. وفي المقابل يدعي الملالي أن إيران هي ديمقراطية إسلامية، وما على أمريكا إلا أن تطالبهم بالبرهنة على ذلك.

لست متأكداً تماما من مدى صحة هذه الاقتراحات، لكن هناك حقيقة واضحة هي أن إيران تعيش حاليا حالة غليان تتطلب من أمريكا أن تعيد النظر في السياسة المتبعة سابقا. لا يعني ذلك تبرئة ساحة النظام الحالي في طهران من اي نشاط إرهابي، كما أنه من شأن إعادة النظر ألا تدعم موقف المتشددين، بل سيؤدي ذلك إلى إضعافهم في نظر الغالبية هنا. يجب أن نعترف أن الإيرانيين يتصدون بكل شجاعة وحماس لقرارات الملالي. بالإضافة إلى أن تدخلنا الإيجابي في إيران سيؤدي حتما إلى نهاية تلك القوى الظلامية.

٢٠٠٢/٠٦/٢٦

نهاية حقبة ما

دفعتني الأحداث الأخيرة في منطقة الشرق الأوسط إلى التساؤل حول ما نشهده حاليا بأنه ليس فقط نهاية عملية السلام كما وردت في اتفاقية أوسلو، بل موت فكرة إقامة دولتين متجاورتين كحل نهائي للنزاع الإسرائيلي- الفلسطيني. لقد ارتكب الفلسطينيون خطأ فادحا عندما رفضوا قبل حوالي عام، مقترح الرئيس الأمريكي السابق

بيل كلينتون المتعلق بقيام دولة فلسطينية. وبدأوا من جانب واحد بشن هجمات انتحارية بالرغم من توفر خطوط عريضة للسلام على الطاولة، مما أدى إلى نسف عملية السلام من الأساس، وكذلك تدمير معسكر السلام الإسرائيلي والقضاء على ما تبقى من الثقة الهشة القائمة بين الطرفين. كما أن الفلسطينيين لم يشرحوا الأسباب التي دفعتهم إلى الانتفاضة بالرغم من توافر خيارات دبلوماسية، ولم يوضحوا أهدافهم المرجوة من وراء هذه الانتفاضة. على ما يبدو أن الفلسطينيين تأثروا إلى حد ما بالنجاح الذي أحرزه حزب الله في طرد الجيش الإسرائيلي من جنوب لبنان. وهو ما جعلهم يتخيلون أنه بإمكانهم النسج على ذلك المنوال من أجل الحصول على استقلالهم بتشجيع وموافقة ياسر عرفات.

يقول ستيفن كوهين، خبير شؤون الشرق الأوسط: «تبدو الانتفاضة الثانية وكأنها حرب ١٩٦٧ بالنسبة لعرفات. وعلى غرار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، غرق ياسر عرفات في أوهام اللحظة وعجز عن التمييز بين الحقيقة والخيال». ومثلما حدث مع عبد الناصر ستكون هذه بداية». لكن المشكلة تظل حتى لو غاب عرفات، وحتى لو صارت أغلبية الإسرائيليين مستعدة كي تمنح من سيخلفه كل الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية، فالقيود والشروط الأمنية التي سيصر الإسرائيليون على التمسك بها وفرضها على السيادة الفلسطينية نتيجة للانهيار التام للثقة بسبب أحداث العام الماضي، ستجعل من الصعب على أي زعيم فلسطيني القبول بها. وبالنتيجة صار من المستحيل التفاوض حول الحل الداعي لقيام دولتين متجاورتين، مما يعني استمرار الاحتلال الإسرائيلي للضفة والقطاع بصفة دائمة. وهذا ما سيضع إسرائيل في موقف مشابه للطريقة التي حكم بها البيض في جنوب إفريقيا تحت ظل نظام الفصل العنصري. وفي حال حافظ النمو الديمغرافي على معدلاته الحالية، سيفوق عدد الفلسطينيين في نهاية سنة ٢٠١٠، عدد الإسرائيليين في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية وداخل حدود ١٩٤٨، مما سيجعل من هذا النزاع المتواصل يشكل تهديدا حقيقيا لإسرائيل.

هناك ثلاث سمات تطغى على الشرق الأوسط اليوم، الأولى، تتمثل في الحرب الإسرائيلية- الفلسطينية وكل ما يصاحبها من وحشية. الثانية، تتمثل في الانفجار الديمغرافي الذي يشهده العالم العربي، حيث هناك شريحة عريضة جدا ممن هم دون سن ١٥ عاما ومعظمهم سيواجهون مستقبلا يتسم بكثير من الاكتئاب ونقص كبير في الوظائف. الثالثة، تتمثل في الثورة الإعلامية التي شهدها العالم العربي من انتشار القنوات الفضائية والإنترنت ومختلف وسائل الاتصال الأخرى.

وبالتالي وكنتيجة لهذه الفورة الإعلامية، درجت وسائل الإعلام العربية على نقل صور الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي وبثها مباشرة إلى الملايين مما سيؤدي إلى شعور بالغضب العارم تجاه إسرائيل وأمريكا واليهود لدى جيل عربي بأسره. وسيأتي اليوم الذي يقول فيه أحد الشبان لأبيه ما يلي: «أبي، هناك شخص باكستاني على الباب يريد بيع قنبلة نووية يحملها في حقيبته، يريد شيكا بمبلغ ١٠٠ ألف دولار. وسأتكفل أنا بحملها إلى تل أبيب». وأعتقد أن الأب سيوافق على الدفع.

إن الأمل الوحيد لإسرائيل يتمثل في خروجها من الأراضي المحتلة بأفضل طريقة ممكنة، وتقليل من احتكاكها بالعرب الذين يمرون بمرحلة انتقالية شاقة نحو التحديث والعصرنة. كما أني أيدت مناشدة الرئيس بوش الفلسطينيين كي يستبدلوا عرفات حتى يمكن اعتبارهم شركاء لإسرائيل في العملية السلمية الرامية لإنشاء دولتين متحاذيتين. ولكن عجز بوش بالمقابل عن مطالبة إسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة وتفكيك المستوطنات في الضفة والقطاع. إذ سيؤدي انسحابها إلى مساعدة الفلسطينيين على القيام بالإصلاحات المطلوبة ويضع إسرائيل في موقع أفضل كي تقدم على الانسحاب من جانب واحد.

إنه لأمر محزن ألا يقدم الرئيس بوش على مطالبة إسرائيل بذلك حتى لا يغضب الناخبين اليهود. قد يكون الرئيس بوش منحاز في صف إسرائيل، لكن التاريخ والتكنولوجيا والديمغرافيا تقف ضدها.

٢٠٠٢/٠٦/٣٠

العرب في تقاطع الطريق

لقد كان الرئيس على حق عندما طالب في خطابه الأخير الفلسطينيين بالعمل على إجراء إصلاحات جذرية على صعيد قيادتهم السياسية قبل أن يحصلوا على دولة. ومن المؤسف أن الرئيس افتقد الشجاعة الكافية كي يقول أن ذلك لا يتوقف على الفلسطينيين وحدهم بل يشمل كل العالم العربي. وهي شجاعة توفرت على سبيل الصدفة لدى بعض المفكرين الشجعان، الذين طالبوا بذلك هذا الأسبوع. يوم الثلاثاء الماضي، نشر برنامج الأمم المتحدة للتنمية بالتعاون مع الصندوق العربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، تقريرا كله حقائق موجعة، يحلل الأسباب الرئيسية الثلاثة التي تقف وراء

انحطاط وتخلف العالم العربي - يفوق الناتج القومي لدولة واحدة مثل إسبانيا مجمل الناتج القومي للدول العربية مجتمعة. ويعود ذلك إلى انعدام حرية التعبير والإبداع والمشاركة السياسية، وانعدام حرية المرأة، وتدني مستوى التعليم. في حين يصل سكان الدول العربية ال٢٢ إلى حوالي ٢٨٠ مليون نسمة، وبحسب معدلات النمو الديمغرافي الحالية، بحلول سنة ٢٠٢٠، سيرتفع عدد السكان ليتراوح ما بين ٤١٠ و٤٥٩ مليون نسمة. وحتى لا ينشأ هذا الجيل الجديد فقيرا وغاضبا، في مدن هي بالأساس مزدحمة، على العالم العربي القضاء على فقره- وهو ليس فقراً في الموارد والمقدرات، بل فقراً في الإمكانيات والفرص، طبقا للتقرير. كما أشار هذا التقرير إلى الفكرة القائلة بأن الصراع العربي- الإسرائيلي واستمرار إسرائيل في احتلالها للأراضي الفلسطينية شكل سببا وعذرا في الوقت نفسه لتخلف التنمية العربية، إلا أن التقرير لم يتوقف عند ذلك الحد.

بدءاً، أشار التقرير إلى أن «الديمقراطية التي غيرت من أساليب الحكم في معظم دول أمريكا اللاتينية وشرق آسيا في مرحلة الثمانينات وأوائل التسعينات، لم تصل إلى العالم العربي. وقد أدى هذا النقص في الحريات إلى إضعاف التنمية البشرية». وبعد أن استخدموا مؤشرا قياسيا للحريات، يلاحظ واضعو التقرير أنه من بين سبع مناطق جغرافية أساسية في العالم، تأتي المنطقة العربية في أسفل القائمة. يحتوي هذا المؤشر على الحريات المدنية والحقوق السياسية وحق الاقتراع واستقلال الإعلام والقضاء ومحاسبة الحكومات. كما أنه يتطرق إلى وضع المرأة التي لا زالت في العديد من الدول العربية محرومة من حق التصويت، ولا تحتل مناصب عليا، كإدارة الشركات أو المؤسسات، كما تحرم المرأة من الحصول على أي قروض خاصة من أجل تسيير مشاريع صغرى. وبالإشارة إلى وضع المرأة العربية أضاف التقرير: «من المحزن أن يقوم المجتمع العربي بحرمان نفسه من خلق وإبداع وإنتاجية نصف مواطنيه، أي النساء».

وفي مجال التعليم يكشف هذا التقرير بأن الكتب المترجمة سنويا في كل العالم العربي لا تتجاوز ٣٠٠ كتاب فقط، وهو خمس ما تترجمه سنويا دولة كاليونان وحدها. أما فيما يتعلق بالاستثمار في مجال البحوث العلمية والتنمية، يأتي ترتيب العرب بأقل من ١ على سبعة من المتوسط العالمي. وفيما يخص الاتصال بالإنترنت يقبع كل العرب مجتمعين بعيدا وراء الدول الواقعة جنوب الصحراء الإفريقية. وبالرغم مما تحقق من تقدم في مجال التعليم الإلزامي، لا زال هناك ٦٥ مليون عربي أميّين ثلثاهم من النساء. وهو ما يفسر التدني الكبير للدخل القومي للدول العربية - الذي كان في حقبة الستينات

أعلى بكثير مما كان لدى الدول المسماة بالنمور الآسيوية، في حين أن دخل كوريا فقط الآن يساوي ضعف دخل الدول العربية.

كما يخلص التقرير إلى ما يلي: «تحتاج الدول إلى طريقة تكفل بها مستقبلا واعدا للأجيال القادمة وإرادة سياسية تستثمر في القدرات والمعارف العربية، خاصة النساء، وإنشاء حكومات صالحة وتعزيز التعاون بين الدول العربية... إن العالم العربي في مفترق طرق. والخيار الجوهري يتمثل إما في الحفاظ على حالة القصور الذاتي... والسياسات العاجزة التي أدت بالنتيجة إلى هذا التحدي التنموي الضخم الذي تواجهه المنطقة، واما بالعمل على فتح آفاق نهضة عربية مرتكزة على التنمية البشرية».

إنه كلام جميل، وإليكم أفضل ما جاء فيه: إن هذا التقرير وبحسب محرريه، هو عبارة عن بحث وتنقيب «مجموعة من المثقفين العرب المتميزين» الذين يعتقدون أن «تحليلاً موضوعياً وغير منحاز» وحده يمكن أن يساعد «الشعوب العربية في البحث على مستقبل أفضل».

هناك رسالة موجهة إلى الولايات المتحدة داخل هذه الزجاجة: على مدار سنوات عديدة عاملنا الوطن العربي وكأنه محطة بنزين كبيرة وغبية. وما دام حكام تلك المنطقة يحافظون على تدفق النفط باستمرار نحونا، ويهادنون إسرائيل، فإننا لن نعير أي اهتمام لما يحدث في تلك المنطقة للنساء والأطفال، كذلك لا يعنينا الفساد السياسي والبطالة المرتفعة والارتفاع المخيف في عدد السكان وهي عوامل من شأنها أن تخنق المستقبل العربي.

لقد آن الأوان كي نتوقف عن خداع أنفسنا. إن القضاء على أمثال بن لادن وصدام وعرفات، أمر ضروري لتغيير الوضع الحالي هناك، لكنه غير كاف. يجب علينا أن نبادر إلى مساعدة العالم العربي في حل مشاكله، بالرغم من تلك الهوة العميقة جدا التي حفروها لأنفسهم، وهو وضع من الصعب جدا تخليصهم منه. إلا أنه لدينا بالمقابل شركاء عرب تقدميون - كما يدل هذا التقرير - لإحداث التغيير المطلوب. لقد حان الوقت كي نتحالف معهم ونتخلى عن الحكام الجهلة الذين أوصلوهم إلى تلك الحالة.

٢٠٠٢/٠٧/٠٣

العار على بوش

كولومبو، سيريلانكا

إن الرد الباهت والعقيم الذي قامت به إدارة الرئيس بوش ووزارة خارجيته على الحكومة المصرية التي حكمت على المفكر المصري المدافع عن الديمقراطية، بالسجن سبع سنوات، تدفع المرء إلى التساؤل عمّا إذا كانت هذه الإدارة ومعظم القائمين على السياسة الخارجية الأمريكية ما هم إلا جمع من الغوغاء. . . العار عليهم جميعا.

ما انفك الرئيس بوش منذ ٩/١١، يردد على مسامعنا رفضه لاستعمال العنف كبديل عن أي جهد دبلوماسي أو سياسي من أجل التخلص من صدام حسين وضرورة ذلك في الوقت نفسه لإرساء الديمقراطية في الشرق الأوسط. إلا أننا شاهدنا كيف أصدرت محكمة صورية مصرية - يبدو أنها تصرفت بناء على أوامر من الرئيس حسني مبارك - حكمها بسجن المفكر المصري سعد الدين إبراهيم، سبع سنوات أشغال شاقة رغم تقدمه في العمر - ٦٣ سنة - ورغم كونه يعاني من مشاكل صحية لا لشيء إلا لأنه دعا إلى ممارسة الديمقراطية ونادى بطرح بديل سلمي كحل لمواجهة العنف الأصولي. لقد تم كل ذلك تحت مرأى ومسمع من إدارة بوش وتشيني والتي لم تحرك ساكنا. وفي حين أن وزارة الخارجية وبعد أن أقدمت على «خطوة شجاعة»، عبرت عن «استيائها العميق» من إدانة السيد إبراهيم الذي يحمل جواز سفر أمريكياً. مجرد «استياء»!، إنني قد أستاء حين يخسر فريق بالتيمور أوريولز، وليس حين يقدم رئيس مصر الذي نعطيه ملياري دولار سنويا في شكل مساعدات، على سجن مفكر ومدافع عن الحريات وموال لأمريكا. أنا غاضب جدا من هذا التصرف وأرجو أن تقوم هذه الإدارة بشيء ما إزاء ذلك. إنه لأمر مرعب، حين تنعدم أي مساحة للأصوات المطالبة بالديمقراطية، آنئذ سيلجأ المصريون إلى المساجد كخيار وحيد. حين لا يكون هناك مكان لسعد الدين إبراهيم، فإننا سنشهد بروز أفواج غفيرة من شاكلة محمد عطا.

تمثل «جرم» سعد الدين إبراهيم الوحيد في مساعدة المعهد الذي يشرف عليه ضمن الجامعة الأمريكية في القاهرة على تعليم المصريين كيف يدلون بأصواتهم الانتخابية وكيف يميزون بين مختلف اللوائح الانتخابية وكيف تتم مراقبة الانتخابات. وبالنتيجة أدانته محكمة مصرية باستلام أموال من الاتحاد الأوروبي كي يواصل مجهوداته في ذلك

الإطار. طبعا رفض الاتحاد الأوروبي ذلك بشكل قاطع. وهكذ أثبتت هذه المحاكمة الصورية مدى وعمق حالة العزلة وعدم الاستقرار التي يعاني منها السيد مبارك الذي لجأ إلى إسكات أي صوت معارض. ويدل ذلك على أن للأمر أهمية تفوق ذلك أكثر مما نتصور، كما تؤشر على أن العديد من الناس يراقبون ذلك عن كثب. وفي معرض حوار أجريته مؤخرا مع الناشطة في ميدان الدفاع عن حقوق الإنسان ومديرة المركز العالمي للدراسات الإثنية، السيريلانكية راديكا كوماراسوامي، بدأنا بالحديث عن سيريلانكا وانتهى بنا الأمر بالحديث عن السيد سعد الدين إبراهيم، الذي يرجع تاريخ معرفتها به إلى فترة وجودهما في أمريكا. فتساءلت: «ما هو البديل عن المطالبة السلمية بالتغيير والتعبير عن الرفض للوضع القائم. إنها الديمقراطية طبعا. ولكن حين يتم إلغاء ذلك البديل الديمقراطي، يكون التطرف الديني هو الطريق الوحيد المتبقي للتعبير عن الرفض في العديد من البلدان. وبعدم دفاعنا عن سعد الدين إبراهيم، كأحد الأصوات السلمية، فإننا نكون قد استدعينا المزيد من العنف». وهذه نظرة يشترك فيها العديد من المدافعين عن حقوق الإنسان عبرالعالم عندما يعبرون مشتركين عن تخوفهم من لامبالاة أمريكا، خاصة أن اهتمام أمريكا بعد وقوع أحداث ٩/١١، اقتصر على الجانب الأمني فقط، مهملة بذلك أي خروقات للقانون والسلم الاجتماعي المقترفة من قبل العديد من الأنظمة. كما أصابتني الدهشة من الطريقة التي تحدث بها الكثير من السيريلانكيين الموالين لأمريكا عن هذا الموضوع بالذات. كيف أنهم ينظرون إلى الأهمية الكبرى في مختلف بقاع العالم لأمريكا كقدوة وكمصدر للتفاؤل بالخلاص وكداعية للحرية. إلا أننا كأمريكيين ومنذ ٩/١١، نسينا كل ذلك وتوقفنا عن التعريف بأنفسنا من تلك الزاوية، واقتصر خطابنا على من سنغزو ومن سنزيخ من الحكم ومن سنقاطع.

واصلت السيدة كوماراسوامي حديثها قائلة: «حاليا لا يفكر أي منا، من الناشطين في ميدان الدفاع عن حقوق الإنسان، في اللجوء إلى طلب المساعدة من أمريكا عند معالجة أي من القضايا المعروضة علينا، بل إن الكثيرين منا يلجأ إما إلى كندا أو النرويج أو السويد، وليس إلى أمريكا التي كان لها في الماضي ثلاث سمات رئيسية؛ أمريكا التي تساعد الآخرين عن طريق بعثاتها الفنية والتقنية المعروفة بالـ «بيس كوربس» Peace Corps، وأمريكا الناشطة ضمن المجموعة الدولية، وأخيرا أمريكا كقوة عسكرية. وباعتقادي لقد حدث خلل كبير في هذه المعادلة مؤخرا، لأن الوجه الوحيد الذي تطل به أمريكا علينا حاليا يقتصر على الجانب العسكري وهذا أمر مخيف جدا... أنا أعي جيدا أن هناك دائما ذلك التناقض بين المصالح الأمنية ومحاسبة الحكومات على

خروقاتها في ميدان حقوق الإنسان. لكنكم إن ركزتم على الجانب الأمني فقط، وأهملتم الحقوق الأساسية للبشر لتبقى عرضة للهتك والعبث، فإني أرى ذلك مدعاة للأسف والحزن، باعتباري ولدت وكبرت ودرست القانون في أمريكا».

أنا أشاطرها الرأي بشكل مطلق. لذا، وبدلا من محاولتنا تحرير دولة بأسرها كالعراق، لماذا لا نبدأ أولا بتحرير شخص واحد، شخص رائع يقبع حاليا في أحد السجون المصرية لا لشيء إلا لأنه دافع عن القيم نفسها التي ندّعي أننا نؤمن بها.

٢٠٠٢/٠٨/٠٤

دروس من سيريلانكا

كولومبو، سيريلانكا

صحيح أن ظاهرة استخدام العمليات الانتحارية كانت قد بدأت في الشرق الأوسط، إلا أننا كثيرا ما ننسى أن مقاتلي نمور تحرير التاميل السيريلانكيين كانوا قد برعوا هم أيضا بدورهم في استخدام الأسلوب الانتحاري كسلاح في حربهم الدائرة هناك. وعلى مدار العقد الماضي نجح انتحاريو نمور التاميل وأغلبهم من الفتيات في قتل ما يقارب ١٥٠٠ شخص. شملت قائمة ضحاياهم رئيس وزراء الهند ورئيس سيريلانكا. والأغرب من ذلك هو قيام هؤلاء المقاتلين بتسجيل الكثير من هجماتهم الانتحارية تلك على أشرطة فيديو من أجل عرضها على بقية عناصر الحركة ودفع معنوياتهم. لكن ومنذ شهر ديسمبر الماضي تم التوصل إلى اتفاق وقف إطلاق النار بين حركة نمور تحرير التاميل التي تقاتل من أجل قيام دولة خاصة بالأقلية التاملية الهندية في شمال شرقي سيريلانكا والحكومة المركزية السيريلانكية التي تسيطر عليها الأغلبية السنهالية البوذية. لا شيء يدل على أن تلك الهدنة ستستمر طويلا إثر ١٨ عاما من الحرب الأهلية الطاحنة، ولكن الأمر وبكل تأكيد يحتاج إلى دراسة ومراجعة خاصة ونحن أمام إمكانية توقف الهجمات الانتحارية هناك، وما إذا كان القياس ممكنا على هذه التجربة وتطبيقها على الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي.

من بين الأسباب التي أدت إلى توقف حركة نمور تحرير التاميل عن القيام بهجمات انتحارية، هم أبناء الأقلية التاميلية الذين يعيشون في المهجر، من أمريكا الشمالية وأوروبا والهند، كان هؤلاء المصدر الأول والأساسي في تمويل ودعم الحركة. إلا أن

هؤلاء توقفوا عن القيام بذلك مؤخرا إثر إعلان الولايات المتحدة وبريطانيا ثم الهند أخيرا في نهاية التسعينات، بأن اعتبروا تلك الحركة منظمة إرهابية. «حينها انقلب دور أبناء تلك الأقلية المهاجرين من قوة دافعة ومشجعة على التطرف إلى مصدر باعث على الاعتدال» بحسب تعبير سوراه بريماشاندران، رئيس حزب حقوق التاميل في سيريلانكا. «وعلينا أن لا نغفل هنا ما كان لأحداث ٩/١١، من أثر في هذا الشأن. وبالتالي أدرك عناصر هذه الحركة تدريجيا أنه لا مجال البتة من الآن فصاعدا للتعاطف مع من يقوم بمثل تلك الهجمات الانتحارية».

لكن وبكل أسف لا زال العرب والمسلمون في الشرق الأوسط مستمرين في تبرير مثل تلك الأفعال والإشادة بها بل وتوفير الغطاء الديني لها حتى بعد وقوع هجمات ١١/ ٩. وربما يعود ذلك إلى العديد من الأسباب، أولا، توصل الفلسطينيون إلى قناعة عامة، بفضل دعم العديد من العرب والأوروبيين بخصوصية المظالم التي حلت بهم وضخامتها بشكل ينفي عنها أي صفة حضارية وبالتالي يحق لهم الرد على تلك المظالم بأي طريقة كانت. وفي المقابل أعطى الإسرائيليون لأنفسهم الحق في القيام بأي شيء من أجل وقف تلك الهجمات. ثانيا، كان على سيريلانكا أن تدفع الثمن غاليا مقابل ذلك التطرف، وما سببه من إنهاك اقتصادي ومالي للبلاد خاصة وأنهم لا يملكمون أي نفط ولا يحصلون على أي دعم من الخارج، مما دفع بهم إلى اللجوء إلى مدخراتهم لتمويل تلك الحرب المنهكة، فأدى ذلك إلى انهيار بنية البلاد التحتية. لذا لا غرابة في أن يقود رجال الأعمال الحركة السلمية التي نشطت في السنتين الأخيرتين، خاصة بعد أن فجر مقاتلو الحركة المطار الرئيسي للبلاد في العاصمة كولمبو في شهر تموز/ يوليو سنة ٢٠٠١، مما أودى بالبلاد إلى حافة الانهيار الاقتصادي. وكما قال ماهيش آمالين، رئيس شركة ماس هولدينغ، كبرى شركات تصنيع الملابس في سيريلانكا: «لقد أعلن رجال الأعمال عن سعيهم لوضع حد لهذه الحرب الطاحنة، مما أدى إلى تغيير في الوضع وأصبح شعارنا سيريلانكا أولا».

وفي المقابل نجد أن كل من الفلسطينيين والإسرائيليين قد انخرطوا في أعمالهم الإرهابية بالجملة، وهكذا نجد الفلسطينيين يقومون بأعمال انتحارية من دون أن يؤدي ذلك إلى انهيارهم اقتصاديا بفضل التبرعات التي تقدمها لهم الدول العربية، في حين واصل الإسرائيليون بناء تلك المستوطنات الظالمة في قلب الضفة الغربية لأن الولايات المتحدة مستعدة دائما لتقديم مساعدات طائلة بدون أي قيد أوشرط. وثالثا، لقد اتضح للحكومة السيريلانكية استحالة التوصل إلى حل عسكري حاسم لظاهرة العمليات

الانتحارية، وأن الحل الوحيد لذلك يتمثل في كف المقاتلين التاميليين أنفسهم عن القيام بها. وبالمقابل تبين بكل وضوح أيضا أنه يستحيل على المقاتلين التاميليين الحفاظ على عاصمتهم العرقية جافنا، وذلك بالرغم من قدرتهم على تخويف وترهيب الحكومة المركزية. لذلك لجأ الطرفان إلى التفاوض. ومن حظ الفلسطينيين العاثر، أنهم رفضوا القبول بالحل السلمي ولجأوا واهمين إلى العنف والعمليات الانتحارية، بينما تبنى شارون الحل العسكري الصرف في معرض رده عليهم. وأخيرا، في الوقت الذي تحارب فيه العرب واليهود تحت سمع وبصر العالم أجمع- الذي تدخل بطريقة تطيل أمد النزاع أحيانا-، نجد أن السيريلانكيين خاضوا حربا أهلية راح ضحيتها ٦٤ ألف ضحية بدون أي تغطية إعلامية. وكما قال ميلندا موراغودا، أحد مفاوضي السلام السيريلانكيين: «لقد خضنا حربا منسية، وما علينا إلا التعايش مع أخطائنا والبحث عن مخرج مشرف من هذا الوضع، وما لذلك من محاسن ومساوئ».

٢٠٠٢/٠٨/٠٧

الهند وباكستان وجنرال إلكترك

بنغالور، الهند

قبل شهرين لعب كولن باول، وزير الخارجية الأمريكي والجنرال السابق، دورا قياديا في إبعاد شبح الحرب النووية عن كل من الهند وباكستان. لقد حدث أن اكتشفت هنا في الهند، ما تعرضت له الحكومة الهندية من ضغوط مثيرة وجديدة لم تكن معهودة في السابق، الأمر الذي جعل الحرب النووية أمرا يصعب حدوثه. تمثلت تلك الضغوط وبكل بساطة في كون صناعة تكنولوجيا المعلومات وبرامج الكمبيوتر العجيبة التي ظهرت في العقد الأخير وجعلت من الهند بمثابة القاعة الخلفية ومركز أبحاث للعديد من كبرى الشركات العالمية العاملة في هذا المجال، التي قامت بإبلاغ الحكومة الهندية بضرورة تهدئة الموقف. وبدورها فهمت الحكومة مغزى تلك الرسالة ونفذت ما طلب منها. وهنا يتضح لنا النفوذ القوي الذي مارسته جنرال إلكترك وليس كولن باول.

بداية، يعود كل ذلك إلى قدرة الهند بفضل الإنترنت والأقمار الصناعية على ربط الملايين من المتعلمين الناطقين بالإنجليزية ذوي الدخل المحدود والشباب المتمرس في ميدان التكنولوجيا بكبرى الشركات العالمية. ومن دون أن يغادروا الهند أصبحوا قادرين

على إدارة برامج كمبيوتر وشبكات الدعم لتلك الشركات العملاقة، مما حدا بالهند إلى الحصول ولأول مرة في تاريخها على ما يقارب ٦٠ مليار دولار كمداخيل من العملات الصعبة. وهو مبلغ تضاعف خلال السنوات الثلاث الأخيرة، وبالنتيجة صار العالم يعتمد وإلى حد كبير على الهند وكذلك صارت الهند في أمس الحاجة إلى العالم الخارجي أكثر من أي وقت مضى. مثلا، إذا حدث أن فقدت حقيبتك خلال رحلة على متن طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية البريطانية، فمن يقوم بالبحث عنها في شبكات الكمبيوتر هم عاملون هنا في الهند. أو إذا حدث أن تعطل جهاز كمبيوترك الخاص من نوع «دال» من سيساعدونك على حل تلك المشكلة هم فنيون موجودون هنا في بنغالور، سهل السيليكون الهندي. وربما تكون «أرنست أند يونغ» للمحاسبة تستعين بخدمات أحد المحاسبين الهنود الموجودين هنا. كما تعد كبرى شركات برامج الكمبيوتر الهندية مثل «ويبرو» و«إنفوسيس» و«مايندتري» عبارة عن غرف خلفية تقوم بالمحاسبة والجرد وتقدير دخل الشركات ومرتبات العاملين والرواتب وإقرار بطاقات الائتمان للعديد من الشركات العالمية مثل «نورتل» و«نتوركس» و«ريبوك» و«سوني» و«أمريكان اكسبرس» وبنك «ايتش اس بي سي» وشركة «جي ايه كابيتال».

وحين تقوم بزيارة مجمعات الشركات الهندية في بنغالور، سيقولون لك ما يلي: «هذا المقر الخاص بشركة جنرال إلكترك، وهذا مقر الخاص بشركة أمريكان أكسبرس»، كما يوجد هنا في بنغالور أكبر مركز أبحاث لشركة جنرال إلكترك خارج الولايات المتحدة، ويضم حوالي ١٧٠٠ مهندس وعالم هندي. وهناك أيضا تم تصميم كل قرص ذكي لأي هاتف محمول من نوع نوكيا. وفي حال أراد أحدهم استئجار سيارة من شركة أفيس عبر الإنترنت، تدار تلك المعاملة من الهند. وبالتالي، لا غرابة من شعور كل الشركات العالمية العاملة في بنغالور بالغضب من التحذير الذي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية يوم ٣١ مايو/ أيار الماضي ونصحت فيه الأمريكيين بترك الهند لأن احتمالات نشوب حرب قد بلغت «درجة خطيرة».

وكما يتذكر ذلك فيفك بول نائب رئيس شركة ويبرو، فيقول: «يومها وصلتني رسالة بالبريد الإلكتروني من مسؤول المعلومات في إحدى كبرى الشركات الأمريكية المتعاملة معنا، قال فيها «أعرف أنك لا تريد أن تسمع ما سأقول، إلا أني الآن مضطر كي أمضي وقتا طويلا في البحث عن مقرات بديلة للهند». فورا قمت بتمرير تلك الرسالة إلى السفير الهندي في واشنطن طالبا منه إيصالها إلى الأشخاص المعنيين». أو كما يقول كرشناكومار، رئيس شركة مايندتري، بأنه لا غرابة في أن يكون «العصب

الرئيسي للعديد من الشركات العالمية موجودا هنا. وأن أي اضطراب من شأنه أن يحدث فوضى كبيرة»، ثم أضاف: «وبالرغم من كوننا لا نريد التدخل في شؤون السياسة الخارجية، إلا أن ما طلبناه من حكومتنا وبكل وضوح، عن طريق اتحاد الصناعيين الهنود، هو توفير بيئة مستقرة يمكن التكهن فيها بما سيحدث كشرط أساسي للقدرة على تطوير الهند».

لقد كان ذلك درسا مهما تلقاه قادة الهند الكبار في السن في نيودلهي باعتراف العديد من المسؤولين، فمن شأن الشعارات الفضفاضة والدعوة إلى الحرب واستعمال الأسلحة النووية أن تؤدي بالهند إلى الهاوية. وهو ما يتفق عليه وزراء تكنولوجيا المعلومات الذين تم تعيينهم في كل مقاطعة هندية. ووفقا لما قاله فيفك كلكارني وزير تكنولوجيا المعلومات في بنغالور: «نحن لا نتدخل في السياسة لكننا نلفت نظر الحكومة إلى ما يمكن أن تواجهه صناعة تكنولوجيا المعلومات من مشاكل في حال نشوب حرب... وقبل حوالي عشر سنوات لم يكن هناك وجود للوبي تكنولوجيا المعلومات».

طبعا، فكل ما تقدم ذكره لا يعني أن هناك ضمانة أكيدة بعدم إمكانية اندلاع حرب. إذا أقدم المتطرفون الباكستانيون على عمل ما في غاية الاستفزازية والفظاعة بشكل يجبر الهند على الرد، ولكن من الأكيد أن قادة الهند سيفكرون عشر مرات في كيفية الرد. وإذا كان لا بد من الدخول في حرب، فإن الهند ستدفع عشرة أضعاف الثمن الذي كان من الممكن أن تدفعه قبل عشر سنوات. حاليا يرجع الفضل في التوصل إلى حالة وقف إطلاق النار إلى شركة جنرال إلكترك وكل أصدقائها هنا في بنغالور.

٢٠٠٢/٨/١١

لمّا تسود الحرية

بنغالور، الهند

بقدر ما تمضي وقتا أطول في الهند بقدر ما تترسّخ قناعتك بأن هذا البلد المتعدد الأعراق والأديان واللغات، يعد إحدى أهم عجائب العالم، بل ومعجزة ذات مغزى مفادها أن الديمقراطية أمر مهم جدا. وهذه حقيقة تتضح لزائر للهند أينما حل. مثلا مدينة بنغالور، التي تزدحم شوارعها هذه الأيام بالشباب المولعين بالتكنولوجيا، القادمين

في معظمهم من الطبقات الدنيا والمتوسطة، الذين نجحوا في الحصول على وظائف حرة وقدرتهم على توفير دراجات نارية وشقق سكنية. يمثل هؤلاء الطاقة البشرية الذكية المطلوبة من قبل كبرى الشركات العالمية. وفي حين لا يمكن إنكار أهمية ما توصل إليه هؤلاء الشباب المبدعون في ميدان برمجة الكمبيوتر، إلا أن ما أضفى على مدينة كهذه أهمية وقيمة كبيرتين هو شيء آخر تماما. لقد تداخلت العديد من العوامل والأسباب في إنتاج تلك الظاهرة منها خمسون عاما من ممارسة الديمقراطية في الهند إضافة إلى النظام التعليمي العلماني وبعد مرور خمسة عشر عاما على تحرير الاقتصاد.

سيلاحظ كل من يعبر الهند باتجاه باكستان حيث يتقاسم البلدان نفس الدماء والعقول والتراث، وسيجد كيف أن خمسين عاما من الديمقراطية الفاشلة والانقلابات العسكرية والتعاليم الدينية المفروضة لم تنتج سوى عشرات آلاف من المدارس الدينية التي حلت محل التعليم الرسمي المنهار، تخرج منها شبان باكستانيون لا يجيدون سوى كراهية غير المسلمين. لكن ذلك لا يعني أبدا أن الهند بلد مثالي. ففي شهر شباط/ فبراير الماضي أقدم عناصر تابعون لحزب(بي.جي.بي) الهندوسي المتعصب والحاكم في مقاطعة غوجارات، باعتداءات على المسلمين خلفت ٦٠٠ قتيل من المسلمين وعشرات القتلى من الهندوس. لقد كان حادثا مشينا ومؤشرا خطير في بلد كالهند التي تضم أكبر أقلية مسلمة في العالم. من حسن الحظ أن ذلك لم يؤد إلى مضاعفات خطيرة ولم تنتشر أعمال الشغب إلى مناطق أخرى من البلاد. ويعود الفضل في ذلك إلى عراقة وقدم التعايش السلمي بين المسلمين والهندوس في مختلف مدن وقرى هذا البلد وامتزاج ثقافتهم ومعتقداتهم وتقاسمهم لمؤسسات مشتركة. كما أن التقليد الديمقراطي هناك لعب دورا بالغ الأهمية. ومن جهتها فورا بادرت الصحافة الهندية المستقلة إلى فضح ما قامت به الحكومة المحلية الهندوسية، التي شجعت أعمال الشغب تلك من أجل تحقيق أغراض انتخابية بحتة، مما دفع بحزب (بي.جي.بي) لعموم الهند، المشارك في الائتلاف الحاكم إلى نفي أي علاقة له بما حدث في غوجارات، خاصة وأن العديد من أعضائه يعتمدون على أصوات ناخبين مسلمين في دوائرهم الانتخابية. وهكذا، من متطلبات العمل والنجاح بشكل ديمقراطي على المستوى القومي، يتطلب من الساسة الهنود أن يتجاوزوا الحدود العرقية في مخاطبتهم للناخبين.

وفي هذا الصدد يقول سيد شهاب الدين، الدبلوماسي السابق ورئيس تحرير مجلة «الهند المسلمة» الشهرية ما يلي: «كانت بقية أنحاء الهند تعيش في سلام بالرغم من أن غوجارات كانت تحترق. وهذا أمر متوقع لأن الهند بلد ديمقراطي، بل لدينا على الأقل

ومن حيث المبدأ ديمقراطية علمانية تتكفل بالحفاظ على مستوى معين من التطلعات للمسلمين. ولولا ذلك لما انتشرت الفوضى وعم الفزع، خاصة وأن هناك العديد من الأطراف المختلفة التي تريد الحصول هي الأخرى على نصيبها من الكعكة. إن هذا الوضع قائم بالأساس ضمن إطار دستوري، دائما يمكن مناشدة العدالة الاقتصادية والسياسية من خلاله». مشيرا بذلك إلى عدم حاجة المسلمين الهنود إلى اللجوء للعنف والتطرف.

وهكذا، ستخطأ الولايات المتحدة كثيرا إن قصرت في الضغط من أجل المزيد من الديمقراطية في العالمين العربي والإسلامي. هل من المصادفة أن الهند التي تقطنها أكبر أغلبية مسلمة في العالم وبالرغم من المشاكل الاقتصادية التي تعانيها، لم يعثر على أي من مواطنيها ينتمي إلى تنظيم القاعدة؟ وهل من المصادفة أن الحربين الشاملتين التي خاضتهما كل من الهند وباكستان سنة ١٩٦٥ و١٩٧١ تزامن مع وجود حكام عسكريين كانوا يسيطرون على الحكم في باكستان؟ وهل من المصادفة أنه لما شهدت باكستان انتخابات حرة لم يحصل الإسلاميون المتشددون على أكثر ٦٪ من مجموع أصوات الناخبين؟ وهل من المصادفة أن أغنى رجل في الهند هو مسلم هندي يعمل في ميدان برمجة الكمبيوتر، في حين أن أغنى رجل في باكستان- سأخمن فقط هنا- ينتمي إلى واحدة من الخمسين عائلة إقطاعية التي هيمنت على البلاد منذ استقلالها؟ وهل من المصادفة أن مدينة حيدرأباد الهندية هي المكان الوحيد في العالم الإسلامي الذي شعرت فيه المرأة بالقوة إلى درجة المطالبة بالمساواة في أداء فريضة الصلاة؟ طبعا لم يكن كل ذلك من نتاج الصدفة المحضة، بل نتيجة للديمقراطية. فقط في دولة إسلامية ديمقراطية يمكن إنجاز إصلاحات كتلك التي قام بها المعتدلون المسيحيون واليهود.

كما أني لا أتفق على ما يروجه البعض كون الإسلام ديناً غير متسامح، لأن شعور بعض المسلمين بالغضب مما يعانونه من ظلم وتعسف على يد أنظمتهم الفاسدة هو ما يدفع بالبعض إلى الترويج لمثل تلك الدعايات. أضف إلى ذلك غياب سلطة القانون وانعدام حرية المرأة وإقصاء الشباب فيما يتعلق بالقرارات المستقبلية، وبالتالي فما يحدث الآن هو مجرد انعكاس لأوضاع قائمة وليس للدين. والرسالة التي يمكن استخلاصها من تجربة الهند تقول إن الظروف تلعب دورا مركزيا، وإن أي تغيير في الظروف السياسية التي يعيش في ظلها المسلمون سيتسبب بلا شك في تغيير الكثير من المعطيات والحقائق.

١٤/٠٨/٢٠٠٢

ضباب الحرب

نشرت جريدة «واشنطن بوست» الأسبوع الماضي خبرا مثيرا قادما من غزة جديرا بالانتباه أكثر مما لقيه. ومفاد هذا الخبر أن الفصائل الفلسطينية الأساسية والبالغ عددها ١٢ فصيلا، كانت قد عقدت اجتماعات عديدة طوال الشهر الماضي وأجرت مباحثات سرية لتحديد «القواعد الأساسية لانتفاضتهم ضد إسرائيل، والاتفاق حول العديد من المسائل الجوهرية مثل لماذا يقاتلون وماذا يريدون من وراء ذلك وما إذا كانت العمليات الانتحارية سلاحا مشروعا».

هنا اسمحوا لي بتكرار ما ذكرت توخيا للوضوح والدقة: بعد مرور سنتين على انطلاق الانتفاضة تجتمع الفصائل الفلسطينية ليقرروا «لماذا هم يقاتلون وما إذا كانت الوسائل المستخدمة مشروعة أم لا». لا أستطيع الجزم بأني مستغرب. لأنه ومنذ أن اندلعت الانتفاضة قلت - كما قال غيري - بأنها مغامرة طائشة وبلا جدوى. لماذا؟ لأن الولايات المتحدة وإسرائيل قدمتا مبادرة وبديلا دبلوماسيا عن الحرب تمثل في عرض للسلام كان من الممكن أن يعكس معظم طموحات الفلسطينيين المتمثلة في إنشاء دولة خاصة بهم. إلا أنه ومنذ بداية الانتفاضة لم يستطع الفلسطينيون شرح الأسباب التي دفعتهم إلى اللجوء إلى العنف المسلح وقتل المدنيين الإسرائيليين عبر الهجمات الانتحارية وتعريض شعبهم ومؤسساتهم للخراب والتدمير في الوقت الذي توفرت فيه فرصة لإنهاء الاحتلال سلميا.

طبعا لم يتوقف المتحدثون الفلسطينيون والمرددون المؤيدون لهم في الدوائر الإعلامية والدبلوماسية الغربية عن ترديد المقولات التالية: لم يشتمل العرض الأمريكي إلا على٩٠٪ بدلا من ٩٦٪ من الضفة الغربية (غير صحيح)، أو أن المقترحات الأمريكية والإسرائيلية لم تنص على قيام دولة فلسطينية مجاورة في الضفة الغربية، بل نصت على قيام مجرد كيانات من نوع «البانتوستان» (غير صحيح). ولكن لنتفرض أن العروض الأمريكية والإسرائيلية المبدئية لم تكن بالفعل كافية مثلما يدعي الفلسطينيون، فإن ذلك لا يبرر اللجوء إلى العنف. لو قام الفلسطينيون بالمطالبة سلميا بتحسين تلك العروض لكان من شأنه أن يقدم لهم الكثير ويجنبهم المزيد من المعاناة. إلا أن الأصدقاء العرب والأوروبيين، بدلا من الضغط عليهم للقبول بذلك لجأوا إلى الدفاع والتبرير شارحين لنا كيف أدى «اليأس» الفلسطيني إلى العمليات الانتحارية. ومثل هذا التبرير أدى إلى مثل

هذا الموقف الحالي، بحيث تلتقي التنظيمات الفلسطينية بعد مرور عامين على اندلاع الحرب الكارثة للبحث في ماهيتها. لكن أين ذهبت قيادة ياسر عرفات؟. تلك القيادة التي دأبت على رفع شعارها المعتاد والقائل: «لا يهم كثيرا أين يريد شعبي أن يصل حتى لو كان ذلك يعني السقوط في هاوية. المهم أن أبقى أنا في السلطة».

بلا شك هناك رسالة موجهة للولايات المتحدة من وراء ذلك، مفادها ألا تشن حربا لا تستطيع شرحها سواء لشعبك أو للعالم. والتحذير الموجه للرئيس بوش هو: ما هو شعاره لتبرير الحرب على العراق؟ لقد سمعت العديد منها أخيرا، كذلك القائل بأننا نحتاج إلى توجيه ضربة وقائية قبل أن يتمكن صدام حسين من استخدام أسلحة الدمار الشامل ضدنا. أو نحن في حاجة إلى تغيير النظام في بغداد من أجل نشر الديمقراطية في العراق وفي العالم العربي. أو نحن في حاجة إلى معاقبة صدام حسين لعدم التزامه بقرارات الأمم المتحدة والسماح للمفتشين الدوليين بالعمل داخل العراق. أو نحن في حاجة إلى التخلص من صدام حسين لأنه عدواني وربما كان يقف وراء تفجيرات ٩/١١.

قد تبدو كل مثل تلك الادعاءات مشروعة، لكن كل منها يفرض على الولايات المتحدة توخي استراتيجيا عسكرية ودبلوماسية مختلفة. وفي حال أن فريق الرئيس بوش جاد في ما يقول بخصوص العراق، ما عليهم إلا التركيز على هدف واحد وواضح وإعداد خطة حربية مركزة حول ذلك الأمر ثم اللجوء إلى الترويج والدعاية لها داخليا وخارجيا. أما إذا لم تتمكن الأجنحة المختلفة في إدارة بوش - التي تشبه الفلسطينيين كثيرا في انقسامها على نفسها - من إعداد ذلك بشكل مسبق، لا يجوز لهم الإقدام على أي عمل. وعندما لا تعرف أين ستذهب ولا الطريق التي ستوصلك إلى وجهتك، عليك أن تتوجه بالسؤال إلى الفلسطينيين. ولكن عندما يدور الحديث عن المبادرة بعمل حربي لإسقاط حكومة في النصف الآخر من الكرة الأرضية، لن يقودك إلى هناك أي طريق، لأنك في حاجة إلى التركيز على الغاية والوسيلة والمنطق. لأننا وبكل تأكيد لا نريد أن تطالعنا أي صحيفة بعد سنتين من الآن بخبر عن اجتماع عاصف عقدته إدارة الرئيس بوش لبحث طبيعة الحرب على العراق.

٢٠٠٢/٠٨/١٨

بوش وفخ الرمال المتحركة في الشرق الأوسط

كنت أشاهد برامج قناة «السي.ان.ان» قبل أسبوعين أثناء تواجدي في العاصمة الهندية نيودلهي، حين أطل الرئيس بوش كي يتحدث عن جدية التهديد الذي يمثله العراق. لم يكن من الصعب فهم ما كان يقوله الرئيس، بل المزعج في الأمر، هو الطريقة التي كان يتحدث بها مرتديا قميص الغولف، واقفا وسط الملعب برفقة شركائه في اللعب. صحيح أن الرئيس بوش قاد الحرب على الإرهاب بعزيمة لا تلين، إلا أن حديثه من ملعب للغولف كما فعل سابقا، وقوله: «إنني أدعو جميع الدول لبذل ما في وسعها لملاحقة هؤلاء القتلة الإرهابيين وشكرا. وشاهدوا الآن الطريقة التي سألعب بها» يشير إلى لامبالاته بالعالم الخارجي وافتقاره الشديد إلى الجدية.

إن الأمر يتجاوز بكثير الإطار العام لسياستنا تجاه العراق التي نحتاج أن تكون أكثر جدية فيما تعلق بها إن أردنا الحصول على دعم وتأييد بقية دول العالم. ويرتبط مباشرة بالأداء السياسي، وعلى وجه الخصوص بطرقة حديثنا عن الديمقراطية. كما يغفل أعضاء فريق بوش حقيقة أن الناس يلاحظون الطريقة التي يصرون بها على ضرورة الإطاحة بنظام صدام حسين من أجل إدخال الديمقراطية إلى العراق والعالم العربي، من دون أن يتعرضوا لذكر النظام المصري أو السعودي مثلا. وهذا من شأنه ان يؤثر سلبا على مصداقيتنا وما يمكن أن نحصل عليه من دعم. لكن وللحقيقة لقد قرر الرئيس بوش حجب الزيادة في المساعدات المقررة لمصر كرد فعل على حبسها ظلما لأهم مدافع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان في مصر. وقد علق على ذلك المحلل السياسي الأردني رامي خوري فقال: «سيعد ذلك بالمبادرة الجيدة لو شكل نقطة البداية في سلسلة أعمال داعمة للقيم المشتركة بيننا». وفي الوقت نفسه يتساءل البعض كالتالي: ماهو السبب وراء إلحاح أمريكا على ترسيخ الديمقراطية في العراق فقط؟ ربما لعدم اهتمامها الفعلي بالديمقراطية في العالم العربي، لكنها تسعى إلى تحقيق مصالحها المكشوفة في العراق مستخدمة الديمقراطية ذريعة لذلك.

والأمر نفسه ينطبق على ما يجري في الضفة الغربية، إذ ما انفكت إدارة الرئيس بوش تضغط من أجل فرض الديمقراطية على سلطة ياسر عرفات، إلا أنها بالمقابل لم تنطق بكلمة واحدة ضد سياسة بناء المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، مما ساهم في تسميم الأجواء هناك وتعزيز موقف المتشددين الفلسطينيين وإضعاف موقف

المعتدلين. وبحسب ما لاحظه ستيفن كوهين، خبير شؤون الشرق الأوسط: «إلى الآن لجأت إدارة الرئيس بوش إلى استخدام مسألة تشجيع الديمقراطية في المنطقة كأداة لمعاقبة خصومها فقط، وليس من أجل إيجاد المزيد من الفرص لأصدقائها». وهذا رأي صحيح، إذ إن فريق الرئيس بوش لا يدافع عن الديمقراطية إلا في المناطق التي تعترض على السياسة الأمريكية، وليس في الدول التي تحكمها أنظمة دكتاتورية ومؤيدة ظاهريا لأمريكا مثل السعودية ومصر، حيث أصبح العديد من مواطني هذه الدول من أشد المعادين لأمريكا، وبالنتيجة نجد أن ١٥ سعوديا ومصريا واحدا قد لعبوا دورا جوهريا في تنفيذ هجمات ٩/١١. كما يحتج البعض أنه في حال إجراء انتخابات ديمقراطية نزيهة في تلك الدول، سيؤدي ذلك إلى - رجل واحد وصوت واحد ووقت واحد - بعبارة أخرى سيفوز الإسلاميون بالسلطة ولن يتنازلوا عنها. هذا راي أختلف معه تماما. لاعتقادي بأنه سيكون هناك رجل واحد وصوت واحد لمرة واحدة، ولأنه عاجلا أو آجلا، وحتى الإسلاميون سيكون من المفروض عليهم الوفاء بما التزموا به من وعود أو سيتم إخراجهم من السلطة.

كما يحتج بعضهم بالمثال الإيراني حين لا تؤدي الديمقراطية إلى النتائج المرجوة. أقول معذرة لهؤلاء. فإيران ليست بدولة ديمقراطية، بل هي دولة تحكمها دكتاتورية أصولية تملك ثروة نفطية وتستخدم التصويت لصالح مرشحين تم اختيارهم سلفا من أجل توفير غطاء ديمقراطي. وهكذا تعتبر إيران كمثال حي على ضرورة التمهيد وتهيئة الأرضية للديمقراطية قبل ممارستها في الدول معروفة تاريخيا باستبدادها. لذلك أعترض على إجراء انتخابات غدا في السعودية أو مصر مثلا.

أمّا ما يجب أن ندافع عنه (وما يفترض أن يسعى إليه أنصار الديمقراطية في هذه البلدان) هو تهيئة الأرضية بكل مرونة بحسب تعبير لاري دايموند، خبير مسائل الديمقراطية في مؤسسة هوفر: «يعني ذلك تشجيع هذه الأنظمة على التدرج في تبني تعددية الأحزاب السياسية والمنافسة الانتخابية العادلة، وحتى لو تم ذلك على المستوى المحلي، وعلى المزيد من حرية الصحافة والمزيد من استقلالية القضاء كأفضل طريقة لتمهيد الأرضية المناسبة للعمل الديمقراطي».

وفي الأثناء بإمكان الأسر الحاكمة أن تحتفظ ببعض مراكز السلطة كالجيش وأجهزة الأمن كضمان للتأكد من حسن تصرف الحكومات المنتخبة حديثا (لقد لعب الجيش في تركيا والملك في تايلند دور المشرف، في حين تبنت مجتمعاتها تدريجيا العادات الديمقراطية). وبما أن حركة الأحزاب السياسية المتنافسة هناك كانت مقيدة بنفوذ هذه

المؤسسات مما حدا بها إلى تعلم حدود التزامات السلطة، وبالتالي يمكن أن تنتقل إليهم المزيد من السلطة تدريجيا. لكن وبكل أسف هذه ليست سياسة بوش، الذي تتلخص سياسة إدارته الحالية في معاقبة الخصوم بالتلويح بالديمقراطية ومكافأة الأصدقاء بالصمت تجاه تحولهم للديمقراطية، وهو أسلوب خاطئ يسيء كثيرا إلى مفهوم الديمقراطية.
٢٠٠٢/٠٨/٢١

إغراق الحرية في النفط

أثناء زيارتي الأخيرة للهند اجتمعت بسيد شهاب الدين، أحد أعيان المسلمين هناك، وفجأة انقلب الحديث الذي دار بيننا إلى السؤال المطروح بإلحاح عن السبب الذي يجعل العالم الإسلامي يكره الغرب؟ ما كان منه إلا أن أجابني قائلا: «كل مرة أتواجد في أمريكا، يتوجه إليّ الناس سائلين «لماذا يكرهوننا؟»». هم لا يكرهونكم، ولو كان ذلك صحيحا فلماذا يرسلون أبناءهم للدراسة عندكم؟ ولماذا ينظرون إليكم كقدوة يحتذون بها؟ إنما هم يكرهون احتكاركم لكل مصادر الطاقة غيرالمتجددة- النفط-. ولأنكم تريدون ذلك، فإنكم في حاجة إلى الحفاظ على كل عملائكم في السلطة، وبالنتيجة تجدون أنفسكم تدعمون وتحمون أنظمة إقطاعية متخلفة معادية لأي نفس ديمقراطي».

وبالفعل، كلما توغلت في مختلف أصقاع العالم الإسلامي تتضح لي صحة تلك الرؤية؛ فالاعتماد على النفط أعاق كثيرا مسيرة العالم العربي وإيران نحو الديمقراطية. ولا شيء أعاق أمريكا من قول الحقيقة ودعم الديمقراطية في الشرق الأوسط أكثر من اعتمادنا على النفط القادم من تلك المنطقة. وبكل أسف، إلى الآن لم يقم فريق الرئيس بوش ونائبه ديك تشيني بأي خطوة من شأنها أن تقلل اعتمادنا واعتماد العالم العربي- الإسلامي على النفط. لأنه وبكل بساطة في أي دولة تعتمد بشكل مطلق على الإيرادات النفطية، تتركز سياستها (أي الدولة المصدرة) على الدولة التي تتحكم في تلك المداخيل (أي الدولة المستوردة)، بدل أن تتركز سياستها على التطوير من قدرات مواطنيها، وبدل التركيز على سلطة القانون وبدل التركيز على إنشاء نظام حكم مشروع يشعر فيه المواطنون بجزء من المسؤولية والمشاركة، وبدل التركيز على بناء نظام اقتصادي نزيه ومفتوح وجذاب للاستثمارات. وباختصار يمكن للدول المالكة للنفط أن تعرف الرخاء المادي ما دامت قادرة على إحداث حفر في المكان المناسب لضخ النفط. ولننظر إلى

العربية السعودية مثلا أو ليبيا أو العراق. في حين أن ازدهار ونمو الدول غير المالكة للنفط مرهون بقدرتهم على الاستثمار في عقول مواطنيهم وطاقاتهم ومنحهم الحرية اللازمة لذلك، ولننظر إلى اليابان مثلا أو تايوان أو الهند.

هل يعتقد أحدكم أن بإمكان ملالي إيران الاستمرار في السلطة لو لم يكن لديهم كل تلك المداخيل النفطية الهائلة لشراء ولاء أتباعهم من التجار وأجهزة المخابرات؟ هل تعتقدون أن بإمكان السعوديين أن يقصوا كل نسائهم ويبقوهن خلف العبايات لو لم يكن عندهم كل تلك الكميات الهائلة من البترودولار لتعويض خدماتهم؟ هل تعتقدون أنه من باب الصدف لا غير أن أكثرية الدول العربية انفتاحا هي إما دول بدون نفط على الإطلاق أو دول ذات احتياطات نفطية محدودة جدا مثل لبنان والأردن والبحرين والمغرب ودبي وقطر؟ إن تلك الدول تعلمت كيف تبحث عن الثروة في عقول أبنائها وليس في الكثبان الرملية.

هناك جدل دائر حاليا في البنتاغون حول ما إذا يمكن اعتبار العربية السعودية من بين أعدائنا. نعم ولا. هناك فئة علمانية موالية لأمريكا من أبناء الطبقة الوسطى السعودية، هؤلاء غير معادين للولايات المتحدة، هم ناس طيبون جدا، ويجب على كل من يزور المملكة أن يقابلهم. وهذا أمر يجب ألا ننساه أبدا. لكن بقاء أسرة آل سعود في السلطة لا يرجع إلى عملية انتخاب ديمقراطية حصلت بمقتضاها على موافقة الفئة الأولى، بل إلى تحالف أبرمته مع المؤسسة الدينية المتشددة للوهابيين، حيث يقوم الأئمة الوهابيون المتشددون بمباركة سلطة آل سعود وإضفاء الشرعية عليهم في ضوء غياب أي أسلوب ديمقراطي من أي نوع. وبالمقابل يغدق السعوديون على المؤسسة الوهابية بسخاء من مداخيل النفط التي يوظفونها هم بدورهم من أجل نشر تعاليم طائفتهم المتطرفة والمعادية للغرب وللمرأة وللحداثة ولكل ما هو غير مسلم. وهذه معادلة تروق كثيرا لأسرة آل سعود. لكن إذا قمنا نحن بدعم الفئة العلمانية والموالية لأمريكا من السعوديين، فلن يطول بهم الأمد حتى يطالبوا بالشفافية في إجراء الموازنة العامة وتطبيق مبدأ محاسبة الحكومة والتمثيل النيابي. إلا أنه وفي المقابل، لا يهتم الأئمة الوهابيون بمدى الفساد الداخلي لأسرة آل سعود ما دامت تواصل رشوة الأئمة وشراء ولائهم وذممهم وإطلاق يدهم في فرض تعاليم عقيدتهم الوهابية على مختلف نواحي المجتمع السعودي من إعلام وتربية بل وتصديرها إلى الخارج.

لذا وبالرغم من وجود الكثير من المعتدلين السعوديين الذين لا يشكلون تهديدا لنا، فإننا لا نعثر على من يمثل هؤلاء في تركيبة السلطة السعودية الحاكمة التي تنفرد بها الفئة

التي تشكل تهديدا مباشرا لنا عن طريق التمويلات الطائلة التي يمنحونها للمحافظين الوهابيين الذين يشرفون على بناء المساجد والمدارس التي تعمل على نشر القيم المعادية للحداثة والتعددية والتسامح عبر العالم الإسلامي بل وفي أمريكا نفسها. وهنا يشكل إدماننا على النفط أكبر مانع كي نقوم بمواجهة هؤلاء السعوديين والكشف عن حقيقة أفعالهم. وكما هو معلوم يستحيل على أي مدمن أن يعترف بحقيقة أمره لمن يطالبه بذلك.

ولكن إلى أن نقدم على ذلك، والحد من استهلاكنا للنفط والبحث عن مصادر بديلة للطاقة من شأنها أن تؤدي تدريجيا إلى خفض الأسعار مما سيجبر مثل تلك الدول على الانفتاح ومعانقة الحداثة. أما بدون القيام بذلك فحتى لو قمنا بغزو العراق مرة كل أسبوع، فإن ذلك لن يجلب الديمقراطية إلى العالم العربي.

٢٠٠٢/٠٨/٢٥

الوقواق يحلق فوق كارولاينا

يمكن النظر إلى الشغب الذي أحدثه المسيحيون المحافظون حول مطالبة جامعة كارولاينا الشمالية الطلبة الجدد بمطالعة كتاب عن القرآن - من أجل إثراء الجدل بين الطلاب داخل الجامعة -، على أن هذا وبكل تأكيد إحدى أكثر اللحظات حرجا للولايات المتحدة الأمريكية منذ ٩/١١ الماضي. لماذا؟ لأن ذلك يكشف الجهل العميق بجوهر وماهية أمريكا، ويعد في الوقت نفسه تقليداً باهتاً للأساليب القمعية المتبعة في البلدان العربية - الإسلامية. دعونا نطرح على أنفسنا السؤال التالي: كيف سيكون رد فعل أسامة بن لادن لو اكتشف أن جامعة الرياض قد طالبت الطلبة الجدد بقراءة الإنجيل بجزأيه العهد القديم والعهد الجديد؟ من المؤكد أنه سيقوم بما يقوم به الآن معارضو قرار جامعة كارولاينا الشمالية، أي حرق الكتاب المطلوب قراءته كمحاولة منهم لمنع تنفيذ القرار الجامعي، مع فارق وحيد هو أن بن لادن لا يبالي كثيرا بالمحاكم. خاصة وأن الإقدام على بناء كنيسة أو معبد يهودي أو بوذي بشكل علني يعتبر جرما يعاقب عليه القانون في المملكة العربية السعودية. وهل هذا ما نريد تقليده؟

وبحسب ما جاء في رسالة نشرتها أخيرا جريدة «نيويورك تايمز»، فالمشكلة اليوم ليست فيما تمثله مطالبة الطلبة الأمريكيين بقراءة القرآن، بل في كون العديد من الطلبة

سواء في السعودية أو في العديد من البلدان الإسلامية لم يسبق أن طلب منهم قراءة الكتب المقدسة التي تنتمي إلى حضارات أخرى، ناهيك عن الوثائق الأساسية المتعلقة بالديمقراطية الأمريكية مثل «وثيقة إعلان الحقوق» و«الدستور» و«الوثائق الفيدرالية».

وفي الحقيقة يعتبر جهلهم بمثل هذه الوثائق المتنوعة هو مكمن الضعف لديهم، وبحكم كوننا نؤمن بها فهي مصدر قوتنا. لذا ما علينا إلا أن نجسد المبادئ الواردة فيها بشكل عملي داخل الولايات المتحدة وألا نميل إلى تقليد أساليبهم الظلامية. وبالتالي عدم الاعتداد بالرأي القائل أن جامعة كارولاينا الشمالية ارتكبت خرقا للدستور ضد الدين السائد في الولاية باقتراحها قراءة كتاب «مقاربة القرآن: الإلهامات المبكرة»، وحسنا ما فعلته المحاكم حين اتخذت موقفا رافضا لسماع أي دعوى قضائية بهذا الخصوص.

لقد اكتشفت، وسعدت بما اكتشفت، أن ابنتي البالغة سبعة عشر ربيعا، تقرأ في مدرستها الثانوية سفر التكوين وإنجيل لوقا ونشيد الإنشاد وسفر أيوب كجزء من واجباتها المدرسية خلال عطلة الصيف، وتمنيت لو تم إدراج القرآن أيضا ضمن تلك القراءات. أنا أتفهم جيدا ذلك الشعور الغاضب الذي ينتاب بعضهم والذي يرى أنه من الخطأ الإقبال على المصحف وجعله من أكثر الكتب مبيعا كي نفهم من هم أولئك الإرهابيون الذين أقدموا على قتل ثلاثة آلاف أمريكي. لذلك أنا لست منزعجاً من هذا الأمر كأمريكي، ولكن قد أشعر بشيء من عدم الارتياح لو كنت مسلما لالتفات الناس بالنظر والتدقيق في عقيدتي نتيجة فعل تدميري شنيع تم ارتكابه باسم الإسلام، بدلا من انجذابهم بقوة نحو بعض المجتمعات التي تتدعي أنها تعكس نزوع الإسلام نحو تحقيق مجتمع عادل. لذلك يمكن اعتبار حرية التفكير والتعددية الثقافية والسياسية اللتين تتصف بهما مدارسنا كأساس يقوم عليه العقل النقدي الذي يعد بدوره مصدراً رئيسياً للابتكار والبحث العلمي والنفس التجاري.

مباشرة وبعد وقوع أحداث ٩/١١، كانت أغلب الكتب الأكثر مبيعا عن طريق المكتبة الإلكترونية (أمازون دوت كوم)، هي كتب حول الشرق الأوسط والإسلام، ومع ذلك لم يحدث أبدا أن كان هناك في المقابل أي طلب أو اهتمام متزايد بالدراسات الأمريكية بين صفوف المثقفين العرب والمسلمين أو في داخل جامعاتهم ومدارسهم المتجانسة والمتخلفة. وهذا ما يبعث على تذكر ملاحظة هاري لايم الساخرة في فيلم «الرجل الثالث» وكيف أن ثلاثين سنة من العنف والشغب والحرائق تحت حكم آل بورجياس في إيطاليا أدت إلى ظهور مايكل أنجلو وليوناردو دافنشي وعصر النهضة. في

حين أن خمسمائة عام من الهدوء والسلم الاجتماعي في سويسرا لم تنتج سوى الساعة المزودة بمنبه يصدر صوتا كصوت الوقواق.

وقد لاحظ الفيلسوف المختص في الأديان ديفيد هارتمان: «أن الأطر المتماثلة والمتجانسة لا تستطيع أن تنتج عقلا نقديا، نظرا لوجود حقيقة مطلقة واحدة لا يمكن التشكيك بها، وبالتالي يصبح من غير الممكن اندلاع أي شرارة إبداع في مناخ كهذا. في حين أن قوة أمريكا تكمن في قدرتها الدائمة على تحدي ما لديها من قناعات وتقديم بدائل أخرى، مما يدفعك إلى تبرير قناعاتك وأفكارك. وهكذا نتوصل إلى أن التنافس بين الأفكار هو ما يؤدي إلى حالة التفوق».

أستطيع أن أؤكد لكم أن الإسلام كان ولا زال يدرس في أغلب الجامعات الأمريكية قبل وبعد أحداث ٩/١١. لقد سبق لي أن درست الإسلام واللغة العربية في جامعة مينيسوتا سنة ١٩٧١.

ستبقى الولايات المتحدة نموذجاً دائماً وقوياً لكيفية ازدهار بلد ما في العصر الحديث ما دمنا نحافظ على ثقافة الفضول المعرفي والانفتاح الفكري وجوهر البحث الحر. وفي المقابل سيبقى العالم والعربي والإسلامي حيث هو يتصارع مع الحداثة ما دام طلاب الفصل الحادي عشر في مدارسهم الثانوية العامة هناك غير قادرين على قراءة سفر التكوين ونشيد الإنشاد وإنجيل لوقا أثناء عطلهم الصيفية.

٢٨/٠٨/٢٠٠٢

العراق بدون صدام

كلما تأملت في خطط الرئيس بوش المتعلقة بالإطاحة بصدام حسين، يتبادر إلى ذهني هذا السؤال الملحّ: هل وصل العراق إلى هذه الحال بسبب من صدام حسين؟ أو هل أن صدام حسين كما هو اليوم كنتيجة لطبيعة العراق؟ وبمعنى آخر هل أن العراق هو بالأساس دكتاتورية شمولية يحكمه رجل قاس بيد من حديد لأن البلاد بالأساس هي بمثابة يوغسلافيا عربية - كيانات مصطنعة وقبائل متنوعة شكلها البريطانيون تتكون من الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال والسنة في الوسط - بحيث لا يمكن السيطرة على التنافس العرقي والتاريخي فيها إلا عبر حاكم من نوع صدام حسين؟ أو هل تحول العراق اليوم وبفعل مرور الوقت إلى كيان حقيقي متماسك كدولة؟ وفي حال تم استبدال

القبضة الحديدية التي لصدام حسين بحكومة أكثر تنورا، ربما ستقوم النخبة العراقية المتعلمة والموهوبة بإنتاج ديمقراطية فيدرالية حقيقية.

تبدو الإجابة عن مثل هذا السؤال أمراً أساسياً، وذلك لأن أي غزو أمريكي للعراق يجعل من الولايات المتحدة مسؤولة بالكامل عن إعادة إعمار البلاد هناك. أي من يغزو العراق يصبح مالكا له. وفي حال أننا امتلكنا العراق يجب علينا إعادة إعماره وبنائه. وبحكم صعوبة تلك المهمة الشاقة نحن أيضا في حاجة إلى فهم طبيعة ونوعية المواد الخام التي نستخدمها وبالتالي يصبح من الضروري جدا في مثل هذا الوضع أن نعيد قراءة تاريخ العراق المعقد قبل أن يستلم صدام حسين السلطة. إنه تاريخ حافل بالمؤامرات والانقلابات المتواصلة والقتل قامت به جماعات عرقية وسياسية مختلفة جمعها البريطانيون داخل حدود واحدة وأسموها العراق. ففي تموز/يوليو عام ١٩٥٨ تم اغتيال الملك فيصل، ملك العراق على يد مجموعة من الانقلابيين العسكريين بقيادة عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف. ولم تمض سوى بضعة أشهر على ذلك الحدث حتى انقلب عبد الكريم قاسم على عبد السلام عارف بحجة تبنّي الأخير للناصرية (نسبة للزعيم الراحل جمال عبد الناصر). وفي حدود تلك الفترة تقريبا حاول شاب يدعى صدام قتل عبد الكريم قاسم ولم ينجح. وبحلول سنة ١٩٦٣ عاد عبد السلام عارف من المنفى وأقدم على تصفية عبد الكريم قاسم، ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى شن عارف بمساعدة البعثيين حملة قتل وتعذيب استهدفت الشيوعيين واليساريين وشملت كل أنحاء العراق. ظل عبد السلام عارف في السلطة حتى لقي حتفه عام ١٩٦٦ في حادث اصطدام طائرته المروحية. حينها خلفه في السلطة شقيقه الذي تمت الإطاحة به سنة ١٩٦٨ على يد صدام حسين وعشيرته القادمين من قرية تكريت. ومنذ ذلك التاريخ بدأ صدام بإرسال جل معارضيه السياسيين إلى المعتقل المعروف «بقصر النهاية»، وبحلول عام ١٩٥٨ بدأ شهر عسل لم يدم طويلا بين العسكريين السنّة الحاكمين في بغداد والأكراد في الشمال، الذي انتهى بنشوب قتال عنيف بينهم.

أما ما أريد إيضاحه هنا، هو كيف تتم عملية بناء أمة من نقطة الصفر. صحيح أن العراق يمتلك ثروات طبيعية هائلة ولديه فئة كبيرة من المتعلمين والمثقفين، إلا أنه يفتقد أي صفة من صفات المجتمع المدني واحترام لسيادة القانون ذلك الجانب المهم الذي مكننا بسرعة فائقة من إعادة إعمار ألمانيا واليابان وإقامة نظام ديمقراطي برغم الدمار الذي حل بهما بعد الحرب العالمية الثانية. بينما آخر مرة عرف فيها العراق حاكما التزم باحترام القانون، كان في عهد حمورابي- الملك البابلي في القرن الثامن عشر قبل

الميلاد-، لذا وفي حال إزالة صدام، فإننا سنشهد فراغا في السلطة تصاحبه أعمال ثأرية واقتتال طائفي بين الأكراد والسنة والشيعة. لا أعني بذلك تبرير عدم الإطاحة بصدام، بقدر ما أريد أن يقع إعداد الرأي العام الأمريكي لتقبل عملية إعمار مكلفة وطويلة وإدماج أكبر قدر من الحلفاء كي يشاركونا في تحمل تلك الأعباء. وهذه مهمة لا يمكننا تجنبها، لأن عملية الحصول على أسلحة الدمار الشامل تتطلب تفكيك النظام وكأنه ثمرة جوز، وبناء بديل جديد. وما هو مزعج في الأمر هنا هو احتراف إدارة بوش تحطيم الأشياء بدلا من بنائها، خاصة وأن عملية بناء الأمم تتطلب ذلك الخليط الذي يجمع بين التفاؤل والسذاجة. لذلك تقلقني تلك النظرة المتشائمة لإدارة الرئيس بوش إلى مسألة بناء الأمم.

وبالرغم مما قاله لي أحد الأصدقاء من العارفين بالشأن العراقي مؤكدا أنه ومنذ أن تبدأ القوات الأمريكية اجتياحها للعراق ستجد ترحابا واسعا من الشعب، مما سيعجل بانهيار النظام العراقي، لكن ما يهمني هنا هو ما يلي كل ذلك، وهو ما يجب أن نستعد له. وفي أفضل الحالات سيظهر رجل «جيد» وقوي من داخل الجيش العراقي ويشرف على عملية الانتقال التدريجي باتجاه الديمقراطية، وسيتوقف الدور الأمريكي عند حدود الدعم والمساندة، كما أنه بالمقابل، وفي أسوأ الحالات سينهار العراق ويتشتت على أيدينا وما ينجم عن ذلك من انفجار لتوتراته الداخلية المعروفة تاريخيا خاصة بين الأقلية السنية الحاكمة منذ زمن طويل والأغلبية الشيعية المقموعة. وفي مثل هذا السيناريو ما على جورج بوش إلا أن يصبح رجل العراق القوي موحدا البلاد بقبضة حديدية، ويقوم تدريجيا بإعادة توزيع الثروة النفطية والإشراف على عملية التحول الديمقراطي الطويلة الأمد.

يؤكد صديقي العراقي أن أي شخص يدّعي العلم بما سيحدث تحديدا، إنما هو إنسان يجهل العراق.

٢٠٠٢/٠٩/٠١

ما يجب تدريسه عن أحداث ٩/١١

نشرت جريدة «نيويورك تايمز» تحقيقا حول الصعوبات التي يواجهها المدرسون فيما يتعلق بما يجب تلقينه لتلاميذ المدارس حول أحداث ٩/١١. وهذا أمر في غاية الجدية يتطلب وضوحا أخلاقيا. لذلك أقترح الدروس الثلاثة التالية:

الدرس الأول: من هم؟

سيقع التركيز في هذا الدرس على التمييز بين الأغلبية الطيبة والمحترمة من الناس، وبين أولئك الأشرار بالرغم من كونهم ليسوا فقراء ولم يتعرضوا لأي إساءة إلا أنهم حسودون. لقد نشأ هؤلاء المتطرفون في مجتمعات فشلت في إعدادهم للحداثة وشارك أكثر هؤلاء شيطانية في تنفيذ أحداث ٩/١١ لضرب رمز الحداثة، أي الولايات المتحدة. وكما وصفهم الكاتب المسرحي المصري على سالم، في مقال له نشر في مجلة «تايم»: «بالرغم من كل ادعاءاتهم... يجوز وصف هؤلاء المتطرفين بأنهم حاسدون بشكل مرضي. يشعرون بأنهم أقزام وهذا ما يفسر بحثهم المحموم عن الأبراج العالية وكل ما هو شامخ». وبالتالي فمعاناتهم سيكولوجية وليست سياسية، وهدفهم تدمير أمريكا وليس إصلاحها. لذا لا يمكن إلا القضاء عليهم وليس التفاوض معهم. وكمادة للمطالعة؛ يرجى الاطلاع على مقالة لاري ميللر نشرتها مجلة «ويكلي ستاندارد» بتاريخ ١٤/١/٢٠٠٢، والتي جاء فيها: «النستمع بانتباه، نحن جيدون وهم أشرار، ولا شيء نسبي هنا. لنكرر ذلك معا ونرتاح. نعم هكذا، ومقولة أننا جيدون لا تعني أننا نتصف بالكمال. هل اتقفنا؟ فالكائن الوحيد المتصف بالكمال هو ذلك الملتحي المرسوم في كاتدرائية سيتين ولا أحد سواه. والحقيقة البسيطة هي أن بلادنا كانت وبالرغم من أخطائنا وهفواتنا وستظل على الدوام أعظم منارة للحرية والفرص والخير والإخاء. وما على كل من يحتاج إلى دليل إلا أن يزيل كل الحدود في الكرة الأرضية ويشاهد ما سيحدث. سيصبح العالم وفي أقل من نصف يوم وكأنه مدينة أشباح لأن الجميع يريدون المجيء إلى أمريكا... هذا ما استنتجته؛ ألا ننسى أبدا الضحايا من الإخوة والأخوات، وألا نسمح أبدا لأصحاب النسبية بتبرير تفكيرهم غير الأخلاقي. وبالنهاية وبالرغم مما قد يقوله مدرسو العلوم السياسية لبناتكم، نحن لم نبدأ كل ذلك بعد».

الدرس الثاني: من نحن؟

نحن الأمريكيين لسنا بأفضل من غيرنا، لكن نظام الديمقراطية الغربية الذي نتبع هو أفضل نظام على الأرض. ومن سوء الحظ لا توجد على الإطلاق أي ديمقراطية في العالم العربي- الإسلامي، ويوجد والقليل جدا من حرية المرأة والقليل جدا من التسامح الديني. لذلك يشكل غياب تلك القيم وتقاليد الحرية التي عانقتها الحضارة الغربية جوهر الفارق بيننا وبين العالم العربي-الإسلامي. وكمادة للمطالعة يرجى الإطلاع على كتاب «خريف الحرب» للمؤرخ العسكري فيكتور دايفس هانسونن والذي جاء فيه: «يجب أن

تتوفر لدى المثاليين منا نظرة أكثر وضوحا حول طبيعة الصراع الذي نخوض. وفي معرض سعيهم للقول بأننا لسنا - بصدد محاربة الإسلام أو استفزاز الشعوب العربية -، أغفلوا تماما عن ذكر ما نحن بصدد القيام به ألا وهو الحفاظ على الحضارة الغربية وتقاليدها الفريدة الداعية إلى التسامح والحرية والحكم بالشورى والقضاء بالعدل والتسامح الديني والسياسي... كذلك يجب الكف عن اعتماد الأسلوب الاعتذاري في معرض تعاملنا مع العالم العربي. ويجب أن نوضح لوزرائهم المتغطرسين علينا بأنهم يفتقدون أي شرعية، ولم يتم انتخابهم، وأن المتحدثين باسمهم ليسوا بصحافيين لانعدام أي صحافة حرة، وأن مثقفيهم يفتقدون أي مصداقية لانعدام الحرية. لذا يقتصر انتقاد أمريكا في المسائل الأخلاقية على من يشتركون معها ويلتزمون مثلها بأساليب الحكم الدستورية دون سواهم».

الدرس الثالث: لماذا أدان العديد من الأجانب أحداث ٩/١١، لكنهم حافظوا على كرههم لأمريكا؟

يعود السبب في ذلك إلى أساليبنا الخاطئة في التعامل مع العالم الخارجي بالرغم من حسن أداء حكومتنا داخليا. ولأننا نحب قيادة السيارات الكبيرة فإننا نقوم بمساندة أنظمة عربية قمعية ودكتاتورية من أجل أن يبيعونا نفطا بأسعار رخيصة. ولأن رؤساءنا في حاجة إلى أصوات الناخبين، نراهم لا يترددون في توجيه اللوم للفلسطينيين، ولا يجرؤون في الوقت نفسه على القول للإسرائيليين كم هي مدمرة لمستقبل الدولة اليهودية سياساتهم القائمة على توسيع المستوطنات في الضفة الغربية. ولكننا نريد أن نستهلك من الطاقة بالطريقة التي تحلو لنا وفي الوقت نفسه نطالب بقية العالم بالوقوف معنا في الحرب على الإرهاب، غير مكترثين اما تسعى إليه بقية الدول من أجل مكافحة ارتفاع درجات الحرارة والحفاظ على البيئة.

وباختصار أيها الطلبة، لا في حين يكرهنا الأشرار بسبب من نحن، يكرهنا آخرون بسبب ما نأتيه من أفعال وتصرفات. وفي حال أردنا أن نحظى باحترامهم علينا أن نكون أفضل وأحسن وأكثر مواطني العالم إيمانا بالمبادئ. وكمواد للمطالعة يرجى الإطلاع على الدستور الأمريكي وخطاب الرئيس وودرو ويلسون المعروف بخطاب ال١٤ نقطة ووثيقة إعلان الاستقلال.

٢٠٠٢/٠٩/٠٤

سيّدنا نوح وأحداث ٩/١١

خلال السنة الماضية أخبرني العديد من الأصدقاء بما شعروا به من ألم وحرقة من جراء أحداث ١١/٩، إلى درجة أن قالت لي إحداهن إنها شعرت بأن ذلك كان بداية نهاية العالم، ولا عجب. لقد كان أولئك الانتحاريون على درجة من الشر تزعزع إيمانك بالبشرية وبجدار الحضارة المتوقع منه أن يلطف من أفظع ما يأتيه الإنسان من سلوك. لذلك أصبحت هناك فجوة كبيرة في ذلك الجدار. ما العمل إذا؟ وبدافع الحصول على إرشاد روحي توجهت إلى أحد المنقذين، الحاخام تزفي ماركس، الذي يقوم بالتدريس في هولندا، وما كان منه إلا أن قدم لي تفسيرا توراتيا فقال: «إلى حد ما نشعر بعد وقوع أحداث ١١/٩، وكأننا عايشنا طوفان النبي نوح. وكأن الطوفان قد أغرق حضارتنا بأسرها ونحن الناجون. ماذا نفعل في اليوم التالي؟». يمكن لقصة النبي نوح أن تقدم لنا الكثير. وتساءل الحاخام تزفي قائلا: «ماذا فعل النبي نوح عندما انخفضت درجة ارتفاع المياه واستطاع الخروج من سفينته؟». ويواصل الحاخام تزفي كلامه: «لقد زرع كروما وصنع من عنبها خمرا وسكراً»، وهكذا كان أول ما قام به سيدنا نوح بعد ما شهده من خراب حل بالبشرية نتيجة للطوفان هو تخدير نفسه والنأي عن العالم. يواصل تزفي تساؤلاته قائلا: «لكن ما هو رد فعل الرب على ذلك الطوفان؟»، فيجيب هو نفسه على تساؤله بالقول: «بعكس ما هو متوقع، تمثل رد فعل الرب في الإشارة على النبي نوح بمجموعة قوانين وأحكام يتوجب على البشرية العمل والالتزام بها، وهي تمثل ما هو متعارف عليه اليوم بقوانين نوح. أولها ينص على أن الحياة ثمينة وبالتالي لا يجوز أن يقتل الإنسان أخاه الإنسان». (توسعت قوانين نوح تلك لتشمل فيما بعد التحريم ضد الوثنية والزنا والهرطقة والسرقة).

والمثير للاهتمام هنا هو عدم توقع أن تكون أولى تعاليم الرب بعد أن هلكت البشرية بالطوفان، ناصة على ما للحياة البشرية من أهمية، ولكن هذا ما حدث. هنا يقول الحاخام تزفي: «وكأن الرب توصل إلى القناعة التالية وقال: أدرك الآن ما يتوجب علي القيام به تجاه هؤلاء البشر؛ يجب أن أضع لهم حدودا واضحة لما يجوز لهم أن يأتوه من عمل بتحديد جملة قيم ونواميس هي في غاية الوضوح، بحيث يمكن لهم فهمها واستيعابها حتى تصبح جزءا مما يؤمنون به».

وهنا يمكننا القياس على ما حدث اليوم. إذ إننا وبعد طوفان ١١/٩، نجد أنفسنا

أمام أحد خيارين: إما أن نخدر أنفسنا وننأى عن العالم ونسد آذاننا، أو أن نبدأ بمحاولة سد تلك الثغرة الهائلة في جدار البشرية عن طريق الإلحاح الدائم والصارم أكثر من أي وقت مضى، على العمل بمنظومة قيم وأحكام تكون ملزمة لنا ولغيرنا من الناس. وكما يقول الحاخام تزفي: «بعد الطوفان لم يسمح الرب لا لنوح ولا لمن نجا معه بأن يوغلوا في هروبهم من الواقع، بل إنه رفض أيضا أن يجيز لهم الحياة بدون أي قواعد أو أحكام أخلاقية ملزمة، وذلك لفشل الجنس البشري في الحفاظ على الحياة بدونها في السابق».

والشيء نفسه ينطبق علينا نحن الآن. يجب علينا قتل القتلة المسؤولين عن أحداث ٩/١١، لكن بدون أن نصبح نحن أنفسنا قتلة وبدون أن نتهرب من مسؤولياتنا أيضا. بل يجب أن ندافع عن أنفسنا، بدون أن نخرق أو نتخلى عن حرياتنا المدنية في الداخل، وبدون أن نمنع أي طالب مسلم من الدخول إلى هذا البلد، وبدون أن ننسى مفعول التأثير القوي الذي تتمتع به أمريكا على العالم مما يولد إحساساً بالضعف والعجز لدى الكثيرين. كذلك لا يجب أن نعلن للعالم عن عزمنا على القيام بما ننوي القيام به لأننا تعرضنا لطوفان وأن كل الرهانات أصبحت لاغية. ولأن التزامنا الإرادي بتلك القيم والأحكام يعطينا الشرعية لمطالبة الآخرين الالتزام بها، وتمنحنا حق مطالبة غيرنا بالالتزام بأحكام القانون والتسامح الديني وإنشاء حكومات شرعية والقبول بالنقد الذاتي والتعددية بجميع أشكالها ومنح المرأة حقوقها، واحترام المبدأ القائل بأن ما حل بي من مصائب لا يخوّلني أبدا إلحاق الأذى بالآخرين أينما وجدوا. وبالتالي فإن كل ما سبق ذكره يؤهلنا أن نقول للعالم الإسلامي ما يلي: أين كنتم منذ أن وقعت أحداث ٩/١١؟ أين هي الأصوات العقلانية لديكم؟ بالرغم من أنكم تبدأون صلواتكم باسم الله الرحمان الرحيم، لكن حين أقدم بنو عقيدتكم باسم الإسلام على قتل الأمريكيين أو القيام بتفجيرات انتحارية ضد «الكفار»، مجدتهم صحافتكم على أنهم شهداء، والتزم معظم أئمتكم الصمت. وما عدا بعض الانتقادات المحدودة لما جرى، لم تصدر من جوامعكم أي احتجاجات أو اعتراضات، ولم تُرسم خطوط حمراء في مدارسكم فيما يتعلق بأخلاقيات التصرف البشري. وهذه المشكلة، لأنه وفي حال غياب أي صراع داخل الإسلام - فيما يتعلق بالشرائع والأحكام -، سينجم عن ذلك صراع فيما بيننا وبينكم.

وباختصار، ومنذ ٩/١١، لا يمكننا البتة تجاهل ما يدور في العالم. وبالرغم من ضرورة قيامنا بالعمليات العسكرية إلا أنها غير كافية. كما أن تشييد الجدران العالية وبالرغم ما توفره من إحساس بالطمأنينة، فهي تبدو زائفة في عالم اليوم المتداخل. ورجاؤنا الوحيد يتمثل في الالتزام الإرادي بالقناعات الذاتية للأفراد المحددة لسلوكهم

وتصرفاتهم. كما أن التزامنا الذاتي الواضح بتلك القيم مضافا إليها مطالبتنا الملحة على الآخرين بالالتزام بها، تعد الاستراتيجيا الممكنة الوحيدة للحفاظ على هذا الكوكب المنكمش. وإلا ما علينا إلا البدء في بناء القارب.

٢٠٠٢/٩/١١

العراق رأسا على عقب

بعد أن أتيحت لي مؤخرا فرصة التجول عبر البلاد والمشاركة في العديد من البرامج الإذاعية، التي تردد خلالها وبكثرة التساؤل حول الشأن العراقي، تولدت لدي قناعة عبر قراءتي لعينات أقل ما توصف به أنها غير علمية البتة؛ لا تصدقوا استطلاعات الرأي التي تقول إن أغلب الأمريكيين يساندون توجيه ضربة عسكرية للعراق، ذلك غير صحيح. ومن الخطأ أيضا الاعتقاد بأن أغلب الأمريكيين يعارضون بقوة فكرة الإطاحة بصدام حسين. بل الصحيح هو أن الحيرة تستبد بأغلبية الأمريكيين حيال هذا الموضوع. فالسؤال الذي تردد باستمرار يقول: «كيف يمكن لنا فجأة أن نفكر في شن حرب على صدام حسين؟ صحيح أننا نعرف أنه تعامل بعناد وتحدٍّ مع الأمم المتحدة وأنه يملك أسلحة فتاكة، إلا أنه لم يسبق له أن شكل تهديدا مباشرا لنا، وفي حال أنه فعل أليس بالإمكان أن نمحقه من الوجود؟ إن ما يخيفنا فعلا هو أسامة بن لادن وبقية الإرهابيين الذين لا يزالون طلقاء».

وهذا باعتقادي الهاجس المشترك بين أغلبية الأمريكيين، نظرا لإيمانهم العميق بقابلية صدام للردع بسهولة. مما يعني أنه لم يسبق له أن هدد الولايات المتحدة ولن يقدر على ذلك، لتعرضه للمستوى نفسه من الردع الذي عرفته كل من روسيا والصين وكوريا الشمالية. كما أنه يدرك جيدا أنه وفي حال مجرد الإيحاء بتهديدنا فسنقوم بتدميره، وبما أن صدام كان دائما قاتلا وليس انتحاريا، وبالفعل لقد أمضى حياته كلها يطور فن حماية نفسه وبقائه على قيد الحياة بحكم أن حبه للحياة يفوق أكثرمن كرهه لنا.

إن ما يخيف الأمريكيين فعلا ليس أولئك القابلين للردع مثل صدام، بل أولئك الذين لا يمكن احتواؤهم مثل هؤلاء الشباب العرب المسلمين من نوعية منفذي اعتداءات ٩/١١، والذين ما زالوا يتربصون بنا. كما أن الأمريكيين مستعدون لدفع أي ثمن تقريبا في سبيل القضاء على خطر مثل هؤلاء الذين تفوق كراهيتهم لنا حبهم

لأنفسهم وللحياة، مما يجعلهم غير قابلين للردع. وأنا أتفق تماما مع هذا الرأي الذي يقودنا إلى القول بأن الجدل المفتعل حول العراق إنما يقف رأسا على عقب. ففي الوقت الذي يعلن فيه أغلب الاستراتيجيين أن الدافع وراء غزو العراق، والدافع الوحيد ربما، هو التخلص من أسلحة الدمار الشامل، وليس تغيير نظام الحكم أو إقامة نظام ديمقراطي. وهذا رأي أختلف معه تماما، لاعتقادي بأن مقولة نية صدام، بل وقدرته على استخدام أسلحة الدمار الشامل فيها شيء من المبالغة. ما يخيفني حقا هو إمكانية تكرار هجوم كالذي حدث يوم ٩/١١، سواء على مجمع تجاري أوعلى مطار أو وسط أي مدينة يشنه شباب مسلمون غاضبون مشحونون بإيديولوجيا زائفة ذات قناع ديني، تمت تعبئتهم بها في أحد مساجد السعودية أو مصر أو باكستان. كما أني أرى أن الطريقة الوحيدة التي تمكننا من مواجهة خطر كهذا تتمثل في تغيير الظروف التي يعيش فيها مثل هؤلاء - تحديدا كل الدول العربية والإسلامية التي فشلت في مواكبة الحداثة وأصبحت تشكل أرضية خصبة لإنتاج مثل هؤلاء غير قابلين للردع.

من هذا المنطلق، أوافق على غزو العراق بشرط أن يكون الهدف من وراء ذلك هو تغيير نظام الحكم وإحلال الديمقراطية هناك. لأن ما يحتاج إليه العالم العربي هو مثال وقدوة ناجحة في هذا المجال، تكون في شكل نظام عربي تقدمي يمثل مصدرا للإشعاع والإلهام ويضغط وجوده باتجاه إشاعة الديمقراطية والحداثة بشكل تدريجي في سائر أنحاء تلك المنطقة. كما أني لا أتوهم أبدا استحالة إشاعة الديمقراطية في عراق مجزأ، حينها ستصبح مهمة شاقة وطويلة وباهظة - على افتراض أنها ممكنة التحقيق من الأساس -، كما أني لا أشعر بأي حرج حين أقر بعدم تأكدي من إمكانية تحقيق ذلك. كل ما أعرفه هو أنها مسألة ذات أهمية قصوى جديرة بالتحاور والمشورة والإنجاز. وبمساعدة العرب على تغيير ظروفهم الحالية تدريجيا- ظروف تتحكم فيها أنظمة قمعية غير ديمقراطية وزعماء دينيون ومربون معادون للحداثة-، نكون قد غيرنا المناخ المناسب لإنتاج الأجيال المتلاحقة من هؤلاء الشباب غير القابلين للردع المؤججة صدورهم بالغضب بحكم نشأتهم على الاعتقاد بأفضلية الإسلام على بقية الأديان التوحيدية الأخرى. وبالنظر إلى مجتمعاتهم لا يجدون سوى الفقر والقمع والجهل الشائع في كل مكان، مما تسبب في جرح كبريائهم وشعورهم بالمذلة كلما قارنوا أوضاعهم بما هو سائد في الغرب. لذا فهذا الإحساس بالذل - وفقدان الكرامة - هو ما يدفعهم للانتقام عبر الأعمال الانتحارية، وخاصة إذا علمنا أن البحث عن الكرامة يعد من أقوى الدوافع المحركة للعلاقات البشرية.

وهكذا فعملية ردم الشرخ في الكرامة هي مشروع قد يستغرق عقود عديدة. ونجاح مساعدتنا في ذلك مرهون بتوفر الإرادة لدى الناس هناك. وقد تكون مظاهر تلك الإرادة هي ما بدأنا نراه الآن. ولننظر كيف عبّر عن ذلك المشرعون الفلسطينيون بسحب ثقتهم من عرفات، وننظر كيف قام بعض المفكرين العرب الشجعان بتحرير تقرير التنمية البشرية العربية، الذي أعلنوا فيه أن ما يعانيه العالم العربي-الإسلامي من تخلف إنما هو نتيجة انعدام وفقدان الحرية والتعليم العصري وحرية المرأة. وإذا لم نعمل على مساعدة تلك الدول على تجاوز هذه المصاعب، في زمن لا زال فيه الحصول على الأسلحة الذرية الصغيرة الحجم محدود نسبيا، سيقوم شبابهم الغاضب ذاك بنسفنا قبل أن يقدر صدام على ذلك بزمن طويل.

٢٠٠٢/٩/١٨

لا زالت العولمة حية وبخير

يمكن اعتبار ما توصل إليه العالم جون غراي المنتسب إلى مدرسة لندن للاقتصاد، من أكثر التوقعات خطأ لحالة العالم بعد ٩/١١. لقد توصل هذا البروفسور إلى نتيجة مفادها أن أحداث ٩/١١، شكلت نهاية عصر العولمة، حيث لا يقتصر تذكر تلك الأحداث على أنها تسببت في نهاية حالة الاندماج المالي والتجاري والتكنولوجي، بل ولكونها أضفت جانبا من المصداقية على الحركة المناهضة للعولمة.

ولئن دلت أحداث ٩/١١ على شيء، فإنها تدل على أن الإرهابيين انحدروا من أكثر بقاع العالم انغلاقا وبالتحديد السعودية واليمن وأفغانستان وشمال غربي باكستان. وذلك لأن الدول التي لا تتبادل تجاريا في السلع والخدمات يستبعد تبادلها للأفكار والتعددية والتسامح. لكن قد يكون من بين أكثر الأسباب دلالة على أن العولمة حية وبخير في عالم مابعد ٩/١١، هو تخطي كل من الهند والصين اللتين تشتملان على ثلث سكان المعمورة للنقطة التي لا زال يقف عندها طلبة الجامعات والأكاديميون في الغرب، حيث نجدهم لا زالوا يتجادلون حول ما إذا كان من الواجب على بقية دول العالم الانخراط في منظومة العولمة أم لا. لقد أدركت كل من الهند والصين أن انفتاح اقتصادياتهما للتبادل التجاري في السلع والخدمات هو أفضل طريقة لانتشال شعبيهما من حالة الفقرالمدقع. وها هما الآن تواصلان السير بخطى ثابتة باتجاه العولمة. وفي حين يفضل البعض السير بخطى أسرع، يفضل البعض الآخر أن يتم ذلك عبر مراحل عن

طريق التحكم النقدي والدعم الحكومي للسلع، لكن الأمر الأكيد هو التزامهم رسميا بتحقيق ذلك.

وقد علّق على ذلك كبير المستشارين لحزب المؤتمر الهندي، جايرام راميش فقال: «لا يزال ظاهرا للعيان الإرهاق الذي تسببت فيه العولمة في كل من أوروبا وأمريكا، بينما نجد أن هناك رغبة جامحة في تعميق وتوسيع نطاق التبادل الاقتصادي في دول مثل الصين والهند. وحتى الذين تراودهم شكوك يريدون المشاركة الآن بطريقة تمكنهم من التحكم في المخاطر وإيقاع عملية السير. وهكذا نجد طرقا وأساليب خاصة تمكن من الانخراط في العولمة. وقد يعني ذلك تحقيق نسبة نمو أقل سعيا للتوصل إلى الاستقرار الاجتماعي، فليكن لهم ما أرادوا. . . لقد أمضيت مؤخرا أسبوعا في ألمانيا حيث استمعت إلى كل هؤلاء وهم يحدثونني عن الآثار التخريبية للعولمة على الاقتصاد الهندي، وكيف أنها ساهمت في إفقار البلد. فما كان مني إلا أن قلت لهم: انظروا إن كنتم تريدون الجدل حول الإيديولوجيا فأنا مستعد ولكن إن كنتم تقصدون الحقائق فأنتم ببساطة مخطئون».

إن هذه الحقيقة تبدو ساطعة جدا في بنغالور، سهل السيليكون الهندي حيث نجد مئات الآلاف من الشباب الهنود ينحدر معظمهم من أسر تنتمي إلى الفئات السفلى من الطبقة المتوسطة، فجأة وجدوا ديناميكية اجتماعية وشققاً سكنية ودراجات نارية، بعد أن تخرجوا من معاهد تقنية والتحقوا بقطاع الصناعات التقنية والشركات الهندسية التي تشكل قاعدة دعم وبحوث خلفية لكبرى المؤسسات العالمية، لقد تم كل ذلك بفضل العولمة. ويعلن مسؤولو بنغالور أن كل وظيفة تقنية تخلق ٥ أو ٦ وظائف مساعدة في قطاع الخدمات والبناء. وكما يقول محرر صحيفة «فايننشال أكسبرس» الهندية سانجاي بارو: «أدت تكنولوجيا المعلومات إلى بروز العديد من أصحاب الملايين من بين الناس العاديين في الهند، وقد تحقق لهم ذلك بفضل أدمغتهم فقط وليس بفضل الأساس الطبقي أو ملكية الأرض أو الميراث. لقد بدأت الهند تدرك ما يمكن أن تجره العولمة من فوائد جمة». ومن جهته أوضح نادان نيلكاني، الرئيس المدير العام للإنفوسيس، كبرى الشركات الهندية العاملة في مجال التقنية، أن الاستفادة من فوائد العولمة فيما يخص تطوير قطاع تكنولوجيا المعلومات في الهند شكل «ربحا كبيرا في ميدان التبادل الخارجي مما أدى إلى تعزيز الثقة بالنفس، إذ أصبح كثير من الهنود يردد حاليا كيف أنهم حين يمرون عبر مراقبي الجوازات في مطار جي.أف.كاى أو في مطار هيثرو، ينظر إليهم موظفو الهجرة باحترام. لقد تغيرت الصورة السابقة للهند، كبلد من بلدان

العالم الثالث يعج بصائدي الثعابين ويمارسون الخدع بالحبال إلى بلد غنيّ بالعقول المبدعة في مجال الصناعات التقنية».

صحيح أن أغلبية الهنود لا زالت تعاني من الفقر، كذلك لا زالت الحاجة قائمة إلى إغراء البلدان الغربية الغنية على جعل العولمة أكثر إنصافا بفتح أسواقها أكثر أمام صادرات الدول الفقيرة كالمواد الغذائية والأقمشة. وهو أمر ضروري.

وجوهر الموضوع هنا هو أن الجدل حول العولمة قبل ٩/١١، اتصف بشيء من الغباء. وذلك بسبب غياب حقيقتين: أولاهما أن للعولمة سيئاتها كما لها إيجابياتها. لكن الدول التي تتمتع بوجود المؤسسات السليمة والحكومات الجيدة يمكنها أن تحصل على الإيجابيات وتتفادى السلبيات. والحقيقة الثانية، وهي أن الدول التي تبنت العولمة بشكل معقول ومستقيم هي أيضا الدول التي ستصبح حتما أكثر انفتاحا على المستوى السياسي وستصبح قادرة على توفير وظائف أكثر لمواطنيها، مما سيدفع بالأجيال الشابة إلى الاهتمام أكثر بكيفية الانخراط في النظام العالمي الجديد بدلا من السعي إلى تفجيره.

٢٠٠٢/٩/٢٢

طريق مسدود

صُودف أن كنت موجودا في إسرائيل يوم ٢٠٠١/٩/١١، وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى مقر وزارة الدفاع الإسرائيلية للتشاور مع الخبراء في مجال الأمن وما تعلموه من تعاملهم مع الانتحاريين الفلسطينيين وما يمكن أن تستفيد منه أمريكا. قال هؤلاء الخبراء إن الدرس الأساسي هو كالآتي: بالنهاية، الوحيدون القادرون على إيقاف الانتحاريين هم الذين ينتمون إلى المجتمع نفسه الذي ينتمي إليه أولئك الانتحاريون. وبالتالي توقف العمليات الانتحارية مشروط بإدانتها من القادة السياسيين والزعماء الروحيين، وتجنيد مختلف أجهزة الأمن والمخابرات للحيلولة دون وقوعها. كذلك أخبروني بعدم قدرة إسرائيل على اختراق المجتمع الفلسطيني من الداخل بالقدر نفسه الذي يستطيعه الفلسطينيون أنفسهم. لذلك تمثلت مهمة إسرائيل الأساسية في التوصل إلى اكتشاف وسائل الضغط المناسبة والحوافز الجذابة الكفيلة بإقناع الفلسطينيين بالعمل على إيقاف التفجيرات من تلقاء أنفسهم.

ومن سوء الحظ أن تلك الرسالة لم تجد طريقها على ما يبدو إلى أذني رئيس

الوزراء آرييل شارون الذي يبدو أنه يفتقر تماما إلى مشروع تسوية نهائية وشاملة مع الفلسطينيين. ويبدو أيضاً أن اهتمامه محصور في جعل الضفة الغربية منطقة آمنة للمستوطنين اليهود وأن ذلك سيقود إسرائيل إلى طريق مسدود جارا معه الولايات المتحدة في مسيرة التيه تلك.

صحيح أني أكنّ لإسرائيل قدراً كبيراً من التعاطف مع في محنتها هذه لتعرضها في السنتين الأخيرتين لما لم يتعرض له أي مجتمع آخر في العالم - من تفجيرات متلاحقة استهدفت مواطنيها في مطاعمهم وحافلاتهم وأسواقهم ووسط مدنهم، إضافة إلى الهجمات المعادية للسامية من طرف الأوروبيين الداعين إلى قطع العلاقات مع الجامعات الإسرائيلية بسبب قيام إسرائيل بالرد على ما تتعرض له من اعتداءات، وهذا كاف في حد ذاته كي يصيب أي مجتمع متحضر بالجنون.

إلا أن النجاح لن يكتب للطريقة التي يتصرف بها السيد شارون الذي قال قبل عدة أشهر بأن ياسر عرفات غير مجدٍ البتة، وتصرف بناء على تلك القناعة وقام بتدمير أجهزته الأمنية معلنا نية إسرائيل الاضطلاع بمسؤولياتها الأمنية والحلول محل الفلسطينيين في الضفة الغربية. وحين نفذت حركتا حماس والجهاد الإسلامي المزيد من العمليات الانتحارية في العمق الإسرائيلي أقدم السيد شارون على مهاجمة مقر رئاسة السيد عرفات وكأنه هو من قام شخصيا بإرسال الانتحاريين. وإذا كان السيد شارون يعتقد أن المسؤولية تقع مباشرة على السيد ياسر عرفات فليقم بترحيله من مقره، أما إذا كان يرى أنه غير ذي جدوى فليتجاهله إذاً. المحير في الأمر هنا هو تصرفه مع عرفات وكأنه غير ذي جدوى على الإطلاق ومسؤول بالكامل عما يحدث في الوقت نفسه. ومن شأن هذه السياسة أن تؤدي إلى نتيجة واحدة وهي تعبئة الفلسطينيين حول قيادة عرفات رغم كل ما تتصف به من فشل وعجز بشكل تستبعد معه أية إمكانية لانتخاب قيادة جديدة تكون ذات فاعلية في المفاوضات مع إسرائيل. وهذا ليس بالوهم، وشكرا للدعوة الفجة التي أطلقها الرئيس بوش للفلسطينيين كي يتخلوا عن عرفات، وكذلك بفضل هجوم شارون على الفلسطينيين في معرض برهنته لهم على عقم انتفاضتهم التي بدأوها على إثر مبادرة الرئيس كلينتون للسلام، بأنها لن تعود عيلهم بأي فائدة تذكر. علماً أن الولايات وإسرائيل كانتا قد بدأتا تغرسان البذورالأولى للإصلاح الداخلي الفلسطيني الضرورية لمنع العمليات الانتحارية.

لقد بدأ القادة والمتحدثون الفلسطينيون خلال الأشهر القليلة الماضية يشيرون إلى الخطأ الذي ارتكبه عرفات برفضه للمقترح الذي تقدم به كلينتون من أجل إقامة دولة

فلسطينية، كما صوت أعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني بحجب الثقة عن حكومة عرفات وفرضوا بدائل تتسم بمسؤولية أكبر. ومن ناحيتهم بدأ العلمانيون الفلسطينيون بالتشكيك علنا في فاعلية العمليات الانتحارية. وهو ما يمكن اعتباره أمراً في غاية السوء بالنسبة لحركة حماس والجهاد الإسلامي وإيران والعراق. لذلك لجأت هذه الأطراف إلى تشجيع المزيد من العمليات الانتحارية بشكل يجبر شارون على الإقدام على أعمال انتقامية أشد قسوة مما سينجم عنه التفاف الفلسطينيين حول عرفات أكثر، وهذا بدوره سيمنع ظهور أي توجه آخر. لذا ليس مستغربا احتفال وترحيب عرفات بكل ذلك.

إن شارون أمام مهمة شاقة ويتحتم عليه الدخول في عملية سلمية مع الفلسطينيين وكأن العمليات الانتحارية لم تحدث في الماضي وغير متوقعة الحدوث في المستقبل. وفي الوقت نفسه عليه مهاجمة الانتحاريين وكأن عملية التسوية السلمية غير قائمة، وهذه مهمة تتطلب قدرا عاليا من التمييز بين الأمور. لكن سياسة السيد شارون تبدو وكأنها متجاهلة بل وتفتقد التمييز، ومهملة لكل الفوارق بين حركة حماس وعرفات وبين حماس والعلمانيين الفلسطينيين الراغبين في التغيير. وهذا ما يدفع المرء على الشعور بأن غاية شارون هي قمع الحركة الوطنية الفلسطينية بأسرها على أمل أن تقوم السلطة الوطنية الفلسطينية في يوم من الأيام بالقبول بواقع الاحتلال الإسرائيلي. كذلك يتضح تماما عدم رغبته في رؤية سلطة فلسطينية مسؤولة من الممكن التنازل لها عن الأرض. وإذا كان هذا هو فعلا الهدف البعيد لشارون، فمن المؤكد أن تنتهي مسيرته هذه بالدموع. وفي حال اختيار فريق الرئيس بوش الانحناء أمام شارون، فسيكون الفشل الذريع حليفهم. وما على كل هؤلاء إلا أن يتذكروا أن كتاب السيرة الذاتية لشارون عنوانه «رجل لا يتوقف عند الإشارة الحمراء».

٢٠٠٢/٠٩/٢٥

يجب أن يكون لدينا أصدقاء

أثناء تواجدي في نبراسكا هذا الأسبوع، سألت أحد المسؤولين الجمهوريين هناك عن المزاج العام في ولايته حول الحرب ضد العراق، فأجابني بسرعة قائلا: «التأرجح». معظم الناس تدرك أن صدام رجل سيّئ ويمتلك أسلحة مدمرة، إلا أنهم لم يشعروا أبدا بأنه يشكل تهديدا مباشرا لهم، مقارنة بالتهديدات التي تمثلها اعتداءات ١١/ ٩، والاقتصاد المنهار وتدني مؤشرات سوق الأسهم، هذه الأمور مجتمعة هي التي

تخيفنا. وفي حال قرر الرئيس بوش شن حرب على العراق، سيتبعه المواطنون هنا، إلا أن الآراء متضاربة لأنهم لا يريدون فعلا خوض هذه الحرب بمفردهم. وهذا هو الرأي السائد في الولايات الاثنتي عشرة التي زرتها. ومن الأحسن للرئيس بوش أن يعير ذلك اهتماما. خاصة عندما أتذكر أكثر الشعارات تطرفا وإيغالا في الانعزالية: «أوقفوني قبل أن أغزو ثانية»، ومفاده أن القيام بذلك بمفردنا هو أفضل أسلوب لجر الحلفاء معنا. كما آمل أن لا تلجأ إدارة الرئيس بوش فعلا إلى سياسة الضربة الاستباقية بمفردها هذه المرة نظرا لمعارضة أغلبية الأمريكيين توجيه ضربة عسكرية ضد العراق. ولأن من مصلحتنا الوطنية أن يشترك معنا العديد من الحلفاء من أجل الإطاحة بصدام حسين، وأن يتم ذلك تحت غطاء من الأمم المتحدة، وذلك لأربعة أسباب هي كالآتي:

أولا، على الأمريكيين أن يعوا أن الحرب على تنظيم القاعدة في أفغانستان لم تكن حرباً اختيارية، لذلك كان بإمكان الملايين من الأمريكيين التطوع في القتال. أما حرب العراق، فينظر إليها من قبل الغالبية العظمى على أنها حرب اختيارية. نعم، صحيح أن صدام حسين رجل خطير، إلا أنه لم يشكل أبدا أي تهديد مباشر لنا، كما أنه بإمكاننا احتواءه باستمرار. وصحيح أن الإطاحة به أمر مشروع، إلا أن ذلك أمر ينظر إليه من قبل الجميع على أنه خيار وليس ضرورة، مما يحتم ضرورة الحصول على غطاء من الأمم المتحدة وإشراك أكبر عدد ممكن من الحلفاء.

ثانيا، ضرورة إشراك أكبر عدد ممكن من الحلفاء كأفضل وسيلة لوضع حد لحالة التأرجح في الرأي الشعبي خاصة إذا توقعنا الأمد الطويل الذي قد تستغرقه هذه الحرب. لأن أي نجاح ممكن في الحرب على العراق متوقف على ما سيحدث في اليوم الثالث للحرب. إذ سيقوم الجنود الأمريكيون بالإطاحة بصدام حسين في اليوم الأول. وفي اليوم الثاني سيقوم المواطنون العراقيون برش الأرز ترحيبا بالقوات الأمريكية. أما في اليوم الثالث وبعد أن نقوم بكسر العراق، فإننا سنصبح مالكين له. وكما سبق لي أن أشرت في السابق، من مصلحة أمريكا والعالم بأسره مساعدة العراقيين بناء عراق جديد مستقر وديمقراطي، يجب أن يتحقق كل ذلك في اليوم الثالث، حيث سيتم تأسيس أول نظام عربي تقدمي في قلب الوطن العربي. وهذا ما سيحدث تأثيرا إيجابيا عميقا على سائر المنطقة. وقد يكون ذلك العمل الكبير شبه مستحيل، خاصة إذا أخذنا بالاعتبار تاريخ العراق العاصف. ولكن إلى حد علمي إلى الآن، الأسلوب الممكن الوحيد للقيام بذلك- حتى نتمكن من الحصول على دعم ومباركة الشعب الأمريكي في عمل حربي طويل الأمد ومكلف جدا- هو الحصول على مشاركة العديد من الحلفاء في ذلك.

وبمعنى آخر يمكن لعملية إعمار العراق أن تأخذ أحد الاتجاهين: إما كما حدث في بيروت أو كما حدث في البوسنة. كانت أمريكا مترددة كثيرا أمام ما يحدث في بيروت سنة ١٩٨٢، ولم تقدم الكثير من الدعم والمساعدة بحيث إنتهى الأمر بشكل سيئ. أما في البوسنة حيث لعبت الأمم المتحدة دورا بارزا، إضافة إلى قيام حلف الناتو بالاشتراك في تحمل جزء من الأخطار والتكاليف، فقد تمكنت الولايات المتحدة وحلفاؤها من تحمل عبء إعادة الإعمار الذي استغرق وقتا طويلا. وبالرغم من أنه لا زالت هناك أشواط طويلة على البوسنة أن تقطعها في هذا المجال، إلا أنها لم تعد ذلك الجرح الدامي الذي يهدد الاستقرار في شرق أوروبا.

ثالثا، من الصعب التهكن برد فعل العراقيين للاحتلال الأمريكي الطويل لبلدهم الذي تتطلبه عملية إعادة الإعمار، لكن يظل من الأفضل الحسم بسرعة في جعل ذلك يتم تحت إشراف الأمم المتحدة أو أي مؤسسة دولية أخرى، لأن من شأن ذلك أن يحول دون النظر إلى المسألة وكأنها احتلال أمريكي، وهذا من شأنه أن يقلل من شأن أي معارضة في المنطقة، وبالتالي يصبح بالإمكان تحمّل عملية الإعمار تلك.

رابعا، من الجائز السماح لإدارة بوش بالحديث عن حروبهم الاستباقية، لكن من غير الجائز لنا أن نعيش في العالم اليوم وتصبح فيه هذه الفكرة استراتيجيا دائمة للعديد من الدول. صحيح أن مثل تلك الحروب تكون ضرورية أحيانا، لكن كلما تم ذلك تحت مظلة الأمم المتحدة ضعفت إمكانية إساءة استعمال تلك النظرية، وبالتالي يصبح العالم أكثر استقرارا.

باختصار ما نود القيام به في العراق هو حرب اختيارية محضة، تتطلب طاقة جبارة لإعادة إعمار البلد خاصة إذا أردنا أن نجعل من العراق أكثر أمانا. وإذا استطاع فريق عمل الرئيس بوش أن يحصل على موافقة الأمم المتحدة وبعض حلفائنا الرئيسيين، فستكون فرصة نجاح هذه العملية أكبر. وفي حال أخفقت الإدارة الأمريكية في الحصول على ذلك، فيجب عليها أن تحافظ على صدام في قفصه الحالي وتحتويه بطرق الردع المعهودة والانتظار حتى تتوافر ظروف استراتيجية أكثر ملاءمة. لأن من شأن الدخول في حرب اختيارية كهذه مع تأرجح داخلي في الرأي العام حولها وبدون حلفاء خارجيين أن يؤدي بنا إلى يوم ثالث حافل بالإحباطات والأخطار اللانهائية.

٢٠٠٢/٠٩/٢٩

هل رأى أحدكم أي من الديمقراطيين في الآونة الأخيرة؟

منذ أن تسلّم بوش الرئاسة انتابني إحساس بأن أي معارضة حقيقية في أمريكا لسياسته الخارجية تنحصر في ثلاثة أشخاص لا يوجد بينهم أي ديمقراطي. هؤلاء الثلاثة، هم من يخشاهم بوش فعلا لما لهم من تأثير وفعل كبيرين في حال إقدامهم على أي عمل معارض للرئيس فيما يتعلق بالشأن العراقي. هؤلاء هم وزير الخارجية كولن باول، ورئيس وزراء بريطانيا طوني بلير والسيناتور جون ماكاين.

أين هم الديمقراطيون؟ أنا لا أصدق ما يرددونه من أن أصواتهم أخمدتها طبول الحرب التي بدأ بوش يقرعها. والمشكلة لا تكمن في أن الديمقراطيين تم إقصاؤهم فيما يتعلق بموضوع العراق أيضا، بل إن المشكلة الحقيقية تكمن في عدم وجود أي شيء مهم وجدي لديهم ليقولوه فيما عدا ما يخص العراق. وبالتالي يمكن إرجاع سيطرة الموضوع العراقي على أي جدال قائم حاليا إلى فشل الديمقراطيين وانسحابهم وليس إلى سيطرة وتصميم الجمهوريين لما هو دائر حاليا.

لقد أمضيت معظم الشهر الماضي متجولا بين مختلف أنحاء البلاد وعبّرت في معظم مقابلاتي عن تخوفي من عالم ما بعد ٩/١١، الذي ستكبر فيه ابنتاي، وهذا إحساس لمسته لدى العديد ممن تحدثت معهم من الأمريكيين. وبعد أن انتهيت من لقاء في أطلنتا توجه نحوي أحد الحاضرين وفتح حافظة جيبه ليريني صورة ابنته بدون أن ينبس ببنت شفة. والنقطة المهمة فيما أقوله الآن هي أن معظم الأمريكيين خائفون على وظائفهم وعلى ما سيؤول إليه سوق الأسهم وحالة البيئة وما إذا سيكون بإمكان أبنائهم أن يكبروا في عالم آمن ومطمئن كما عرفوه في الصغر، في حين نجد أن الرئيس بوش يمعن في هوسه بموضوع العراق. وأكثر ما يخيف الأمريكيين اليوم لا صدام ولا أسامة، بل يخافون من تعرض الاقتصاد إلى حالة انهيار كنتيجة لما يقدم عليه السياسيون من قرارات تتسم بالجشع وقصر النظر، تؤدي بالنهاية إلى تبديد ما حصلنا عليه بصعوبة من فائض نقدي، أو بإقدام مديري كبرى الشركات على التلاعب بمدخراتنا وإفساد الاقتصاد، وهذه كلها مخاوف مشروعة، لأنه وبدون أمريكا قوية ومسيطرة على النظام في العالم عن طريق التزامها الرسمي والدائم باتخاذ القرارات الصحيحة، سيصبح العالم غابة أدغال كما تصوره هوبز. ولأن مثل هذه المسائل دون غيرها تفرض نفسها بإلحاح على الأمريكيين، ولأني أعتقد أن الرئيس بوش وبالرغم من عدم اهتمامه على الإطلاق

بمثل هذه الأمور الحيوية، لا زال يتمتع بشعبية عالية بفضل ما حققه من نجاحات عسكرية بعد أحداث ١١/٩، وبالتالي فالفرصة لا زالت قائمة لظهور قيادة ديمقراطية شجاعة على السطح. لكن أين هم الديمقراطيون؟

أين هم الديمقراطيون القادرون على مجادلة الرئيس بوش بكل قوة، ليقولوا له إن ما ينوي القيام به من تخفيف في الضرائب هو قرار خاطئ يجب التخلي عنه، لأن مثل تلك الضرائب هي ما تحتاج إليه الدولة كي تبقى قوة عظمى في هذا الزمن المحفوف بالمخاطر؟ إذ من شأن تلك الإعفاءات الضريبية أن ترسل الرسالة الخطأ سواء إلى الأجيال القادمة أو إلى مديري الشركات العملاقة، لأنها قائمة على مصالح آنية محدودة وضيقة.

أين هم الديمقراطيون القادرون على القول إن أفضل الطرق لتعزيز الأمن تتمثل في أن نصبح مواطنين عالميين مثاليين، ونقلل من اعتمادنا على البترول القادم من الشرق الأوسط، وأن يرث أحفادنا كوكبا أفضل عن طريق إقامة مشروع مانهاتن لتطوير مصادرالطاقة المتجددة، والحد من درجة الاستهلاك الحالية؟ لقد تجاهل السيد بوش رغبات الكثير من الشباب الأمريكيين للانضمام في مشروع عملاق كهذا من أجل تقوية أمريكا. وهكذا فعل الديمقراطيون من جانبهم أيضا.

كذلك أين هم الديمقراطيون القادرون على مواجهة الرئيس بوش ليقولوا له إن الإطاحة بصدام أمر في غاية المشروعية، لكن يجب تهيئة الرأي العام الأمريكي لذلك؟ لأن الإطاحة بنظام صدام قد يستغرق أسابيع قليلة، لكن عملية تحويل العراق إلى دولة محترمة ذات مجتمع مدني حقيقي قد تستغرق سنوات عديدة، بحكم أن هذا الهدف هو في غاية السمو والأهمية، لتعلقه بما يواجهنا من تهديدات قادمة من الشرق الأوسط، لأن مصدر الخطر الحقيقي هو تلك الأنظمة الفاشلة. لكن هل أننا نعرف كيف نعيد بناء دول؟ وفي حال أننا كذلك، هل أن الشعب الأمريكي مستعد لتحمل تلك الأعباء والنفقات؟ يجب علينا أن نتجه نحو العراق ونحن جاهزون لأداء هذه المهمة (والتي هي مهمة للغاية إذا أردنا فعلا أن ننزع أسلحة العراق)، أو لنبق خارج العراق كما نحن الآن ونعتمد فقط على سياسة احتواء صارمة. لأن عملية شبه إعادة الإعمار تنتهي دائما بالسلب ومن الممكن أن تؤدي إلى إضعافنا. لماذا لا يقوم الديمقراطيون بتوضيح كل هذه المسائل؟

حاليا ترتكز قيادة الرئيس بوش للبلاد على التخويف أكثر منها على بعث الأمل، ويمكن للديمقراطيين أن يفوزوا أو يتأهلوا للفوز فقط إذا استطاعوا أن يقدموا بدائل تتسم

بالشجاعة والعقلانية. وذلكعن طريق طرح مشروع لدعم قوة أمريكا مبني على الأمل وليس على الخوف، على الحائق وليس على الأوهام، مشروع يعالج ما يخيف الأمريكيين فعلا حاليا، ألا وهو مستقبل أبنائهم الذين يحملون صورهم في محفظة الجيب.

٢٠٠٢/١٠/٠٦

الدجاج على الطريقة العراقية

إذا أراد الرئيس بوش تحقيق النصر في العراق، عليه أن يتبع أسلوبا في غاية الغرابة من الصعب توقعه من أي رجل دولة. أي أن يكون متهورا ولكن ليس إلى حد الجنون. كيف ذلك؟ هنا عليه العمل بذلك المفهوم السائد في التفكير الاستراتيجي وهو كالآتي: «على من أراد أن يفوز في لعبة الخوف التي تتم بين سائقين بتقابل سيارتيهما على خط مستقيم واحد بشكل تتجه فيه كل سيارة باتجاه الأخرى، وعند نقطة معينة عليهما أن يقودا سيارتيهما في اتجاه بعضهما البعض وكأنهما يتناطحان ويكون الخاسر من يقرر الانسحاب أولا بتغيير اتجاه سيارته تجنبا للاصطدام. هنا على أي سائق يريد الفوز في هذه اللعبة أن يقوم باقتلاع مقود سيارته أمام أعين السائق الآخر ورميه من الشباك. وهكذا يكون قد بلغ الرسالة إلى المتسابق الآخر بأنه يحبذ الانسحاب، إلا أنه لم يعد قادراً على ذلك بعد أن اقتلع المقود، لذا، وبمجرد أن تبدأ اللعبة، لا يبقى من خيار أمام المتسابق الآخر سوى تغيير إتجاه سيارته، أي أن يخسر».

ونحن نشهد هنا حالة مماثلة لذلك قائمة بين الرئيس بوش وصدام حسين. ومن أجل إجبار الأمم المتحدة والعرب والأوروبيين على التعامل مع صدام بجدية أكثر وإجباره على تطبيق قرارات المفتشين التابعين للأمم المتحدة، على السيد بوش أن يتصرف بشيء من التهور، أي وكأنه قام برمي مقود الولايات المتحدة من الشباك وعزم على غزو العراق بمفرده غدا. وهذا عمل تكتيكي بالغ الذكاء من الممكن أن يؤدي إلى تشكيل تحالف دولي جدي قادر على الضغط على صدام وتخويفه بشكل يجعله يسمح بدخول المفتشين الأمميين، ومن الممكن أيضا أن يؤدي ذلك بأحدهم إلى القيام بانقلاب على صدام من داخل العراق ولا يجوز استبعاد أية فرضية. لكن ومن أجل بناء تحالف جاهز ومستعد للضغط على صدام أكثر من استعداده للمشاركة في أي عمل عسكري بقيادة الولايات المتحدة من أجل الإطاحة بصدام حسين في حال أنه واصل

تحديه للأمم المتحدة، بل ومستعد للمشاركة في عملية إعادة إعمار العراق بعد أن يتم تغيير النظام في بغداد. هنا على الرئيس بوش أن يكون مستعدا للتجاوب في حال أذعن صدام للضغوطات، ويمنحه فرصة للتراجع. لذلك على فريق بوش أن يكون جاهزا للتخلي عن خيار الحرب في حال قبول صدام بالسماح غير المشروط للمفتشين الدوليين بالرجوع إلى العراق. وما على الرئيس إلا أن يتخلى عن عناده الحالي والإصرار على الإطاحة بصدام بأي ثمن.

لذلك نحن أمام حالة استراتيجية بالغة الدقة والحساسية، وما هو مخيف هو حالة التهور التي يتصف بها فريق الرئيس بوش، ولا نعلم إلى أي مدى نحن مستعدون إلى الذهاب بسياستهم هذه، بالرغم من ملامح الانقسام الداخلي التي بدأت تظهر للعيان أخيرا. يبدو أن وزير الخارجية كولن باول مستعد للتفاوض مع صدام في حال امتثال الأخير غير المشروط لقرارات الأمم المتحدة، وذلك بالرغم من أننا لا نثق بصدام وبالرغم من قناعتنا أنه سيغشنا في النهاية، لكن يبدو أن باول يدرك جيدا ضرورة ظهورنا بمظهر المفاوض في حال توفرت شروط المفاوضات هذا في حال أننا أردنا فعلا أن نحصل على مساندة حلفائنا.

ولكن المستمع إلى الرئيس بوش ووزير دفاعه دونالد رامسفيلد ونائبه ديك تشيني، سيكتشف أن حتى موافقة صدام على جميع القرارات الأممية غير كاف بالنسبة لهؤلاء. وهذا ما ذكره الرئيس بوش بوضوح في خطابه الأخير يوم الإثنين الماضي حين طالب صدام بشروط تعجيزية كالسماح باستجواب الخبراء خارج العراق، وأن يكف النظام عن حملة إعدامات المدنيين ووقف العمليات التجارية التي تشكل خرقا للحصار الاقتصادي المضروب على العراق. وبرأيي تشكل معظم هذه المطالب إضافات غير لازمة، أولا لأن معظم حلفاء أمريكا من الحكام العرب يقومون بإعدام مواطنيهم بشكل روتيني ودائم، وثانيا أن الكثير من بقية حلفائنا استفادوا كثيرا من الاتجار غير المسموح به مع العراق مثل الأوروبيين والأتراك. لذا يكون من الأجدى والأفضل لنا أن نركز على مطلب التزام صدام بقرارات الأمم المتحدة وكفى. وهو أمر مستبعد لا محالة. وهذا كل ما نريد من العالم أن يراه بوضوح. وبذلك نكون قد حرمنا الأوروبيين وبقية العرب من فرصة تضييع الفرصة علينا بقولهم لنا إننا لم نطلب من صدام الالتزام بقرارات الأمم المتحدة وكفى، بل وطالبناه بالانتحار أيضا. كما أننا لا نريد من بقية حلفائنا أن يقولوا إن فريق الرئيس بوش متهور ومتجبر، مما سيحول دون مساعدتهم لنا في مهمتنا هذه. لأن هناك كثيراً من الناس يريدون ذلك، أي أن يتخلص العالم من صدام وأن تظهر

الولايات المتحدة وكأنها متجبرة وظالمة وبالتالي ستتكفل بتحمل كافة التكاليف على حسابها الخاص. وهذا ما يأمل الأوروبيون في حصوله.

كما أن ذلك يشكل مصيدة خطيرة لنا، لأنه في حال إقدامنا على غزو العراق بمفردنا سنكون قد وقعنا في الفخ فعلا. وسنتحمل عبء إعادة الإعمار وحدنا دون تلقي أي مساعدة من أي كان. وهي حالة من المستبعد أن يوافق عليها الشعب الأمريكي، خاصة في حال عدم توفر أي غطاء سواء من الأمم المتحدة أو من حلف الناتو. لذلك تعمّد بوش القول: «إننا سنقدم على ذلك رفقة حلفائنا وسننجح في مهمتنا»، وبرأيي كان عليه أن يقول: «إذا شاركنا حلفاؤنا في ذلك سنضمن النصر». وفي حال لم يتحقق أي من الفرضيات السابقة علينا أن نلتزم بسياسة الاحتواء القائمة حاليا ونجعلها أكثر صرامة، بأن نقوم بقصف أي تحركات مشبوهة للقوات العراقية ومواقع الأسلحة.

وبالرجوع إلى قوانين لعبة الخوف التي ذكرتها في البداية، من الممكن أن تقود سيارتك بدون مقود ما دمت تعرف أنك رميته، ومن الممكن أيضا أن نتصرف بقليل من الجنون كي نجبر حلفاءنا على الالتحاق بنا، ولكن في حال أنهم رفضوا ذلك فسيكون من العته والخفة من جانبنا أن نقوم بغزو العراق بمفردنا، خاصة إذا علمنا أن الناس في الشرق الأوسط قادرون على القيام بأعمال مجنونة أفضل منا بكثير.

٩/١٠/٢٠٠٢

حرب أعصاب

أن تعيش هذه الأيام في مقاطعة مونتغومري كاونتي بولاية ميريلاند، ستعيش حالة موترة للأعصاب بشدة بسبب وجود قناص حر طليق. لقد صار مطلوبا منا أن نتعرف أكثر على تشارلز موس قائد الشرطة هنا من خلال المؤتمرات الصحافية التي دأب على عقدها باستمرار خلال الأسبوعين الماضيين، وكذلك صار من المطلوب منا أن نتأكد من هوية موزع البيتزا المحلي. يوم الاثنين الماضي قامت زوجتي بطلب عشاء من مطعم «كاليفورنيا بيتزا»، وحين وصل الموزع إلى البيت كنت جالسا في غرفة الجلوس أشاهد خطاب الرئيس بوش حول العراق، وبعد أن استلمت زوجتي الطلب ودفعت الثمن، أخبرت الموزع أن رائحة الأكل تبدو شهية، وقالت له ما يلي: «لم يقم زوجي باستلام الطلب منك لأنه مشغول بمشاهدة الأخبار»، وما كان منه إلا أن قال مستفسرا: «هل حصل إطلاق نار آخر؟»، حينها أجابته زوجتي قائلة: «كلا، إنه يشاهد خطاب الرئيس

بوش المتعلق بالعراق». لذلك لا لوم على موزع البيتزا لاعتقاده أني أشاهد مؤتمرا صحافيا حول القناص. مثلا إن اضطررت لقيادة سيارتك ليلا هنا أو أن تقف أمام بيت أحدهم وأنت تدير ظهرك للشارع، كل ما تخشاه هو أن تكون هدفا سهلا لذلك القناص. باختصار لقد هزت عمليات القنص العشوائية تلك في مدينتنا أعصابنا بعمق.

أمّا أن يتحدث الرئيس بوش عن العراق في حين لا يتحدث جيرانه عن أي موضوع آخر سوى عن هذا القناص، فيدلّ إلى أي مدى أصبحت هذه الإدارة مهووسة بصدام حسين إلى درجة فقدت فيها تواصلها مع أي من المخاوف الحقيقية التي تقلق الأمريكيين هذه الأيام. وتدل على المفارقة حين يعزم الرئيس بوش الحصول على تأييد كل الأمريكيين من أجل فرض حظر الأسلحة على بغداد في الوقت الذي هو عاجز فيه عن حظر الأسلحة عن منطقة بيثيزدا التي لا تبعد سوى ستة أميال عن البيت الأبيض.

صحيح أن عزم الرئيس بوش على نزع أسلحة رئيس العراق المعتوه ومتابعة برامج صورايخ سكود وأسلحة الدمار الشامل، هو أمر في غاية الأهمية. لكن ذلك لا يقلل من أهمية نزع أسلحة الكثير من المعتوهين الأمريكيين، لأن أغلبية الأمريكيين يرون أنه من الأولى بنا سن قوانين مانعة لتداول واقتناء أسلحة الدمار الشخصي هنا بحيث يصبح من السهل تقصي أسلحة من عيار ٠,٢٢٣ مم، وكذلك يود الكثير منا رؤية المزيد من مراقبي الأسلحة يجوبون الشوارع هنا، ويتفقدون محلات بيع الأسلحة الشخصية هنا وليس في بغداد فقط.

أمّا الأمر المخيف فيما يتعلق بهذا القناص المتسلح برشاش قوي جدا فهو احتمال أن يكون أول نسخة أو أول تقليد محلي شبيه بما حدث يوم ٩/١١، من حيث حرفيته وتقنيته العالية. لكن لا يبدو أن هذا القناص قاتل محترف يحركه دافع سياسي، يتعطش بشكل مرضي إلى النظر في أعين ضحاياه قبل أن يزهق أرواحهم. كلا، بل إن هذا القناص يشبه كثيرا أسامة بن لادن من ناحية شغفه برؤية الرعب والخوف في عيون الناجين من الموت على يده عشوائيا كما لو أنهم غزلان. كما أن هذا القناص الفاشل يشبه بن لادن من حيث مزجه بين صفات متعددة كالشر والدهاء والتقنية العالية والعالمية والاستعداد لقتل الناس العاديين المنشغلين بالأمور العادية اليومية من أجل تضخيم هالة الرعب والخوف. فالدافع إلى قتل أناس أبرياء أثناء ملء سياراتهم بالوقود أو أثناء تنظيف حدائقهم أو أثناء توجههم إلى المدرسة، هو أن تصاب العاصمة الأمريكية وضواحيها بالشلل، مما منحه إحساساً عظيماً بالقوة. لذلك لا غرابة أنه ترك رسالة يقول فيها: «أنا الإله»، بشكل أدى بجريدة محلية تعنى بأخبار اجتماعات الأولياء في المدارس، مثل

جريدة «بيثيزدا غازيت» أن يكون الخبر الرئيسي على صفحتها الأولى كما يلي: «في قبضة الرعب» كما نشرت تحقيقا موجزا عن حياة ضحاياه. وهذا أمر لم أتوقعه من قبل، فقد بدت لي معه هذه الصحيفة المحلية وكأنها جريدة النيويورك تايمز في اليوم الموالي لأحداث ٩/١١.

وبالنهاية لا يهم إن كان هذا القناص هو تقليد لأحداث ٩/١١ أم لا، فذلك لا يلغي هذه القناعة العامة القائمة على إحساسنا بفقدان الأمن، وكيف كنا في السابق نلجأ إلى البيت الأمريكي الآمن كلما شاهدنا سلوكا مجنونا في الخارج. إذ إننا لم نعد قادرين على القول «إننا آمنون هنا» لأنه وبكل بساطة حتى هنا صارت «تعيش معنا تنانين»، وبالتالي صار هناك تماثل بين ما يجري في الخارج والداخل، هناك قاموا بقتل أحد عناصر المارينز الذين يحرسون آبار النفط الكويتية، في حين أني وعندما قمت بملء سيارتي بالوقود في أحد الأيام الماضية اختبأت وراء عمود حتى لا يتمكن القناص من رؤيتي، في حين اختبأ آخرون في المقاعد الخلفية لسياراتهم. وهناك يقوم صدام بزرع الرعب بين صفوف شعبه، وبالمقابل أصبح أطفالي هنا خبراء في التمييز بين الإشارتين الحمراء والزرقاء الدالتين على درجة الخطر. الإشارة الزرقاء تعني أنهم مجبرون على البقاء في مدارسهم لاحتمال وجود قناص في المنطقة، في حين أن الإشارة الحمراء تعني أنهم سيظلوا محبوسين في قاعاتهم المدرسية بسبب وجود شخص مسلح داخل حرم المدرسة.

لذلك وبصراحة لا أرغب حاليا في سماع أي كلمة إضافية حول العراق، بل كل ما أتمناه هو أن يقدم الرئيس وأعضاء الكونغرس على اتخاذ القرارات اللازمة التي تحتاج إليها هذه البلاد بدءا بالتوصل إلى التحكم في تداول الأسلحة وانتهاء بوضع سياسة اقتصادية نافعة، وذلك كي نتفادى أن يصبح الداخل الأمريكي شبيهاً بما يدور في بقية أطراف العالم.

١٣/١٠/٢٠٠٢

نفاق في الجامعات

نشرت جريدة الواشنطن بوست مؤخرا تحقيقا حول الأعداد المتزايدة من طلبة الجامعات الأمريكية وما يمارسونه من ضغوطات على جامعاتهم من أجل أن «تتخلص كلياتهم مما تمتلكه من أسهم تابعة لشركات تجارية متعاملة مع إسرائيل، وهذا أثار بدوره

حملة مضادة في أوساط المنظمات اليهودية التي ترى أن مثل هذه الدعوات تشكل انعكاسا لموجة العداء للسامية النامية ولو ببطء في أوساط الطلبة الأمريكيين». وفيما يلي رأيي حول هذا الموضوع أوجّهه لكلا الطرفين:

أولا، مذكرة إلى هيئات التدريس والطلبة المتزعمين لحملة المقاطعة هذه: إن حملتكم الداعية إلى مقاطعة إسرائيل هي في غاية النفاق وغير نزيهة، وإن أية جامعة تقدم على عمل كهذا لا يجوز وصفها بأنها مؤسسة تعليمية راقية، وكما أن تحميل إسرائيل وحدها المسؤولية بالكامل عن المأزق الحالي هو من باب الكذب المحض. وعليه يمكن للمؤرخين أن يتجادلوا فيما إذا كانت محادثات كمب ديفيد التي اقترح خلالها الرئيس السابق بيل كلينتون إقامة دولة فلسطينية قد نصت على إعطاء الفلسطينيين ٨٥ أو ٩٠ أو ٩٥٪ من مجمل أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة. لكن الأمر الذي لا يقبل أي جدل هنا هو ما كان مفترضا من الفلسطينيين القيام به. كان يجدر بهم أن يبرهنوا لإسرائيل وللأمريكيين أن عرضهم ذاك كان الأفضل والأحسن من حيث الإنصاف، إلا أن ذلك لا يعني أنه يتطابق مع ما يراه الفلسطينيون ضروريا وعادلا لقيام دولتهم الخاصة، وبالتالي هم كفلسطينين مستعدون للعمل مع إسرائيل وأمريكا من أجل الوصول إلى تلك النتيجة. وعليه، يكون من الخطأ الجسيم أن يتمثل رد الفلسطينيين بالدخول في انتفاضة جديدة والقيام بمائة عملية انتحارية، وهو ما أدّى إلى وصول آرييل شارون إلى السلطة.

إنه من المخجل حقا أن نجد بعض الفلسطينيين يعترفون بمدى جسامة الخطأ التاريخي الذي ارتكبوه عندما رفضوا مبادرة الرئيس كلينتون، وفي الوقت نفسه نرى بعض مناصري الفلسطينيين من طلبة وأساتذة جامعات في أمريكا وأوروبا يتحاملون على إسرائيل ويتهمونها بأنها هي المتسبب الرئيسي في إطالة أمد الاحتلال. وهذا موقف من المستحيل أن يساعد الفلسطينيين على الحصول على دولتهم المنشودة، ولا يقوم أصحابه سوى بإطالة أمد معاناة الفلسطينيين.

أما لماذا توصف هذه الحملة المغرضة بالنفاق، فهناك أمثلة عديدة: حين قامت الحكومة المصرية بسجن أبرز المدافعين عن حقوق الإنسان في الوطن العربي بعد أن تعرض لمحاكمة صورية، لم تقم أي مجموعة طلابية بالاحتجاج على ذلك والمطالبة بمقاطعة مصر اقتصاديا (أنا لا أنادي بذلك؛ لكن الصمت دليل قوي)؛ أو احتلال سوريا للبنان على مدى ٢٥ عاما، مما أدى إلى خنق أي مسار ديمقراطي فيه، ومع ذلك لم تقم أي مجموعة طلابية بالدعوة إلى مقاطعة سوريا؛ وكذلك ما هو رأيهم فيما تقوم به العربية

السعودية بحرمان مواطنيها من النساء من أبسط الحقوق البشرية ومنعها من أي ممارسات دينية غير الإسلام على أراضيها. ومع ذلك لم يصدر أي احتجاج أو دعوة لمقاطعتها عن أي من هذه المجموعات الطلابية.

ثانيا، مذكرة إلى مؤيدي إسرائيل: لا يعني ما ينادي به بعض المعادين للسامية من تحميل إسرائيل المسؤولية الكاملة عن الأخطاء الواقعة، أن كل ما تقوم به إسرائيل صحيح أو يخدم مصالحها أو عادل. فالسياسة الاستيطانية التي تنتهجها إسرائيل ستؤدي بالنهاية إلى اندثار الدولة اليهودية. وبالرغم من أن المستعمرات لا تشكل جوهر الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، لكن الاعتقاد بأنها لا تزيد من حدته، ولا تورط إسرائيل في احتلال دائم هو أيضا عمل غير نزيه. ولو تمت الأمور كما يريد المستوطنون اليهود لأصبح اليوم ضم إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة أمرا واقعيا وقانونيا. ولو حافظ النمو الديمغرافي للفلسطينيين على معدلاته الحالية، بحلول سنة ٢٠١٠ سيفوق عدد الفلسطينيين عدد الإسرائيليين في كل من إسرائيل والضفة والقطاع مجتمعين. وبمجرد أن يتحقق ذلك ستتغير حتما مطالب الحركات الطلابية المناهضة لإسرائيل. لأنهم سيتوقفون عن المطالبة بمقاطعة إسرائيل، ويطالبون بتطبيق تلك القاعدة البسيطة: «في أي عملية انتخابية يمنح حق التصويت للجميع، وبما أن إسرائيل كانت قد ضمت بالفعل الأراضي الفلسطينية المحتلة مما نتج عنه قيام كيان سياسي واحد يمتد من حدود الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط، لذا نحن نطالب بحكم الأغلبية». وإذا كنتم تعتقدون أنه أصبح من الصعب الدفاع عن لإسرائيل داخل الجامعات اليوم، فما عليكم إلا أن تتخيلوا كيف سيكون الوضع سنة ٢٠١٠ بعد أن قام المستوطنون بتوريط إسرائيل في الأراضي المحتلة التي لا يمكن إدارتها إلا بسياسات شبيهة بسياسة الفصل العنصري. كذلك لا يجوز اعتبار هذه دعوة للانسحاب من طرف واحد من قبل إسرائيل. بل هي دعوة إلى كل من يريد لإسرائيل أن تبقى دولة يهودية وليست دولة ذات ثنائية قومية وإلى العمل على دفع الرئيس بوش إلى تجديد الدعوة الأمريكية لإقامة دولتين متجاورتين. لذا فكل من يعتقد أن الولايات المتحدة تعمل لصالح إسرائيل بتجاهلها للوضع القائم حاليا، وكذلك كل من يعتقد أن الحملة الرئيسية التي يجب على اليهود خوضها حاليا إنما تقع داخل الجامعات- وليست ضد المتشددين بين صفوفهم، كل هؤلاء يخادعون أنفسهم بكذبة كبيرة وخطيرة جدا.

١٦/١٠/٢٠٠٢

التنقيب عن الحرية

التنقيب عن الحرية

لقد حدث أمر غريب في إيران قبل أيام تمثّل في نشر وكالة الأنباء الإيرانية استطلاعا للرأي أشرف عليه المعهد القومي الإيراني للبحوث والاستطلاعات (IRNA)، حول موقف معظم الإيرانيين من الولايات المتحدة. قام المشرفون على هذا الاستطلاع بسؤال ١٥٠٠ إيراني عما إذا كانوا يساندون فكرة الدخول في محادثات مع الولايات المتحدة، فأجاب ٧٥٪ من هؤلاء بنعم، بل والأكثر مدعاة للغرابة والدهشة أن ٤٦٪ ممن تم استطلاع رأيهم قالوا بأن السياسة الأمريكية تجاه إيران - القائمة على المقاطعة الاقتصادية وإدراج إيران ضمن دول «محور الشر» - كانت «إلى حد ما صحيحة». يا للغرابة!

يمكننا تخيل ما حدث بعد ذلك الإعلان؛ قام المتشددون بإغلاق ذلك المعهد (IRNA) بعد أن هددوا مسؤوليه. فحقيقة لجوء المتشددين إلى مثل هذه الإجراءات التعسفية يكشف مدى عزلتهم واختلافهم الجذري مع تطلعات وأراء أغلبية الإيرانيين الشجاعة.

أروي هذه الواقعة لمدى دلالتها البالغة في معرض حديثنا عن مهمة التحول الديمقراطي في الشرق الأوسط، حيث تسيطر أنظمة أوتوقراطية قمعية على العالمين العربي والإسلامي، وعلى من يريد أن يرى كيف ستكون حالة الانتقال من الاستبداد إلى الديمقراطية أن يدرس المثال الإيراني. كذلك يتطلب الأمر في العديد من دول تلك المنطقة قيام تركيبة مماثلة لما هو موجود في إيران، مزيج من الديمقراطية والثيوقراطية (حكم رجال الدين)، حيث سيفوز الإسلاميون بالسلطة عبر صناديق الاقتراع، ولكنهم سيفشلون في نهاية المطاف في الوفاء بما أطلقوه من وعود، بتحقيق ما يصبوا إليه مواطنوهم من رفع مستوى المعيشة، ذلك ما سيعرضهم لضغوط شعبية بشكل تصبح معه القوة أداتهم الوحيدة للحفاظ على السلطة. لكن رجال الدين سيخسرون في نهاية المطاف لأن جيل الشباب اليوم يدرك حقيقتين هامتين: أولاهما أن لديهم من الديمقراطية ما يكفي لجعلهم يريدون المزيد منها، وثانيتهما أن لديهم من الثيوقراطية ما يجعلهم يريدون القليل منها. وهذا ما سيؤهلهم بالنهاية إلى الفوز بفرض توازن جديد داخل إيران بإدراج الديمقراطية الحقة التي لا تتناقض مع المكانة المشرفة للإسلام، وليست ديمقراطية مفروضة عليهم من أعلى.

ولكن السؤال المطروح هو: لماذا قد يستغرق ذلك وقتا طويلا؟ وما الذي يجعل من إيران تختلف عن المجر أو بولندا بعد سقوط جدار برلين؟ ولماذا سيكون العراق مختلفا عنهما أيضا بعد أن يسقط نظام صدام حسين؟ يمكن اختزال الإجابة عن ذلك في كلمة واحدة هي: النفط.

لذلك يمكن إرجاع الأمد الطويل - مقارنة بما حدث في أوروبا - الذي قد تستغرقه عملية التحول من الثيوقراطية إلى الديمقراطية الحقيقية في إيران إلى أسباب عديدة أهمها سيطرة المتشددين من رجال الدين على الثروة النفطية في البلاد، مما يعني امتلاكهم لثروة نقدية طائلة تخولهم السيطرة والتحكم في مختلف وسائل القهر- كالجيش وقوات الشرطة وأجهزة المخابرات. وهكذا نجد أن مصدر ثرواتهم لا يعتمد أساسا على الانفتاح سياسيا أو اقتصاديا ولا يقوم كذلك على تحقيق تطلعات شعوبهم. فواقع الحال يدل على أن هناك مصدرين لثراء الحكومات في الشرق الأوسط، يتمثل الأول في التنقيب عن الثروة في الكثبان الرملية، في حين أن المصدر الثاني يتمثل في الاستثمار في الطاقات البشرية الخلاقة لمواطني ومواطنات البلد. وهذا ما يؤهل حكومات ثيوقراطية كتلك التي تحكم في إيران والعربية السعودية والعراق من البقاء في الحكم زمنا طويلا جدا، لأن كل ما عليهم القيام به للاحتفاظ بالسلطة هو التحكم في منابع النفط. التغيير يصبح ضروريا فقط حين تكون الحكومات مجبرة على الاستفادة واستغلال مواردها البشرية، بحيث ستقدم على تنظيمها بطريقة تؤدي بها إلى الاستفادة التامة من تلك المواهب وذلك عن طريق عصرنة وتحديث التعليم والتشجيع على التبادل التجاري وحرية التفكير والبحث العلمي وحرية الصحافة.

لذا ومن أجل كل هذه الأسباب المذكورة مجتمعة علينا أن نخفّض تدريجيا وبشكل منظم من أسعار النفط، وكذلك أن نعمل على إيجاد مصادر طاقة بديلة ومتجددة في حال أننا أردنا فعلا أن نسرع بعملية الانتقال من نظام شمولي إلى نظام ديمقراطي في دول مثل إيران أو العراق. كما أعرف جيدا أن ديك تشيني يعتقد أن المحافظة على مصادر الطاقة المتوفرة حاليا هو من صفات المسالمين الضعفاء، لأن الرجال الحقيقيين يستعملون قاذفات الـ«ب-٥٢»، وهو مخطأ تماما في رأيه ذاك. لأن الحفاظ على مصادر الطاقة الحالية والبحث عن مصادر بديلة هما الاستراتيجيا المناسبة للتعامل مع منطقة الشرق الأوسط. خاصة إذا تذكرنا أن نجاح رونالد ريغان في إسقاط الاتحاد السوفياتي يعود إلى اتباعه لتكتيكين متوازيين: سحب شرعيته واستنزاف طاقاته. تم سحب غطاء الشرعية عن الاتحاد السوفياتي من خلال نعته بأنه «إمبراطورية الشر»، ومن

خلال تعريف شبابه بما يدور حولهم في مختلف مناطق العالم. أما الاستنزاف فقد تمثل في جره إلى الإنفاق بسخاء على مشاريع حرب النجوم إلى الدرجة التي أدت بالاتحاد السوفياتي إلى الإفلاس. أما في الشرق الأوسط، فقد أقدم فريق الرئيس بوش اليوم على سحب الشرعية من أسوأ الأنظمة هناك بإدراجها ضمن قائمة دول «محور الشر»، ولكنه بالمقابل لم يقدم على أي عمل من شأنه أن يؤدي إلى استنزاف تلك الأنظمة، بل بالعكس صرنا ندعمهم بسياراتنا الكبيرة التي تستهلك كميات مهولة من الوقود.

باختصار، ما هي أول دولة عربية مارست الديمقراطية الحقيقية؟ لبنان. وما هي الدولة العربية الوحيدة التي لا تنتج نفطا؟ لبنان. وما هي أول دولة عربية نفطية تتحول إلى ديمقراطية برلمانية؟ البحرين. وما هي أول دولة عربية سينفذ مخزونها النفطي؟ البحرين. صحيح أن من شأن الإطاحة بنظام صدام حسين أن يؤدي إلى انتشار الديمقراطية في الشرق الأوسط، ولكن ذلك ليس بالأمر الكافي في حد ذاته ولن يدوم، ما دامت الدول الشرق أوسطية لم تتحرّر من تبعية اعتمادها الكلي على النفط والشيء نفسه ينطبق علينا نحن أيضا.

٢٠/١٠/٢٠٠٢

دهاليز الشارع العربي

الدوحة، قطر

كان من بين الأسئلة التي ناقشها المفكرون المسلمون والأمريكيون أثناء اجتماعهم في الندوة التي عقدت هذا الأسبوع والتي تمحورت حول العلاقات بين أمريكا والإسلام، سؤال تناول هذه القضية المستعصية التالية: أين هو الشارع العربي وكيف سيكون ردّ فعله على الغزو الأمريكي المحتمل للعراق؟ برأيي كانت أفضل إجابة على ذلك التساؤل هي تلك التي قدمها الصحافي الأردني رامي خوري والتي جاء فيها: «المهم اليوم ليس الشارع العربي، بل الدهليز العربي». وهذا تمييز مهم جدا لأن الشارع العربي يتكون من مجمل الرأي العام بمختلف قطاعاته وهو سلبي ولا يجنح إلى العنف. أما الدهليز العربي فإنه يتكون من تلك التنظيمات الإيديولوجية الصغيرة من المتشددين مثل أسامة بن لادن وأتباعه، ممن اعتزلوا المجتمع ليتفرغوا لمزج الأسمدة الكيمياوية والمتفجرات البلاستيكية بالبنزين لصناعة القنابل التي أودت بحياة الغربيين في مختلف أصقاع العالم.

أما الحكام العرب، فإنهم اعتادوا بدورهم على ترويض هذا الشارع العربي مما يفسر عدم قدرته على الإطاحة بأي من هؤلاء الحكام. فهم يتقنون كيف يقمعونه وكيف يحصلون على رضاه بل وكيف يوجهون غضبه باتجاه إسرائيل. وبالتالي يدرك هؤلاء الحكام جيدا أن إبطال مفعول غضب هذا الشارع العربي يتم إما بإحراز تقدم على جبهة الصراع العربي- الإسرائيلي أو عن طريق إجراء انتخابات في الداخل. إلا أن الدهليز العربي يشكل ظاهرة جديدة وفي غاية الخطورة. فهذا الدهليز يحتوي على مجموعات صغيرة من الرجال الغاضبين جدا الذين اختفوا عن الأنظار ليشكلوا خلايا سرية ذات أهداف وتواصل عالميين. صحيح أن قضايا مثل الصراع العربي الإسرائيلي والسياسة الأمريكية في المنطقة تشكل دافعا محركا لهؤلاء، لكن أكثر ما يؤجج غضبهم هو ذلك الإحساس بالمهانة محليا - الشعور الدائم بالفشل المتواصل لمجتمعاتهم القمعية المستبدة، مما جعلهم يقبعون بعيدا وراء مختلف الأمم، وبالتالي فهم يسعون إلى إيقاظ مجتمعاتهم واكتساب احترام العالم عن طريق توجيه ضربة قاضية وهائلة. وهنا يواصل خوري قائلا: «لقد بدأ هؤلاء نشاطهم من غرف جلوسهم وانطلقوا إلى الشوارع حيث تم قمعهم وهاهم الآن يلجأون إلى دهاليزهم». فهم على عكس الشارع العربي العام، لا يمكن تهدئة الدهليز العربي عن طريق العمل الدبلوماسي، لأنهم لا يريدون لإسرائيل أن تحوز مساحة أصغر فقط، بل هم لا يريدونها أن توجد على الإطلاق، ولا يريدون إصلاح النظام السعودي فحسب، بل لا يريدون لأسرة آل سعود أن تبقى في الحكم من الأساس.

ما العمل إذا؟ ينحصر رد الفعل العقلاني والوحيد في هزيمة هذا الدهليز العربي الخارج على حدود الدبلوماسية والسياسة على أن يتم ذلك بالتوازي مع العمل على الحد من درجة المظالم والبطالة والشعور بالمهانة التي يعيشها الشارع العربي، بشكل يقلل من عدد الشباب المنسحبين من الشارع العربي إلى الدهليز العربي والمتعاطفين معهم، مثلما يفعل الملايين من العرب اليوم.

بكل تأكيد يمكن للولايات المتحدة أن تبذل قصارى ما في وسعها من جهد لإيجاد حل للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وبالدعوة إلى القيم التي دافعت من أجلها في مختلف بقاع العالم - ما عدا العالم العربي - أي الديمقراطية على وجه التحديد. وعندما التقيت بالأمس بخمسين طالبا من المتفوقين في مدرسة قطرية خاصة ومعهد كورنل الطبي في الدوحة، تبين لي كم هم متعطشون للكلام وإبداء وجهة نظرهم كي تسمع، وكيف أنهم لا زالوا ينظرون إلى الولايات المتحدة كقدوة بالرغم من اعتقادهم

أن أمريكا تحتقرهم بالمقابل. ولكن هناك دور كبير على الدول العربية أن تلعبه، ببساطة لاستحالة القدرة على إغلاق الباب الذي يوصل الشارع العربي بالدهليز العربي من دون الإقدام على أي معالجة حقيقية لأسباب التخلف العربي بحسب ما ورد في تقرير هيئة الأمم المتحدة للتنمية العربية، المتمثلة أساسا في انعدام الحرية لدى العرب، وانعدام حرية المرأة وفقدان التعليم العصري.

وقد أضاف خوري قائلاً: «قد يتطلب الأمر سنوات عديدة من الانحطاط السياسي والاجتماعي والاقتصادي والإنساني حتى يظهر إرهابي واحد. لذلك لا يكتب النجاح لأي مسعى في محاربة الإرهاب إلا بإشاعة الإنسانية في المجتمعات المنحطة عن طريق التخلص من تلك المظاهر الواحد تلو الآخر والابتعاد عن تصرفات القمع والقهر والتهميش والإلغاء والاستبداد التي حولت بالنتيجة مجتمعات نامية بأسرها إلى مجتمعات مشوهة وممسوخة، وجعلت من أشخاص محترمين يخشون الله إلى حيوانات تقتل باسم الإرهاب».

لذلك أرى أن الطريق الوحيد لإيقاف تطوع الشباب العرب والانتقال من الشارع إلى الدهليز يتم عن طريق العلاج بالصدمة للمنطقة بأسرها. فهل من الممكن أن يتم ذلك عن طريق استبدال نظام صدام حسين بنظام آخر تقدمي؟ لست متأكداً من ذلك. ولا أعرف ما إذا كان فريق الرئيس بوش يريد تحقيق ذلك فعلا، ولا أعرف ما إذا كان الشعب الأمريكي مستعداً لتحمل أعباء تلك المهمة. لكن ما أنا متأكد منه هو كالآتي: في حال قامت أمريكا بإيضاح أن الدافع وراء غزوها للعراق، لا يقتصر فقط على نزع أسلحة الدمار الشامل، وإنما لتمكين الشعب العراقي من تطبيق توصيات تقرير التنمية البشرية العربية، حينها قد لا يتفق معنا الدهليز العربي على ذلك، لكن الشارع العربي قد يساندنا على إنجاز هذه المهمة.

٢٠٠٢/١٠/٢٣

بارقة أمل

المنامة، البحرين

ليس هناك أجمل من مشاهدة الناخبين يدلون بأصواتهم في انتخابات حرة لأول مرة، خاصة في العالم العربي، حيث تُعتبر الانتخابات حدثا نادرا. وهذا بالتحديد ما

حصل في البحرين - تلك الجزيرة الصغيرة الواقعة شمال شرقي الساحل السعودي - يوم الخميس الماضي حيث أدلى الناخبون بأصواتهم لانتخاب برلمان سيشترك في اتخاذ القرارات لأول مرة مع ملك البلاد التقدمي، الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة.

ولدى زيارتي لمراكز الاقتراع كان منظر النساء الطاعنات في السن والمرتديات عبايات سوداء تغطيهن من الرأس إلى القدم واللاتي جئن للإدلاء بأصواتهن، أكثر ما شد انتباهي. ولأنهن أغلبهن أميات، لذلك يقمن بمعاينة صورة المرشح الذي يعتزمن التصويت لصالحه قبل القيام بعملية الاقتراع. وهكذا تبدو مشاركتهن في العملية الانتخابية حدثا في حد ذاتها تتجاوز مَنْ مِن السياسيين سيفوز بالأصوات. كما إصطحبت إحدى الناخبات أحفادها معها لمركزالاقتراع، وبينماهي منهمكة في عملية الإدلاء بصوتها إنبرى حفيدها المرتدي بدلة رياضية، ابن العشر سنوات يشرح لشقيقاته اللواتي يصغرنه سنا ما رآه في حجرة الاقتراع. نعم هكذا تزرع بذور الديمقراطية.

إنها المرة الأولى التي يسمح فيها للنساء بالمشاركة في العملية الانتخابية، ولم يتطلب الأمر كثيرا من الوقت لمعرفة السبب وراء كل ذلك. فقد أقدمت زوجة الملك، الشيخة سبيكة على خطوة غير مسبوقة في هذه المنطقة المحافظة، بأن حثت النساء على المشاركة في العملية الانتخابية عن طريق التوجه إلى صناديق الاقتراع والإدلاء بأصواتهن. وحين زارت أحد المراكز الانتخابية التابعة للشيعة، استوقفتها سيدة طاعنة في السن لتشكرها قائلة: «نحن نشكرك لأنه صار بوسعنا الإدلاء بأصواتنا الآن، كما أن أزواجنا طلبوا منا أن نوضح مواقفنا وأبدوا اهتماما بما يجب أن نقول».

صحيح أن الملك الشاب هنا كان قد خطط لإنجاز هذا التحول إلى الملكية الدستورية على مدار سنوات عديدة، في إطار خطة رامية إلى النهوض بالاقتصاد وتخفيف حدة التوتر الدائم بين السنة والشيعة. وكان إطلاق سراح المساجين السياسيين أول خطوة مهدت لتحقيق مثل هذا التحول، ثم دعوة المعارضين في الخارج للعودة إلى البلاد، وتخفيف القيود المفروضة على الصحافة وإبطال مفعول قوانين كانت تسمح بالقيام باعتقالات تعسفية. وبناء عليه يمكن النظر إلى هذه الانتخابات على أنها ذات مفعول يتجاوز البحرين كثيرا، لتعلقها بمضامين المواجهة المفروضة على العرب حاليا لإفرازات ما بعد ٩/١١، خاصة وأن هذه الانتخابات كانت قد جرت على مرأى ومسمع من جميع جيران البحرين ومن بينهم المملكة العربية السعودية.

وفي هذا السياق، فإن القناعة التي توصل إليها بعض الحكام العرب المستنيرين قائمة على عدم القبول بحالة الركود السياسي السائدة حاليا، خاصة وأنها ترافقت مع ما

نتج من ضغوطات مصاحبة لحالة العولمة، والانفجار الديمغرافي وانخفاض عائدات النفط، وكل ذلك يستدعي ترتيب البيت من الداخل، أولا عن طريق اعتماد أسلوب ديمقراطي، وثانياً بالكف عن توجيه موجات الغضب الشعبي باتجاه إسرائيل وأمريكا، خاصة وأن أول انفجار كبير كان قد حدث في نيويورك، وإلا فإن الانفجار الكبير القادم سيكون حتما في الداخل.

لم يأت ولو شخص واحد ممن تحدثت معهم في مراكز الاقتراع على ذكر السياسة الخارجية، بل تحدث معظمهم عن أملهم في إقدام الحكومة على إصلاح الاقتصاد، ووضع حد لحالة الفساد خاصة بين كبار الوزراء ومنح المواطنين كلمة فيما يجري. وكما قال الدكتور أ.و.م. عبدالوهاب، أحد المواطنين الذي كان ينتظر دوره للإدلاء بصوته: «إن العالم يتغير من حولنا بسرعة، ولا يجوز لنا أن نبقى في دور المتفرج بدون أن يكون لنا أي منبر نعبر من خلاله عن وجهة نظرنا. لذا فالمتغيرات الخارجية ونسقها فرضا علينا ما نحن بصدد القيام به الآن».

على فريق الرئيس بوش أن ينتبه جيدا إلى مسار التجربة البحرينية، باعتبارها تمثل عينة مصغرة لما يمكن أن تكون عليه عملية إعادة إعمار العراق التي مثلها مثل البحرين تحتوي على أغلبية شيعية عانت من الحرمان الاقتصادي، وأقلية سنية تحكمت دائما في مصادر القرار والسلطة. تاريخيا لم يكتب النجاح لأي تجربة ديمقراطية في هذه المنطقة من العالم. لأنه إن لم تكن قبيلتك هي من يمسك بزمام السلطة فإنك معرض لأن تخسر كل شيء، لذلك انعدم أي تقليد للتداول السلمي للسلطة. وهكذا بانتخاب برلمان وتعيين آخر، يكون ملك البحرين قد خطا أولى الخطوات في اتجاه المشاركة في صنع القرار، وتأسيس ثقافة سياسية تؤدي بالبلاد إلى التقدم عن طريق بناء تحالفات تشمل جميع فئات وأعراق المجتمع. وهذا ما يحتاج إليه العراق على وجه التحديد، ولكن على مستوى أوسع وأكبر.

ومثلما قال عميد جامعة هارفرد، لورنس سامرز ذات مرة: «في تاريخ العالم لم يقم أحدهم بغسل سيارة مستأجرة»، فالأمر نفسه ينطبق هنا على معظم الحكام العرب، الذين يشعرون أنهم مستأجرون لحكوماتهم ومجتمعاتهم وبالتالي هم ليسوا في حاجة للعناية بها أو صيانتها. لأنهم يفتقدون حس ملكيتها، لذلك هم في حل وغير مسؤولين عما يحل بدولهم من مشاكل ومصاعب لأنهم ببساطة يشعرون أن تلك المشاكل لا تعنيهم. أمّا البحرين فقد أقدمت الأسبوع الماضي على أولى خطوات التي تمكن الشعب البحريني من تملك بلده، وكل ما يأمله المرء هو أن يكونوا في مستوى المسؤولية

المتعلقة بصيانة وحسن العناية ببلدهم. لا شيء يمكنه أن يساعد هذه المنطقة أكثر مما حدث، وما علينا إلا أن نأمل خيرا.

٢٠٠٢/١٠/٢٧

في مسألة الديمقراطية

المنامة، البحرين

هناك تناقض صارخ بين ما تناولته وسائل الإعلام الأسبوع الماضي من قضايا حدثت في أكبر بلد عربي وأصغر بلد عربي. الأخبار الواردة من أكبر بلد عربي مصر، تقول بعزم المحطة التلفزية التي تملكها الدولة على عرض مسلسل رمضاني - حيث هناك إقبال جماهيري على مشاهدة البرامج التلفزيونية - يتناول المؤامرة الصهيونية من أجل الاستيلاء على أراض عربية. في حين أن الأنباء الواردة من أصغر بلد عربي البحرين والتي تقول بأن أول تجربة ديمقراطية انتخابية برلمانية تمت بنجاح، وهي سابقة بين دول الخليج، تؤهل البحرينيين المشاركة في إدارة بلدهم. وهذا يمثل نوعي الردود على أحداث ٩/١١ في العالم العربي، الأول تمثل في الرد المصري القائم على تغذية شعوبهم بالخبز ومهرجانات السيرك ونظريات المؤامرة في معرض تفسيرهم لحالة التخلف التي تعاني منها مجتمعاتهم مقارنة ببقية شعوب العالم. أما النموذج الثاني، الذي تمثل في تجربة البحرين القائم على منح المواطنين مسؤولية أكبر وحرية صحافة أكثر مما يعزز قدراتهم للحاق بركب الحضارة العالمي. هنا يتبين لنا حجم الرهان الأمريكي الكبير على نجاح التجربة الديمقراطية في البحرين وما يمكن أن ينتج عنها من تأثير يشمل بقية دول المنطقة. لماذا؟ لأن لا أحد يشك في أن حالة الغليان والغضب العارم بين صفوف الشباب العرب اليوم - التي شهدنا أول انفجاراتها يوم ٩/١١ - يعود بالأساس في جزء منه إلى الدعم الأمريكي الأعمى لكل ما تقوم به إسرائيل. وهذا غضب حقيقي وفعلي. ولكن هذا الغضب ناتج أيضا عن الدعم الأمريكي للعديد من الأنظمة العربية القمعية والمتحكمة في مصير مواطنيها من الشباب حارمة إياهم من أي مشاركة أو تحقيق أي نجاحات تذكر في عالم اليوم. لذلك يشعر العديد من الشباب العرب اليوم بشيء من الإهانة حين يقارنون أنفسهم بغيرهم من الناس، وبالتالي لا داعي للاستغراب من أن إحساسهم بفقدانهم لكرامتهم هو ما يحركهم للقيام بما قاموا به.

بعد أن شاركت في حوار تلفزي حول مستقبل الديمقراطية في الوطن العربي،

عرضته قناة الجزيرة القطرية التي تحظى بجمهور عريض من المشاهدين في منطقة الخليج، استوقفني العديد من المارة والمواطنين ليقولوا لي رأيهم حول ذلك الموضوع. وهذه عينات مما سمعت: ١- رجل التقيته في صالة الاستقبال في الفندق الذي نزلت فيه قال: «أنا كويتي، أردت فقط أن أعلمك أننا بدون ديمقراطية سنضيع». ٢- سعودي يعمل في ميدان المقاولات، التقيته في مطار البحرين سألني: «هل تعتقد أن تجربة البحرين ستنتقل إلى السعودية؟». ٣- مصرفي شاب من البحرين قال: «بدلا من التفكير الإبداعي لا زالت مدارسنا تعتمد على منهج تلقيني ينحصر في القراءة والمذاكرة والحفظ». ٤- وأخيرا أوقفني رجلان من البحرين على طريق الشاطئ ليعبرا لي عن مدى افتخارهما بالاستقطاب الذي حظيت به دولة البحرين الصغيرة إلى درجة أن قناة السي.ان.ان عرضت ذلك في نشرتها الإخبارية العالمية، بأن قالا لي: «لقد حظيت ديمقراطيتنا باهتمام السي.ان.ان» وما كان مني إلا أن ابتسمت لهما. لأن آخر مرة عرضت فيها تلك القناة أخبارا قادمة من البحرين كانت حول موت شاب بحريني وهو يحاول اقتحام مبنى السفارة الأمريكية هناك في مظاهرة معادية للولايات المتحدة كانت قد اندلعت في شهر أبريل/نيسان الماضي.

هذا هو جوهر الموضوع. كيف يمكن للشباب العربي الحفاظ على كرامته؟ هل يتم ذلك بإجراء الانتخابات أم باحتجاز الرهائن، باقتحام مراكز الاقتراع أم باقتحام السفارات، أو بمنحهم فرصة التعبير عن آرائهم وصقل مواهبهم من أجل تحقيق النجاح أو بشراء ولائهم عن طريق عائدات النفط وإبقائهم عاجزين؟ هذه أسئلة مهمة جدا، وحين تمنح الناس فرصة الكلام عن مثل هذه الأمور، سيقبلون عليك. وهذا ما اكتشفته عندما سألت منصور الجمري، رئيس تحرير جريدة الوسط - وهي أول جريدة مستقلة في البحرين - عن أسباب وجذور أحداث ١١/٩ فقال: «هناك جذور محلية لما وقع في ذلك اليوم، تتمثل في سحق أي مظهر للحرية، وانعدام حرية التعبير، فلو قمت بإهانة شخص ما ثم أعطيته مالا فيما بعد، تأكد أنه سيقوم بتوظيف كل ما يملك من مال من أجل أن ينتقم لكرامته المهدورة. هناك ستة مواطنين بحرانيين معتلقون حاليا في معتقل غواتانامو؛ واحد منهم من العائلة الحاكمة، وينتمي الخمسة الباقون إلى الطبقة الغنية. وهذا ما يفسر إقدام شاب ميسور من العائلة الحاكمة على الذهاب إلى أفغانستان للمشاركة في القتال». وأضاف: «هناك فراغ كبير. حتى لو قمت بإغداق الكثير من الأموال والحاجات المادية، التي لا تستطيع أن تشبع أو تلبي جميع تطلعات الكائن البشري، لأن له أهدافاً وطموحات وأحاسيس، وحين لا تتم تلبيتها، وفجأة يقول له

أحدهم أن قوة عظمى- أمريكا - هي السبب وراء كل معاناتنا، وهي التي أهانتنا، ولا زالت تنظر إلينا وكأننا من سفالات البشر، فقط نأكل وننام ونجري وراء النساء. هنا يوجه غضبه فجأة باتجاه من يعتقد أنه مسؤول عن عدم حصوله على ما يصبو إليه- إحساسه العميق بالكرامة الإنسانية وقدرته على التعبير عن نفسه والتأثير في مجتمعه وتمتعه بالاحترام كإنسان على النطاق المحلي والعالمي. وهذا النقص في الاحترام لكرامته البشرية شجع على ظهور بن لادن».

تحاول دولة البحرين الصغيرة أن تداوي ذلك الجرح المتمثل في نقص الكرامة بإدخال قليل من الديمقراطية، وما على المرء إلا أن يأمل أن يعمل بذلك إخوتها الكبار مثل مصر والسعودية وسوريا والعراق.

٢٠٠٢/١٠/٣٠

دعهم يأتون إلى برلين

برلين، ألمانيا

لم أتمكن من زيارة برلين منذ انهيار جدارها الشهير، ولذلك ومنذ أن وصلت إلى الفندق القريب من بوابة براندنبورغ، كان أول سؤال طرحته يقول: أين الجدار؟ وما كان من صديقي الألماني إلا أن يجيبني شارحا كيف أن الأثر الوحيد المتبقي حاليا هو ذلك الممر الحجري الذي يشق برلين إشارة إلى موقع الجدار سابقا. لذلك أصبح من السهل عليك أن تعبر ذلك الممر من دون أن تعلم ذلك. وهنا يتمحور أساس الأزمة التي نشبت حاليا بين ألمانيا وأمريكا، عقب تبني المستشار الألماني غيرهارد شرودر لشعارات معادية لجورج بوش ومناهضة للحرب على العراق، بهدف الحصول على إعادة انتخابه ثانية كمستشار، كما زاد الطين بلة تشبيه وزيرة المالية الرئيس الأمريكي بوش بهتلر، وتم تتويج ذلك برفض الرئيس بوش الرد على رسالتين تلقاهما من الزعيم الألماني. إذا، رجاء هل هناك من هو قادر على إعادة الجدار السابق إلى مكانه؟ صحيح أنه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية نشبت العديد من الخلافات بين أمريكا وألمانيا، ولكن كانت دائما هناك حدود لا يتعداها أي من الطرفين لإدراكهما أن هناك عدواً متربصاً على الطرف الآخر من الجدار، متمثلا في النظام الشيوعي الشمولي، مما أجبرنا على القتال سوية ضده. إلا أن العدو المشترك لا زال موجودا الآن ويتمثل في الشمولية الدينية هذه

المرة، مما يفرض علينا أن نقاتل معا هذه المرة أيضا ونتحد في الخندق نفسه. أما الآن وقد تهدم الجدار الذي كان يحدد بوضوح أين نقف وأين يقف العدو، فإن تجاوز جميع الحدود أصبح ممكنا بدون أن ينتبه أحد لذلك.

لم تتمثل الصدمة في الانتخابات الألمانية نفسها ولا في الطريقة التي خاض بها المستشار الألماني حملته الانتخابية، بل في الشعبية التي حظيت بها حملته المعادية لأمريكا. كما تقوم هذه الظاهرة على مبدأين، الأول هو النزعة العدائية تجاه أمريكا المنتشرة حاليا، يغذيها الحسد والغيرة مما تتمتع به أمريكا من قوة متفوقة عسكريا واقتصاديا، وهي ما أسماه رئيس تحرير جريدة «دي تزايت» جوزيف يوفا بـ«محور الحسد»، والثاني تمثل في الموقف العدائي لما يمثله الرئيس بوش من تصرفات الانعزالية وغير المهتمة بل والمهينة أحيانا لمواقف المدافعين عن البيئة من الخضر، وهذا ما عبر عنه نائبه ديك تشيني في خطاب ألقاه في شهر أغسطس/آب الماضي عندما صرح بعدم جدوى أي عمليات تفتيش تقوم بها الأمم المتحدة في العراق، مما يدفع بالولايات المتحدة إلى القيام بعملية الغزو بمفردها. وبحسب ما قاله فريدبورت فلوغر، أحد كبار مسؤولي الحزب الديمقراطي المسيحي الموالي لأمريكا بأن: «خطاب تشيني لعب دورا حاسما في الانتخابات الألمانية».

وباختصار هناك الكثير من الأوروبيين اليوم ممن يخشون بل ويمتعضون من أمريكا أكثر مما يخافون من صدام. وهذا أمرغيرمعقول، لكنه يفسر لنا بوضوح السبب وراء السهولة التي انتقل بها المستشار الألماني من موقع المثير لمسائل مشروعة حول الطريقة المثلى التي يجب أن نتعامل بها مع صدام إلى إخراج ألمانيا نهائيا من المشاركة في أي عمل حربي ضده مهما كانت الظروف. وهذا ما يضع ألمانيا على اليسار المتطرف مقارنة بموقف العربية السعودية، التي قالت على الأقل أنها ستشارك في أي مجهود عسكري ضد العراق في حال وافقت الأمم المتحدة على ذلك. إن تفكيراً كهذا هو ما حدا بالأمريكيين إلى الاعتقاد بأن الأوروبيين لن يميلوا إلى استعمال القوة العسكرية تحت أي تهديد مما يجعلهم يشكلون خطرا على أنفسهم وعلينا أيضا. أعتقد أن الوقت قد حان لكلا الجانبين أن يضعا حداً لمثل هذه الخلافات، لأننا في حاجة إلى بعضنا البعض مثلما قال وزير خارجية ألمانيا ذو الرؤيا العميقة، يوشكا فيشر: «إننا نواجه نوعا جديدا من التوتاليتارية، يتمثل في تنظيم القاعدة وبن لادن» كنتاج لأزمة داخلية خاصة بالإسلام. كذلك يهدف هؤلاء التوتاليتاريون الدينيون إلى: «تدمير المجتمعات المفتوحة أينما وجدت عن طريق تدمير بنيتها الاقتصادية التي تقوم عليها». وبالتالي لا يقتصر

خوض هذه الحرب على الجيوش وإقامة الجدران، بل تخاض عن طريق أجهزة الشرطة وتبادل المعلومات الاستخباراتية وتقديم معونات التنمية والدبلوماسية السلمية والقيام بعمليات عسكرية. ومن أجل ضمان النصر في هذه الحرب يتحتم على المجتمعات المفتوحة أن تستخدم كل ما في وسعها من قوة، بأن تستخدم أمريكا ما لديها من قوة ضاربة وتستخدم أوروبا ما لديها من حنكة وخبرة.

حين قررت ألمانيا المساهمة في قوات حفظ السلام في كابول، كان ذلك عونا كبيرا لنا، ويستوي الأمر حين قررت انتشال عشر دول من أوروبا الشرقية من حالة الفقر، وهذه وقائع بالغة الدلالة حتى وإن لم يؤمن بها أي من رعاة البقر القادمين من تكساس. كما أني لا زلت متأكدا من الطريقة الصحيحة التي يجب علينا توخيها لمعالجة الموضوع العراقي. لكنني في الوقت نفسه متأكد من مدى خطأ القرار الرامي إلى استبعاد استخدام القوة، وتحت أي ظرف، ضد مجرم خارج على إرادة الأمم المتحدة مثل صدام حسين.

وكتعبير عن إحيائي لذكرى جون كينيدي، صرت أحمل الشعار القائل ببساطة: «نحن جميعا من نيويورك». نعم لقد أصبحنا كلنا من نيويورك اليوم، وذلك بقطع النظر عن مكان الإقامة. وكل من يؤمن بالمجتمع المفتوح وكل من يحب المجتمع الحر، صار طرفا في الحرب العالمية الثالثة، حرب ضد التوتاليتاريين الجدد، المستهدفين لشركاتنا، وملاهينا ومطاراتنا ومسارحنا وذلك من أجل أن يجبرونا على أن ننغلق على أنفسنا وعلى مجتمعاتنا. لذا، إما أن نخوض هذه الحرب معا أو نخسرها معا. ومن هذا المنطلق نقول لأولئك الذين تناسوا ما يتطلبه الدفاع عن مجتمع مفتوح: تعالوا إلى برلين، وسيروا فوق هذا الممر الصخري المتعرج حيث كان الجدار العازل سابقا وتذكروا كل الجهود التي بذلت من أجل هدمه.

٠٣/١١/٢٠٠٢

القدوة الأمريكية

برلين، ألمانيا

على كل من يعتقد أن ألمانيا أصبحت معادية لأمريكا أن يتأمل جيدا ما حدث هنا خلال الشهر الماضي عندما زار الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون العاصمة برلين،

حيث احتشد الجمهور الألماني مرحبا بكلينتون الذي ساهم في رفع الستار عن بوابة براندنبورغ الشهيرة بعد أن أعيد ترميمها. لقد تجمعت أعداد غفيرة من المواطنين الألمان مستقبلة ومصافحة ومستمعة إليه وكأنه بمثابة مطرب البوب المشهور ألفيس بريسلي. وفي حال قيام الرئيس بوش بزيارة مماثلة ستكون هناك أيضا جموع غفيرة من المواطنين لكنها متظاهرة ومستنكرة له بحيث ستكون هناك أعمال شغب تستدعي مواجهتها بالغازات المسيلة للدموع.

لماذا كل هذا الاختلاف في طريقة الاستقبال إذا؟ في الحقيقة يعود ذلك جزئيا إلى قرار الرئيس بوش بقصف أفغانستان، وربما قد يقدم على مثل ذلك القرار فيما يخص العراق. وهذه في مجملها قرارات مثيرة لجدل كبير في القارة الأوروبية التي أصبحت مسالمة أكثر من الماضي. لذلك من الممكن أن يحظى رؤساؤنا بترحيب شعبي أكبر لو أنهم لم يجنحوا إلى استخدام ما لدينا من قوة عسكرية، لكن المسألة تتجاوز ذلك بكثير.

لقد نظر العالم إلى الرئيس السابق بيل كلينتون على أنه مثال للتفاؤل الأمريكي - قد يكون تفاؤلا ساذجا إلا أنه تفاؤل. أما فريق الرئيس بوش المتمثل في الرئيس ونائبه ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وكوندوليسا رايس (باستثناء كولن باول) - كانوا قد فاجأوا العالم بأفكارهم التشكيكية المتشائمة وإيمانهم العميق بجدوى استعمال القوة الغاشمة، تماما مثلما كان يفعل الحكام الأوروبيون في القرن التاسع عشر، لذلك يظهر كلينتون بالنسبة لبقية العالم وكأنه جون كينيدي آخر، في حين يمثل الرئيس بوش استمرار لفلسفة توماس هوبز في العصر الراهن. ذلك الرجل المتشائم بعمق من الطبيعة البشرية بعدما تأمل ما عاشته أوروبا من حروب دينية، مما أوصله إلى القناعة القائلة بأن البشر ذئاب تنهش بعضها والقانون الوحيد الذي انتصر بالنهاية في العالم هو قانون العنف. لذا، إن كان هناك شيء تعلمناه من العيش خارج الولايات المتحدة، وهو بالرغم من سخرية بقية الأمم وتهكمها من التفاؤل الساذج الذي يتسم به الأمريكيين، فإنهم يشعرون في أعماقهم بالندم الشديد في حال تخلينا عن تلك الصفة وتبنينا الرؤى المأساوية الأوروبية للتاريخ. ذلك أن تفاؤلنا وإيماننا بطبيعة البشر الطيبة والتزامهم بسلطة القانون لا يعتبر سببا لاكتساب القوة فحسب، بل كمحرك رئيسي للعالم الغربي المتقدم. وبالتالي يمكن إرجاع ما لأمريكا من قوة وما تمثله من إغراء إلى ذلك التفاؤل، المتمثل أساسا في ما حققته من تقدم تكنولوجي، وما عندها من جامعات، واختراع ديزني لاند، وما تنتجه من أفلام، ووثيقة إعلان الاستقلال التي بنيت على فرضية قدرة المستقبل على ردم الماضي.

لذا، لا يعني ذلك أن أي رئيس أمريكي يتسم بالواقعية سيستنتج أن صدام حسين أو كيم يونغ ايل يتسمان بأي طيبة، لأنهما يتسمان بقدر كبير من الشر. وفي المقابل نجد أن رؤساء أمريكيين آخريين مثل جون كينيدي وفرانكلين روزفيلت ورونالد ريغان كانوا قد واجهوا خصوما أكثر شرا من صدام حسين أو أسامة بن لادن بدون أن يتخلوا عن إيمانهم بالتفاؤل الأمريكي وبدون أن يقطعوا تواصلهم مع العالم الخارجي. وهذا بالضبط ما يفتقده فريق الرئيس بوش مما يشكل خسارة كبيرة لهم ولأمريكا. لقد شرح لي ذلك مسؤول ألماني كبير حين قال: «لا تنس أن ما أدى إلى هزيمة الاتحاد السوفياتي كان نتيجة لمزيج من قوة أمريكا الصلبة منها والمرنة. في حين أن ما يدعى بالموقف الأوروبي الواقعي لا يتعدى في الحقيقة أن يكون تعبيرا عن حالة التشاؤم التي أصابت أوروبا نتيجة لما شهدته من حروب دينية طاحنة. لذا وفي حال أصبحت أمريكا مثلنا، سيؤدي ذلك إلى خسارتها لمصدر قوتها الحقيقية وقدرتها على جذب الآخرين إليها. تخيل أنه حتى الذين يكرهونكم هم في الحقيقة منجذبون نحوكم».

ومن جهته تناول المحلل السياسي آرون أزراحي ذلك شارحا كيف أن فريق بوش عن طريق استهزائهم وسخريتهم من مؤسسات دولية كالمحكمة الدولية أو معاهدة كيوتو المتعلقة بالبيئة، أو أي من المؤسسات العالمية الشبيهة إنما «يقدمون نموذجا متعجرفا ومتسلطا ومهووسا باستخدام القوة وحدها مما يلحق ضررا كبيرا بصورة أمريكا التي ألهمت الأوروبيين ودفعتهم للتحرر من الأسباب التي قادت إلى نشوب حربين عالميتين، كما أن من شأن ذلك التصرف أن يشكك في شرعية أمريكا باعتبارها قوة حامية للعدل والنظام الدوليين، وهكذا يصبح من الصعب على أي كان أن يقول بافتخار أنا نيويوركي».

ومن جهة أخرى تبدو الاستراتيجيا التي يتوخاها تنظيم القاعدة كانت قد شجعت على ذلك من ناحيتها، إذ إنها أحالت الأمريكيين إلى شعب من المتشائمين عن طريق مهاجمتها لرموز ومصادر التفاؤل الأمريكيين بدءا بمركز التجارة العالمي ومرورا بملاهي بالي ووصولا إلى الدبلوماسي الأمريكي الذي تم اغتياله مؤخرا في الأردن على يد إرهابيين. من كان ذلك الدبلوماسي؟ هل كان رئيس وكالة المخابرات المركزية؟ طبعا لا. لقد كان رئيس مؤسسة المساعدات الأمريكية في الأردن - لم يكن يمثل جانب القوة الأمريكية - الذي يشكل تهديدا فعليا لهم.

وهكذا يتضح أن الإرهابيين يريدون أن يجبرونا على الانغلاق على أنفسنا ورفض طلبات الحصول على تأشيرات الدخول إلى الأراضي الأمريكية التي يتقدم بها الشبان

المسلمون، مما يجعلنا نتخلى عن الاستمرار في حمل مشعل المثالية الذي آمنا به، بشكل نصبح معه أقل جذبا للآخرين كأسلوب لمواجهة تعصبهم الأصولي القروسطي. وذلك لأن الإرهابيين أدركوا ما لم يدركه السيد بوش، وهو أن قوة أمريكا المرنة- وليس الصلبة- هي التي تشكل تهديدا حقيقيا لهم.

ومما لا شك فيه أننا لا يمكننا الاستمرار في تفاؤلنا الساذج بعد ٩/١١، لكن يجب أن نظل متفائلين مهما كانت الظروف، كذلك يتوجب علينا التوصل إلى أفضل السبل التي تمكننا من الدفاع عن أنفسنا في مواجهة أسلحة الدمار الشامل التي يملكها الآخرون، بدون أن يؤدي ذلك بنا إلى فقدان قوة جذبنا وإغرائنا للآخرين المتمثل في قدرتنا على جعل الآخرين يعتمدون علينا.

٢٠٠٢/١١/٠٦

حاجبا كولن باول

تتعلق هذه المقالة بما آلت إليه السياسة الخارجية والانتخابات. لكن سأبدأ أولا بهذه الحكاية التالية. عندما قمت أخيرا بمقابلة صحفية مع أحد كبار الدبلوماسيين الأوروبيين، الذي شكا لي من عدم توازن سياسة الرئيس بوش المتعلقة بالشرق الأوسط، حين قام بتذكير الفلسطينيين بحقيقة حاجتهم إلى اختيار زعيم جديد، وفي المقابل السكوت التام على تذكير الإسرائيليين بحقيقة حاجتهم إلى تأمين طريقة للخروج من المستوطنات. وعندما ازدادت حماسة محدثي لم أجد بدا من توجيه السؤال التالي نحوه: «كيف سيكون رد كولن باول لو قلت له ذلك؟». حينها قام الدبلوماسي بتقليد السيد باول برفع حاجبيه وهو يقول: «أنتم تعرفون ما أؤمن به، وتعلمون أيضا أني عاجز عن فعل أي شيء بسبب تواجد هؤلاء المجانين العاملين في هذه الإدارة».

لقد فكرت كثيرا في حاجبي كولن باول خلال الأسبوع الماضي. ولكن لنكن صريحين، لم يعد بمقدور الحزب الديمقراطي أن يتمتع بأي قوة مؤثرة في تسيير السياسة الخارجية للولايات المتحدة، إلا إذا أقدم على تغييرات جذرية بين صفوفه، وهذه ظاهرة غير صحية، لأنه لا يمكننا أن نتبع سياسة خارجية سليمة بدون أن تكون هناك معارضة داخلية ذكية تعمل على إطلاع الشعب على ما يجري بنزاهة. وبعد أن غاب الديمقراطيون عن الساحة، أصبح المعارضون الحقيقيون في مجال السياسة الخارجية هم

«ديمقراطيو الأمر الواقع»، ممثلين في شخص كولن باول والسيناتور جون ماكاين ورئيس وزراء بريطانيا توني بلير. إذ ارتفعت أصوات هؤلاء دون غيرهم معارضين للعديد من مبادرات الرئيس بوش فيما يتعلق بالسياسة الخارجية ربما قد يؤدي ذلك إلى تهدئة اندفاع الرئيس بوش وحمل جمهور المواطنين على تغيير آرائهم وهذا لا ينطبق على أي من الديمقراطيين اليوم.

أظهرت الانتخابات الأخيرة مدى عمق الجرح الذي أحدثته أحداث ٩/١١ ومدى هشاشة النفسية الأمريكية. وكما قال ديفيد ماكوفسكي، من معهد واشنطن: «بالإضافة إلى فشل الديمقراطيين في إيجاد تشكيلة متنوعة من السياسات البديلة المختلفة عن سياسة الرئيس بوش، فهم فشلوا أيضا في إقناع عامة الأمريكيين بجدية بأنهم قادرون على التعامل مع العالم الخارجي مثلما هو اليوم». هذا عالم يعجّ بالإرهابيين والدول المارقة المصممة على تدميرنا بدون تردد أو تراجع. كما أن المتشددين العاملين مع بوش لا يدركون حقيقة أن العديد من الناس سواء هنا في الداخل أو في الخارج لا يؤمنون بأنهم- أي فريق بوش- غير مستعدين للعمل على جعل العالم مكانا أكثر أمانا كما أنهم لا ينوون تغيير أي شيء في الوضع القائم. لذلك أصبح وجود ديمقراطيي الأمرالواقع ضروريا في المستقبل بحكم أن العديد من المواطنين يرون العالم كما هو اليوم ولكنهم يبذلون جهودهم من أجل أن يصبح مكانا أفضل، وهذا هو جوهر العقيدة الأمريكية الحقيقية.

لقد ضغط السيد باول والسيد بلير من أجل الحصول على موافقة الأمم المتحدة قبل أن يتم غزو العراق، مما أغضب المتشددين في الإدارة الحالية لأنهم يخشون ألا يتوصل المفتشون الدوليون إلى اكتشاف أي أسلحة عراقية محظورة بشكل يجعل العراق ينجو من تعرّضه للغزو. فمن الممكن هنا مقارنة فرضية امتثال صدام لقرارات الأمم المتحدة بإمكانية امتثال مايك تايسون للعلاج من أجل التحكم في ما ينتابه من غضب. لذا يمكن أن يكسب السيد بوش الكثير من التأييد الشعبي عن طريق تمرير قرار الحرب عبر بوابة الأمم المتحدة. وهكذا أثبتت نصيحة ديمقراطيي الأمر الواقع جدواها وحبذا لو تتكرر الحالة باستمرار. كما أني أشعر بالفرح بسبب ما قمنا به الأسبوع الماضي حين أطلقت طائرة حربية صواريخ أودت بحياة خلية كاملة تابعة لتنظيم القاعدة في اليمن، لأنه أحيانا لا يمكن تحقيق العدالة إلا بتلك الطريقة، وكذلك لأننا في مواجهة اليوم مع الشارع العربي والدهليز العربي. أصبح استعمال مثل تلك الطائرات الحربية ضروري للقضاء على الإرهابيين المتشددين الذين انسحبوا من الشارع ولجأوا إلى الدهاليز

مبتعدين عن أي أسلوب دبلوماسي وملتزمين بالعنف. لكن المشكلة هي أننا إذا لم نقم بإغلاق الممر الفاصل بين الشارع والدهليز عن طريق الدبلوماسية، فإننا لن نستفيد كثيرا من اغتيال أربعة أشخاص، لأنه سيكون هناك من هم مستعدون فورا على الحلول محلهم.

لقد كان السيد باول دائما مدركا أفضل من بقية المتشددين العاملين معه (الداعين إلى عدم الاعتداد بالرأي العام والمعاهدات والمؤسسات، لأن السياسة الخارجية تقوم حسب وجهة نظرهم على استعمال القوة الأمريكية الصرفة)، بأن الطائرات الحربية الأمريكية ضرورية لكنها ليست ذات فاعلية كبيرة. ولا يقتصر الأمر على تقديم المساعدات الغذائية للشارع العربي أو الأوروبي أو الشيشاني، وفي حال أنك تجاهلت تطلعاتهم المشروعة، تكون قد دفعت بهم إلى ملء الدهاليز بأفراد أشد خطورة. وإذا اقتصر التعامل مع العالم الخارجي على منطق القوة وحدها، فإننا سنكون في مأزق كبير.

أما الصراع الحقيقي الذي ستشهده أمريكا، فإنه سيدور بين أولئك الذين يتعاملون مع العالم كما هو، وبين أولئك المتعاملين مع العالم كما هو لكنهم راغبون وجادون في العمل على جعله مكانا أفضل. وإلى أن يتمكن الديمقراطيون من إقناع الشعب الأمريكي بأنهم يدركون فعلا حقيقة ما يدور في العالم، علينا أن نعتمد على ديمقراطيي الأمر الواقع للقيام بذلك. وذلك يعني أنه يتحتم على السيد باول أن يتمسك بمواقفه أكثر، وفي حال أنه نجح في ذلك رفقة حلفائه، عليهم حينها أن يقوموا بما هو أكثر من رفع حواجبهم.

١٠/١١/٢٠٠٢

ضوء في النفق

بدا العالم يوم الجمعة الماضي، ولو لبرهة قصيرة مشرقة، خاليا من الجنون في اللحظة التي رفع فيها أعضاء مجلس الأمن الخمسة عشر أياديهم تأييدا لمشروع قرار يطالب العراق بالامتثال لعمليات التفتيش غير المشروطة لمستودعات أسلحته، تحت طائلة تعرضه لعواقب وخيمة في حال عدم امتثاله. كانت تلك أول لحظة أشعر فيها بالأمل منذ أحداث ٩/١١، لأنها كانت المرة الأولى التي يعبر فيها العالم عن استعداده

لتجاوز كل اختلافاته الثقافية والدينية وتوجهاته الاستراتيجية من أجل فرض قانون كوني موحد- يقوم على فكرة عدم التسامح مع بلد غزا دولة مجاورة له وتحدى قرارات الأمم المتحدة التي طالبته بنزع ترسانته من أسلحة الدمار الشامل. لقد صدر ذلك القرار في عام انتشر فيه فيروس «أنا أكرهك» في مختلف أصقاع الأرض، عام تميز إما بغضب الجميع ضد الجميع، أو محاولة كل واحد أن يحذر غيره من الناس بأن يلزموا حدودهم وينسحبوا جانبا؛ «على المسلمين أن يلزموا حدودهم» و«يلزم اليهود حدودهم» و«يلزم المسيحيون حدودهم». وما على المرء إلا أن يبتهج لحدث كهذا.

لكن كيف حدث هذا بالضبط؟ تتمثل الإجابة الموجزة والمباشرة في اكتشافنا لأمر مدهش خلال هذا الأسبوع، إذ إنه في عالم تسيطر عليه قوة عظمى واحدة، تصبح هناك أهمية فائقة لمجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة. كما أن كل من فرنسا وروسيا والصين كانوا قد أدركوا هم بدورهم أن أفضل طريقة لتحقيق توازن ما أمام القوة الأمريكية الغاشمة لا يتم عن طريق التحدي المباشر لتلك القوة، بل عبر قنوات الأمم المتحدة. كذلك اكتشف فريق بوش من ناحيته أيضا أن الطريقة المثلى لإضفاء شرعية ما على ما لديهم من قوة ضاربة إنما يتم عبر الأمم المتحدة أيضا وليس عن طريق استخدام تلك القوة في حال أنهم أرادوا شن حرب اختيارية. وكما علق ستيفن كوهين، خبير شؤون الشرق الأوسط حين قال: «في حال كان العالم راغباً حقا في تحقيق نوع من التوازن مع القوة الأمريكية، من دون أن يعادوا أمريكا في الوقت نفسه. يتحتم على تلك الدول أن تقوم بإقناع الولايات المتحدة بمدى جدوى وفاعلية لجوئها إلى الأمم المتحدة التي ستتولى إصدار القرارات الضرورية. كذلك إذا كانت الولايات المتحدة راغبة حقا في مواجهة دول محور الشر، ولكن بدون أن تقوم بذلك بمفردها، ما عليها سوى اللجوء إلى الأمم المتحدة أيضا».

وهكذا في حال غياب مجلس الأمن سنضطر إلى استخدام القوة العارية، وهو أمر أمكن للأمريكيين القيام به في حال شن حرب للدفاع عن النفس مثلما كانت عليه الحال مع أفغانستان، ولكنهم غير مستعدين لتكرار التجربة إذا كانت الحرب اختيارية مثلما هي الحال مع العراق. وبدون وجود مجلس الأمن سيضطر الآخرون إلى مواجهتنا مباشرة من أجل تحقيق توازن ما. وهو أمر جائز فقط في حالة الدفاع عن النفس، ولكنهم سيترددون كثيرا إذا كانت الحرب اختيارية. كما يحتج المتشددون من صقور الإدارة الأمريكية الحالية بأن الرئيس بوش كان قد ارتكب خطأ فادحا بلجوئه إلى الأمم المتحدة، لأن ذلك سيجعل من الصعب اللجوء إلى خيار القوة المسلحة في حال أقدم

صدام على إخفاء أسلحته أو استمر في تحديه للأمم المتحدة. وفي حقيقة الأمر لم يكن ثمة خيار آخر أمام الرئيس بوش سوى اللجوء إلى الأمم المتحدة، كما أن ذلك لا يرجع إلى نزوعه لإرضاء الأوروبيين الجبناء، بل لأنه يتحتم عليه أن يحصل على التأييد الكافي من الشعبين الأمريكي والبريطاني. ومن جهة أخرى قال الشعب الأمريكي لكارل روف ما قاله الشعب البريطاني لتوني بلير من أن هذه الحرب هي حرب اختيارية، ومع إمكانية أن تشكل خيارا مشروعا، إلا أن ذلك لا يعني أنهم راغبون في خوضها بدون الحصول على موافقة هيئة الأمم المتحدة، وتحديدا دون موافقة الأعضاء الدائمين في تلك المنظمة. وذلك نظرا لخطورة ما قد يترتب على تلك الحرب التي ستؤدي إلى احتلال طويل الأمد للعراق وما يصاحب ذلك من جهود جبارة من أجل إعادة إعماره، وتلك عملية لا يكتب لها النجاح ما لم تقم الولايات المتحدة بدور ريادي. ومن جهتهم قام كل من السيد روف والسيد بلير وكولن باول بنقل تلك الحقائق إلى الرئيس بوش الذي برع بدوره في خلق توازن ما بين تهديده للقيام بذلك منفردا وما بذله من جهود دبلوماسية رامية إلى تفادي تلك الفرضية.

ومثلما ذكرت سابقا لقد كانت النتيجة التي حصلنا عليها في نهاية هذا الأسبوع إيجابية ورائعة (إلا إذا كنت صدام حسين) ولكن هل سيدوم هذا الإحساس بالسعادة؟ يتوقف ذلك وبشكل كلي على قدرة الأمم المتحدة وحرصها على تنفيذ قراراتها حتى النهاية. لأن هناك دولاً يمكنها أن تصوت لصالح العراق لأسباب عديدة؛ بعضها من أجل تحقيق توازن ما، والسوريون اشتروا بذلك بوليصة تأمين على حياتهم. ولكي تتمكن مختلف الدول من الوقوف معا من أجل تنفيذ ذلك القرار حقيقة والموافقة على استخدام القوة في حال عدم انصياع صدام واختياره للمقاومة، يجب على هذه الدول أن تكون مؤمنة فعلا بجوهر وروح ذلك القرار. كما أنه يتوجب على الأمريكيين أن يكونوا مستعدين للتراجع في حال امتثال صدام التام واستجابته لكافة الشروط. ويجب أيضاً على الأوروبيين والعرب أن يساندوا ويؤازروا أمريكا، أي إخلاء الطريق من أمامها حتى تتولى هي أمر صدام في حال عدم امتثاله.

لقد كانت فعلا لحظة مفاجئة. لا بد أن تكون هناك قوى جبارة قد بذلت جهودا كبيرة من أجل التوصل إلى مثل ذلك القرار، خاصة وأن الولايات المتحدة كانت قد عبّرت عن ريبتها في مدى فاعلية وجدوى المنظمة الأممية، هاهي وقد انتهى بها المطاف تبعث في المنظمة روحا جديدة. أما تلك الدول التي كانت متخوفة من النزعة الانفرادية الأمريكية مثل الصين وفرنسا وروسيا والدولة التي بالكاد لم يقع إدراجها ضمن قائمة

دول محور الشر ألا وهي سوريا، انتهى الأمر بتلك الدول إلى إضفاء صبغة شرعية على التهديد الأمريكي، إن لم نقل على استخدام القوة الأمريكية. إلا أني أتساءل عما سيحدث الأسبوع المقبل.

٢٠٠٢/١١/١٣

حلف الناتو الجديد

على من أراد أن يقف على حقيقة ما أنجزته الولايات المتحدة من تفوق عسكري على بقية حلفائها، فضلا عن أعدائها، عليه أن يقرأ المقالة الرائعة التي نشرتها مجلة «أتلانتيك مانثلي» في عددها الأخير والتي أعدّها الصحافي مارك باودن وشرح فيها بالتفصيل الحرب الجوية على أفغانستان. فقد عرض مشهدا واحدا يلخص فيه الموضوع بالكامل، عندما تحدث عن طلعة جوية للمقاتلات من طراز أف ١٥ الأمريكية من أجل قصف قافلة شاحنات تابعة لحركة طالبان. كانت القبطانة المساعدة المختصة بالقصف المدفعي الجوي امرأة. وقد وصف السيد باودن الذي أتيح له الاستماع إلى ما يجري من اتصالات بين الطيارين، كيف أن تلك المرأة وبعد أن استطاعت تحديد موقع القافلة، أطلقت عن طريق نظام موجه بالليزر قنبلة تزن ٥٠٠ باوند (٢٢٥ كلغ تقريباً) على رأس تلك القافلة التي اكلتها النيران على الفور. وبينما كان الدخان يتصاعد من بين الركام صرخ قائد الطائرة في الضحايا وكأنهم قادرون على سماعه من على ارتفاع ٢٠٠ ألف قدم قائلا: «لقد قتلتكم امرأة».

كنت أفكر في ذلك المشهد وأنا أراقب الاستعدادات الحثيثة من أجل عقد قمة لحلف الناتو في مدينة براغ التشيكية الأسبوع المقبل، بحيث سيتم توسيع لائحة الأعضاء من ١٩ حاليا إلى ٣٦ بإضافة كل من لاتفيا وليتوانيا وإستونيا وبلغاريا وسلوفاكيا وسلوفينيا ورومانيا. كما أني تساءلت عن عدد النساء اللاتفيات اللواتي يقدن طائرات الأف١٥، بل وفي الحقيقة تساءلت عن عدد النساء الدانماركيات أو الإسبانيات القادرات على ذلك. لا أعتقد أن هناك أي إمرأة. وربما هذا هو السبب الرئيسي وراء عدم اعتراضي على فكرة توسيع الحلف. لأنه وكما لاحظنا خلال الحرب الأفغانية، هناك فرق شاسع يفصل الولايات المتحدة عن بقية أعضاء الحلف مما يتطلب منهم الإقبال على عملية تحديث واسعة وزيادة الإنفاق في المجال العسكري، لأن هؤلاء الأعضاء لم يعودوا قادرين في الواقع على المحاربة جنبا إلى جنب مع الولايات

المتحدة في أي مكان وفي أي زمان. لذلك لا حرج في السماح للجميع بالانضمام.

ومن ناحيته تحدث مايكل ماندلباوم، مؤلف كتاب «الأفكار التي حكمت العالم» عن ذلك فقال: «أصبح حلف الناتو الآن وكأنه نادٍ يرمي إلى دعم التوجه الديمقراطي في دول أوروبا الشرقية والوسطى التي عاشت طويلا تحت قبضة حكومات متسلطة طوال فترة الحرب الباردة». وبالفعل أصبح الحلف الآن وكأنه تنظيم «أوتوقراطي خفي الاسم»، متكون من كل تلك الدول الاستبدادية سابقا في شرقي ووسط أوروبا، بحيث إنهم سيتدارسون مشاكلهم المشتركة التي تواجههم كديمقراطيات حديثة النشأة. وهكذا أصبح الناتو يشبه دايل كارنيجي أكثر مما يرمز إلى كلاورفيتز، مما يعني أن نادي الناتو لم يعد ذا قوة قتالية جدية، والبنتاغون يعرف ذلك مما يفسر عدم دعوته للمشاركة في القتال في أفغانستان ومن المتسبعد أن تتم دعوته للقتال في العراق أيضا.

لكن يجب ألا نغفل وجود أسباب أخرى دعت إلى تجاوز الأمريكيين للحلف وهي أنه لم تقع الاستعاضة عن الناتو القديم كحلف عسكري بتوسيعه فقط، بل لقد تم خلق حلف جديد مغاير تماما. إن الناتو الجديد يتكون أساسا من ثلاثة حلفاء ناطقين بالإنجليزية ومتقاربين في تفكيرهم؛ أمريكا وبريطانيا وأستراليا، إضافة إلى فرنسا كشريك لحفظ السلام فقط وذلك حسب طبيعة الحرب. أما ما يجمع بين هذه الدول الرئيسية الأربع هو امتلاكهم لقوات بحرية خبيرة في خوض الحروب في الخارج وقدرتهم على نقل قواتهم العسكرية ووحدات الكوماندوس الخاصة ذات القدرة القتالية الفائقة إلى مختلف مناطق العالم، وهو ما نحتاج إليه للتغلب على ما يحيق بنا من تهديدات اليوم. ووفقاً لما لاحظه مسؤول أوروبي فإن هذه الدول الأربع إما تمارس لعبة الريكبي وإما كرة القدم الأمريكية، وهي ألعاب رياضية عنيفة يتوقف تحقيق الفوز فيها على ما تلحقه من أذى بالفريق الخصم. لذلك يجب إدراج هذا الشرط مسبقا من أجل التأهل للحصول على عضوية في الناتو الجديد الذي يجب تسميته بناء على ما تقدم ذكره «الأمم المتحالفة لوقف الطغاة» أو ناستي. وإذا تحدثت مع جنود البحرية التابعين للأسطول الخامس الأمريكي المتمركز في الخليج العربي سيخبرونك كيف أن معظم المهربين والقراصنة الموجودين هناك يتم اكتشافهم حين يستلم الأستراليون دورية الحراسة الشهرية لمراقبة الملاحة، ويرجع ذلك إلى خبرة سلاح البحرية الأسترالية في الكشف عن العصابات واللصوص. والشيء نفسه ينطبق على الفرنسيين الذين يتمتعون بدورهم بسمعة مماثلة في هذا الميدان، بالرغم من أنهم يدفعونك إلى حافة الجنون أحيانا خاصة إذا تعلق الأمر بمسائل غير ذات أهمية البتة، ولكن حين يجد الجد تجدهم دائما هناك. وكما قال أحد

المسؤولين الأمريكيين في معرض وصفه لهم «إن الفرنسيين أصدقاء الضيق وخبرة جنودهم مشهود لها».

وهكذا، بالرغم من أن وحدات الناتو لم تتمكن من القتال جنبا إلى جنب مع قوات ناستي، إلا أن بإمكانها أن تقدم يد العون إن سمحت لها ظروف الحرب بذلك. فلكلّ من تلك الدول اختصاص معين، كالألمان فيما يتعلق بالحرب الكيمياوية أو الوحدات البولندية لحفظ السلام أو فرقة إزالة الألغام الإسبانية، لقد أصبح هؤلاء حلفاء عند الطلب يقومون بمهمات ليس لناستي الوقت الكافي أو الطاقة الكافية لأدائها.

وفي الواقع، وبعد أن تنتهي مراحل توسيع الناتو في بروكسيل، أتصور أن من يتصل بمقر القيادة هناك سترد عليه آلة تسجيل كالآتي: «أهلا بك في مقر الناتو. إذا كنت تريد مساعدة من أجل تعزيز ديمقراطيتك اضغط على الرقم ١. وإذا كنت تريد إزالة ألغام اضغط على الرقم. ٢ وإذا كنت تريد الحصول على شاحنات مضادة للأسلحة الكيمائية اضغط على الرقم. ٣ أما إذا كنت ترغب في خوض حرب حقيقية، يرجى منك أن تبقى على الخط حتى يتمكن موظف ناطق بالإنجليزية من مساعدتك».

٢٠٠٢/١١/١٧

مجنون الحي

سيول، كوريا الجنوبية

أحسن طريقة لفهم طبيعة المشكلة مع كوريا الشمالية هي أن نتصور حيا صغيرا يقوم أحد ساكنيه العاطل عن العمل والمشاكس بتسييج منزله بالديناميت، ثم يقوم بتهديد جيرانه ويطالبهم بأن يطعموه يوميا وجبات صينية جاهزة ويدفعوا فواتير التدفئة، وإلا فإنه سيقوم بتفجير منزله وبقية منازل الحي معه. ويصادف أن يكون منزل الشرطي المحلي الذي ينادونه بالعم سام تحببا في الطرف الآخر من المدينة مما يجعله في مأمن من أي خطر. لذلك وفي معرض تجواله في الحي ينصح بقية الساكنين بألا يرضخوا لابتزاز جارهم ذاك ومن ناحيتهم يرد عليه الساكنون بما يلي: «من السهل جدا عليك أن تقول لنا ذلك، لكننا مضطرون إلى العيش قرب هذا الرجل».

ما يثير دهشة الزائر القادم من واشنطن إلى كوريا الجنوبية، هو التناقض بين الحالة شبه الهستيرية التي تنظر بها واشنطن إلى كوريا الشمالية خاصة بعد أن كشفت هذه

الأخيرة عن برنامجها النووي السري الذي يشكل خرقا واضحا لمعاهدة الحد من نشر الأسلحة النووية التي وقعت عليها كوريا الشمالية سنة ١٩٩٤، وبين حالة عدم الاكتراث الكلي التي يتعامل بها الكوريون الجنوبيون مع تلك الأخبار، والذين تعايشوا بدورهم مع التهديدات التي تطلقها كوريا الشمالية على مدى عقود عديدة، وبعد مرور خمس سنوات على استئناف تعاملهم مع الشماليين تبين لهم بجلاء مدى الفقر المدقع الذي يعاني منه هؤلاء. لذلك نجد اليوم الكثير من الجنوبيين ينظرون إلى النصف الشمالي باعتبارهم يجسدون حالة جنون لا أكثر وبالتالي فهم لا يشكلون أي خطر استراتيجي على الإطلاق. ويجوز أنهم في الحقيقة لا يأخذون تلك التهديدات على محمل الجد أو أنهم يعتقدون أن الولايات المتحدة ستتولى أمر الرد عليها في آخر الأمر. صحيح أن هذا الأسلوب موغل في خداع النفس، إلا أنه أسلوب شائع بكثرة هنا، إلى الدرجة التي يتساءل فيها الكثير من الجنوبيين عن السبب الذي يدفع بالولايات أن تستأسد على كوريا الشمالية، وذلك حسب ما قالته لي مذيعة تلفزيونية جنوبية قامت بمحاورة العديد من المواطنين هناك.

وقد قال رئيس الوزراء الأسبق لي هونغ كو ما معناه: «لا أحد يتذكر الحرب الكورية سواء أكان جيل الشباب أو أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين ٣٠ و٤٠ سنة. وذلك لأنهم يشكلون بالفعل جيل ما بعد الحرب. وبالتالي لا تشكل كوريا الشمالية الدرجة نفسها من الخطورة بالنسبة لهم، كما أنهم لا يرون أي معقولية في شن حرب جديدة. ولكن الأمر يختلف تماما مع الجيل الأكبر سنا لإيمانهم بقدرة الشيوعيين على الإقدام على أعمال غير مقبولة».

وإلى الآن فاق عدد الجنوبيين الذين حدثوني عن المشجعين الشماليين الحاملين ليافطات بيضاء الذين رافقوا فريق بلادهم المشارك في تصفيات الدورة الآسيوية لكرة القدم التي استضافتها كوريا الجنوبية، أكثر من عدد الذين حدثوني عن الخطر النووي الجديد. وبالرغم من أن كوريا الجنوبية تخوض حاليا حملة انتخابات رئاسية، فلا يكاد المرء يسمع أي ذكر لـ«الأزمة النووية»، وربما يعود ذلك ولو جزئيا إلى خشية أغلب المرشحين من أن يتهموا بإخافة المستثمرين الأجانب. وفي معرض وصفه للجزء الشمالي قال شونغ إن مون، الخبير في الشأن الكوري بجامعة يوسي ما يلي: «تشبه كوريا الشمالية صندوق باندورا العجيب، ولا أحد يعرف ما سيحدث عندما سيفتحه، لذلك يرجى توخي الحذر الشديد».

وفي حال أننا أخذنا بالاعتبار مجمل هذه الآراء الكورية، بالإضافة إلى كل من

الصين وروسيا واليابان التي تشترك جميعها في أنها تتجنب الدخول في أي مواجهة مع الشمال، مما يجعل الخيارات السياسية أمام الولايات المتحدة محدودة جدا. لكن لا يجوز أن نغفل عن حقيقة أن الاستراتيجيين الجادين في كوريا الجنوبية يثمنون غاليا موقف الرئيس بوش المتشدد. وفي هذا الخصوص يقول تايوو كيم، الخبير بالمعهد الكوري للتحاليل الدفاعية ما يلي: «تفتقد كوريا الجنوبية بمفردها القوة اللازمة التي تخولها أن تفرض تغييرا في تصرفات الشماليين، وحدها الولايات المتحدة قادرة على تحقيق ذلك»، لذلك يرغب المخططون الاستراتيجيون الجنوبيون في أن يسمع أقرانهم الشماليون بموقف الرئيس بوش المتشدد حيالهم، ولكنهم في الوقت ذاته لا يريدون منه أن يتصرف بناء عليه. بل يريدون من أمريكا أن ترفع عصاها الغليظة وتترك لبقية الحلفاء مهمة التحدث بلطف.

ويبدو أن الجميع متفقون على اتباع هذه الاستراتيجيا التي يمكن تسميتها باستراتيجيا «جمد وتحدث». وهكذا نجد أن الرئيس بوش قام بتجميد شحنات النفط التي تحتاج إليها كوريا الشمالية للتدفئة أثناء فصل الشتاء، كعقاب لها على مضيها في برنامجها النووي السري، وفي الوقت نفسه أعلنت كل من الولايات المتحدة وطوكيو وسيول عن استعدادها لمساعدة كوريا الشمالية في حال أنها تخلت عن برنامجها النووي.

إذاً، كم مرة سنقوم بشراء هذا السجاد؟ مرات عديدة أكثر مما كنا نتصور. من المؤكد أن العديد من الصقور في إدارة بوش يفضلون مهاجمة كوريا الشمالية، لكن المشكلة هي أن جيرانها غيرموافقين بالمرة على ذلك، وفي المقابل يرون أن الحل الأفضل للتعامل مع دولة مثل كوريا الشمالية مدججة بالسلاح وفاقدة لصوابها وغير مستعدة للتنازل عن قدراتها النووية تحت أي ظرف يتمثل في التقليل من قدرتها التدميرية. وكل ما هو ممكن القيام به في مثل هذه الحالة هو العمل على الحد من برنامجها النووي مقابل توفير الغذاء، وتوسيع التعامل التجاري والاستثمار، حتى تتمكن من الخروج من حالة الفقر المدقع الذي تعيشه. وأثناء القيام بذلك يجب أن نحتفظ بفكرة الحد من الخسائر عندما تنهار تلك الدولة.

إن دولة فاقدة لصوابها مثل كوريا الشمالية لا مصير لها سوى الانهيار، وبقدر ما تكون أسلحتها النووية قليلة عندما تنهار بقدر ما يكون عدد الجياع من بين مواطنيها قليلا، بقدر ما نتجنب النتائج الكارثية التي تنتج عن انهيارها. وهذه هي كل خيارتنا حاليا.

٢٠/١١/٢٠٠٢

جدران تقام وأخرى تزال

نقطة الدورة للمراقبة، كوريا الجنوبية

زرت في الأسابيع الثلاثة الأخيرة اثنين من أشهر الجدران في العالم المعاصر، جدار برلين في ألمانيا والجدار الأخضر في كوريا المعروف أيضا بالمنطقة المنزوعة السلاح الفاصلة بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية. ترجع تسمية الجدار الأخضر إلى انعدام أي نشاط إنساني على طول ١٥٥ ميلا هي المسافة الفاصلة بين البلدين خلال الخمسين سنة الأخيرة، بحيث إن الغابات والأنهار هناك أصبحت من أكثر المحميات الطبيعية في العالم غنى، مسكونة بالغزلان والصقور والفراشات. حتى أن المترجم الكوري المرافق روى لي كيف أنه كان يعمل طباخا في الجيش الكوري، وكانت وحدته متواجدة هنا، وحدث أن خنزيرا بريا أصيب بلغم أرضي قام جنود وحدته العسكرية بسلخه وطهيه، «كانت ألذ وجبة أكلتها في حياتي»، قال المترجم مستذكرا.

لكن هذه المقالة لا تتعلق بالطبخ، فزيارة معالم مختلفة في فترة وجيزة تدفع بالمرء إلى الوقوف على الاختلافات بين أهم ثلاثة جدران موجودة في العالم اليوم ألا وهي جدار برلين الذي تمّ هدمه والجدار الكوري الذي لا زال قائما وجدار الخوف في الشرق الأوسط الذي تنوي إسرائيل تشييده لتعزل نفسها عن العرب.

الجميل في جدار برلين هو أنك بالكاد تلحظ أي من مخلفاته، عدا ذلك الممر المكون من القرميد الرمادي الذي يشق برلين الموحدة، ويرجع الفضل في هدم ذلك الجدار سلميا إلى قرار بعدم استخدام القوة العسكرية ضد إرادة الألمان الراغبين في اللحاق بالعالم الحر وتوحيد بلدهم. كما أن السهولة في تهديم جدار برلين ترجع أيضا إلى أن أهل مدينة برلين من كلا الجانبين هم من قام بعملية الهدم. جدران هدمت من قبل ناس مصصمين على إزالتها، وهكذا بدل أن يرمز إلى برلين بالجدار أصبحت اليوم تعرف بالنفس الحر لأولئك الذين هدموه وبما شيدوه من معالم هندسية معمارية جديدة ومتاحف وحدائق.

للأسف لم يحظ الجدار الأخضر بحظ مماثل، إذ لا زالت المنطقة المنزوعة السلاح قائمة كما هي منذ أن تم تشييدها قبل خمسين عاما إثر انتهاء الحرب الكورية، لأن الكوريين الشماليين غير قادرين على البقاء بدون ذلك الجدار، ولأن الرئيس الكوري

كيم جونغ ايل يدرك جيدا أنه بدون ذلك الجدار الأخضر، سيعجز عن حماية نظامه من شعبه، وأنه بدون معسكرات الاعتقال والألغام الأرضية والجيش الكبير سينجرف الكوريون الشماليون نحو الجنوب كالسيل العارم. وما هو مثير للإعجاب أن كوريا الجنوبية وبالرغم من أنها كانت مهووسة بالجدار الكوري على مدار عقود عديدة، رفضت أن يتم تعريفها عن طريق ذلك الجدار، وقرروا أن يركزوا على الموانئ البحرية التي ربطتهم تاريخيا بالعالم بدلا من الجدار الذي يفصلهم عن الشطر الشمالي. وكانت النتيجة أنهم وبعد أن خصصوا كل طاقاتهم للتصدير والاتجار لتتعافى نهائيا من الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالدول الآسيوية سنة ١٩٧٧، حيث إنها أصبحت تحوز اليوم رابع أكبر احتياطي عالمي من العملة الصعبة. وهذا هو السر الحقيقي وراء قوة كوريا الجنوبية التي كانت لا تختلف كثيرا عن الشطر الشمالي أيام هوسها بالجدار الفاصل، حين كان حكامها من العسكر شأنهم في ذلك شأن الشماليين، والأمر نفسه ينطبق على حجم القوة العسكرية لكلا البلدين، لقد كان هناك نوع من التوازي الفج قائما بينهما. ولكن بمجرد أن شعر الجنوبيون بشيء من الثقة بأنهم قادرون على إحراز النصر في أي نزاع مسلح، ويتمتعون بشيء من الرفاهية بشكل يسمح للديمقراطية أن تنتعش، حينها اختل الميزان كليا لصالحهم. وقد مالت كل شبه الجزيرة الكورية في اتجاه واحد، إلى درجة أن أهم طرح سياسي في الجزء الجنوبي يدور حول كيف يمكن إنجاز الوحدة حسب شروطهم، ويُرمز إلى ذلك بالطريق السريع ذي الأربعة خطوط التي تربط بين سيول والمنطقة المنزوعة السلاح التي تنتظر أن ترجع إليها الروح بمجرد أن تتحقق النهاية المحتومة للنظام الشمالي.

وهنا يجدر بالعرب والفلسطينيين أن ينسجوا على منوال كوريا الجنوبية ويرفضوا بأن تتم الإشارة إليهم بالمناطق المنزوعة السلاح، فقد كان لديهم غورباتشيف الخاص بهم، ممثلا في شخص أنور السادات الذي حاول على هدم جدار العداء بينه وبين إسرائيل حين أعلن «لا حرب بعد اليوم» ولننصرف للقيام بشيء آخر. ولكن الكثير من العرب رفضوا الإنصات إليه، رافضين بذلك فكرة هدم جدار العداء الذي شيدوه ضد إسرائيل وضد أمريكا أخيرا إلى أن انقلب إلى جدار يعزل بين العرب والحداثة. وبقدر ما يطول بقاء جدار العداء العربي بقدر ما يضعف ذلك من موقف الأغلبية من المعتدلين الإسرائيليين ويقوي من موقف الأقلية الإسرائيلية المتشددة. لقد آلت العلاقات الإسرائيلية- الفلسطينية إلى ميدان القتال بدون أن تكون هناك منطقة منزوعة السلاح. كذلك لجأ الإسرائيليون إلى حماية أنفسهم عن طريق تشييد جدار حقيقي من الإسمنت،

ولكن بناء جدار بدون أن تكون هناك حدود متفق عليها من كلا الجانبين لن يحقق الأمن. وفي متحف المنطقة المنزوعة السلاح هنا، بأنه آخر الجدران في العالم، على المرء أن يتمنى لو كان ذلك صحيحا.

٢٠٠٢/١١/٢٤

عراق «سدوم» حسين

لقد بدأ المفتشون التابعون للأمم المتحدة عمليات التفتيش للعديد من المصانع والمنشآت العسكرية العراقية. لا داعي للاهتمام لأنهم لن يعثروا على أي شيء. يبدو أن الغاية من وراء هذه المغامرة التفتيشية هي التأكد مما إذا كنا سننتهي بإعلان الحرب على العراق، بعد أن تنقلب مهمة هؤلاء المفتشين من التفتيش داخل العراق إلى النظر فيمن سيستجوبون خارج العراق، وأي من الأشخاص قادر على الكلام. وهكذا سيتوقف مصير العراق على ما نصّت عليه الفقرة الخامسة التي لم تحظ بأي انتباه من قرار الأمم المتحدة رقم ١٤٤١. وعلى ما يبدو فإن من صاغ هذا القرار كان قد تعلم كثيرا من عمليات التفتيش السابقة في العراق، بحيث إنهم أصبحوا يعرفون أن صدام صاحب خبرة في إخفاء لعبه الحربية، خاصة بعد مرور أربع سنوات بدون أن يتعرض إلى تفتيش، من المحتمل جدا أنه ردم كل شيء مهم عنده تحت المساجد والمقابر. وبالتالي فالطريقة الوحيدة التي تؤهلنا لاكتشاف أي شيء مهم في العراق هو في حال قيام مسؤول عراقي أو عالم من داخل الحلقة الضيقة بإرشاد الأمم المتحدة على مكان وجود تلك الأسلحة. وهذا ما يفسر إصرار أعضاء مجلس الأمن على إدراج الفقرة الخامسة- التي عارضتها في البدء- والتي جاء نصها كما يلي: «على العراق أن يسمح لمفتشي الأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية... بالدخول الفوري بدون قيد أو شرط، وأن يسمح بمقابلة أي مسؤول أو أي شخص آخر تريد هيئة الأمم المتحدة أو الوكالة الدولية للطاقة الذرية استجوابه في المكان أو الطريقة التي تناسب أي من كلا الهيئتين وفقا لما يتماشى وتحقيق ما أنيط بهما من مهام». لذلك بإمكان أي من هاتين الهيئتين الدوليتين أن «تقوم باستجواب أي كان داخل أو خارج العراق، وأن يسهلا سفر أي شخص رفقة أفراد عائلته يريدان استجوابه خارج العراق، و... يمكن إجراء هذه الاستجوابات بدون حضور أي ممثل عن الحكومة العراقية». وبعبارة أخرى بإمكان رئيس المفتشين الدوليين هانس بليكس أن يستدعي أي جنرال أو عالم عراقي للسفر خارج العراق واستجوابه ليكشف

عما يعرف. وفي حال أن ذلك المسؤول خاف على سلامته فإن الولايات المتحدة ستعطيه وأفراد عائلته بطاقات الإقامة الدائمة - غرين كارت - وتتكفل بنفقات معيشتهم. ولم لا؟ وكما قال مسؤول كبير في البنتاغون: «يسعدني أن أتحمل جزءا من تلك النفقات، لأن ذلك سيكلفنا لا شيء تقريبا مقارنة بما سنتكبده من مصاريف فيما لو اضطررنا للدخول في حرب بحثا عن تلك الأسلحة».

لكن هناك نقاط ضعف تبعث على الخوف، أولها أن السيد بليكس، وكأحد قدماء الوكالة الدولية للطاقة الذرية وبالرغم من أن الأمم المتحدة منحته سلطات واسعة، فإنه غير مرتاح إلى هذه المهمة بحسب مسؤول كبير في منظمة الأمم المتحدة. وذلك لأن مجمل الإجراءات الرقابية التي تقوم بها الوكالة والثقافة السائدة فيها لم تكن في أي يوم من الأيام ذات طابع تحقيقي وهي ليست كذلك في معظم البلدان حيث تقدم الدولة المضيفة على توفير كافة أشكال التعاون اختياريا. فلا السيد بليكس ولا الأمم المتحدة بمتعودين على اعتماد هذا الأسلوب «العدواني والعدائي» الذي سيؤدي بنجاعة إلى تعاون المسؤولين العراقيين على حد تعبير مسؤول أمريكي. ولذلك ليس من المؤكد أو الواضح متى - أو إذا كان - سيلجأ السيد بليكس إلى أسلوب الاستجواب.

وهنا يبرز دور الولايات المتحدة التي يجب أن تجبر هيئة الأمم المتحدة على أن تضع قدميها في النار عن طريق اتباع أسلوب الاستجواب، وكما قال أحد كبار المسؤولين في الإدارة الأمريكية «المفتاح هو العثور على منشق كطريقة وحيدة للعثور على أي شيء». ولكن هذا يقودنا إلى المسألة الثانية التي تتمثل في سؤال أخلاقي أكثر عمقا، أي هل هناك أندريه ساخاروف عراقي؟ هل هناك عالم عراقي واحد أو مسؤول عراقي يتوق ويتلهف إلى رؤية بلاده تنعم بالحرية بشكل يدفعه إلى التعاون مع الأمم المتحدة عن طريق التبرع بإجراء الاستجواب والكشف عن مخبأ تلك الأسلحة؟

إن نجاح عمليات التفتيش يتوقف على إرادة شخص واحد يريد أن يفضح صدام ويضع حدا لكل ترهاته بشكل لا يتعرض معه ذلك الشخص ولا بقية أفراد عائلته إلى أي خطر. بالإمكان إخراج أي شخص خارج العراق لولا وجود صدام هناك. كما أن هذا يدلنا على حقيقة رغبة العراقيين أنفسهم في تحقيق الحرية وبناء مستقبل مغاير.

تساءل حول ذلك خبير شؤون الشرق الأوسط ستيفن كوهين، بقوله: «في السنة الماضية شاهدنا عربا متطرفين جازفوا بحياتهم من أجل مهاجمة غيرهم، فهل هناك ديمقراطي عربي واحد مستعد أن يجازف بحياته من أجل إنقاذ بلده؟ لنتذكر كل الرافضين

من الروس الذين تعرضوا للاعتقال، وننظر إلى كل الإصلاحيين في إيران الذين يحتجون يوميا رغم علمهم المسبق بما سوف يتعرضون له من اعتقال أو أحكام بالإعدام. نحن هنا أمام وضع يشبه ما عاشه (سيدنا) إبراهيم حين أمره الرب بعدم تدمير مدينة سدم في حال أنه وجد فيها عشرة رجال صالحين. هل هناك عشرة رجال عراقيين رافضين لهم من الجرأة الكافية فقط ليقولوا «كفى يعني كفى» ويهمسوا بالحقيقة لبليكس؟ هل هناك واحد فقط من هؤلاء؟». وبما أنه لا وجود لأي عراقي كهذا، يجب علينا أن نتساءل وأن يتساءل الكثير من العرب معنا قائلين «تحديدا لمصلحة من سنخوض هذه الحرب؟»، وفي حال ظهر عراقي واحد أو عشرة، فلن يقوم أحد بطرح مثل ذلك التساؤل في حال أننا دخلنا في حرب. لذلك علينا أن ننتبه إلى هذا الأمر لأنه يشكل مأساة حقيقية.

٢٠٠٢/١٢/٠١

إصلاح إسلامي

بدون أي شك يعتبر ما يحدث في إيران اليوم من أهم النزعات الشائعة في العالم الإسلامي، مزيج بين مارتن لوثر وما حدث في ساحة تيان آن مين - دعوة إصلاحية إسلامية مصحوبة بحركة ديمقراطية عفوية بزعامة طلبة الجامعات. إذ تواجه هذه الحركة خصما قويا جدا ممثلا في الملالي المتشددين داخل القيادة الإيرانية. كما أنها لا تملك حلا سحريا لإصلاح العلاقات المتدهورة بين الإسلام والغرب. في الحقيقة لا يبدو أن هناك أي حل لذلك. إلا أن لهذه الحركة أهمية فائقة جدا لأنها تعكس الفهم العميق الذي لدى العديد من الإيرانيين المسلمين، أن من بين شروط تقدمهم، وتقدم بقية المسلمين معهم في العصر الراهن، هو حاجتهم إلى إسلام مغاير للأصولية الخالية من الحياة والمعادية للحداثة وللغرب التي فرضت على الشعب الإيراني، والتى يروج لها الأئمة الوهابيون السعوديون. إن هذا الفهم المغاير للإسلام شرط ضروري جدا من أجل الحيلولة دون تحول هذه الأزمة الراهنة القائمة بين الإسلام والغرب - التي فجرتها أحداث ٩/١١- إلى صراع حضارات بين الإسلام والغرب. وبعبارة أخرى يمكن القول إن ما يدور في إيران اليوم هو على وجه الدقة حرب أفكار من داخل الإسلام، وهي من أهم الحروب على الإطلاق. وبالرغم من قدرتنا على قتل أسامة بن لادن وكل من معه، فإن آخرين سيظهرون فورا ويحلوا محلهم. لذلك لا أحد يستطيع استئصال هذه

الجماعات بشكل جذري سوى المجتمعات الإسلامية نفسها، وأن ذلك لا يتحقق إلا إذا خاضت تلك المجتمعات معاركها الداخلية من أجل إجراء الإصلاحات الدينية وتحقيق الديمقراطية. وحدها الجماهير المقهورة داخل الكتلة السوفياتية السابقة استطاعت اجتثاث ماركس. والأمر نفسه ينطبق على الجماهير الإسلامية التي ضاقت ذرعا من سيطرة قوى معادية للحداثة على عقيدتها هي وحدها القادرة على اقتلاع البن لادنية بجميع تفرعاتها.

يمكن تشخيص هذا الصراع الدائر في إيران حاليا في شخص واحد جدير بمعرفته ألا وهو هاشم آغا جاري، الإسلامي الثوري سابقا والأستاذ الجامعي حاليا، الذي تم اعتقاله يوم ٦ نوفمبر/تشرين الثاني وحكم عليه بالإعدام من قبل المتشددين الإيرانيين- مما تسبب في اندلاع الانتفاضة الطلابية- وذلك بعد أن ألقى خطابا طالب فيه بضرورة إجراء عملية تجديدية للإسلام بنفس «بروتستانتي إسلامي». لقد ألقى السيد آغا جاري خطابه ذاك في الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة علي شريعتي، أحد أكثر مفكري الثورة الإيرانية تقدمية، مستهديا في خطابه بعلي شريعتي الذي يعتبره أحد ملهميه، حيث بدأ بالقول: «مثلما حاولت الحركة البروتستانتية إنقاذ المسيحية من رجال الكهنوت ومن الهرمية الكنسية»، على المسلمين اليوم أن يقوموا بعمل مماثل. وقال إن هيمنة رجال الدين على العقيدة لا تؤهلهم لفرض احتكارهم للتفكير الديني ومنعهم لأي تفسيرات جديدة مواكبة لروح العصر. ثم واصل قائلا: «مثلما فعل الصحابة في فجر الإسلام، بأن ناقشوا النبي(ص)، كذلك من حقنا نحن اليوم القيام بالشيء نفسه. ومثلما فسروا ما بلغ إليهم في ضوء معطيات تاريخية معينة، فإنه يتوجب علينا اقتفاء أثرهم، ولا يجوز لنا أن نتحجج قائلين «وبما أن هذا هو الماضي علينا أن نتقبله بدون مساءلة» لأن هذا ليس بالمنطقي أبدا. على مدار السنين تردد الشباب في فتح المصحف قائلين لأنفسهم «يجب أن نسأل الملالي عما يقول القرآن» إلى أن جاء علي شريعتي وحذر الشباب من ضحالة تلك الأفكار وأخبرهم بأنهم قادرون على فهم القرآن بوسائلهم الخاصة... في الوقت الذي كان فيه رجال الدين يعلمون الناس أن فهم القرآن بطريقة خاصة يشكل ذنبا وذلك لخوفهم من فقدان ما عندهم من نفوذ في حال أصبح الشباب قادرون على فهم القرآن بمفردهم».

ويسترسل آغا جاري في خطابه ويقول: «نحن في حاجة إلى دين يحترم حقوق الجميع - دين تقدمي وليس دينا تقليديا مستعليا على الناس... على المرء أن يتحلى بالطيبة والنقاء، كما أنه لا يجوز لنا أن نقول لغيرنا إننا سنفعل به ما نشاء ما دام أنه ليس

في صفنا، لما في ذلك من مخالفة صريحة وواضحة لتعاليم ديننا السمحة. اليوم، وأكثر من أي وقت آخر، نحن في أمس الحاجة إلى «إنسانية إسلامية» و«بروتستانتية إسلامية» التي طالب بها علي شريعتي. وفي الأثناء، وبالرغم من أن القيادة الإيرانية المتشددة لا تعترف بحقوق الإنسان، إلا أن دستورنا يقر بتلك المبادئ. . . ولأن النظام الإيراني يقسم الناس إلى فئتين، من هم معه ومن هم ليسوا كذلك، فإنه أجاز للفئة الأولى أن تفعل ما تشاء بالثانية، يمكنهم الذهاب إلى منازلهم وسرقة ممتلكاتهم، وتلويث سمعتهم، وترهيبهم وتقتيلهم لا لشيء سوى لأنهم مختلفون معهم. هل هذا منطق إسلامي؟ متى كان عدم احترام حقوق البشر جائزا؟».

بالرغم من رفض السيد آغا جاري استئناف الحكم الصادر ضده لإيمانه بأن محاكمته كلها هي بالأساس مهزلة، فقد تقدّم محاميه وبمبادرة خاصة منه بطلب الاستئناف يوم الاثنين الماضي. وفي حين يبدو مصير السيد آغا جاري معلقا في الميزان، على المرء أن يتابع وقائع هذه المحاكمة الأهم في العالم اليوم.

٠٤/١٢/٢٠٠٢

بوش والعراق والأخت سولجا

يجب أن تخافوا مثلما أنا خائف. والسبب أني لست معارضاً لشن حرب ضد العراق إذا لزم الأمر. لكني أعارض فكرة الدخول في حرب بدون تهيئة الأرضية لأمريكا في تلك المنطقة وفي العالم بأسره من أجل احتواء أي انفجار قد ينتج عن الغزو الأمريكي لذلك البلد. إلا أني ألحظ بعض العلامات الدالة على قيام الرئيس بوش بالتحضيرات اللازمة لتلك العملية. لكن أحد الأصدقاء لخص ببلاغة مجمل طريقة عمل فريق الرئيس بقوله: «إننا في حالة حرب، فلنحتفل بذلك»، وبما أننا في حالة حرب علينا ألا نطالب الشعب الأمريكي بالقيام بأي عمل شاق. وهذه حالة لا يمكن أن تستمر إلى ما لانهاية. نحن في حالة حرب. في حالة حرب ضد قوى إسلامية هي في غاية القسوة والعنف بزعامة تنظيم القاعدة. وبالإضافة إلى كوننا في حالة حرب مع موجة عالمية متصاعدة معادية لكل ما هو أمريكي، فإننا من المحتمل جدا أن ندخل قريبا في حرب من أجل نزع أسلحة العراق. لذا لا يمكننا إحراز النصر على هذه الجبهات المتعددة الأبعاد بدون تكبد تضحيات وبدون طريقة تفكير جديدة مختلفة جذريا.

برأيي يكمن السؤال فيما إذا كان الرئيس بوش، خاصة بعد كل هذا الدعم السياسي الذي حصل عليه بعد ٩/١١، سيوظفه إيجابيا عن طريق مصارحة الشعب الأمريكي ومطالبتهم بتضحيات جسام على المدى البعيد كشرط لتحقيق أي نصر في هذه الحرب. هل يحمل السيد بوش في داخله خطاب الأخت سولجا؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، فهل سيتكل فقط على البنتاغون لخوض هذه الحرب وعلى كارل روف لاستثمارها، حينها لن نجني إلا الدموع.

ماذا بوسع الرئيس بوش أن يقول للأمريكيين في معرض تهيئتهم لهذه الحرب المتعددة الأبعاد؟ بإمكانه أن يخبرهم أن هذه الحرب قد تكلفهم أكثر من ترليون دولار، وأنه ليس بإمكان أحد أن يعتقد أننا سنمول نفقات تلك الحرب من عائدات النفط العراقي، بل إن الخزانة الأمريكية هي من سيتكفل بتسديد تلك النفقات. وذلك لا يعني استبدال أعضاء فريق بوش الاقتصادي فقط، بل أيضا إعادة النظر في سياسة تبذير الفائض الخام عن طريق الإعفاءات الضريبية التي تشكل العمود الفقري لسياسة بوش المالية. وكذلك بإمكان الرئيس بوش أن يعلم الشعب الأمريكي بعزمه على بعث مشروع مانهاتن الرامي إلى زيادة فاعلية الوقود وتخفيض النفقات على مصادر الطاقة البديلة من أجل التقليل من اعتمادنا على النفط المستورد. صحيح أن مشروع كهذا قد يستغرق بعض الوقت إلا أنه وبشكل تدريجي سيجعلنا أمة تعتمد بدرجة أولى على مواردها الذاتية، وأن ذلك سيؤدي حتما إلى انخفاض حاد في أسعار النفط- وهذا يُعتبر أفضل طريقة لإحداث تغيير سياسي في دول مثل المملكة العربية السعودية - وكذلك سيكون بديلاً جدياً لمعاهدة كيوتو التي وعد السيد بوش العالم بأنه سيوقع عليها، إلا أنه لم يف بوعده إلى الآن. كما يمكنه أن يقول للشعب الأمريكي إننا غير قادرين على الاستمرار في أنانيتنا المتعلقة بدعم المنتجات الزراعية وحماية المنتجات النسيجية، لأن ذلك يعني مطالبتنا للدول النامية بضرورة فتح حدودها لمنتجاتنا بدون أن نقوم نحن من جهتنا بفتح أسواقنا لمنتجاتهم الفلاحية والنسيجية. مثلا لو واصلت دول مثل باكستان العيش في مستوى الفقر الحالي وإذا ما استمر مواطنوها في إرسال أطفالهم إلى المدارس الدينية التي تقتصر مناهجها على تعليم الدراسات القرآنية، فإن ذلك يعني أننا سنواصل العيش في حالة من الخوف. لذا فإن كانت مصلحة أمننا القومي تستدعي تنمية تلك المجتمعات، وتتطلب منا فتح أسواقنا أمام منتجاتهم، فلنقم بذلك ونلتزم بما ننادي به من قيم. أيضاً بإمكان الرئيس بوش إعلام الفلسطينيين أن الولايات المتحدة تنوي قطع جميع مساعدتها لهم وكل اتصالاتها الدبلوماسية معهم إن لم يتخلصوا من قيادتهم

الفاسدة ممثلة في شخص ياسر عرفات لاستحالة التوصل إلى إتفاق سلام معه. وفي المقابل بإمكانه أن يحذر آرييل شارون إن لم يتوقف حالا عن بناء المستوطنات، من أن الولايات المتحدة ستقطع جميع مساعداتها الاقتصادية المخصصة لإسرائيل. وبالإضافة إلى ذلك بإمكانه أن يعلم الطرفين عن نيته استئناف عملية السلام التي بدأها كلينتون. كما يجوز للرئيس بوش أن يعلم جميع العرب أيضا أن له هدفه الوحيد في العراق، وبعد أن يتم نزع ترسانته الفتاكة، أنه سيساعد العراقيين على العمل بما جاء في تقرير الأمم المتحدة بشأن التنمية البشرية العربية من توصيات، بأن فرصة المجتمع العربي للخروج من الحالة الراهنة مشروطة بإطلاق الحريات وتحديث مناهج التعليم وتمكين المرأة وإعطائها مزيداً من الحرية.

وبالنهاية بإمكانه أن يطلب من كارل روف أن يأخذ إجازة حتى شهر سبتمبر/أيلول ٢٠٠٤، حتى لا يُنظر إلى ما يقوم به الرئيس في هذه الحرب على أنه يهدف إلى تحقيق مكاسب سياسية.

أصدقائي، إننا نشرف على مرحلة انتقالية لمكانة للولايات المتحدة في العالم. وفي حال أن الرئيس بوش لم يستخدم التفويض المطلق الذي حصل عليه من أجل التحضير لهذه الحرب - على نحو التعامل بجدية مع نقاط ضعفنا السياسية والاقتصادية، وإطالة أمد سيطرتنا، وإقناع بقية دول العالم بإيجابية رؤانا وأننا في حجم مسؤولياتنا الكونية - فإننا سنكون قادرين على تحقيق النصر بكلفة معقولة. أما إذا أقدم الرئيس بوش على استغلال هذا التفويض لصالح برامج أقصى اليمين المتطرف والتلذذ بما أحرزوه من فوز سياسي، حينها سيصبح العالم مكانا بالغ الخطورة بالنسبة لكل الأمريكيين، وذلك بصرف النظر عن أي حرب نخوض وأي حرب سنربح.

٢٠٠٢/١٢/٨

بلير رئيسا

أصبح الكل يجتهد في تقديم النصح للديمقراطيين حول من يجب أن يرشحوان، خاصة بعد أن خرج آل غور من سباق الانتخابات الرئاسية. وكل ما أعرفه أنه وبصرف النظر عن شخصية المترشح الذي سيختاره الديمقراطيون، على هذا الأخير أن يتذكر بعض القواعد التي تناساها الديمقراطيون في السنوات الأخيرة.

القاعدة الأولى: يستمع الناس عبر بطونهم. أي أن نجاح أي مرشح مرهون بمدى قدرته على إقناع الناخبين - بطريقة يستوعبونها - أنه يدرك كزعيم طبيعة العالم الذي نعيش فيه. لقد كان السبب وراء خسارة جورج بوش الأب أمام بيل كلينتون، هو فشله في إقناع الناخبين بأنه يعي حقيقة العالم الذي نعيش فيه- عالم يتسم بعدم الاستقرار والأمن الاقتصادي باضطراد-. من جهته لخص بيل كلينتون رسالته في جملة بليغة تقول «إنه الاقتصاد يا غبي» مبرهنا على فهمه العميق للعالم المحيط بنا. وبالنتيجة أبدى الناخبون استعدادهم للتغاضي عن خطاياه. إذا برهنت على تبنيك لقضايا الناس المعيشية فإنهم سيتبعونك حيثما أخذتهم بدون أن يسألوك عن التفاصيل. أما إذا فشلت في إقناعهم فإنهم لن يتبعوك. اليوم، لقد برهن جورج بوش الابن لجمهور الناخبين على أنه يفهم جيدا طبيعة وجوهر عالم اليوم - عالم يتبرص به خطر الإرهاب - حسب وصف ساندي برغر مستشار الأمن القومي السابق - على نحو أصبح فيه «الأمن القومي هو الأمن الشخصي»، وفي هذا العالم الجديد أثبت السيد بوش أنه محارب لايرحم. إلى الآن لم يقم أي زعيم ديمقراطي بالبرهنة على حيازته ملكة التواصل هذه مع المواطنين الأمريكيين حول هذا الموضوع.

القاعدة الثانية: لا يمكنك بأي شكل من الأشكال أن تضع نفسك في موقف يرتبط فيه نجاحك بفشل بلادك. لذلك لا يجوز للديمقراطيين أن ينتظروا تعرّض بوش للفشل في العراق أو يأملوا أن يتدهور الاقتصاد على افتراض أنهم سيستفيدون سياسيا من ذلك. وذلك لأن الناس يودون سماع برنامج سياسي إيجابي، وبمقدور الديمقراطيين أن يقدموا هكذا بديل. كأن يطرحوا الشعار التالي مثلا: «نعم، لنعمل على إحراز النصر في الحرب على الإرهاب، لكن ذلك يتطلب منا معالجة متعددة الأبعاد في تعاملنا مع جميع نقاط ضعفنا وأن نكون صريحين مع الشعب الأمريكي». حاليا يرفع بوش الشعار التالي: «بإمكانكم الحصول على أي شيء: أسلحة، زبدة، حرب ضد العراق، إعفاءات ضريبية، وسيارات ضخمة»، هذا لغو. لم يسبق قط لأمريكا أن ربحت أي حرب بدون الحصول على التأييد الشعبي اللازم. هل هناك أي مرشح ديمقراطي مستعد لطرح مشروع جريء يقوم على تخفيض استهلاك النفط وتطوير مصادر بديلة للطاقة، بشكل يؤدي إلى تهدئة غضب الأوروبيين بخصوص اتفاقية كيوتو. هل هناك مرشح ديمقراطي واحد قادر على وضع حد لدعمنا السخيف لمنتوجاتنا الزراعية وما نفرضه من قيود على المنتوجات النسيجية بشكل أبقت دول مثل باكستان فقيرة ومعتمدة أساسا على المساعدات بدلا من اعتمادها على التبادل التجاري الحر. هل هناك مرشح ديمقراطي

واحد قادر على مواجهة زمرة الرئيس بوش اليمينية المتشددة المناهضة لمجهود الولايات المتحدة الرامي إلى الحد من ارتفاع عدد السكان في العالم (هذا ما نحتاج إليه تحديدا اليوم: المزيد من الدول الفاشلة والمكتظة بالسكان). هل هناك مرشح ديمقراطي واحد مستعد للجهر بعدم حاجتنا إلى المزيد من الإعفاءات الضريبية البعيدة المدى التي لن ينتج عنها سوى عجز هائل في الموازنة العامة سيؤدي بدوره إلى خفض في الموارد المخصصة للأمن الداخلي ولإصلاح التعليم في المدارس العمومية. علما أن اقتصادنا ليس في حاجة إلى المزيد من التخفيضات الضريبية القصيرة المدى أيضا، بل كل ما يحتاجه هو حرب ناجحة ضد الإرهاب. بإمكان اقتصادنا أن يتعافى ببطء ذاتيا، وكل ما يعيقه الآن هو تلك المخاوف الناجمة عن الإرهاب وحرب العراق باعتبارهما مسببين في ارتفاع أسعار النفط وخفض الاستثمارات. ففي اللحظة التي يتم فيها حسم هذه الأمور سنرى كيف سيستعيد المستهلكون قدرتهم الشرائية وكيف ستعود الشركات للاستثمار.

القاعدة الثالثة: جدوا مرشحا يحظى بقبول جماهيري. أنا لا أعرف جورج بوش كما أن سياساته الداخلية لا تعجبني. لكني أجد من الصعب على المرء أن يكرهه. لقد تم إغفال ما يحظى به «عامل المقبولية» في المسائل السياسية.

القاعدة الرابعة: جدوا مرشحاً قادراً على ان يتواصل مع الشعب بشكل حميمي. في مثل هذه الأوقات المضطربة، يتلهف الناس لرؤية زعيم يشرح لهم لماذا أقدمنا على ما قمنا به وكيف أن ذلك سيقودنا إلى تحقيق عالم أفضل. هذا ما يحتاج إليه الديمقراطيون. وبالرغم من أن السيد بوش يبدو صادقا، فإنه يفتقد العمق العاطفي والثقافي كي يطمأن له الشعب فعلا. كما أني مقتنع بأن تمتعه بتأييد كبير يرجع إلى ما أسبغه عليه الناخبون من صفات، أي وبما أننا في أمس الحاجة إلى الاعتقاد بأنه يعي تماما ما يقدم عليه من تصرفات، التي هي دائما تتم وفقا لما تستدعيه مصالح الأمة - وليس لتحقيق فوائد سياسية صرفة - لأنه إن لم يكن كذلك فإننا سنغرق جميعا. إلى الآن هناك مرشح ديمقراطي واحد تتوفر فيه جميع المواصفات المذكورة أعلاه، إنه رئيس الوزراء البريطاني توني بلير. من الأجدى بالديمقراطيين أن يمنحوه بطاقة الإقامة الدائمة (غرين كارت) في الولايات المتحدة. لأنه ذو مواقف ثابتة فيما يتعلق بالأمن القومي، ولديه رؤية بديلة للعالم، وهو علاوة على ذلك كله متحدث حسن المحيا يبعث على طمأنة المواطنين الذين يحبونه. باختصار، إنه بيل كلينتون بدون متاعبه، كما يمكنني القول إنه موهوب.

٢٠٠٢/١٢/١٨

ما بعد العاصفة

القاهرة، مصر

في نهاية المطاف أتوقع أن يكون لأحداث ٩/١١ تأثير بالغ على العالمين العربي والإسلامي يفوق بكثير ما أحدثته في الولايات المتحدة. الله وحده يعلم حجم الصدمة والأذى الناجم عن تلك الأحداث، التي حدت بنا إلى الإقدام على رد الفعل والتحسين من إجراءاتنا الأمنية. ولكن تلك الهجمات كانت بمثابة الصدمة أيضاً للعرب والمسلمين، صدمة لتلك الأنظمة مشابهة لغزو نابليون بونابارت لمصر وقيام إسرائيل وهزيمة ١٩٦٧ . لقد تمثلت تلك الصدمة بالنسبة للعرب والمسلمين في أن الشبان التسعة عشر هم من أبنائهم، اقترفوا تلك الأفعال باسم دينهم. وبالنتيجة أصبحت مراجعهم الدينية وأنظمتهم السياسية وكتبهم المدرسية والبطالة المزمنة (التي يعانون منها) ووسائل إعلامهم بل وحتى حقهم في زيارة الولايات المتحدة، تحت المجهر وعرضة للمساءلات العادلة أحيانا وغير العادلة أحيانا أخرى.

وبالرغم من هول الصدمة التي أحدثتها حرب ١٩٦٧ ، لكنها لم تؤدّ بالنتيجة إلا إلى تغيير محدود في النظام الاجتماعي والسياسي العربي وذلك نظرا لوجود عاملين اثنين هما وجود الاتحاد السوفياتي الذي تكفل بتقديم الدعم والمساعدات لأنظمة تلك المنطقة مما وفر لها الحماية بطريقة استبعدت معها فكرة إجراء أي إصلاحات، وكذلك الارتفاع الدرامي في مداخيل النفط لحقبة ما بعد ٦٧ ، الذي تسبب أيضا في امتصاص أي ضغط باتجاه التغيير.

أما اليوم فقد تزامن غياب الاتحاد السوفياتي مع حدوث انفجار سكاني مهول في العالم العربي والإسلامي مع انخفاض حاد في مداخيل النفط كاف لامتصاص أي ضغط باتجاه إجراء تغييرات كما في السابق. وفي الوقت نفسه وكنتيجة لحالة العولمة أصبح لدى الشباب وعي أفضل بحقيقة موقعهم في العالم المعاصر، وبمدى تخلفهم في العديد من المجالات.

وأخيرا ولأن أمريكا كانت هدفا لهجمات ٩/١١ ، بحيث أصبح بإمكان أي تجاهل للأسباب الداخلية التي أنتجت انتحاريي ٩/١١ ، أن يؤدي إلى المجازفة بالاصطدام مع الولايات المتحدة. كذلك يمكن القول إن العالم العربي ومنذ وقوع تلك الهجمات، مر

بثلاث مراحل رئيسية ألا وهي؛ الصدمة، ثم الإنكار وأخيرا مراجعة الذات. وهي حالة تتضح بجلاء هنا في مصر، ويعود الفضل ولو جزئيا لما حدث، أصبح الناس يتناقشون علنا في قضايا بشكل غير مسبوق. وقد علّق الكاتب المسرحي علي سالم على ذلك بالقول: «لقد حدث اصطدام قوي بين الشرق والغرب يوم ٩/١١، يشبه اصطدام سيارة بحائط، بشكل يمكنك أن ترى معه تأثير ذلك على كلا الطرفين. مزيد من الشك والريبة ومزيد من التقدمية أيضا... انظر إلى العراق. ولأن أحداً لا يريد أن يرى المزيد من القتلى في العراق، فإن أقلية فقط ستحتج وستدافع عن صدام حسين. إن أغلب الناس ضد صدام لأنهم أدركوا أنه لا مستقبل للطغاة بعد الآن». كذلك أقدمت قبل أسبوعين جريدة «الأهرام» أهم الصحف المصرية وأوسعها انتشارا على نشر سلسلة مقالات لأسامة الباز، أحد أهم مستشاري الرئيس حسني مبارك السياسيين، حذر فيها المصريين من مغبة الوقوع في فخ نظريات المؤامرة وإنكار المحرقة كما يروج لذلك الأوروبيون. أتت مقالات الباز كنتيجة للنقد اللاذع الذي تعرضت له مصر بسبب عرض التلفزيون الرسمي لدراما توثيقية بعنوان «فارس بلا جواد» المستوحاة من الوثيقة المزورة والمعادية للسامية المسماة «بروتوكولات حكماء صهيون».

كتب السيد الباز ما يلي: «يجب أن نحافظ على البعد الصحيح في علاقاتنا مع اليهود، مثلما تجسد في حضارتنا العربية الإسلامية وفي كتبنا المقدسة، ملحمة تنص على أنه لا وجود في تراثنا لتقاليد العنصرية وعدم التسامح، فاليهود هم أبناء عم لنا من خلال انحدارهم من نفس الجد (سيدنا) إبراهيم، وأن عدونا الوحيد هم أولئك الذين يعتدون علينا... ومن المهم أيضا فيما يتعلق بهذا الموضوع أن نكف عن البحث في الخرافات مثل «بروتوكولات حكماء صهيون»، واستباحة دم المسيحيين في الطقوس اليهودية».

وكردّ فعل ناتج جزئيا عما حدث يوم ٩/١١، فاجأ الرئيس المصري بلاده عندما أعلن الشهر الماضي على اعتبار يوم ٧ يناير/كانون الثاني يوم عطلة وطنية. لأن يوم ٧ يناير/كانون الثاني هو يوم عيد ميلاد (السيد) المسيح وفقا للتقويم القبطي، وذلك أسوة بذمرى المولد (النبوي الشريف). وهذه هي المرة الأولى التي يحضر فيها ابن الرئيس جمال احتفال عيد الميلاد الذي بثّه التلفزيون المصري مباشرة.

وبعد أن أثار عميد الصحافيين المصريين محمد حسنين هيكل في حوار تلفزي السؤال عمن سيخلف الرئيس مبارك، صار الجميع يتحدثون علانية حول هذا الموضوع، كما عبر لي العديد من المصريين عن أملهم في أن يؤدي انتقال السلطة متى حدث،

نقطة البداية لإجراء العديد من الإصلاحات الديمقراطية. هل سيحدث ذلك؟ هل ستؤدي مراجعة الذات في هذه المنطقة إلى المرحلة الرابعة المتمثلة في إجراء إصلاحات اقتصادية وسياسية جذرية؟ إني أشك في أن هؤلاء القادة يدركون أنهم لا يستطيعون النجاة من هذه العاصفة. إلا أنهم لا زالوا يجهلون الطريقة المثلى لإحداث التغيير بدون أن يفقدهم ذلك ما تمتعوا به من سلطة. وهذا ما سيجعل من هذا التوتر مأساة السياسة العربية والإسلامية على مدار العقد القادم.

٢٠٠٣/٠١/٠٨

تجفيف منابع الكراهية

القاهرة، مصر

لقد زرت جامع الأزهر بالقاهرة، أهم جامع في العالم الإسلامي، وحضرت صلاة الجمعة حيث سجد آلاف المصريين واستمعوا إلى خطبة شيخ الآزهرالذي توخى الحذر في حديثه عن الطريقة التي سيحاسب بها الخالق «المعتدين»، وبالنهاية دعا الخالق إلى إنقاذ الفلسطينيين. لقد تم كل شيء بوقار وبدون أي تفاصيل. ثم بدأت الإثارة بمجرد انتهائه من إلقاء الخطبة حتى ألقى أحدهم مئات المناشير السياسية في الهواء، ثم تم حمل رجل شاب على الأكتاف الذي صار يهتف مندداً «بالطغيان الأمريكي» حيث التف حوله المئات من المصلين مردّدين وراءه الهتافات نفسها، في حين انسحبت الأغلبية الصامتة من المكان. بدا الأمر وكأننا أمام نوعين من العبادات: عبادة رسمية تشرف عليها الدولة، وأخرى غير رسمية تشتعل حماسة. لكن ما حيرني كثيرا هنا، وبالرغم مما أبداه الجميع من غضب جامح ضد أمريكا، أن أحدا لم يطلق أي شعار مؤيد لصدام حسين، وهذا ينسجم تماما مع ما سمعته في عشرات الحوارات التي أجريتها هنا في القاهرة. فالمفرح أن أحداً لا ينظر إلى صدام على أنه بطل شعبي، بل إن الكثيرين سيرحبون بإطاحته على ما يبدو، لكن الخبر السيئ يتمثل في نبذ الأغلبية لجورج بوش والسياسة الأمريكية أكثر مما ينبذون صدام حسين. وما السبب في ذلك؟

لقد بدا صدام في موقع قوة بمجرد أن غزا الكويت سنة ١٩٩٠، في حين أنه يبدو اليوم ضعيفا وفي موقف دفاعي وممتثلا لكل ما طلبته منه الأمم المتحدة والولايات المتحدة. حتى أوائل التسعينات ظل صدام يحظى بتمجيد الصحافيين العرب نتيجة لما

أغدقه عليهم من أموال طائلة على مدى السنين، ويبدو أن أولئك اختفوا لأنهم توقف عن توزيع سيارات المرسيدس عليهم. كما نظر إليه بعضهم في أوائل التسعينات على أنه سيف الإسلام السني المتصدي لشيعة إيران، ولم يبال معظم العرب بما مارسه من قمع ضد شعبه. الآن فقط بدأوا بالكتابة عن ذلك. وأخيرا جاءت هجمات ٩/١١، التي صدرت من هذه المنطقة، ففسحت المجال لأولئك الراغبين في الحديث عن سوء تصرف الحكام. أو كما قال لي ذلك رايموند ستوك الباحث الأدبي المقيم هنا بأن أحد أصدقائه العرب لخص له المزاج العام كما يلي: «العراق يشبه بوضعه الحالي طائرة مختطفة، فلو تمكن الكوماندوس الأمريكيين من إطلاق سراح الطائرة بدون أن يلحقوا أذى بالركاب، سيتنفس الناس الصعداء».

ولكن ما هو السبب وراء هذه الكراهية لجورج بوش؟ ربما ولو جزئيا، بسبب شعور كثير من الناس بتوقف الرئيس وفريق عمله عن الحديث إلى العالم مقتصرين على الزمجرة والتهديد في الوقت الحاضر. إلا أن العامل الرئيسي هو عدم اكتراث ولامبالاة فريق بوش ببذل أي جهد حقيقي لحل الصراع الإسرائيلي الفلسطيني بالرغم من تواصل القتال. كما أن امتناع الإدارة الأمريكية عن تطبيق أي حل خلاق من شأنه أن يهدأ من حدة الصراع، حتى أنها عمدت إلى التقليل من شأنه حين وصفت آرييل شارون بأنه «رجل سلام»، أشعر الكثير من العرب بالمرارة. وبالنتيجة فإن هذا الوضع يلقي بظلاله على كل ما نقوم به هنا، وأصبح ينظر إلى غزو العراق على أنه يرمي إلى حماية إسرائيل، والدعوة إلى الديمقراطية على أنها طريقة لمعاقبة العرب.

ومن جهتها، ساهمت القنوات التلفزية والصحف الرسمية العربية في تأجيج مشاعر الغضب العربي تجاه أمريكا وإسرائيل طوال عقود عديدة، ولا زالت تساهم في ذلك. وقد استغلت الأنظمة العربية ذلك لأغراض سياسية. لكن حين تجتمع في بيت السفير الأمريكي بقرابة الثلاثين شخصا كلهم من رجال الأعمال المصريين الشباب، معظمهم من خريجي الجامعات الأمريكية، سيكون محور الحديث هو هذه المسألة. أو حين تلتقي بطلبة قسم الدراسات الأمريكية في جامعة القاهرة سيخبرونك كيف أن زملاء لهم رفضوا المشاركة في لعبة يقلدون فيها الكونغرس الأمريكي خشية أن يتم وصفهم بالموالين لأمريكا- نلحظ هنا وجود جانب من الصدق في غضبهم من هذا الجرح النازف. وإلى أن تتم مداواة هذا الجرح، فإنه سيبقى بؤرة مصدرة لـ«أفكار الدمار الشامل» التي تلهب مشاعر الجماعات الراديكالية المعادية لأمريكا المتواجدة هنا. كما أني مقتنع شخصيا بأن معظم هذا الغضب من سياسة الولايات المتحدة يعتبر في الحقيقة

صرخة استغاثة من أناس يعرفون على وجه التحديد ما يريدون - إحلال الديمقراطية وتحرير اقتصاداتهم -، كما أنهم يدركون تماما أنهم سيظلون متأخرين خمسين سنة أخرى إن لم يقدموا على تلك الإصلاحات، إلا أنهم غير قادرين على تنفيذ ذلك لأنها أفكار تروج لها قوى عالمية لا تهتم كثيرا بعمق جراحهم.

هنا أنا لا أتحدث عما هو صحيح وعما هو عادل أو حتى ما هو عقلاني. أنا أتحدث عن الواقع كما هو. وفي حال أننا تجاهلناه وأسقطنا الموضوع برمته، حينها لن نتمكن أبدا من الاستفادة مما قد يترتب على تغيير النظام في العراق من إيجابيات. أو كما قال الكاتب المسرحي علي سالم: «هناك مثل مصري يقول: «الصاحي يهتم بالسكران» وأنتم الصاحون فلا تنسوا ذلك».

١٢/٠١/٢٠٠٣

المعادلة الجديدة

القدس

أصبح اليوم بإمكان المرء أن يفهم أي مسألة متعلقة بالنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني وفق المعادلة الرياضية السهلة التي توصّل إليها داني روبنشتاين، خبير الشؤون الفلسطينية لدى جريدة هآرتز الإسرائيلية. وترتكز هذه المعادلة على ما يلي: لنفترض أن إسرائيل اكتشفت أن عشرة فلسطينيين من نابلس يخططون لتنفيذ عمليات انتحارية، برأيها سيكون تقدما ملحوظا لو أنها نجحت في اغتيال اثنين على الأقل من المخططين، بحيث سيظل ثمانية فقط على قيد الحياة. أما على الجانب الفلسطيني، فهم على النقيض من ذلك يقولون لهم إن قتلتم اثنين سيتطوع أربعة آخرين ليحلوا محلهم وبذلك يصبح عدد المخططين اثني عشر بدلا من عشرة. هكذا تكون النتيجة النهائية بالنسبة لإسرائيل عشرة إلا اثنان تعادل ثمانية وبالنسبة للفلسطينيين فإن عشرة إلا اثنان تساوي اثني عشر. لذلك تتولى هذه المعادلة شرح السبب في فشل سياسة العصا الغليظة التي اتبعها آرييل شارون على مدى السنتين الماضيتين في تحقيق الأمن للإسرائيليين. في الوقت الذي خلف فيه السيد شارون إيهود باراك، بالكاد أودت الانتفاضة الفلسطينية بحياة خمسين إسرائيليا، في حين أن قتلى الانتفاضة اليوم يفوق عددهم السبع مائة من الإسرائيليين وأكثر من ألفي فلسطيني. وحين توجهت بالسؤال إلى مسؤول عسكري إسرائيلي عن عدم جدوى كل

الاعتقالات وعمليات القتل التي يتعرض لها الفلسطينيون أجابني قائلا: «إنها حالة مثل قص الأعشاب، بمجرد أن تقوم بقصها اليوم ستعود وتنبت في اليوم التالي».

لكن لماذا يبدو أن السيد شارون سيفوز بالانتخابات الإسرائيلية المقبلة؟ هناك سببان.

أولهما، ومهما بدت استراتيجية شارون عقيمة وغير ذات جدوى فإن الاستراتيجية الفلسطينية أسوأ بكثير. لأن الفلسطينيين لا زالوا يعتقدون أن بإمكانهم الحصول على المزيد من إسرائيل بمجرد تخويفهم وجعلهم يشعرون بعدم الأمان بدلا من طمأنتهم. وبعد وهلة تتوقف عن تسمية ذلك بالخطأ، وتبدأ بالتساؤل حول شيوع تلك الفكرة القائلة بعدم قبولهم بالأساس بفكرة وجود دولة يهودية مزدهرة في عمق العالم الإسلامي. وبكل تأكيد فإن الشيء الوحيد الذي يتقنه السيد شارون هو قص الأعشاب، وأن كل ما يتقنه ياسر عرفات بالمقابل هو زراعة الأعشاب- مضحيا بجيل من الفلسطينيين بعد الآخر تحت تأثير وهم عودة كل الفلسطينيين.

أما السبب الثاني وراء ترجيح كفة شارون في الانتخابات المقبلة فيتمثل في فشل حزب العمل الإسرائيلي وعدم تمكنه من تقديم بديل عن سياسة شارون. والمشكلة التي يواجهها مرشح الحزب، عمرام ميتزنا القائد العسكري سابقا في الضفة الغربية، لا تتمثل في كونه يعبر عن رغبة ٧٠٪ من الإسرائيليين الراغبين في الانفصال عن الفلسطينيين والتخلي عن معظم المستوطنات بل في فقدانه الجرأة الكافية التي تمكنه من إقناع الإسرائيليين بأنه هو وحزبه قادران على تحقيق ذلك الهدف بطريقة ناجعة.

وفي هذا الشأن كتب المعلق الإسرائيلي آري شافيت، في جريدة هآرتز: «يمكن مقارنة ذلك بعملية جراحية على قلب مفتوح. يعرف الإسرائيليون أنهم إذا لم يُجروا العملية، أي لم ينسحبوا، سيموتون، وفي المقابل إن فعلوا ذلك مندفعين وعلى عجل فإنهم سيموتون كذلك أيضا. لذلك وجدت دعوة ميتزنا للانفصال تأييد ٧٠٪ من الإسرائيليين، لكنه عندما يعلن عن استعداده لتنفيذ ذلك ولو من جانب واحد إن اقتضى الأمر أو أنه مستعد للتفاوض مع عرفات حتى وإن استمرت الانتفاضة حينها ستنفضّ غالبية الإسرائيليين من حوله، لشعورهم في قرارة أنفسهم بعدم صوابية ذلك الأسلوب، لذلك فهم يريدون عملية جراحية يسارية يقوم بها دكتور يميني. والمشكلة أن شارون غير قادر على إجراء مثل هذه العملية، لأنه يعاني من حالة شلل ناتجة عن التزامه بالمستوطنات التي بناها».

في الحقيقة، يريد شارون الاستفادة من جنوح الإسرائيليين للانسحاب كما دعا إلى

ذلك ميتزنا، لذلك نجده وبدلا من المحاولة بجدية لتنفيذ ذلك، فإنه يسعى إلى تحقيق أكبر المكاسب السياسية عن طريق استغلال حالة الخوف التي لدى الإسرائيليين لضمان استمراره في السلطة والحفاظ على المستوطنات وفي الوقت نفسه يغمز إلى الأمريكيين بأنه سيتوصل إلى إبرام إتفاق في يوم ما.

وكنتيجة لكل ما تقدم بدأ هذا النزاع يدخل مرحلة جديدة بالغة التعقيد: بداية النهاية للحل المنادي بإنشاء دولتين متجاورتين نتيجة لما أقدم عليه المستوطنون اليهود تحت حكم السيد شارون من بناء المستوطنات الموجودة في الضفة الغربية كممارسات استعمارية غير شرعية. كذلك يريد هؤلاء المستوطنون تأكيد سياسة الأمر الواقع التي تعكس الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة وشرقي القدس. وفي ظل غياب أي مبادرة سلام حقيقية عربية أو فلسطينية تتحدى المستوطنين، إضافة إلى انعدام أي ضغوط من طرف فريق الرئيس بوش، إلى عدم قدرة أي حزب سياسي إسرائيلي على تطبيق الانسحاب فإن الطريق أمام المستوطنين أصبح مفتوحاً للاستفادة إلى أقصى درجة من حالة الجمود الراهنة، فالربح بالنسبة لهم يعني أن الانفصال أصبح أمرا مستحيلا.

وفي حال استمرت الأوضاع على ما هي عليه الآن، سيصبح عدد الفلسطينيين أكثر من عدد اليهود في إسرائيل والمناطق المحتلة بحلول سنة ٢٠١٠. حينها سيكون أمام إسرائيل ثلاثة خيارات: إما السيطرة على المنطقة بأسرها على طريقة نظام الفصل العنصري (الأبارتايد)، أو بطرد الفلسطينيين وتهجيرهم، أو حق الاقتراع وبذلك تكون قد توقفت عن أن تكون دولة يهودية. وبصرف النظر عن أي من تلك الحلول ستختار سيعني ذلك نهاية إسرائيل كديمقراطية يهودية.

٢٠٠٣/٠١/١٥

عن العراق (١)

مع اقتراب موعد اتخاذ قرار حاسم بشأن العراق، بدأت شأني في ذلك شأن بقية الأمريكيين بطرح السؤال التالي على نفسي: ما هو رأيي حقيقة في هذه المسألة؟ اليوم أصبح بإمكاني أن أوضح لماذا حسب رأيي يقلّل الليبراليون (المعتدلون) من شأن الإطاحة بصدام حسين. وفي مقالة يوم الأحد سأشرح لماذا يقلّل المحافظون من مخاطر هذه المهمة وكيف يمكن تحقيق توازن بين كلا هذين الموقفين.

ما لم يدركه الليبراليون هو أن الإطاحة بالنظام العراقي لا يشكل البتة أي إعاقة للحرب القائمة ضد تنظيم القاعدة، لأن هذا طرح مغلوط من أساسه، ولا يجعل وجود النفط في العراق من تغيير النظام أمرا غير مشروعا أيضا. أحيانا هناك مهام يجب إنجازها حتى وإن عنى ذلك استفادة بعض شركات النفط العملاقة.

وبالرغم من تصوير الرئيس لهذه الحرب على أن الدافع إليها هو نزع أسلحة العراق - وهو أمر مشروع - فإن ذلك لا يعد هدفا رئيسيا. لأن الإطاحة بذلك النظام هي الأهم. إذ بتغيير النظام في العراق نكون قد حققنا إنجازا كبيرا في الحرب على الإرهاب سواء تم ذلك بالإطاحة بصدام أو بنفيه. لماذا؟ لأن صدام وأسلحته لا يشكلان حاليا أي تهديد حقيقي للمجتمعات الغربية المفتوحة والليبرالية، وذلك لإمكانية ردعه بالوسائل التقليدية بالرغم من كونه دكتاتوراً معتوهاً يفوق حبه للحياة أكثر من كرهه لنا. بل إن التهيديد الحقيقي للمجتمعات الغربية لا يصدرعن ءولئك الذين يمكن ردعهم تقليديا مثل صدام، بل هو صادر عن أولئك الذين لا يمكن ردعهم- مثل منفذي عمليات١١/٩، الذين يفوق كرههم لنا حبهم للحياة بكثير لأنهم صواريخ بشرية ذات دمار شامل قادرون فعلا على تدمير مجتمعاتنا المفتوحة.

لذا يصبح السؤال المطروح كالآتي: ما هي الأرضية والظروف التي قادت إلى ظهور هؤلاء غير القابلين للردع من الشباب المسلم الغاضب والعاطل عن العمل المهمش؟ إنها تركيبة مكونة من دول عربية مترنحة وفق ما ذكر تقرير الأمم المتحدة عن التنمية البشرية في الوطن العربي، حين قال إن دول تلك المنطقة لم تتمكن من اللحاق بالركاب العالمي إلى درجة أن مجمل الناتج القومي لكل الدول العربية مجتمعة يقل عن ناتج دولة واحدة مثل إسبانيا. ويمكن إرجاع السبب الرئيسي لهذه الفجوة الكبيرة إلى افتقاد تلك المجتمعات ثلاث خصائص هي: الحرية والتعليم العصري وحرية المرأة. وبالتالي وفي حال أننا لم نقدم على مساعدة هذه الدول التي تعاني من حالة انفجار سكاني من أجل خلق أساليب حكم فعالة وناجعة وبناء اقتصادات أكثر انفتاحا وإنتاجية وتحسين مكانة المرأة فيها وتطوير وسائل إعلام مسؤولة لا تقوم بلوم الآخرين على كل العلل والمشاكل التي يعانون منها، فإننا لن نتمكن من رؤية أي إصلاحات سياسية وتربوية ودينية ضرورية جدا من أجل الحد من أعداد أولئك الشبان غير القابلين للردع.

ثمة شركاء لنا هناك. لكن ثقوا بأن في داخل كل شاب عربي شيئاً من التردد فيما يتعلق بفكرة الغزو الأمريكي للعراق لغلبة النغمة الاستعمارية لهذه الفكرة. لكن هناك

جزءاً مهماً من الشباب العرب ممن يدعون بألا تتوقف الولايات المتحدة عند الإطاحة بصدام حسين فقط بل أن تطيح بجميع الحكام العرب دون استثناء. إنه لأمر معقول أن نعتقد أنه إذا أطاحت الولايات المتحدة بصدام حسين، وساعدت العراقيين على إرساء نظام ديمقراطي مسؤول وتقدمي فإن ذلك سيؤدي إلى نتائج إيجابية جدا وإحداث تغييرات في العالم العربي كله- الذي هو في أمس الحاجة إلى مثال أو قدوة ناجحة قابلة للتطبيق. وهذا أمر يجب على الليبراليون أن يعيروه أهمية قصوى، لأن الولايات المتحدة وبمجرد تحريكها لقواتها من أجل غزو العراق تكون قد وجهت رسالة قوية لتلك المنطقة تقول: من الآن فصاعدا لن نترككم وشأنكم كي تلعبوا بأعواد الكبريت، لأنكم حين قمتم بذلك آخرة مرة أدى ذلك إلى احتراقنا. وبمجرد أن لوحت الولايات المتحدة باستخدام القوة باشر حزب الله إلى التهذيب من سلوكه في لبنان (خشية أن يكون هدفا لاحقا)، ودفع بولي العهد السعودي الأمير عبد الله إلى تقديم مقترح سلام إلى زملائه من الحكام العرب سماه «الميثاق العربي» للإصلاح السياسي والاقتصادي.

وباختصار دعوني ألخص ما ذكرت بمقولتين أفضل استخدامهما في هذا المجال. الأولى هي لعميد جامعة هارفرد لورانس سامرز حين قال: «في تاريخ العالم لم يُقدِم أي إنسان على غسيل سيارة مستأجرة»، وهذا ينطبق على الدول أيضا. وإلى أن تتمكن الشعوب العربية من المشاركة الحقيقية في إدارة شؤون بلادهم، فإنه من غير الممكن أن يطهروا مجتمعاتهم من الفساد ويطوروها كما يرغبون.

والمقولة الثانية هي عبارة عن مثل أمريكي-هندي يقول: «إن لم نغير من وجهتنا الآن فإننا قد نصل إلى حيث تأخذنا هذه الطريق». والعالم العربي كان قد ألقى بنفسه في هوة عميقة منذ زمن طويل. وفي حال أن جيلنا المعاصر يقدر على مساعدته على الخروج من هذا الوضع، حينها قد يتسنى لأحفادنا وللأجيال القادمة أن يجنوا تلك الفوائد. أما إذا لم نساعد العرب على تغيير اتجاههم الحالي، فإنهم سيصلون إلى طريق مسدود يجعلهم ينتجون المزيد من الشبان غير القابلين للردع. ومن هذا المنطلق، يجب على الليبراليين أن يعيروا هذه المسألة اهتماماً كبيراً، باعتبار أن تحرير الشعوب الأسيرة في الشرق الأوسط هي قيمة في حد ذاتها، لأنك إن لم تقم بزيارة جيرانك السيئين في عالم اليوم المترابط والمتواصل، فإنهم سيزورونك.

٢٠٠٣/٠١/٢٢

عن العراق (٢)

كنت قد أشرت في مقالة يوم الأربعاء السابقة كيف أن الليبراليين كانوا قد قللوا من أهمية الإطاحة بصدام حسين وكيف أن ذلك سيسفر عن حدوث تغييرات إيجابية في العالم العربي. وفي مقالة اليوم سأتناول كيف أن المحافظين المدافعين عن الإطاحة بصدام حسين يقللون بدورهم من الأخطار المصاحبة لمثل هذه المهمة وكيف يمكن أن نحقق توازنا بين كلا الموقفين.

لنبدا بالحقيقة البسيطة التالية: بحكم أن العراق يشبه حاليا صندوقا أسود أُغلق منذ أن سيطر صدام على الساحة السياسية فيه أواخر الستينات. وبالتالي فإننا نواجه قدرا كبيرا من الغموض عند محاولة التكهن بأنواع الشياطين والأبالسة التي ستخرج من هناك فيما لو حاولت الولايات المتحدة وحلفاؤها فتح ذلك الصندوق. لننظر إلى الأمر كما يلي: إذا ومتى قمنا بإزالة ذلك الغطاء عن العراق، فإننا سنجد ظرفا يخبرنا عما ربحناه من تلك العملية، وسيكون ذلك أحد أمرين: قد نجد العبارة التالية «تهانينا! لقد ربحتم ألمانيا العرب- دولة ذات مواهب بشرية هائلة وثروات طبيعية كبيرة، لكنها محكومة من قبل دكتاتور كنتم قد أطحتم به. الآن ما عليكم إلا إضافة ملعقة ديمقراطية واخلطوا ذلك حتى يتحول العراق إلى دولة عادية في القريب العاجل». أما الفرضية الثانية فقد يحتوي ذلك الظرف على ما يلي أيضا: «لقد ربحتم يوغسلافيا العرب - كيان مصطنع مجزأ من أساسه بين الأكراد والشيعة والسنة والناصريين واليساريين وتجمعات قبلية وعشائرية لا يمكن حكمها إلا بقبضة حديدية على طريقة صدام حسين. تهانينا، لقد أصبحتم صدام الجديد».

في الحالة الأولى، يمكن النظر إلى العراق على أنه وصل إلى الحالة التي هو عليها الآن بسبب صدام حسين. أما في الحالة الثانية فيمكن النظر إلى صدام كما هو لأنه من إنتاج التركيبة العراقية الداخلية. وهاتان مشكلتان مختلفتان تماما. ولا يمكننا معرفة أي عراق ربحنا إلا إذا رفعنا عنه الغطاء. لذا يتوجب على المحافظين والمحافظين الجدد أن يحاذروا جيدا عندما يدافعون عن غزو العراق لأنهم يجهلون أي عراق سنجد. لكن هل يعني ذلك أن نتخلى عن خيار الحرب؟ قطعا لا. لكن ذلك يعني أن نقوم بذلك بشكل صحيح. وبدءا، يتوجب على الرئيس بوش أن يتوخى الصراحة في تعامله مع الشعب الأمريكي لأنه من الممكن جدا أن نجد أمامنا يوغسلافيا العربية، مما يستدعي منا بذل

جهود جبارة ومدة طويلة حتى يتمكن العراق من التعافي وتبني نظام تقدمي ومسؤول. وبالتالي ستكون إعادة إعماره وكأنها ماراتون يستغرق سنوات عديدة، وليس عدة أسابيع. ولأنه سيكون بمثابة الماراتون، فإن ذلك يفرض علينا أن نحشد أقصى قدر ممكن من الشرعية الدولية من أجل الدخول في هذه الحرب والحصول على موافقة الأمم المتحدة. وإلا فإن الشعب الأمريكي سيرفض المشاركة في هذا الماراتون، ولن نجد من يمدّ لنا يد المساعدة بعد أن نكون قد دخلنا العراق (لننظر إلى كل قوات الشرطة وجحافل الإداريين الأوروبيين المشاركين في إعادة إعمار كوسوفو والبوسنة). كما أننا سنصبح هدفا واضحا في حال أننا قمنا باحتلال العراق بمفردنا.

وباختصار، صحيح أننا قادرون على الإطاحة بصدام بمفردنا، لكننا لن نقدر على إعادة إعمار العراق بمفردنا. لأن جائزتنا الكبرى هنا هي في ظهور عراق جديد ديمقراطي يصبح مثالا يقتدى به في المنطقة. وهذا هو برأيي المبرر الاستراتيجي وراء مساندتي لهذه الحرب. كذلك لا يجوز البتة لفريق الرئيس بوش أن يقتصر غزوهم للعراق على تنصيب دكتاتور آخر موال لنا يمكننا من نفط العراق. كما لا يجوز لهم أن ينزعوا أسلحة العراق والانسحاب بدون القيام بإعادة إعماره.

ولسوء الحظ، حين يتعلق الأمر بتعداد الحلفاء يكون فريق بوش هم ألد أعداء أنفسهم باستهزائهم من العديد من القضايا التي تحظى باهتمام عالمي كاتفاقية كيوتو(المتعلقة بالبيئة)، والمحكمة (الجنائية) الدولية ومعاهدات مراقبة التسلح. نعم هناك شيء من الصحة نسبيا في ما يقوم عليه موقف الرئيس بوش فيما يتعلق ببعض هذه القضايا، لكن عدم اكتراث الإدارة الأمريكية قاد إلى إشعال فتيل موجة عداء للولايات المتحدة عبر العالم. كما أني متأكد من أنه لو التزم فريق بوش بمعاهدة كيوتو لما وجدنا الفرنسيين اليوم يحاولون عرقلة الجهد الأمريكي حول العراق. الفرنسيون هم الفرنسيون. لكن وبكل أسف لقد إنحاز الألمان والكوريون وغالبية الشعب البريطاني أيضا إلى الموقف الفرنسي.

يمكن للأمور أن تتحسن، لكن هذا هو موقعنا حاليا، وهذا هو موقفي الشخصي: أنا مقتنع بضرورة مواصلتنا تجميع القوات هناك، ومواصلة أعمال فرق التفتيش وألا نترك أي طريقة للضغط التي من شأنها أن تؤدي إلى وقوع انقلاب في العراق أو إلى حصولنا على أدلة إدانة من شأنها أن تؤمّن لنا أوسع تحالف ممكن وهذا ما يسهل علينا عملية إعادة إعمار العراق.

لكن وفي حال أصبحت الحرب هي الخيار الوحيد أمامنا حينها يجب ألا نتردد في

خوضها - لأني أعتقد أن ذلك سوف يسمح لأولادنا بأن يكبروا في عالم أكثر أماناً إذا تمكّنا نحن من مساعدة العراق على اعتماد نهج أكثر تقدمية يبعث على إحداث تغييرات حقيقية في العالم العربي- الذي تبدو حاجته للتغيير ملحة جدا. كما أن من شأن حرب كهذه أن تحدث صدمة في تلك المنطقة، وفي حال أننا نفذناها بطريقة صحيحة، فإننا نكون قد خلقنا فرصة حقيقية للعلاج عن طريق الصدمة.

٢٠٠٣/٠١/٢٦

عن العراق (٣)

مذكرة إلى: الرئيس بوش

من: حاكم عربي موال لأمريكا

عزيزي السيد الرئيس، ها أنا أتقدم إليكم رفقة زملائي الحكام العرب وتركيا نعلمكم أننا نشترك معكم في وجهة نظركم القائلة بأن صدام حسين يكذب ولم يمتثل لقرارات الأمم المتحدة ويجب التخلص منه، لكن هل ذلك لا يتم إلا عن طريق غزو أمريكي؟ هل من الممكن لكم أن تأخذوا بالاعتبار احتمال نفيه؟ أنا أسألكم لأننا صرنا نتلقى إشارات مزدوجة منكم، إذ على ما يبدو أن وزير دفاعكم يؤيد هذه الفكرة في حين أن بقية أعضاء إدارتكم يشيرون علينا بإسقاط تلك الفكرة نهائيا. كما أننا نعترف شأننا في ذلك شأن الأتراك أننا لم نكن مثالا للشجاعة، حتى الاجتماع الذي عقده وزراء خارجيتنا في اسطنبول الأسبوع الماضي كان مجرد حدث علاقات عامة لا غير رتبوه الأتراك لكي يظهروا أمام شعبهم بأنهم جادون في البحث عن بدائل سلمية. ولكن حقيقة وخلال كل مباحثاتنا لم يقدم أحد أي عرض من أجل التخلص من صدام.

دعوني أشرح لكم لماذا. أولا، يشعر كلنا بالحرج من الظهور أمام شعوبنا على أننا نشكل امتدادا لسياستكم العسكرية. السيد الرئيس، صحيح أن صدام لا يمتع بشعبية في المنطقة ولكن أنتم أقل شعبية منه. ثانيا، يتظاهر كل منا أمام الطرف الآخر بأنه قادر على إيجاد حل يتنحى بموجبه صدام، لكن لا أحد منا يجرأ على المبادرة بذلك خوفا من تعرّض مسعاه للرفض. إلا أن السبب الحقيقي يكمن في عدم وجود أي عرض ملموس لدينا لحل هذه المشكلة. نحن جميعا في حاجة إلى عرض قاس، لكن لا نحن ولا أنتم

بقادرين على إيجاده، بالرغم من مشاركتنا لكم في الاعتقاد بإمكانية تخفيف ذلك من حدة المعاناة فيما لو تم تنفيذه بطريقة صحيحة. وبناء عليه، فإني أقترح عليكم سيادة الرئيس أن تبعثوا لي برسالة رسمية مختومة وموقعة منكم تكلفون بمقتضاها الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي رسميا بما يلي:

أولا: أن تلتزم الولايات المتحدة وبشكل رسمي بعدم التعرض لخروج صدام حسين وجميع أفراد حاشيته بأمان من العراق (أفترض أنهم سيتوجهون إلى مكان ما في دول الإتحاد السوفياتي سابقا).

ثانيا: نحن نتفهم أن الولايات المتحدة لا يمكنها من الناحية القانونية أن تتخلى عن حق ملاحقة أو محاكمة صدام كمجرم حرب. لكننا نحتاج إلى التزام علني منكم تعلنون فيه أنه ومن أولى أولويات الولايات المتحدة بعد أن يغادر صدام العراق هو إعادة إعمار العراق وعدم الإقدام على ملاحقة صدام أو أي من الأشخاص الذين كانوا معه في الحكم. ولهذه النقطة الأخيرة أهمية فائقة لأنها ستشمل ضباط الجيش العراقي الذين يريدون البقاء في البلاد والذين سيحتاجون إليهم من أجل الحفاظ على وحدة العراق- عليهم أن يعلموا أنهم لن يتعرضوا لأي محاكمة، وبمجرد أن يعلموا ذلك نكون قد خلقنا فرصة أكبر للضغط على صدام بالمغادرة وإمكانية تعاونهم معكم فيما بعد.

ثالثا: أن تلتزموا بمنح أي جنرال عراقي يخلف صدام الفرصة للعمل بصدق معكم ومع هيئة الأمم المتحدة لاستكمال عملية نزع السلاح والبدء في عملية التحول نحو الديمقراطية قبل أن تلجأوا إلى أي خيار عسكري. سيادة الرئيس، إن الجيش هو وحده القادر على الحفاظ على وحدة العراق. كما أننا نعلم كما تعلمون أن هناك جنرالات عراقيين يرغبون في وضع العراق في مساره الطبيعي. وصحيح أنه باحتلالكم للعراق يمكنكم بسط المزيد من السيطرة والتحكم في عملية التحول هناك، لكن في المقابل فإنكم ستكونون قد وضعتم أنفسكم في عش الدبابير.

برأيي يتمتع هذا الاقتراح بمزايا عديدة وهي: أننا من خلال ترتيب عملية نفي صدام نكون قد نفذنا التزامنا الأخلاقي والقانوني والاستراتيجي بعدم السماح لأي كان بالاستهزاء وتحدي هيئة الأمم المتحدة والمواثيق الدولية إلى ما لانهاية، بحيث إننا قمنا بذلك بدون اللجوء إلى احتلال العراق وتحمّل ما قد ينجر على ذلك من مخاطر. ومن ناحية أخرى سيشكل ذلك نصرا لنهجكم السياسي المتشدد مما يُشعر الرأي العام عندكم بارتياح شديد، وسيُزيل كل الشكوك التي تسيطر على أسواقكم حاليا إضافة إلى تحسين صورة الولايات المتحدة المشوهة. والأهم من ذلك كله سيظهر الألمان والفرنسيون

الذين صدقوا فكرة تورطكم في العراق، على أنهم أغبياء وسخفاء. كما أن من شأن ذلك أن يمثل فوزا عظيما لنا نحن العرب أيضا - لأننا وفي حال استطعنا التوصل إلى إبرام صفقة يتجنب بموجبها العراق أي حرب، فإننا سنكون بذلك أول مرة نتصرف فيها بمسؤولية تجاه منطقتنا.

وبالرغم من محدودية فرصة إقناع صدام بالقبول بعرض كهذا، فإن ذلك سيتضح لنا متى حافظتم أنتم على توجيه أسلحتكم الجاهزة إلى رأسه - وفي حال أنكم تقدمتم بعرض ما مصاحبا لذلك. وبالنتيجة قد يدعم كل منا موقف الآخر عن طريق الظهور أمام العالم أجمع بأننا نبذل قصارى جهدنا تفاديا لاندلاع الحرب. ولكن ذلك يتطلب أن تقدموا عرضا واضحا، والذي بغيابه سيعطي مصداقية لما يقوله صدام بأن أمريكا لا ترضى بغير شن الحرب.

سيادة الرئيس، سيكون من المضحك جدا ألا نتغلب على مخاوفنا وتحفظاتنا في سبيل الوصول إلى هدفنا المشترك المتمثل في إيجاد بديل سلمي للإطاحة بصدام.

٢٠٠٣/٠١/٢٩

هؤلاء المبدئيون الأوروبيون

بروكسل، بلجيكا

عندما ذهبت لتناول طعام الغداء في فندق شفايتزرهوف في دافوس، سويسرا، اكتشفت سبب الفرقة القائمة بين الأمريكيين والأوروبيون. لقد جاء في أسفل قائمة الطعام تعداد للدول التي جاءت منها لحوم الخروف والبقر والدجاج المقدم في ذلك المطعم، مع ملاحظة صغيرة تحذر من إمكانية احتواء اللحوم المستوردة من الولايات المتحدة على جينات مخصبة كيميائيا أو ما يعرف اختصارا (جي. أم. أو). وبدافع وطني بحت ومن باب النكاية طلبت لحم بقر أمريكي. حينها نظر إليّ ضيفي وتبادلنا الضحكات نظرا لطرافة الموقف. يبدو أن الأوروبيين قد بدأوا حملة احتجاج رومانسية ضد التقدم التكنولوجي الأمريكي مما جعلهم يعزفون عن تناول الأطعمة القادمة من الولايات المتحدة المخصبة جيناتها كيمائيا بالرغم من عدم قيام أي دليل علمي على خطورة تلك الأطعمة. لكن المرء يلحظ أن الأوروبيين يدخنون في كل مكان تقريبا هنا في دافوس سواء وهم يأكلون أو يشربون القهوة أو يتناقشون وذلك بالرغم من توافر

الأدلة العلمية التي تشير بشكل قطعي إلى أن التدخين قد يسبب الوفاة. وقد تنفست الكثير من دخان التبغ (كمدخن سلبي) أثناء تواجدي هنا في دافوس إلى درجة أصبحت أحتاج معها إلى إجراء فحص بالأشعة على صدري.

لذلك أعذروني على عدم أخذي تشكّيات الأوروبيين من سياسات الرئيس بوش تجاه العراق على محمل الجد، وربما لوجود سبب واحد بسيط: لقد فوجئت بعدم جديتهم. ولكن ذلك لا يعني خلو المواقف المعارضة للحرب على العراق من أي براهين جدية، العكس تماما هو الصحيح. إلا أن من يستمع إلى التصريحات الصادرة عن المستشارالألماني غيرهارد شرودر أو الرئيس الفرنسي جاك شيراك لا يمكنه أن يعتبرها نقاشات جدية، لأنها لا تتعدى أن تكون إعلانات يعرفون فيها بأنفسهم. فكل ما يرددونه لا يعبر عن مواقف أناس قد تجاوزوا فعلا ما تنشره الصحافة العربية التحريفية ونظروا بتمحص إلى ما يقوله الشباب العرب حول طموحاتهم في تبني الديمقراطية وكيف أنهم يلقون باللائمة على صدام حسين ومن شابهه من الحكام العرب على ما حل بمنطقتهم من فقر. بل إنك تجد هؤلاء الدبلوماسيين من مدخني السجائر المسببة للسرطان والرافضين لأطعمة سليمة لمجرد احتوائها على (جي.أم.أو)، يحاولون بجهد أن تكون هويتهم مخالفة لأي موقف يتخذه الأمريكيون وبصرف النظر عن المصالح التي قد تتعرض إلى تهديد.

ولكن ما مصدر هذا السلوك؟ إنه الضعف للأسف. إنه لأمر رهيب أن تصبح ضعيفا بعد أن كنت قويا وبإمكان تلك الحالة أن تجعل منك شخصا غبيا، بشكل تعارض فيه سياسة الولايات المتحدة لا لشيء سوى أن تنأى بنفسك عن القوة العالمية الوحيدة. أو كما في حالة السيد شيراك، سيدفعك حبك للاختلاف إلى دعوة الرئيس الموزمبيقي روبرت موغابي- دكتاتور رهيب- لزيارة باريس فقط نكاية بتوني بلير. آه من هؤلاء المبدئيين الفرنسيين. وقد علق على ذلك جوزيف يوفا، رئيس تحرير جريدة «دي تزايت» الألمانية فقال: «القوة تؤدي إلى الفساد، والضعف كذلك. ومن شأن الضعف المطلق أن يؤدي إلى فساد مطلق. نحن نعيش اليوم أكثر الفترات حرجا لما بعد الحرب، تسببت في زعزعة أكثر مصالحنا الاستراتيجية والخلقية المشتركة. لا يهتم كثير من الأوروبيين حاليا سوى باحتواء الهيمنة الأمريكية والحد منها. وبالنتيجة يجدون أنفسهم خطأ في الخندق نفسه مع صدام، في موقف فكري شديد الفساد».

بقدر ما يشاهد المرء الكثير من هذه الأمور بقدر ما تزيد قناعته بصحة ما قاله المؤرخ روبرت كاغان في كتابه القيم «عن الفردوس والقوة» الذي قال فيه: «الأمريكيون

من المريخ والأوروبيون من فينوس»، إشارة منه إلى وجود فجوة عميقة بين الأمريكيين والأوروبيين نابعة أساسا من انهيار ميزان القوى بشكل أنتج جميع كل هذه الأحقاد والضغون والإحساس بعدم الأمان وتباعد في المواقف حول ما يمكن اعتباره استعمالاً مشروعاً للقوة.

بإمكاني شخصيا التعايش مع هذه الفروق، لكن من ناحية أخرى، نجد أن السخرية و التعالي الخلقي والإحساس بعدم الأمان لدى الأوروبيين قد وصل إلى درجة لا تطاق. كذلك أصبحت المظاهرات تصاحب سنويا أحداث مؤتمر دافوس، حيث سمح للمتظاهرين السنة الماضية بالتظاهر في الجزء الشمالي في المدينة حيث قاموا بتهشيم واجهات المحلات مما دفع بأصحابها إلى إغلاقها خلال أيام انعقاد المؤتمر هذه السنة. وحين مررت هذا الصباح عبر ذلك الطرف من المدينة لاحظت وجود لافتات على واجهات ثلاثة محلات تقول «لا للحرب الأمريكية على العراق». وهذا ما دفعني إلى التساؤل: ما الذي حدا بأصحاب دكاكين تبيع ملابس داخلية نسوية إلى التعبير عن مشاعرهم المناهضة للحرب؟ وبالنتيجة كان المتظاهرون قد جاؤوا ورحلوا عن المدينة دون أن يقتربوا من تلك المحلات. لقد كانت تلك اليافطات بمثابة بوالص تأمين على شبابيك تلك المحلات - إرضاء للمتظاهرين حتى لا يقذفوهم بالحجارة.

وكما ذكرت سابقا، نعم هناك براهين جدية فيما يتعلق بمناهضة شن حرب على العراق، إلا أن وزن تلك البراهين مشروط بصدورها عن قناعة القائلين بها، وليس حين تتم المناداة بها صادرة بوقاحة ومن أجل مصالح ذاتية بحتة، بل وفقط حين يكون أصحاب تلك البراهين ذوي قناعات وليس ممن يعانون مأزقاً في هويتهم.

٢٠٠٣/٠٢/٠٢

صوتوا من أجل إقصاء فرنسا

تمنيت أحيانا لو تم اختيار الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن بالطريقة نفسها التي يتم بها اختيار اللاعبين الخمسة الأوائل من الفريق الذي أحرز البطولة الوطنية لكرة السلة (ان.بي.آي)، حيث يتولى المشجعون اختيار أفضل خمسة لاعبين. وفي حال أصبح ذلك ممكنا سأقوم فورا بالتصويت من أجل إقصاء فرنسا وتعويضها بالهند بحيث سيصبح الأعضاء الدائمون روسيا والصين والهند وبريطانيا والولايات المتحدة.

وهذا أمر مقبول. لكن لماذا تعوض الهند فرنسا؟ ذلك لأن الهند تعتبر أكبر ديمقراطية في العالم وإضافة لكونها أكبر موطن للهندوس في العالم فهي أيضاً تضم ثاني أكبر جالية مسلمة في العالم. وبكل صراحة تبدو الهند أكثر جدية من فرنسا هذه الأيام، على اعتبار أن فرنسا تقوقعت على نفسها فقط من أجل أن تتمايز عن أمريكا كي تشعر بشيء من الأهمية إلى الدرجة التي بدت معها سخيفة جدا. في حين أن الهند قد تجاوزت تلك المرحلة، وبالرغم من احتمال ضبابية موقفها من الحرب على العراق، إلا أنها عبرت عن ذلك بكل نزاهة. وكذلك فرنسا - على العكس تماما من الهند - لا تستطيع رؤية التغييرات التي طرأت على العالم منذ نهاية الحرب الباردة حين كانت فرنسا قادرة على تمييز موقفها عن طريق التلاعب بالاختلافات التي كانت قائمة بين كلا المعسكرين. كما أنها كانت قادرة على الإفلات من أي محاسبة في تلك اللعبة المسلية لسببين: أولا، لإدراكها المسبق أنه وفي نهاية المطاف سيتولى العم سام دائما مهمة الدفاع عنها وحمايتها من الدب الروسي. وهكذا أصبح بإمكان فرنسا أن تلوي منقار أمريكا وتتاجر مع العراق وتتمتع بالحماية الأمريكية في الوقت نفسه. ثانيا، لقد كان عالم الحرب الباردة، عالم أكثر استقراراً - مثلما اتضح لنا ذلك حاليا - تقتسمانه قوتان نوويتان، مارس كل منهما على طريقته سياسة الأمر الواقع نظرا لدفاعهما عن أنظمة مختلفة، إلا أنهما تعهدا بحفظ الأمن والنظام العالميين.

وهذه وضعية انتهت الآن، بحيث أصبح العالم مقسما بشكل متزايد بين «عالم النظام» الذي تتزعمه الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا والصين والهند واليابان إضافة إلى العديد من الدول الصغيرة الأخرى، و«عالم الفوضى» الذي تسيطر عليه دول مارقة مثل العراق وكوريا الشمالية وتشكيلة متنوعة من التنظيمات الإرهابية العالمية التي استفادت ولا زالت تستفيد مما تواجهه من اضطرابات دول تلك المنطقة الممتدة من الشرق الأوسط إلى أندونيسيا.

والسؤال الجوهري المطروح الآن يتعلق بالكيفية التي يجب أن يتعامل بها عالم النظام مع عالم الفوضى. هناك مجال للاختلاف لكن الجدية ضرورية جدا فيما يتعلق بهذا الموضوع مثلما هو حال مجمل اللعبة الفرنسية حول العراق ودبلوماسيتها الناعمة التي يشرف عليها وزير خارجيتها دومينيك دو فيلبان. إن فرنسا تسخّر حاليا معظم طاقتها من أجل منع أمريكا من التصرف بمفردها وليس من أجل الضغط على صدام حسين من أجل الامتثال لقرارات الأمم المتحدة. وهذا ما يدفعنا للقول بأن الموقف الفرنسي غير منطقي بتاتاً. ويقول السيد دوفيلبان بأن المفتشين لم يباشروا عملهم بعد بسبب عدم

انصياع صدام مما يستدعي منا مضاعفة عدد المفتشين ثلاث مرات متناسيا أن فشل عمليات التفتيش لم يكن بسبب نقص عدد المفتشين، بل بسبب عدم استجابة صدام لقرارات الأمم المتحدة كما يعلم الفرنسيون. فالطريقة الوحيدة التي يمكن الحصول بها على امتثال سفاح مثل صدام لا تتمثل في مضاعفة عدد المفتشين بل في مضاعفة التهديدات ثلاث مرات بأنه إذا لم يتجاوب سيواجه حربا تقودها ضده الأمم المتحدة. كما اقترح السيد دوفيلبان أيضاً على الحكومة العراقية بأن تسنّ «تشريعا تحظر بموجبه تصنيع أسلحة الدمار الشامل» (لم ألفق ذلك بنفسي). من شأن مقترح كهذا أن يشرح لنا كيف أنه لو أن أمريكا لم توجد واعتمد الأوروبيون على فرنسا، سيكون جل الأوروبيين اليوم يتكلمون إما الألمانية أو الروسية.

أنا أيضا أريد أن أتجنب الحرب - لكن ليس بالسماح لصدام بالإفلات مما سيضعف دور الأمم المتحدة ويعيق هبوب رياح التغيير على العالم العربي ويكرس الفوضى في العالم. لذا، فالطريقة الوحيدة الممكنة لإجبار صدام على الامتثال - سلميا - تتمثل في وقوف العالم بأسره وقفة الرجل الواحد ضد انحرافاته. لكن فرنسا وكما يقولون في روض الأطفال، لا تلعب جيدا مع الآخرين، باعتبار أن الوقوف في صف الضاغطين على صدام هو إذعان للولايات المتحدة في حين أن معارضة ذلك من شأنه أن يجعلها فريدة ومتميزة عن غيرها من بقية الدول. وقد علق على ذلك خبير السياسة الخارجية مايكل ماندلباوم في كتابه «الأفكار التي سيطرت على العالم» قائلاً: «يبدو أن فرنسا تحبذ أن تكون ذات أهمية في عالم كله فوضى على أن تكون مجرد دولة عادية في عالم يسوده النظام».

وفي حال كانت فرنسا جادة فعلا في موقفها، فإنها ستنضم إلى الولايات المتحدة من أجل تعيين موعد أقصى يُلزم العراق بالامتثال وتدعم ذلك بقرار من الأمم المتحدة يسمح باستخدام القوة في حال رفض العراق الامتثال. وبإمكان فرنسا أيضا أن ترسل رئيس وزرائها إلى العراق كي يخبر صدام بذلك مباشرة، لكن رئيس الوزراء الفرنسي كان على سفر الأسبوع الماضي منهمكا في الحصول على صفقات للشركات الفرنسية في أكبر مجمع لصناعات الكمبيوتر في العالم، أي في الهند.

٢٠٠٣/٠٢/٠٩

شاهد على... ماذا؟

يمكن القول إن التوتر الحاصل حاليا بين الحلفاء الغربيين، أي حلف الناتو والأمم المتحدة، حول الطريقة التي يجب التعامل بها مع العراق مثير للقلق والخوف، الخوف من انهيار النظام الأمني الذي حفظ الاستقرار العالمي على مدى الخمسين سنة الماضية في حال أقدمت الولايات المتحدة على التدخل بمفردها في العراق. لقد سبق لوزير خارجية أمريكا السابق دين آشيسون أن تقدم بمذكرة يوم تم بعث هذا النظام الأمني عنوانها «حاضر عند النشأة». فهل بإمكاننا معالجة الشأن العراقي وفي الوقت نفسه نتعهد ألا يكون عنوان مذكرات وزير الخارجية كولن باول «حاضر عند التفكيك»؟

نعم، يمكننا ذلك بشرط أن نأخذ نحن والفرنسيون والروس والصينيون نفساً عميقا وتفهّمنا مصالحنا المشتركة وعملنا على تحقيقها متوخين قدرا كبيرا من العقلانية وبدون أي ارتباك. ويعني هذا أن أعضاء فريق بوش من الصقور في حاجة أن يدركوا أنه يستحيل عليهم تحقيق غايتهم القصوى في نزع أسلحة العراق بدون توفر غطاء كبير من الشرعية الدولية. وفي المقابل يتوجب على الحمائم الأوروبيين أن يدركوا استحالة تحقيق غايتهم في إيجاد حل سلمي للمشكلة العراقية والحفاظ على مكانة الأمم المتحدة وعلى النظام المتعدد الأطراف القائم حاليا دون توافر قدر معين من التهديد الجدي باستخدام القوة ضد صدام حسين.

ولنبدأ بصقور الرئيس بوش. الدرس الأول هنا شبيه بالعرف السائد في محلات بيع الفخار: أي قطعة تكسرها تصبح ملكا لك. وبدورنا إذا قمنا بغزو العراق، يصير مُلكاً لنا. ونكون قد تكفلنا بدرجة أولى مسؤولية إعادة إعمار بلد يقطنه ٢٣ مليون شخص، يشبه في تركيبته يوغسلافيا أكثر مما يشبه أي بلد عربي آخر. وعلى الرغم من ذلك فأنا من الذين يعتقدون بجدوى ونجاعة هذه المهمة سواء لما قد يترتب عليها من إعتاق العراقيين من نير حكم دكتاتوري ظالم أو مما قد تؤدي إليه من تشجيع على إجراء إصلاحات في بقية العالم العربي. ولكن بشرط أن ننفذ ذلك بطريقة سليمة وفعالة. والطريقة الوحيدة لإنجازها بشكل سليم تتمثل في استعدادنا على إتمام جميع مراحلها بالرغم من كونها قد تستغرق سنوات عديدة، وأن قدرتنا على ذلك مشروطة بدورها على أكبر عدد من الحلفاء نكسبهم في صفنا وعلى أقصى غطاء شرعي توفره لنا الأمم المتحدة.

صحيح أننا لا نحتاج إلى حلف كبير لهزيمة العراق لأنه بمقدورنا أن نقوم بذلك

بمفردنا دون الحصول على أي مساعدة، لكننا نحتاج إلى تحالف واسع من أجل إعادة إعمار العراق بشكل لا يثقل كاهل دافع الضرائب الأمريكي ولا يجعل من الجيش الأمريكي هدفا سهلا في عمق العالم العربي والإسلامي. وفي حال قام الرئيس بوش بتنفير بقية الحلفاء من المشاركة في المجهود الحربي - الجزء الذي نقدر عليه نحن بمفردنا - فإنه يكون بذلك قد حرم نفسه من شركاء لنا في السلام - الجزء الأهم والأصعب والذي نحتاج فيه إلى مساعدة كل أصدقائنا وحلفائنا.

وبكل تأكيد يمكن الجزم بأن سماح صدام بعودة مفتشي الأمم المتحدة إنما كان كنتيجة مباشرة للتهديد باستخدام القوة من طرف الرئيس بوش. ولكن بالمقابل وفي حال استمرار الرئيس بوش في إظهار عدم اكتراثه لما قد تفكر فيه كل من الصين وروسيا وفرنسا وأنه سيشن الحرب بمفرده على أي حال، حينها ستصبح غايتهم الرئيسية عدم تقديم أي دعم لنا والحفاظ على موقع المتفرج المحايد. كما أن الحلفاء كانوا قد وقعوا في مطبات عمياء، لاستحالة حصولهم على نتيجتهم المفضلة أي حل سلمي لهذه القضية دون أن يكون هناك تلويح وتهديد جدي وفعلي جماعي باستخدام القوة ضد صدام. ومن ناحيتهم يدرك الفرنسيون وسواهم ذلك، وبالتالي فإن رفضهم ممارسة تهديدات ضد صدام سيؤدي فقط إلى ترسيخ الحل الانفرادي الأمريكي والتقليل من دور الأمم المتحدة وهي المؤسسة التي يستعملونها من أجل كبح جماح الهيمنة الأمريكية.

لذلك تبرز الحاجة إلى تقديم بعض التنازلات. نحتاج أن نقول للفرنسيين والروس والصينيين بأننا سنمهل صدام بضعة أسابيع ونمنحه فرصة أخيرة كي يذعن لطلبات الأمم المتحدة المتعلقة بنزع الأسلحة، بشرط أن يترافق إقدامنا على تلك الخطوة مع موافقتهم على استصدار قرار من الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة في حال عدم استجابة صدام.

وفي حال أصبحت الحرب خياراً لا بد منه، يجب أن يكون ذلك تعبيرا عن قرار دولي وليس عن رغبة أمريكية. كذلك يجب ألا تتحكم عوامل الطقس في توقيت بدء تلك الحرب أو لأن هناك قوات عسكرية قريبة من أرض المعركة سهلت علينا اتخاذ ذلك القرار. ولا يجوز البتة أن نستعجل في البدء بحرب على هذه الدرجة من الأهمية فقط لأننا نخاف من ارتفاع درجات الحرارة لاحقا. وبكل سرور أوافق على تأجيلموعد تلك الحرب لمدة أربعة أسابيع أخرى اليوم من أجل الحصول على دعم الحلفاء على مدى الأربع سنوات بعد انتهاء الحرب. لذلك أحبذ أن نخوض الحرب في طقس حار وتحت غطاء شرعي من الأمم المتحدة والعالم كله يقف إلى جانبنا بدلا من خوضها في طقس بارد ومن دون أي شرعية مما يلقي علينا وحدنا مسؤولية إعادة إعمار العراق.

ومن ناحية أخرى، يجب أن تتحلّى كل من فرنسا وروسيا والصين بشيء من الجدية، والأمر نفسه ينطبق علينا نحن أيضا. إن حديث الرئيس بوش عن كوننا قادرين على خوض هذه الحرب فقط صحبة ما يسمى «تحالف المتطوعين» أي لاتفيا وليتوانيا وإيستونيا، ليس سوى لغو ذي نتائج خطيرة. وذلك لوجود تحالف واحد فقط له وزنه لدى المواطن الأمريكي ولدى المواطن العالمي العادي، إنه ذلك التحالف الذي يحظى بموافقة الأمم المتحدة وحلف الناتو، وهو ما قد نعجز على الحصول عليه، لكن يتحتم علينا أن نبذل كل ما في وسعنا في سبيل تحقيق ذلك قبل الدخول في الحرب. لماذا؟ لأنه ليست هناك أي حرب لا يمكننا كسبها بمفردنا، ولكن ليست هناك أي أمة نستطيع إعادة إعمارها بمفردنا، وخاصة العراق.

١٢/٠٢/٢٠٠٣

الكمامة الصينية

بعد الانتهاء من جلسة للأمم المتحدة انعقدت مؤخرا لمناقشة الشأن العراقي سألت أحد مساعدي بوش عن الموقف الصيني، فرد عليّ «الصينيون؟، إنهم يتصرفون وكأن الأمر لا يعنيهم إطلاقا». وهذا ما يؤكد أن الصينيين يتصرفون وكأن حل المشكلة كلها يقع على عاتق أمريكا، وهو موقف خاطئ جداً لأنه يعكس كيف ترى الصين الصغيرة (ما بالك بفرنسا وروسيا) النظام العالمي الجديد. وإذا كان عليّ أن أشرح ذلك للقادة الصينيين فإني سأقول لهم ما يلي:

أيها الأصدقاء، لقد نتج عن كل حرب كونية كبرى نظام أمني جديد. نتج عن الحرب العالمية الأولى هيئة عصبة الأمم في محاولة فاشلة من أجل إعادة خلق توازن ما بين القوى الأوروبية. وبعد الحرب العالمية الثانية تم إنشاء الأمم المتحدة وحلف الناتو وصندوق النقد الدولي وتركيبة الثنائية القطبية بين كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، وهي تركيبة أثبتت متانتها واستقرارها إلى أن انتهت الحرب الباردة. وأخيرا فجّرت أحداث ٩/١١ الحرب العالمية الثالثة، وهذه بدورها بصدد إفراز نظام عالمي جديد سيكون هو بدوره ثنائيا. إلا أنه وبدلا من تقسيم العالم بين شرق وغرب، قسّم بين عالم النظام وعالم الفوضى. يقوم عالم النظام على أربع أعمدة هي الولايات المتحدة والهند والصين والاتحاد الأوروبي بما في ذلك روسيا، والعديد من الدول الصغيرة الأخرى. أما عالم الفوضى فهو مكوّن من الدول الفاشلة (مثل ليبيريا) والدول

المارقة (العراق وكوريا الشمالية) ودول ظروفها متشابكة وغير مرتبة وكبيرة الحجم على أن تندثر بسهولة ووضعها معقد بحيث يصعب عليها أن تعمل بانتظام مثل (باكستان وكولومبيا وأندونيسيا وكثير من الدول العربية والإفريقية). وأخيرا هناك الشبكات الإرهابية وعصابات المافيا التي تعتاش من حالة الفوضى.

صحيح أنه كان هناك دائما عالم الفوضى، لكن مصدر خطورته الراهنة يتمثل في البعد الكوني لعناصره والإمكانيات التكنولوجية المتقدمة جدا والحدود المفتوحة بين الدول وتداخل النظام المالي عبر شبكة الإنترنت بشكل سمح لشبكات صغيرة من الأشخاص بامتلاك وتكديس إمكانيات هائلة يجعلها قادرة على زعزعة النظام العالمي. بإمكان الأفراد أن يكتسبوا قوة جبارة. وبطريقة أو بأخرى يمكن اعتبار ٩/١١ أول صراع حقيقي من نوعه يدور بين قوة عالمية ومجموعة من الأشخاص الأقوياء جدا وغاضبين ينتمون إلى عالم الفوضى.

من أولى مهام شركاء عالم النظام الأربعة هو العمل المشترك لمساعدة عالم الفوضى على تحقيق الاستقرار والنمو، وهذه مسألة يبدو أن الصين وبكل أسف لم تدركها بعد. كما أنكم (مثل بعض مساعدي بوش) لا زلتم تحملون الكثير من مخلفات ورواسب الحرب الباردة. صحيح أن هناك مثقفين صينيين، ناهيك عن الفرنسيين والروس، يعتقدون أنكم يجب أن تخافوا من الولايات المتحدة لا من أسامة بن لادن أو كيم [زعيم كوريا الشمالية] أو صدام حسين وهذا جنون. وإن قدر لأمريكا أن تدير عالم الفوضى بمفردها، فإن ذلك سيؤدي إلى إرهاق الشعب الأمريكي بسرعة مثلما قال خبير السياسة الخارجية في جامعة جون هوبكينز، مايكل ماندلباوم: «إن وجود قوة أمريكية جبارة لا يهدد الأمن والاستقرار في العالم، بل العكس هو الصحيح». إذ إن من شأن قوة أمريكية متواضعة أن يؤدي إلى توسيع رقعة عالم الفوضى. لذلك يجب على الصين أن تفكر بوضوح. إن مجرد حدوث٩/١١ آخر أو إطلاق كوريا الشمالية لصاروخ نحونا سيؤدي إلى نهاية المجتمع الأمريكي المفتوح كما نعرفه اليوم وإلى تقليص العولمة. كما أننا سنشدد من الرقابة على حدودنا ونعيد تفتيش أي سفينة تدخل موانئنا ثلاث مرات وسنقيد من الحريات العامة بشكل غير مسبوق بحيث إن كل ذلك سيقود بالنتيجة إلى الإبطاء في معدل نمو الاقتصاد العالمي.

وفي آخر بحث أجريته تبيّن أن الصين قررت أن تجعل نموها الاقتصادي يعتمد على الصناعات التصديرية المتجهة إلى الأسواق العالمية وخصوصاً السوق الأمريكية التي تستهلك ٤٠٪ من مجموع صادراتكم! كما أنكم حققتم فائضا تجاريا قدره ١٠٠ مليار

دولار. ويكفي أن يقع ٩/١١ آخر حتى تجدون خططكم التنموية في أزمة حقيقية (إلا إذا قررتم الاقتصار على تصدير الأشرطة اللاصقة)، وهذا بدوره يعني أن القيادة الصينية نفسها ستصبح في مأزق حقيقي. إذا، هل ما زلتم تعتقدون فعلا أنه لا شأن لكم في هذه المشكلة؟ هل لازلتم تعتقدون أنكم أحرار فيما تتخذونه من مواقف بشأن العراق؟ هل لا زلتم تعتقدون أننا سنتحمل بمفردنا عبء كوريا الشمالية؟ لتعيدوا التفكير ثانية إذاً. ولكن بجدية، لأن من حق الصين الاعتراض على الحرب في العراق أو في كوريا الشمالية، ولكن لماذا لا يذهب وزير الخارجية الصيني إلى كل من بغداد وبيونغ يانغ مطالبا ومتوعدا القادة هناك بالحرب إن لم يمتثلوا لقرارات الأمم المتحدة؟ يمكنني أن أتفهم أنكم لا تريدوننا أن نكون متهورين ولكن لماذا أنتم سلبيون إلى هذا الحد؟.

إن ٩/١١ آخر وحرب خاسرة في العراق سيضعفان قوة أمريكا ويورطانها منفردة في الشرق الأوسط. قد يستحسن ذلك أولئك الذين ما زالوا أسرى الحرب الباردة في جيش التحرير الشعبي، لكن في العالم الحقيقي - في عالم لا خطر عليكم فيه من القوات الأمريكية تعبر حدودكم بل الخطر في هروب الدولارات الأمريكية منها - ستصبحون في حالة عطالة. والآن أي جزء من الجملة لم تفهموه؟

١٦/٠٢/٢٠٠٣

قل الحق

لقد ذهلت أثناء استماعي لوزير الخارجية الفرنسي وهو يشرح موقف بلاده أمام الأمم المتحدة الرامي إلى منح صدام حسين مزيدا من الوقت كي يمتثل، من عدد المصفقين له إلى درجة أني تمنيت لو كان هناك من يستحق أن أصفق له. آسف لا أستطيع أن أصفق لوزير الخارجية الفرنسي لأني لا أعتقد أن فرنسا التي باعت العراق أول مفاعلاته النووية الذي دمرته إسرائيل، ستتبنى موقفا نزيها مثلما تتدعي. ووزير خارجية فرنسا الذي يكون قد ابتهج لما لقيته كلمته من ترحاب في الأمم المتحدة، قد يسأل نفسه عمن صفق لكلمته ومن بكى منها في بغداد. بكل تأكيد صدام من بين المصفقين وبكى جميع سجنائه السياسيين أي أغلب العراقيين. ولكنني ومن ناحية أخرى لا أكن أي إعجاب للموقف الصيني والروسي ولا حتى لفريق بوش. كما أني مؤخرا صرت أشعر وكأن لا وجود لأي عاقل في هذه القاعة (باستثناء توني بلير). كلا، فهذه ليست مقالة إدانة للجميع، باعتباري لا زلت من بين أولئك المؤمنين بضرورة مواجهة

صدام – لكن بطريقة صحيحة أي بمساعدة الحلفاء مستخدمين ما هو متوفر لدينا من قوة، إلا أن فريق الرئيس بوش أفسدوا ذلك.

يتمتع العاملين مع بوش بكثير من المكابرة، وضعف الرؤيا الاستراتيجية، ودبلوماسية رهيبة. لقد سبق لي أن غطيت حرب الخليج الأولى ما بين ١٩٩٠ و١٩٩١، ولا زلت أتذكر جيدا تلك الرحلات السبع التي صاحبت فيها وزير الخارجية جيمس بيكر الثالث، والتي جاب فيها دول العالم ليحشد – بمجهود شخصي – تحالفا دوليا ويحصل على تأييد شعبي للحرب، كل ذلك قبل أن يتم إطلاق رصاصة واحدة. والذهاب إلى دولة ما هو دليل احترام لآرائهم. في حين أن فريق بوش الحالي تقاعس عن أي جهد من هذا القبيل، ظنا منهم أن الدبلوماسية هي إجراء مجرد اتصالات هاتفية. كما أنهم لا يحبون السفر إلى درجة أصبحت فيها رؤية أحدهم في الخارج تشبه رؤية أحد الطيور النادرة. ربما يعود ذلك إلى كونهم يقضون وقتا طويلا في واشنطن يتخاصمون في السياسة، بحيث إنهم أصبحوا يخشون مغادرة المدينة خوفا من أن يقدم خصومهم على تغيير أقفال مكاتبهم.

كذلك بإمكان المرء الاعتقاد بأن هيمنة موضوع العراق على مجمل السياسة الخارجية سيؤدي بنا إلى التعامل مع كوريا الشمالية بشيء من المرونة حتى لا نتسبب في اندلاع حربين في الوقت نفسه. وبإمكاننا العثور على بديل – مثلما وعد الرئيس بوش بذلك – لمعاهدة كيوتو، تلك المعاهدة التي تسبب إهماله لها في غضب أوروبي شديد. لا يمكنك أن تنتظر أي تأييد يذكر من الأوروبيين بعد أن قلت لهم: «إما أن تكونوا معنا أو ضدنا في الحرب على الإرهاب، أما فيما يخص الحرب التي تعنيكم – أي جعل كوكبنا أقل تلوثاً – ستقوم أمريكا بما تراه صالحا لها». كما تزعجني الطريقة التي يحاول بها أعضاء فريق بوش تبرير الحرب، بدعوى أن صدام حسين متحالف مع أسامة بن لادن أو أنه سيقدم على ذلك قريبا. بكل بساطة لا يوجد أي دليل على ذلك، وكل مرة أسمعهم يرددون ذلك أتذكر ما حصل أثناء أزمة خليج تونكين. لا يجوز إقحام البلد في حرب بناء على كذبة.

لنعلن الحقيقة ونقول للناس أن صدام لا يشكل تهديدا لنا اليوم لأن بالإمكان ردعه. كما أن التخلص منه هو حرب اختيارية – إلا أنه اختيار مشروع تماما بسبب تجاوزه للأمم المتحدة، وبسبب أنه إذا ترك وشأنه سيسعى إلى امتلاك أسلحة سيهدد بها كل جيرانه، وبسبب اعتقادكم أن الشعب العراقي يستحق أن يعتق من هذا الطاغية وبسبب رغبتكم في مساندة العراقيين على خلق دولة تقدمية تشجع على إحداث

إصلاحات في العالم العربي والإسلامي، بشكل تكف فيه هذه المنطقة عن تصدير شبان غاضبين ومنجذبين إلى الإسلام الثوري بشكل أصبحوا هم أنفسهم يمثلون أسلحة دمار شامل.

هذا هو الدافع إلى الحرب التي ستتطلب سنوات من احتلال العراق وبذل جهود متواصلة من أجل تهدئة الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وخلق ظروف إقليمية تبعث على التقدم. وفي حال تنفيذها بشكل صحيح، ستؤدي هذه الحرب إلى تقليص نفوذ تنظيم القاعدة- بالرغم من أن القاعدة تشكل عدوا منفصلا تجب مواجهته بشكل منفصل وسيظل يشكل تهديدا لنا حتى في حال الإطاحة بصدام.

كما أنه من حق الأوروبيين أن يعارضوا حربا كهذه، ولكن لا يحق لهم معارضتنا فقط بوضع أصابعهم في أعيننا وغرس رؤوسهم في الرمال. وفي المقابل يحق لأعضاء فريق بوش أن يلفتوا انتباه العالم إلى صدام، ولكن أن يقضوا سنتين يستعرضون عضلاتهم مجاناً دفع بالآخرين إلى تجاهل ما تقوله أمريكا. فالعديد من الناس أصبحوا لا ينظرون اليوم إلى قوة أمريكا على أنها شيء حسن. وهذا أمر بالغ السوء.

وبقدر ما لا نستطيع السيطرة على بعض هذه الأمور، فإننا بالمقابل نستطيع السيطرة على بعضها الآخر، وهو ما يتطلب من الرئيس بوش أن يكون في المستوى- بالتخفيض من عنجهيته والبدء بالترويج لهذه الحرب على أساس الحقيقة، وإصدار موازنة عامة تؤهل الأمة لخوض حرب خارجية بدلا من مساعدة فئة معينة في الداخل، والبدء بالقيام بكل ما في استطاعته من أجل خلق مناخ عالمي نستطيع فيه مواجهة صدام بدون أن يحصل فيه على تعاطف العالم معه.

٢٠٠٣/٠٢/١٩

حقيبة إسعاف

تملكتني خلال الأسابيع القليلة الماضية فكرة مضللة مفادها: هل بالغنا في رد فعلنا على أحداث ٩/١١؟ وهل سنودي بأنفسنا إلى الجنون قبل أن يفعل بنا ذلك أسامة بن لادن؟ لن أقلل ولا بأي شكل من الأشكال من أهمية أحداث ٩/١١، خاصة وأني القائل بأنها تشكل بداية الحرب العالمية الثالثة. كما أني لا أملك أي ذرة نقد تجاه الأف بي.آى أو السي.أي. آى أو مديرية الأمن الداخلي لإصدارهم تحذيرات كلما رأوا

وجود تهديدات إرهابية. إنهم يؤدون واجبهم. لكني أتساءل أحيانا عما إذا كنا نحن نقوم بواجباتنا المتمثلة في التأقلم مع هذه الأخطار، بدلا من الإفراط في إتباع أساليب لا توفر لنا أي أمان بل أطنان من القلق والخوف. لقد بدأت هذه الهواجس طريقها إلى رأسي بعدما شاهدت مراحل إجراءات التفتيش في المطار تتراكم. تبدأ بدفع عربة حقائبك وعرضها على جهاز الكشف بالأشعة والمرور عبر جهاز الكشف المعدني، ثم تقوم بعد ذلك بإخراج كمبيوترك المحمول، وصولا إلى الكشف عن ملقاط الشعر من حقيبة الأدوات الشخصية وخلع حذائك الذي يليه خلع الحزام. أحيانا ألتفت حولي في المطارات ويخيَّل إليّ كأني في أحد حفلات البيجامات الغريبة. وكل ما أخشاه الآن أن يغدو ما ذكرته سابقا في مقالة ساخرة لي عنوانها «الطيران عاريا» أشرت فيها أنه من الأفضل لنا جميعا أن نسافر عراة لتجنب كل هذه المتاعب، قد يصبح حقيقة معيشة.

ثم ظهر الرمز البرتقالي ثانية، أكرر هنا أن لا مشكلة عندي مع هذه الإنذارات. لكن هل من الضروري أن تقوم شبكة السي. أن. أن والأم. أس. أن. بي. سي بإظهار نوع الإنذار بشكل دائم في أسفل الزاوية اليمنى من الشاشة تماما فوق تقارير سوق الأسهم؟ وكأنهم يقولون: «هبوط مؤشر نازداك وارتفاع درجة الإرهاب، طاب يومكم». هل يتوقع المشرفون على مثل هذه القنوات من مشاهديهم عند مشاهدة هذه الإنذرات سوى أن يصبحوا أشد قلقا؟ وقد نقلت جريدة الدايلي- نيوز في نيويورك عن أحد المذيعين بمحطة راديو محلية ترحيبه بالعاصفة الثلجية التي هبت على الساحل الشرقي لأنها أزاحت أحاديث الإرهاب من الواجهة، فقال: «لقد كان... يوما خاليا من الحديث عن صدام، استراحة احتجنا إليها منذ مدة».

حين سألتني زميلة لي عن خطة الطوارئ التي ستعتمدها أسرتي في حال تعرض واشنطن لهجوم إرهابي. وبعد أن أجبتها أن لا خطة لدي شعرت بوخز الضميرالأبوي. لكني سرعان ما تساءلت: كيف يمكن لأي كان أن يستطيع مغادرة هذه المدينة في حالة الطوارئ، باعتبار أن الطرق المؤدية منها وإليها هي في حالة ازدحام دائم في الأيام العادية؟ كذلك سألني صديق آخر مازحا عما إذا كنت سمعت نكتة متداولة أخيرا حول ردود الفعل فيما لو وقع هجوم إرهابي ومفادها: لنفترض أنه بينما كنت تقود سيارتك متوجها إلى بيتك أطلق أحدهم غازات سامة في الجو، وبالنتيجة قامت زوجتك التي كانت في البيت حينها بإغلاق جميع المنافذ بالأشرطة اللاصقة والأغطية البلاستيكية وقبعت في «الغرفة الأكثر أماناً» في المنزل. وعند وصولك، هل ستفتح لك زوجتك الباب لتدخل أم لا؟ وبعد التردد هنيهة أشرت عليه بالتوجه بالسؤال إلى «خبيرة السلوك»

أو أحد اختصاصي العلاقات الزوجية. ولكن ما جعلني أفقد صوابي هو التقرير الذي تطلب فيه تركيا مبلغ ٣٢ مليار دولار مقابل سماحها للولايات المتحدة باستخدام قواعدها العسكرية لتسهيل عملية غزو العراق. وبالرغم من أني أؤيد تقديم مساعدات للأتراك إلا أني أكاد أسمع ضحكاتهم منا وهم يقولون: «وبما أن الأمريكيين مهووسون بصدام وأسامة، دعونا نستغلهم قليلا».

إضافة إلى كل ذلك هناك نوع آخر من الإجراءات الأمنية الزائفة كتلك التي تتعرض لها حين تذهب لمشاهدة إحدى مباريات فريق «ويزادز» لكرة السلة في واشنطن حيث يطلب منك حقيبتك أو محفظتك الشخصية، وكأنهم يجهلون تماما أنه بمقدور أي إرهابي جاد أن يخفي مسدسه أو قنبلته تحت ملابسه بكل سهولة. لا أمانع إن كانت مثل تلك الإجراءات ستجعل الناس يشعرون أكثر بالأمان، لكن العكس هو ما يحدث غالبا لأنها تجعل الناس يشعرون بعدم الأمان أكثر وكأنهم يعيشون في ظل دولة بوليسية.

باختصار هناك العديد من المخاطر في ظل المجتمع المفتوح والعديد من الثغرات وكذلك العديد من المعاملات المبنية على الثقة أساسا. وبالتالي لا يمكنك أن تزيل كل ذلك بدون الإجهاز كليا على انفتاح المجتمع. لذا، وبعد أن تصل الأمور إلى نقطة معينة، لا يكون الرد الصحيح في المطالبة بمزيد من الإجراءات الأمنية بل في التعايش والتأقلم مع حالة القلق المتزايد.

ولأن المسألة ليست في إمكانية حدوث اعتداءات أخرى، لأنها حتما ستقع، بل المسألة هي هل بإمكاننا وبعد أن نتعافى منها، الحفاظ على انفتاح مجتمعنا؟ ما الفائدة من إجبار أسامة على الاختباء في قبو ما في مكان ما، إذا كان قادرا وبهمسة منه تبثها قناة الجزيرة على أن يجعلنا نحصر أنفسنا في غرف مغلقة ومختومة بإحكام؟ بكل تأكيد هذا أمر غير جيد. لذلك وبالنتيجة اقتصرت قائمة مقتنياتي من معدات النجاة على مجموعة جديدة من «Ben Hogan Apex irons» منذ أن صدر الرمز البرتقالي. ولذلك أيضا كانت معدات النجاة الأمريكية الصنع التي سأقتنيها ستحتوي القائمة أيضا على دليل للأفلام المعروضة وجدول الحفلات الموسيقية ومزلجة ودراجة إضافة إلى مذكرة من أجل حضور اجتماعات مجلس الأولياء والأساتذة، ومواعيد مباريات فرق الدرجة الثانية ومواعيد حفلات الجيران وزيارة المكتبة وشراء العديد من التذاكر لحضور مباريات فريقي المفضل. وسأترك الإقامة بالكهوف لأسامة.

٢٠٠٣/٠٢/٢٣

القنبلة الطويلة

وبعد مشاهدة تفاعلات المسألة العراقية، كل ما يمكنني قوله هو الآتي: إن لم يكن من أجل بلادي ومن أجل أولادي ومن أجل الكوكب الذي أعيش فيه، فإنني سأنسحب جانبا وأتفرغ لزراعة الذرة وأجلس على كرسي لأشاهد تفاعلات هذه المسألة من بعيد. لأن ما نشاهده اليوم يعد أكبر مجازفة أقدم عليها أي رئيس أمريكي بإرادته منذ أن قرر هاري ترومان إلقاء القنبلة الذرية على اليابان. صحيح أن فيتنام كانت مجازفة كبيرة إلا أنها انتهت وفقا للتوقعات. وكذلك كان التهديد باندلاع حرب نووية مع الروس بسبب أزمة الصواريخ الكوبية بمثابة تحد كبير واجهه الرئيس جون كينيدي، لكنها كانت مغامرة فرضت عليه فرضا ولم يقم هو بافتعالها.

إن أي غزو أمريكي للعراق ونزع أسلحته والإطاحة بصدام حسين وإعادة إعمار ذلك البلد سيكون بمثابة أم المجازفات الرئاسية. ومن الجنون القول بأن الرئيس بوش سيقدم على ذلك فقط من أجل تحقيق مكاسب سياسية. إذ يستحيل أن تُقدِم على مهمة كهذه إن لم تكن تؤمن بجدواها وفاعليتها الكبرى. لذلك نجد السيد بوش قد راهن بكل رئاسته عبر الدخول طوعا في هذه الحرب. كما أنه لا يجب الوثوق بنتائج استطلاعات الرأي، لأني جلت مؤخرا عبر عشرين ولاية أمريكية ووجدت أن ما يقرب على ٩٥٪ من الأمريكيين يريدون أن تتم معالجة المشكلة العراقية بدون اللجوء إلى الحرب. إلا أن الرئيس بوش مصمم على غير ذلك. لأن مجموعة صغيرة من مستشاريه أقنعته «بإلقاء القنبلة الطويلة» - في محاولة من أجل إحداث تغيير في أكثر بلدان الشرق الأوسط خطورة- وهذه لعبة تغيير جيوسياسي كبيرة، ربما قد تؤدي إلى وضع مجمل العالم الإسلامي في مسار تقدمي، وهذه مهمة لا تتحقق بالمسايرة والمراضاة، بل هي مهمة يمكن إنجازها فقط ببناء نموذج مغاير تماما في عمق العالم العربي الإسلامي. وهذه حالة لا تتكرر كثيرا لأنها فعلا مغامرة جريئة جدا، تسببت بدورها في المعضلة التي أنا فيها الآن باعتبار أن زوجتي معارضة للحرب، لكن هناك شيئاً ما أغراني في ما يطرحه الرئيس بوش الذي أوجز ببلاغة في خطابه الذي ألقاه الأسبوع الماضي حين قال: «باستطاعة العراق المحرر أن يبرهن ما للحرية من قوة باعثة للتحول في تلك المنطقة الحيوية وبعث الآمال بالتقدم في حياة الملايين، وهذا ما يتماشى مع اهتمام أمريكا بالأمن والاستقرار. أي عراق حر ومسالم».

تتلخص معضلتي في قناعتي بفاعلية مثل هذا المشروع الجريء من جهة وخوفي من فشل الرئيس بوش في خلق الظروف الملائمة التي ستساعده على ضمان النجاح فيما يعتزم الإقدام عليه، ظروف من شأنها أن تزيد التأييد اللازم والضروري لذلك. يبدو أن الرئيس وفريق عمله أقدر من غيرهم على طرح مثل المشروع، إلا أنهم آخر من يجوز لهم تنفيذه، بدليل أنهم اقتصروا على التحضيرات العسكرية (التي دفعت بصدام إلى البدء في نزع أسلحته) في معرض التمهيد لذلك.

ما معنى ذلك؟ إذا كانت الإطاحة بصدام وإعادة إعمار العراق من بين أهدافي منذ أن توليت الرئاسة (مثلما هي حال فريق الرئيس بوش)، حينها لن أعمد إلى إثارة غضب الأوروبيين عبر الاستهزاء من معاهدة كيوتو دون تقديم أي بديل عنها، ولن أقصي وأهمش كافة النخبة الروسية المعنية بالحفاظ على الأمن القومي الروسي عن طريق التخلي (من جانب واحد) عن معاهدة إي.بي.أم. ABM المتعلقة بالحد من الأسلحة الباليستية، مكتفيا بمطالبتهم بمجرد التعايش مع هذه الحقيقة الجديدة (وها أننا نشهد اليوم ثأرهم منا). كما أني لن أقترح تخفيض جذري في الضرائب عشية إقدامنا على مشروع إعادة إعمار بلد خارجي باهظ التكاليف وطويل الأمد. بل سأقدم بدلا من كل ذلك، على حشد الأمة وراء برنامج للحد من استهلاك الطاقة وأبادر إلى مشروع مانهاتن للبحث عن مصادر بديلة للطاقة متجنبا بذلك الحالة الراهنة التي يكلفنا فيها غالون واحد من البنزين ٢,٢٥ دولار، في الوقت الذي نحن مقدمون فيه على الدخول في حرب وذلك بسبب اقتراب الأوبك من السقف الإنتاجي المسموح به. وكذلك سأبلغ الفلسطينيين بإنه ما إن لم يكفوا عن العمليات الانتحارية وما إن لم يبحثوا عن قيادة أكثر جدية فإننا لن نتعامل معهم. إلا أني في المقابل سأبلغ الإسرائيليين بأن كل مستوطنة جديدة توسعية يبنونها ستكلفهم ١٠٠ مليون دولار يتم حذفها من مجموع المساعدات الأمريكية لهم. وكذلك سأقول لبقية العرب ما يلي: «صحيح أننا سنتولى أمر التهديدات العراقية، لكننا لا نملك أي نوايا إمبريالية فيما يخص مجتمعاتكم لأننا لسنا صليبيين، لكن ذلك لا يعني أننا سنبقى مكتوفي الأيدي في حال أنكم تسامحتم مع المتشددين المتواجدين بينكم والذين يشكلون خطرا على ديمقراطيتنا».

كلا، فحتى لو قام السيد بوش بكل ذلك لما أمكنه أن يغير شيئا من موقف فرنسا وروسيا وبقية العرب، بل وحتى زوجتي. إلا أني مقتنع بأن من شأن ذلك أن يساعد على الحصول على المزيد من التأييد لتحصين فرص بقائنا في العراق ويحصننا ضد كل ما من شأنه أن يعيقنا هناك.

وباختصار، هذا ما أشعر به الآن: أشعر أن ما يطرحه علينا الرئيس يشبه طاولة خشب ماهاغوني جميلة - رؤية بعيدة وجريئة. لكن إذا نظرنا إلى الأسفل سنكتشف أن هذه الطاولة تستند على ساق واحدة فقط. وهكذا نجد أن رؤيته الجريئة فيما يتعلق بالعراق تفتقد أي دعائم صحيحة في بقية المسائل المتعلقة بتلك القضية، لذلك ينتابني قلق شديد خوفا من أن يكون الرئيس بوش قد اتخذ قرارا صائبا لكنه غير قادر على تنفيذه.

٢٠٠٣/٠٣/٢

الجاهزية الأمريكية

عندما حضرت المؤتمر الصحافي الذي عقده الرئيس بوش يوم الخميس الماضي لأشاهد مباشرة الطريقة التي سيعالج بها موضوع الساعة، أي العراق، كانت هناك جملة واحدة فيما قاله جلبت انتباهي لأنها تعكس كل مخاوفي، كقوله: «في الحقيقة، نحن لسنا في حاجة إلى الاستئذان من أحد، حين يتعلق الأمر بأمننا القومي».

أول ما أزعجني من كلام كهذا هي جملة «..حين يتعلق الأمر بأمننا القومي»، والواقع لا يمكن اعتبار غزو العراق اليوم حيويا بالنسبة للأمن القومي الأمريكي، وليس لصدام لا النية ولا القدرة على تهديد أمريكا، وفي حال إقدامه على ذلك، بإمكاننا ردعه بسهولة. فهذه ليست حرب مضطرين إليها مثلما هي الحال في أفغانستان، حربنا ضد العراق اختيارية بحتة، ولكنه خيار مشروع من أجل الحفاظ على هيبة الأمم المتحدة التي تحداها صدام على مدى الاثنتي عشرة سنة الماضية، وكذلك من أجل وضع حد لاستبداده وطغيانه واستبداله بنظام محترم قادر على ريادة إصلاحات جذرية في العالم العربي الإسلامي. هذه هي الحقيقة من أساسها.

إن المشكلة تكمن في مبالغة السيد بوش في تركيزه على هذه النقطة في معرض رده على الانتقادات المشروعة لهذه الحرب عن طريق تصويره لحرب اختيارية على أنها حرب اضطرارية، لذلك من الطبيعي أن يتساءل الناس: «ما الذي يحدث هنا. لا بد أنه تم استغفالنا، قد يكون السبب الحقيقي لهذه الحرب إما الثار لأبيه أو النفط أو بدافع إيديولوجيا يمينية»، وهذا ما يقودنا إلى الشق الآخر من الجملة: «في الحقيقة نحن لسنا في حاجة إلى الاستئذان من أحد» مرة أخرى. طبعا لم نكن في حاجة إلى الاستئذان من

أي كان لشن حرب على الإرهابيين في كابول منفذي ١١/٩، لكننا نحتاج إلى موافقة العالم أجمع من أجل خوض حرب اختيارية في العراق بسبب ما تتطلبه عملية إعادة إعماره.

يقتصر حديث السيد بوش على صحة قرار إسقاط النظام العراقي الرهيب فقط، دون التعرض إلى ذكر ما هو مطلوب من أجل إعادة إعمار العراق بنجاح - هذا البلد البعيد بحجم كاليفورنيا والمنقسم على نفسه مثل يوغسلافيا. أؤمن بضرورة تقديمنا مساعدة من أجل بناء عراق محترم، لكن لا أن نقوم بذلك منفردين لأن ذلك سيتحوّل إلى احتلال أمريكي بحيث سنصبح هدفا لغضب الجميع، بالإضافة إلى عدم قدرة الأمريكيين على الصبر اللازم وانعدام القوة البشرية والطاقة المطلوب توافرها لإعادة إعمار بلد ما، إذا ما أخذنا بالاعتبار طبيعة ذلك الجهد الماراتوني. كما أن السيد بوش يزعق ساخطا لأن العالم يطلب منه أن تتصرف أمريكا بلياقة مع الموضوع العراقي بدون أن يتساءل هل نحن قادرون فعلا على إنجاز ذلك بدون مساعدة من أحد؟ قطعا لا.

لنرَ أين نحن إذاً. السيد بوش على حق فيما يخص الإطاحة بالنظام العراقي لما في ذلك من فوائد جمة بالنسبة للعراق ولمنطقة الشرق الأوسط بل وللعالم بأسره. لكن وعلى ما يبدو حتى الآن، يظل هذا القرار صعب جدا تسويقه. وفي حال عجز الرئيس عن جعل العالم أجمع يتبنى هذا الخيار، حينها علينا أن نراجع خياراتنا وتكتيكاتنا وذلك لأن ما سيترتب على التصرف الأحادي لن يقتصر على إضاعتنا فرصة بناء عراق أفضل، بل سينهار الدور الريادي لأمريكا وفاعليتها الاستراتيجية وقيادتها الأخلاقية للعالم الحر.

وكدعم لما قلت سأروي لكم الواقعة التالية: سنة ١٩٤٥ اجتمع ملك العربية السعودية، الملك عبد العزيز بن سعود بالرئيس فرانكلين د. روزفلت على متن باخرة في قناة السويس. وقبل أن يوافق على الاجتماع، استفسر الملك عبد العزيز، وهو بدوي في العمق، عن الرئيس روزفلت طارحا سؤالين اثنين على مستشاريه فقال: «قل لي هل يؤمن بالله؟ وهل لديهم - أي الأمريكيين - مستعمرات؟». لقد قصد الملك السعودي بسؤاله ما يلي: فيمَ يستعمل هؤلاء الأمريكيون قوتهم الهائلة؟ هل هم مثل الأوروبيين، يسخّرون قوتهم للبحث عن المستعمرات وتحقيق مصالح إمبريالية خاصة، أم أنهم يسعون إلى تحقيق غايات أكثر نبلا؟. لا زال هذا هو السؤال الأهم فيما يتعلق بالأمن القومي الأمريكي لأن العالم لا يريد أن يقوده متشائمون على شاكلة وزير الخارجية الفرنسي ورئيسه، ولكنه في الوقت نفسه لا يريد أن تقوده أمريكا خاصة وأن كونغرسها لم يتخلص بعد من آثار صدمة ١١/٩، مما أعاقه عن التفكير بشكل سوي وما دام

رئيسها مصمما على شن حرب ضد العراق على أساس إيديولوجي مهما كانت التكاليف أو التحالفات والآثار الناجمة عن ذلك. ولكن إذا أزحنا فرنسا جانباً، لا يزال العالم مستعد لتقبل قيادة أمريكا له إذا تحلت بتواضع أكثر وأبدت قابلية أكثر للاستماع، وأبدت استعدادها كي تقول لحلفائها: كيف يمكننا أن نعالج هذه المسألة؟ كم من الوقت تحتاجون للتأكد مما إذا كان عمل المفتشين مجديا برأيكم حتى توافقوا على استخدام القوة إذا اتضح العكس؟

لنتأمل كيف تصرف فرانكلين د. روزفلت الذي ربح لتوه الحرب العالمية الثانية حيث كانت أمريكا في أوج قوتها ولم تكن في حاجة إلى إذن أي كان. وهكذا، وأثناء عودته من يالطا، وبالرغم من أنه كان يستعمل كرسيا متحركا، سافر فرانكلين روزفلت إلى الشرق الأوسط ليجتمع بقادة أثيوبيا ومصر والعربية السعودية وليعبر عن احترامه لهم. لماذا؟ لأنه أدرك حاجته إليهم ليس لربح الحرب بل لربح السلام.

٢٠٠٣/٠٣/١٢

عناقيد الغضب

أود أن أعترف أني مباشرة بعد ٩/١١، تسلّمت شريطا تسجيليا لكورس طائفة المورمون تضمّن «نشيد معركة الجمهورية». استمعت إلى ذلك الشريط وأنا أقود سيارتي مرات عديدة بل وأحيانا أنشد مع الفرقة وأنا أقود سيارتي. لم تكن المشاعر الوطنية وحدها هي التي أثارتني بل ذلك الإحساس بالوحدة الوطنية، خاصة وأن فرقة الكورس هذه كانت قد أدت هذا النشيد في نهاية القداس الذي أقيم في الكاتدرائية الوطنية بعد ٩/١١. وبالرغم مما اتصفت به تلك اللحظة من حزن وأسى فإني لا زلت أنظر إليها الآن بشيء من الاشتياق لما عكسته من تضامن بين الأمريكيين حيث تكافل الناس فيما بينهم ووقفوا جميعا خلف الرئيس. وهذا ما يجعلني الآن أشعر بحزن شديد وذلك لأننا مقدمون على ما يبدو على حرب ستقضي على كل التضامن الوطني وعلى أي نية حسنة أعقبت أحداث ٩/١١، سواء في بلادنا أو في بقية دول العالم.

وبما أن هذه حرب ذات طبيعة غير معهودة في السابق، فإنني أشعر من الأعماق بما يلي: أولا، هذه حرب اختيارية، وصدام حسين لا يشكل أي تهديد مباشر لنا حاليا. إلا أن مواجهته أمر مشروع تماما - أكثر مشروعية مما يتصوره الليبراليون الجبناء

وأصحاب الاتجاهات المسالمة - فبالإطاحة بصدام حسين والتخلص من هوسه لامتلاك أسلحة الدمار الشامل ووضع حد لدكتاتوريته والمساعدة على تنشئة عراق أكثر تقدمية مما قد يساعد على إجراء إصلاحات في العالم العربي الإسلامي، نكون قد قمنا بأفضل رد بعيد المدى على البن لادنية. بعض الأمور تكون صحيحة حتى وإن اعتقد بها جورج بوش.

ثانيا، إن عملية بناء سلام دائم في العراق هي أصعب بكثير مما يتصور صقور بوش. لأن العراق هو يوغسلافيا العرب، بلد منقسم على نفسه بين الأكراد والشيعة والسنة، تشكل بفعل القوة البريطانية ولم يعرف سوى القبضة الحديدية كأسلوب حكم. وبالتالي يعد تحويل العراق إلى دولة ذات حكومة مسؤولة وتتمتع بإجماع المواطنين وجديرة بالاحترام، سيشكل أكبر وأصعب حرب اختيارية خاضها أي رئيس أمريكي، وذلك لأنها لا تهدف إلى التخلص من صدام فقط، بل لأنها ترمي إلى بناء عراق موحد لأول مرة في تاريخه.

وهذا ما سأتناوله كاستنتاج ثالث، وهو أن تعهداً كهذا بنجاح في دولة تعاني من جراح وتصدعات وأحقاد مثلما هو حال العراق، يتطلب مشروعا مدروساً يتم النظر إليه سواء من داخل العراق أو المنطقة أو بقية دول العالم على أنه أمر مشروع لا يمكننا تنفيذه إلا إذا توخينا حذرا شديدا مما يجعل من موافقة الأمم المتحدة وبقية الحلفاء أمرا في غاية الأهمية.

يتركز نقدي للرئيس بوش أساسا في فشله بالإقرار بالطبيعة الفريدة لهذه الحرب الاختيارية - سواء بالنسبة للأمريكيين أو لبقية دول العالم - لذلك لم يقدم على انتهاج أي سياسات جريئة تتماشى مع طبيعة هذه الحرب. وبدلا من ذلك لجأ إلى التهويل من أمر تهديد العراق لنا بشكل بدت معه وكأنها حرب اضطرارية مضافا إلى ذلك ما أقدم عليه من خيارات خاطئة في فترة ما قبل ٩/١١: خفض الضرائب وعدم الاكتراث بالمخاوف العالمية المتعلقة بالبيئة، والإفراط في استهلاك الطاقة وإهماله لعملية السلام العربية الإسرائيلية وانتهاجه لدبلوماسية التهديد والوعيد.

وأخيرا الاستنتاج الرابع، بالرغم من كل الضجيج المثار، لا زالت الأغلبية المحترمة في العالم متعطشة إلى مساومة تجبر بها صدام على الامتثال أو مواجهة مصيره بشكل لا يضعف من مكانة الولايات المتحدة.

لذا، سيادة الرئيس، وقبل أن تجازف بالدخول في حرب متهورة بالرغم من

مشروعيتها، حاول ولو لمرة أخيرة القيام بمبادرة دبلوماسية شجاعة. انطلق من حيث توقف وودرو ويلسون: طر إلى باريس، واجتمع بزعماء فرنسا وروسيا والصين وبريطانيا إضافة إلى أمين عام جامعة الدول العربية، وامنحهم مدة معقولة من أجل القيام بالمزيد من عمليات التفتيش - وفي حال موافقتهم على إجراءات معينة لنزع الأسلحة يتوجب على صدام الامتثال لها وإلا فإنهم سيوافقون آليا على قرار للأمم المتحدة يجيز استعمال القوة ضده إذا لم يمتثل. وإذا استمرت فرنسا في تعاليها عليك، سيرى العالم أنك أنت من يحاول جاهدا الحفاظ على الأمن الجماعي، وأن فرنسا لا تريد سوى الإزعاج. وهذا أمر حيوي جدا لإضفاء الشرعية على أي حرب.

سيادة الرئيس، لم يسبق لي أن شعرت بالضيق كأمريكي مثلما شعرت في الأيام التي تلت ٩/١١. وبالرغم من جدية الأخطار المحدقة، فلم أشعر بالتفاؤل من قبل كالذي شعرت به أثناءها، وذلك بسبب الوحدة الوطنية التي سادت وشعرنا بها جميعا في مواجهة تلك التهديدات. وفي حال ضياع ما تبقى من تلك اللحمة التي أعقبت ٩/١١، بسبب قرار أحادي الجانب بشن الحرب، حينها لا تقتصر تضحيتنا على تلك الأحاسيس النبيلة بل ستشمل الأساس الذي نشرف من خلاله على تسيير هذا العالم المعقد والخطير. أي قدرتنا على الوقوف متحدين فيما بيننا ومع غيرنا- قدرتنا على الإنشاد معا «نشيد معركة الجمهورية» وعلى جعل العالم يردد ذلك معنا على الأقل.

٢٠٠٣/٠٣/١٢

ترميم العالم

بعد أن تطالع الصحف اليومية، لا تعرف إن كنت ستبكي أو ستضحك هذه الأيام. لقد تم اغتيال رئيس وزراء صربيا، وكل من لا يرى في ذلك نذير شؤم، لا بد أنه لم يأخذ درس التاريخ حول الحرب العالمية الأولى. كما أن بلغاريا هي أقوى حليف لنا في هذه الحرب - بلد احتفظت تجاهه بمشاعر خاصة - لا لأنه حمى الأقلية اليهودية خلال الحرب العالمية الثانية، بل لأنه البلد الذي تحالف مع كل الدول الخاسرة في جميع الحروب التي وقعت خلال المائة سنة الماضية. ومن جهته قام الكونغرس بتسمية «الفرنش فرايز» بطاطا الحرية. كما أن الرئيس بوش أصبح يتمتع بشعبية أقل من تلك التي لصدام حسين على المستوى العالمي، وها هو يحاول مد الجسور مع أوروبا للحصول على دعم دبلوماسي منها عبر السفر إلى جزر الآزور النائية في عمق المحيط

الأطلسي لحث زعماء بريطانيا وإسبانيا على الوقوف معه بثبات. كانت المرة الوحيدة التي زرت فيها تلك الجزر، حين رافقت وزير الخارجية السابق جيمس بيكر. تم ذلك على ما أذكر أثناء واحدة من جولاته السبع التي خصصها لأجل كسب التأييد العالمي تمهيدا لخوض حرب الخليج الأولى، نزلنا هناك لأجل التزود بالوقود فقط.

وبالرغم مما قيل، يسعدني أن يجتمع السيد بوش بتوني بلير. وفي الواقع أتمنى لو يتسلم هو زمام الأمور في كل ما يتعلق بالأزمة العراقية، وذلك لتمتع بلير برؤية كونية يفتقدها السيد بوش بوضوح. وقد علق على ذلك خبير شؤون الشرق الأوسط ستيفن كوهين فقال: «يجب أن يتولى بوش قيادة تجميع القوى الضرورية لهذه الحرب، ولكن على أن يتولى توني بلير الإشراف والتسيير وتوجيه تلك القوى». لماذا؟ ما الذي يجعل توني بلير أفضل من جورج بوش؟ الطريقة الوحيدة التي تساعدني على شرح ذلك تتمثل في استعارة مفهوم توراتي يدعى «تيكّوم عُلام» أي ترميم أو إصلاح العالم. وكل من استمع إلى خطب توني بلير خلال الأسابيع الماضية سيلحظ ما تحتوية من مؤثرات هي مفقودة تماما من خطب السيد بوش. يقوم توني بلير باستمرار بطرح المسألة على أنها صراع من أجل بعث عراق أفضل ضمن بعد أخلاقي عام، كما يتولد لدى المستمع إلى توني بلير بأن حرب العراق في نظره ما هي إلا مسمار واحد وطرقة واحدة ضمن المجهود الكوني «لترميم العالم».

هل استمع أحدكم إلى خطاب السيد بلير الأخير حول البيئة؟ لقد دعا إلى إنشاء «ميثاق عالمي جديد يهدف إلى حماية البيئة ومكافحة الآثار التدميرية الناجمة عن تغير المناخ. لأن كيوتو ليست بالراديكالية بما فيه الكفاية، وفي آخر المطاف يتعلق ذلك بوضع عالمنا باعتباره قرية كونية... نفتقر حاليا إلى برنامج عمل عام وشامل للجميع وعادل... هذه من أولى مهمات رؤساء الدول الآن».

هل استمعتم إلى توني بلير يتحدث عن نزاع الشرق الأوسط يوم الجمعة الماضي؟ لقد قال: «صحيح أننا محقون في تركيزنا على صدام حسين وما بحوزته من أسلحة دمار شامل، لكن يجب أن نركز بالقدر نفسه على ما تعدهنا به تجاه من دمرت حياتهم من المدنيين الفلسطينيين والإسرائيليين بسبب تجمد المسار السلمي».

بالمقابل نجد السيد بوش يعلن عن استئناف مفاوضات السلام بالطريقة نفسها التي يتحدث بها من هو على وشك إجراء عملية حفر في أسنانه. وفيما يتعلق بالبيئة، فلم يتطرق الرئيس بتاتاً إلى ما لحق به من ضرر جراء تنصله من معاهدة كيوتو. وهو تنصل

غير جائز بدون طرح أي بديل آخر. لا يمكن مقارنة درجة الأذى الذي ألحقه بوش بسمعة أمريكا بالانطباع الذي تركه حين تعلق الأمر بمكافحة الإرهاب - حربنا - التي يجب أن تكون في شكل حملة صليبية (عالمية)، لكن فيما يتعلق بالبيئة - فهي حرب تخص الآخرين وحدهم - سنقوم بما نراه مناسبا لنا.

بلى، هناك العديد من الدول والشعوب التي تغار مما تتمتع به أمريكا من قوة، لذلك نجدهم يعارضوننا فيما يتعلق بالعراق. لكن في الحقيقة هناك ما هو أعمق وراء موقفهم المعارض ذاك. الواقع أني أتعاطف تعاطفاً تاماً مع موقف الرئيس حول إنهاء حكم صدام الدكتاتوري وبناء عراق أكثر تقدمية واحتراما. وإذا ما تم تنفيذ ذلك بطريقة صحيحة فسيكون لذلك تأثير بالغ على مستقبل العالم العربي الإسلامي، وهذا ما يدفعني للتمسك بموقفي المؤيد لهذه الحرب. لكن هل يمكن الوثوق بقدرة فريق بوش على إنجاز ذلك بشكل صحيح؟ تكمن أكبر مشكلة يواجهها في وجود أعداد غفيرة ممن يشكّون في صدق ورغبة الرئيس في ترميم العالم حقيقة وأن كل شيء مرتبط بالحرب على الإرهاب. يعلم الله وحده أنني لا أهون من حجم الأخطار المحدقة بنا، لكن كل ما قمنا به على مدار ١٨ شهرا الأخيرة هو تصدير مخاوفنا إلى بقية العالم. عمليا لقد تمحورت كل خطب السيد بوش حول كيف سنحمي أنفسنا ومن سنهاجم لاحقاً. باختصار، لقد اختفت أمريكا منارة التفاؤل - أمريكا أكبر نجاري العالم وليس الشرطي العالمي فحسب - لذلك نحن في حاجة اليوم إلى القليل من جون واين والكثير من جون كينيدي. وبمجرد أن نتجاوز أزمة العراق هذه، فما علينا إلا أن نستأنف تصدير آمالنا وليس مخاوفنا فحسب.

٢٠٠٣/٠٣/١٦

يوم الإنزال

بما أن الرئيس بوش مفتون بالتشبيه الصوري لرعاة البقر، تبادرت إلى ذهني الصورة التالية حول حربنا الوشيكة مع العراق: دائما ما يرد في أفلام «رعاة البقر» يقوم الطيبون بالاجتماع ببعض المرشدين قبل أن يقدموا على دخول المدينة لمقارعة أشرارها، وهذا على العكس تماما مما نقوم به نحن الآن. لأننا نأمل في العثور على هؤلاء المرشدين بعد أن ندخل بغداد وحدنا تقريبا. آمل أن نتوفق في ذلك، لأنها الفرضية الوحيدة التي تكفل لنا أن نغادر المدينة دون إلحاق أضرار بليغة بالطرفين.

لقد جادلت كثيرا ومنذ بداية النقاش أن الإطاحة بنظام صدام حسين ومساعدة العراقيين على تعويضه بحكومة محترمة ومسؤولة سيصبح بمثابة نموذج يحتذى به في منطقة الشرق الأوسط، هي مسألة جديرة بالمجازفة - ولكن ليس لأن العراق يشكل تهديدا لنا بما لديه من أسلحة ولكن بسبب ما تشكله تلك التشكيلة من المجتمعات العربية الإسلامية المتخلفة من تهديد لنا بما تنتجه من أعداد غفيرة من الشبان الحانقين المحبطين والذين يشعرون بالإهانة والقمع والحرمان. لذلك من مصلحتنا إنشاء شراكة حقيقية مع هؤلاء من أجل إجراء تغييرات. كما أني أشرت في مقالات سابقة إلى أن هذه الحرب الاستباقية لامثيل لها وأنها تشكل عملا جبارا - الاستيلاء على دولة ما والشروع في إعادة إعمارها من نقطة الصفر - وهذا عمل يحتاج إلى أقصى غطاء شرعي ممكن من الأمم المتحدة وأكبر عدد ممكن من الحلفاء. إلا أن الرئيس بوش فشل في التأسيس لذلك الإطار قبل الدخول في الحرب وذلك بالرغم من كون العديد من أعضاء فريقه كانوا قد جاءوا إلى السلطة حاملين معهم مثل هذا المشروع العراقي، لكنهم اعتمدوا أسلوبا إيديولوجيا ضيقا يقوم على الوعيد عمادا لسياستهم الخارجية مما اقصى الكثيرين إلى الدرجة التي طالب فيها العديد من الناس بالاعتماد على المرشدين والمخبرين، وذلك لتشكيك وريبة الكثيرين في صدق نواياهم.

من جهته، يقول الرئيس إنه بذل جهدا إضافيا من أجل التوصل إلى حل دبلوماسي، وهذا ليس صحيحا، لأن جيمس بيكر كان قد اجتمع شخصيا في جنيف مع وزير الخارجية العراقي قبيل اندلاع حرب الخليج الأولى، وذلك ضمن محاولة أخيرة منه لتفادي الحرب مما دفع بالعالم إلى النظر إلى العراق على أنه هو من اختار الحرب. في حين أن العالم لم يشاهد الرئيس بوش إلا مرة واحدة مسافرا، بالرغم من أنه لم يعبر الأطلسي من أجل تسويق الحرب للحليفين الوحيدين الواقفين معنا. أرجو ألا يفهم مما قلت على أنه محاولة لإيجاد أعذار لفرنسا ولا لصدام أيضا، فرنسا التي لعبت دورا مخجلا بعرقلتها لمجلس الأمن كي يصدر قرارا مقنعا لنزع أسلحة العراق.

ولكن ها أننا داخلون في حرب بمفردنا تقريبا رغم معارضة شديدة صادرة أساسا عن «الشارع العالمي» لا عن «الشارع العربي». يتمنى الجميع لو سارت الأمور بشكل مختلف، ولكن بعد أن فات الأوان - لذلك سأحاول من خلال هذه المقالة ومن الآن فصاعدا أن أحصل على العصير من حبات الليمون(كما يقول المثل). لأن مستقبل أطفالنا يتوقف على قيامنا بهذه المهمة بطريقة صحيحة حتى وإن كان وصولنا إلى هناك قد تم عن طريق الخطأ.

تقوم رؤية الرئيس على فرضية أن هذه الحرب المفتقرة إلى شرعية الأمم المتحدة ستحقق «شرعيتها ذاتيا» حين يشاهد العالم كيف يستقبل العراقيون الجنود الأمريكيين استقبال الفاتحين. لا زلت أؤمن بإمكانية حصول ذلك.

وبما أن الحروب تخاض من أجل تحقيق أهداف سياسية، وبما أن هزيمة صدام لا يمكن أن تكون بالضرورة هدفا في حد ذاتها لهذه الحرب، لذلك يمكن تلخيص تلك الأهداف كما يلي: ظهور عراق أكثر تقدمية، وإيجاد عالم فيه أقل عدد ممكن من الإرهابيين ومموليهم المصممين على تدمير الولايات المتحدة بشكل يشعر فيه المواطن الأمريكي بالأمان في بلده وفي خارجه، مما يعني استحالة حصولنا على النتيجة الثانية دون الحصول على الأولى. لذلك، علينا القيام بأي شيء مهما كان صعبا، ودفع أي ثمن مهما كان غاليا، من أجل تحويل العراق إلى بلد يمكن لكل نزيه إذا رآه أن يقول: «لقد أحسنتم فعلا، إن أمريكا وفت بما وعدت». لذا ومن أجل ضمان أقصى حظوظ النجاح يجب علينا أن نتصالح مع بقية العالم. لأن الحصول على المزيد من مساندة الحلفاء سيقوي من حظوظنا في إتمام مهمة إعمار العراق بنجاح. أما إذا اتسعت الفوارق التي نشبت بيننا وبين أصدقائنا التقليديين وانقلبت إلى مواقف عدائية، حينها سيصعب علينا إدارة الأزمة العراقية أو ما سيواجهنا من مخاطر في المستقبل، مما يعني ان فريق بوش في حاجة ماسة إلى إجراء عملية جراحية سلوكية، أي أنهم في حاجة إلى معانقة الواقع والبدء بالتحاور مع الرأي العام العالمي والاستماع إلى ما يقلقهم وإبلاغهم بالمقابل ما يقلقنا نحن.

قبل ٣٥ سنة ربحت إسرائيل حرب الأيام الستة وتعاملت مع نصرها ذاك على أنه سيحقق شرعيته الذاتية، إلا أن جيرانها لم ينظروا إليه على ذلك الأساس. لذلك ظلت إسرائيل متأرجحة بين براثن اليوم السابع حتى هذه الساعة، وبالتالي لم تتمكن من تحويل نصرها البين إلى سلام ينعم به الإسرائيليون.

كذلك وقبل أكثر من خمسين عاما ربحت أمريكا الحرب التي خاضتها ضد الفاشية الأوروبية، وحين توجت نصرها بمشروع مارشال الذي كان عبارة عن خليط من مساعدات وإعانات مجانية من أجل إعادة إعمار تلك الدول، مما جعل الأمريكيين محل ترحيب في جميع أنحاء العالم. فاليوم هو يوم الإنزال بالنسبة لجيلنا. نأمل أن يتحلّى قادتنا الحاليون بحكمة أسلافهم من جيل العمالقة.

٢٠٠٣/٠٣/١٩

الجبهة الغربية

باريس، فرنسا

هناك ثلاث جبهات في هذه الحرب العراقية: واحدة في العراق، وواحدة دائرة بين أمريكا وحلفائها الغربيين، وواحدة بين أمريكا والعالم العربي. تتأثر كل من هذه الجبهات الثلاث بما تمارسه أمريكا من قوة بشكل انفرادي. في الوقت الراهن لازمت موقعي بالجبهة الغربية حيث يمكنني ان أنقل ان كل شيء يتصف بالهدوء. باتت فرنسا في حالة صدمة وذهول.

كلا، لا وجود لانقلاب جذري سواء في الموقف الحكومي الرسمي أو في الرأي العام المناهض بشدة للحرب على العراق. كما أن الفجوة الكبيرة الناتجة عن تباعد المواقف بين كل من باريس من جهة ولندن وواشنطن من جهة أخرى، كان قدصدمت الكثيرين بحيث شرع بعضهم يتساءل عما إذا كانت فرنسا قد ذهبت بعيدا بموقفها. وقد لخصت مجلة «لوبوان» الفرنسية في غلاف عددها الأخير المعنون: «هل تجاوزا حدودهما؟» قاصدة بذلك الرئيس جاك شيراك ووزير خارجيته دومينيك دوفيلبان. ومن ناحيتهما ما أنفك السيدان شيراك ودوفيلبان يؤكدان على الطبيعة المبدئية لموقفهما المعارض الذي ستثبت الأحداث صحته. وفي المقابل نجد أصواتا معارضة لهم في صفوف النخبة المعنية بشؤون السياسة الخارجية ورجال الأعمال - الذين يعتمدون كثيرا على معاملاتهم التجارية والاستثمارية مع الولايات المتحدة - تقول حاليا بأن رئيس الجمهورية ووزير خارجيته قد تطرفا كثيرا في موقفهما. وأصبح مصطلح «ثمل» متداول بكثرة أخيرا. في إشارة إلى ما أصابهما من حالة الثمالة نتيجة ما حظيت به مواقفهما المناهضة للحرب من شعبية عارمة سواء داخل فرنسا أو خارجها، إلى درجة أنهما تدرجا من معارضة مشروعة في البداية حين طالبا الأمم المتحدة بإصدار قرار يجيز استخدام القوة ضد العراق إلى أن أصبحا يعمدان إلى إعاقة وتعطيل أي قرار تصدره المنظمة الأممية في ذلك الخصوص، بحيث أصبحت فرنسا محامياً مدافعاً عن صدام حسين.

من جهته يوضح ألان فراشون كبير محرري جريدة لوموند ذلك فيقول: «صار الناس يشعرون بالضياع والحرج معا وذلك لرغبتهم في رؤية بلادهم تتخذ موقفا مبدئيا وتدافع عنه، ولكنهم بالمقابل غير راضين عن تصدع العلاقات مع الولايات المتحدة».

كما أن المسؤولين الفرنسيين ما انفكوا يؤكدون على أن سبب اختلافهم مع الولايات المتحدة إنما يقتصر على الأساليب وليس الغايات، وهذا غير صحيح. يكمن جوهر الاختلاف في البون الشاسع بين أمريكا وأوروبا من حيث القوة العسكرية، وهي مسألة باتت واضحة للعيان منذ نهاية الحرب الباردة. ويرجع الفضل في ذلك إلى الاستثمارت العملاقة للأموال والتكنولوجيا في الميدان العسكري، كما أن ذلك الفرق الهائل ظل مخفيا طوال عقد كامل بسبب القبضة الرخوة لفريق كلينتون وبسبب ما حصل من تعاون بين الجانبين حول مواضيع ثانوية مثل كوسوفو والبوسنة.

ولكن التهديد المباشر الذي تعرّضت له أمريكا من جراء ٩/١١ من ناحية والتوجه الانفرادي لفريق بوش من ناحية أخرى، قادا بالنهاية أمريكا إلى نشر قواتها الضخمة في العراق بشكل انفرادي ودون الاستئذان من أحد مما أسفر عن حالة الذهول والصدمة التي تعيشها أوروبا الآن. يشرح المؤرخ روبرت كاغان بشكل مفصل هذه الفجوة الهائلة في ميزان القوة في كتابه «الفردوس والقوة» فيقول: «تشبه علاقتنا بالأوروبيين اليوم الزوجين الذين استيقظا ذات يوم ونظر واحدهما إلى الآخر وقال: لست أنت الشخص الذي تزوجت». كما يعلق على ذلك الخبير الفرنسي في شؤون السياسة الخارجية دومينيك موازي معترفا بما طرأ عليهم من تغييرات فيقول: «لقد فشل شيراك في استيعاب ما حدث خلال الفترة الفاصلة بين سقوط جدار برلين وسقوط برجي مركز التجارة العالمي، لقد ظهر عالم جديد مختلف تماما. وبحكم أن الولايات المتحدة كانت في حاجة إلينا في الماضي من أجل مواجهة السوفيات، لذلك لم تذهب إلى حد معاقبة فرنسا حين تشرد بموقفها، وهذه حالة تغيرت الآن بعد ٩/١١، حيث أصبحتم تعيشون في حالة حرب منذ ذلك التاريخ، أما نحن فلا. كما أننا لم نسع إلى أخذ تلك الحقيقة في الحسبان (وهو ما يفسر) رغبة أمريكا في القيام بذلك بمفردها. وهكذا تقلصت المصالح المشتركة التي كانت تجمعنا وزادت مشاعر الفرقة بيننا».

في الواقع يحتج الفرنسيون أن من شأن هذه الحرب أن تتسبب في إتساع نطاق الأعمال الإرهابية، لأنها تشكل سابقة خطيرة كحرب وقائية، إضافة إلى ما قد ستتسبب فيه من وقوع ضحايا مدنيين. في المقابل يدّعي فريق بوش أن هذه الحرب هي بمثابة لعبة تغييرية ستؤدي بالنتيجة إلى انتشار الإصلاحات في العالم العربي وإلى ترهيب باقي الحكام الطغاة الذين يمارسون القمع ويؤيدون الإرهاب.

إذاً، هل يمكن لهذه الحرب أن تتسبب في حدوث المزيد مما ينتظره منها فريق بوش مظهرة خطأ ما توقعه الأوروبيون؟ نعم، ذلك ممكن. هل يمكن رأب الصدع

القائم بين أوروبا وأمريكا؟ نعم، ذلك ممكن أيضا. لكن كلا الحالتين يتوقفان على نقطة واحدة - ألا وهي كيف سنعيد بناء العراق. إذا حوّلنا العراق إلى فوضى، سيصبح العالم بأسره في حالة رعب من القوة الأمريكية السائبة. ولكن في حال أننا أعدنا بناء العراق وحولناه إلى مجتمع ديمقراطي محترم بشكل سيدفع أي شخص نزيه إلى القول «أمريكا، لقد احسنت فعلا» وبالنهاية سيتم إصلاح الخلل القائم في ميزان القوة بين أمريكا وأوروبا.

حتى الآن، لقد بهت الأوروبيون من جراء هذا الاستخدام الانفرادي للقوة الأمريكية الهائلة بشكل يصعب عليهم معه التفكير بوضوح. هناك أمر يصعب عليّ تحديده، إلا أن الناس بصفة عامة هنا يشعرون بأن عقدا ما كان قائما بين أمريكا وبقية العالم قد تم إبطاله. وهذا ما يفسر أن المسألة تتجاوز بكثير العراق، بالرغم من أهمية ما سيقوم ببنائه فريق بوش هناك، وفي حال أننا نجحنا في ذلك آمل أن يغير الأوروبيون من مواقفهم.

٢٠٠٣/٠٣/٢٣

أهداف الحرب

عندما كنت في أحد مطاعم مطار أوهير الدولي في شيكاغو يوم الأحد الماضي، كانت إحدى شاشات التلفزيون تعرض مباراة كرة السلة ضمن تصفيات الفرق الجامعية، بينما كانت الشاشة الثانية في الطرف الآخر من المطعم تعرض صورا لمجريات الحرب في العراق. كان معظم المتواجدين يشاهدون مباراة كرة السلة ربما لسهولة معرفة النتيجة النهائية. كيف لنا أن نعرف أننا منتصرون في العراق؟ لذلك أراقب عن كثب النقاط الستة التالية:

أولا: هل تمكّنا من احتلال بغداد دون تدمير المدينة بالكامل؟ إذ إن هذه الحرب لم تندلع من أجل نزع أسلحة نظام صدام حسين فقط، بل اندلعت لأجل استبدال ذلك النظام بحكومة عراقية تكون مسؤولة ونزيهة كغاية قصوى بالنسبة لنا. لأن من شأن حكومة كتلك أن تضمن الحفاظ على وحدة العراق وتمنع ظهور جنرال آخر من نوع صدام. يستحيل تحقيق كل ذلك ما لم تسيطر القوات الأمريكية والبريطانية على العاصمة.

ثانيا: هل تمكّنا من قتل أو اعتقال أو نفي صدام؟ أنا لا أصدق ما يردده الرئيس

بوش كون هذه الحرب ليست ضد شخص واحد. وذلك لأننا أمضينا الاثنتي عشرة سنة الأخيرة في ملاحقة ذلك الشخص في العراق. وفي حال أننا لم نقم بالإجهاز عليه فإن العراقيين لن يتمكنوا من التعبير عن أنفسهم إطلاقا. وفي الحقيقة هناك العديد من العراقيين العاديين لن يقدروا حتى على معرفة مشاعرهم الحقيقية إلا بعد الإطاحة بذلك الدكتاتور المستبد الذي تحكم في حياتهم بقبضة حديدية لما يزيد على الثلاثين عاما وإلى أن يتأكدوا من رحيله بدون رجعة. (لا يجوز استبعاد حصول اتفاق بوساطة عربية يسمح لصدام بالمغادرة بشكل سلمي).

ثالثا: هل تمكّنا من معرفة سبب هذه المقاومة الشرسة التي أبداها بعض العراقيين؟ هل هذه هي صفوة الصفوة، أي وحدات الحرس الجمهوري أكبر المستفيدين من حكم صدام يقاتلون من أجل الحفاظ عليه؟ أم أن هؤلاء هم بالأساس وحدات سنّية مقاتلة بدافع خوفهم من أن يؤدي انهيار نظام صدام إلى نهاية حكم السّنّة الطويل في العراق واستبداله بحكم الأغلبية الشيعية؟ أم أن سبب هذه المقاومة الشرسة يعود إلى كون حتى العراقيين الذين يمقتون صدام يحبون وطنهم ولا يقبلون باحتلاله من طرف الولايات المتحدة، وأن هؤلاء العراقيين على استعداد لمقاومة المحتل الأجنبي حتى وإن ادّعى أنه جاء كي يحررهم؟ لذلك تعدّ معرفة الجواب على هذه الأسئلة ضرورية جدا للطريقة التي سنعيد بها إعمار العراق. ومن المنطقي جدا بالنسبة للعرب أن يمقتوا حكامهم الطغاة المستبدين ويمقتوا في الوقت نفسه أي محتل أجنبي (لنتذكر ما حدث لإسرائيل بعد أن غزت لبنان سنة ١٩٨٢).

رابعا: هل انتصرنا في هذه الحرب وتمكّنا من المحافظة على وحدة العراق؟ لا يمكننا إعادة بناء العراق إن لم نحافظ على وحدته الترابية، خاصة وأن كل من الأكراد والأتراك يتربصون من أجل قضم أجزائه الشمالية. في حين تزعم إدارة بوش انها تعهدت بالحفاظ على وحدة العراق الترابية، مما يفترض عليها أن تبلغ كل من الأتراك والأكراد ما يلي: «أي «لا» لم تفهموها؟ فلا أنتم أيها الأتراك بمسموح لكم بالدخول ولا أنتم أيها الأكراد بمسموح لكم بالانفصال».

خامسا: هل تسبب الاحتلال الأمريكي في ظهور أي زعيم عراقي وطني وتقدمي قادر على قيادة البلد؟ خاصة وأن بعض المحللين قد بدأوا للتو في الحديث عن ترشيح من يميلون إليهم من بين أطراف المعارضة العراقية إلى ذلك المنصب. في حين أن قناعاتي تشير إليّ بأن الشخص الوحيد القادر على حكم وتسيير العراق بشكل فعال وناجح يجب أن يكون ممن عاشوا تحت حكم صدام، وليس من بين أولئك المقيمين

في لندن أو واشنطن. ولكن حتى لو تم اختيار أحد هؤلاء القادمين من المنفى يجب أن يتمتع بشيء من الإجماع على شخصه من قبل العراقيين. وكذلك في حال حاولت إدارة بوش أن تفرض زعيم العراق الجديد كي يعترف بإسرائيل فورا، أي إذا نوت أمريكا ان تفرض شخصا يتمتع بصداقة ريتشارد بيرل، فإن زعيماً كهذا لن يستمرّ طويلا.

سادسا: هل ستحظى الدولة العراقية التي ستظهر بعد هذه الحرب بالاعتراف بمشروعيتها من قبل جيرانها العرب والمسلمين؟ هذه قضية ذات أهمية فائقة سواء تعلق الأمر بنجاعة واستمرارية أي قيادة عراقية ستخلف صدام أو فيما يتعلق بتأثيرها المستقبلي على نشر النفس التحرري لدى الجيران. وفي ظل غياب أي دور للأمم المتحدة في هذه الحرب، يجب على النظام الذي سيخلف صدام أن يحصل على تلك الشرعية بجعل بقية العرب والمسلمين يشيرون إليه بالبنان ويقولون: «صحيح أننا لا نرحب بالطريقة التي أدت إلى هذا الوضع، لكننا نعترف بأن أمريكا ساعدت على بناء شيء أفضل في منطقتنا». وهذه نتيجة ضرورية جدا.

بالنهاية إذا رأيتم هذه الأشياء تحدث، فتأكدوا حينها أن الأهداف السياسية العليا التي أدت إلى نشوب هذه الحرب قد بدأت تتحقق، وإذا حصل العكس فتأكدوا أننا ضعنا في عاصفة رملية.

٢٦/٠٣/٢٠٠٣

مهمة الناتو الجديدة

في حالة حرب كهذه، رأيت أنه من المفيد الابتعاد قليلا. لذلك قررت الأسبوع الماضي التوجه إلى المقر الرئيسي لحلف الناتو في بروكسيل (بلجيكا)، ويجب أن أعترف بأن المشهد من هناك كان باهرا. كما أني شاهدت على ما أعتقد ثوابت تاريخية بصدد التحول والتبدل. سأشرح ذلك كما يلي: تسبّبت أحداث ٩/١١ في اندلاع الحرب العالمية الثالثة على طريقة بيرل هاربور (أي الهجوم الذي شنته القوات اليابانية على الساحل الغربي للولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية). وكان غزو الولايات المتحدة لأفغانستان بمثابة ردنا الأولي على تلك الهجمات، على غرار غزو الحلفاء لشمال إفريقيا. أما غزو العراق فيشبه إلى حد ما يوم الإنزال الكبير الذي قام به الحلفاء على ساحل النورماندي (آمل أن نتوج بالنصر اليوم مثلما انتصرنا حينها). وهكذا نجد أنفسنا حيال نشوء تركيبة جديدة للقوى الكونية.

حتى هذه اللحظة التاريخية المهمة لا زلنا نتعامل مع عالم ذي ثنائية قطبية. لكن الانقسام الحاصل هذه المرة يختلف عما سبقه، لأنه ليس بين شرق وغرب بل بين عالم النظام وعالم الفوضى. والمفاجأة تتمثل في كون الأداة الرئيسية التي سيحاول عالم النظام التعامل بها مع عالم الفوضى تتمثل في حلف الناتو. ومن خلال هذا الناتو الموسع والجديد فقط، يمكن لروسيا أن تحل تدريجيا محل فرنسا، كما أن مسرح عمليات حفظ السلام التي سيقوم فيها الناتو الجديد سيصبح في الجنوب بعد أن كان في الشرق. طبعا سيظل الناتو محتفظا بمقره الدائم في أوروبا لكن مسارح عملياته الرئيسية ستكون في البلقان وأفغانستان والعراق وربما الإشراف على الحدود العربية الإسرائيلية.

كلا، لم أفقد صوابي. دعوني أشرح ما يحدث حاليا: منذ أن غزت الولايات المتحدة أفغانستان باشرت العديد من الدول بشكل انفرادي مثل بريطانيا ثم تركيا ثم هولندا ثم ألمانيا بتولّي مسؤولية توفير قوة حفظ سلام في كابول قوامها ٥٧٠٠ جندي. وهذه مهمة مكلفة جدا بالنسبة لدولة واحدة، كما أنها تصبح غير ذات جدوى إذا تم تبديل القوات كل ستة أشهر، إلا أن ذلك هو ما أراده فريق الرئيس بوش. لم يرد أن يعيق الناتو حركية القوات الحربية أو عملية إعادة الإعمار هناك. إلا أنه في شهر شباط/ فبراير الماضي أبلغ الرئيس بوش بهدوء رئيس الحلف اللورد روبارتسون، أنه واعتبارا من شهر آب/ أغسطس القادم تاريخ انتهاء دورة القوات الهولندية الألمانية ومغادرتها لأفغانستان، ترغب الولايات المتحدة في رؤية قوات تابعة لحلف الناتو تتولى زمام الأمور بشكل دائم هناك حيث إنها ستعمل جنبا إلى جنب مع الوحدات المقاتلة التابعة للجيش الأمريكي. وإذا وافق الناتو على ذلك، فإنها ستكون المرة الأولى التي سينشط فيها الحلف خارج أوروبا وفي عمق العالم الإسلامي.

من جهتها أعربت فرنسا عن رفضها لهذه الفكرة، لأنها لا تريد أن تحافظ على مكانة الناتو كمركز للقوة الأمريكية ضمن أوروبا. ولكن العديد من أغضاء الحلف الآخرين يحبذون هذه الفكرة، واللافت أن الروس قالوا بأنهم سينظرون في إمكانية إرسال كتيبة عسكرية في إطار شراكة روسية-أطلسية. وحتى الصينيون ألمحوا إلى موافقتهم. فكلتا القوتين العظميين تشعران بالتهديد الذي تمثله حالة الفوضى القادمة من أجزاء من آسيا الوسطى والشرق الأوسط. كما أعرب مسؤولي الناتو عن نيتهم على تجاوز الموقف الفرنسي إن حاولت هذه الأخيرة عرقلة عملية التحول هذه.

كذلك يمكن اعتبار ما تقوم به الولايات المتحدة في أفغانستان بأنه تدويل لعملية إعادة إعمار ذلك البلد لتأكدنا ببساطة أننا لا نقدر على القيام بذلك بمفردنا. وبالنهاية

سنقوم بالشيء نفسه في العراق. وهذا ما دفع برئيس الوزراء البريطاني توني بلير للاجتماع بالرئيس بوش الأسبوع الماضي كي يقول له هذا الكلام. لكن فريق بوش لا زال يكابر مدعيا بعناد أن هذا التحالف الذي لملموه قبل شن الحرب على العراق يمكن أن يشكل بديلا أخلاقيا للأمم المتحدة. عدا بريطانيا، لقد اشترينا مثل هذا التحالف، بحجة أن كل الحكومات المشاركة فيه تصرفت رغم معارضة شعوبها لذلك. صحيح أن خوض حرب دون غطاء دولي هو أمر صعب، لكن إعادة إعمار بلد ما من دون ذلك الغطاء سيكون أصعب بكثير.

حتى الآن يبدو أن فريق بوش محق في أمر واحد: لا يمكن للأمم المتحدة أن تتولى إعادة إعمارالعراق لأنها مهمة لا تستطيع أن تقوم بها لجنة. وبالتالي فإننا سنحتاج في العراق إلى قوة حفظ سلام متعددة الجنسيات تتمتع بمصداقية وتكون خاضعة لقيادة الولايات المتحدة، وهذا ما سيعيدنا ثانية إلى الحديث عن الناتو، وربما قيام شراكة مع جيوش عربية وإسلامية. هذا ليس بالناتو الذي عرفه أجدادنا، حين كانت وحداته تراقب الحدود الألمانية الروسية، ذلك أن وحدات هذا الناتو ستجوب شوارع كابول وبغداد. أثناء هذه الحالة الانتقالية التي يعيشها الناتو قد تحدث تغييرات جذرية عليه، خاصة وأن رئيس هيئة الأركان اللورد روبارتسون سيحال إلى التقاعد خلال هذا العام (وتلك خسارة حقيقية) حيث ستخلفه إمرأة وهي وزيرة الدفاع النرويجية كريستين كروهن ديفولد. لنتوقع إذاً أن تنقل قناة السي.أن.أن ذلك قائلة: «ستقود حلف الناتو للمرة الأولى امرأة وستنضم إليه كتيبة روسية، وسيتولى اليوم القيام بعمليات حفظ السلام في أفغانستان، وذلك تمهيدا قبل انتقاله للعراق. وفرنسا ترفض المشاركة.»

نعم، ربما سنكون إزاء عالم جديد مختلف تماما وللكن لا، أنا لم أفقد صوابي.

٢٠٠٣/٠٣/٣٠

لتندلع الثورة

القاهرة، مصر

كل من يقرأ الصحافة العربية هذه الأيام سيعتقد أن كل العالم العربي تعمّه موجة غضب عارم بسبب الغزو الأمريكي للعراق، وهذا صحيح إلى حد ما. لكن هناك ما لا تمكن قراءته مثل: وراء ذلك الغضب هناك حالة ضغينة وتساؤل تشوبه ريبة، تساؤل عما

إذا كان الأمريكيون سيفوا حقا بوعدهم ببناء عراق جديد وأكثر ليبرالية. ففي الوقت الذي يعجز فيه الكثير من العرب عن وصف ما يجري، نجد بالمقابل فئة أخرى منهم تعي تماما طبيعة هذا الغزو الأمريكي للعراق الفريدة وغير المعهودة بالنسبة لهم - هذا الجانب الثوري للقوة الأمريكية. وبالرغم من كون اتسام الثقافة الأمريكية بالنسبة للعرب على الدوام بالطابع الثوري - من ملابس الجينز إلى المسلسلات التلفزية -، فإن القوة الأمريكية وعلى طوال الحرب الباردة اقتصر استخدامها على الحفاظ على الوضع القائم في هذه المنطقة من العالم، وهذا ما ساعد الملوك والحكام العرب الموالين لنا على البقاء في السلطة. وبالرغم كذلك من انتهاء الحرب الباردة ومن دعم واحتفال أمريكا بازدهار الديمقراطية في شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية، فقد بقي العالم العربي مستبعدا. وبرغبة أمريكية في استمرار إمدادات النفط القادمة من هذه المنطقة ولضمان أمن إسرائيل، واصلت أمريكا دعمها للوضع القائم هنا ولأي نظام عربي يكرس ذلك. فقد جسدت حرب الخليج الأولى ذلك بأن اقتصرت على إخراج صدام حسين من الكويت وإعادة العائلة الحاكمة من أجل مواصلة ضخ النفط، وبمجرد أن تحقق ذلك تُرك صدام وشأنه. وهذا ما يجعل حرب الخليج الثانية هذه تكون بمثابة الصدمة للنظام العربي السائد حاليا، تماما مثلما حدث عندما غزا نابوليون بونابارت مصر وحرب الأيام الستة، لكن وقع الصدمة يختلف من شخص لآخر.

بدءا هناك صدمة العرب المتحررين الذين لا زالوا يمثلون أقلية، والذين لم يصدقوا أن أمريكا قررت أخيرا استخدام قوتها الثورية في العالم العربي. كما أن هؤلاء متلهفون جدا لرؤية أمريكا تنجح لأنهم يعتقدون أن العراق أكبر من أن يتم تجاهله، وبالتالي من شأن وقوع انتخابات حقيقية فيه أن يهز المنطقة العربية بكاملها. وثانيا، صدمة الأغلبية الصامتة من العرب. فعلى الرغم من اعترافهم بهذا الجانب الثوري للقوة الأمريكية، فإنهم ينظرون إلى الأمور بمنظارهم الخاص القائل بأن ما يدفع بأمريكا إلى زعزعة الوضع القائم ليس مساعدة العالم العربي على النهوض بل رغبتها في إخضاعه وتطويعه بما يتماشى والأهداف الأمريكية والإسرائيلية. لذلك نجد وسائل الإعلام العربية تردد بكثرة ما يلي: إن هذه الحرب ليست سوى صورة أخرى للاستعمار والهيمنة الإمبريالية. كما أن قناة الجزيرة تستخدم المصطلحات نفسها لوصف ما تقوم به الولايات المتحدة في العراق وما تقوم به إسرائيل في الضفة الغربية- العراق واقع تحت نير «الاحتلال» الأمريكي، والقتلى العراقيون «شهداء».

وكما لاحظ رايموند ستوك، المقيم بالقاهرة منذ مدة طويلة ومؤلف سيرة الأديب

نجيب محفوظ فقال: «لدى أغلب الناس هنا بصفة عامة والطبقات السفلى ممن يشاهدون القنوات الفضائية العربية معلومات خاطئة أكثر مما تتصور، وذلك لأن وسائل الإعلام العربية غالبا ما تقول لهم ما يودون سماعه وتعرض عليهم ما يرغبون في مشاهدته مما ولد لديهم قناعات قوية يستحيل على أي كان من الطرف الآخر أن يقدر على تغييرها. فقط عراق مختلف يمكنه أن يحقق ذلك».

لكن هناك مدرسة ثالثة يمثلها المسؤولون المصريون الموالون بالفطرة لأمريكا والمصدومون من إقدام فريق بوش على استعمال ما لديهم من قوة بشكل ثوري من أجل إحداث تغيير جذري في العراق. فهؤلاء المسؤولون ينظرون إلى هذه الحرب على أنها مجهود ضائع لأنهم يعتبرون العراق بلدا قبليا منقسما على ذاته لا يمكن حكمه إلا بقبضة حديدية.

باختصار فقط ما سيحدث في العراق لاحقا بإمكانه أن يبرهن على صحة أي من الرؤى المذكورة أعلاه. فالجميع يراقب ما يجري عن كثب. بعد أن أمضيت ظهر اليوم مع طلبة قسم الدراسات الأمريكية في جامعة القاهرة، لخص الدكتور محمد كمال المزاج العام بقوله: «حين زار ريتشارد نيكسون مصر سنة ١٩٧٥، حشدت الحكومة جموعا غفيرة من الناس لاستقباله، بشكل عرّضه لسخرية الأمريكيين، فقام بالرد عليهم قائلا: «بالإمكان إجبار الناس على الخروج للترحيب بزعيم أجنبي، لكن لا يمكن إرغامهم على الابتسام». ربما قد يقلع العراقيون بالنهاية عن مقاومتكم، لكن ذلك لا يضفي أي مشروعية على هذه الحرب. كل ما تحتاج إليه الولايات المتحدة هو أن تجعل العراقيين يبتسمون، ويمكن اعتبار قدرتكم على ذلك بمثابة نجاح». واسترسل السيد كمال في الحديث عن الكثير من الأمور المتوقفة على تلك الابتسامة، باعتبار أن هذه أول «حرب عربية-أمريكية» وليست بحرب بين العرب والإسرائيليين لتعلقها بدخول أمريكا في عمق العالم العربي ليست متسلحة بما لديها من قوة أو ثقافة فقط، بل بما لديها من مثل لتعلقها المباشر بما تدعو إليه أمريكا. هنا ختم السيد كمال حديثه بالقول: «في حال كانت النتائج عكسية أو أنكم لم تفوا بوعودكم ستكون لذلك تبعات خطيرة. ولن يكتفي الناس بوصف سياساتكم بالخاطئة فحسب، بل سيقولون بأن أفكاركم زائفة أيضا وأنكم لا تؤمنون بها في الحقيقة، أو أنكم غير قادرين على تطبيقها».

باختصار نحن في حاجة إلى التوصل إلى السلام بطريقة أفضل من تلك التي بدأنا بها الحرب.

٢٠٠٣/٠٤/٠٢

فتشوا عن الإرهابيين

رام الله، الضفة الغربية

لقد أبدت وزارة الخارجية الأمريكية انزعاجها من الطريقة التي تصور بها وسائل الإعلام العربية غزو الولايات المتحدة للعراق. أنا شخصيا لا أرى أين المشكلة في ذلك. فبحسب علمي ومن خلال مشاهدتي للقنوات الفضائية العربية، لا تختلف في تغطيتها للحرب إلا في كلمة واحدة - بل حرف واحد في الحقيقة - عن مثيلاتها من القنوات الأمريكية. مثلا تسمي السي. أن. أن ذلك «الحرب الأمريكية في العراق»، في حين تسمي القنوات العربية ذلك «الحرب الأمريكية على العراق».

ما الفرق الذي سيحدثه حرف واحد؟ لقد فكرت طويلا في ذلك أثناء رحلاتي عبر العالم العربي مشاهدا لأحداث هذه الحرب. هناك رسالة مهمة يجب على الرئيس بوش أن يتبلغها: إحذر الخاطفين. وبما أن نظام صدام حسين سينتهي قريبا وبمجرد أن يحل أجل بناء السلام سيحاول الكثيرون اختطافه وتحويل مساره لصالحهم. لذلك يجب على السيد بوش أن يحتاط من هؤلاء الخاطفين الذين سيأتون على فئتين.

ستتشكل الفئة الأولى من الدول العربية المجاورة - كل مثقفي الحرس القديم من المثقفين الناصريين المسيطرين على وسائل الإعلام، مضافا إليهم المؤسسات الرسمية البالية والعتيقة مثل جامعة دول العربية التي تشعر بالتهديد حتى من هبوب ريح الديمقراطية القادمة من العراق. ستعمل هذه المجموعات بلا هوادة لتشجب وتشكك في شرعية أي حكومة عراقية ستتولى السلطة بعد انتهاء الحرب - إذا اتضح أن الولايات المتحدة هي التي نضبتها. مما يعني ضرورة إسراع الولايات المتحدة في خلق مسار يستطيع فيه عراقيون وطنيون معتدلون ويتمتعون بشرعية، في البدء بتسيير شؤون بلادهم بشكل يسمح للقوات الأمريكية بالتراجع إلى الوراء. لدينا فرصة واحدة فقط من أجل خلق الانطباع الأولي كي نعبر عن نيتنا فيما يخص الطريقة التي سنعيد بها تشكيل العراق. وبالتالي يجب أن نترك انطباعا جيدا. يبدو أن أمريكا قد أساءت تقدير حجم المقاومة التي ستلقاها عندما تغزو العراق، لذا عليها ألا تبالغ في تقدير المدة التي سيتولى فيها جنرالات أمريكيون حكم العراق قبل أن تظهر مقاومة سياسية لهم.

ذات يوم قال لي الكاتب المسرحي المصري علي سالم، وهو ليبرالي شجاع، ما

يلي: «أقول لأصدقائي من حملة الأقلام العرب «ألا يستعجلوا في شجبهم»، يقصد بذلك المتعاونين مع الولايات المتحدة من العراقيين من أجل إعادة إعمار بلدهم، وألا تلجأوا إلى تلك الاتهامات الجاهزة التي تصف هؤلاء العراقيين «بالعملاء» للأمريكيين لأن ذلك لا يوصلنا إلى أي مكان. فقط سيعمينا عن رؤية المشاكل والعلل الحقيقية، والمتمثلة أساسا في حاجتنا الملحة إلى التنمية واحترام حقوق الإنسان. لذا لا تعيقوا سير الدولاب العراقي بأقلامكم». ومن جهة أخرى توجه السيد سالم إلى الأمريكيين بالحديث فقال: «أرجوكم أن تدافعوا عن المثل والقيم الأمريكية - دافعوا عنها - لأننا نعمل من أجل تجسيدها ومن أجل انتشارها في كافة أنحاء العالم. لا تحتلوا أرضنا تحت أي شعار، إنه لأمر صعب وأنا أعرف ذلك. سيكون من السيئ جدا بالنسبة لنا نحن الليبراليين العرب ولكم أنتم فيما إذا حكم جنرال أمريكي العراق لأمد طويل».

أما الفئة الثانية من الخاطفين فتتكون من أولئك الإيديولوجيين ضمن فريق الرئيس بوش المتعاملين منذ مدة مع قادة المعارضة العراقية بالمنفى لأنهم سيحاولون تنصيب واحد منهم مثل أحمد الجلبي لتولّي الحكم في العراق. من جهة لم يسبق لي أن عرفت أي من هؤلاء ولا مانع لدي ضدهم، إلا أن كل من يعتقد بإمكانية تنصيبهم من قبل أمريكا وسيكون لهم شعبية داخل العراق، هو ببساطة واهم. كذلك يجب على السيد بوش أن يزور الضفة الغربية لما تجسده كمثل يحتذى به لما يمكن أن ينجم عن الاحتلال. إذ أصبحت أرضية بشعة لما فيها من مستوطنات وطرق فرعية وأسلاك شائكة وجدران إسمنتية. لماذا؟ لأن كل من الإسرائيليين والفلسطينيين أمضوا الست وثلاثين سنة الأخيرة أي منذ أن انتصرت إسرائيل في حرب ١٩٦٧، في تفادي اتخاذ أي قرار حاسم حول كيفية إدارة تلك الأراضي. وهذا ما فسح المجال أمام المتشددين من أمثال المستوطنين وحماس من اختطاف ذلك الوضع وتسخيره لمصلحة برامجهم.

على بوش أن يسعى إلى تحقيق السلام في العراق بالتصميم نفسه الذي دخل به الحرب. حين ذهبت إلى رام الله لزيارة خليل الشقاقي، رجل خبير بما هو مطلوب من العرب من أجل الحصول على الشرعية، وسألته حسب رأيه عما يجب على الرئيس بوش أن يعيره اهتماما، فقال: «التركيز على المسار ككل وليس على شكل بعينه. يجب أن يثق العراقيون بذلك المسار الذي يجب أن يتمتع بالمشروعية والعدل». فإسرائيل تحاول منذ سنوات أن تتخلص من ياسر عرفات، لكن وبطريقة شرعية تماما تمكن المشرعون الفلسطينيون لأول مرة من إيجاد بديل شرعي له، أي أول رئيس وزراء فلسطيني ممثلا في شخص محمود عباس. لذلك لن يكون من السهل علينا إيجاد بديل

عراقي مثالي قادر على أن يقول لا لصدام حسين ولا للناصرية ولا للاستبداد ولا للوجود الأمريكي الدائم في العراق.

٢٠٠٣/٠٤/٠٦

لا تستعجلوا بالتصفيق

أم قصر، العراق

يصعب على المرء أن يبتسم عندما لا يكون هناك ماء، كذلك يصعب عليه أن يصفق فرحا عندما يكون خائفا، ويصعب عليه ايضا أن يقول «شكرا لكم على إطلاق سراحي» لأن الحرية أدت إلى حدوث عمليات نهب وسلب طالت حتى مراكز تجميع الحبوب والمدارس المحلية التي سرقت منها حتى ألواح الكتابة.

هذا ما شاهدته بعد أن أمضيت يوما كاملا في مدينة أم قصر في جنوب العراق حيث زرت المستشفى المحلي هناك. كانت تلك أول مدينة تحررها قوات التحالف. لكن وبعد مرور عشرين يوما على اندلاع الحرب أصبحت هذه المدينة بدون مياه صالحة للشرب وبدون أمن وبدون مخزون كاف من الطعام. وعندما وصلت إلى هناك صحبة فريق إعانة كويتي، وعند مغادرتنا قام بعض أفراده وشفقة منهم على العراقيين برمي ما زاد عندنا من الأطعمة لهم من نافذة الحافلة التي كانت تقلنا، وغدا بسكان أم قصر يتجمعون حول تلك الأطعمة كما يتجمع حمام المنتزهات حول فتات الخبز.

كان هذا مشهداً مذلاً وليس مشهد تحرير. لذا، يجب علينا القيام بما هو أفضل. وأنا متأكد من قدرتنا على ذلك كلما بعثنا بفرق إعانة أكثر. لقد فسر ذلك المشهد لماذا لم تحظ القوات الأمريكية بحفاوة بالغة أو أي ترحيب حتى هنا في عمق المناطق الشيعية بجنوب العراق المناهضة لصدام. وحين سألت المقدم ريتشارد مورفي المسؤول عن فرق الإغاثة الأمريكية العاملة هنا، كيف كان استقبال العراقيين لرجاله، أجابني بكل أمانة وصراحة قائلا: «لم ألحظ أي عداء علني لنا». عداء علني؟ لقد انتقلنا من توقع أن نستقبل بالتصفيق إلى الارتياح لمجرد عدم وجود عداء علني لنا بالرغم أنه لم يمض على تواجدنا هنا عشرون يوما فقط. ولكن وكما قلت سابقا، ستسير الأمور نحو الأفضل بمرور الوقت. وفي الوقت الحاضر يتوجب على أمريكا أن تباشر بوضع نظام جديد بعد أن أطاحت بالقديم- نظام صدام حسين - خاصة وأن الفراغ الحاصل تسبب في شيوع

عمليات النهب والإجرام والعطش والجوع وفقدان الأمن، خاصة في الجنوب هنا حيث لم تسيطر القوات البريطانية على مدينة البصرة، كبرى مدن الجنوب، بشكل كامل بعد، وهذا ما أدى إلى شلل الحياة الاقتصادية هناك. لذلك سيكون من الحماقة أن تسأل العراقيين عن آرائهم السياسية نظرا لصعوبة وقساوة ظروفهم المعيشية. حاليا لقد حل هوبز وليس بوش محل صدام. وحين سألت الدكتور صفاء خلف، الطبيب في مستشفى أم قصر عن سبب الاستقبال الباهت للقوات الأمريكية، أجابني بالقول: «للكثير من الناس هنا أبناء لهم أجبروا على المشاركة في القتال، لقد فقد الكثير منهم، لذلك هم غاضبون من الحرب التي تسببت في انقطاع المياه والكهرباء والغذاء. . . لقد بقينا خمسة أيام بدون مياه صالحة للشرب أو للغسيل. . . لا قانون هنا ولا رجال شرطة كي يسيطروا على الوضع. لم أر بعد سلطة أمريكية تُسيِّر البلد».

يبدو المشهد من مستشفى أم قصر مأساويا جدا؛ هذه إمرأة تعرج راجعة إلى بيتها بعد أن وضعت مولودا قبل حوالي ساعة، ومعها أمها حاملة الرضيع تحت عباءتها السوداء، وهذه شاحنة برتقالية مسرعة بطفل يئن تظهر عليه علامات سوء التغذية بوضوح. وهذا ولد صغير يلعب بصورة التقطت بالأشعة لأحدهم، في حين تكدست أنابيب الاختبار المملوءة بالدماء في مغسلة المختبر بانتظار أن يتم غسلها حين تعود المياه. وبالرغم من كل ذلك، فإنك تجد أن الناس وبعد أن يشتكوا لك من ظروفهم الحياتية، سعداء فعلا لخلاصهم من صدام، فلكل واحد منهم قصة عن فرد من العائلة أو قريب اعتقل أو قتل ظلما على أيدي زبانية صدام. لقد أحسنت فعلا أمريكا حين خلصتهم من ذلك الوضع. والآن علينا أن نبني سلما يمكننا أن نفتخر به مثلما افتخرنا بالحرب.

لكن هذا بلد مكسور. لقد خرب صدام روح هذه البلاد قبل أن نأتي بزمن طويل. والآن وبسبب الحرب تم تخريب كل مدنه الكبرى وكذلك القضاء على قبضة النظام الحديدية. والاكتفاء بقتل صدام لن يجلب الشكر لأمريكا، لأن العراقيين لا زالوا يشعرون بأنهم ليسوا أحراراً، يمكننا فقط الحصول على شكرهم عندما نستبدل نظام صدام بنظام آخر أفضل و أحسن منه بكثير. وكما قال الدكتور محمد المنصوري، مدير مستشفى أم قصر «لا وجود لحرية بدون أمان». وفي حين نصف نحن هذه الحرب بأنها «تحريرأمريكا للعراق»، تصفها وسائل الإعلام العربية بأنها «احتلال أمريكا للعُراق» بحيث إن أحداً لم يهتم فعلا بمعاناة العراقيين. وكما قالت زكية جاسم مسؤولة الصيانة بالمستشفى «لقد ضعنا، والوضع يزداد سوءا. لا يهمني صدام، إنه بعيد جدا. أريد أن

تعود بلادي إلى وضعها الطبيعي». وبما أن أمريكا هي التي كسرت العراق، فإنها هي التي تملكه الآن، وتقع على عاتقها المسؤولية الكاملة بإعادة إعماره. فإذا المياه لم تعد والمواد الغذائية لم تصل والأمطار لم تنزل والشمس لم تبزغ فسيكون كل ذلك بسبب أمريكا. من الأفضل لنا أن نتعود على ذلك ومن الأفضل لنا أيضا أن نحسن معالجة الأمور بأسرع وقت ممكن والحصول على المساعدة من غيرنا في أقرب الآجال.

٢٠٠٣/٠٤/٠٩

جدار رملي

أم قصر، العراق

مثلما حدث مع جدار برلين، كان هذا الحاجز الترابي المحيط بميناء أم قصر الجنوبي والذي يقدر ارتفاعه بـ ٢٥ قدما أول جدار ينهار اثناء حرب تحرير العراق هذه، ولا وجود لما يشد النظر إليه، إلا أنه يرمز بصدق إلى طبيعة هذه الحرب. إنه عبارة عن جدار رملي، اخترقته الجرافات الأمريكية بسهولة مما أدى إلى انكشاف أمر دكتاتورية فاسدة تتمتع بشعبية محدودة جدا. ما أكثر الأنظمة المحتمية بجدران رملية كهذه في هذه المنطقة.

لكنه بخلاف جدار برلين الذي أدى سقوطه إلى ازدهار الديمقراطية في كافة أنحاء أوروبا الشرقية، فإن انهيار هذا الجدار الرملي وحده غير كاف لتحقيق ذلك. لا زال هناك جداران آخران-أشد صلابة- يمنعان انفجار الحرية عند العرب، ويجب أن يتم هدمهما أيضا. أحد هذين الجدارين يقع في العقل العربي. لقد اصطدم رأسي بهذا الجدار، حين كنت أتناقش في موضوع الحرب مع صحافيي المعارضة المصرية في مقهى الفيشاوي بالقاهرة الذي يتردد عليه نجيب محفوظ. لقد رفض هؤلاء الصحافيون رؤية أي شيء إيجابي «للاحتلال» الأمريكي للعراق، مؤكدين أن الهدف الوحيد لذلك هو وضع العرب في الحضيض وتقوية إسرائيل والحصول على النفط.

لقد دفعتني مثل تلك اللقاءات إلى الاعتقاد بأن أمريكا ليست في حالة حرب ضد صدام فقط بل ضد الصدامية أيضا. وهي عبارة عن عقلية عربية متحجرة ولدت نتيجة سنين طويلة من الاحتلال والمهانة تؤمن بقوة بأن حفظ الكرامة العربية والقومية عن طريق تحدي الغرب أكثر أهمية من الحرية والديمقراطية والحداثة. وطوال هذه الحرب

تم نشر هذه الآراء الصدامية عبر قناة الجزيرة الفضائية، والمثقفين العرب وعن طريق جامعة الدول العربية أيضا. لا يمكنكم تصور درجة الضيق التي أصابت بعض أفراد هؤلاء النخبة العربية من جراء تفضيل العراقيين لتحريرهم على يد أمريكا بدلا من تحديهم لها تحت حكم صدام. وفي صباح اليوم الموالي لتحرير بغداد كتب عبد الحميد أحمد رئيس تحرير جريدة «غولف نيوز»، شأنه في ذلك شأن العديد من زملائه، ما يلي: «إنها للحظة محزنة لكل عربي أن يرى جنود المارينز يجوبون شوارع بغداد».

إن جدار الصدامية، الذي ساعد الحكام العرب، على البقاء طويلا في السلطة وأدى إلى تخلف وغضب الشباب العرب لا يقل خطورة عن صدام نفسه. وقد وصف ذلك شفيق غبرة عميد الجامعة الأمريكية بالكويت فقال: «لقد أصبحت حالة التخلف الاقتصادي والسياسي والثقافي التي تعاني منها هذه المنطقة من العالم تشكل تهديدا مباشرا للأمن الأمريكي - لقد أنتجت١١/٩. كما أن هذه الحرب شكلت تحديا مباشرا للنظام العربي القائم، وهذا ما يفسر معارضة العديد من العرب لها، مقارنة بحرب تحرير الكويت من العراق (سنة ١٩٩١) التي يمكن اعتبارها عملية جراحية بسيطة في حين أن هذه الحرب هي بمثابة عملية جراحية على القلب».

إلا أن النجاح لهذه العملية الجراحية على القلب الرامية إلى القضاء على صدام والصدامية معا لن يكتب لها النجاح إلا إذا استطعنا خلق عراق صحي- دولة عربية حيث يمكن للناس أن يعيشوا بكرامة ليس بالتصدي للغرب فقط، بل أيضاً ببناء مجتمع متسامح وعصري يمكنهم التفاخر به. دولة عربية حيث يمكن لمواطنيها أن يجهروا بالحقيقة دون خوف تكون مثالا يحتذى به في المنطقة. وبالرغم من كون عمليات النهب والسلب التي حدثت عقب سقوط نظام صدام تشير إلى صعوبة تحقيق ذلك، فقد اقتصرت آثار ما قمنا به في العراق على الفوضى وليس الحرية، وذلك لأنه لا وجود لمجتمع مدني هنا مما يعني أننا سنبدأ من الصفر.

ومن ثم يجب أن نهدم الجدار الثالث، جدار الخوف الإسمنتي والأسلاك الشائكة العازلة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وأن نضع حدا لذلك النزاع. فإذا تركنا ذلك الجدار الإسمنتي قائما نكون قد دعمنا جدار الصدامية، وسيبادر الحكام العرب كالعادة إلى التذرّع بذلك النزاع تهربا من إجراء أي إصلاحات، وسيبادر المثقفون العرب إلى التشكيك في مشروعية الوجود الأمريكي هنا. وكذلك سيستغل أعداء القادة العراقيين الجدد من أجل إحراجهم أمام الرأي العام بسبب تعاملهم معنا.

وحين أكد لي أحد الصحافيين الذين إجتمعت بهم في مقهى الفيشاوي أن هدفنا

الرئيسي هو احتلال العراق، استشهدت له بما قاله كولن باول: «إن أمريكا هي إمبراطورية قوية كأي إمبراطورية أخرى عرفها التاريخ، لكنها حين غزت دولاً أخرى، كانت كل الأرض التي طالبت بها هي مساحة صغيرة لدفن جنودها الذين لا يمكن إعادتهم» فما كان منه إلا أن ابتسم.

وقد ذكرتني تلك اللحظة بمقولة مفضلة لدى المعلق العربي رامي خوري، بأن العرب ومنذ زمن طويل لم يعرفوا إلا جانب القوة الأمريكي ولم يخبروا جانبها الطيب بعد. ويعود ذلك جزئيا إلى كون وسائل إعلامهم شوهت عن عمد ما قمنا به، ويعود الجزء الآخر كون أمريكا استعملت قوتها في هذه المنطقة فقط من أجل حماية إسرائيل ومصالحها النفطية وليس من أجل دعم الديمقراطية. لذلك كانت الغاية من هذه الحرب هي جلب الجانب المثالي للقوة الأمريكية للعالم العربي.

إن مهمتنا الحالية تنحصر في تطبيق تلك المثاليات لإعادة إعمارالعراق وحل القضية الفلسطينية. وفي حال قمنا بذلك بشكل سليم، فأنا متأكد من أن الناس أنفسهم هم من سيهدم بقية الجدران في هذه المنطقة - ولن نسأل أبدا أياً كان عن قطعة أرض صغيرة من أجل دفن جنودنا.

٢٠٠٣/٠٤/١٣

إصلاحات جذرية

قبل أسبوعين وحين كنت أتحدث مع صديقة مصرية في القاهرة، أطلعتني على نكتة وصلتها بالبريد الإلكتروني تقول: «الرئيس بوش: إن غزوت سوريا ستحصل على لبنان مجانا».

الآن وبعد أن أصبح واضحا أن السوريين قدموا دعما عسكريا لجيش صدام حسين وأنهم وفروا ملاذا آمنا لشلته المنبوذة، برز للتداول التساؤل عما إذا كان فريق بوش ينوي الإطاحة بالنظام السوري لاحقا. حسب رأيي هناك العديد من الأسباب والدوافع التي تجعل الولايات المتحدة تدعو لإجراء إصلاحات أو لتغيير النظام في سوريا. إلا أنه لا وجود لأي أساس قانوني للسعي إلى تحقيق ذلك بأساليب عسكرية ومن الأفضل ألا نحاول ذلك. الآن ستصبح سوريا ودول أخرى شبيهة بها تشكل مشكلة تتطلب منا إيجاد استراتيجيا جديدة تتماشى مع مرحلة ما بعد صدام.

دعنا نعالج ذلك بشكل تفصيلي. بالنسبة لي يتمثل أكبر دافع للضغط على سوريا في ما قاله وزير الخارجية الفرنسي دومينيك دوفيلبان، بأن هذا ليس بالوقت المناسب من أجل ممارسة ضغوط على سوريا. ومنذ أن عارض إصدار قرار الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة ضد صدام حسين، أصبح السيد دوفيلبان بمثابة بوصلتي الأخلاقية: أعارض أي شيء يدعو إليه وأوافق على أي شيء يعارضه. وأثناء زيارته إلى لبنان طالب السيد دوفيلبان العالم بألا يركز اهتمامه على سوريا بل على إعادة إعمار العراق والعمل على إحراز تقدم في مسار العملية السلمية بين العرب وإسرائيل. إلا أنه أغفل التطرق إلى أمر أنا موافق عليه، ويجب أن تكون فرنسا وبقية العالم موافقين عليه: إنهاء الاحتلال السوري للبنان الذي بدأ سنة ١٩٧٦.

وهذا ما يقودنا إلى السبب الثاني وراء الدعوة إلى تغيير النظام في سوريا: إطلاق سراح لبنان. إذ إن لبنان هو الدولة العربية الوحيدة التي توجد بها ديمقراطية فعلية، وهو أيضا البلد العربي الأكثر جاهزية للانخراط في نظام العولمة. فالتجارة والمقاولات تسري في دماء اللبنانيين، ومن المفترض أن يقود لبنان العالم العربي باتجاه العولمة، لكن الوجود السوري أعاق لبنان ومنعه من أن يلعب دوره الطبيعي ويكون هونغ- كونغ المنطقة.

وكما أن العراق هو البلد العربي الوحيد الذي يجمع بين النفط والمياه والعقول البشرية والعلمانية نجد أن لبنان يجمع بدوره بين المياه والعقول البشرية والعلمانية والتقاليد الليبرالية. ومن جهتهم يتمتع الفلسطينيون بالإمكانيات نفسها أيضا. لذلك أحبذ فيما لو أصرّت هذه الأطراف الثلاثة أي فيما لو تمكن اللبنانيون والفلسطينيون والعراقيون من تشكيل دول تعمل وفق نظام السوق الحر وذات حكومات مشروعة ومستقلة، فإن ذلك وحده يكفي ليجعل العالم العربي بأسره يركب قطار الحداثة.

أما السبب الثالث وراء الدعوة للإطاحة بالنظام السوري، فهو كونه لا يختلف كثيرا عن نظام صدام حسين، كما أنه من أشد الأنظمة دكتاتورية في المنطقة وأكثرها نشاطا لحماية الإرهابيين. يجب على سوريا أن تخرج من لبنان، كما يجب على إسرائيل أن تخرج من سوريا (الجولان)، لكن ذلك لن يحصل إلا بوجود حكومة إصلاحية في سورية ليست في حاجة إلى خلافاتها مع إسرائيل من أجل أن تواصل عسكرة المجتمع السوري.

إلا أننا، وكما ذكرت، لسنا بمقدمين على اجتياح سوريا من أجل تغييرها. ما

العمل إذا؟ هنا سيطرح خبير الشرق الأوسط ستيفن كوهين مفهوما عمليا سماه «الارتباط العدواني» - وهو مزيج بين الارتباط العسكري والارتباط التوجيهي العقيم - كما أن أسلوب بوش العسكري غير مطروح حاليا في معرض تعاملنا مع سوريا. إلا أن احتواء هذه الأنظمة على الطريقة الفرنسية، التي لا تعدو أن تكون تعلة للرقص مع الأنظمة الدكتاتورية، ليس إلا نصبا واحتيالا. لذا، فالطريقة المثلى هي «الارتباط العدواني» وتعني أن نتعرض لسوريا بشكل يومي ونذكّر العالم باحتلالها للبنان الذي مر عليه ٢٧ سنة وما نتج عنه من تقهقر ذلك البلد إلى الوراء، ونذكّر الشعب السوري بدرجة حرمانه من تحقيق مستقبل أفضل كل ذلك بسبب نظامهم السفاح.

برأيي لا يبدو هذا الأسلوب جيداً في التعامل مع سوريا لأن من شأن أي هجوم أمريكي عليها سيجعل الكثير من العراقيين يشعرون بشيء من الحرج في تعاملهم العلني مع أمريكا. صحيح أن العراق تم تخليصه من صدام لكن يجب علينا ألا ننسى أنه ما زال بلدا عربيا تحكمه عقلية عربية. فالعراقيون لا يشاهدون قناة «فوكس» الإخبارية. ولذلك أود تطبيق نظرية «الارتباط العدواني» بطرق مختلفة على كل من ياسر عرفات وآرييل شارون. إن العرب في حاجة إلى إجبار السيد عرفات على التقاعد وفي المقابل يحتاج الأمريكيون إلى اختبار رغبة شارون الفعلية في عقد صفقات عادلة مع سلطة وطنية فلسطينية جديدة. إن من شأن أسلوب كهذا لو تم تطبيقه من قبل الأطراف الثلاثة أي لبنان والعراق والفلسطينيين، أن يساعدنا كثيرا على دعم وتعزيز استقلال العراق.

١٦/٠٤/٢٠٠٣

الفقاعة الثالثة

من شأن الحروب عادة أن تكون ذات أثر توضيحي. وأكثر ما أوضحته هذه الحرب هي الدرجة التي طفحت بها الفقاعات الثلاث في بداية القرن الواحد والعشرين ألا وهي فقاعة سوق الأسهم وفقاعة أخلاقيات الشركات العملاقة وأخيرا فقاعة الإرهاب. جميعنا يعلم حين طفحت فقاعة سوق الأسهم قبل ثلاث سنوات، وكيف أنها جعلت من ملايين الناس في كافة أنحاء المعمورة مستثمرين حذرين. طفحت الفقاعة الثانية بسبب سلوكيات مديري الشركات العملاقة - نتيجة لتراكم الانحرافات الأخلاقية لمديري كبرى الشركات مثل أنرون وأرثر أندرسون، مما أحدث ثورة في صلاحيات مجالس إدارات الشركات. أما الفقاعة الثالثة التي بدأت في التراكم منذ التسعينات فتتمثل في فقاعة

الإرهاب التي بدأت في الظهور عبر التفجيرات الانتحارية لمقر القوات الأمريكية في المملكة العربية السعودية متبوعة بالهجوم على سفارتي الولايات المتحدة في شرق إفريقيا والمدمرة الأمريكية «يو.اس.اس كول»، ثم تضخمت تلك الفقاعة مع تصاعد العمليات الانتحارية التي نفذها الفلسطينيون داخل إسرائيل إلى أن بلغت ذروتها أخيرا مع الهجوم الذي نفذه تنظيم القاعدة يوم ٩/١١.

وعلى غرار فقاعتي سوق الأسهم وكبرى الشركات، جاءت فقاعة الإرهاب كتعبير عن حالة جنون مؤقتة تم خلالها تجاهل المعايير العامة والأعراف وقامت نظريات جديدة بتبرير كافة أشكال الانحرافات السلوكية. كالقول بأن الظاهرة الإرهابية ما هي إلا أداة يتوخاها أناس يائسون لا سبيل آخر لديهم للفت انتباه أمريكا وإسرائيل. وهذه مقولة لقيت قبولا واسعا في أوروبا ومنطقة الشرق الأوسط. كما قام بعض الأئمة بإصدار فتاوى تبيح تنفيذ العمليات الانتحارية ضد المدنيين في المطاعم، كذلك وصفت وسائل الإعلام العربية الإرهابيين «بالشهداء»، وهذا ما أطلق موازنة أخلاقية مفادها أنه لا حدود البتة لما يمكنك أن تفعله إذا كنت مستضعفا، وبالمقابل لا وجود لأي وازع أخلاقي يسمح لك بالدفاع عن نفسك إذا كنت قويا - مثل أمريكا وإسرائيل-. والأسوأ من ذلك أن الكثيرين في العالم العربي والإسلامي ظنوا أنهم اكتشفوا بعد٩/١١، ما يمكن أن يعدل من ميزان القوى بينهم وبين أمريكا عن طريق العمليات الانتحارية. وإذا صدقنا ما يطرحونه فإننا نقوم بتضخيم هذه الظاهرة ونكون قد شوهنا مجتمعنا المفتوح عن طريق حبسنا لأنفسنا بشكل إرادي، إنه من الجنون أن تقوم الفرقة السيمفونية للمدرسة الثانوية التي تشترك فيها إبنتي بإلغاء رحلة إلى نيو أورليانز.

صحيح أن هذه الحرب العراقية كانت بسبب صدام، لكني مع ذلك أعتقد أن هناك أسباباً أخرى غير معلنة تقف وراء هذه الحرب بالنسبة لكل من جورج بوش وتوني بلير، لأنهما ردّدا ضمنا ما يلي: «وبما أن فقاعة الإرهاب هذه أصبحت تشكل تهديدا لمجتمعاتنا المفتوحة وكل ما تقوم عليه من مبادئ، لذلك سنغزو نحن العراق - لأننا نستطيع ذلك - كي تعلموا أننا قادرون على الوصول إلى قلب عالمكم كي نفجر هذه الفقاعة. فاحذروا إذاً».

كذلك يجب علينا نحن والعالم العربي والإسلامي أن نصل إلى الاستنتاج الصحيح. وما على المرء إلا أن يأمل ألا يبالغ الأمريكيون كثيرا في رد فعلهم على ١١/ ٩، كما أن تنظيم القاعدة ليس بالاتحاد السوفياتي وصدام حسين ليس بستالين، والإرهاب ليس بالشيوعية، وترجع السهولة التي اخترقت بها أمريكا العراق إلى كوننا

ديمقراطية ليبرالية وبإمكاننا أن نحشد قدرا هائلا من القوة التقنية، وكذلك لأن جنودنا يعتزون بما لديهم لذلك كانوا مستعدين للقتال من بيت إلى بيت من البصرة إلى بغداد مما شكل سببا حقيقيا لصدمة وذهول العراقيين وهو ما يبرهن على خطأ الدعاية الإرهابية القائلة إن الأمريكيين المهووسين بمتابعة نتائج سوق الأسهم وألهتهم تفاهات الحياة المعاصرة مما أفقدهم القدرة على القتال. نحن أقوياء بسبب ما نمثله والعراق كان ضعيفا بسبب ما كان عليه. لذلك لا مانع من إضافة أجهزة الكشف في المطارات، ولكن بشرط أن نتخلى عن فكرة إعادة هيكلة مجتمعنا بأسره وتضييق الخناق على الحريات المدنية ومنع الطلبة العرب (من الدخول) والتخلي عن جميع المبادئ المسيرة لسياستنا الخارجية التي استفدنا منها كثيرا - من أساليب الردع إلى الأمن المشترك إلى تقدير مكانة الأمم المتحدة- حتى نتمكن من مجابهة هذا التهديد الإرهابي الجديد.

ويمكن تبليغ الرسالة التالية إلى العرب المنزعجين من الانهيار السريع لنظام صدام حسين: لا يمكنكم تحدي أمريكا دون أن تقوموا بتشييد شيء ما ذي قيمة. وما اعتقادكم بأن حاكماً مارداً مثل صدام حسين قادر على استرداد كرامتكم، في حين أنه لم يقم سوى بإلهائكم عما يمكن أن يساعدكم فعلا على بناء مجتمعاتكم. كما أننا نعيش جميعا في عالم ما بعد الفقاعات، لذلك نحن في حاجة إلى تهدئة الأمور قليلا والعودة إلى العمل على دعم المجتمع المفتوح الذي يشكل عماد قوتنا الحقيقية. وكل ما تحتاج الدول العربية والإسلامية أن تدركه هو أنها فيما إذا أعادت بناء هذه الفقاعات الإرهابية ثانية - وهذا ممكن - فإن أمريكا ستمحقها ثانية. ولكن على هذه الدول أن تعي أيضا أنها إذا أرادت أن تعيد فعلا بناء مجتمعاتها - بدءاً بالعراق - على أساس الاحترام والتسامح وحكم سيادة القانون، فإننا سنتكفل بدفع أي ثمن لمساعدتهم إن طلبوا منا ذلك.

٢٠/٠٤/٢٠٠٣

المذكرات

أسفار في عالم بدون جدران:
من ١١/ ٩/ ٢٠٠١ حتى ٣/ ٧/ ٢٠٠٢

كان يوم ٩/١١ من العام ٢٠٠١ لحظة أمريكية بامتياز، تمنيت لو كنت حينها مع عائلتي، لكن من طبيعة العنف العشوائي أن يجمعنا بأناس غرباء عنا - مسافرين على متن طائرة، أو ركاب في حافلة، أو غرباء عنا في مصعد كهربائي -. كنت يوم ٩/١١، في إسرائيل بعيدا جدا عن بيتي صحبة سائق تاكسي بالكاد تعرفت عليه وسكرتيرات لم أجتمع بهن من قبل.

ولسخرية القدر صادف أن يكون يوم ٩/١١، يوم الثلثاء حين ظهرت مقالتي صبيحة ذلك اليوم من إسرائيل حيث ابتدأتها بحكاية عن ابنتي ناتالي. وبحكم أسفاري المتكررة، نزعت ابنتي إلى عدم التركيز على أي وجهة سأقصد. وقبيل رحلتي تلك إلى إسرائيل سألتني إبنتي ناتالي إلى أين سأذهب وحين أخبرتها قالت لي متسائلة بخوف «هل من الضروري أن تذهب إلى هناك؟» لذلك استشهدت في مقالتي تلك التي كتبتها وأنا في تل أبيب ونشرت يومها بسؤالها القائل «لماذا ستذهب إلى هناك؟» كي أبرهن كيف أدى انهيار محادثات أوسلو إلى أن تصبح إسرائيل في نظر ابنتي مجرد مكان آخر خطير يجب تجنبه- بالرغم من أنها ولدت هناك-. كان عنوان تلك المقالة «جدران» لأني كنت أحاول حينها أن أشرح كيف يحاول كل من الإسرائيليين والفلسطينيين حماية نفسه من الطرف الآخر عن طريق تشييد جدران عازلة سواء على الأرض أو في رؤوسهم.

وفي الوقت الذي كان فيه قراء النيويورك تايمز قد انتهوا من تناول فطور الصباح، وربما بعضهم كان يقرأ مقالتي تلك التي شرحت فيها كيف أصبحت إسرائيل. . . اصطدمت أربع طائرات مختطفة بكل من مركز التجارة العالمي وحقل في بنسلفانيا والبنتاغون الذي يبعد أميالا قليلة عن مقر سكني، وهكذا اتضح أنني لست في مكان

خطير كما اعتقدت أسرتي، بل هم الآن معرضون للخطر. حينها كنت قد انتهيت من إجراء حوار مع رئيس جامعة تل أبيب إيتامار رابينوفيتش في انتظار موعد آخر عند الساعة السادسة مساء. وما إن غادرت مكتبه واتجهت إلى سيارة الأجرة التي تنتظرني للعودة إلى تل أبيب وبمجرد أن فتحت باب السيارة حتى لاحظت حالة الرعب البادية على السائق يورام، الذي قال لي بخليط من الإنجليزية والعبرية إن راديو إسرائيل أذاع خبرا مفاده أن طائرتين قد اصطدمتا بمركز التجارة العالمي (الطائرة الأولى عند الساعة ٨:٤٨ بالتوقيت المحلي)، وبما أني قمت ببحوث معمقة حول المحاولة الأولى لتفجير مركز التجارة العالمي في ٢٦ شباط/فبراير ١٩٩٣، تأكدت بشكل قاطع أن ذلك لم يكن مجرد حادث عرضي. فركضت راجعا إلى مكتب إيتامار حيث وجدت مديرة العلاقات العامة بالجامعة وبعض الموظفين العاملين معها يشاهدون بذهول نقل قناة السي.ان.ان لمشهد اصطدام الطائرة الثانية بأحد البرجين. حينها قامت إحدى السكرتيرات بتلخيص مجمل رد الفعل الإسرائيلي على ذلك الحدث بقولها: «الآن سيفهم العالم معاناتنا»، ثم أضافت: «يا إلهي إنهم سيتهموننا بذلك». لقد أصابت في كلا القولين.

وبينما كنت أحاول أن أستوعب ما أشاهده على الشاشة عاد إلى ذهني مشهد مضى عليه أكثر من عشر سنوات، حول ذلك المؤتمر الصحفي الذي عقده وزير خارجية أمريكا آنذاك جيمس بيكر الثالث بعد أن اجتمع مع نائب رئيس الوزراء العراقي طارق عزيز في جنيف يوم ٩ يناير/ كانون الثاني ١٩٩١، كانت الغاية من الاجتماع الذي دام يوما كاملا في فندق «جينيفا إنتركونتيننتال» التوصل إلى اتفاق ينسحب بموجبه العراق من الكويت بشكل سلمي، وإلا فإن قوات التحالف التي تقودها الولايات المتحدة ستغزو الكويت وتخرج الجيش العراقي من هناك بالقوة. وبينما كان الصحافيون ينتظرون عقد ذلك المؤتمر لساعات طوال بدأوا في استجواب بعضهم البعض (ولسبب ما قامت إدارة الفندق بوضع تمثال جمل كبير الحجم في تلك القاعة، ربما في إشارة منهم لعلاقة الشرق الأوسط بذلك الحدث). وعند بداية المؤتمر تكلم بيكر بإسهاب وتفصيل كيف أنه لم يدخر جهدا من أجل إقناع طارق عزيز بانسحاب العراق سلميا فقال عن تلك المداولات: «أيها السادة والسيدات، بكل أسف وبعد ست ساعات من المحادثات لم أسمع شيئا يدل على أي مرونة من الجانب العراقي...» وبمجرد سماعي لتلك الكلمات بدأت يداي ترتعشان إدراكا مني لخطورة الموقف وليقيني أن ذلك يعني بداية حرب كبرى، وأن التاريخ سيأخذ منعرجا حاسما بشكل سيغير من طبيعة العالم كما تعودنا

عليه. دائما كنت أعتقد أنه فيما لو قدر لي تأليف كتاب عن حرب الخليج (الأولى) سيكون عنوانه «بكل أسف أيها السادة والسيدات».

وهكذا أدركت وأنا أشاهد عبر قناة السي.ان.ان برجي مركز التجارة العالمي ينهاران ويغمران شوارع مانهاتن، أننا أمام منعرج تاريخي آخر، وأن عالما جديدا سيبعث من جحيم هذين البرجين. ولذلك ظللت أقول لنفسي باستمرار: »بكل أسف أيها السادة والسيدات...».

وبينما كنت جالسا مع هؤلاء النساء الإسرائيليات أشاهد السي.ان.ان في مكتبهن بدأ الهاتف بالرنين، إذ طلبت مني جريدة يدوعوت أحرنوت إن كنت راغبا في كتابة مقالة فورية لهم فأجبت بالرفض، كما قمت بإرسال رسالة عبر البريد الإلكتروني لأطمئن زوجتي وبناتي. وبقيت هكذا إلى أن سألتني إحدى الحاضرات عما إذا كان ذلك سيؤثر على إسرائيل فقلت لها إني لا أعرف، لأن هذا يعني حرباً عالمية ثالثة ويتجاوز الأمر إسرائيل بكثير.

وبعد أن بدأت أشعر بالاختناق رغبت في أن أكون وحيدا وقررت العودة باتجاه القدس، ولكن الطريق السريعة تم إغلاقها مؤقتا مما تسبب في اختناق مروري على مدى خمسة أميال. لذلك قررت الذهاب إلى تل أبيب ونزلت بفندق الهيلتون حيث اجتمعت صدفة ببعض معارفي القدماء الذين دعوني إلى العشاء ليلتها لكني رفضت أيضا مفضلاً البقاء بمفردي، وبعد ان شاهدت المزيد من الأخبار خرجت عند الساعة العاشرة ليلا متنزها على الشاطئ ومفكرا في أمر مزعج ألا وهو أي عالم مختلف هذا الذي ستكبر فيه بناتي؟ يبدو أن التاريخ قد اتخذ منعرجا باتجاه مظلم. وهذا ما جعلني أغضب كثيرا.

في البداية، لم ألحظ على نفسي ذلك الغضب، ولكن بعد مرور حوالي ستة أسابيع على الهجوم بدأ بعض الأصدقاء والقراء يقولون لي إن «مقالاتي أصبحت غاضبة فعلا» وهو أمر لم أفكر فيه بصراحة، إلا أني اعترفت لهم بذلك. أنا غاضب من كون بلادي تعرضت للاعتداء بتلك الطريقة، وغاضب من الموت العشوائي الذي تعرض له الكثير من الأبرياء وغاضب من حالة الغرور المرضي وجنون العظمة الذي يعاني منه أسامة بن لادن ورجاله، الذين ادعوا بكل حماقة أن ما تعرضوا له من مظالم، مهما كانت درجتها، تبرر ما ارتكبوه من قتل جماعي، وغاضب لأن سمسار البورصة الذي أتعامل معه، مارك مادن، فقد أخاً له كان متواجدا في أحد برجي مركز التجارة، وغاضب من

كل هذه التحاليل التي تتناول بالشرح سبب كره الكثير من شعوب العالم لنا في حين أني لا أفكر إلا بدرجة كرهي لهؤلاء الإرهابيين.

وأكثر ما أغضبني هو أن أمريكا التي ترعرعت فيها لن تكون كما كانت بالنسبة لابنتي البالغتين ثلاثة عشر وستة عشر عاما. وبعد مرور أسبوعين فقط على ٩/١١، قامت فرقة الأوركسترا التي تعزف فيها ابنتي أورلي بإلغاء رحلتها إلى إيطاليا في الصيف القادم- تلك الرحلة التي كانت دافعا وراء قيامها بكل تلك التمارين الإضافية كي تتقن العزف على آلة الكمان- لقد تم إلغاء الرحلة لأسباب أمنية بحتة، بالرغم من اعتقادي بأن ذلك الإلغاء كان خطأ فادحا ومزعجا جدا. إلا أني لا أملك أي حيلة حتى أجعل أولياء بقية الطلبة يعدلون عن رأيهم ذاك. والشيء نفسه حدث مع مدرسة ابنتي الأخرى ناتالي، إذ إنها من المفترض أن تذهب في رحلة مدرسية إلى نيويورك خلال ثلاثة أسابيع بعد ٩/١١، وبعد أن عقد الأولياء اجتماعا، قررت الأغلبية بالإجماع إلغاء تلك الرحلة، بل إن بعض الأساتذة عبروا عن مخاوفهم من الذهاب أيضا. وبحكم عدم فهمي لما يجري تحديدا لم أكن أرى أي سبب لتغيير أي برنامج. لذلك أصررت على الذهاب لمشاهدة الحفلات الموسيقية وحضور مباريات فريق الأوريولز للبيسبول في مدينة بالتيمور. كما أني انزعجت من إجراءات التفتيش الاحتياطية وغضبت من طوابير الانتظار الطويلة بمطار دالاس، لغرابة هذا العالم الجديد عما تعودت عليه وآسف كون ابنتاي سوف تكبران في ظل هذه المتغيرات الرهيبة.

وبصراحة أنا لست غاضبا فقط بسبب ما ستتعرض له ابنتاي فقط، بل كذلك وبحكم مهنتي كصحافي سافرت إلى الكثير من المناطق الخطرة في العالم وكان الرجوع إلى أمريكا دائما له نكهته الخاصة بالنسبة لي. أحيانا كثيرة أعود إلى الوطن بعد رحلة إلى مكان بعيد مثل روسيا أو فنزويلا أو الضفة الغربية أو إفريقيا أكون قد اشتقت إلى ما نتمتع به من تنظيم وترتيب وجمال، مما يجعلني أتساءل عن حجم المجهودات التي تبذلها الجمعيات المحلية والوكالات الحكومية وحجم الأموال التي تكفل بها دافعوا الضرائب حتى نتمكن من بناء مثل هذه المؤسسات، مما يجعلني أشعر بشيء من الغبطة والفخر بما حققه مجتمعنا الأمريكي من مستوى ونوعية حياة راقية جدا. وبقطع النظر عن حالة الجنون التي تصيب العالم الخارجي كانت أمريكا دائما وأبدا ملجئي وملاذي الآمن الذي أهرب إليه في النهاية. إلا أن كل ذلك تم اختراقه يوم ٩/١١، من قبل أناس بالكاد يعرفوننا.

لذلك أنا غاضب جدا. إلا أن الصحفي الذي بداخلي حافظ على فضوليته. من هم هؤلاء الناس؟ وأي قوى تاريخية أنتجتهم؟ لذلك كان هذان الدافعان - الغضب والفضولية - رفيقي العاطفيين منذ ٩/١١ إلى اليوم وأنا موزع بين أفكاري وعواطفي وهذا ما غلب على جميع مقالاتي.

في وقت متأخر من مساء يوم ٩/١١، بدأت أفكر في ما يجب علي أن أتناوله في مقالتي الأولى بعد الاعتداء. ومن حسن الحظ أني كنت قد أجريت منذ أيام حوارا مع اللواء عاموس مالكا، رئيس جهاز المخابرات العسكرية الإسرائيلية، الذي أذهلتني دائما نظرته الثاقبة للأمور. لذلك اتصلت به طالبا منه إذا كان بوسعه أن نلتقي ثانية صبيحة اليوم الموالي. وبما أن العالم قد أصبح رأسا على عقب، وبحكم أنه ذاهب إلى واشنطن في ذلك اليوم نفسه، إلا أنه وافق على أن يسمح لي بمقابلة كبار خبراء الإرهاب الإسرائيليين حوالي الساعة السابعة صباحا. قطعاً كنت مهتما بما في حوزة الإسرائيليين من معلومات عمن يكون وراء هذا الاعتداء الذي تعرضت له الولايات المتحدة، وكما هو متوقع برز اسم أسامة بن لادن كمتهم رئيسي. وكذلك كنت مهتما بما تعلّمه الإسرائيليون بحكم خبرتهم الطويلة في التعامل مع الإرهابيين، وكيف يمكن لجيش نظامي أن يردع أناس راغبين في الموت؟ لأن هذه مشكلة حديثة جدا بالنسبة لأمريكا، لقد اشار الكاتب الإسرائيلي آري شافيت إلى أن الاتحاد السوفياتي كان العدو اللدود لأمريكا على مدى فترة الحرب الباردة، إلا أن السوفيات كانوا يحبون الحياة أكثر مما كانوا يكرهوننا. وهذا ما يفسر بالنهاية تراجعهم أمام خطر الفناء النووي الجماعي إبان أزمة الصواريخ الكوبية. إلا أن هؤلاء الانتحاريين يشكلون عدوا مختلف تماما لأن كرههم لنا يتجاوز بكثير حبهم للحياة.

كذلك كشف لي هؤلاء الخبراء الإسرائيليون عن حقيقة ظلت عالقة بذهني إلى الآن ومفادها أن المرة الوحيدة التي استطاع فيها الجيش الإسرائيلي أن يتمكن من وقف العمليات الانتحارية التي ينفذها الفلسطينيون بنجاعة كانت حين تولى ياسر عرفات الأمر بنفسه نيابة عنهم، أي سواء بدافع التهديد أو الحوافز. وقال لي هؤلاء الخبراء إن الأمر في غاية البساطة، لأنه يمكنك أن تمتلك أفضل جهاز مخابرات في العالم لكنه يستحيل على الإسرائيليين أن ينجحوا في اختراق المجتمع الفلسطيني أفضل من الفلسطينيين أنفسهم، ولا أحد يستطيع التمييز بين أحمد ومحمد مثلما يقوم بذلك أحمد ومحمد

نفساهما لما لديهم من قدرة على استيعاب وفهم التركيبة الاجتماعية والنفسية لبعضهم البعض. مجتمعهم هو وحده القادر على اختراق هذه التنظيمات وخلع الشرعية عنها. أما الغرباء فهم قطعا غير قادرين على ذلك.

لقد ترسخت في ذهني هذه النظرة الثاقبة منذ ذلك الحين. ومن جانبنا لا يمكننا ربح هذه الحرب ما لم يكن عندنا شركاء محليون قادرون على إفراغ تلك التنظيمات (لا أن ينتظروا منا أن نطالبهم بذلك) دفاعا عن مصالحهم الخاصة، سواء بإغلاق الجمعيات الخيرية المشبوهة أو بحبس المشتبه فيهم بالإرهاب أو بشجبهم بشكل علني. صحيح أننا نكون أحيانا محظوظين فقط لأن الإرهابيين ارتكبوا أخطاء إلا أن ذلك لا يكفي للقضاء عليهم. الأمر يتطلب منا إيجاد شركاء لنا ضمن مجتمعاتهم نفسها بما في ذلك أجهزتهم الأمنية ووسائل إعلامهم وحكوماتهم.

والأمر الثاني الذي علق بذهني بعد ذلك الاجتماع هو ما قاله لي أحد العسكريين الإسرائيليين بعد أن أبديت شكي في وقوف جهاز مخابراتي لدولة ما وراء هؤلاء الإرهابيين، نظرا للبراعة المتناهية والخبرة العالية التي أبدوها في تنفيذ تلك الاعتداءات، مستبعدا أن يقتصر الأمر على بن لادن ورجاله فقط. حينها تدخل العسكري الإسرائيلي بالقول: «ليس من الصعب جدا أن تتعلم كيف تقود طائرة وهي في الجو، وتذكر جيدا أنه لم يكن مطلوبا منهم أن يتعلموا كيف يتم الهبوط».

حي السيد هوبز

بعد يومين قررت الذهاب إلى الأردن، وخصوصاً أني ما زلت لا أستطيع العودة بالطائرة إلى بلادي. لقد أردت أن أمتص مخلفات صدمة ٩/١١، من مكان ما في العالم العربي-الإسلامي. وقد وصلتني رسائل إلكترونية عديدة من أصدقائي من العرب والمسلمين من مختلف أصقاع العالم بعد سويعات قلائل من حدوث الاعتداء، يعتذرون فيها عما حدث باسم الإسلام ومحاولين في الوقت نفسه الاطمئنان عني وعن أسرتي. لقد سعدت بكل رسالة منهم، لأن ذلك يذكرني بالأعداد الهائلة من الناس الطيبين في هذه المنطقة من العالم، وكيف أنهم تواقون إلى الحصول على مستقبل أفضل لدولهم - مستقبل يكون مختلفا عما تطرحه توتاليتارية بن لادن الدينية وخالية من الظلم الذي يمارسه حاليا حكامهم الدكتاتوريون العسكريون المتحكمون في رقابهم. لكن هناك

رسالة مبعوثة من صديق أمريكي مقرب يعيش في دبي أزعجتني، قال فيها إن هناك شائعة سرت في كامل منطقة الخليج الفارسي مفادها أن أربعة آلاف يهودي تجنبوا الاقتراب من مركز التجارة العالمي ذلك اليوم بناء على تحذير جهاز المخابرات الإسرائيلي لهم. وقد سألني مستفسرا بالقول «هل هذا صحيح؟» وهذا ما حز في نفسي. يجب أن تكون تلك الإشاعة منتشرة بقوة حتى تدفع بشخص ذكي للتساؤل عن صدقيتها، مما يعني ايضا أن العامة أصبحت شبه مقتنعة تماما بها. كانت تلك المرة الأولى التي جابهت فيها تلك الكذبة الرهيبة، إلا أنها وللأسف ليست بالمرة الأخيرة. لأني سأسمع ذلك مرارا وتكرارا تقريبا في كل بلد عربي أو إسلامي زرته بعد ٩/١١. وفي حال إجراء استطلاع رأي حقيقي سنجد أن الغالبية العظمى من العرب والمسلمين لا زالوا يعتقدون بمثل هذه الدعاية الكاذبة. وكان ذلك قد شكل بداية سريان آفة من النكران اجتاحت كامل العالم العربي والإسلامي كتعبير عن رفضهم مواجهة حقيقة كون مرتكبي تلك الأفعال ينتمون إليهم.

وفي الليلة الثانية التي قضيتها في عمان، رتب صديق أردني حفل عشاء للقاء نخبة من التقنيين ورجال الأعمال الأردنيين الشباب. كان معظمهم من الأشخاص الأذكياء والمفعمين بالحيوية مما جعلني أرتاح لمحاورتهم بالرغم من أني أحسست أحيانا أنهم لا يشاركونني في الحكم على تلك الأحداث وينظرون إلى أمريكا على أنها تتحمل جانبا من المسؤولية عما وقع. وكان ذلك أول ما تلمسه من موقف عربي وإسلامي سيتضح لي بوضوح أكثر لاحقا بطرق سيئة. إلا أن هؤلاء الأردنيين لا يكرهون أمريكا، بل بالعكس هم معجبون بها ويريدونها أن تقف في صفهم بالرغم من مقتهم لحقيقة كون أمريكا وقفت باستمرار إلى جانب إسرائيل ولم يسبق لها أبدا أن ساندت الفلسطينيين. وكبقية العرب رأوا أنه لا بأس أن تعرف أمريكا قليلا من المهانة بتعرضها لجزء من الغضب العربي منها، خاصة وأن إدارة الرئيس بوش لم تظهر أي اهتمام يذكر بما يمكن أن يشعر به العرب.

وقد لخص لي دبلوماسي أمريكي يعمل في السعودية المزاج العام الذي ظهر بعد الاعتداءات مباشرة فقال: «هناك الكثير من العرب هنا ممّن يعانون من الإحباط والشعور بالدونية تلخص موقفهم من ٩/١١، بقولهم إنهم لن يفرحوا لمعاناتنا، إلا أنهم سعداء لحدوث شيء ما لا قدرة لنا على التحكم فيه باعتبار أنهم يعيشون في عالم لا يتحكمون فيه بحياتهم». إن الشعور بالفشل في مواكبة الحداثة والتمتع بما ينجم عن الحرية والقوة

التكنولوجية التي للغرب، منتشر بكثرة في العالم العربي والإسلامي اليوم، ويمكن ملاحظة انعكاساته في الكثير من المجالات كالتهرب من تحمل مسؤولية الأعمال المؤذية الصادرة عن العرب، وشيوع نظريات المؤامرة التي تريحهم من تحمّل أي تبعات واستمرار حالة الحب- الكراهية الغالبة على علاقتهم بأمريكا. لذلك نجد أعداد المناهضين لأمريكا ليست بالقليلة كما أنهم يعبرون عن ذلك بصوت عال. قال أحد الحاضرين في حفلة العشاء تلك وهو رجل أعمال أردني يملك موقعا على شبكة الإنترنت أن شركته أجرت استطلاعاً للرأي خلال الأيام الأولى التي تلت ٩/١١، فكانت النتائج محبذة لما جرى بشكل دفعهم لوقف أخذ الآراء.

وحين سألت عن مصدر أغلب تلك الآراء أجابني دون تردد بالقول: «من مشتركين في المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة». كذلك شرح لي أنه لا يمكن إبداء الرأي في موقع شركته دون أن تفصح عن هويتك.

أما الموقف المتبصر الآخر الذي حصلت عليه أثناء زيارتي للأردن، تم على إثر المقابلة التي أجريتها مع العاهل الأردني، الملك عبد الله وزوجته الملكة رانيا حين استدعاني للحديث عن هذا الحدث. علماً أن الملك يحتفظ في مقر إقامته الخاص بمجموعة كبيرة جدا من الأسلحة اليدوية تغطي كل الحائط من أسفله إلى أعلاه مما جعلني أستغرب لتناقض ذلك مع طبعه اللطيف. وهذا ما ساعدني على فهم سبب عدم صدمة العرب مثلما حدث مع الأمريكيين من اعتداءات ٩/١١، وذلك لأنهم لا يعيشون في حي السيد روجرز بل يعيشون في حي السيد هوبز. وهذا ما جعلهم ينظرون إلى تلك الاعتداءات على أنها مجرد أفعال تفوق قليلا في درجتها العنفية ما تعودوا عليه هم في حياتهم اليومية. فمن عاش حروب سنة ١٩٤٨ و ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٨٢ ومن عايش أحداث أيلول الأسود (حين قام مسلح فلسطيني باغتيال رئيس الوزراء الأردني أمام فندق شيراتون القاهرة وجثم فوقه ليشرب من دمه) ومن عايش حرب الخليج، ومن عايش محاولات لا تحصى من الاغتيالات واختطاف الطائرات والسيارات المفخخة سوف يجد أن أحداث ٩/١١، لا تمثل أكبر حالة عنف عرفها في حياته. وبالتالي فإن ذلك اليوم بالنسبة للكثير من سكان منطقة الشرق الأوسط لا يختلف كثيرا عن غيره من بقية الأيام.

لقد كان الملك عبد الله متعاطفا بصدق ليس لأنه موال لأمريكا في عمقه بل لأن عرشه سبق له أن تعرض لتهديد تنظيم أسامة بن لادن. كما أنه قدم لي نصيحة ثمينة

وبسيطة تقول: «تعقب الأموال» كما أنه كان أول من شرح لي الدور الذي تلعبه الجمعيات الخيرية وكل المؤسسات غير حكومية التي كثيرا ما يتم استخدامها كواجهة في الشرق الأوسط عموما وفي منطقة الخليج بصفة خاصة، مما سمح لأسامة بن لادن أن يدير عملياته في الأردن وفي أفغانستان وفي مناطق أخرى عن طريق أموال قادمة من تبرعات جمعيات خيرية إسلامية.

وأثناء مغادرتي للأردن متوجها إلى لندن في رحلة جوية وبينما كنت منشغلا بتحرير مقالة اقترب مني شاب عربي أنيق المظهر سائلاً «هل أنت توماس فريدمان؟» ولما أجبته بنعم قال: «هذا مدهش فأنا أطالع حاليا كتابك «من بيروت إلى القدس»»، وحين سألته عن جنسيته قال إنه مصري يعمل مع إحدى كبرى شركات النفط الغربية، ثم أخبرته ردا على سؤاله أني بصدد كتابة مقالة أتساءل فيها عما إذا شعر العرب والمسلمون بالغضب مما قام به أسامة بن لادن، وما كان منه إلا أن أشار علي بأني مقصر في وصف ما يشعر به الناس حقيقة هنا شارحا لي ذلك بطريقة أستطيع فهمها أي باستعمال المصطلحات نفسها التي وردت في كتابي ذاك حين قلت إن الإرهابيين في بيروت لا يختلفون كثيرا عن سواهم من بقية الناس في تلك المنطقة، لأنهم عبروا بطريقتهم الخاصة عن حالة الغضب التي يشعر بها الجميع في الوقت الذي فضل فيه البقية اللجوء إلى الصمت والاستكانة.

وبالتالي هناك حسب رأيه نوعان من الإرهابيين، إرهابيون يشعرون بما يشعر به أي شخص آخر من حولهم وآخرون متطرفون فعلا لا يقاسمون هموم بقية الناس إلا أنهم يتصرفون بناء على ما يرونه. وهكذا يمكن اعتبار بن لادن من الفئة الأولى. ومن جهتي أعتبر أن كل من يعتقد أن بن لادن لا يتعدى كونه حالة شاذة لا علاقة له بمعاناة الناس هو واهم.

إن المعلومة التي حصلت عليها من الأردنيين حول تتبع مصادر التمويل، أخذت تتواتر بعد أن عدت إلى أمريكا بأسبوع. وبعد أن أثرت هذا الموضوع في مقالة لي، توجهت إلى ديترويت لإلقاء محاضرة في جامعة ميتشيغان، أخبرتني سكرتيرتي الخاصة أن مسؤولا حكوميا من الكويت اتصل بي يريد التحدث معي، وحين اتصلت به قالي بالحرف: «توم، لقد قرأت مقالتك اليوم (على الإنترنت) وما جاء فيها صحيح، لأننا لم

نتعامل مع مسألة الأموال بجدية كافية، بسبب قيام خصومة فيما بين أعضاء الحكومة الكويتية فيما إذا كان من الضروري شن حملة على هذه الجمعيات الخيرية الإسلامية، كما أني أخبرت الآخرين بأننا نعرف مصدر ووجهة هذه الأموال. كلنا يعلم ذلك إلا أن خائف من التعرض لذلك. كما أني أعطيت مقالتك إلى بعض الصحف الكويتية وطلبت منهم ترجمتها ونشرها».

لذلك لم يفاجئني قرار وزير المالية الأمريكي بول أونيل بتجميد أرصدة «جمعية إحياء التراث الإسلامي» وهي منظمة خيرية كويتية ذات صلة ببن لادن عبر باكستان. جاء في قرارالوزير الأمريكي ما يلي: «لقد ارتكبت تلك المنظمة الخيرية الموجود مقرها الرئيسي في الكويت... ولها فرع في باكستان الغش عن طريق تحويل التبرعات لتمويل نشاطات إرهابية، وفي سبيل حصول فرع باكستان على المزيد من الأموال من مكتب الكويت، قام ذلك الفرع بتضخيم عدد الأيتام المزعوم العناية بهم بوضع أسماء وهمية أو أسماء أشخاص أموات، حتى يتمكن من تحويل ما يحصل عليه من الأموال إلى تنظيم القاعدة».

كانت أول مرة أبكي فيها بسبب ٩/١١، بعد رجوعي إلى أمريكا قادما من الأردن لما ذهبت إلى مدرسة سيلفر سبرينغ- ميريلاند الإعدادية التي تدرس فيها ابنتي ناتالي، لحضور اجتماع الأولياء السنوي عند بداية أول يوم دراسي. وهي مدرسة يرتادها أبناء الطبقة الوسطى في ضواحي واشنطن (العاصمة)، يتكون طلبتها من أكثر من أربعين جنسية مختلفة. اجتمعنا في القاعة الرياضية التابعة للمدرسة حيث أنشد كورس المدرسة نشيد «ليحمي الرب أمريكا» في حين عزفت فرقة الأوركسترا النشيد الوطني الأمريكي. لقد كانت لحظة معبرة جدا لم أقدر خلالها على التحكم في دموعي. كما جال بخاطري أحد أهم مبادئنا التي بني مجتمعنا على أساسها والقائل بأن «في الاتحاد قوة» مما ساعدني على فهم ما نحن نحارب من أجل الدفاع عنه، ولماذا نحن أقوياء وهو ما لم يفهمه الكثير من الأجانب خاصة بن لادن وأمثاله. لكن لمدرسة ابنتي ولمركز التجارة العالمي الكثير من القواسم المشتركة. لأن كلاهما معبد مدني أمريكي، وعقيدتنا المدنية تسمح باستقبال كل من يأتي إلى بلدنا ليحقق ما يصبو ويطمح إليه. وما القوة الاقتصادية الأمريكية سوى تعبير عن كل تلك الطموحات والجهود الفردية مجتمعة. وما قوتها العسكرية سوى تعبير عن قدرة أولئك الأفراد على التماسك والاتحاد للدفاع عن قيمنا

المشتركة. لذلك كان مركز التجارة العالمي بمثابة معبد مدني يمارس فيه آلاف الناس طقوسهم المدنية تلك. والشيء نفسه ينطبق على مدرسة ابنتي التي يوجد مثلها بالملايين على امتداد أمريكا، مع فارق أن مركز التجارة العالمي كان مركزا يعمل به أبناء أكثر من تسعين جنسية بدل أن يكونوا أبناء جنسية واحدة كما في المدارس.

وفي أحد الأيام حين كنت راجعا إلى البيت سمعت على موجات «الإذاعة الوطنية» نداء يطلب من المستمعين التبرع بما لديهم من تسجيلات لإنشاء مكتبة سمعية خاصة بمركز التجارة العالمي، وكان من بين الأصوات صوت رجل من أصول إسبانية يبكي ويصرخ بلهجة إنجليزية ثقيلة، فتذكرت كل عمال وعاملات التنظيف من المهاجرين القادمين من المكسيك وأمريكا الوسطى.

بالنسبة لبن لادن كان مركز التجارة العالمي بمثابة قصر أبيض يقبع فوق هضبة وينظر بازدراء إلى بقية العالم، في حين أنه كان بالنسبة لأغلب الأمريكيين أكثر من برجين عاليين كتجسيد لما يتمتع به الأمريكيون من طاقة وإبداع في معانقة السماء بشكل يمكنك معه النظر من فوق إلى تمثال الحرية. بالنسبة لبن لادن لم تكن هناك أي علاقة تذكر بين برجي مركز التجارة وتمثال الحرية، لأنه يعتقد أن أمريكا غنية بسبب ما سرقته من بقية الشعوب أو بسبب عدم إيمانها بأي قيم. أما بالنسبة للعاملين في مركز التجارة العالمي فإنهم يرونه كتجسيد لما يرمز إليه تمثال الحرية، أي القابلية على تحويل الجهد اليومي لملايين البشر، غالبيتهم من المهاجرين الجدد إلى ناطحات سحاب ومكاتب ومصانع وجامعات. وكما ذكرت لا يرمز برجا التجارة بالنسبة لبن لادن سوى إلى مجتمع ملحد وفاسد ومادي- مجتمع أصبح قويا وغنيا فقط لأنه لا يؤمن بأي قيم. بالطبع فإن ما لم يفهمه بن لادن هو أن الحقيقة هي على النقيض من ذلك تماما. نحن أغنياء وأقوياء نتيجة للقيم التي نؤمن بها المتمثلة في احترام وليس احتقار حرية التفكير واحترام الحرية الفردية والاحتكام لسلطة القانون وحرية التجارة واحترام حرية المرأة والحركية الاجتماعية والنقد الذاتي والتجريبية والتعددية الدينية-. لذا ومن أجل الحفاظ على قوتنا يجب أن نعمل على جعل أماكن عملنا أكثر أمانا ومؤسساتنا أكثر متانة ومجتمعنا أكثر يقظة وحرصا لحماية تلك القيم. وهذا ما تعلمه الأمريكيون من ٩/١١، بأن يجددوا احترامهم لرجال الشرطة والمطافئ والمشرعين وسائر دوائر الدولة، نظرا لما يبذلونه من جهد في سبيل حماية الأسس التي يقوم عليها مجتمعنا وهما أماكن العمل والمدارس باعتبارهما معبدين يحرسان عقيدتنا المدنية.

وبعد أن زرت مدرسة ابنتي بشهرين، ذهبت إلى نيويورك لحضور المؤتمر الاقتصادي العالمي الذي انعقد هذه المرة في مانهاتن وليس في دافوس، سويسرا. وبينما كنت منشغلا بقراءة ما وصلني من رسائل إلكترونية اقترب مني شخصان فرنسيان ليقولا لي إنهما يقرآن مقالاتي باستمرار، ثم أضاف الزوج قائلا بلطف أنه تأثر كثيرا بالمقالة التي تحدثت فيها عن مدرسة ابنتي. وحين سألته عن سبب تأثره أجابني بالقول: «أكثر ما يعجبني في أمريكا هي درجة الاحترام التي يتمتع بها الأفراد هنا، وذلك بسبب ما لأمريكا من قدرة عجيبة على استيعاب ودمج الأفراد، بشكل لا يمكنني شرحه لعائلتي في فرنسا. مثلا أنا من الجيل الأول الفرنسي، أبي من أصل تونسي وأمي من أوروبا الشرقية. لذلك أنا فرنسي بالصدفة، حصل وأن ولدت هناك. لكن وبالرغم من كوني أتمتع بالجنسية الفرنسية فأنا أشعر بالاختلاف (عن الفرنسيين المنحدرين من والدين فرنسيين). لكن وبالرغم من كوني لم أولد هنا، وبحكم أني اعمل هنا، فأنا لا أشعر بأي اختلاف عن الأمريكيين المولودين هنا. فالاندماج من مكونات هذا المجتمع، ويستحيل تطبيقه في أي مكان آخر. لذلك أجد الاختلاف واضح وكبير بين العيش هنا وفي فرنسا. لم أواجه أي مشكلة طالما أني أحترم طريقة عيش الآخرين وطالما هناك أمور نتفق ضمنيا على الإيمان بها. طبعا بن لادن يجهل كل هذا، لأن التجربة الأمريكية الحالية هي نتيجة ٢٥٠ سنة من محاولات الاندماج، وهذا أمر لا وجود له في عالم بن لادن».

قواعد الالتزام السياسي

إذا كان بإمكان شخص فرنسي أن يفهم كل هذا بشكل جيد، فما الذي منع طلبة الجامعات الأمريكية والأساتذة من ذلك؟ علماً أن أكثر جدل باعث على الكآبة خضته بعد ٩/١١، كان قد حصل في إحدى الجامعات الأمريكية عندما تناقشت مع بعض الطلبة والأساتذة الذين لم يعوا الأمور جيدا على ما يبدو. وما لم يفهموه هو أن ما حرك بن لادن وعصابته لم يكن الدافع إلى تغيير السياسة الخارجية الأمريكية. هل سمع أحدكم بن لادن يقول «سوف لن تصبح عندي اي مشكلة فيما لو خفضت أمريكا من تواجدها العسكري وأزالت كل محلات الماكدونالدز من المملكة العربية السعودية. ولن تكون هناك أي مشكلة عندي مع إسرائيل فيما لو انسحبت إلى حدود ما قبل ١٩٦٧؟». فهو لم يكن معنيا بتاتاً بالبحث عن شكل من أشكال التعايش معنا، بل كان مهتما فقط

بإضعاف أو تدمير مجتمعنا بالكامل. وهذا ما يفسر عدم ترك أي من الخاطفين لائحة يذكرون فيها مطالبهم لأنهم لم يكونوا في حاجة إلى ذلك. أفعالهم التي تشكل إعلان حرب، كانت هي كل ما يطلبون. ولم يكونوا أيضا جماعة إرهابية يريدون لفت انتباه العالم لقضيتهم أو لمعاناتهم. بل كانوا محاربين يعملون وفق برنامج جيوسياسي يهدف إلى تحدي أمريكا تماما مثلما فعلنا نحن يوم أنزلنا قواتنا بالنورماندي من أجل تحدي النازية. والسبب نفسه يقف وراء إقدام متطرفين باكستانيين على ذبح مراسل جريدة «وول ستريت جورنال» دانيال بيرل بعد أن أجبروه على الجهر بأنه يهودي وأن أمه يهودية.

لنتفق على أن ليس كل ما قامت به أمريكا وما هي بصدد القيام به يوصف بالكمال ولا يحتاج إلى مراجعة، وعلى أننا قمنا بالكثير من الأعمال الغبية في كل بقاع الأرض على مدار السنوات الماضية. كما أننا ساندنا أنظمة رجعية قمعية خاصة كتلك التي في الشرق الأوسط. لكننا في المقابل وفي أماكن عديدة وباستمرار قمنا بالكثير من الأعمال التي من شأنها أن تجعل هذا العالم مكانا أفضل، أكثر مما قامت به أي دولة أخرى في التاريخ. والبعض لا يروق لهم ذلك لأنهم يزدرون الحرية والتعددية والتسامح الديني والعلمانية والمساواة مع المرأة والديمقراطية والسوق الحرة والتعددية الإثنية والعرقية التي بنينا عليها مجتمعنا والتي ندعو غيرنا إلى اتباعنا في ذلك. في الحقيقة هناك أناس يكرهوننا بسبب ما نمثلة من قيم لا بسبب ما نأتيه من أفعال، لأننا نحمل قيما تتناقض في جوهرها مع ما يحملونه من قناعات وتتناقض مع العالم كما يريدون تشييده. إنهم يكرهون من أعماقهم المسيحيين واليهود ويكرهون العلمانية والمساواة مع المرأة إلى الدرجة التي يجب عليك فيها التعامل معهم بمنطق إما قاتل أو مقتول. وهذا لا يعد حالة سوء فهم بسيطة يمكن مداواتها ببضعة دروس في التعدد الثقافي.

وفي معرض الحديث عن هذا الموضوع سأعرج على كتاب لبيتر بيرغن الذي تناول فيه بن لادن، عنوانه «مؤسسة الحرب المقدسة»، وكتب بروس هوفمان مراجعة لهذا الكتاب نشرت في مجلة «أطلنتيك مانثلي» (عدد يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢) حين قال كيف وعلى العكس مما يعتقده بن لادن رفض كثيرون في الغرب اعتبار ما يجري صراع حضارات، فقال: «إن نجاعته في المزج بين الحماسة الدينية والورع الإسلامي والإحساس الدفين بالظلم يعتبر في حد ذاته إنجازاً عظيماً - بقطع النظر عما نتج عن ذلك - لقد صور بن لادن هذا الصراع على أنه «صراع حضارات»، وذلك على العكس تماما من المحاولات الشاقة التي تقوم بها أمريكا وبقية حلفائها تفاديا لحصول مثل ذلك

الصراع. لقد أقر بذلك بن لادن نفسه في خطابه الذي بثته قناة الجزيرة يوم٣ نوفمبر/ تشرين الثاني والذي قال فيه «هذه مسألة تتعلق بالدين والعقيدة، ولا مجال لتناسي العداء الإيديولوجي القائم بيننا وبين الكفار، مما يستوجب من المسلمين التعاضد والتكافل فيما بينهم».

ومن جهته وبعد أن ألقي القبض في مينيسوتا على زكريا الموسوي وهو يحاول تعلم كيف يقود طائرة بوينغ ٧٤٧ بتهمة الإرهاب، ولما جيء به إلى المحكمة في شهر أبريل/نيسان ٢٠٠٢، صرح بأنه دعا على أمريكا واليهود بالفناء، راجيا أن تعود إسبانيا إلى حكم المسلمين. لم يكن بن لادن ورجاله هم الوحيدون الذين يكرهوننا، بل إن فرادتهم نابعة من جرأتهم وسعة خيالهم واستعدادهم الذهاب إلى أبعد حد من أجل تدميرنا. كما استشهد هوفمان بمقولة ت. إ. لورنس المعروف بلورنس العرب والتي تنطبق تماما على بن لادن. تتلخص تلك المقولة فيما معناه أن كل الرجال يحلمون، ولكن ليس بالطريقة نفسها، هناك من يستيقظون في الصباح ويدركون أن ما رأوه إنما هو أضغاث أحلام، وهناك آخرون- رجال خطرون - يحلمون بالنهار وبأعين مفتوحة ويبذلون جهدا من أجل تحقيق ذلك.

ينتمي أسامة بن لادن إلى أولئك الذين يحلمون نهاراً، لذلك نجده يخبرنا صراحة ودون مواربه بمدى كرههم لنا، أولئك الذين ذبحوا صحافيا فقط لأنه يهودي ولأن أمه يهودية. أولئك الذين يلومون غيرهم على ما حل بهم من مشاكل لأنهم عاجزون عن مراجعة أنفسهم، وهذا منطق غريب جدا عما يتم تدريسه من قواعد العمل السياسي في الجامعات والكليات الأمريكية، فنحن لا ندرس مبادئ الكراهية والشر.

حدث أن كنت متواجدا في إحدى كبرى الجامعات في الوسط الغربي للولايات المتحدة خلال اجتماع ضم العديد من الأساتذة والمدرسين والطلبة طبعا، حين قام أستاذ مختص في قسم شؤون الشرق الأوسط بشرح الأسباب المؤدية إلى قيام بن لادن وجماعته بتلك الأعمال، ويرى أن ذلك نتيجة طبيعية لمشاهد العنف اليومي الذي تمارسه إسرائيل ضد الفلسطينيين على القنوات العربية. شخصيا أعترض بقوة على بناء المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة وعلى الاحتلال الإسرائيلي، كما أني لا أشكك في مدى مساهمة ذلك في تأجيج الغضب العربي على إسرائيل وعلى من يساندها، أي الولايات المتحدة. لكن الحقيقة هي أنه لم يسبق لبن لادن أن ركز على هذا الموضوع وحده، كما أنه لم يبدأ بالحديث عن فلسطين إلا بعد ٩/١١، بعد أن

شعر بإمكانية فقدانه لتأييد الشارع العربي له، كما أن حقيقة أن الفلسطينيين مسؤولون هم بدورهم عن العنف الحاصل تبدو أنها قد غابت عن هذا الدكتور المتحدث.

كانت تلك أول تجربة لي مع حالة الاختطاف الثقافي المسيطرة على منتديات الجامعات والكليات الأمريكية بعد ٩/١١، وما تلا ذلك من حالات اختطاف للمختطفين من قبل الكثيرين في معرض دفاعهم عن قضاياهم المفضلة أو ما يشعرون به من مظالم أو دعما لرؤيتهم لما يدور في العالم. كما يعمد هؤلاء باستمرار إلى إدراج مطالب وملاحظات لم يقدمها الخاطفون أنفسهم، كمقولة «نفذنا ذلك من أجل فلسطين» أو «لأننا نكره العولمة» أو «إنقاذا للعراق من العنف الأمريكي». كذلك يلحظ المرء تفشي فيروس النزوع إلى إلقاء اللوم على أمريكا أولا بكثرة في الجامعات الأمريكية، فما بالك بالأوروبية. كنت قد قلت ذات مرة أثناء إلقائي محاضرة في كلية جنوبية إن الخاطفين لم يتركوا أي مطالب، حينها قاطعتني أستاذة كانت حاضرة مؤكدة على ما تقول: لا، لا، لقد أتت أفعالهم كرد على السياسة الأمريكية، وكل ما كان يريده بن لادن هو خروج القوات الأمريكية من السعودية. كيف لا يمكن فهم ذلك؟ لقد أذهلتني بما قالت. هل أن سعي بن لادن لإخراج القوات الأمريكية من السعودية يعطيه الحق بقتل ما يقارب على ثلاثة آلاف مدني بريء في نيويورك؟ هل انقطعت كل سبل المطالبة لديه؟ ومن أعطاه الحق كي يطالب بذلك باسم كل السعوديين الذين تعرضت بلادهم قبل بضعة سنوات للعدوان من قبل صدام حسين فطلبوا الحماية الأمريكية؟

إن فكرة كون المسلمون المتشددون يكرهوننا لأننا كفار، ويحملوننا مسؤولية ما حل بهم من علل، فكرة ممنوعة التداول في معظم الجامعات. وبعد تلك المواجهة الكلامية الحامية استأذنت بالانصراف مبكرا صحبة الحرس الخاص الذي عينته إدارة الجامعة لمرافقتي، والذي أشعرني بشيء من الارتياح حين أبدى لي أنه يشاطرني الرأي مما جعلني أحس بأني لست الوحيد في هذه الجامعة من يحمل أفكارا مختلفة. وهذا ما دفعني لكتابة مقالة بعنوان «نعم، لكن ماذا؟» في معرض ردي على كل القائلين «نعم إن اعتداء ٩/١١ كان شنيعا، لكن نستحق ذلك بطريقة ما» كما كان لمثل تلك النقاشات في الجامعة أثرها في معاملتي لابنتَيّ قائلاً لهما: «يمكنكما تبنّي أي رأي - يمين، يسار، أو وسط، كما يمكنكما المجيء إلى البيت مع أي شخص أسود أبيض أو أرجواني، لكن لا يمكنكما المجيء إلى هذا البيت دون الشعور بحبكم لهذه البلاد وشكركم للخالق على ولادتكما في أمريكا».

سأروي هذه الواقعة التي عشتها أثناء تغطيتي لمؤتمر حلف الناتو الذي انعقد في بروكسل، بلجيكا، في شهر يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢، حين اقترب مني أكاديمي فرنسي وقال: «أتفق مع تحليلك، لكن توم، ما قلته لابنتيك فيه شيء من المبالغة»، ولسبب ما لا يشعر الكثير بالارتياح للمشاعر الوطنية التي يبديها الأكاديميون والمثقفون والمحللون والمعلقون الأمريكيون. هناك بعض الاستثناءات طبعا، مثلا بعد أن كتبت مقالة أشرح فيها أننا نخوض هذه الحرب بدون تلقّي مساعدة من أحد، تلقيت في اليوم الثاني مكالمة هاتفية من سيدة أسترالية عاتبتني فيها على ما كتبت قائلة إنها اشتاقت كثيرا إلى زوجها الذي يقاتل الآن جنبا إلى جنب مع القوات الأمريكية صحبة القوات الخاصة الأسترالية، فما كان مني إلا أن اعتذرت منها وشكرتها على المكالمة.

قواعد السياسة الخارجية

كنت أعتقد طوال المدة السابقة على ٩/١١، بأني كنت أكتب إلى جمهور محدود من المهتمين بالسياسة الخارجية. لكن ما حصل بعد ذلك التاريخ هو ما تلقيته من أسئلة من طرف أناس ينتمون إلى جميع الطبقات والمهن والوظائف، ممن لم أتوقع ولو للحظة أنهم يعيرون السياسة الخارجية أي اهتمام. وذلك كون السياسة الخارجية أصبحت موضوعا له صلة بالحياة أو الموت في عالم ما بعد ٩/١١، ولتعلق ذلك بالأجيال القادمة أيضا. وحين كنت أتناول العشاء مع صديقي غلين ميللر، أحد كبار المديرين التنفيذيين لمنظمة الحفاظ على البيئة العالمية، سألته عن تأثير ٩/١١، على وظيفته، فرد علي بالقول: «لقد أصبح من السهل جدا علي الآن أن أشرح للناس ما نقوم به. وذلك بحكم أنهم صاروا مهتمين أكثر بما يدور حولهم في العالم ومهتمين أقل بأخبار مؤشرات البورصة. كما أن الناس صاروا يدركون طبيعة أهدافنا التي كنا نجهد في التعريف بها سابقا. ومفادها أننا كلنا نشترك في اقتسام نظام إيكولوجي واحد، ولم تعد هناك جدران قادرة على حمايتنا من بعضنا البعض.

دائرة الـ«بن لادنية»

مباشرة بعد ٩/١١، وأثناء التحضير للحرب على أفغانستان، أردت الرجوع ثانية إلى الميدان، لذلك قررت التوجه إلى باكستان. في ذلك الحين كانت حكومة طالبان قد

طردت كل الصحافيين من البلاد، عدا نفر قليل من الصحافيين المرافقين لقوات التحالف الشمالي. كما كانت الصحافة الغربية في معظمها تقوم بتغطية الحرب من مدن باكستانية كإسلام آباد وبيشاور وبعض المدن الحدودية الأخرى.

كنت قد وصلت باكستان قادما من الدوحة، حيث اجتمعت ببعض الأصدقاء القطريين، ممن غلب عليهم اليأس والقنوط من الوضع الراهن، قائلين بضرورة إخراج الإسلام من سيطرة أئمة رجعيين، وبدون أي فصل للدين عن الدولة، لن يتحقق أبدا أي تقدم في العالم العربي. كما عبر أحد الصحافيين الحاضرين عن أمنيته في قيام أتاتورك عربي يتولى فرض العلمانية بالقوة على المجتمع العربي أسوة بكمال أتاتورك. وهكذا حين يلتقي المرء بأشخاص عصريين وتقدميين عرب مثل هؤلاء سيشعر بحالة الغليان والإحباط التي يعيشونها بشكل يومي- حين يفرض عليك أن تحيا في عالم مليء بالأكاذيب، ومليء بزعماء دينيين لا تحترمهم، ومليء بجرائد لا تصدقها فيما تكتب، ومليء بحكام سياسيين لم يسبق لك أن انتخبتهم. كما أني لا زلت أذكر ما قاله لي صديق قطري كان من بين الحاضرين كون ابنه البالغ ١١ سنة يعتقد أن أسامة بن لادن شخص جيد. وكانت علامات الانزعاج جلية عليه من جراء ذلك، هذا قول لرجل ينتمي إلى الطبقة الوسطى ولا يكن أي مشاعر عداء لأمريكا. إذا من أين جاء ابنه بمثل هذه الأفكار؟ المدرسة؟ أم الإعلام؟. بكل أسف هذا موقف عام في الشارع العربي.

لا أعني بذلك أنهم يقرّون عمليات القتل الجماعي للأمريكيين، كما أني لا أعتقد أنهم يدركون فعلا مدى ذلك. إلا أنهم يؤيدون بن لادن باعتباره الإصبع التي يود أي شاب عربي أن يرفعها في أعين حكامهم الطغاة، وفي عين أمريكا بسبب تأييدها لإسرائيل، باعتبار بن لادن يمثل روبن هود العرب لرفضه للحالة التي يعيشونها. كما يجب علينا أن نعترف لبن لادن - مهما كنا نقرف منه - بأنه فضل العيش في كهف في أفغانستان ومحاربة الروس والأمريكيين من بعدهم على حياة الثراء في السعودية وهذا ما يتميز به في هذه الناحية عن أي حاكم عربي معاصر.

لكن المأساة تكمن في أنه أساء استغلال جاذبيته بدعوته للكراهية والإقصاء، وبالتالي فالأسلوب الوحيد لهزيمته إيديولوجيا تكمن في استعمال الأسلوب نفسه الذي توخاه بالدعوة إلى قيام رؤية إسلامية تقدمية متجذرة في الثقافة العربية تتميز بتفسيرها النير للإسلام. وهذا ما فشل الحكام العرب في تحقيقه على مدى الخمسين سنة الماضية حيث جرت العادة إما باعتقال أو نفي المتطرفين في مجتمعاتهم دون اللجوء إلى تحديهم

إيديولوجيا أو طرح أي بديل عقائدي. وهذا ما تسبب إما في ظهور فراغ سياسي أو في محاولة أئمة محليين هم بدورهم لا يقلون تطرفا وعداء للحداثة من بن لادن. كما أن هؤلاء الأئمة وبعد أن حصلوا على تمويل السلطة قاموا بمباركة الحكام المستبدين. وهذا ما أسمية بدائرة البن لادنية المتكونة من ثلاثة عناصر: حكام عرب فاسدون يتولون دعم هيئات تدريسية إسلامية معادية للحداثة تقوم هي بدورها بإنتاج جيل من الشباب العرب غير متحصلين على مستوى تعليمي يؤهلهم للازدهار في العالم المعاصر بحيث ينتهوا فقراء. وهكذا يغذي العداء للديمقراطية العداء للحداثة الذي يغذي بدوره حالة الفقر المؤدية هي بدورها إلى المزيد من العداء للديمقراطية وهكذا دواليك.

أهلا بكم في التايتانك

في طريقي إلى باكستان طرت من الدوحة إلى الإمارات على متن الخطوط الجوية الإماراتية إلى دبي ومنها إلى باكستان. وبينما كنت أنتظر دوري في المطار لمحت شابا باكستانيا كان واقفا أمامي ومرتديا سترة مخملية كتب عليها بالخط العريض «تايتانك»، تطيرت من ذلك لأنه بدا لي وكأنه نذير شؤم. ولما وصلت توجهت مباشرة إلى فندق ماريوت باعتباره الوجهة الرئيسية لجميع الصحافيين حينها. هناك تقابلت في الليلة الأولى مع مراسلة لقناة تلفزية لبنانية، كانت قد تعرفت علي واستدرجتني إلى حديث دار كالآتي: «لقد كنت قاسيا جدا في حكمك على العرب والمسلمين مصدرا أحكاما مغرضة بحقهم»، قالت لي ذلك وهي مستغربة من أن أكون تجرأت بالقدوم إلى باكستان. أجبتها بالقول: «طبعا هناك أشياء يجب أن تقال»، وبحكم أني كنت مرهقا بعد رحلة طويلة ولم يكن مزاجي على ما يرام، لذلك كان ردها علي مؤثرا حين قالت «هل تعلم كم يكرهكم العالم، لقد كنت في باريس يوم ٩/١١، حيث تظاهر العديد من الفرنسيين فرحا بما حدث»، حينها لم أتمالك نفسي من الرد عليها بالقول: «هل تعلمين كم نكره فقدانكم للديمقراطية وفقدانكم للشفافية والنمو الاقتصادي والطريقة التي تعاملون بها نساءكم؟ هل تتصورين أنكم مؤهلون للحكم على البشر؟» حينها تراجعت إلى الوراء قليلا، وقبل أن تواصل قام المخرج المرافق لها بسحبها من القاعة لأن موعد تقديم النشرة الإخبارية قد حان.

وما أحزنني أكثر في رحلتي الباكستانية تلك حين قال لي صديق باكستاني إن أولاده

عندما عادوا من المدرسة كانوا قد أخبروه بما سمعوه من رفاقهم كون أربعة آلاف يهودي تم تحذيرهم من الذهاب إلى مركز التجارة في ذلك اليوم، كما شرح لي كيف قام بنفي صحة ذلك بشكل قاطع لأطفاله، شارحا لهم استحالة الحصول على كل أسماء الموظفين العاملين في مئات الشركات التي لها مقرات في مركز التجارة العالمي. كذلك استحالة معرفة اليهود من بين كل العاملين والحصول على أرقام هواتفهم وتحذيرهم في وقت قصير جدا من دون الاتصال بالشرطة وتحذيرها بوجود مؤامرة ما. وكيف يمكن تحذير أربعة آلاف شخص دون أن يقع التعرف ولو على واحد منهم بعد ذلك؟ وبعد مدة تلقى رسالة من المدرسة تقول إن آراء أبنائه في تناقض كبير مع الرأي العام السائد في المدرسة مما دفعه للطلب من أبنائه الكف عن تحدي تلك الإشاعة حرصا على سلامتهم.

في ظهر أحد الأيام توجهت إلى بيشاور، المتاخمة للحدود الأفغانية، وفي طريقي توقفت في مدرسة دار العلوم الحقانية، كبرى المدارس الإسلامية للذكور يؤمها ٢٨٠٠ طالب داخلي. تعود شهرة هذه المدرسة إلى كون الملا محمد عمر زعيم طالبان كان قد درس فيها لكن دون أن يتخرج. حين وصلت هناك صحبة صحافي باكستاني مرافق وجدت مدير المدرسة يدلي بتصريح لفريق سينمائي إيراني، لذلك أخذنا أحد مساعديه في جولة حول المدرسة، حيث توقفت على مشهدين بارزين، الأول في المكتبة بعد أن طلبنا منه أن يطلعنا على الكتب العلمية، فأخذنا إلى رف معدني مهترئ يحتوي على ثلاثين كتابا تقريبا يعود تاريخ نشرها جميعا إلى ما قبل ١٩٣٢. أما المشهد الثاني فكان حصة تعليم القرآن حيث يجلس على الأرض حوالي خمسة وعشرين طفلا تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة عشر في قاعة صغيرة بها صبورة، وضع أمام كل واحد منهم مصحف فوق منضدة خشبية صغيرة. وبعد أن تحدثنا معهم أكدوا لنا جميعا أن أمريكا سيئة وأن أسامة بن لادن بطل. وبالنظر حولي تأكدت أن أي من هؤلاء لن يتردد لحظة في المشاركة في أي اعتداء على أمريكا كالذي حصل. وحين سألت رحيم قندوز، أحد التلاميذ عن رأيه في الأمريكيين قال لي: «هم غير مؤمنين ولا يرغبون في صداقة المسلمين يريدون السيطرة على العالم بالقوة».

على ما يبدو أن أحدا لم يخبر رحيم بأن أمريكا حاربت من أجل إنقاذ وتحرير المسلمين في البوسنة وكوسوفو والصومال والكويت وأفغانستان الآن، في الوقت الذي لم تجرأ فيه أي دولة في العالم بما في ذلك الدول الإسلامية على رفع إصبعها، من المؤسف جدا أنه لم يتم إدراج ذلك في المنهج الدراسي لهذه المدرسة. لكننا نتحمل

جزءا من هذه المسؤولية، لأننا استعملنا الباكستانيين كواجهة لمحاربة الروس ثم تخلينا عنهم تاركين بلدهم ينهار في قبضة دكتاتورية عسكرية إلى الدرجة التي أدت إلى انهيار النظام التعليمي الباكستاني بالكامل، بحيث أصبحت مثل هذه المدارس هي المكان الوحيد الذي يمكن للأطفال الباكستانيين أن يحصلوا فيه على التعليم وثلاثة وجبات في اليوم. كانت هناك ٣٠٠٠ مدرسة من هذا النوع في باكستان سنة ١٩٧٨ أما اليوم فقد وصل عددها إلى ٣٩٠٠٠ مدرسة - وهي عبارة عن مصانع لتخريج دفعات من الشبان الغاضبين غير مهيئين للحداثة وعديمي التعامل مع النساء ومناهضين لجميع القيم التي يمثلها الغرب.

وفي طريق عودتي من باكستان توقفت في أبوظبي، بالإمارات العربية المتحدة حيث يمكن دائما الحصول على أخبار فلتت من رقابة المملكة السعودية المجاورة. دعاني صديق أمريكي يعمل هناك كمسؤول تنفيذي كبير في كبرى الجامعات، وحين كان حاضرا في أحد المؤتمرات في السعودية، أخذه أحد زملاؤه السعوديين جانبا ليهمس له قائلا: «لا تصدق كل ما تسمعه. بن لادن موجود في كل بيت (في المملكة العربية السعودية)».

ومن أبوظبي طرت إلى نيودلهي أملا في الاستراحة قليلا من حالة الغضب والقلق السائدة في العالم العربي. وبالرغم من حالة التوتر الدائم بين المسلمين والهندوس فإن الهند لا زالت تعتبر ديمقراطية متعددة الثقافات والأعراق. صحيح تشوبها عدة نقائص لكنها قائمة. وبالتحدث إلى المسؤولين الهنود عن الباكستان بدأ راسي في الدوران لتطابق ما يقولونه بما يقوله الإسرائيليون عن الفلسطينيين.

كثيرا ما يردد المسؤولون والأكاديميون الهنود ما يلي: «لا يمكن البتة الوثوق بهؤلاء، ولا يمكن أبدا الوثوق بأن مشرف يقول الحقيقة. هل تصدقه أنت؟ إنه إرهابي». لقد فوجئت بمدى القلق الشديد لدى الهنود تخوفا منهم من قيام أمريكا بتفضيل باكستان علهيم في الوقت الذي تسعى فيه الهند إلى تعزيز أول علاقة قوية تربطها بالولايات المتحدة. حينها بدأت بطمأنة أصدقائي ومحدثي الهنود طالبا منهم أن يهدّئوا من روعهم قليلا. إذ إن الهند تحظى بمكانة مرموقة جدا كديمقراطية تعددية بالرغم من الظهور المتقطع لبعض التوترات العرقية بين الهندوس والمسلمين من حين لآخر، وأن ذلك لا يؤثر على علاقة الهند الخاصة لدى الولايات المتحدة، وهي علاقة لا تحظى بها

العديد من الدول ولا يمكن أن تنهار بسهولة. قد يهدأ محدثي قليلا لسماع ذلك تعبيرا عن موافقتهم لما أقول إلا أنهم سرعان ما يعيدون عليّ النغمة نفسها قائلين «يجب ألا ندير ظهرنا أبدا لهؤلاء».

وأخيرا أردت أن أطير إلى سفوح الجبال الثلجية في كولورادو كي أستريح واضعا سدادات قطنية في أذني.

الحضارة

بدلا من الذهاب إلى منتجعات كولاورادو توجهت إلى موسكو قبيل عيد الميلاد. لقد كنت في حاجة إلى معرفة الرئيس الروسي فلادمير بوتين بشكل أعمق. والسبب في ذلك يعود إلى التحاقه السريع بالحرب الأمريكية على بن لادن وقبوله فجأة بقرار الرئيس بوش المتعلق بإلغاء العمل بمعاهدة آي. بي. ام. وموافقته على نشر قوات أمريكية في الجمهوريات السوفياتية السابقة المتاخمة للحدود الروسية الجنوبية كما فاجأني عدم اعتراضه على توسيع قوات حلف الناتو. فما السبب يا ترى؟

يكمن الجواب جزئيا فيما يدور حول مقر محل الماكدونالدز في وسط موسكو. آخر مرة زرت فيها المدينة قبل ثلاث سنوات، حيث كان الشبان الروس يحومون حول المطعم يشحذون قليلا من المال ما يخولهم شراء كيس «فرنش فرايز»، لكن المشهد مختلف هذه المرة. فالمكان يعج بالزبائن، ليسوا من لابسي أقمشة الفرو ممن حققوا ثروات خيالية بطرق غير مشروعة إبان عمليات الخصخصة بل بزبائن ينتمون في معظمهم إلى عائلات الطبقة الوسطى الروسية القادرين على توفير مثل هذه الكماليات. إلا أن هذا يقتصر على سكان العاصمة فقط لأن الريف الروسي لا زال يعيش حالة تخلف. ولكن وكما هي الحال في جميع البلدان، البدايات تنطلق دائما من العواصم ثم تنتشر فيما بعد إلى خارجها، وهذا ما تشهده موسكو من بروز رأسمالية مشوهة. وهو ما يخالف وجهة نظر كل من هنري كيسنجر وزبينغيو بريجنسكي حول روسيا من أنها ستظل دائما وأبدا ذات سياسة توسعية وعدوانية معادية لأمريكا. ومثلما نجد أن الإسلام الديمقراطي كما هو في تركيا أو الهند يختلف عن الإسلام الدكتاتوري، كذلك نجد أن روسيا ولأول مرة في تاريخها يحكمها رئيس منتخب مسؤول أمام برلمان، مع حرية صحافة محدودة وحرية سوق غير محدودة، مما جعل روسيا تظهر مختلفة هذه المرة.

وبرغم أن جذور هذا التغيير لا تبدو عميقة إلا أن بوتين جاد في ذلك، مستعيضا عن فرض توجه موالٍ للولايات المتحدة على شعبه بالقوة بالاكتفاء بمجرد التعبير عن الرغبة الجماعية لذلك التوجه، مثلما عبر عن ذلك ليون آرون واضع سيرة بوريس يلتسين بقوله: «إن دلالات التصرف الروسي في مرحلة مابعد ٩/١١، تتعدى كثيرا العلاقات القصيرة المدى مع الولايات المتحدة، بحكم أن هذه التصرفات تظهر بوضوح التحول الجذري والمتواصل في سلم الأولويات القومية كنتيجة للتغييرات الثورية التي حدثت على مدار العقد الماضي، التخلص من نظام العسكر واضمحلال الإمبراطورية الروسية وظهور تنافس سياسي أمام الرأي العام كعامل هام موجه للقرار السياسي. وما الميل إلى إبعاد أقصى السيار القومي المناهض للغرب إلا تعبير عن قبول الطبقة السياسية بتوخي أسلوب الاقتصاد الحر سعيا وراء تعميم فوائده الجلية، مما ولد الرغبة بضرورة الاندماج في المنظومة الاقتصادية العالمية سواء من قبل النخبة السياسية أو من قبل عامة الشعب»، وهكذا خلص ليون آرون إلى نتيجة شبيهة بما أورده لورد بايرون في كتابه «دون خوان» حين تتكفل الأقدار بتغيير دور الأحصنة مما يجعل التاريخ يغير وجهته.

وبينما كنت في الفندق القريب من مسرح بولشوي قبالة قصر الكرملين، خطرت ببالي فكرة مقارنة وضع العرب بروسيا وما يمكن استخلاصه من عبر، بحيث يمكن تغيير الطريقة التي يفكر بها الناس تجاه أنفسهم والعالم وحكوماتهم عن طريق تغيير ظروف عيشهم. إذ بتغيير بعض الأنظمة العربية باعتبارها الأسوا في العالم سيؤدي إلى تغيير نمط تفكير الناس هناك، ولا دخل للتاريخ والجغرافيا في ذلك. إذ لا يمكننا إغفال الطريقة التي يحكم بها الناس، وما إذا كانت أصواتهم مسموعة فيما يخص مستقبلهم وأي فرص تنتظر أولادهم وما إذا كانت هناك فرص حقيقية أمامهم لتحقيق مستقبل أفضل مما عاشه الآباء هي من العوامل المحددة لطريقة تعامل الناس مع بعضهم البعض ومع العالم الخارجي.

لقد تمادينا كثيرا وإلى أبعد الحدود في مساندة المستبدين من الحكام العرب والمسلمين قائلين لأنفسنا إنهم أكثر ليبرالية من شعوبهم، وبالتالي فضلنا حكاما مستبدين وموالين لنا على أنظمة ديمقراطية ربما تكون غير موالية لنا. وتلك كانت نظرة خاطئة تماما لأن هؤلاء المستبدين من الحكام العرب اشتروا استقرارهم في الحكم عن طريق السماح بانتشار كراهية أمريكا وإسرائيل بين شعوبهم. والسبب في انتقال السياسة إلى المساجد ومعانقته للخطاب القرآني في العديد من هذه الدول يتمثل في كون المساجد

هي الملاذ الأخير الذي يمكن للناس أن يجتمعوا فيه بعيدا عن رقابة السلطة، إضافة إلى عدم وجود أي برلمان يكرس ممارسة الحرية الحقيقية.

وهذا كله أدى إلى حدوث ٩/١١. ومن جهتي أود رؤية أنظمة عربية وإسلامية منتخبة ديمقراطيا يمكننا التعايش معها حتى لو كانت غير موالية لنا على رؤية هؤلاء المستبدين والقمعيين من الحكام والملوك العرب المحترفين في تملقهم لنا، في حين أن شعوبهم تمقتنا وتكرهنا لأننا ندعم ونحمي هؤلاء الحكام الظالمين. وقد شرح ذلك المؤرخ المعني بالشرق الأوسط برنارد لويس حين قال إن منفذي هجوم ٩/١١ ينتمون بالأساس إلى مصر والسعودية- أكثر الأنظمة موالاة لأمريكا في المنطقة- وكذلك من أكثر الدول التي يعادي شعبها الولايات المتحدة. والسبب في حالة الكراهية تلك يكمن في اتهام السعوديين والمصريين لنا بدعم أنظمتهم القمعية. في المقابل نجد أن النظام الإيراني من أكثر الأنظمة عداء للولايات المتحدة في المنطقة، إلا أن الشعب الإيراني على الأرجح من أكثر الشعوب مولاة لأمريكا والسبب في ذلك كون الإيرانيون لا يلوموننا على دعم نظامهم القمعي.

وفي هذا السياق يقول ميخائيل فريدمان، رئيس شركة ألفا العاملة في مجال الطاقة: «من الخطأ أن تعتقد أن روسيا تشكل استثناء في هذا المجال، ينطبق عليها ما ينطبق على أي دولة أخرى في العالم- الاختلاف الوحيد يكمن في الحجم والتاريخ-. بدأنا بماكدونالدز لبساطته وزهد ثمنه وبعد ذلك جاءت أمور أخرى أكثر تعقيدا، أصبح للناس مداخيل تخولهم السفر وتجربة أشياء مغايرة... يمكن القول إن بوتين موال للغرب ويؤمن فعلا بصحة خيارات الغرب... نحن نتاج تركيبة ثقافية أوروبية، خاصة أن النخبة هنا ملتزمة بنمط العيش الأوروبي».

وهذا ما يفسر سماعي لأول مرة استعمال الروس لمصطلح الحضارة قاصدين بذلك انتماء كل من روسيا وأمريكا إلى الحضارة نفسها مما يستوجب منهما أن يتحالفا. إلا أن ذلك لا يعني جاهزية بوتين أو المواطن الروسي العادي للقبول بجميع المطالب الأمريكية أو قبول الأجيال السابقة من الروس بالخضوع للهيمنة الغربية بعد أن عاشوا تحت ظل الإمبراطورية السوفياتية سابقا. لكن بصفة عامة سيقول لك معظم الروس: «صحيح أننا نمقتكم ونمقت تغطرسكم، وأننا أحيانا كثيرة ما نعارضكم وكثيرا ما نبحث على الفرص التي تقودنا إلى ذلك، لكن الشيء المهم والأساسي حين يتعلق بالأمر بجانب من سنقف، تأكدوا أننا نقف معكم». أو كما قال لي أوتو لاستيس، نائب رئيس تحرير

جريدة «نيو إنفستيا»: «لا يتعلق الأمر بالغرب في مواجهة الشرق، بل بعالم الفوضى في مواجهة عالم النظام، وهذا يفرض علينا أن نجر الصين إليه رغم صعوبة تلك المهمة. والطرف الآخر في عالم الفوضى هو العالم الإسلامي. وقد اعتقد بعض قادتنا بأنه من الأفضل لنا أن يكون عرفات دكتاتورا، لأن الديمقراطية هي أسلوب صعب وغير مريح لرقابة الناس. لكن الخيار الحالي ظهرت عيوبه الكثيرة. صحيح أن الديمقراطية غير مريحة إلا أن الاستبداد لا يمكن أن يحقق أي شيء إيجابي على الإطلاق. كما أن هناك مجموعة من بين مساعدي بوتين ممن يعتقدون أن الديمقراطية ستؤدي إلى التدخل في ما يؤدونه من عمل، متناسين أنه من المهم جدا بالنسبة للدول المتحضرة أن الديمقراطية شرط أساسي لضمان الاستقرار».

أطلال

بحلول شهر يناير/كانون الثاني كانت الحرب على أفغانستان قد شارفت على نهايتها بعد أن تمت الإطاحة بحكومة طالبان وإجبار أسامة بن لادن على الفرار والاختباء تحت الأرض. أردت أن أزور كابول في أول فرصة ممكنة، وهذا ما يريده السيناتور الديمقراطي(ولاية ديلاوار) جوزيف بايدن، ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس، لذلك قررنا أن نذهب معاً في الرحلة نفسها إلى إسلام آباد ومن هناك أقلّتنا طائرة تابعة للأمم المتحدة إلى قاعدة بغرام الجوية التي تبعد حوالي خمسين ميلا عن كابول. نزل هو في مقر سفارة الولايات المتحدة الذي أعيد فتحه مؤخرا حيث تنعدم المياه الصالحة للشرب أو أي خدمات صحية، بينما توجهت أنا إلى البيت الذي استأجرته جريدة النيويورك تايمز والذي يمتاز قليلا عن مقر السفارة الأمريكية لما به من خدمات محدودة.

ولكن كيف وجدت كابول؟ كانت شبه مخربة بالكامل، هذا ما كنت أجيب به زوجتي كلما سألتني عن رأيي في العاصمة الأفغانية. أشبه بما كانت عليه مدينة درسدن أو منطقة الخط الأخضر في بيروت أو هيروشيما، حيث تعرض وسط مدينة كابول للخراب بالكامل بما في ذلك الحي الجامعي والعمارات السكنية المحيطة ومقرات الوزارات السابقة والمبنى الضخم الذي كانت تحوزه السفارة الروسية السابقة بحيث يشبه ما وجدته هناك بخراب مركز التجارة العالمي بعد أن تم تدميره. علما أن ذلك لم يكن

نتيجة القصف الأمريكي بقدر ما هو نتيجة ٢٣ سنة من الحرب الأهلية (التي مولناهم خلالها بالكثير من الأسلحة والذخائر). باختصار لقد بدت لي هذه البلاد كأنها «ليبيريا تكسوها الثلوج والجليد»، إذ يبدوأن كل شيء محطّم بفعل الحروب الطويلة: الشبابيك والأبواب والجدران.

ذات صباح توجهت أنا والسيناتور بايدن إلى مقر السفارة الروسية سابقا حيث يوجد آلاف اللاجئين الذين يحتمون من البرد القارس بأغطية بسيطة وأغلفة بلاستيكية متدفئين بنار الحطب وسط مجاري المياة والطين. لقد أحسست بتناقض كبير طوال فترة تواجدي في كابول، فمن جهة كان قلبي يقول لي يجب على أمريكا أن تبقى هنا مهما كانت التكاليف ومهما طال الأمد حتى نتمكن من إعادة إعمار هذا البلد بالكامل وتوفير الحد الأدنى من الأمن مما يؤهله للوقوف على قدميه من جديد. وهذا أقل ما يمكننا عمله خاصة وأننا انسحبنا منه بعد خروج السوفيات مباشرة. لا يعني ذلك أن نجعل من أفغانستان سويسرا الثانية، بل يكفي أن تصبح أكثر أمانا وأكثر استقرارا وأكثر حرية مما كانت عليه تحت حكم طالبان. ولكن حتى هذا المطلب البسيط يستدعي كثيرا من الجهد والمال والرجال. وهذا يعني أن الاقتصار على تقديم المساعدات المادية وحدها لن تحقق شيئا من ذلك القبيل. وفي الوقت الذي كان فيه قلبي يأخذني في هذا الاتجاه كان عقلي ينبهني إلى أشياء خطيرة ومخيفة بدأت ألحظها حين توجهت مع بايدن إلى مقابلة يوسف قانوني وزير داخلية الحكومة الانتقالية وهو من الأقلية الطاجيكية، كان يعلق صورة زعيم طاجيكي آخر قائد قوات التحالف الشمالي الذي تم اغتياله قبيل وقوع ١١/ ٩ أحمد شاه مسعود بدلا من قيامه كوزير بتعليق صورة الرئيس (حميد كرزاي من طائفة البشتون). وهذا ما دفعني لاستخلاص القاعدة القائلة بعدم الوثوق بما يجري في بلد يقوم فيه وزير بتعليق صورة زعيمه العسكري في مكتبه بدلا من صورة الرئيس، مما يعني أن العادات الحربية القبلية ما زالت راسخة الجذور هنا وهذا ما يجعل محاولة أي حكومة محايدة غرس جذورها مهمة صعبة جدا. كما أني تساءلت عن آخر مرة كانت هناك حكومة مركزية ذات نفوذ وسلطة، ربما يرجع إلى ما قبل حكم جنكيز خان أو إلى ما قبل اختراع البارود.

وبحكم أن زوجتي تهوي جمع البطاقات البريدية فقد طلبت مني أن أجلب معي بعض البطاقات من كابول عند عودتي. كانت إحدى تلك البطاقات عبارة عن صورة من قسمين للمتحف الوطني بكابول الذي تم نهبه وتدميره منذ زمن طويل. كما تطابقت

بعض مخاوفي الأخرى مما يجري في أفغانستان مع ما جاء في رواية جايمس ميشنير بعنوان «قوافل» يحكي فيها قصة فتاة أمريكية في أفغانستان، وهي كأغلب كتب ميشنير رواية تاريخية صدرت سنة ١٩٦٣ وهي فترة استقرار وموالاة للغرب عرفتها أفغانستان. وبالتفكير في إمكانية بقاء أمريكا هنا لمدة أطول تذكرت أن اللعبة الرياضية المفضلة لدى الأفغان، هي لعبة تشبه البولو قليلا يسمونها البوزكاشي وهي عبارة عن رجال يتصارعون من فوق ظهور الخيل على جثة عنز مقطوعة الرأس بدلا من الكرة. وفي حال أننا قررنا البقاء يجب علينا أن نتأكد من أننا لن نصبح في مكان تلك العنز.

وفي اليوم المقرر لسفرنا خارج البلاد تقرر إلغاء رحلة الأمم المتحدة بسبب الأحوال الجوية السيئة وهذه مشكلة عويصة جدا. حينها تمكن أحد مرافقي بايدن من الحصول على مكان لنا على متن طائرة شحن عسكرية ستطير في تلك الليلة من قاعدة باغرام إلى باكستان ومن هناك إلى البحرين. لذلك مكثنا هناك يومها منتظرين، حيث تمكنت من الحديث مع بعض عناصر الوحدات الخاصة بحكم أن تلك القاعدة تشكل مركز اعتقال لمقاتلي القاعدة، وكان من بين من تحدثت معهم نساء عاملات ضمن قوات حراسة لأولئك المقاتلين وحين سألتها عن تجربتها مع هؤلاء المساجين العرب أخبرتني كيف أنهم في البداية تجاهلوا وجودهن بل وحتى النظر إليهن إلا أنهم تعودوا على ذلك في نهاية المطاف. وبعد مرور بضعة أسابيع على هذه التجربة كنت ألقي محاضرة حول العولمة في جامعة أوكسفورد حين قاطعني طالب أفغاني مدعيا أن ما حل بأفغانستان ليس إلا نتيجة للتدخلات الأجنبية في شؤون البلاد الداخلية، فأجبته بأن هذا التحليل يذكرني بما كان يردده اللبنانيون باستمرار بأن بلدهم سيكون آمنا ومسالما لو لم تحصل تدخلات أجنبية فيه. وهذا كلام غير منطقي لا ينطبق لا على أفغانستان ولا على لبنان وما تحول كل منهما إلى ساحة حرب بالوكالة إلا نتيجة لحالة التشرذم والتفكك الداخليين.

والمسالة الثانية التي فاجأتني خلال تواجدي في قاعدة باغرام هي حالة التطابق والتشابه في التركيبة البشرية للجنود هناك بطلبة المدرسة الإعدادية التي تذهب إليها ابنتي، إذ يلحظ المرء هذا الخليط البشري من سود وآسيويين وهسبانك وبيض أمريكيين، وهذا هو مكمن القوة الأمريكية وليس في الصواريخ الذكية أو في المعدات القتالية المساعدة على الرؤية ليلا.

كما تبين لي أن الخروج من أفغانستان أصعب بكثير من الدخول إليها (أرجو ألا

يفهم ذلك أني أقصد مجمل العملية العسكرية الأمريكية). حين وصلت الطائرة العسكرية التي من المفترض أن تأخذ معها السيناتور بايدن ومن معه إلى قاعدة باغرام أعلمنا الكابتن المسؤول هناك أنه بناء على قرار صادر من البنتاغون، وبأمر من رامسفيلد يمنع عليهم نقل أي مدنيين، خاصة وأن رامسفيلد شخصيا قرر عدم تقديم أي مساعدة من أي نوع لجوزيف بايدن بالرغم من كونه رئيس لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس. حينها اقترحت على السيناتور أن يتصل بوزارة الخارجية هاتفيا. وبعد أن تكلم مباشرة مع كولن باول الذي طلب بدوره من الكابتن أن يسمح لنا بركوب طائرة سي-١٣٠ التي أخذتنا إلى قاعدة عسكرية تابعة للجيش الباكستاني في مدينة يعقوب أباد خلال رحلة استغرقت ثلاث ساعات ومن هناك توجهنا إلى البحرين.

مساجد أوروبا

منذ أن وقعت اعتداءات ٩/١١، حيرني سؤال واحد أكثر من أي شيء آخر: من هم هؤلاء الانتحاريون؟ خاصة وأننا جميعا نعرف من هو أسامة بن لادن، تركيبة فريدة- شبه شخصية مشهورة شبه مغرور يحمل برنامجا جيوسياسيا لبناء أمة-دولة وشبه زعيم لديه قدرات تنظيمية خارقة كتلك التي لدى جاك والش- كما أننا نعرف من هم أتباعه، أي أولئك الذين ساعدوه وساندوه بسبب غضبهم من حكامهم أو من أمريكا أو من إسرائيل أو منهم جميعا.

لكن من هم الخاطفون؟ سأقسمهم إلى فريقين. الفريق الأول يتكون من الإرهابيين الرئيسيين ممن اختطفوا وقادوا الطائرات مع علمهم المسبق بكل التفاصيل، سأسمي هؤلاء بالأوروبيين وذلك لأسباب سأشرحها لاحقا. أما الفريق الثاني سأسميهم بالعضلات لأن مهمتهم اقتصرت على منع مسافري الطائرة من الاقتراب من كابينة القيادة بعد أن تم اختطافها. ووفق شريط فيديو عثر عليه في أفغانستان يشرح فيه بن لادن كيف تم تجنيد هؤلاء في عملية استشهادية وكيف طلب منهم التوجه إلى أمريكا بدون أن يتم إعلامهم بأي شيء إلى اللحظة التي استقلوا فيها الطائرة، سأسمي هؤلاء بالسعوديين.

إذاً، من أين أتى هذان الفريقان؟ يبدو لي أنه ما دمنا غير قادرين على الإجابة على هذا السؤال، سنبقى مهددين وغير قادرين على منع وقوع اعتداء مماثل. وترجع صعوبة

الإجابة على هذا السؤال كون المنفذون قد قتلوا جميعا. وكذلك كون ١٩ من هؤلاء يحملون جنسية سعودية، والحكومة السعودية لم تقدم لنا أي مساعدة لمعرفة هوية هؤلاء. كما أننا اكتفينا بتسميتهم جميعا بالانتحاريين وانتقلنا إلى ما سماه جورج بوش بالخطر الأكبر، أي العراق. وهذا خطأ في رأيي. لذلك خصصت رحلتين قادتني الأولى إلى بلجيكا والثانية إلى المملكة العربية السعودية لإجراء تحقيق شخصي.

قررت التوجه إلى بلجيكا بعد أن قرأت مقالة بعنوان «ما جرى تحت أنوفنا» نشرتها مجلة «ناشيونال ريفيو» المحافظة بتاريخ ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠١، كتبها أدريان كاراتنيكي محاولة منه للإجابة على السؤال المتعلق بهوية المنفذين. (منقبا وباحثا عن مسيرة حياة كل من محمد عطا ومروان الشيحي وريتشارد ريد وزكريا الموسوي وأحمد عمر سعيد الشيخ وعبدالستار دحمان وكيف أن جميع هؤلاء لم يتم تجنيدهم في منطقة الشرق الأوسط بل في كبرى المدن الأوروبية التي عاشوا فيها وجربوا حالات الاغتراب والإقصاء) وهذا ما أخذني إلى بروكسل كي أتعرف عن قرب على الأماكن التي عاش وتواجد فيها هؤلاء ومروا دون أن ينتبه لهم أحد، وكذلك لتواجد ٣٠٠ مسجد في بلجيكا وحدها. وهذا ما قادني إلى الاستنتاج بأن أوروبا لعبت دورا مهما في التقاء واجتماع المخططين الرئيسيين والمنفذين لهذه العملية باعتبار أن أوروبا تختلف عن أمريكا من حيث اندماج وتأقلم المسلمين فيها حيث يشبه وضع المهاجرين القادمين من شمال إفريقيا وتركيا كثيرا وضع المكسيكيين في أمريكا. تقول الإحصائيات أن هناك حوالي ٥ ملايين مسلم في فرنسا و٣,٢ في ألمانيا ومليونين في بريطانيا يعيش أغلبهم في ظروف صعبة يفتقدون فيها لأبسط مقومات الكرامة الإنسانية مما أدى إلى ظهور أجيال غاضبة من جيل الشباب المسلم رجالا ونساء. إذ يشعر هؤلاء المسلمون الشباب بأن سبب تأخر العالم الإسلامي يعود إلى ما سرقه الأوروبيون وأمريكا وإسرائيل منهم وسعي هؤلاء عمدا إلى تكريس وإدامة حالة التخلف والتقهقر السائدة في المجتمعات الإسلامية أو لأن قادة دولهم قد حادوا عن العقيدة الصحيحة وعن مبادئ الدين الإسلامي مستفيدين من دعم أمريكا لهم كي يبقوا في السلطة إلى ما لا نهاية.

وهكذا حين تضع شبابا مسلمين يعانون من فقدان كبريائهم وكرامتهم بجانب أئمة متشددين في ظروف يغلب عليها التراخي الأمني في كل من أوروبا وأمريكا فستكون النتيجة توافر جميع المكونات التي أنتجت محمد عطا وبقية رفاقه الانتحاريين الذين هم عبارة عن ظاهرة غربية ضمن الجالية الإسلامية المهاجرة.

المملكة السحرية

قبل أن أغادر إلى المملكة العربية السعودية تلقيت رسالة إلكترونية من صديقة بحرينية تمنت لي ساخرة التوفيق في رحلتي إلى «المملكة السحرية» وقد نبهتني أن تلك البلاد تنتمي إلى عالم آخر غير الذي نعرفه، وهي على حق فيما قالت إذ تبين لي أن رحلتي إلى السعودية كانت الأغرب على الإطلاق. وكما يلحظ قراء هذا الكتاب أني رفعت إصبعي منذ البدء منتقدا ومحملا السعوديين المسؤولية ولو بشكل جزئي فيما حدث يوم ٩/١١، وذلك ليس فقط لأن ١٥ من الانتحاريين يحملون الجنسية السعودية أو لأن بن لادن نفسه سعودي أو لأن المملكة السعودية مولت ودعمت حركة طالبان بل لأن الجمعيات الخيرية السعودية كانت ولا زالت تموّل القاعدة وتسهم في نشر التعاليم الدينية المتطرفة في مختلف بقاع العالم وكذلك لأن البرنامج التعليمي السعودي نفسه يدعو إلى عدم التسامح ضد غير المسلمين.

وما أغضبني إضافة إلى ذلك كله، هو عدم إقدام السعودية على الاعتذار لأن ١٥ من أبنائها ساهموا في أكبر مجزرة في التاريخ الأمريكي. فأنا لم أتوقع منهم أن يعلنوا مسؤوليتهم بل توقعت من الحكومة السعودية أن تعتذر على الأقل وهذا من شأنه أن ينظر إليه من قبل أمريكا على أنه بادرة حسن نية. إلا أن الرياض آثرت السكوت في بادئ الأمر ثم اللجوء إلى النكران. - الخاطفون لم يكونوا سعوديين وحتى إن كانوا فما هم إلا منحرفون مما يعفي السعودية من تحمل مسؤوليتهم، بل وحتى إن تحملت السعودية مسؤوليتهم فإن اللوم يقع على عاتق إسرائيل التي ساهمت في تأجيج غضب الكثير من العرب بسبب معاملتها للفلسطينيين بتلك الطريقة.

لقد وجدت هذا التهرب من المسؤولية باعثاً على السخط وخطيراً وهذا بدوره قادني إلى الاستنتاج أن السعودية حلّت محل الإتحاد السوفياتي إبان الحرب الباردة كونها أصبحت مصدرا للأموال والإيديولوجيا والقوة البشرية المهددة لنا. وهذا ما يجعل السعودية طرفا في الحل أيضا. لا يمكننا الوصول إلى حل إشكالية تعايش الإسلام مع الحداثة ومع الغرب دون أن ندمج السعودية لما لديها من مكانة لدى المسلمين وإمكانيات مالية. لذلك توجهت إلى السفارة السعودية في واشنطن طالبا الحصول على تأشيرة دخول لعلي أعثر بنفسي على الجواب لهذا السؤال البسيط الذي يقول: هل السعودية راغبة فعلا في أن تكون طرفا في الحل؟ وحتى إن كان ذلك صحيح هل

بإمكانها أن تكون طرفا في الحل؟ هل سيسمح نظامها بالترويج لرؤية إسلامية أكثر تسامحا؟

وكان الرد الإيجابي والسريع بمنحي تأشيرة دخول للسعودية بمثابة مفاجأة بالنسبة لي. كان ذلك في أوائل شهر يناير/كانون الثاني ٢٠٠٢، بعد أن تقدمت بطلب التأشيرة عبر عادل الجبير المستشار الإعلامي الشاب للأمير عبد الله بن عبد العزيز. ربما كان ذلك ضمن حملة إعلامية تهدف إلى التحسين من صورة السعودية فقرروا منح أكثر عدد ممكن من التأشيرات لرجال الإعلام كي يحصلوا على صورة قد تكون مختلفة عما لديهم قبل زيارة المملكة، وهذا ما حصل معي بكل وضوح. لقد تقابلت مع أعداد غفيرة من السعوديين أكثر بكثير مما توقّعت والذين أحببتهم بكل صدق، لكنني سمعت ورأيت أشياء أزعجتني كثيرا.

ولكن قبل الدخول في تفاصيل رحلتي إلى السعودية، أود أن أشير إلى نقطة مهمة لها علاقة بالرحلة. وهي كوني وبعد أن رجعت من أفغانستان وبلجيكا ذهبت إلى نيويورك لحضور فعاليات المؤتمر الاقتصادي العالمي وبمجرد وصولي هناك تقابلت صدفة مع صديق قديم ورجل دولة مغربي يدعى أندريه عزولي. وهو يهودي مغربي ومستشار موثوق به من قبل العائلة الحاكمة في المغرب، كما أنه لعب دورا مهما في مسار عملية السلام مع إسرائيل منذ سنوات عديدة. تجاذبنا أطراف الحديث حول تردي الوضع الراهن خاصة بعد اندلاع الانتفاضة الثانية إلى أن توصلنا إلى فكرة ضرورة قيام مبادرة عربية مشتركة تدعو إلى كسر حالة الجمود الراهنة وذلك بحكم أنه كان هناك مقترح إسرائيلي للسلام تقدم به إيهود باراك ومبادرة أمريكية تقدم بها بيل كلينتون إلا أنه لم يسبق أن كانت هناك أي مبادرة عربية للسلام- لا تقتصر فقط على ما يطالب به العرب من إسرائيل بل وشمل أيضا ما هم قادرون على تقديمه لإسرائيل خاصة فيما يتعلق بالتبادل التجاري والسياحة والعلاقات الدبلوماسية- وبقدر ما تحدثنا في هذا الموضوع أكثر بقدر ما أحسست بضرورة الكتابة عنه. لذلك أخبرت محدثي أندريه أني سأكتب مقالة على شاكلة رسالة بعث بها بوش إلى أعضاء الجامعة العربية يقترح عليهم فيها أن يقدموا مشروعا للسلام خلال مؤتمرهم القادم.

وبعد ذلك بقليل وبينما أنا في بار الفندق حيث سينعقد المؤتمر تقابلت مع عمرو

موسى وزير خارجية مصر سابقا وأمين عام جامعة الدول العربية حاليا، الذي تربطني به علاقة قديمة جدا. وبالرغم مما بيننا من اختلافات في الآراء فإننا دائما نتكلم مع بعضنا بصراحة. لذلك جلست ينا وهو وصديقي شفيق جبر رجل أعمال مصري متفتح، كما كان معنا وقتها سفير الجامعة لدى الأمم المتحدة. على ما أذكر بادرت عمرو موسى بالسؤال «عمرو، ماذا ستفعل بالجامعة العربية؟ يبدو أنها مؤسسة منهارة. هل سترأس مؤسسة في حالة انهيار؟» ثم تحدثنا في مواضيع مختلفة من بينها كيف يمكن جعل الجامعة العربية ذات جدوى وفاعلية وأعلمته بعزمي على كتابة مقالة بهذا الخصوص فماكان منه إلا أن أجابني موافقا على الفكرة، كما وافق عليها جميع الدبلوماسيين العرب الذين تحدثت معهم. وهذا ما تم بالفعل.

نشرت تلك المقالة بتاريخ ٧ فبراير/شباط ٢٠٠٢ وهي عبارة عن رسالة موجهة إلى الحكام العرب من قبل الرئيس بوش يقترح عليهم فيها أن يعلنوا خلال مؤتمر القمة المزمع عقدها في بيروت في آذار/مارس ٢٠٠٢ عن استعدادهم للاعتراف الكامل بإسرائيل مقابل الانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي الفلسطينية والعودة إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧. وبعد ذلك بأيام قليلة اتصل بي صديق في الحكومة الأردنية ليخبرني أن الملك الأردني كان قد أرسل خطاب إلى الرئيس بوش يحتوي على النقاط نفسها التي أشرت إليها، كما أرسل نسخة عن ذلك الخطاب الذي أرسله ملكهم يحمل تاريخ ٨ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، كما طلبوا مني عدم نشره إلا بعد أن يوافق عليه بعض الإخوة الكبار مثل مصر أو السعودية حتى تتم الموافق عليه في الجامعة العربية.

وحين وصلت إلى السعودية كنت مدركا تماما لهذا الأمر. وبما أني حصلت على الموافقة من أجل إجراء حوار مع الأمير عبدالله، الحاكم الفعلي للمملكة بعد أن أصيب الملك فهد بجلطة أعاقته عن القيام بمهامه. وفي ظهيرة يوم الأربعاء ١٣ فبراير/شباط أخذني عادل جبير من فندقي من أجل مقابلة الأمير عبدالله في مقر إقامته في ضواحي الرياض الواقع قبالة ميدان سباق الخيل الذي يملكه. وبعد وصولنا مكثت مع عادل جبير في خيمة ولي العهد منتظرين قرابة الساعة حتى ينتهي من لقاءاته (يبدأ يوم عمل الأمير عبدالله من آخر الظهر حتى الساعة الخامسة صباحا، وفقا لتقليد بدوي قديم حين كان يصعب العمل نهارا بسبب حرارة الطقس). وأخيرا حين دخلت إلى الخيمة لمقابلته حيث كان هناك العديد من أفراد العائلة الحاكمة بينما كان هو جالس على كرسي كبير في صدر الخيمة وتوجد أمامه ما يفوق على العشرين شاشة تلفزية صغيرة. وحين طلب مني

أن أقدم نفسي للحاضرين بمصافحتهم فردا فردا، انتابني إحساس غريب لم أشعر به من قبل في حياتي، فها أنا ذا اليهودي الأمريكي القادم من مينيسوتا، أكثر صحافيي النيويورك تايمز نقدا للسعودية أحس وكأني كائن غريب عندما اتجهت كل عيون الحاضرين نحوي، كان جميعهم من الرجال جالسين يدخنون الأراجيل المعروفة هنا في السعودية بـ«هبلي- ببلي».

ولمّا كان الأمير لا يتكلم الإنجليزية فقد كان الحوار محدودا جدا، كما أن عادل (جبير) كان يقوم بالترجمة. وفي محاولة مني لكسر الجليد أهديت الأمير نسخة مترجمة إلى العربية من كتابي السابق «لوكسس وشجرة الزيتون»، وحين سألته مستفسرا عن أحواله وعن مزرعته وخيوله أجابني بعين معي وعينه الأخرى تراقب جميع شاشات المعروضة أمامه، كان مهتما جدا على ما يبدو بأخبار الشرق الأوسط بصفة عامة وبالصراع الفلسطيني الإسرائيلي بصفة خاصة وما تنقله القنوات الفضائية من أخبار عما يجري هناك مثل السي. أن. أن والقنوات العربية التي يعتمد عليها في استقراء الأخبار العالمية بحكم عدم إتقانه للغة أخرى، وهي قنوات غير محايدة تماما.

بدا لي الأمير عبدالله وهو في السبعينات من العمر- لا أعتقد أنه كان عندهم شهادات ميلاد في الصحراء عند ولادته- أنه يتمتع بقدر من ذكاء شيخ قبلي اشتهرت عائلته بالحنكة للحفاظ على بقائها. وبعد أن جلسنا حوالي ٤٥ دقيقة قضيناها في حوارات جانبية حان موعد العشاء فانتقلنا إلى خيمة كبيرة بها مائدة عملاقة عامرة بجميع أصنام الأطعمة العربية والإيطالية والفرنسية والأمريكية، فأكلنا وتحدثنا، وبعد ذلك عدنا إلى الخيمة الأولى كي نشرب مزيدا من القهوة. وعند الساعة العاشرة قال الأمير إن الوقت قد حان كي نتحدث بجدية، فانتقلنا إلى بيته الذي يبعد مسافة صغيرة. هناك جلسنا في إحدى الغرف أنا وعادل (جبير) والأمير. بدأت حديثي مركزا على الانتحاريين الخمسة عشر وكيف أن السعودية لم تعتذر رسميا على ذلك. كان رده بأن أسامة بن لادن وجماعته أرادوا من وراء ذلك تخريب العلاقة الأمريكية-السعودية التي لم تشكك يوما في عمق صداقة البلدين. وهذا كلام تسمعه أينما حللت في السعودية، يقول إن بن لادن وجماعته هم أناس منحرفون يعملون ضد المصالح السعودية - وبالتالي يجب إعفاء السعودية من أي مسؤولية عما فعلوه - إضافة إلى تدخل ودعم أجهزة مخابرات أجنبية لهم. وهكذا لم يكن هناك أي إقرار أو رغبة بالاعتراف العلني بأن هؤلاء الانتحاريين هم نتاج ما تعلموه في المدارس السعودية، أو فشل النظام السعودي في توفير الفرص

الملائمة والوظائف للشباب السعودي، أو لأن الحكومة السعودية أغمضت عينيها عما ينشره ويدعو إليه الأئمة المتشددون من تعاليم معادية لأمريكا بالرغم من علمها بذلك إلى الدرجة التي أدت إلى ظهور غضب انتحاري تمثل فيما قام به هؤلاء الشباب. وطبعا كان هذا التحليل يقود دائما إلى الخلاصة التالية: إسرائيل والاحتلال الإسرائيلي هما السبب الوحيد وراء حالة الغضب والغليان، وهذا ما أدى بالعديد من العرب إلى توجيه ذلك نحو أمريكا.

وإنصافا للأمير، يجب القول إنه دعا علنا وبقوة العرب والسعوديين إلى مراجعة الذات، وكان ذلك مباشرة بعد وقوع اعتداءات ٩/١١، إلا أنه من الصعب التعامل بجدية مع أي دعوة من هذا القبيل صادرة عن العرب.

وبعد مرور حوالي ساعة على بدء الحوار، أثرت موضوع مؤتمر القمة المزمع عقده في بيروت، وذكرته بأنه سبق وأن كان هناك مقترح سلام إسرائيلي وآخر أمريكي، إلا أنه لا وجود لأي مبادرة سلام عربية لا يقتصر محتواها على ذكر ما يطالب به العرب بل وتشمل أيضا ما هم مستعدون لتقديمه، كتطبيع العلاقات بالكامل مع إسرائيل وخلق علاقات تجارية وسياحية مقابل انسحاب إسرائيلي كامل من الأراضي المحتلة والعودة إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧. حينها نظر إليّ الأمير مستغربا وقال: «هل خلعت مكتبي؟ هل دخلت إلى مكتبي؟» ثم خاطب عادل (جبير) قائلا: «عادل هل أخذته إلى مكتبي؟ والسبب وراء سؤالي هو كون هذه فكرتي تماما. هناك شخصان فقط يعلمان بها، أنا مشغول بها منذ ثلاثة أشهر، آملا في طرحها خلال مؤتمر القمة القادم، ولكنني قررت العدول عنها لصعوبة الحصول على تأييد لها بسبب ما يقوم به شارون الآن. وفيما لو اتصلت بمساعدي ليقرأ لك الخطاب الذي سألقيه سيجده مطابق تماما لفكرتك هذه... وفي حال أني قمت بإلقائه سيعتقد الناس أني أخذت الفكرة منك في حين أنها فكرتي أنا». هنا قلت له: «صاحب السموّ، بصراحة لقد سمعت مثل هذا الكلام كثيرا في السابق، حيث يقول أحد الحكام العرب لو لم يقم نتنياهو بعمل كهذا كنت مقدما على إبرام سلام مع إسرائيل أو لو لم يقم شارون بعمل كهذا كنت أنوي زيارة إسرائيل. وبعد مدة أصبح من الصعب أخذ ما يقال على مأخذ الجد. لذا إن كنتم جادون، سموّكم، يجب أن تقولوا هذا الكلام بشكل رسمي».

وحين سألني عن أي مقطع سأستشهد به عما قاله أخبرته بأني سأذكر جوهر الفكرة، أي التطبيع مع إسرائيل مقابل انسحابها الكامل. عندها أخبرني بأنه سيفكر في

الأمر ويخبرني بقراره لاحقا. وبعد ذلك انتقلنا بالحديث إلى مواضيع مختلفة حوالي الساعة. وفي محاولة أخيرة مني لإقناعه بنشر فحوى ما قاله لي شرحت له كيف «أن بوش لن يغامر سياسيا من أجل حل المشكلة الفلسطينية إذا لم تكونوا أنتم مستعدين لتحمّل مخاطر أيضا». وبعد أن فكر فيما قلت رد عليّ متسائلا: «لماذا لم يخبرني الرئيس بوش بذلك؟»، فأخبرته بأني لا أعرف السبب كما أوضحت له كيف أن العرب لم يفهموا جيدا طبيعة الإدارة الأمريكية الجديدة، وأول ما يجب معرفته أن هذه الإدارة تعتبر امتدادا لعهد رونالد ريغان ولا شيء يجمعها بحكومة جورج بوش الأب، والأمر الثاني هو أن العرب ظنوا خطأً أن اليهود غابوا بغياب كلينتون عن صناعة القرار فيما يخص سياسة الشرق الأوسط - لم يعد هناك دنيس روس وساندي بيرغر ومادلين البرايت وآرون ميللر- هنا لقد راح يهود إدارة كلينتون إلا أن السلام لم يتحقق في الشرق الأوسط.

انتهى اللقاء عند الساعة الثانية صباحا. حينها رجعت إلى الفندق من دون أن أكون متأكداً من أن الأمير سيوافق على نشر ما قاله لي. وفي ظهر اليوم الثاني اتصل بي مستشاره الإعلامي طالبا مني أن أبعث له نسخة مما أود نشره كي يراجعها، وكي يخبرني بموافقة الأمير على ذلك. وفي الأثناء وبعد أن أمضيت بقية الأيام في مقابلات مع وزراء سعوديين وأعضاء من العائلة الحاكمة تبين لي أن الأمير لم يخبر أحداً بما قاله لي سواء من الوزراء أو أفراد أسرته. كما أنه لم يخبر سفارة بلاده في واشنطن بذلك، بحجة أن مساعده طلب مني أرقام هواتف مسؤولين أمريكيين كبار في وزارة الخارجية والبيت الأبيض، وحين سألته لماذا لا يحصلوا عن ذلك عبر سفارتهم من واشنطن، اتضح لي أنهم لا يرغبون في إشراكها في الأمر.

وفي مساء السبت وبعد أن عدت إلى الفندق من حفلة عشاء في بيت صحافي سعودي، أخبرني موظف الاستقبال بأن الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون كان قد اتصل بي وترك لي رسالة فيها رقم بيته في نيويورك. وحين اتصلت به أخبرني أنه تحادث مع شيمون بيريز ومساعده آري سافير حول إمكانية بدء التفاوض من جديد مع عرفات ومساعده أبو علاء، تقوم تلك المفاوضات على مبدأ الأرض مقابل السلام كما طرحها عرفات بنفسه، وبعد أن طلب مني كلينتون القيام بصياغة ذلك المقترح أبديت موافقتي على أن أقوم بذلك عندما أعود من رحلتي وأقوم ببعض الاتصالات داخل إسرائيل. كما أخبرته من جهتي عما حصل بيني وبين الأمير السعودي.

تم نشر المقالة يوم الأحد ١٧ فبراير/شباط في النيويورك تايمز ويوم الاثنين في الصحف السعودية بعد ترجمتها بالكامل إلى العربية وكانت مفاجأة للجميع هناك. كما تصادف ذلك مع بدء موسم الحج حيث سيحل بالسعودية مليونا مسلم قادمين من كافة أنحاء العالم الإسلامي في وقت واحد - مليونا مسلم إضافي ويهودي واحد.

لقد تساءلت عن دوافع الأمير عبد الله الحقيقية وراء كل هذا، بدون شك كان يهدف إلى تحسين صورة بلاده التي تضررت كثيرا بسبب ضلوع الكثير من السعوديين في أحداث ١١/٩، لكن مسعاه لا يقتصر على ذلك الهدف فحسب، بقدر ما يهدف إلى تقوية موقعه خارجيا وداخليا بالرغم من خطورة ما هو مقدم عليه أي دفع العائلة السعودية للاقتراب من إسرائيل بدون التشاور مع بقية أفرادها.

وبعد عودتي من السعودية اتصل بي مسؤول لبناني كبير من باريس قائلا: «توم، يمكنني أن أتصل بك من هنا، لأنه يمكن أن يتنصت على مكالماتي الفرنسيون أو الأمريكيون (لا السوريون)» مقترحا علي أن أتصل بوزير الخارجية السوري وأطلب منه إجراء حوار يعلن فيه دعمه للمبادرة السعودية وذلك لأن اللبنانيين راغبون في إنجاحها رغم معارضة السوريين لها، فأعلمته بعدم جدوى قيامي بمثل هذه المحاولة. كما اتصل بي عضو في الكنيست الإسرائيلي طالبا مني أن أشرح له جوهر تلك المبادرة، والشيء نفسه قام به أمير إحدى الدول الخليجية وما كان مني إلا أن شرحت لهم ما أقوله الآن. وبالنهاية اتضح لي أن الأمير عبدالله كان في مستوى ما يقول وطرح مبادرته تلك التي لقيت معارضة سورية مما أدى إلى كونها لا تتعدى المناداة بالقيام بتطبيع العلاقات بشكل عام. فهل كانت تلك فكرته حقيقة أم أنه أخذها عني وأعادوا تركيبها بشكل تنتقل منه السعودية إلى راعية سلام بدلا من كونها بلدا مصدر للإرهاب بأبخس الأثمان وذلك بسبب علمه المسبق أن شارون سيرفض مثل تلك الدعوة؟ لا علم لدي بذلك. لكني لا أستبعد شيئا.

لكن خلاصتي هي كالآتي: لئن كنت تمكنت بأي شكل من الأشكال من جعل قائد السعودية، أهم بلد إسلامي في العالم يقول علنا ولأول مرة إن بلاده مستعدة لتطبيع علاقاتها مع الدولة اليهودية مقابل انسحاب إسرائيلي كامل، أو لئن كنت ساعدت على الخروج من حالة الجمود وكسر حلقة العنف الدائر هناك، فإن ذلك أمر في غاية الأهمية، بحيث إن هذا سيصبح أول عرض سلام عربي منذ اجتماع كلينتون بعرفات في مخيم كمب ديفيد.

لكن وبقدر ما كان ذلك مثيرا فإنه لم يحرفني عن الغاية الرئيسية وراء زيارتي للسعودية، أي الحصول على فهم أفضل للقوى التي أنتجت هؤلاء الانتحاريين السعوديين الخمسة عشر.

السيد توم

في اليوم التالي لوصولي إلى الرياض سافرت بالطائرة إلى منطقة الربع الخالي - أكبر صحراء رملية في العالم - الواقعة في الجنوب الشرقي للبلاد وفي ذلك تلبية لدعوة من قبل وزير النفط والمعادن السعودي علي النعيمي الذي كان يقوم بجولة رفقة نظيره النرويجي والوفد الصحافي المرافق له شملت الحقل النفطي المكتشف حديثا في منطقة شايبه. وعند وصولنا هناك طلب منا مضيفنا الوزير السعودي وهو رجل ضخم قصير القامة وذو ذكاء ثاقب أن نتبعه مشيا فوق الكثبان الرملية، لذلك خلعنا أحذيتنا وثنينا سراويلنا وبعد أن قطعنا حوالي ميل في الصحراء بدأت الشمس في الغروب محولة الكثبان الرملية إلى محيط من الأمواج الرملية هي كل ما يمكنك أن تراه من حولك، وهو مشهد لم أر مثله في حياتي.

وبينما أنا جالس فوق الرمل تبينت لي المملكة العربية السعودية من الداخل ودرجة العزلة التي تعيشها، ومدى انقطاعها عن العالم الخارجي بفعل الجغرافيا أولا ونتيجة للثروة النفطية ثانيا، ما جعل هذه البلاد تتبع سياسة انتقائية جدا لمن تسمح له بالدخول. وكنتيجة لهذه العزلة الجغرافية والذاتية ظلت المملكة السعودية بلاداً تتحدث إلى نفسها لمدة طويلة بسبب أنها لم تتعرض إلى تحدّ خارجي ولم يخترقها أجانب. وهذا ما جعل أحداث ٩/١١، تشكل بمثابة الصدمة لها لأن العالم الخارجي وبدون أي إذن مسبق أو تأشيرة دخول اخترق حالة العزلة هذه طالبا أجوبة تتعلق بالانتحاريين السعوديين الخمسة عشر. كما أني فكرت في أنه من الطبيعي أن يكون لمثل هذا المناخ الطبيعي دور في نشأة تلك النسخة الصارمة والمتزمتة من الإسلام وبأنه إن لم تؤمن بإله واحد هنا فإنك لن تؤمن أبدا. لاشيء على الإطلاق يفصل عين الناظر عن السماء لاشجر أو حجر. وهذا ما يجعل من المستحيل أن تظهر البوذية هنا. وبحكم أن مقالاتي كانت قد ترجمت إلى العربية ونشرت في الجرائد السعودية أو في موقع النيويورك تايمز على الإنترنت، صرت أجد أناسا أينما ذهبت على دراية بما كتبت عن العربية السعودية. غالبا ما يدور

الحوار بيني وبين أي مثقف أو مسؤول أو رجل أعمال سعودي ألتقي به بشكل غير رسمي (وبالتالي لم يتلق تعليمات بأن يكون لطيفا معي) كالآتي:

ـ مرحبا أنا توم فريدمان.

ـ ذاك الذي يكتب عنا؟

ـ نعم، أنا هو.

ـ أنت هنا؟

ـ نعم، أنا هنا.

ـ وأحدهم منحك تأشيرة؟

ـ نعم، لقد جئت بتأشيرة، فأنا لست موجودا بطريقة غير قانونية هنا.

ـ دعني أخبرك أني أكره كل ما تكتب عن العربية السعودية. أعتقد أنك فعلا متحيز.

وغالبا ما تنتهي المحادثة كالآتي: «هل تريد أن تتناول العشاء في بيتي لأني أريد أن أعرفك على بعض الأصدقاء ممن يريدون فعلا التحدث إليك». وهكذا أينما حللت، الجميع يريد أن يتحدث معي كي يقنعوني أني مخطئ في نظرتي إلى العربية السعودية على أنها دولة مصدرة للإرهابيين الإسلاميين. لذلك أمضيت أغلب الوقت في نقاشات جماعية أحاور فيها خمسة أو عشرة وأحيانا ثلاثين شخصا دفعة واحدة. لقد كانت تجربة مضنية وشاقة ومرهقة ومسببة للإحباط بسبب الهوة العميقة التي تفصلنا عنهم في الميدان الثقافي والأخلاقي والديني والسياسي. كذلك أظهر أغلب الذين تحادثت معهم من الشباب السعودي المتعلمين عميق استيائهم مما تتعرض له بلادهم من حملات في الصحافة العالمية، وهذا ما حدث عندما اجتمعت بحوالي خمسة وعشرين ممرضا وممرضة والأطباء العاملين في مستشفى الملك فهد للحرس الوطني. وفي بداية اللقاء سلمتني الدكتورة المشرفة هناك وهي أيضا كانت قد تلقت تعليمها في الولايات المتحدة، رسالة كانت قد كتبتها قبل حوالي شهر ولم ترسلها بسبب عدم معرفتها لعنواني. احتوت رسالتها على مقاطع واستشهادات من العهد القديم والتوراة والتلمود تبيح استعمال العنف والقوة وكيف أن القرآن لا ينفرد وحده بالدعوة لاستعمال القوة. كما كتبت مشيرة إلى انزعاجها من إقدام بعضهم على إخراج أجزاء من القرآن وتفسيرها بمعزل عن سياقها العام التي وردت فيه، متسائلة ماذا سيحدث لو حصل الشيء نفسه مع

الكتب السماوية الأخرى. كما احتج دكتور آخر كان بين الحاضرين قائلا إن والده كان قد ألف كتبا إسلامية من بينها كتاب مستعمل بكثرة في المناهج الدراسية وأنه وإخوته وأخواته الخمس أصبحوا دكاترة يمارسون عملا إنسانيا، وتساءل كيف تنطبق حالتهم على ما يروج بأن الإسلام عقيدة عنف وقتل.

وأثناء حوار أجريته مع مسؤول حكومي رفيع المستوى على مدار ساعتين، سألني في النهاية عن صحة ما يقال بأن اليهود يسيطرون على كل البنوك ووسائل الإعلام في أمريكا- وباعتباري أول يهودي يجتمع به في حياته ترددت لحظة في القول: كيف عرفت ذلك. لقد ظننا أننا لن نذيع ذلك السر؟- لكنني حاولت قصارى جهدي أن أشرح له كيف أن البنوك والمؤسسات الإعلامية الكبرى هي عبارة عن شركات عامة يحق لأي كان الاشتراك فيها وأنها لا تخضع لسيطرة اليهود. والأمر المضحك فيما قاله لي هذا المسؤول الكبير هو اعتقاده أن جهاز مخابرات لدولة ما كان قد أشرف على تنفيذ اعتداءات ٩/١١، (في إشارة منه إلى الموساد أو السي.آي.اي) لقناعته بعدم قدرة العرب على تنفيذ عملية تتمتع بهذا القدر العالي من الكفاءة والفاعلية. حينها أخبرته بما سمعته يوم ٩/١١، من مسؤولي أمن ومخابرات في وزارة الدفاع الإسرائيلية باعتباري كنت في إسرائيل يومها، وكيف أن هؤلاء المسؤولين أقنعوني وشرحوا لي قدرة هؤلاء الشبان العرب على تنفيذ عمليات بهذه الكفاءة وذلك بعد أن تساءلت طارحا الفرضية نفسها التي تقولها أنت الآن. وهنا أخبرته أيضا بأن الوحيدين، على مايبدو، المقتنعين بقدرة العرب على القيام بذلك هم اليهود.

سبق لي أن صنفت الخاطفين إلى فريقين، المخططين (الأوروبيين) وأصحاب العضلات وأغلبهم سعوديون. لم يكن بإمكاني أن أستجوب أي من هؤلاء إلا أنني أستطيع القول أني أعرف هويتهم الآن. إنهم مثل بقية الملايين من الشبان السعوديين الذين أتموا تعليمهم الثانوي أو حتى الجامعي ولم يعثروا على أي وظيفة لا في القطاع الحكومي ولا في القطاع الخاص مما جعل نسبة البطالة تصل إلى ٣٠٪ في السعودية وذلك نتيجة لرفض السعوديين القيام ببعض المهن اليدوية مما أدى إلى الاعتماد على العمالة المستوردة من الخارج. أغلب هؤلاء هم أول مَن تلقّى تعليماً عالياً في أسرهم مما جعل أسرهم تفتخر بهم. وهذا ما جعل منظر الشبان العاطلين عن العمل جالسين في المقاهي أو يتسكعون في الشوارع منظرا مألوفا، خاصة إذا علمنا أن حوالي ٤٠٪ من مجمل سكان السعودية هم دون سن الرابعة عشرة لا ينتظرهم أي مستقبل باهر. وهذا ما

جعل نسبة كبيرة من هؤلاء الشباب يتجهون إلى المساجد والحلقات الدينية تحت إشراف أئمة متشددين ينشرون تعاليم الكراهية وعدم التسامح مع كل من هو غير مسلم وكافر. وبالنتيجة انخرط هؤلاء الشبان في تنظيم القاعدة وشاركوا في العمليات الجهادية في أفغانستان ضد الروس. ومن هنا بدأت تحاك مؤامرة ٩/١١ ببطء وهدوء وفق ما كتبه المعلق السعودي سعد الموسى في جريدة الوطن بتاريخ ٢٤ ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠١ متحدثا عن بعض منفذي ٩/١١، القادمين من المنطقة نفسها التي جاء منها هو- منطقة عسيرالجبلية الواقعة في الجنوب الغربي للسعودية بالقرب من الحدود اليمنية- شارحا كيف تم التغرير بهؤلاء الشباب. هذه هي الصورة العامة: شباب سعودي عاطل عن العمل أو يؤدي وظائف بسيطة لا تتناسب مع مستواه جعله فريسة سهلة لدعاة القاعدة، كما أن هذا الوضع أصبح مصدر خوف كبار المسؤولين الأمريكيين المختصين بالشأن السعودي، لأنهم وجدوا السعودية قد أصبحت أكثر شبابا وأكثر فقرا وأكثر تدينا وأكثر عداء لأمريكا على مر الأيام.

الليبراليون العرب والمسلمون

في أبريل/نيسان ٢٠٠٢، عدت إلى كل من الأردن وإسرائيل ودبي وأندونيسيا كي أرى كيف تغيرت الأوضاع عما كانت عليه عندما كنت هناك في سبتمبر/أيلول ٢٠٠١. ولنبدا بالأردن أولا، هناك وبعكس زيارتي الأولى وجدت أن آرييل شارون كان قد أصبح موضع حديث الجميع بدلا من أسامة بن لادن. كما وجدت معظم أصدقائي العرب- أغلبهم من الليبراليين ممن يرغبون في رؤية مجتمعاتهم تتجه نحو الحداثة بدلا من الاستمرار في حالة الركود الراهنة - قد أصابهم الإحباط مما أقول وذلك لأن هؤلاء الليبراليين كانوا قد تحمسوا للأحداث التي أعقبت ٩/١١، آملين أن يؤدي ذلك في نهاية المطاف إلى حدوث ضغط أمريكي على الحكام العرب المستبدين بأن يتوخوا مزيدا من الانفتاح والقيام بإصلاحات تعالج المشاكل الداخلية التي أسهمت في ظهور البن لادنية وتمهد الطريق لإيجاد حل نهائي للقضية الفلسطينية.

إلا أنه وبحلول ربيع ٢٠٠٢ تبخرت كل هذه الأمال، وهذا ما حدا بأصدقائي العرب هؤلاء إلى طرح السؤال التالي بإلحاح: «لماذا لا ترى ما يفعل شارون بنا؟ إنه يشعل كل العالم العربي بما يقوم به، كما أنه خرب برنامج الليبراليين العرب

الإصلاحي». وكان ردي عليهم بأننا لم نكن لنواجه شارون فيما لو اختار ياسر عرفات التفاوض والقبول بما اقترحه بيل كلينتون.

من جهتي يمكنني أن أتفهم سبب إحباطهم ذاك. لأنهم علقوا الكثير من الآمال على اتفاقية أوسلو (والأمر نفسه ينطبق علي أنا أيضا)، وحلموا ببناء مستقبل أفضل لهم ولأولادهم، وليس مجرد مستقبل خالي من الحروب بل بوجود حكومات أفضل وفرص أفضل تخولهم النهوض بواقعهم الذي عانى كثيرا على يد أنظمة فاسدة. وهذا ما شهدناه في أواسط التسعينات حين كان مسار السلام كما نصت عليه اتفاقية أوسلو، حيث برز إلى السطح هؤلاء الليبراليون، وكما يجب ألا نغفل حقيقة أن ذلك المسار السلمي كان يتجاوز في مغزاه مجرد الصلح بين العرب وإسرائيل، بل إنه كان عبارة عن محرك وباعث وأرضية تتحرك من خلالها جميع القوى التقدمية في الشرق الأوسط. وقد سنح لهؤلاء ولأول مرة منذ قرن تقريبا على مواجهة سؤال آخر غير سؤال من يحكم فلسطين؟ والتعامل مع أسئلة أخرى تخولهم الإجابة عنها باللحاق بركب العالم المتقدم مثل سؤال: كيف سنعلم أولادنا؟ وأي نظام اقتصادي سنتبنى؟ وأي دستور ومنظومة قوانين سنتبع؟ وهذا لا يعني أن هؤلاء الليبراليين لا يهتمون بالقضية الفلسطينية، أو ببقية المجتمعات الأخرى، فهم على العكس من ذلك تماما، حريصون على إيجاد حل للقضية الفلسطينية حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية. إن هؤلاء على طرفي نقيض من القوميين ومن المثقفين والحكام المستبدين الذين لا يرغبون في الوصول إلى حل لهذه المشكلة التي يمكنهم بفضلها التهرب من مواجهة قضاياهم الداخلية. وخلال اجتماعي بنخبة من رجال الأعمال الأردنيين المقربين من الملك عبدالله، بعد أن أصبحت أخبار العنف الإسرائيلي الفلسطيني هي المسيطر على الساحة وذلك بفضل القنوات الفضائية العربية التي تتسابق في عرض وبث أكثر صور العنف بشاعة بشكل أدى إلى عرقلة برنامج الملك عبدالله الإصلاحي الهادف إلى إصلاح المنهج التعليمي الأردني وتوزيع أجهزة الكمبيوتر على المدارس وربطها جميعا بشبكة الإنترنت وإطلاق مشاريع تنموية بالريف الأردني. والشيء نفسه سمعته من الملكة رانيا عندما ذهبت لإجراء حوار معها ومع زوجها في مقرهما بالعقبة.

إن انهيار عملية السلام مضافا إليها أحداث ٩/١١، أدى إلى هروب المستثمرين والسياح من منطقة الشرق الأوسط. (عندما كنت أتجول وسط مدينة القدس القديمة قبل يومين من قدومي إلى عمان، قال لي تاجر فلسطيني دخلت إلى دكانه إني أول من يدخل

محله منذ خمسة أيام. كما ناداني تاجر آخر طالبا مني أن أدخل إلى دكانه حتى أكون أول وآخر زبون في ذلك اليوم). وفي الوقت الذي تسعى فيه الأردن إلى كسب ذلك السباق نجد كل من مصر وسوريا والسعودية غير مهتمة بهذا المسار، خاصة بعد أن منحهم تجدد العنف الإسرائيلي الفلسطيني عذرا آخر كي تتجنب أنظمتهم القمعية القيام بأي إصلاحات باتجاه الحداثة والديمقراطية مثلما فعلت دول شرق آسيا مثلا. إلا أن هناك العديد من الليبراليين العرب ممن نحتاج إليهم إن كنا راغبين في سد الشرخ الكبير الذي أحدثه بن لادن فيما يخص علاقة العالم العربي والإسلامي بالغرب.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكننا أن ندعم هؤلاء الليبراليين الموالين لنا؟ هنا يجب علينا أن نحل القضية الفلسطينية أولا أو أن نسعى بجد في ذلك الاتجاه. وأن نتجاوز وهم إدارة جورج بوش الحالية بأن مجرد التخلص من صدام وتنصيب نظام ديمقراطي في بغداد سيحل جميع المشاكل العالقة في الشرق الأوسط ويؤدي إلى نشر الحداثة والديمقراطية هناك. طبعا هذا خطأ فادح حتى وإن قمنا بذلك بشكل صحيح ستظل القضية الفلسطينية - إن تجاهلناها - مصدر إعاقة لأي محاولة تطوير في المجتمعات العربية والإسلامية، وستظل تكبل محاولات الإصلاحيين الحقيقيين وستبقى في الوقت نفسه حجة المستبدين للحفاظ على الوضع القائم. يجب إلا نغفل حقيقة وجود هؤلاء الإصلاحيين الحقيقيين في تلك المنطقة. لقد سمعت منهم كثيرا منذ أحداث ١١/٩، واتصل بي عدد منهم - أغلبهم نساء - ليعبروا لي عن المأزق الذي يعيشونه، كما أنهم يعرفون تحديدا ما يجب عمله، وهذا سبب معاناتهم. كما أنهم يعون جيدا أنهم مقيدون بوسائل إعلام كاذبة وحكام أكذب وزعماء دينيين لا علاقة لهم لا بالواقع ولا بالحقيقة. ربما كان على بعض هؤلاء الليبراليين أن يتحلوا بشجاعة أكثر، إلا أن بعضهم إتخذ مواقف رائعة بالرغم من معرفتهم بما سيتعرضون له من سجن وإقصاء وتعذيب بسبب معارضتهم العلنية لحكامهم. لذلك يكتب لي هؤلاء ليس لأنهم يتفقون معي بل لإحساسهم أني مهتم بوضعهم وأرغب في رؤيتهم ينجحون في مسعاهم وهم محقون في ذلك. وكمثال على ما أقول، إليكم هذه العينات مما تلقيته من رسائل: رسالة بالبريد الإلكتروني وصلتني من امرأة أمريكية مسلمة تقول فيها: «نحن شبابكم الجيل القادم من المسلمين، أخواتكم وإخوتكم ونظرائكم. الكثير منكم يعتبر من الرواد ممن نشروا عقيدتنا الغراء الإسلام في هذه البلاد، وباعتبار أننا نحترم آراءكم نطلب منكم أن تشاركونا مخاوفنا... لقد شاهدنا بكل عجز كيف تم قتل أصدقائنا وعائلاتهم

وأبنائهم خلال الاعتداءات الإرهابية على مركز التجارة العالمي والبنتاغون. . . لقد كان هؤلاء الإرهابيون بكل أسف من نادى بصوت عال باسم الإسلام في أمريكا. حين جاءت عائلاتنا إلى هذه البلاد بحثا عن الحرية والعدالة والسلام وحياة جديدة لم يتخيلوا أن يرث أبناؤهم ذلك في يوم من الأيام. لذلك يجب ألا نسمح للإرهاب أن يكون أعلى صوت منادي باسم الإسلام ونمنح الجالية المسلمة المعتدلة صوتا مسموعا. . . كما أننا نطالب المسلمين بشجب هؤلاء الإرهابيين باعتبارهم «أعداء الإسلام» بقطع النظر عما يؤمنون به عن القضية التي يدافعون عنها».

وهذه رسالة أخرى مؤثرة وصلتني يوم ١١ أيار/مايو ٢٠٠٢ من صديق عربي بعد أن سألته عن رأيه فيما يحدث بين الفلسطينيين والإسرائيليين: «عزيزي توم، لقد أصبح الليبراليون العرب جنسا نادرا اليوم إما باكتساب جنسية أخرى أو عن طريق إسكاتهم بالقوة وتهميشهم من قبل الحكام المستبدين من جهة أو من قبل قوى التطرف الإسلامي من جهة أخرى. وهكذا أدى القمع والاضطهاد اللذان عاشوهما على مدار العقود الماضية إلى تغييبهم من النسيج الاجتماعي ومن الثقافة السياسية. وهذا ما دفع بحركات التطرف الإسلامي الرامية إلى سد الفراغ الناتج عن غيابهم خلال العشرين سنة الماضية، بحيث أصبح ذلك من أتعس إنجازات الأنظمة العربية المستبدة. حقيقة لا وجود لتنظيمات إصلاحية قادرة على مواجهة الاستبداد الرسمي للأنظمة الحاكمة حاليا، ولكن هناك معارضات إسلامية تظهر بين الحين والآخر ممولة نفطيا، تناضل من أجل حرية الأفراد ومن أجل الانعتاق وفي سبيل تعليم الفقراء والمحرومين لإخراجهم من وضعهم البائس. وحدها هذه المعارضات من يطرح بديلا في الوقت الذي خنعنا فيه نحن الليبراليون للصمت والخوف مما تسبب في معاناتنا على امتداد سنوات طويلة في القرن العشرين. لذلك كان لنا دور كبير فيما آلت إليه الأمور إلى هذه الحالة المزرية التي نعيشها. لكن القول إن ما فيه نحن هو من صنع أيدينا يعتبر تزويراً للتاريخ لا يقل عن بكاء العرب وشكواهم من وضع كهذا. . . في معظم الأحيان يجد الإصلاحيون العرب أنفسهم في تناقض مع الولايات المتحدة حين يعارضون السياسات الرجعية لحكامهم. . . لقد دأبت الولايات المتحدة وباستمرار على دعم ومساندة حكام رجعيين فاسدين، كما أنها عملت على تقوية وتمويل الحركات الأصولية في العالم العربي بحجة التهديد الروسي، وهذا خيار خاطئ وواهم. . .».

وفي ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٢ تلقيت رسالة بالبريد الإلكتروني مؤثرة من سيدة

سعودية. رسالة تجعل المرء يشعر بكثرة عدد أولئك الطيبين من الناس هناك الذين يشكلون قاعدة هامة من حلفاء المستقبل لما تنوي أمريكا القيام بإصلاحات في تلك المنطقة من العالم. وهذا بعض ما جاء في تلك الرسالة: «عزيزي السيد فريدمان، فكرت في كتابة هذه الرسالة كي أشكرك كسعودية متواضعة على تعرضك لما يجري في المملكة العربية السعودية... إننا نريد من العالم أن يعرف حجم معاناتنا ككائنات بشرية من تسلط الرقابة الدينية على عقولنا وعلى أرواحنا. لا يمكننا نشر أي شيء يتعارض مع ما هو سائد لا في الجرائد ولا في الكتب. السيد فريدمان إن مدارسنا تعلم عدم التسامح الديني، ومعظم مساجدنا تدعو إلى كراهية غير المسلمين. كما يخضع إعلامنا إلى رقابة صارمة من قبل الحكومة ومن قبل رجال الدين. لا مجال لنا للإفصاح عن آرائنا المعتدلة... مشكلتنا تكمن في أن ما هو متوفر للشباب السعودي يقتصر على نمط واحد متجانس من التفكير يمنع أي شيء آخر مختلف منه باعتباره خطيئة... كما أن شبكة الإنترنت تخضع لرقابة صارمة من قبل مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتكنولوجيا التي تقرر نيابة عنا ما هو جيد وما هو ليس كذلك... السيد فريدمان، نحن بحاجة إلى مساعدة، إننا نعاني منذ زمن طويل. أنا كامرأة سعودية لدي العديد من المواهب والاهتمامات والأحلام والآمال كأي شخص آخر في العالم، لكني لا أستطيع القيام بما أريد فقط لأني امرأة سعودية! إن الإسلام المتبع في السعودية يعلم الناس عدم إعطاء المرأة حق قدرها. لا يمكنني القيام بالوظيفة التي أريد ولا الذهاب إلى الجامعة التي أريد، وفي حال أني حصلت على وظيفة سأتعرض للمعاكسة وستتم معاملتي بطريقة تختلف عن بقية زملائي من الرجال... كما تقرر الشرطة الدينية ما يجب علي أن ألبس وكيف يجب علي أن أتصرف... أنا أحلم باليوم الذي أحقق فيه استقلالي وأملك فيه سيارتي الخاصة، أحلم بأن أتمتع بحقوقي كاملة ككائن بشري. إن النساء السعوديات في حاجة إلى قلمك. السيد فريدمان، آمل وأرجو منك أن تنشر رسالتي هذه بدون أن تذكر إسمي. مع جزيل الشكر».

أما مثلي المفضل فيما يتعلق بهذا النمط من التفكير في العالم العربي والإسلامي، فهو عبارة عن مقالة كتبها الناقد الشجاع والكاتب المسرحي المصري علي سالم ونشرتها له جريدة الحياة اللندنية يوم ٥ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠١، سخر فيها صاحبها علنا من الطريقة التي يتصرف بها المثقفون العرب سواء في البرامج التي تبثها الفضائيات العربية أو ما تنشره الصحافة لهم من كتابات يحثون فيها العرب على المزيد من الغضب

المدمر ذاتيا. وهذا بعض مما كتبه علي سالم: «أنا أبحث عن ممولين لتأسيس روضة أطفال حديثة للتطرف. أعطوني أطفالكم وسأقول لهم ما يلي: أيها الأطفال لا تصدقوا أن الآخرين يعبدون إلهاً واحدا مثلنا، إنهم كفار يعبدون آلهة مختلفة... لا تصدقوا ما يقال عنهم بأنهم متمسكون بالحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والحضارة، إنهم كذابون غشاشون. كما أنهم يكرهوننا لأننا أفضل وأعظم وأقوى منهم. وكما تلاحظون أن حبهم للحياة هي نقطة ضعفهم التي سنستغلها نحن لصالحنا، لأننا على العكس منهم نحب الموت ونتشبث به، ولا تصدقوا أن الله خلق لنا الحياة كي نحيا ونشيد ونتمتع، بل إن الله خلقنا كي يختبر قدرتنا على التمرد ضد الحياة ونزدريها ونهدرها في أول فرصة تسنح لنا... أعزائي الأطفال: لتكرهوا الشواطئ والأزهار والورود. اكرهوا حقول القمح، اكرهوا الأشجار، اكرهوا الموسيقى، اكرهوا كل التعابير الفنية والأدبية و التجارب العلمية. اكرهوا الحنان. اكرهوا عائلاتكم وبني وطنكم. اكرهوا الآخرين - كل الآخرين. اكرهوا أنفسكم. اكرهوا أساتذتكم. اكرهوني أنا. اكرهوا هذه المدرسة. اكرهوا الحياة بكل ما فيها. وتفضلوا الآن إلى الدرس».

قرية كونية

بالرجوع إلى جميع المقالات السابقة وإلى هذه المذكرات أجدني مدين للقارئ بالإجابة على سؤال واحد أخير: ما هو المعنى الحقيقي لأحداث ١١/٩؟ وماذا استخلصنا منها؟. أحياناً نكتشف أن بعض الأحداث التاريخية تبدو أصغر مما ظهرت عليه أول الأمر، أما أحداث ١١/٩، فإنها على العكس من ذلك تماما، لأني متأكد من كونها تنتمي إلى فصيلة تلك الأحداث التاريخية الكبرى التي نكتشف مدى ضخامتها وأهميتها لاحقا. كما أننا لسنا في المرحلة النهائية لبداية فهمها وفهم مضاعفاتها، ولسنا حتى في نهاية البداية، بل إننا لا زلنا في مرحلة بداية البداية.

أكتب هذه الكلمات وأنا جالس في فندق قلعة داوود بالقدس متأملا جدران مدينة القدس القديمة المضاءة في الساعات الأخيرة من يوم ٢٥ أبريل/نيسان ٢٠٠٢. لقد عدت إلى هنا بعد أن شاء القدر أن أتواجد يوم ١١/٩، باعتبار أن جدران مدينة القدس العتيقة تمثل الخلفية المناسبة لما أود قوله ولأن أحداث ١١/٩، تتعلق حسب رأيي بالجدران.

ما المقصود بذلك؟ إن ما مثلته تلك الأحداث من صدمة للأمريكيين وبقية العالم المتحضر هو قدرتها على إحداث شرخ كبير في جدار الحضارة. وإذا كان بالإمكان تجنيد تسعة عشر شاب متعلم لاختطاف أربع طائرات وتفجيرها في مركز التجارة العالمي والبنتاغون وقتل حوالي ثلاثة آلاف شخص بريء، فإن أي شيء أصبح ممكناً وجائزاً. وذلك لغياب واندثار أي موانع حضارية كانت تحد في السابق من تصرفات البشر. وهكذا تم هدم وتدمير جدار حضاري كبير. إن الأمر لا يقتصر على هدم جدار السلوك المتحضر بل إن ذلك تم في زمن - وبفضل العولمة - شهد تدنيا متزايدا لحجم العوازل الفاصلة بين الشعوب والدول نتيجة للتطور الهائل الذي شهده ميدان الاتصالات. وهذا ما سمح للعالم أجمع بمشاهدة عملية تفجير برجي مركز التجارة على الهواء مباشرة، وما سمح للناس بالاتصال ببعضهم البعض فورا وتبادل ما شعروا وحسوا به وهم يشاهدون ذلك. كما أن أحداث ٩/١١، ساهمت في إطلاق مشاعر حبيسة في عالم أصبح من الممكن أن يتم فيه نشر وتبادل وتضخيم تلك الأحاسيس أكثر من أي وقت مضى - بفضل انتشار القنوات الفضائية المستقلة والإنترنت والهواتف الجوالة وبقية أجهزة الاتصال العصرية. لذا صحيح أن العولمة قد زادت من درجة التواصل التكنولوجي بين الناس وانكماش حجم العالم، إلا أن ذلك لم يتزامن مع المستوى المطلوب من الفهم المتبادل بين الثقافات والدول والحضارات مما خلق نوعاً من عدم التوازن. وبالرغم من كوننا أصبحنا متواصلين تكنولوجيا فقد صرنا أكثر تباعدا ثقافيا وسياسيا أكثر من أي وقت مضى. وفي الحقيقة نجد أن التكنولوجيا أسهمت بوضوح في جعل التفاهم بين الناس أكثر صعوبة والفضل في ذلك يرجع إلى الإنترنت والقنوات التلفزية الفضائية لأنه أصبح بإمكان أي شخص أن يشاهد الأخبار التي تروق له فقط بدون الاطلاع على ما يفكر فيه الطرف المقابل. وبالنتيجة تكون كل الآراء والأحكام المسبقة قد تم تأكيدها. مثلا كنت أشاهد القناة الإخبارية العربية (اي. ان. ان) ذات الإقبال الواسع خلال تواجدي في مطار دبي في ساعة متأخرة من الليل، لقد اقتصر محتوى العرض على مشاهد تعرض ما يقوم به الإسرائيليون من ضرب وركل وإطلاق نار على الفلسطينيين. ولم يتم التعرض أو ذكر الانتحاريين الفلسطينيين، ولم يكن هناك أي تعليق على الإطلاق. فقط كانت هناك مشاهد عنف مصحوبة بموسيقى عسكرية. وبينما كنت أشاهد ذلك قلت لنفسي «لا غرابة أن يكون ولي العهد (السعودي) عبدالله غاضبا إلى تلك الدرجة مما يمارسه الإسرائيليون من عنف ضد الفلسطينيين إذا كانت مشاهداته تقتصر على هذه البرامج فقط».

ومن جهة أخرى نجد الحال نفسها تتكرر مع اليهود الأمريكيين الذين يحصلون على الأخبار الإسرائيلية مما تنشره جريدة «جيروساليم بوست» اليمينية، وفقا لما يتماشى تماما مع رؤاهم غير المتوازنة. والدور نفسه تلعبه الإنترنت، خاصة وأنه لم يعد هناك من ينتظر نشرة أخبار السي.ان.ان أو البي. بي. سي للحصول على أخبار نزيهة ومحايدة. إذ نجد أن الإنترنت تخولك انتقاء ما تشاء من الأخبار من مصادر هي بالأساس مطابقة لما تعتقده أنت. كما أصبح بإمكان الشباب العرب اليوم أن يتبادلوا بشكل حي ومباشر عبر البريد الإلكتروني صور ما يحدث في مخيم جنين أو في أي مكان آخر من الضفة الغربية قبل أن تتمكن أي جريدة من نشر ذلك بوقت كثير. علما أني تلقيت الكثير جدا من تلك الصور. لكن ما مدى موضوعيتها؟ ومن التقطها ومتى؟ لا أحد يعلم.

وما يزيد من خطورة الوضع هي الهالة التكنولوجية المحيطة بالإنترنت مما أضفى عليها مصداقية فورية لدى البعض، حيث تسمع أحدهم يقول «يجب أن يكون ذلك صحيحا، لقد قرأته في الإنترنت». وذلك بالرغم من حقيقة كون شبكة الإنترنت هي قناة كونية لمعلومات خام غير منقحة وغير معدلة. وهكذا لم تعد هذه الشبكة أسرع طريقة لجعل الناس أذكى فحسب بل ولجعلهم أغبى كذلك. ولقد أصبح لإشاعات روجت على الشبكة مصداقية فورية وكأنها حقائق دامغة خاصة بين الفئات الأقل تحصيلا علميا ممن لم يتوفر لهم شخصيا الحصول على خدمات الإنترنت إلا أنهم سمعوا أحدهم من النخبة المحيطة بهم يردد كلاما يقول إنه وجده في الإنترنت. وأصدق مثال على ذلك هي الدعاية التي تقول إنه تم تحذير أربعة آلاف يهودي ونصحهم بعدم التوجه إلى مركز التجارة العالمي يوم ٩/١١. يشبّه المنظّر السياسي الإسرائيلي آرون أزراحي ذلك بما شهدته البشرية في الثلاثينات من القرن الماضي حين بدأ استعمال آلة التصوير (الكاميرا) في الانتشار، حينها قال الناس «يستحيل على الكاميرا أن تكذب» إلى أن اكتشفوا فيما بعد أنه لو تم استعمال الكاميرا بطريقة ما يمكن تحويلها إلى أداة مهمة في تشويه الحقيقة. هنا تتساوى الإنترنت مع الكاميرا بالرغم من أن العديد من الناس لم يدركوا ذلك بعد. والأمر نفسه تحدث عنه الكاتب جورج باكير في مقالة نشرتها مجلة «نيويورك تايمز ماغازين» بتاريخ ٢١ أبريل/نيسان ٢٠٠٢، حين شرح الآثار الخطيرة التي يمكن أن تترتب على سوء استعمال تكنولوجيا الاتصالات الحديثة بما في ذلك الإنترنت والقنوات الفضائية التلفزية وبقية وسائل الإعلام الأخرى التي لم تساعد بالرغم من

التقدم التكنولوجي المذهل من جعل الناس أكثر تفهما وتقبلا لبعضهم البعض.

ومن جهتي كانت هذه النتيجة نفسها التي استخلصتها من أسفاري حول العالم منذ ٩/١١، حين بدا لي أن الأمور لم تتجه نحو الأفضل إذ كان رد الفعل الغريزي لدى الكثيرين في تشييد العديد من الجدران حماية لأنفسهم من الأخطار المحدقة بهم. وهذا ما يفسر مدى خطورة وتهديد ظاهرة بن لادن للعالم في شكله المعاصر المتجه نحو اندماج أكثر بسبب العولمة. لذلك عندما يشاهد الأمريكيون أو غيرهم كل هذا الغضب والكراهية الموجهة ضدهم سيلجأون أولا إلى بناء جدران عازلة وحامية لهم. غير أن هذا لا يتعدى أن يكون حلا في المدى القصير، لأن الحل البعيد المدى يتطلب منا البحث عن طرق نغير بها من مواقف وآراء الآخرين، أو على الأقل نقلل من حدة الفوارق الثقافية والسياسية التي تفصلنا عنهم بشكل يؤهلنا جميعا لاقتسام هذا الكوكب الذي نتواجد فيه جميعا. وهذا عمل لا يمكن القيام به عبر الإنترنت، لما يتطلبه من تفهم وبذل مجهودات دبلوماسية وتعليمية وتواصل على المستوى الفردي كما قال لي ريتشارد داي، بروفسور علم النفس بالجامعة الأمريكية في بيروت سابقا: «علينا أن نفهم بعضنا البعض بشكل أفضل لاعتماد حياتنا على درجة ومستوى ذلك الفهم بشكل لم يكن مطلوباً في السابق، لم يعد بإمكان الجهل أن يجعل حياتنا أفضل»، وبعد أن كتبت عن هذا الموضوع في مقالة، بعث لي آلن غودمان رئيس المعهد العالمي للتربية برسالة مهمة يشرح فيها رأيه حول هذا الموضوع مستشهدا بما حدث مع وزير التربية الأندونيسي عندما زار أمريكا لأول مرة حين كان طالباً. لكن يجب القول إن الكثيرين أدركوا أهمية هذه المسألة بعد ٩/١١، وهو ما يفسر الإقبال الواسع على الكتب المتعلقة بالإسلام والعالم العربي والقرآن، إذ كانت الكتب المتعلقة بهذه المواضيع من بين المائة كتاب الأكثر مبيعا على شبكة (أمازون دوت كام)، كما أني أتمنى لو قام العرب بالمثل وأقبلوا على قراءة كتب عن الحضارة الأمريكية، لأن الرغبة في فهم الآخر يجب أن تصدر عن كلا الطرفين. وهذا ما يجعل ستيفن كوهين خبير شؤون الشرق الأوسط على حق حين قال: «إما أننا سنحتاج إلى حرب ضمن الحضارات المختلفة تندلع داخليا بين الراغبين في معانقة الحداثة والتكامل والتعايش بين الأديان والثقافات ومختلف الناس وبين الرافضين لكل ذلك أو أننا سننتهي إلى حالة صراع بين الحضارات». حينها لن يقدر أي جدار مهما كان عاليا ومهما كان سميكا على حمايتنا من تبعات هذا الصراع في هذا العصر التكنولوجي.

جدران

أعتقد أنه من المنطقي أن أختم هذه المذكرات من حيث بدأت فعلا، أي أطلال مركز التجارة العالمي. في أبريل/ نيسان ٢٠٠٢ كنت حاضرا في حفل حين تقدم مني مراسل طويل القامة، اسمه جايمس غلانس أحد أكبر محرري قسم الشؤون العلمية في جريدة «نيويورك تايمز»، ليقول لي إنه وبعد مرور حوالي شهرين على تدمير برجي مركز التجارة العالمي، كان من بين أول فريق من المراسلين الصحفيين ممن سمح لهم بالقيام بجولة ميدانية في ستة طوابق تحت الأرض التابعة لمركز التجارة. لم يتقدم مني ليخبرني بذلك، بل ليقول لي إنه وجد هناك بين الخرائب والدمار شيئا ما يخصني. وبعد أن أسهب في وصف ما حلّ بذلك المبنى من دمار وتخريب، قال لي إنه عثر على عدد جريدة «نيويورك تايمز» الصادر في ذلك اليوم (أي ٩/١١) وفيه عثر على مقالة لي نشرت يومها تحت عنوان «جدران». وحدثني عن الجدران التي تم اختراقها ذلك اليوم، جدران المسافات البعيدة التي ظن الأمريكيون أنها قادرة دائما على حمايتهم من بقية العالم، وكذلك الجدار المحدد لما يمكن أن يكون عليه السلوك البشري وكيف تم اختراقه يومها أيضا، والمصير نفسه لقيته الجدارن التي يقوم عليها المعبد المدني للأمريكيين، أي مركز التجارة العالمي حين انهار على العاملين فيه. كيف يمكننا التأقلم على العيش في عالم تقوم التكنولوجيا بهدم جدرانه العازلة بشكل يومي - مما سهل علينا الاتصال والإتجار والاندماج فيما بيننا، وفي الوقت نفسه صار بإمكان جماعات صغيرة جدا أن تحدث درجة كبيرة من الخراب والفوضى على بعد آلاف الأميال - هذا هو التحدي الذي نواجهه في هذا القرن الجديد. نهاية رغبت دائما في أن أحيا عمرا طويلا وأتمتع بصحة جيدة، وأن أرقص في عرس ابنتيّ وأن أتمكن من مزاولة لعبة الغولف وأنا في الثانية والسبعين. إنني أحس برغبة قوية في تحقيق ذلك أكثر من أي وقت مضى والسبب الوحيد في ذلك هو رغبتي الجامحة في رؤية ما ستؤول إليه الأمور فعلا.

المحتويات

هذا الكتاب

منذ البدء كان لدي دافعان اثنان للكتابة:

أولهما ناتج عن الرغبة في فهم من هم هؤلاء الانتحاريون التسعة عشر الذين دخلوا في حياتنا يوم ١١/٩، وما هو دافعهم للقيام بما قاموا به، ثم ما هو دافع شريحة كبيرة من العالم العربي والإسلامي لمساندتهم في ذلك.

